

بين القوقاز والنيل

فلاديمير بلياكوف
جينادي جورياتشكين
وآخرين

ترجمة

منى الدسوقي أماني التفتازاني

د. محمد رياض نشوى نوح



الناشر

أنداء روسيا

Russia News

www.russiannewsar.com

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعي
secertary_ert@yahoo.com

المراسلات

القاهرة - مدينة العبور

44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي

قطعة 26/4/85 ص.ب. 72.

Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 071

الإخراج الفني

أحمد عثمان

تصميم الغلاف

مي مجدي

التصحيح والمراجعة / خالد بيومي

مراجعة اللغة الروسية / يلينا ارخونتوفا

الطباعة

دار الطباعة المتميزة

مدينة العبور - القاهرة

Tel. & Fax: + (202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى 2016

دار نشر أنباء روسيا

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا
الكتاب إلكترونياً أو ضوئياً دونما إذن
كتابي من الناشر.

رقم الإيداع

2015/21355



المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم

При содействии
Египетско.Российского
Фонда культуры и наук

رئيس مجلس الأمناء رئيس مجلس الإدارة
د. حسين الشافعي اد. فيتالي ناؤمكين

معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية

بين الفولجا والنيل

مجموعة مقالات مختارة من مجلة "الأرشيف الشرقي"
فلاديمير بيلياكوف وجينادي جورياتشكين وآخرون

تقديم

د. حسين الشافعي



بالتعاون مع



معهد الاستشراق - أكاديمية العلوم الروسية



المؤسسة المصرية للعلوم والثقافة

القاهرة - ٢٠١٦

مقدمة

نُشرت المقالات التي وردت بهذا الكتاب على مدى أعوام مختلفة بمجلة "الأرشيف الشرقي"، وهي دورية علمية يصدرها باللغة الروسية معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية منذ العام ١٩٩٨ ومن المعروف أن هذا المعهد قد تأسس في العام ١٨١٢. وتصدر هذه الدورية مرتين سنوياً، وتنشر وثائق أرشيفية، ومذكرات بالإضافة إلى مقالات تستند إلى مواد جديدة. كما أن مؤلفي هذه المقالات ليسوا بالضرورة من أساتذة معهد الاستشراق بل إن هناك باحثين آخرين من مراكز أخرى لعلوم الاستشراق في موسكو، وسانت بطرسبورج، وقازان، وخاباروفسك، وزملاء من الخارج.

يضم هذا الكتاب الذي أختير له عنوان "بين الفولجا والنيل" مجموعة المقالات التي تتناول مصر وعلاقتها مع روسيا، والتي نُشرت في مجلة "الأرشيف الشرقي"، وهي مقالات متنوعة في مضمونها: البعض منها يتناول روسيا، وديرسانت كاترين في سيناء، وأعمال البعثة الأثرية الروسية في الجيزة، ومصير أول قنصل روسي في مصر، وأخر مبعوث من قبل القيصر الروسي لمصر، والجالية الروسية في بلاد الأهرامات، والأسرى المصريين في روسيا، وإقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفيتي، وذكريات دبلوماسيين سوفيت و لقاءاتهم مع الرئيس جمال عبد الناصر.

الدكتور فلاديمير بيلياكوف الباحث الشهير بمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية، يأخذنا في جولة بين وثائق وأرشيفات مهمة تسجل أحداثاً مهمة في تاريخ العلاقات المصرية- السوفيتية يبدأها بفتح صفحات تقرير- ينشره للمرة الأولى- أعده الدبلوماسي السوفيتي البارز فلاديمير فينوجرادوف الذي كان يشغل آنذاك منصب نائب وزير الشؤون الخارجية للاتحاد السوفيتي (١٩٧٠م-١٩٧٤م)، ثم عمل سفيراً لدى مصر (١٩٧٤م-١٩٧٧م). لا يكتفي فينوجرادوف في هذا التقرير بذكر اللقاءات التي جمعته بالزعيم جمال عبد الناصر، وإنما يلقي الضوء على السياسات التي انتهجها الاتحاد السوفيتي السابق تجاه منطقة الشرق الأوسط في تلك الفترة من التاريخ وما زالت تدور حولها النقاشات حتى الآن.

وقبل أن نفيق مما ورد في تقرير فينوجرادوف هذا ، يعود بنا ديمتري فرومين سنوات للوراء ليحكى لنا قصة إنشاء أول قنصلية روسية في مصر ، حيث أصدرت الإمبراطورة كاترين الثانية في الثلاثين من أغسطس عام ١٧٨٤ قراراً إمبراطورياً بتعيين البارون "فون طونوس" قنصلاً عاماً لروسيا في مصر ، وفي السابع والعشرين من يوليو ١٧٨٥ تم رفع العلم الروسي فوق مقر القنصلية الروسية بالإسكندرية وسط احتفال بهيج .

بعد هذا الرصد لما بعد افتتاح القنصلية يكشف لنا جينادي جورياتشكين أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة موسكو دور القوات المصرية في حرب القرم ، والحرب الروسية التركية خلال عامي ١٨٧٧ - ١٨٧٨ .

كان معروفاً أن الإمبراطورية العثمانية تضم خلال الحروب التي خاضتها ضد روسيا وحدات عسكرية من الدول الواقعة تحت سيطرتها ومن بينها مصر ، فماذا حدث في المواجهة العسكرية بين القوات المصرية والقوات الروسية ، والتي شارك فيها قرابة ٤٠ ألف جندياً مصري من بين ما يربو على خمسين ألفاً .. هذا ما نجد رصداً له في بحث جورياتشكين .

كيف استقبلت القاهرة الدفعة الأولى من المهاجرين الروس - وكان قوامها ٤٢٥٠ مهاجراً أغلبهم مرضى وجرحى - قدموا في بدايات عام ١٩٢٠ ، فجرى إيداع المرضى منهم في مستشفى ميداني على أطراف مدينة القاهرة - العباسية - ونقل الأصحاء منهم إلى معسكر التل الكبير ثم جرى نقلهم إلى معسكر سيدي بشر المتاخم لسواحل البحر المتوسط خلال عام واحد من وصولهم ، ليأسسوا أول مدينة للمهاجرين الروس ، حيث شرعوا في ممارسة حياتهم وفق الطريقة الروسية المعتادة ، وهو الأمر الذي عملت على تسجيله مجلة شهرية شرعت الجمعية الثقافية - التعليمية التي تأسست في المعسكر الأول - معسكر التل الكبير - في إصدارها واسمها "المهجر" ليرصد طبيعة الحياة التي عاشها هؤلاء المهاجرون ، ومعاناتهم ومعيشتهم وكيف تألفوا في جمعيات تنشر الثقافة والعلوم فتلقى المحاضرات ، وتنظم الندوات والدورات التعليمية والتثقيفية والتنويرية ، وتتبادل الرسائل والخبرات وتجتمع للبحث عن مصادر لتمويل أنشطتها وفعاليتها ، وتقيم الكنائس للعبادة ، كما يرصد لنا المهن التي مارسها المهاجرون لتكسب قوت يومها ما بين طبيب وحلاق وبنّاء تبغ ، كما يحكي لنا عن الأسميات الأدبية التي كانت تجمع في حلقاتها المهاجرين الروس .

عن قصة سميرنوف .. القنصل الروسي الشهير الذي قضى بمصر عشرين عاماً (١٩٠٥ - ١٩٢٤) وكان أحد أبرز الشخصيات المثقفة في عصره ، يحدثنا جينادي جورياتشكين بعد أن طوى بذكرى سميرنوف النسيان بعد أن وراه التراب بالقاهرة بعد وفاته ، ودفن بالقرب من مقابر اليونانيين المصريين .

ولد سميرنوف في سانت بطرسبورج في العام ١٨٦٩م ودرس العربية والفارسية والتركية بكلية الشرق بالعاصمة الروسية- آنذاك - وعمل بالعاصمة العثمانية قرابة العشر سنوات ثم باليونان ثم القاهرة حيث تم اختياره عميداً للسلك الدبلوماسي بالقاهرة منذ العام ١٩٠٨، وحتى العام ١٩٢٣م .

لم يعترف سميرنوف بثورة أكتوبر، ولا بالاتحاد السوفيتي ووصف اللجنة الشعبية السوفيتية بأنهم ”عصابة من المغتصبين الذين استولوا على الوطن بعد سقوط السلطة الشرعية للبلاد“، وشهد مرحلة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وروسيا وتقليص وتجميد العلاقات بين البلدين .

بالتوازي مع هذه المرحلة بدأ نجم سميرنوف في الظهور كأب حقيقي للجالية الروسية في مصر، حيث شهد عام ١٩٢٠ وصول عدد المهاجرين الروس إلى أكثر من عشرة آلاف روسي بمصر تركزوا بشكل أساسي في العاصمة القاهرة، ومدينة الثغر ”الإسكندرية“، لم يجدوا ظهيراً وراعياً لهم إلا سميرنوف .

كما يحدثنا جورياتشكين عن رحلة أبناء الخديوي توفيق الأمير عباس ولي العرش (ذو الخمسة عشر عاماً)، وشقيقه الأمير محمد علي (ذو الثلاثة عشر عاماً) لزيارة روسيا بصحبة الأمير طونين باشا (رئيس المراسم بالقصر الخديوي)، ود. محمد شكري بك مدير المكتب الخديوي ونجيب أفندي رئيس العاشية وعدد كبير من المرافقين عام ١٨٨٨، وجاءت زيارة الأمير الروسي سيرجي الكسندروفيتش، والأميرة يelizافنا فيدروفنا والأمير بافل الكسندروفيتش لمصر في أكتوبر- نوفمبر ١٨٨٨ رداً على زيارة الأمراء المصريين لهم .

ألكسي أنتوشين يرصد كيف حاول الاتحاد السوفيتي التغلغل إلى مصر، بمحاولة دمج عناصره في المجتمع المصري . كان الأمر يتطلب أن تجيد هذه العناصر اللغة العربية، ومعرفة جيدة بشوارع المدينة، التي سيعملون بها، حيث رشح القنصل الروسي في ربيع ”عام ١٩٢٢“ أحدهم للعمل في البوليس المصري الإنجليزي حينما، سنحت الفرصة لطلب شخص يتحدث الروسية، فها هي تقاريره عن المهام التي قام بها تنشر لأول مرة عن بعض هؤلاء العملاء .

الدكتورة فيرونیکا كونكوفا تحدثنا حول أحد المخطوطات العربية التي يحتفظ بها معهد المخطوطات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية في سانت بطرسبورج بها وهي ”مختصر الدول“ لصاحبه المؤرخ والفيلسوف ورجل الدين يوحنا جريجوريوس الملطي (١٢٢٦-١٢٨٦) السوري، وهي المخطوطة التي تتضمن أيضاً من المعلومات عن الخليفة المنصور (٧٥٤-٧٧٥) أحد أهم حكام الدول العباسية .

الدكتورة إينور كورميشيفا أستاذة المصريات ، ورئيسة البعثة الأثرية الروسية العاملة بمصر تسجل لقطات من يوميات البعثة الأثرية في الجيزة . أسس لأعمال هذه البعثة رائد علم المصريات ف.س. جولينتشف . تحكي إينور كورميشيفا قصة أعمال البحث والدراسة عام ١٩٩٥ في مقبرة خفر عنخ المشرف على بناء هرم خفرع- الهرم الثاني من حيث الحجم ، وكيف عانت البعثة الأثرية الروسية من أجل العثور على معلومات وبيانات تاريخية مفيدة حتى ولو بالمكان التقريبي لهذه المقبرة، وفي هذا الشأن قامت الأثرية الروسية بالتردد على المكتبة الوطنية البريطانية ، وأرشيف معهد جريفيس والمكتبة الوطنية الفرنسية وجامعتي هايدلبرج وبوسطن .. مقالة رائعة تكشف عن مدى الصبر والتحدي والدأب حتى تم كشف الأسرار التي تحيط بهذه المقبرة .

يعود كاتبنا فلاديمير بيلياكوف ليحدثنا عن اللاجئين الروس السياسيين في مصر في مطلع القرن العشرين ، وقد كانت أغلبيتهم من اليهود المعادين للنظام القيصري في روسيا حيث قام الثوار الروس باستغلال تواجد هذه الجالية الروسية في مصر في أوائل القرن العشرين لإرسال وتداول المطبوعات الماركسية عن طريق مجموعة من البلاشفة ، وهي مهمة نوه لها فلاديمير إيلينش لينين مبكراً في عام ١٩٠١ في خطاب له عن خطة إرسال "اسكرا" "الشعلة" عبر الإسكندرية ، ومنها إلى دول أوروبا . ثم يحكي لنا كيف تيقظ البوليس السري التابع للقيصر بالإسكندرية لذلك وكيف أوقف هذه المحاولات ، وكيف تطورت هذه الأعمال ... كل هذا نجده في ثنيات هذه المقالة ، لقد واكب بخسارة الموجة الأولى من الثورة الروسية ، والخوف من ملاحقات السلطات القيصريّة ظهور الحركة الوطنية المصرية وقيام عدد من النشطاء المشاركين في الأحداث الثورية بالانتقال إلى مصر.

وعن تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية في مصر كتب لنا بولياكوف عن أول تقرير كتبه القنصل الروسي بمصر عام ١٩١٥ وسجل فيه " أن ٩٦ ٪ من الروس بمصر يعتنقون اليهودية ، وأن الأعداد القليلة من الروس المسيحيين الأرثوذكس يتوجهون إلى الكنائس اليونانية لأداء الصلوات ، حيث أن " تاريخ أول كنيسة أرثوذكسية روسية في مصر يعود إلى عام ١٩١٤ ، حيث أقيمت في منزل مستقل في ٢٤ ميدان الرمل (شارع سعد زغلول حالياً ، حيث أقيمت كنيسة مستقلة باسم القديس " ألكسندر نيفسكي " .

أربعة وعشرون بحثاً ننشر ترجمتهم للمرة الأولى في جولة تاريخية تحوي صفحات متنوعة ما بين ضفتي الفولجا والنيل يصحبنا فيها باحثون بارزون ذوي أياد بيضاء على مسيرة التواصل الثقافي بين شعبينا .

يتم نشر المقالات هذه بعد ترجمتها للغة العربية بفريق عمل يضم: الدكتور محمد رياض ومنى دسوقي وأمانى التفتازاني .

توجد بعض المقالات التي أضيفت إليها مصادر جديدة، ولكنها تحمل نفس القيمة العلمية التي اتسمت بها عند نشرها في "الأرشيف الشرقي".

يصدر هذا الكتاب عن دار نشر أنباء روسيا بالتعاون مع معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية، وبدعم من المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم، في إطار المشروع الذي تتبناه المؤسسة للترجمة؛ لدعم التواصل الثقافي العربي-الروسي .

لدينا في

دكتور / حسين الشافعي

رئيس المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم
رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مجلة "أنباء روسيا"

لقاءات مع «جمال عبد الناصر» .. من أرشيف دبلوماسي سوفيتي

لاتزال شخصية الزعيم المصري "جمال عبد الناصر" (١٩١٨-١٩٧٠) تجذب انتباه المصريين والباحثين في العديد من بلدان العالم كما جذبتهم قبل ذلك لعدة عقود بعد وفاته حيث قام على مدار الفترة الطويلة التي قضاها في السلطة (١٩٥٢-١٩٧٠) بإرساء قواعد الدولة المصرية الحديثة. كما أن كل وثيقة جديدة: ذ أو شهادة جديدة تضيف بعض اللمسات للصورة الرائعة للرئيس جمال عبد الناصر، رجل الدولة البارز. وقد كتب هذا التقرير الذي بين أيدينا الدبلوماسي السوفيتي البارز "فلاديمير ميخائيلوفيتش فينوجرادوف" (١٩٢١-١٩٩٧)^١ الذي كان يشغل آنذاك منصب نائب وزير الشؤون الخارجية للاتحاد السوفيتي. في هذه المذكرات لا يكتفي "فينوجرادوف" بذكر اللقاءات التي جمعته مع "ناصر" ولكنه أيضاً يلقي الضوء على السياسات التي انتهجها الاتحاد السوفيتي السابق تجاه منطقة الشرق الأوسط في تلك الفترة من التاريخ والتي لاتزال تدور حولها النقاشات

١ عن مقالة : «Встречи с Насером. Из архива советского дипломата» ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي» إصدار معهد الاستشراف التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Belyakov Vladimir «فلاديمير ميخائيلوفيتش فينوجرادوف هو أحد المشاركين في الحرب الوطنية العظمى وقد أنهى دراسته في معهد الكيمياء والتكنولوجيا بموسكو والذي يحمل اسم "ماندلييف" وأنهى دراسته في اتحاد الأكاديمية للتجارة الداخلية ، وبين عامي (١٩٤٨-١٩٦٢) عمل في وزارة التجارة الخارجية للاتحاد السوفيتي وفي عامي (١٩٦٢ - ١٩٦٧) (عمل سفيراً للاتحاد السوفيتي باليابان وفي الفترة ما بين عامي (١٩٦٧ - ١٩٧٠) شغل منصب نائب وزير الخارجية للاتحاد السوفيتي ومن عام (١٩٧٠ - ١٩٧٤) عمل سفيراً للاتحاد السوفيتي بمصر، ثم ما بين عامي (١٩٧٤-١٩٧٧) كان المبعوث الخاص لوزارة الشؤون الخارجية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، ومنذ عام (١٩٧٧ - ١٩٨٢) ، عمل سفيراً للاتحاد السوفيتي في إيران ثم ما بين عامي (١٩٨٠ - ١٩٩٠) عمل وزيراً للخارجية لدولة روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية.

حتى وقتنا الحالي . يتبين من التقرير أن الاتحاد السوفيتي السابق قدم العون العسكري لمصر. وقدم النصح في نفس الوقت للرئيس "ناصر" بإلحاح أن يتبنى موقفاً أكثر واقعية قد يسهل إيجاد سبل تسوية سياسية للصراع العربي - الإسرائيلي . وتمثل رواية شاهد العيان عن الجو العام الذي أجريت فيه مباحثات القمة المصرية- السوفيتية أهمية كبيرة. وظلت نصوص تلك المذكرات في حوزة الابن "ألكسندر فلاديميروفيتش" مثلها مثل باقى الأرشيف الخاص بوالده "فينوجرادوف" . وقد أبدى موافقته على النشر بكل ترحاب .

بادئ ذي بدء، كنت قد التقيت "ناصر" لأول مرة في ظروف استثنائية وذلك في فبراير عام ١٩٧٠ حيث تم تكليفي باستدعاء السفير المصري في موسكو السيد "غالب"^٢ وقلت له : "الآن منتصف اليوم وبناءً على تعليمات من "ناصر" أعلمك أنه سيصل موسكو بعد ساعة في زيارة سرية إلى "موسكو" ، وسنتوجه الآن مباشرة من مقر الوزارة إلى المطار لاستقباله" .

لم يبد "غالب" أي اندهاش ، فقد كان يعلم بالفعل أن "ناصر" لا يثق في كبار الموظفين ، والدبلوماسيين المصريين ، وبعض العاملين في هذا النظام . في واقع الأمر كانت هذه رغبة "ناصر" أن يعلم شخص واحد بأمر هذه الزيارة وهو السفير المصري، وذلك دوناً عن كل المصريين العاملين في "موسكو" . وبالفعل توجهت أنا والسفير "غالب" إلى المطار وهناك كانت المرة الأولى التي رأيت فيها "ناصر" . وقد تكلت المفاوضات في "موسكو" بالنجاح ، فقد تم تزويد مصر بأسلحة حديثة خاصة بالدفاع الجوى وإرسال أطقمها السوفيتية إلى مصر بشكل مؤقت^٣ .

٢ "مراد غالب" (١٩٢٢-٢٠٠٧) دبلوماسي مصري ورجل دولة منذ عام ١٩٦١ وحتى عام ١٩٧١ كان يشغل منصب سفير مصر لدى الاتحاد السوفيتي ثم من سبتمبر/ أيلول ١٩٧١ إلى يناير/ كانون الثاني ١٩٧٢ كان وزير الدولة للشئون الخارجية لمصر، ومن يناير إلى سبتمبر ١٩٧٢ شغل منصب وزير الخارجية المصري .

٣ عن وصول أطقم المدفعية السوفيتية المضادة للطائرات إلى مصر أنظر "عندئذ في مصر" كتاب بشأن مساعدة الاتحاد السوفيتي لمصر أثناء الحرب ضد إسرائيل / موسكو ٢٠٠١ .

لم يفكر "ناصر" عند عودته للقاهرة في وقف ما يسمى "حرب الاستنزاف"، حيث تواصل تبادل إطلاق النار عبر قناة السويس، وقامت القوات الإسرائيلية بقصف المواقع الخلفية المصرية بالطائرات. لم تؤد هذه الحرب إلى نتائج فعلية لتغيير التعنت الإسرائيلي بل أدت فقط إلى تفاقم الوضع، وكانت التضحيات خاصة من الجانب المصري عديمة الجدوى بشكل واضح.



الزعيم "جمال عبد الناصر" و"فلاديمير ميخائيلوفيتش فينوجرادوف" "مارس ١٩٧٠" القاهرة

في تلك الأونة تدخل الاتحاد السوفيتي، وأجرى مباحثات مكثفة مع الجانب الأمريكي بغرض الوصول إلى حل سياسي للصراع في الشرق الأوسط، ولكن الأمور لم تسر بشكل جيد، نظراً لتعنت الموقف الأمريكي المؤيد لإسرائيل في كل شئ وبشكل كامل. واتخذ العرب أيضاً جانب التطرف حيال الموقف الإسرائيلي الشرس، ولم يوافقوا على الكثير من الأمور التي كانت على ما يبدو صيغة معقولة للتسوية السياسية.

٤ "حرب الاستنزاف" بدأت في مصر عام ١٩٦٨ وتمثلت في القصف المدفعي للمواقع الإسرائيلية بشكل دوري خاصة على الضفة الشرقية من قناة السويس، وتتلخص أهدافها في تكبيد العدو الإسرائيلي أقصى ضرر ممكن عن طريق استهداف الأماكن الحساسة من ناحية، ومن ناحية أخرى رفع الروح المعنوية للجنود المصريين جراء الهزيمة التي لحقت بالجيش المصري في يونيو ١٩٦٧.

تراكمت لدينا أسئلة كثيرة : إلى أي مدى يمكن للجانب المصري أن يساهم في صياغة الوضع بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من جميع الأراضي العربية التي احتلتها في عام ١٩٦٧؟ وهل سيوافق الجانب المصري على إنهاء حالة "الحرب" فقط أم سيكون لديه الاستعداد لإقرار "حالة السلام"؟! ومتى يمكن أن تأتي هذه الحالة؟ إن مشروع الخطة الزمنية للتسوية يتضمن اقتراحاً بانسحاب القوات الإسرائيلية على مرحلتين . ولكن متى تأتي "لحظة السلم" هذه ؟ هل ستكون عقب خروج آخر جندي إسرائيلي من الأراضي المصرية المحتلة أم ستكون بعد بدء تنفيذ المرحلة الأولى من انسحاب القوات الإسرائيلية؟ وعقب الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية؛ وما هي الالتزامات التي يمكن للجانب المصري أن يلتزم بها بشأن صياغة شروط السلام؟ فعلى سبيل المثال : هل يمكن أن تلتزم مصر بعدم شن عمليات عدائية ضد إسرائيل من داخل أراضيها؛ وأخيراً ، هل هناك جدوى لاستمرار «حرب الاستنزاف»؟ ، تلك «الحرب» التي وقفت عائقاً أمام بحث التسوية .

كل هذا وعدد آخر من الأسئلة المشابهة تقرر بحثها مع « ناصر» ، على الرغم من أن خطتنا من قبل كانت تنطوي على محاولة تنسيق مباحثات تمهيدية مع الجانب الأمريكي ، ثم إبلاغ « ناصر» للحصول على موافقته ، وما إذا كانت لديه أي تعديلات. كان «ناصر» يتعامل بمنتهى الألم والحسرة مع كافة الصياغات التي كانت تبدو من وجهة نظره تضعف الموقف المصري . وقد رفض الوزير^(٥) السوفيتي المعنى بالشئون الخارجية آنذاك ، الذهاب للتفاوض مع «ناصر» حيث أنه تكلم مع ناصر لأكثر من مرة عن نفس الموضوعات ، غير أن جميع المفاوضات لم تمض بسلاسة، فقام بترشيح للقيام بتلك المهمة وتمت الموافقة على ذلك .

وهكذا حصلت على تكليف بالتفاوض مع « ناصر» بشأن عدد من القضايا المهمة والدقيقة . وقبل أن نغادر متوجهين إلى « القاهرة» قال لي الوزير : «إذا نجحت في مهمتك التي كلفت بها حتى ولو بنسبة ١٠% فيعتبر هذا نجاحاً» . لم تكن بالنصيحة المهمة قبل السفر... ثم غادرنا متوجهين إلى « ناصر» .

٥ «أندرية أندريفيتش جروميكو» (١٩٠٩ - ١٩٨٩) شغل منصب وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ما بين عامي (١٩٥٧ - ١٩٨٥) .



أندرية أندرييفيتش جروميكو (١٩٠٩-١٩٨٩)
كان مسؤولاً مهماً في الاتحاد السوفيتي لفترة طويلة
وعمل وزيراً للخارجية في الفترة ما بين (١٩٥٧-١٩٨٥)

كانت هذه أولى زياراتي للقاهرة في شهر مارس عام ١٩٧٠. وبمجرد وصولنا علمنا بوفاة والد «ناصر»، وأنه سيستقبلنا بعد يومين. وقد كررنا هذين اليومين لمحاولة الاتفاق بشكل أولى بشأن جميع القضايا (وبالطبع فيما عدا قضية وقف حرب الاستنزاف)، مع وزير الخارجية المصري «رياض»^٦.

تباحثنا مع «رياض» لفترة طويلة جداً، وبدلنا أننا أفنعناه، على الرغم من أنه كان يساوره قدر كبير من الشك، وعدم الثقة في أية وسيلة للوصول إلى تسوية غير الوسائل العسكرية. وفي نهاية مباحثاتنا كان الشيء الوحيد الذي استطاع «رياض» أن يعدنا به هو أن يبلغ «ناصر» محتوى جميع أحاديثنا فقط.

بعد ذلك استقبلنا ناصر في «هيليوبوليس»^٧ داخل منزله الواقع في منطقة عسكرية (منزل جمال عبد الناصر يقع في منشية البكرى وليس هيلوبوليس - د. محمد رياض) وكان الأثاث على قدر كبير من البساطة والتواضع. وقد استقبلنا «ناصر» بكل حفاوة، وأجلسني بجانبه على الأريكة، وقال لي بعد أن قرأ الملف الذي سلمه له «رياض» بشأن المفاوضات التي دارت بيننا أنه يتفق تماماً مع طريقة صياغتنا للقضية، وقال إننا على حق: فإذا تحدثنا عن السلام فليكن بمنتهى القوة وليس هكذا همساً. إنه رجل السلام، ودع العالم كله يرى ذلك، لذلك فليس لديه أي اعتراض إطلاقاً أنه إذا خرجت القوات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة، فإن مصر ستعتبر نفسها ليست في حالة وقف للحرب، ولكن في «حالة سلام» مع إسرائيل.

٦ «محمود رياض» (١٩١٧-١٩٩٢) دبلوماسي مصري ورجل دولة. في خلال الفترة من عامي (١٩٦٤-١٩٧٢) تقلد منصب وزير خارجية مصر ومن عام ١٩٧٢ إلى ١٩٧٩ شغل منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية.

٧ هيليوبوليس «مصر الجديدة» ضاحية بشمال القاهرة وهي متاخمة لإحدى القواعد العسكرية الجوية «ألماظة» والمطار الدولي. تتمركز بها مقرات عسكرية ومدارس عسكرية. أسسها الأوربيون في بداية القرن العشرين.

ثم قال بنبرة لطيفة، إنه يعلم جيداً أن قراراً كهذا لن يحظى بالتأييد في العديد من الدول العربية، وفي مصر نفسها، ومن المحتمل ظهور بعض الساخطين، إلا أنه لديه إيمان شديد بصحة قراره، وقوة موقفه أيضاً. وأوضح لنا أن وضعه الآن كرئيس لمصر ونفوذه يسمحان له باتخاذ حتى تلك القرارات التي قد تكون غير مفهومة في أول الأمر لدى الشعب وبالتالي لا تحظى بالتأييد.

فيما يخص موعد حالة السلام قال «ناصر»: «أتفهم جيداً اهتمام أصدقائنا السوفيت أن نسقط من أيدي أعدائنا المشتركين الورقة الرابعة حول عدوانية مصر ورغبتها في تدمير دولة إسرائيل. وفي الواقع يطالب البعض إسرائيل بأن لا تسحب قواتها، لأنه لا أحد يعلم ماهية الوضع بعد الانسحاب، هل سيكون هناك سلام أم شيء آخر؟. لأجل إزالة هذا الشك كان «ناصر» على أتم الاستعداد للاتفاق معنا على أن حالة السلام ستأتي مباشرة بعد تنفيذ المرحلة الأولى من انسحاب القوات الإسرائيلية، ولكن بشرط ألا تطول مدة المرحلة الثانية - الانسحاب النهائي - عندئذ يستطيع الإسرائيليون سحب قواتهم بالكامل في حالة سلام فعلى. يعد هذا تنازلاً كبيراً من الجانب العربي حيث أنه من الناحية النظرية يعنى موافقة مصر على أن تكون في حالة سلام مع إسرائيل، على الرغم من بقاء القوات الإسرائيلية لبعض الوقت داخل الأراضي المصرية، ولكنها في طور الاستعداد لعملية الانسحاب.

فيما يتعلق بقضية التزامات الجانبين في حالة السلام فإن ناصر تفهم أنه يجب إسقاط الورقة الرابعة من أيدي العدو حول عدوانية مصر، لذلك وافق على هذا البند، والذي يقضي بأن البلدين لن يسمحا بأعمال عدائية تنطلق من أراضي طرف ضد الآخر، وربما بسبب ذلك سيشتمي الفلسطينيون، ولكنى لا أخشى ذلك حيث أن الحديث سيدور حول "الشروط النهائية لعملية السلام"، والتي من خلالها سنجد حلاً للقضية الفلسطينية. شكرت "ناصر" على هذا القرار، وقلت إن هذا القرار سيساعدنا في المضى قدماً في نضالنا من أجل مصالح الدول العربية.

أخبرته لاحقاً أن لدى تكليف في غاية الأهمية لم أتمكن من مناقشتها مع "رياض" وفي إيجاز قمت بسرد الحجج وتقييمنا لمسألة "حرب الاستنزاف". كانت هذه أصعب لحظة حيث ربط ناصر بهذه "الحرب" الكثير من شعاراته السياسية، واستخدمها خلال تحركاته السياسية بالداخل وكذلك في السياسة الخارجية.

استمع "ناصر" باهتمام إلى الحجج التي سردتها، والتي كنت قد قمت بإعدادها مسبقاً . وفي الختام نوهت إلى قرب وصول الوحدات العسكرية السوفيتية .

فكر "ناصر" ملياً وتمهل ، ثم نظر إلي باهتمام وضاحت عيناه ثم قال : حسنا أنا موافق على وقف إطلاق النار، لكن فقط لفترة وجيزة . وإذا لم يتخذ الجانبان الإسرائيلي والأمريكي خلال ذلك الوقت أي خطوات جادة بخصوص تلك التسوية، فسوف نعاود الحرب مرة أخرى . وبالطبع لا يجب أن يعلم الإسرائيليون والأمريكان بما قلته الآن . ولكن يمكنك أن تقول لو أوقفت إسرائيل غاراتها في عمق الأراضي المصرية فإنك ترجح أن مصر قد توقف حرب الاستنزاف . أما إذا سألتوني هل أعطيت موافقتك على هذا الأمر سأجيب على الفور بأن هذا الحديث لم يكن " ثم ضحك . تنفست الصعداء (في داخلي بالطبع) وهكذا أستطيع أن أقول إنني نجحت في المهمة التي كلفت بها بنسبة ١٠٠٪ .

أخذ "ناصر" أثناء المباحثات يروج لقضية مفادها أن الصراع في منطقة الشرق الأوسط برمته ليس صراعاً بين الدول العربية وإسرائيل، وإنما صراع بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وأن الصراع العربي الإسرائيلي قد انبثق من الصراع العالمي الأساسي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي . وبالتأكيد إن تبني هذه القضية قد يؤدي إلى استنتاجات خاطئة ليس فقط من الناحية النظرية، ولكن من الناحية العملية البحتة .

على الفور فكرت ما الذي جعل "ناصر" يثير هذه القضية، ربما للتأكد من القناعات الخاصة عند الطرف الآخر ، حيث أن هذه القضية التي لخصها كانت شائعة في محيط الدوائر المصرية على نطاق واسع . قلت "ناصر" إنني لا أتفق مع استنتاجاته فنظر إلي بدهشة وقال : كيف هذا؟ وطلب مني أن أقوم بشرح وجهة نظري . قلت إن الاتحاد السوفيتي لم ولن يكون طرفاً في الصراع العربي - الإسرائيلي ، والذي هو في حقيقة الأمر ما هو إلا صراع بين قوى التحرر الوطني، والقوى التقدمية بقيادة مصر والقوى الرجعية بقيادة إسرائيل والتي بالطبع تحظى بدعم الولايات المتحدة الأمريكية . وبما أن الصراع العربي - الإسرائيلي يعد صراعاً بين القوى التقدمية والقوى الرجعية فلا شيء يدعو للعجب في أن يدعم الاتحاد السوفيتي القوى التقدمية بينما الولايات المتحدة وفقاً لطبيعتها التطبيقية تدعم القوى الرجعية . كان "ناصر" ينصت باهتمام ، وحاول أن يطرح حججاً إضافية، ولكنه في النهاية وافق على ما قلته . لا أعلم حتى الآن لماذا قام

”ناصر“ بطرح هذه القضية. ثم وافق بعد ذلك . وقال في نهاية الحوار إنه لا يوجد في مصر حتى الآن أحد خالفه، ولكن فيما يبدو كنت أنت الأول. قال ذلك كأنها مزحة ولكن على ما يبدو كان الحال كذلك . الذيك

أبلغوني فيما بعد أن ”ناصر“ شعر بالرضى بشأن الحديث معي والجدال ، الذي كان بيننا. وبالطبع فإنه لم يكن يحب أن يعارضه أحد ، وكان المحيطون به يعلمون ذلك ، وكانوا يذهبون إلى النقيض فكانوا يوافقونه فقط، مما كان يسبب له الضجر. في نهاية المباحثات دعى ”ناصر“ المصورين لالتقاط الصور التذكارية، ورافقنا حتى باب المنزل، وودعنا بحرارة، وتوقف مرة أخرى لالتقاط الصور معنا. كما عرض ”ناصر“ عليّ البقاء لمدة ثلاثة أيام حتى يتسنى لي زيارة ”الأقصر وأسوان“، وأتمكن من مشاهدة المعالم السياحية للبلاد خاصة أن هذه تعد الزيارة الأولى لي لمصر، ولكن كان عليّ العودة إلى ”موسكو“ سريعاً. وقد وعدته بالعودة مرة أخرى إلى القاهرة.

بالطبع لم أتوقع أنه بعد ثلاث سنوات ونصف أن يقول لي ”هيكل“^٨ بينما كان يتفحص الصورة التذكارية التي تحمل توقيع ”ناصر“: ”لقد تحدث ”ناصر“ عدة مرات بعد مغادرتك وقال: ”لا أفهم لماذا قدمت الكثير من التنازلات لـ ”فينوجرادوف“. قلت: وأنا أيضاً لا أعلم. في واقع الأمر كانت تنازلات ولكنها صبت جميعاً في مصلحة الدولة المصرية.

من الواضح أنني أعجبت بشخصية ”ناصر“ فقد كانت تنبعث منه قوة ما، وثققة في النفس. ولم يكن مصدرها حفاوة صاحب منزل مضيف، أو وضعه كرئيس، بل تلمس فيه الحماس، وحتى المشاكسة أثناء الحديث. كان على ما يبدو أنه يريد أن يكسب ود الآخرين، وربما كان يختبر من يحاوره بتغيير حاد للهجة الحديث ليرى هل أصابك بالارتباك أم لا.

في صيف عام ١٩٧٠ عاد ”ناصر“ مرة أخرى إلى ”موسكو“ ولكن هذه المرة للعلاج. وقد أدهشني مظهره المريض عند لقائه في مطار ”فوكوفو“ بموسكو. كان ”ناصر“ طويل القامة عريض المنكبين وضخم البنية. لم يكن وجهه بتلك السمرة المعهودة وإنما ذولون رمادي مريض وفي عينيه ألم خفي، ولكنه على الرغم من ذلك أخذ يبتسم

٨ «محمد حسين هيكل» ولد عام ١٩٢٣ صحفي مصري مشهور بقربه من دوائر صنع القرار عربياً ودولياً منذ عام ١٩٥٧ وحتى عام ١٩٧٤ شغل منصب رئيس تحرير الجريدة الرائدة في «الأهرام» إلى جانب أنه شخصية موثوق فيها لدى «ناصر».

وهو يصفاح مستقبليه . لم يتبين لي وقتها هل تمكن "ناصر" من التعرف عليّ أم لا . أنا لا أعتقد ذلك فقد مرعلّي ونظرفي وجهي، ثم صافحني، وابتسم، ولكنة ابتسم في وجه الجميع بلا استثناء...

أثناء المباحثات في "الكرملين" كان "ناصر" يتصرف كما لو كان بين صحبة طيبة، فقد كان يتصرف بلا تكلف، وبحرية تامة، كما أنه كان يستجيب للمزاح بسهولة، وكان في كامل تركيزه وانتباهه عندما كان يستمع إلى ما يقوله له القادة السوفيت . وعندما كان الأمر يتعلق بمطالبه فإنه كان يتبع الأسلوب الآتي: كان يقوم بشرح الموقف، والذي لا يعدو أن يكون بمثابة تبريراً لأسباب الطلب، ثم يقول ذلك باخلاص تام كما لو كان يقول: انظر إلى أننا ليس لدى أي أسرار كي أخفيها . ثم ينتقل إلى الموقف التالي : لقد شرحت لكم كل شيء وكيف تجرى الأمور. والآن جاء دوركم لكي تتخذوا قراركم . كانت تلك الطريقة تبدو دائماً بمثابة نزع السلاح عند الطرف الآخر ولكنها كانت تؤدي إلى نتائج جيدة بالنسبة له في واقع الأمر كان هذا صدقاً ضرورياً وحقيقياً وليس رغبة في قنص شيء ما بأي وسيلة خاصة في ظل العلاقات الودية بين «مصر والاتحاد السوفيتي».

أثناء المباحثات أتيح لي أن صحبته في السيارة، وكانت الأحاديث معه في السيارة دائماً ما تتسم بالطرافة بغرض معرفته كإنسان . وقد بدا عليه السرور عندما علم أننا أثناء فترة الشباب كان لدينا نفس الاهتمامات الرياضية، والتي تمثلت في ممارسة كرة السلة، وحالياً لدينا هواية مشتركة وهي حب السينما^٩، ولكنه إشتكى من أنه لا يتوفر لديه الوقت الكافي لكي يرتب شرائط الأفلام التي تم التقاطها . وهي أزمته كل من يهوى هذه الهواية .

ذات مرة تحدث «ناصر» عن الخدمة الإذاعية لدينا وتساءل : لماذا يتدنى مستوى تغطية المحطات الإذاعية للأخبار خاصة فيما يتعلق بالأخبار العالمية؟ فالخدمة لديكم متأخرة، ولا تثير الاهتمام، والشيء الأهم أنها غير فعالة . وإنكم تفقدون الكثير من جراء ذلك. هل تعلم أن بحوزتي باستمرار راديو ترانزستور مؤشره مثبت دائماً على محطة الـ «بي بي سي» الدولية، حيث يقوم الإنجليز كل ساعة بث مجموعة من الأخبار بإيجاز ووضوح لمدة تستغرق من ٧-١٠ دقيقة، ولذلك يتوجه العالم كله للاستماع لهم. فلماذا لا

٩ منذ عام ١٩٦٠ وحتى ظهور كاميرات الفيديو، كانت هواية محبي السينما منتشرة على نطاق واسع.

تؤسسون لمثل هذه النوعية من البرامج ، سيكون شيئاً ممتعاً بالنسبة لنا أن نوجه أسماعنا إلى «موسكو» أكثر من مثيلتها التي تبث من لندن .

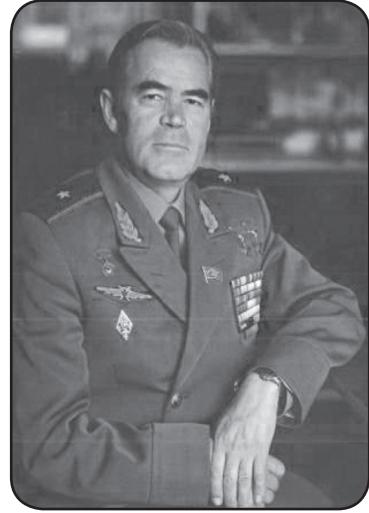
وفي مرة أخرى طرح السؤال الآتي : «لماذا لا ترغبون في أن نتحدث علانية عن المساعدات العسكرية التي يقدمها الاتحاد السوفيتي لمصر؟ فلاشك أن أعداءنا على علم بها. فلماذا إذن لا يجب أن يعلم بها أصدقاؤكم وأصدقاؤنا؟ وإذا كان أعداؤنا يعلمون بأمر هذه المساعدات فمن الأولى أن يعلم بها الأصدقاء.. إنني واثق أننا نخسر من جراء ذلك سياسياً» وأثناء تواجد «ناصر» في «موسكو» وردت رسالته من «القاهرة» مفادها مقتل ٥ طيارين في مصر من بينهم طيارون سوفيت قام الإسرائيليون بإسقاط طائراتهم. وكما كان هذا أمر يدعو للأسف إذ كان هذا الحادث من جراء قيام الطيارين الإسرائيليين ببعض المناورات البسيطة جدا وبعبارة أخرى لقد وقع طيارونا والطيارون المصريون في فخ «بدائي» وكان المدان بشدة في ذلك الأمر محطات التوجيه الأرضية وشعر «ناصر» بحزن شديد على مقتل الطيارين. وقال لى إنه كان يعرفهم جميعاً بصفة شخصية. كما أن أعداد الطيارين الأكفاء في مصر قليلة جداً .

عندما كان «ناصر» هنا للعلاج حقق كل من رائدا الفضاء «نيكالايف» و«سيفوستيانوف»^{١٠} الرقم القياسي في الطيران في الفضاء. وبهذه المناسبة تم دعوة: «ناصر» ومرافقيه إلى حفل استقبال كبير في قاعة «سان جورج» داخل القصر الكبير بالكرملين .

في الظهيرة تلقيت إتصالاتها تفتياً يخبروني فيه أن «ناصر» يرغب في تكريم «نيكالايف» و«سيفوستيانوف» وتقليدهم أعلى الأوسمة المصرية وهي «قلادة النيل»^{١١}.

١٠ منذ الفترة ما بين ١١ إلى ١٩ يونيو ١٩٧٠ أتم رائدا الفضاء «أندريان جريغوريفيتش نيكالايف» (١٩٢٩-٢٠٠٤) و «فيتالى إيفانوفيتش سيفوستيانوف» (١٩٣٥-٢٠١٠) ٢٨٦ دورة حول الأرض على متن سفينة الفضاء «سيوز - ٩».

١١ صحيح - «قلادة النيل» تم إنشاء هذه الجائزة عام ١٩١٥ ، ومن بين الشخصيات الروسية التي تم منحها هذه القلادة «خورشوف» في عام ١٩٦٤ أثناء زيارته لمصر للمشاركة في مراسم تحويل مجرى النيل وأيضا حصل عليها رواد الفضاء: «جارجارين»، «تريشكوف»، «نيكولايف»، «سيفوستيانوف» .



أندريان جريجوريفيتش نيكالايف (١٩٢٩ - ٢٠٠٣)
ولد في أسرة من الفلاحين الروس وتم تقليده "قلادة النيل" أثناء زيارة "ناصر" للاتحاد السوفيتي



فيتالي إبانوفيتش سيفاستيانوف (١٩٢٥-٢٠١٠)
رائد الفضاء الذي قلده "ناصر" "قلادة النيل" في الاحتفال الذي أقيم في "الكремلين" وحضره "ناصر"



فاسيلي فاسيلوفيتش كوزينتسوف (١٩٩٠-١٩٩٠)
دبلوماسي سوفيتي وأول نائب لوزير الخارجية
السوفيتي



سفير الاتحاد السوفيتي السيد
«فلاديمير ميخائيلوفيتش فينوجرادوف»



سيقوم "ناصر" في حفل الاستقبال بتسليمهم تلك الأوسمة. وطلبوا مني توضيح الموقف بهذا الشأن. حاولت تسيق الأمر مع المسئولين بهذا الصدد. ولكن كنت أواجه باعتراضات في كل مكان إذ يقولون أنه يمكن أخذ الأوسمة، لكن لا يجب تسليمها داخل الكرملين. وأبلغوا "ناصر" بذلك الذي استاء بدوره وقال أنه لن يذهب إلى حفل الاستقبال في الكرملين لأسباب مرضية. من ثم تم إرسال سفيرنا "فينوجرادوف" إلى "بارفيخا" حيث مكان إقامة "ناصر" وعندما وصل قال للرئيس مباشرة إنه يتعين عليه الذهاب إلى الحفل. وبالفعل حضر "ناصر" حفل الاستقبال بعد أن أمر الياوران أن يأخذ معه الأوسمة على كل حال، وجاءوا إلى الحفل يحملون علب كبيرة الحجم. حاولت أثناء الحفل إقناع القيادات المعنية، وأوضحت الموقف ذلك أن "ناصر" كان يقف، وينتظر السماح له بتقليد الأبطال الأوسمة وبالفعل نجحت في هذه المهمة. قالت قيادتنا: إن ما حدث كان لا بأس به ومقبول ولكنه جاء متأخراً عن أوانه.

ولم يتسن لي رؤية "ناصر" بعد ذلك فقد وافته المنية.

١٢ «سيرجي ألكسندروفيتش فينوجرادوف» (١٩٥٧-١٩٧٠) دبلوماسي سوفيتي حتى عام ١٩٦٧

شغل منصب سفير الاتحاد السوفيتي بمصر.

١٣ تقع «بارفيخا» بالقرب من موسكو حيث يوجد منتجع للاستشفاء والراحة خاص بالقادة السوفيت.

تعين علي أن أقوم فقط بأداء الواجب الحزين إذ حضرت ضمن الوفد السوفيتي برئاسة «ألكسب نيكولافيتش كوسيجين»^{١٤} جنازة «ناصر» فقد تم تعييني تحديداً بمناسبة وفاته سفيرا للاتحاد السوفيتي في مصر. كل ذلك غير متوقعا مثل الموت تماماً (يقصد موت ناصر المترجم د. محمد رياض). تلقينا الخبر في موسكو في مساء التاسع والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠^{١٥}. أخبروني بضرورة الذهاب على الفور إلى الوزارة، حيث قضيت أنا و«كوزينتسوف»^{١٦} ليلة كاملة نعمل على مختلف أنواع الوثائق التي تتعلق بوفاة «ناصر». وفي الصباح تم عقد إجتماع للمكتب السياسي (للحزب الشيوعي السوفيتي) وأعلنوا بشكل مفاجيء تماماً بالنسبة إلى تعييني سفيرا في مصر. لم يتحدث معي أحد من قبل عن ذلك. لم يكن هذا هو لب القضية على الرغم من أن هذا الأمر لا يصف وزيرنا من الجانب الأفضل، إذ أنه من المحتمل قد أخبر القيادة أنه قد دار بيننا حديث عن ذلك الأمر. وعندما طلبت عدم تعييني سفيرا في مصر لسبب وحيد وهو الظروف المناخية غير الملائمة ساد إرتباك وذهول شامل. كان القرار قد تم اتخاذه بالفعل. وبعد ساعتين كنت قد طرت إلى «القاهرة» غير قادر على استيعاب ذلك الذي حدث معي.

حين هبطت الطائرة كانت «القاهرة» غارقة في ظلام دامس. تسرب إلينا قلق الليل عندما كانت الطائرة تقترب من المطار. وسط هذا الظلام الدامس كان يمكن التخمين بوجود حشود من الناس في مكان ما بسبب ضوء المصابيح الكاشفة الخاصة بالنشرات الإخبارية المصورة، وكانت الوجوه المتحمسة تصدر وميضاً. ولم يكن هناك أدنى مظاهر للنظام حتى في المطار. بدأت أتمس طريقي أثناء النزول على سلم الطائرة. وقبلنا السادات^{١٧} الذي كان ينتحب بصوت عالٍ وبصحبتة بعض القادة الآخرين. وأخذوا «كوسيجين» لمكان ما، وشق حراسه طريقيهم في الظلام. وخرجنا بصعوبة ودلفنا إلى أول سيارة وصلت إليها أيدينا. وجلست مع «زخاروف» وطلبنا أن يذهبوا بنا حيث سيكون «كوسيجين»، وصلنا بعد ذلك إلى مقر إقامة السفير أي إلى مقر إقامتي الجديد.

- ١٤ «ألكسى نيكولافيتش كوسيجين» (١٩٠٤-١٩٨٠) رجل دولة سوفيتي ومنذ عام (١٩٦٦-١٩٨٠) كان ممثل مجلس الوزراء السوفيتي.
- ١٥ على ما يبدو أنه توفي في ٢٨ وليس ٢٩ كما نفهم من النص التالي. حيث وصل الوفد السوفيتي إلى القاهرة لحضور مراسم الدفن خلال ٢٤ ساعة من وفاته.
- ١٦ «فاسيلي فاسيليفيتش كوزينتسوف» (١٩٠١-١٩٩٠) دبلوماسي سوفيتي ورجل دولة. منذ عام (١٩٥٥-١٩٧٧) كان منصبه أول نائب لوزير الخارجية السوفيتي.
- ١٧ «أنور السادات» (١٩١٨-١٩٨١) رجل دولة مصري - منذ ١٩٦٩ - شغل منصب نائب الرئيس المصري.



أليكسي نيكولافيتش كوسيجين (١٩٠٤-١٩٨٠)

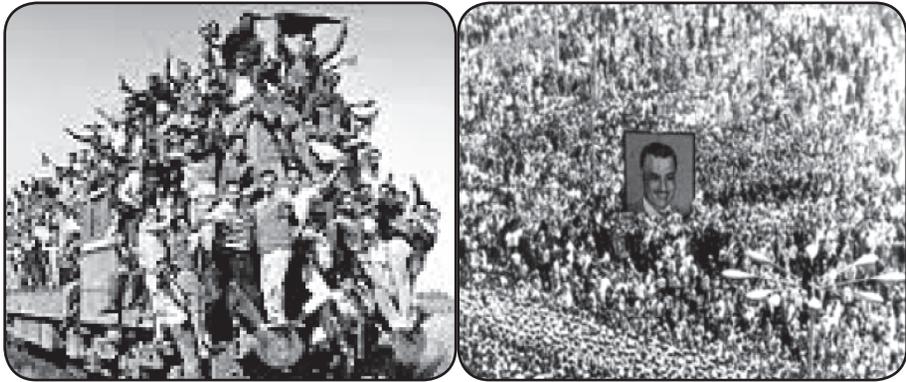
رجل دولة وسياسي ، خدم كرئيس لوزراء الاتحاد السوفيتي في الفترة من (١٩٦٤-١٩٨٠) ، كان يعتبر من المصلحين السوفيت ومنافس قوى للزعيم الشيوعي المتشدد «ليونيد بريجنيف»

كانت البلاد تغرق في حالة شديدة من اليأس المفرط في حين خرجت حشود الجماهير إلى الشوارع وكانت تعلق وجوههم نظرات الذهول ويتجمعون في مجموعات ويتحدثون عن شيء ما، ويشيرون بأيديهم في حماس. وكان بعضهم يركب فوق أسطح الأتوبيسات وأعلى عربات الترام. ويقولون إن هناك حالات كثيرة لأناس ألقوا بأنفسهم من فوق الكبارى، ومن فوق أسطح الحافلات من اليأس. كان مبنى السفارة محاطاً بحائط صد من الجنود الذين يحتمون خلف الدروع والعصى. يقولون إنه بسبب اندفاع الجماهير، ربما يحدث أي شيء وربما تندس بينهم عناصر غير صديقة. في اليوم نفسه ذهبت إلى «هيكل» الذي كان يبكي وهو غير مصدق ولا يستطيع أن يتخيل

كيف حدث ذلك. والأمر الذي لا يصدق أيضاً أنه لم يكذب يوماً واحداً على وفاة «ناصر» وها قد وصل بالفعل أفضل أصدقاءه من الشعب السوفيتي لحضور مراسم تشييعه. فجأة قال لي «هيكل» ربما إنك لاتعرف أن «ناصر» كان يكن لك كل الاحترام، وقال لي «ناصر» أثناء الفترة الطويلة التي أعقبت وفاة سفيركم الراحل^{١٨} مع عدم تعيين سفير سوفيتي آخر في مصر: «دعنا نطلب منهم إرسال «فينوجرادوف»^{١٩} إلى هنا فأجبتة: إنني أتفق معك تماماً في هذا الرأي، ولكن الأمور لا تجري بهذا الشكل، فالسفراء لا يتم اختيارهم من الطرف الآخر. ولربما إذا طلبت ذلك يحدث العكس تماماً. فهم لن يرسلوه إلى هنا إذا طلبت ذلك. هكذا تسير الأمور في العادة .

١٨ «زاخاروف ماتيفيف فاسيليفيتش» (١٨٩٨-١٩٧٢) محارب سوفيتي، مشير الاتحاد السوفيتي. ومنذ عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧١ عين رئيس الأركان العامة في القوات المسلحة السوفيتية وفي عام ١٩٦٧ وبعد هزيمة مصر في «حرب الأيام الستة» تواجد في القاهرة لفترة قصيرة لحل المشاكل التي وقفت أمام الجيش المصري.
١٩ السفير «فينوجرادوف» وكان قد توفي في موسكو ٢٧ أغسطس ١٩٧٠.

في تلك اللحظة أصابتني رجفة وتساءلت هل يعلم «هيكل» بأمر تعييني سفيراً لدى مصر؟ ولكن أنى له أن يعرف. فنحن لم نكد نصل، ولم يلتق «كوسيجين» بأحد من المسؤولين المصريين بعد. لا مجال. لا يمكن لـ «هيكل» أن يعلم بهذا. عندما أخبرت «هيكل» بأمر تعييني لم يستطع أن يقول شيئاً لبرهة طويلة من الاندهاش، ولكنه أخيراً تكلم فقال: «لا يمكن هذا غير معقول أتحدثت الوصية الأخيرة للزعيم الراحل «جمال عبد الناصر»؟ وكرر لفترة طويلة في ذهول من وقع ذلك الحدث، أن ذلك الأمر كان سيسعد «جمال» سعادة بالغة.



صور للحشود التي خرجت في وداع الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر»

تعين علينا أن نذهب لحضور الجنازة على متن لنش، لأنه كان من المقرر أن يبدأ الموكب الجنائزي من المنزل الكائن في جزيرة الزمالك^{٢٠} والذي كان من قبل مقراً لمجلس قيادة الثورة^{٢١} وكان عبور الكوبري وسط هذه الجماهير العريضة يبدو أمراً مستحيلًا. فلجأت الشرطة إلى عمل أسهل شيء وهو رفع الكوبري. وقد أعطونا لنشا وصحبنا «هيكل»^{٢٢} فور وصولنا إلى مقر قيادة الثورة أدخلونا إلى غرفة منفصلة. وكان يتواجد أمام أنظارنا «السادات» و «علي صبري»^{٢٣} طوال الوقت، بينما كان يدخل ويخرج أناس

- ٢٠ كلمة «زمالك» تندرج تحت كلمة «جزيرة»، يربط بينهما جسر ولكن «الزمالك» - منطقة سكنية على جزء من الجزيرة .
- ٢١ الكلام هنا يدور حول ثورة ٣٢ يوليو ٢٥٩١ والتي تزعمها «ناصر» .
- ٢٢ مقر إقامة السفير السوفيتي (روسيا) يقع على شاطئ النيل حيث يقم «هيكل» على مسافة بنائة واحدة منها .
- ٢٣ «علي صبري» (١٩٢٠-١٩٩١) رجل دولة مصري ، في عام ١٩٦٥ إلى عام ١٩٦٨ شغل منصب نائب الرئيس المصري وأحد المقربين إلى «ناصر» .

مختلفين من كبار رجال الدولة يقدمون التحية لـ "كوسيجين" وينصرفون .

كان "ناصر" بالفعل زعيماً "العالم الثالث" ، وقائداً العالم العربي ، وجميع البلدان النامية تقريباً، كما أنه نال احترام جميع البلدان الرأسمالية تقريباً . قولاً واحداً كان هناك حشد كبير من الناس بدرجة غير معقولة . وكان الملوك ورؤساء الوزراء يدوسون أقدام بعضهم البعض جراء التزامهم .

وأخيراً تنامى إلى أسمعنا صوت المروحية التي تقل جثمان "ناصر" . تحرك الجميع في إتجاه إحدى قاعات المبنى حيث كان تابوت الزعيم يتوسط القاعة ملفوفاً بالعلم المصري . رقد علي التابوت بعض الأشخاص وأخذوا ينتحبون . بدأ الرتل في التكون أي الموكب الجنائزي ثم اتجهنا إلى الخارج . واشتدت حرارة الشمس المصرية بدرجة غير عادية الأمر الذي زاد في سخونة الجو .

وأخيراً ، ظهرت بداية الموكب الجنائزي . وكان التابوت محمولاً على مدفع حربي تجره ستة خيول . وكان هناك جنود يمتطون ظهور الجياد ، ويسيرون في جواره بينما علت أصوات المشيعين بالبكاء والنحيب . كانت الشمس تلفح الوجوه، وتصيب الجميع عرقاً وخلف التابوت كانت تسير جموع غفيرة من الجماهير، وقد نضطررغماً عنا إلى الانخراط في الموكب وسريعاً ما سيحدث تزامم هائل . وبدلاً من الموكب ستكون هناك جموع لا يمكن السيطرة عليها ، وحتماً سيسحبونك إلى مكان ما دون رغبتك وربما تسقط على الأرض . وسيحاول الضيوف ذوي المكانة الرفيعة أن يثبتون على أقدامهم . وأفكررغماً عني وماذا بعد ذلك ؟ إذ أن هذه هي «النخبة» فقط في الموكب أي الضيوف الأجانب . وحتماً ستنضم إلى الموكب الآلاف المؤلفة من الناس في الشارع ، ولكن لأشياء من هذا قد حدث . ببساطة توقف الحشد الذي كنا نسير فيه ، ولم يخرج حتى خارج حدود حديقة ما في الزمالك وفجأة رأينا «السادات» يحملونه في الاتجاه المعاكس محمولاً على كرسى، ويتأرجح كالدمية . ويقولون إنه شعرتبوعك، بينما عاد المشيعون إلى الورا ، وفي مكان بعيد عنا توارت الخيول والجماهير والتابوت الذي يضم جثمان «ناصر» . ومن هناك كان يصل إلى أسمعنا هدير الجماهير . واختلط الحابل بالنابل وأوصونا بالعودة إلى المنزل مرة أخرى على متن اللنش .

في الثانی والعشرين من أكتوبر عام ١٩٧٠ قدمت أوراق اعتمادی للرئيس المصري الجديد «أنور السادات»^{٢٤} وبعد الانتهاء من مراسم تقديم أوراق اعتمادی توجهت مباشرة إلى قبر «ناصر» لزيارته. كان ينتظرني هناك بالفعل عدد كبير من موظفي السفارة، وقمنا بوضع إكليل من الزهور على قبره مكتوباً عليه: «إلى جمال عبد الناصر من أصدقائك في سفارة الاتحاد السوفيتي». جذبت هذه المراسم عدداً كبيراً من المشاهدين، ولكنها لم تسترِع إنتباه الصحافة. وما نحن قد شيعنا زعيم الشعب المصري الزعيم الخالد إلى قبره^{٢٥}.

٢٤ إنتخب «السادات» لهذا المنصب في ٢١ أكتوبر من نفس العام.

٢٥ * الأرشيف الشخصي لـ «فينو جرادوف»، الأصلي، الكتابة بخط يد المؤلف مصحوبة بتصويبات وعلى اليسار تذييل باليد «فبراير ١٩٧٥، موسكو» (مكتوب بخط رفيع مائل).

مهمة البارون طونوس .. مرور ٢٢٩ عاماً على تعيين أول قنصل روسي في مصر

التحق البارون كوندرات فون طونوس بالخدمة في الجيش الروسي في الرابع والعشرين من مارس عام ١٧٨٠ (جاءت كل التواريخ حسب التقويم الحديث - المؤلف) . انضم الرائد أول في الجيش الملكي البولندي طونوس النمساوي^٦ البالغ من العمر ثلاثون عاماً إلى سلاح فرسان يامبورجسكي كرائد ثانٍ غير أن البارون كوندراتي (كما يطلقون عليه بالروسية) فون طونوس قد أثر العمل في السلك الدبلوماسي .

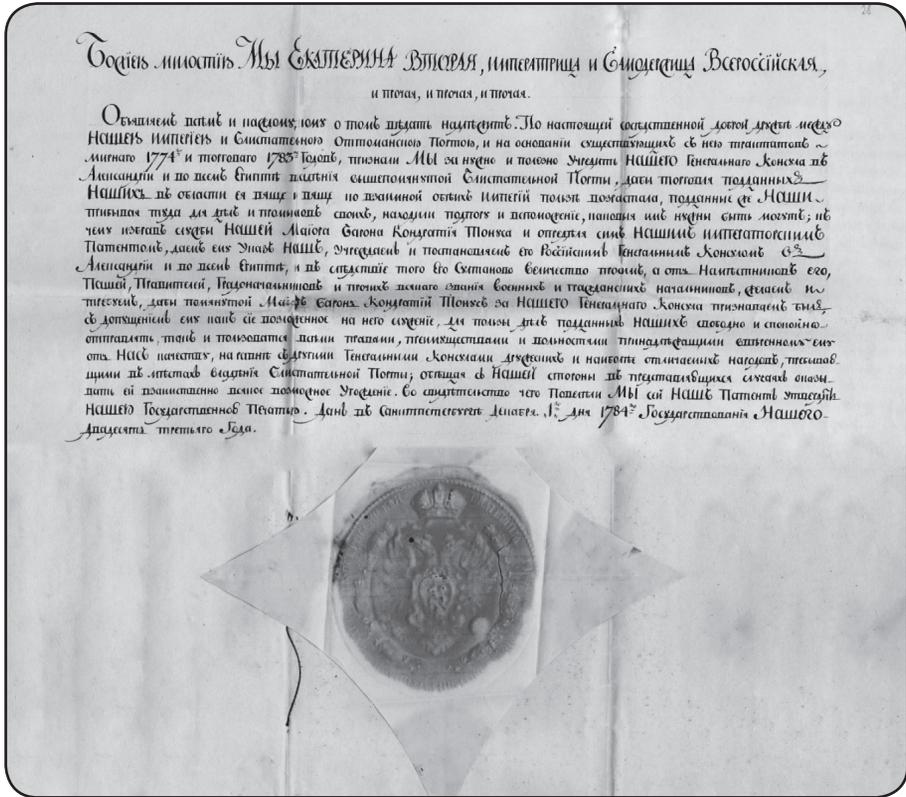
في عام ١٧٧٤ أصبح من حق روسيا وفقاً للبند الحادي عشر، من معاهدة السلام «كوتشوك كينارجي» المبرمة بين تركيا وروسيا تعيين قناصل لها في جميع مدن الدولة العثمانية، التي تستدعي الضرورة وجودهم فيها . على الرغم من ذلك فقد ظل الباب العالي لأكثر من عشر سنوات تقريباً يرفض بكل الوسائل فتح قنصليات لروسيا على أراضى دولته، إلا أنه فقط بعد إبرام إتفاقية تجارية بين تركيا وروسيا والتي صدقت مجدداً على الإتفاقيات القديمة في بداية عام ١٧٨٤ تم افتتاح قنصليات في بعض الجزر الأيونية (جزر يونانية واقعة في البحر الأيوني - المترجم د. محمد رياض) وفي البلقان وآسيا الصغرى وسوريا . وجاء ضمن مهام تلك القنصليات «العمل على زيادة حجم التجارة الروسية في شتى بقاع الإمبراطورية العثمانية» .

٢٦ عن مقالة : «مهمة البارون تونوس. 225 лет назад в Египет был» ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Dmitrii Frumin . تؤكد الأدبيات الرأي الذي يقول بأن فون طونوس ينحدر أصله من النمساويين بدول بحر البلطيق . ولكن جاء في قوائم سلاح الفرسان يامبورجسكي أن البارون كونراد فون طونوس ينحدر من النازيين الأرشيف العسكري للدولة الروسية ، الملف رقم ٩٨٤ ، وثيقة رقم ٢٥١٧ ، السطر ١٣٢ .

أنشأت روسيا قنصلية لها في مصر، وأصدرت الإمبراطورة كاترين الثانية في الثلاثين من أغسطس عام ١٧٨٤ أمراً بتعيين البارون فون طنونوس^{٢٧} قنصلاً عاماً لروسيا في مصر. وفي السابع والعشرين من يوليو ١٧٨٥ تم رفع العلم الروسي^{٢٨} فوق مقر القنصلية العامة الروسية في مدينة الإسكندرية وسط احتفال بهيج. وبعد استلامه لمهام منصبه أرسل القنصل الجديد في الرابع من أغسطس أول تقاريره لرئيس الشؤون الخارجية «إ.أ. أوسترمان» ليبلغ نائب المستشار عن وصوله للقنصلية ومراسم رفع العلم وزيارات القناصل الأجانب ومقابلته للباشا^{٢٩}.

وصل فون طنونوس إلى الإسكندرية، وتزامن ذلك مع وصول الوالي الجديد المعين من قبل الباب العالي لمصر في منتصف يوليو ١٧٨٥. وكان يتعين على الوالي الجديد رعاية مصالح الباب العالي، وضمان وصول الضريبة لخزانة السلطان العثماني بيد أن حكم الباب العالي لمصر كان حكماً بالاسم فحسب، حيث كانت السلطة العسكرية والإدارية في أيدي البكوات المماليك. كان الوالي علي بك الكبير يحاول أثناء الحرب التي اندلعت بين روسيا وتركيا ١٧٦٨-١٧٧٤ جعل مصر دولة مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية، واتخذ عدة خطوات للتقارب مع روسيا، غير أن تلك المحاولات قد باءت بالفشل، وذلك بسبب خيانة محمد بك أبو الذهب^{٣٠} أحد المقربين من علي بك الكبير. وقام الباب العالي بتنصيب محمد بك أبو الذهب والياً على مصر في عام ١٧٧٣، ولكنه سرعان ما لقى حتفه بعد عامين من حكمه. وفي خضم الصراع على السلطة فاز اثنان من أعوانه: إبراهيم بك، ومراد بك. ويعد أن دانت لهما الأمور بدأ الاثنان الاستحواذ على جزء كبير من الضرائب التي تذهب للباب العالي من أموال وحبوب، بل وقاموا بفرض ضرائب جديدة على الشعب.

- ٢٧ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ٨٩، المجلد الثاني، وثيقة رقم ٩٦٤.
- ٢٨ القاموس الروسي لتراجم السير التاريخية، يقع في ٣٣ مجلد، موسكو ١٩٩٩، المجلد رقم ٢٧ ص ١٣٧ (أول صدور لهذا القاموس في ٢٥ مجلد من إصدار الجمعية التاريخية للإمبراطورية الروسية في سانت بطرسبورج تحت إشراف رئيس الجمعية أ.أ. بولوفتسوف من عام ١٨٩٦-١٩١٨، ولم يتم نشر أية مواد عن هذا القاموس حتى عام ١٩١٨، عندما قام م.ب. ليبينخين بوضع تلك المواد في ثمانية مجلدات وإعدادها للنشر.
- ٢٨ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ٨٩، المجلد الثاني، وثيقة رقم ٩٦٨.
- ٢٩ جاءت كتابة الأسماء بالحروف العربية على هذا النحو وفقاً لما جاءت عليه في الترجمة الأكاديمية لها التي وردت في كتاب الجبرتي: «مصر وحملة نابليون بونابارت ١٧٧٦-١٧٩٨»، موسكو، ١٩٧٨ المجلد الثاني.



في مطلع عام ١٧٨٦ قام مراد بك بجباية الضرائب بالقوة والتهديد في دلتا النيل وبالتحديد في منطقة رشيد. وأرسل مبعوثاً له يدعى صالح أغا إلى الإسكندرية لجمع الضرائب. وطالب صالح سكان المدينة بدفع خمسة آلاف ريال لسد نفقات رحلته والفريق المرافق له، وطلب دفع غرامة الحرب بقيمة ١٠٠ ألف ريال. وهدد صالح أغا أنه في حال رفض دفع تلك الضريبة، سيقوم بتدمير الكنائس. ولم يكن هناك من يقوم بحماية المسيحيين من أهالي الإسكندرية والتجار الأوروبيين. وكانت النتيجة أن هرب الكثيرون من المدينة خشية تعرضهم للاعتداء وعلق من بقى من الأهالي أملمهم الأخير على قناصل الدول الأوروبية. وفي هذه اللحظة الحرجة والصعبة على أهالي المدينة جاءت صلابة وجرأة القنصل الروسي لتتخذ الوضع في البلاد، حيث أعلن القنصل الروسي رداً على مطالب صالح أغا أن سكان المدينة سيقومون بدفع المبلغ المطلوب منهم

ولكن في حالة واحدة عندما يصدر فرمان من الباشا^{٣١}، يؤكد أن تلك الأموال ستذهب إلى خزينة الباب العالي. وبالطبع لم يكن لمثل هذا فرمان أي وجود لدى صالح أغا، ولم يكن في خطط مراد بك دفع أية أموال للسلطان العثماني. وهكذا ألغيت مئات الآلاف من غرامات الحرب من على عاتق أهالي الإسكندرية^{٣٢}.

في مارس من عام ١٧٨٦ وصل خطابان غير عاديين إلى مقر القنصلية الروسية بالإسكندرية. كان أحدهما من إبراهيم بك والثاني من مكسيم كاتشكاتشوف «ضابط بالمدفعية الجورجية». وجه إبراهيم بك أحد حاكمي مصر الفعلين الدعوة للسيد فون طنوس للذهاب إليه بشكل عاجل لمناقشة موضوع هام. وفي الخطاب الثاني أشار الضابط الجورجي غير المعروف للقنصل إلى أن هناك رغبة لدى البكوات المماليك بالخروج من عباءة الباب العالي وذلك بشرط اعتراف روسيا ودعمها استقلال مصر.

تجدد الإشارة إلى أن ضابط المدفعية الجورجي «مانوتشار كاتشكاتشيفيلي» الذي كتب اسمه باللغة الروسية «ماكسيم كاتشكاتشوف»، قد وصل إلى مصر في يناير عام ١٧٨٦، لزيارة أحد أقاربه^{٣٣}. وكان يحمل في جعبته خطابات توصية للبكوات من قيصر مملكة كارتلي-كاخيتي الجورجية «إيراكلي الثاني» حيث أنه من المعروف أن عدداً كبيراً من البكوات المماليك يحملون جذوراً جورجية وأبخازية، وظلوا على علاقة طيبة بالوطن. بعد لقائه مع إبراهيم بك لم يكن مانوتشار كاتشكاتشيفيلي أول مصدر يعلم منه البكوات المماليك بشأن توقيع إتفاقية جورجي فيسك بين روسيا ومملكة كارتلي-كاخيتي في عام ١٧٨٣. غير أن وجود كاتشكاتشيفيلي قد فتح الباب أمام البكوات المماليك لكي يكونوا على دراية ببواطن الأمور من مصادرها الأولى. وكان نموذج استقلال مملكة كارتلي-كاخيتي الجورجية تحت الوصاية الروسية نموذجاً جيداً للمحاكاة.

- ٣١ الجبرتي: المصدر السابق من ص ١٥٤ : ص ١٥٥ .
٣٢ وردت هذه الرواية في كتاب الجبرتي، ولكن وفقاً لما جاء في قاموس تاريخ السير الروسي، المجلد السابع والعشرين، ص ٧٣١، جاء فيه أن صالح أغا أعفى القناصل الأوروبيين من دفع غرامة الحرب، ولكنه كان يجبر «المواطنين المسيحيين» على دفع تلك الغرامة .
٣٣ لم يجد عمه م. كاتشكاتشيفيلي في عداد الأحياء . الأرشييف الروسي الحكومي للمحاضر القديمة، الملف رقم ١٥، وثيقة رقم ١٩٥ السطر من ١٩ : ٢٠ (الرسالة الرابعة لكاتشكاتشيفيلي)، يتم الاستعانة بالخطابات حسب الترجمة التي قام بها ف. ج. ماتشاردزا والتي نشرت لأول مرة في كتابه «وثائق جورجية من تاريخ العلاقات الجورجية - الروسية - المصرية - الأثيوبية في ثمانينيات القرن الثامن عشر»، تبليسي، ١٩٦٧ .

لم يكن لدى « كاتشكاتشيشفيلي » أية صلاحيات رسمية لذا فقد قام البكوات لمماليك باستدعاء القنصل الروسي من الإسكندرية لمناقشة فكرة التقارب مع روسيا .

أصبح «فون طونوس» أمام خيار صعب للغاية؛ لأنه إذا ما علم بشأن تلك المباحثات سيترتب على ذلك بالضرورة وقوع أزمة دبلوماسية في العلاقات بين روسيا وتركيا . بالإضافة إلى ذلك فإن إبراهيم بك ومراد بك كانا يحاربان لصالح محمد بك أبو الذهب في مواجهة على بك الكبير . ولم يكن من السهل كذلك الثقة في ذلك الاقتراح الداعي للتعاون مع روسيا عندما يصدر من أفراد كانوا يحاربون بالسلاح محاولة سابقة لمثل هذا التقارب . كانت تبدو دعوة البكوات بمثابة حركة مستفزة ، حيث كان لدى القنصل فون طونوس مبرراً للظن أن مراد بك لم يكن لينسى له ذلك الدور الذي لعبه لصالح أهالي الإسكندرية في مواجهة صالح أغا . وفي ظل هذه الأجواء بدت رحلة القنصل الروسي إلى القاهرة بمثابة فخ خطير قد نصب له . وفي الوقت نفسه ، فإن الرفض المباشر للزيارة كان سيسبب متاعب جمّة « لفون طونوس » من جانب البكوات المماليك الأقوياء .

لجأ فون طونوس للتكتيك الشرقي المعتاد في مثل هذه الحالات ألا وهو الترقب والتريث . وبعد تلقيه تلك الدعوة قرر تأجيل الزيارة معللاً ذلك بضرورة الحصول من السفارة في إسطنبول ، على هدايا قيمة لحضرة و جناب الأمراء المماليك . وحقيقة الأمر ، أنه بالإضافة إلى الهدايا كان القنصل ينتظر أيضاً تعليمات رئيسه ياكوف إيفانوفيتش بولجاكوف ، المبعوث الروسي في تركيا .

وصل « مانوتشار كاتشكاتشيشفيلي » إلى الإسكندرية في الأول من مايو ١٧٨٦ ، وكان يحمل خطابات البكوات المماليك ؛ لأن القنصل لن يصل في القريب العاجل ، ولهذا فقد كلفوا « كاتشكاتشيشفيلي » مباشرة ، لكي يقوم بتوصيل طلبهم إلى السفير الروسي في اسطنبول . ولم يرق هذا التصرف لـ « كاتشكاتشيشفيلي » ولا « لفون طونوس » ، وقررا مصادرة تلك الخطابات . من المحتمل أن القنصل لم يكن يشق أن تلك الخطابات حقيقية ، أو على النقيض من ذلك فقد حاول التخلص من تلك الرسائل المسيئة ، التي إذا ما وقعت في أيدي مسئولى الباب العالي ، فمن الممكن أن تستخدم كأدلة مادية . ولكن صبر طونوس قد نفذ عندما وجد أحد هذه الخطابات موجهاً إلى يا . بولجاكوف ، ويتضمن طلباً من البكوات المماليك بتعيين « كاتشكاتشيشفيلي » قنصلاً في مصر بدلاً من فون طونوس . وكانت تلك الخطابات مكتوبة باللغة الجورجية .

على الرغم من أن ضابط المدفعية النشيط قد فقد خطابات التوصية التي كانت بحوزته، إلا أن هذا لم يسبب له حيرة أو قلقاً. فقد كتب كاتشكاتشيفلي في التقرير الذي أرسله بعد عام إلى الأمير بوتيمكين أنه بعد أن تم أخذ تلك الخطابات منه بأمر من فون طنونوس توجه إلى إبراهيم بك يطلب منه أن يعطيه خطاب توصية آخر. ولكنه لم يكن صريحاً مع إبراهيم بك، وكتب له أن الخطاب السابق "قد سقط منه في الماء". وعلى الرغم من الإهمال الذي تعامل به الضابط الجورجي حيال الخطابات السرية التي عهد بها إليه إلا إن إبراهيم بك قد استجاب على الفور لطلبه، وأعطاه خطاب توصية آخر. ولا نعلم هل وصل أمر هذا الخطاب إلى القنصل أم لا، ولكنه أجل رحيل "كاتشكاتشيفلي"، الذي ذهب بدوره إلى إبراهيم بك يشكو له أمر القنصل^{٣٤}. كتب إبراهيم بك إلى القنصل يطلب منه أن يسمح "لكاتشكاتشيفلي" بأن يغادر، أو أن يعيد إليه خطاباته. لم يكن فون طنونوس راضياً عن ذلك وأجر "كاتشكاتشيفلي" على أن يهديه من قلق إبراهيم بك مؤكداً على مغادرة الضابط الجورجي قريباً.

في الوقت نفسه تلبدت سماء البكوات المماليك بالغيوم، ففي الحادي عشر من مايو عام ١٧٨٦ تم إبلاغهم في إجتماع الديوان في القاهرة، بمطالب الباب العالي بشأن إرسال أموال الضرائب المتأخرة خلال شهر من الآن، وكذلك إرسال الحبوب والأموال المخصصة لمكة والمدينة^{٣٥}. وفي الثاني عشر من يوليو من نفس العام وصلت عدة سفن تركية لميناء الإسكندرية، وسرت الشائعات حول وصول الأسطول التركي قريباً. وفي ظل هذه الأجواء، فإن التواصل مع البكوات المماليك سيشكل خطورة كبيرة. وعندما أخبر "كاتشكاتشيفلي" القنصل بأنه التقى مرة أخرى بمندوب البكوات المماليك، الذين طلبوا منه ضماناً بتقديم المساعدة من جانب روسيا، فأمر طنونوس بإيداع الضابط الجورجي قيد الإقامة الجبرية في منزله، وحصل منه على وعد بالأيقدم على مثل تلك الأعمال مرة ثانية.

في الثاني من يوليو وصل الأغا من إسطنبول ليطالب البكوات المماليك بالوفاء العاجل لكافة التزاماتهم للباب العالي. وياتت تلك الشائعات الخاصة بوصول الوحدات الرئيسية للأسطول البحري التركي مؤكدة حيث أرسل أحمد الجزار والي عكار رسالة

٣٤ المرجع السابق .

٣٥ الجبرتي، المرجع السابق، ص ١٦٠ .

إلى البكوات المماليك يخطرهم بذلك . وسارع إبراهيم بك بإرسال خطابات تحمل التأكيد على طاعته للباب العالي والوزير ، و "قبودان باشا" (قبودان باشا لفظ عثمانى يطلق على أمير الاسطول العثماني في الامبراطورية العثمانية وبالعربية قبطان باشا - المترجم د. محمد رياض) ^{٣٦} .

في السادس من يوليو وصل الإسكندرية "قبودان باشا" غازي حسن باشا . بعد فترة وجيزة ، وتوجه بقواته إلى رشيد استعداداً للذهاب إلى القاهرة . وكتب فون طونوس في التقرير الذي أرسله إلى يا.إ. بولجاكوف : "يأسف البكوات كثيراً ، لأنهم لم يقتلوا القناصل قبل وصول "قبودان باشا" إلى الإسكندرية ، ويعدون بتنفيذ هذا الأمر فور الانتهاء من معرفة القرار الذي سيتخذه قبودان باشا ويفضلون إلقاء التبعة على أكثر من باقي القناصل الآخرين ^{٣٧} .

في تلك اللحظة طبقاً لرواية "كاتشكاتشيفيلي" ، التي عرضها لاحقاً في تقريره المفصل للأمير بوتيمكين ، أرسل البكوات خطاباً للقنصل يطالبونه بأن يصلحهم على "قبودان باشا" وقالوا: "سنقوم بدفع كل ما يطلبه" وإذا ما صدقت تلك الأنباء التي أخبر بها "كاتشكاتشيفيلي" سيكون من الممكن أن نتعاطف مع فون طونوس : فهؤلاء البكوات الذين أرادوا تارة قتل القنصل ، وتارة يطالبونه بضمانات لبدء العمليات العسكرية ضد تركيا . الآن يشكون من قلة القوات والعتاد ويطلبون المساعدة من القنصل ؛ لتسوية ذلك الخلاف الذي دام لسنوات طوال مع السلطات التركية .

وطبقاً لشهادة "كاتشكاتشيفيلي" لم يعلم "فون طونوس" كيف يتصرف في مثل هذا الموقف ، وتوجه للقنصل الفرنسي الأكثر منه خبرة ودراية ؛ لطلب المشورة والنصيحة ، ونصحه القنصل الفرنسي بأن يرسل خطاباً إلى محكمة المدينة ؛ لكي يقوم القاضي بإخبار الباشا بطلب تسوية الخلاف . غير أن ذبوع أمر الخطاب الذي يتضمن الشكوى والتذمر من الوضع المتدني للبكوات المماليك ، جاء بنتيجة عكسية ، وعجل فقط في تحرك "قبودان باشا" إلى القاهرة . وبعد أن تلقى "قبودان باشا" تأكيدات عن ضعف البكوات المماليك لم يرغب في المصالحة معهم . وقد أسقط في يد القنصل الفرنسي أن يعلم البكوات المماليك كيف تعامل القنصل الروسي بغدر مع خطابهم .

٣٦ المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

٣٧ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، الملف رقم ٨٩ ، الحافظة رقم ٨ ، المجلد الثاني ، وثيقة رقم ٦٧٥ ، السطر من ١٥ : ١٧ ، إقتباس من ج.ف. ماتشوراد ز ا - المرجع السابق ، ص ٥ .

في ظل تفسير وتأويل تلك الأحداث، سنجد أن هناك تناقضات . فمن المستبعد أن يكون القنصل الروسي شخصية بارزة في نظر الأدميرال العثماني لكي يستعين به كعضو في هيئة التحكيم . بل كانت تلك الشهرة من نصيب سعيد نجم الدين ، الذي وصفه المعاصرون بأنه محام بارز ومتفوق وعالم مشهور^{٣٨} . ظل نجم الدين في إسطنبول ما بين عامي ١٧٨٤، ١٧٨٥ ؛ ليساعد حسن باشا في إعداد الحملة العسكرية على . وبمجرد أن وصل إلى مصر تم تعيين نجم الدين قاضياً للمدينة .

حاول "قبودان باشا" الحرص على احترام القوانين لاستمالة الناس نحوه . وبعد مرور شهرين طلب والي مصر من تجار القاهرة سداد الدين من خلال دفع الضرائب المفروضة على جلب التوابل . وقام التجار بتقديم صحيفة، أوضحوا فيها أن إبراهيم بك الذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب القائمقام، ونائب والي مصر، قام بتحصيل الضرائب منهم . وعندما رفض الوالي الاعتراف بأن هذه المدفوعات شرعية وقانونية (حيث أن الأموال التي جمعها إبراهيم بك لم يعطها له) ، وطالب بمدفوعات أخرى . عندئذ توجه التجار إلى "قبودان باشا" طلباً للمساعدة، والذي نصحهم بدوره بالتوجه إلى المحكمة الشرعية، حيث تم التأكيد هناك على براءة وصدق التجار^{٣٩} .

وإذا كان الخطاب الموجه إلى "فون طونوس" الخاص بطلب البكوات مساعدته في الصلح كان موجوداً بالفعل، فإن قرار تقديم هذا الخطاب للقاضي، يعد خطوة مبررة . علاوة على ذلك، فإن قيام فون طونوس بإظهار هذا الخطاب، يجعله يبعد عن نفسه أية شبهات لمساندة المماليك . وكان من الصعب التنبؤ بقادم الأحداث ، حيث لم يستطع أحد أن يجيب إجابة محددة على هذا السؤال : هل سيصل الأمر إلى حد المواجهة العسكرية أم لا ؟ وإذا ما وصل إلى ذلك فلن يكون الغلبة إذن ؟ وكان التزام الحياد إزاء الصراع بين ممثلي الباب العالي والمتمردين من رعاياه هو التصرف السليم والوحيد في تلك اللحظة .

في الثامن من أغسطس عام ١٧٨٦ دخل حسن باشا إلى القاهرة دون أية مقاومة، وفر إبراهيم بك ومراد بك إلى صعيد مصر . وقد قرر "قبودان باشا" مطارتهما حيث أراد خوض معركة حاسمة قبل أن ينخفض مستوى المياه بنهر النيل الأمر الذي سيعوق تحرك السفن التركية . وفي السادس والعشرين من أكتوبر وقعت معركة عنيفة عند المنشية وتكبد الطرفان خسائر كبيرة، ولم يحرز أي من الطرفين نصراً حاسماً . وظل المماليك في صعيد مصر، واضطر حسن باشا لطلب التعزيزات من الباب العالي .

٣٨ الجبرتي ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

٣٩ المرجع السابق ، من ص ١٨٨ : ص ١٩٠ .

وفقاً لرواية "مانوتشار كاتشكاتشيشفيلي" الذي كان مازال بالإسكندرية آنذاك، أنه بعد تلك المعركة التي وقعت في المنشية، قام مندوبو البكوات بالاتصال به مجدداً. كان "كاتشكاتشيشفيلي" يريد التخلص من رقابة فون طنوس فحاول مغادرة المدينة وطلب الذهاب إلى القدس للحج غير أن القنصل منعه من مغادرة الإسكندرية. وأخيراً وبعد أن أقنع الضابط القنصل برغبته في شيء واحد فقط وهو الذهاب بسرعة إلى وطنه، سمح القنصل له بالسفر. وبعد أن أدرك كاتشكاتشيفيلي أنه لا يحمل معه غير خطابات باللغة الجورجية بدون توقيع، فسيكون من الصعب إذن إقناع السفير في اسطنبول بتلك المهمة، التي كلفه بها بكوات المماليك، فحاول أن يقنع ترجمان القنصلية بأن يعطيه خطاباً مرفقاً لأجل يا. بولجاكوف.

وصل "كاتشكاتشيفيلي" أخيراً إلى إسطنبول في يناير من عام ١٧٨٧، غير أن بولجاكوف كان يستمع لروايته بانتباه شديد وارتباب. إذ أن دعم ومساندة المماليك تعني قطع العلاقات مع تركيا الأمر الذي كانت روسيا تحاول أن تتفاده في ذلك الوقت. بالإضافة إلى ذلك، فإن الثقة في مبادرات الضابط الجورجي تقوضها تلك الأخبار حول المباحثات التي أجراها إيراكلي الثاني مع سليمان باشا أخلاطسى، الأمر الذي يخالف اتفاق جيورجي فيسك. وبعد أن قضى "كاتشكاتشيفيلي" شهرين في اسطنبول دون أن يحصل على رد لطلبه، غادر إلى روسيا، حيث كتب عدة تقارير إلى الأمير بوتمكين، يخبره فيها عن الأوضاع في مصر ومشروع إقامة علاقات مع أثيوبيا، وقد عرض خدماته في أن يصبح سفيراً لروسيا في أثيوبيا^{٤٠}.

مع مطلع عام ١٧٨٧ بدأ الباب العالي يستعد بهمة لخوض الحرب ضد روسيا. وفي إطار تلك الاستعدادات تم استدعاء القوات من مصر بالتدريج، وكان يتعين على حسن باشا إنهاء عملياته في صعيد مصر. وفي السادس والعشرين من يوليو عام ١٧٨٧ وجهت تركيا إنذاراً نهائياً إلى روسيا بشأن مطالبتها الإقليمية. كان أحد بنود الإنذار المطالبة بسحب القنصل الروسي في كل من ياسي وبوخارست والإسكندرية^{٤١}.

٤٠ الأرشيف الروسي الحكومي للمحاضر القديمة، الملف رقم ١٥، وثيقة رقم ١٩٢، السطر ١٧، ١٨.

٤١ ب. بيرتنيوف «ثلاثة مشاهد في العلاقات الروسية - العربية في القرن ١٨، المشهد الثالث. أول قنصل روسي بالإسكندرية ١١ آسيا وأفريقيا اليوم، العدد رقم ٩ لعام ١٩٨٧، ص ٥٢.

في الرابع والعشرين من أغسطس، تم إعتقال القنصل الروسي بولجاكوف في إسطنبول ، وإيداعه القصر ذى الأبراج السبعة، وبدأت الحرب وفي التاسع عشر من سبتمبر ١٧٨٧ تم إنزال العلم من على مبنى القنصلية الروسية بالإسكندرية ، وغادر البارون فون طنونوس مصر. وفي يوم السابع والعشرين من سبتمبر، أعلن في جلسة الديوان بالقاهرة فرمان السلطان العثماني، الخاص باستدعاء حسن باشا إلى إسطنبول، لكي يتأسس "الجهاد ضد موسكو"^{٤٢}. وفي السادس من أكتوبر غادر "قبودان باشا" القاهرة بعد أن كلف اسماعيل بك بحكم مصر العليا، وهو أحد المماليك المواليين لعلی بك الكبير .

وصل فون طنونوس صقلية في مطلع أكتوبر ثم ذهب إلى إيطاليا (من المرجح أن يكون وصل إلى ليفورنو) ومن هناك في السادس عشر من نوفمبر أرسل تقريراً إلى نائب المستشار "أوسترمان" عن نشاطه بالإسكندرية. وبعد أن قام فون طنونوس بتحليل الوضع في مصر أشار إلى إمكانية إحداث تغيير في الحكم هناك أو بعبارة أخرى قدم مشروعاً حول إخراج مصر من عباءة السلطان العثماني^{٤٣}.

كان هذا المشروع يشبه كثيراً تلك الاقتراحات التي تقدم بها الضابط الجورجي من قبل إلا أنه لم يول الأوصول الجورجية، والأبخازية أو السلافية لهؤلاء البكوات المماليك أهمية كبيرة في التعاون المقترح. قامت خطته بالأخص على دعم الطموحات الانفصالية للبكوات المماليك الذين أرادوا التخلص من سيطرة الباب العالي .

لايكن الفرق بين مشروع " كاتشكاتشيفيلي" و "فون طنونوس" في الاختلافات الداخلية لتلك المشروعات بقدر ما يكمن في الظروف الدولية المتغيرة. فقد قطعت تلك الحرب أي اتصال بالبكوات المماليك الثائرين، هذا بالإضافة إلى أن مغادرة "قبودان باشا" (قائد الأسطول التركي) وسحب القوات التركية قد غير موازين القوى في مصر. وفي البلطيق كان هناك أسطول يستعد للذهاب إلى البحر المتوسط؛ لكي يكرر نجاحات حملة الأرخبيل سنوات ١٧٦٩-١٧٧٤ .

٤٢ الجبرتي، المرجع السابق، ص ٢٣٤ .
٤٣ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٨٩، حافظة رقم ٨، المجلد الثاني، وثيقة رقم ٩٧٧ .

في حال تنفيذ الخطة المرسومة، فإن انفصال مصر سيضمن للأسطول الروسي قاعدة عمليات في شرق البحر المتوسط، وسيحرم الباب العالي مصدراً هاماً من مصادر إمداده بالمواد الغذائية، وإبعاد جزء من القوات التركية من مسرح العمليات الأوروبي. وكل هذا سيتحقق بدون أية نفقات أو استثمارات. فالحديث كان يدور في واقع الأمر حول تنسيق للعمليات المشتركة، وكان لغياب ذلك التنسيق الدور الحاسم في فشل التحالف مع علي بك الكبير. جاء مشروع «فون طونوس» في الوقت المناسب والملائم تماماً وتلقفته الأيدي المناسبة. ففي نهاية نوفمبر ١٧٨٧ في اجتماع مجلس الدولة، تم قراءة الأنباء الخاصة بسحب القنصل الروسي من الإسكندرية، وفي مطلع ديسمبر، تم مناقشة التقرير الذي أرسله القنصل في السادس عشر من نوفمبر^{٤٤}. ويعد أن اطلعت الإمبراطورة كاترين الثانية على التقرير، أصدرت أمراً بسرعة استدعاء البارون «فون طونوس» إلى سانت بطرسبورج. وبعد مجيئه إلى بطرسبورج^{٤٥} في الخامس عشر من فبراير ١٧٨٨ أعد البارون مذكرة بها وصفاً لمشروعه. وبعد مرور ثلاثة أيام، عقد مجلس الدولة اجتماعاً بحث فيه مشروع «فون طونوس»، ثم قام بإقراره.

حضر الاجتماع س.ك جريج الذي تم توجيه الدعوة له بصفة شخصية، حيث أنه سوف يتأسر الأسطول الروسي بالبحر المتوسط. واقترح فون طونوس في إطار المشروع، أن يتم تزويد البكوات المماليك الذين كانوا يعانون من عجز في المدفعية بالذخيرة والمدافع النحاسية. وكان من المفترض أن يتم نقل كل هذا على متن أسطول جريج. كما قرر المجلس كذلك إثباتاً لحسن النوايا حظر الهجوم على أية سفينة ترفع العلم المصري. وقد أكد هذا الإجراء للمماليك جديّة نوايا الروس، وإسهامهم في انجاح المفاوضات. وصدرت بذلك الأوامر المناسبة من القائد جريج الذي كان مسئولاً عن مراقبة أعمال القراصنة^{٤٦}.

٤٤ أرشيف المجلس الحكومي، المجلد الأول المجلس في عهد كاترين الثانية (١٧٦٨ - ١٧٩٦)، سانت بطرسبورج ١٨٦٩، ص ٥١١، ص ٥١٥.

٤٥ جاء في المذكرة التي قدمها طونوس والمكتوبة باللغة الفرنسية قبل مناقشة خطته في مجلس الحكومة «on Egypte» (أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم 98، حافظة رقم 8، وثيقة رقم 779، السطر 11).

٤٦ أرشيف مجلس الدولة، من ص ٥٣٦ : ٥٣٧.

في الحادي والعشرين من فبراير، بدأ المجلس يستمع إلى خطاب جريج الموجه إلى نائب المستشار، الذي يوضح فيه الأدميرال رأيه بشأن تنفيذ مشروع فون طنونوس . وكان قرار مجلس الدولة ، وخطاب جريج بمثابة الأساس للتوصيات السرية الموقعة من القيصرة إلى «فون طنونوس» ، والتي تليت في المجلس في الثامن والعشرين من فبراير عام ١٧٨٨ . وجاء فيها : « رابعاً : مادام قد وجدتم النوايا الحسنة من جانب البكوات المصريين تجاهنا، فقد قمنا بتزويدكم أولاً : بخطابنا لهم، وثانياً : المساعدة الكاملة التي يمكنكم بيان تفاصيلها معهم عند معرفة احتياجاتهم المباشرة وربما بإذن سمونا يمكنكم وضع شروط مبدئية بموافقة الأدميرال جريج وبعد ذلك سنوافيكم بتصديقنا» . « خامساً : علاوة على التأكيدات التي جاءت في خطاب سمونا للبكوات الماليك ، أضف إليها هذه الكلمات، إننا نشيد بجهودهم في تحقيق الرفاهية للقطر الذي يحكمونه ، ولكم يسعدنا أن نرى أنهم قد خرجوا من قبضة الغرباء نالوا الاستقلال والأمان وأن الوقت الآن هو أنسب وقت لفعل ذلك الأمر ويجب عدم تقويت الفرصة والوقت، وإلا لن يجدوا مثلها أبداً^{٤٧} . فعدونا مشغول بالحرب ضدنا وضد حليفنا إمبراطور روما . وبالإضافة إلى جيوشنا الكثيرة التي تعزل قواته من جبال القوقاز حتى البحر الأدرياتيكي ، وأسطولنا الذي يهدده في البحر الأسود فإن أسطولنا في البحر المتوسط في هذا الربيع المرسل مع عدد كبير من القوات البرية ، يقلقه لدرجة أنه لن يكون قادراً على تخصيص أي قوات لاضطهاد واكتساح جديد لمصر ...»^{٤٨}

جاء في التوصيات كذلك، ضرورة إلزام السرية التامة : « سنترك لحسن تقديركم أي طريق تختارونه لرحلتكم عبر تريستي^{٤٩} * أوراغوزا^{٥٠} * ومن هناك تستقلون سفينة مؤجرة، كأنها سفينة تجارية، أو بالقطار عبر إيطاليا . ونؤكد على التزامكم الحذر أنه في كلتا الحالتين يتعين الحفاظ على هذا السرب حيث لا يستطيع أحد أن يتكهن بمغزى رحلتكم من هنا ، ويمكنكم أن تقولوا هنا إنكم ذاهبون لرؤية عائلتكم وهناك ستنظرون إما وصول الأسطول ؛ أو توظيفكم في مكان لا يتطلب عملاً شاقاً بل سهلاً ومائلاً لعملكم العالي ...»^{٥١}

٤٧ يصعب قراءتها في النص كما ورد بالنص الأصلي .

٤٨ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٩٨، الحافظة رقم ٨، المجلد الثاني، وثيقة رقم ٨٩ ، السطر ٢،٣.

٤٩ * تريستي : أسطاجانكو - مدينة وميناء في شمال شرق إيطاليا قرب الحدود مع سلوفينيا (المترجم) .

٥٠ * راغوزا : مدينة إيطالية جنوب شرق صقلية، عاصمة مقاطعة راغوس . (المترجم) .

٥١ المرجع السابق.

بعد أن تسلم البارون فون طونوس المرسوم الإمبراطوري، والتعليمات، والخطابات من الأدميرال جريج، غادر سان بطرسبورج على الفور. وقد وصل إلى العاصمة وهو يحمل رتبة رائد ليخرج منها حاملاً رتبة عقيد. وقد بذل الزملاء بالشئون الخارجية قصارى جهدهم لانهاج تلك المهمة السرية. وصدر الأمر للأمير د.م. جوليتسين السفير في فيينا، بتنظيم عملية تسليم التقارير الواردة من فون طونوس لناقل المراسلات. وقد أوصل فون، طونوس بنفسه هذا القرار إلى السيد بيزارودكو^{٥٢}. ومن خلال المبعوث الروسي في فلورنسا قبطان سفينة البريد «النسر الروسي» موتسينيجو تلقى ك.ج. أبونسولي أمراً بأن سفينته بكل ما فيها من ذخائر، تصبح خاضعة للعقيد طونوس^{٥٣}.

وصل فون طونوس إلى مدينة جنوة بوصفه تاجراً من ستراسبورج يدعى «بيتر لورمان» في العاشر من مايو ١٧٨٨، بعد أن زار العديد من الموانئ في إيطاليا. وأظهر المرسوم الملكي للسيد أكيم جريجوريفيتش ليزاكيفيتش القائم بالأعمال الروسي، وطلب منه المساعدة في ترتيب رحلته إلى مصر. وبفضل اتصالات وعلاقات أ.ج. ليزاكيفيتش مع أنطونيو كازيلاري، القنصل غير الرسمي لجمهورية راجوزا في جنوة، تم إبرام إتفاق مع أحد ملاك السفن من راجوزا، ويدعى ميخائيل تورتشينوفيتش حول تأجير سفينة: «فيرجو بوتنس، وسایت يوجانسيس بابتيس» ذات الثلاث صواري. ووفقاً لهذا الإتفاق تعهد مالك السفينة بنقل «بيتر لورمان» إلى مالطا وعكا ودمياط وأي مكان يريده لشراء البضاعة التي يحتاجها. تم إبرام الاتفاق لمدة ستة شهور، وكانت قيمة الإيجار الشهري ألفين ليرة أو ١٣٠ من عملة البندقية. تم دفع الإيجار أربعة شهور مقدماً، وتأجيل الدفع عن شهرين؛ لكي ينصاع مالك السفن لرغبات المستأجر. وتم توثيق العقد عند الموثق الرسمي. وبشهادة أنطونيو كازيلاري. قام أ.ج. ليزاكيفيتش لحرصاً على السرية وعدم ثقته في أي شخص بتشفير تقرير فون طونوس المرسل إلى نائب المستشار أوسترمان^{٥٤}.

في الحادي والثلاثين من مايو ١٧٨٨، خرجت السفينة من جنوة، ولكنها عادت مرة أخرى إلى الميناء، بسبب «الرياح المعاكسة». وفي الخامس من يونيو في تمام الثامنة مساءً توجه فون طونوس إلى رحلته الأخيرة. وخلال عدة شهور لم ترد عنه أية أخبار. وفي الرابع والعشرين من

٥٢ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٣٢، الحافظة رقم ٦، وثيقة رقم ٧٢٣ ، السطر ٢.
٥٣ أرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٤٨، الحافظة رقم ٢، وثيقة رقم ٤٦، السطور من ٥٠-٥٣.
٥٤ المرجع السابق، السطور من ٤٠ - ٤٥.

أكتوبر تلقى أ.ج. ليزاكيفيتش رسالة من زانتي - إحدى الجزر الأيونية - تفيد بأن «بيتر لورمانوف» قد شوهد هناك . وقد غادر سفينة «راجوزسك» في مالطا، وهناك حصل على سفينة أخرى من القرصان الشهير جوليلمي . وقد عرج على متن تلك السفينة في الصيف على زانتي ، حيث كان الكثيرون يعرفون القنصل معرفة جيدة . وقد تدمر ليزاكيفيتش من : « أن البعض كانوا يخبرون أصدقاءهم عنه في نفس المكان، عن الطريق الذي سيسلكه حتى إنهم كانوا يعرفون بقدومه»^{٥٥} وقد عرفنا عن سير الأحداث القادمة بصفة أساسية من مصادر غير مباشرة ، ولذلك يمكننا فقط أن نبني فرضيات وتخمينات . لكن ما الذي أجبر فون طونوس على تغيير خطته ؟ ولماذا لم يتوجه بعد زيارته لمالطا إلى الجنوب الشرقي للساحل الأفريقي ومنه إلى مصر ، ولكنه إتجه إلى الشمال الشرقي نحو اليونان ؟ يبدو أن السبب وراء ذلك، يرجع إلى قيام أسطول القرصنة الصغير والخفيف، بقيادة الرائد لامبروس كاتسونيس في ربيع ١٧٨٨ بمعارك عسكرية ناجحة في مياه البحر المتوسط . وبحلول يونية، كان تحت قيادته حوالي ١٠ سفن مسلحة تسليحاً جيداً مع طاقم يتكون من حوالي ٥٠٠ شخص^{٥٦} . وبعد أن غادر لامبروس كاتسونيس تريستا، لم يكن يعلم شيئاً عن القرار الصادر بشأن مهمة طونوس . وكان يمكن بالفعل أن تشكل الأعمال العدائية من جانب القرصنة الروس ضد السفن التجارية المصرية، صعوبة في التواصل مع البكوات وتقويض مصداقية حديث فون طونوس . وكان يمكن لفون طونوس حامل رساله الأدميرال جريج والمرسوم الملكي ترتيب لقاء شخصي مع لامبروس كاتسونيس، الذي كانت توجد قاعدته في جزيرة زانتي ؛ لكي يخبره عن مهمته، ويحاول إقناعه بالتوقف عن توجيه الضربات للسفن المصرية . لكن لعدم تواجد لامبروس في الجزيرة كان يمكن لفون طونوس أن يخبره بالتعليمات المناسبة عن طريق نائب القنصل الروسي في جزيرة زانتي - زاجورسكى . بيد أن طونوس لم يعثر على أحد في جزيرة زانتي . وفي منتصف الصيف قام أسطول كاتسونيس بحصار وإجبار الحامية التركية على تسليم حصن كاستل روسو ، بالقرب من شواطئ آسيا الصغرى، ثم أخذ ذلك الأسطول الصغير يجوب شرق البحر المتوسط .

٥٥ المرجع السابق ، الوثيقة رقم ٤٨ ، السطر ١٠ .

٥٦ أنظر : ل.د. برياخين «لامبروس كاتسونيس في تاريخ اليونان وروسيا»، سانت بطرسبورج ، ٢٠٠٤ ، ص ٢٣ .

يمكن تفسير ذلك التغيير المفاجيء في الرحلة، وزيارة جزيرة زانتي، باللقاء المحتمل مع لامبوس كاتسيونيس . غير أن هذا لا يفسر لنا السبب الذي جعل فون طونوس يتخلى فجأة عن الالتزام بالسرية ويترك السفينة المؤجرة راجوزسك، وينطلق إلى هدفه المنشود، بدون سرية تقريبا . فلماذا لم يعد البارون يتبع التعليمات التي تلقاها ؟ وتسمح المعلومات غير المباشرة التي بين أيدينا أن نطرح افتراضين .

الفرضية الأولى ترتبط بتسريب معلومات عن مهمة فون طونوس . ففي نفس اجتماع مجلس الدولة الذي انعقد في الحادي والعشرين من فبراير ١٧٨٨، والذي تم فيه مناقشة رأي الأدميرال جريج قرنت رسالة فحواها، أن الإمبراطور النمساوي جوزيف الثاني، طبقاً لالتزامات التحالف مع روسيا، قام بإرسال مذكرة إلى إسطنبول بإعلان الحرب . وأعلن بعد ذلك السفير النمساوي جراف كوينتسل عن محاولات بلاط فيينا الاتصال مع الباشا الذي خلع طاعة الباب العالي .. ورداً على هذه الصراحة والعلانية، قرر مجلس الدولة إعلام الجانب النمساوي "بالإجراءات التي اتخذها الجانب الروسي بشأن الاتصال بذلك الباشا" وإعلامهم كذلك بكافة الإجراءات السابقة على الأعمال العسكرية المزمع القيام بها^{٥٧} .

في إطار سياسة الشفافية والعلانية تجاه الدولة الحليفة، تم إعلام الجانب النمساوي في ربيع ١٧٨٨ بالمهمة التي يقوم بها البارون فون طونوس . وكان لهذا الخبر تداعيات غير متوقعة . ففي التاسع والعشرين من مايو حصل الأمير د.م جوليتسين - السفير الروسي في فيينا - على " تقرير حكومي رسمي " من المستشار النمساوي كانوتس ، ودهش عندما علم من التقرير أن البلاط النمساوي قرر إرسال الكونت شتاريمبرج ، كمبعوث خاص إلى مصر لإجراء مباحثات مع البكوات المماليك .

بعد أن علمت الإمبراطورة كاترين الثانية بهذا القرار من الجانب النمساوي جاء رد فعلها سريعاً وحاسماً . كتبت إلى جوليتسين في الثالث عشر يونيو ١٧٨٨ : " الأمير ديميتري ميخائيلوفيتش ! إن الفائدة التي يمكن إقتناصها من المماليك المصريين لصالح الحرب الحالية مع الأتراك قد حظينا بها من بداية تلك الحرب . وبموجب قرارنا، تم إرسال المقدم فون طونوس هناك كقنصل عام مقيم بالإسكندرية . علاوة على ذلك، فقد تم اتخاذ إجراءات أخرى " بحيث أنه في حالة إذا ما قرر المماليك تأكيد استقلالهم والقيام بأعمال حربية ضد العدو إلى جانب سوريا، سنقوم بتقديم المساعدة لهم أثناء إبحار أسطولي في

٥٧ أرشيف مجلس الدولة ، ص ٥٢٧ .

البحر المتوسط ، ولكن أقول لكم بصراحة ، إنني أخشى من أن يسهم الكونت شتاريمبرج أو آخرون من المبعوثين من قبل البلاط النمساوي، في إعاقة نجاح تلك المهمة، فنحن في حاجة إلى السرية التامة ، وكلما قل عدد الأفراد الذين يتم الاستعانة بهم في ذلك الشأن السرى كان النجاح مؤكداً ، بالإضافة إلى ذلك لكي لا يفكرون في التنافس مع البارون فون طونوس، وهذا من شأنه أن يفسد المهمة . والأفضل في ذلك الشأن لو أن البلاط النمساوي قام بتقليص خدماته بخصوص هذه القضية، ومساعدة المماليك المصريين بإعلان الإمبراطور النمساوي حمايته لهم، وتقديم النصح لهم، لاستغلال الوقت الراهن، للتخلص من نير وظلم الأتراك وتحريضهم على القيام بأعمال حربية لتأكيد استقلالهم واستتباب الأمن لهم في المستقبل ، وإبلاغهم أننا سنرسل أسطولنا إلى مياه البحر المتوسط، ويمكنهم أن يعولوا على مساعدته لهم . وسيقوم مبعوثنا من روسيا بشرح عاجل ومفصل . وإنني أعول على اجتهادكم ، وحذرکم في أن تحتفظوا بسرية المعلومات مع الأمير كاونيتس؛ لكي لا يحدث أي ضرر أو معوقات من جانب مبعوثي البلاط النمساوي لمهمتنا التي بدأناها من قبل ٥٨ .

بعد أن حصل الأمير جوليتسين بالبريد، على مرسوم الإمبراطورة كاترين الثانية في الخامس من يونيو، قدم احتجاج الجانب الروسي الحاد للجانب النمساوي ، وحصل منه على قرار بإلغاء خطة إيفاد مبعوث خاص لمصر ، ولكن ما لا يمكن إصلاحه قد حدث، حيث أنه أثناء صدور هذا القرار ، كان الكونت شتاريمبرج موفد البلاط النمساوي للتفاوض مع البكوات متواجداً في سالونيك باليونان . و صدر إليه الأمر بسرعة التوجه إلى فيينا لتلقي التعليمات اللازمة . وقد وقع الخطاب في أيدي المبعوث الدبلوماسي في تريستي، التاجر دومينكو فرانثيسكو بيليتي . كان بيليتي يعلم أنه سيمضي وقت طويل حتى يتسلم شتاريمبرج هذا الاستدعاء ، ثم يتحرك من سالونيك إلى تريستي، حيث لابد أن يخضع هناك للحجر الصحي، ثم يتحرك إلى فيينا لتلقي التعليمات ثم ينتقل في النهاية إلى مصر، فقام بمبادرة من تلقاء نفسه . فقرر بيليتي إرسال " شخص موثوق فيه" ، إلى مصر، لكي يمهّد الطريق لوصول الكونت شتاريمبرج . لقد وجدنا لهذا الغرض شخصاً موثوق به وهو الأب أجابوس، الحاصل على وسام الباسيلية وهو راهب وكبير الكهنة ورئيس دير المنقذ في جبل لبنان ، وينحدر من أصول دمشقية وقد تمكن من إنجاز العديد

٥٨ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورة الروسية ، الملف رقم ٣٢ ، الحافظة رقم ٦ ، وثيقة رقم ٧١٣ ، السطور من ٨٩ - ٩٠ .

من الأشغال للبلاط للفرنسي، وبلاط روما بنجاح، وهو على علم ودراية كاملة بمصر، ويتحدث العربية بطلاقة، وقد أقسم على الحفاظ على السرومن ثم أخبرناه بالأمر^{٥٩}.

من الممكن أن يكون وراء مبادرة التاجر بيليتي هذه أغراض أخرى تجارية، شخصية، حيث أن الأب أجابوس هو ابن عم شريك بيليتي، ويدعى الكونت كاسيس فرعون. وكان بيليتي يعتزم إرسال رسائل مع الأب أجابوس لأصدقائه في مصر الذين كان للشركاء "مشروعات قديمة" معهم. وبعد وصول شتاريمبيرج إلى مصر، اقترح بيليتي استخدام رئيس الدير أجابوس ك مترجم. وأرسل بيليتي الأب أجابوس إلى الإسكندرية على متن سفينة راجوزسك، وزوده بشفرة معينة للمراسلات فيما بينهما. غير أن الدبلوماسي النمساوي في تريستا التي تحرك منها الأسطول الصغير بقيادة لامبروس كاتسيونيس في ربيع ١٧٨٨، كان يعلم جيداً من بيده نجاح تلك العملية. وكتب بيليتي إلى فيينا في مايو: "سبق وأن أشرت أكثر من مرة من خلال التقارير التي أرسلها إلى أهمية إعلام الجانب الروسي عن كل شيء مباشرة، أو عن طريق سفيرهم في فيينا الذي يعمل من خلال الأمير كاونيتس أو عن طريق الكونت كابينتسل، حتى أن قائد الأسطول الروسي بمقدوره أن يتواصل معنا"^{٦٠}.

في مطلع عام ١٧٨٨ عندما تخلت حكومة النمسا عن إرسال مبعوث خاص لها إلى مصر، كان رئيس الدير أجابوس قد وصل الإسكندرية. وتقرر إرسال تعليمات له من خلال بيليتي والكونت كاسيس ليقوم بتنسيق أعماله مع فون طونوس "فلا يفعل أي شيء من تلقاء نفسه، أو خلاف ما يتخذه، ويقوم به فون طونوس"^{٦١}.

أبحر فون طونوس من جنوة في مطلع يونيه، ولم يعلم أي شيء عن مهمة شتاريمبيرج، أو رئيس الدير أجابوس. ولوعلم في جزيرة زانتى أنباء هذه المنافسة غير المتوقعة، أو وجود شخص في الإسكندرية قد أعد كل ما هو ضروري لوصوله، لكان قد غير جميع خطاه.

٥٩ المرجع السابق، وثيقة ٤١٦، السطر ٥٦.

٦٠ المرجع السابق، السطر ٥٨.

٦١ المرجع السابق، وثيقة ٧١٧، السطر ٢٢.

ولعل السبب الثاني، الذي دفع القنصل الذي يتصف بالحذر إلى العجلة، من قبل ذلك، تلك الشائعات الكاذبة، حول تغيير السلطة في مصر . فقد جاء في كتاب الجبرتي، أنه عندما وصل رسول اسماعيل بك محملاً بالهدايا للسلطان العثماني في اسطنبول كان يسود هناك هرج ومرج، من جراء شائعات قوية، حول عودة مراد بك وإبراهيم بك من صعيد مصر إلى القاهرة، وهروب اسماعيل بك، ولكن وصول الرسول المحمل بالهدايا قد هذا من ذعرهم . وعاد رسول اسماعيل بك إلى مصر في منتصف يوليو^{٦٢}، لذلك فإن إنتشار الشائعات، ربما تعود إلى مطلع صيف ١٧٨٨. ولعل تغيير السلطة بالقاهرة يكون بمثابة اللحظة الحاسمة لبداية المباحثات .

يورد الجبرتي في كتابه كافة الاتصالات الماضية، التي عقدت بين المماليك وممثلي "قيصر موسكو" وذلك عند ذكر وصول المبعوث الروسي . جاء في كتاب الجبرتي : بعد أن علم قيصر موسكو بشأن القوات التركية المزمع إرسالها إلى مصر (تحت قيادة حسن باشا) ، سرعان ما قام بإرسال رسالة إلى الأمراء المماليك، يحذرهم من ذلك الأمر . وقد تم إرسال هذه الرسالة عن طريق القنصل المقيم بالإسكندرية . وفي رساله يحث الأمراء على تحصين الميناء ، والحيولة دون قيام قوات حسن باشا بعملية إنزال . وبعد أن وصل القنصل إلى القاهرة التقى مع الأمراء المماليك، وأخبرهم بكل شيء، غير أن الأمراء لم يبدوا أي اهتمام بما ذكره القنصل ، وغادر القنصل دون الحصول على أي رد . وعندما وصل "حسن باشا" أدرك المماليك مدى أهمية ذلك التحذير، وحاولوا إستدعاء السفير، ولكنه لم يستجب لهم^{٦٣} .

إحتلت زيارة "مانوتشار كاتشكاتشيشفيلي" إلى القاهرة مكان الصدارة في وصف الجبرتي، فكما نعلم أن فون طونوس لم يذهب لمقابلة إبراهيم بك . علاوة على ذلك فقد وصلت الأخبار للبعثات عن الحملة التي تم إعدادها من مصادر مختلفة، من بينها القنوات الرسمية في اسطنبول . وكتب الجبرتي لاحقاً : " حدث ما يلي : هرب الأمراء المماليك إلى صعيد مصر، وكتبوا للقنصل، وبعث برسالتهم إلى القيصر الروسي، وذهب إلى الأمراء على جمل سريع الخطى؛ ليلتقي بهم. وقد جاء هذا اللقاء مصادفة في نفس ميعاد معركة المنشية في العام الماضي، وتكبد المصريون آنذاك الهزيمة، وسرت شائعات عن عودتهم".

٦٢ الجبرتي، المرجع السابق، من ص ٢٦٢ : ص ٢٦٣ .

٦٣ المرجع السابق، ص ٢٦٧ .

جاء ذلك الخبر عند الجبرتي، عقب وصول فون طونوس إلى دمياط في عام ١٧٨٨ وبالتالي، فإن العام السابق يكون عام ١٧٨٧؛ لأن معركة المنشية وقعت في عام ١٧٨٦. يبدو للوهلة الأولى أن هناك تناقض واضح، غير أن الجبرتي لم يخطئ في تقديراته. فقد وقعت معركة المنشية في الثالث من شهر محرم، أي في مطلع عام ١٢٠١ هجريه (السادس والعشرين من أكتوبر ١٧٨٦)، وجاء وصول فون طونوس في نهاية عام ١٢٠٢ هـ في شهر ذي الحجة (الموافق الثاني من سبتمبر ١٧٨٨ - الأول من أكتوبر ١٧٨٨). ويشير "مانوتشار كاتشكاتشيشفيلي" في تقاريره الخاصة إلى إتصالاته مع البكوات، بعد الهزيمة التي وقعت في المنشية، على الرغم من أنه كتب أنه لم يستطع الذهاب إليهم. ولكن على الأرجح أن الحديث يدور حول هذه الاتصالات على وجه الخصوص. أما مسألة ذهاب فون طونوس إلى المماليك في عام ١٧٨٦ على ظهر جمل سريع، الخطى أثناء عملية تفهقرهم فكرة لا أساس لها من الصحة.

كان أبرز مشهد وصفه الجبرتي هو المشهد الثالث: « قام القيصر الروسي في محاولة منه لمساعدة المماليك، بإرسال جنوده وسفنه، وبعض الرسائل مع الشخص المذكور. وقد وصل المبعوث إلى دمياط في نهاية شهر رمضان. وهنا اكتشف أن الواقع يخالف الكلام المرسل تماماً. قام «القادمون» بمهاجمة الميناء، والإستيلاء على عدد من السفن، كما تمت الإشارة إلى ذلك من قبل. وبعد أن عاد المبعوث إلى وطنه، أخبر القيصر عن حقيقة الوضع في مصر، ومن يوجد في القاهرة الآن ومن أي البلاد ينحدر هؤلاء الأمراء، وأن الأتراك لا يكفون عن مواصلة العدوان عليهم»^{٦٤}.

ذكر الجبرتي أن الهجوم على دمياط وقع في يونيو عام ١٧٨٨ في نهاية شهر رمضان، وقد وصلت القاهرة أنباء تفيد بأن «المسيحيين قاموا بالإستيلاء على ١٢ سفينة في ميناء دمياط»^{٦٥}. كان فون طونوس في هذه اللحظة في طريقه إلى مالطا. ويبدو أنه قد تلقى هناك خبر الهجوم على دمياط، وقرر التحرك إلى زانتي، التي تعد مقر لامبروس كاتسونيس؛ لكي لا يسمح بتكرار مثل تلك الهجمات على الموانئ والسفن المصرية.

٦٤ المرجع السابق، من ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

٦٥ المرجع السابق، ص ٢٦٤.

نستنتج من حديث الجبرتي، أن كافة الاتصالات التي جرت مع البكوات، تمت عن طريق القنصل، ويبدو أن البارون فون طونوس التقى لأول مرة مع المماليك بمجرد وصوله إلى دمياط في مطلع سبتمبر عام ١٧٨٨ «فبعد أن وصل إلى دمياط أعلمهم سراً بوصوله وطلب مقابلة شخصية^{٦٦}». وأرسل اسماعيل بك لفون طونوس ضابطه الموثوق به فيلاز زاف عمير^{٦٧}، غير أن المقدم أصر على لقاء اسماعيل بك شخصياً. وفي النهاية أوصل اسماعيل بك المقدم فون طونوس إلى ميناء القاهرة في بولاق، وأسكنه هناك أحد القصور تحت المراقبة. وفي السابع عشر من سبتمبر، قرأ فون طونوس خلال جلسة الديوان الرسائل المرسلة إليهم، والتي تضمنت الدعوة للتخلص من حكم الأتراك. ووعدت روسيا من جانبها بتقديم الدعم والمساعدة، اللازمين لاستعادة المماليك لحكمهم في الأراضي السورية^{٦٨} لم يتلق فون طونوس أي رد على دعوته وقرر الديوان الذي حضر جلسته كل من المماليك وممثلو الباب العالي إبلاغ السلطات في إسطنبول بشأن القنصل الروسي. وهكذا يكون اسماعيل بك قد درأ عن نفسه أية شبهة تحوم حول اتهامه بخيانة مصالح السلطان العثماني، وكسب مزيد من الوقت في انتظار تطور الأحداث. إقتاد الحراس فون طونوس وأسكنوه إحدى الغرف بالقلعة ولم يتحفظ عليه كأسير، بل كضيف شرف.

وصلت أنباء اعتقال فون طونوس إلى سانت بطرسبورج في ديسمبر ١٧٨٨ من خلال القنصل كالاماي في "ليفورنو"، ثم جاء تأكيد الخبر من ليزاكيفيتش من جنوة^{٦٩} ولم تكن هناك أية معلومات عن مصير فون طونوس لمدة عام بأكمله، ولكن في ديسمبر عام ١٧٨٩ وردت أنباء عن وفاة البارون "فون طونوس"^{٧٠}. وعلم بتفاصيل الوفاة في وقت لاحق. وفي يونيو ١٧٩٠ أوصل أ.ج. ليزاكيفيتش لنائب المستشار أوسترمان، الخطاب الذي تسلمه من الإسكندرية. ويعلن كارل فانتوتسي مراسل ليزاكيفيتش في هذا الخطاب: "أن المبعوث من القسطنطينية مع فرمان الباب العالي، طالب بتسليم الصديق المذكور لتوصيله إلى العاصمة سالفة الذكر، وهذا ما علمته من القومندان. خشى اسماعيل بك أنه في حالة تسليمه، أن يرغموه عن طريق التعذيب أو بوسيلة أخرى أن

(٦٦) المرجع السابق، من ص ٢٦٨.

(٦٧) أنظر: ب.ف. بيرمينوف، المرجع السابق، ص ٥٣.

(٦٨) أنظر تفاصيل الاجتماع بالكامل في المرجع السابق الخاص ببيرمينوف ب.ف.، ص ٥٤، وكذلك في كتابه «إبتسامة أبو الهول»، موسكو، ١٩٩١، ص ٢٠٩: ص ٢١٠.

(٦٩) أرشيف مجلس الدولة، ص ٦٣٧، أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ٤٨، حافظة رقم ٢، وثيقة رقم ٤٨، السطر ١٠٥.

(٧٠) أرشيف مجلس الدولة، ص ٧٥٥.

يكشف النقاب عما حدث بينهم، ففكر أنه من الأفضل قتله بدلاً من تسليمه لذلك المبعوث. وهكذا فقد قرروا اعتقاله داخل أحد الحصون بالقلعة. وفي الليل ذهب إليه ٤ جلادين لخنقه ولكنه دافع عن نفسه فتعين قتله أخيراً ضرباً بالعصي^{٧١}. من المرجح أن هذا قد حدث في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٧٨٩^{٧٢}.

لم يكن المبعوث الذي جاء من إسطنبول يطلب تسليم فون طونوس، هو أول مبعوث فقد ذكر الجبرتي أنه في يناير عام ١٧٨٩ صدر قرار من الباب العالي بإرسال "الرهائن الأوروبيين"^{٧٣}. غير أن اسماعيل بك على الأرجح، كان في هذا الوقت ينتظر وصول الأسطول الروسي بأسرع وقت، ولهذا لم يرغب في أن يسبب أي ضرر لأسيره. ومع نهاية فصل الصيف بدا واضحاً أن الأسطول الروسي لن يصل إلى مياه البحر المتوسط. فقد أدت الحرب بين روسيا والسويد بحلول صيف ١٧٨٨ التي لم يكن يعلم بها فون طونوس أو البكوات المماليك أثناء إجتماع الديوان بالقاهرة، إلى إستبعاد إمكانية إرسال الأسطول الروسي من بحر البلطيق. وهذا يعني أن روسيا لن تستطيع تقديم المساعدة للمماليك في مصر لمواجهة الباب العالي، مما جعل اسماعيل بك يلجأ لهذا الخيار.

هل كانت هناك فرصة لدى فون طونوس لتجنب القتل؟ على الأرجح، نعم كانت هناك فرصة؛ فقد كتب كارل فانتوتوسي في رسالته: "لقد أوصل نفسه إلى تلك النهاية التعيسة، إذ أنهم منحوه الوقت والفرصة للهروب أكثر من مرة، ولكنه اعتقد أن هذا العمل سينال من رتبته، ويحط من شأنه". وكان هذا هو نفس التصرف الذي انتهجه القنصل الروسي في إسطنبول المعتقل في القصر ذي السبعة أبراج. أخبروا يا.إ. بولجاكوف أنذاك أن الفرقاطة الفرنسية، ستكون في انتظاره في مضيق القسطنطينية، وعليه فقط أن يستعد سراً للمغادرة فأجاب: "إنه لن يضحى من أجل أمنه الشخصي بشرف العرش والوطن"^{٧٤}. وهكذا يكون المقدم فون طونوس أول قنصل روسي في مصر قد اجتاز بشرف إمتحان ولائه للدولة، التي أقسم على خدمتها.

- (٧١) أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٤٨، حافظة رقم ٢، وثيقة رقم ٤٨، السطور ١٢٠-١٢١.
- (٧٢) قاموس السير الذاتية الروسي، المجلد ٢٧، ص ١٣٨.
- (٧٣) الجبرتي، المرجع السابق، ص ٢٨٥.
- (٧٤) أنظر مقال يا.إ. بولجاكوف عن سيرته الذاتية في القاموس الموسوعي لمؤلفه ف.أ. بروكجوز، و.ي.أ. يفرون.

القوات المصرية في حرب القرم.. والحرب الروسية التركية (١٨٧٧م - ١٨٧٨م)

كانت الإمبراطورية العثمانية تضم خلال الحروب التي خاضتها ضد روسيا ، وحدات عسكرية من البلاد الواقعة تحت سيطرتها، ومن بينها مصر. حدث ذلك خلال حربي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما واجه الجنود المصريون القوات الروسية .

شارك في حرب الشرق أو "حرب القرم" (١٨٥٢-١٨٥٦) من الجانب التركي حوالي ٥٠٠ ألف شخص . فقد كان عدد الجيش العامل ١٤٠ ألف جندي ، و جنود الاحتياط ١٤٠ ألف جندي، والقوات غير النظامية ٧٠ ألف جندي ، ووحدات مساعدة ١١٩ ألف جندي وضمت القوات من الفئة الأخيرة ١٠ آلاف جندي من ألبانيا ، و ٣٠ ألف جندي من البوسنة والهرسك ، و ٦٠ ألف من فلاخيا ومولدافيا و ٢٠ ألفاً من صربيا ، و ١٩ ألفاً من تونس وطرابلس الليبية و ٤٠ ألف جندي من مصر. وبلغ إجمالي الجنود المصريين المشاركين في حرب الشرق حوالي ٥٠٧ ألف شخص^{٧٥}.

كانت الوحدات العسكرية المصرية المشاركة في تلك الحرب، تحت لواء الجيش التركي أحفاد عصر "محمد على باشا" (١٨٠٥-١٨٤٨) . تكون ذلك الجيش لأول مرة من الفلاحين المصريين، وقام بتدريبه أفضل الخبراء الأوروبيين من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والروس والبولنديين وغيرهم ، وتم تزويده بالأسلحة الحديثة من أوروبا،

(٧٥) عن مقالة : «Египетские войска в Крымской и Русско-турецкой войнах (1877-1878 гг)» ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Goryachkin Gennady ، عمر طوسون «الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم» (١٨٥٣-١٨٥٥) طبعة القاهرة ١٩٩٣ ص ٢٤٥.

ومن الصناعة المصرية، واكتسب صلابة وخبرة حربية جيدة، أثناء الحملات الكثيرة للباشا خارج الحدود .

كانت أول "نجدة" تتألف من جنود الإحتياط . وقد أرسل إلى الجبهة الروسية - التركية ٦ كتائب مشاة قوامها (١٥,٧ ألف جندي) ، وفوج واحد من سلاح الفرسان قوامه (١,٣ ألف) ، وكتيبة مدفعية قوامها (٢,٧ ألف جندي) مكونة من ١٢ بطارية مزودة بـ ٧٢ مدفعاً وكان العدد الإجمالي لتلك القوات يقدر بـ ١٩,٧ ألف شخص^{٧٦} .. كانت تلك القوات تحت قيادة "سليم فتحى باشا" تلميذ "سليمان باشا" الفرنسي رئيس أركان الجيش المصري في عهد "محمد علي" . وخصصت القاهرة ١٢ بارجة مجهزة بـ ٦٤٢ مدفعاً وطاقماً يبلغ عددها ٦,٩ ألف بحار^{٧٧} . تولى قيادة الأسطول المصري "حسن باشا الإسكندراني" الذي درس العلوم البحرية في فرنسا، وما زال في الإسكندرية شارع يحمل اسمه .

قبل إبحارهم قدم "عباس باشا" إلى الإسكندرية؛ لاستعراضهم . وخطب فيهم ، وحثهم على القيام بالواجب؛ ليشرفوا بلدهم ويرفعوا شأنها ويشرفوا أيضاً قدر أنفسهم^{٧٨} وقد أطلق الجنود صيحات التأييد للتعبير عن ترحيبهم بخطابه، وغير ذلك لم يكن ممكناً. لم يكن الأمر يتعلق فقط بالنظام العسكري، أو مشاعر الرعية المخلصة للحاكم بل شنت "تركييا" والموالين لها الحرب ضد روسيا باسم الإسلام ضد الكفار . وقد عبر الشاعر الكبير "محمود سامى البارودي"^{٧٩} الذي شارك في حرب الشرق، وأصبح فيما بعد رئيس وزراء مصر عن هذه المشاعر بحماس منقطع النظير .

في ١٤ أغسطس عام ١٨٥٣ وصل الأسطول المصري إلى إسطنبول . ولسخرية القدر تمركز الفيلق المصري في نفس المكان، الذي كان يعسكر فيه الجيش الروسي منذ ٢٠ عاماً مضت ، والذي قدم إلى هنا بناءً على طلب السلطان "محمود" للحيلولة دون إستيلاء القوات المصرية على إسطنبول . وقد أولى السلطان "عبد المجيد" القوات المصرية اهتماماً خاصاً، وتفقدها بنفسه على الرغم من أنه لم يحظ بهذا التكريم من قبل أحد حتى الجيش التركي نفسه .

٧٦ المرجع نفسه ص ٤٧ ، ٩٣ - ٩٦ .

٧٧ المرجع نفسه ص ٤٧ .

٧٨ المرجع نفسه ص ٩٢-٩٣ .

٧٩ أريكة (مجموعة مقالات) «محمود سامى البارودي»، الجزء الأول. القاهرة ، ١٩٥٤ ص ١٣١-١٤١ .

قءم الضباط والجنوء المصرفن الأءفة للسلطان بصوء جهورف . وقء أنعم السلطان على كل قائد من القواء ، بعلبة للءبغ مرصعة بالماس ، وعلى كل ضابط برائب شهر ، وكان "عباس باشا" قء أمر بصرف مرءب ثلاثة شهر مءمأ ، للجنوء والضباط قفبل مغاءرءهم الأراضف المصرفة إلى جبهة القءال .

بعء عءة أفا مں حفلة الأكرفم الرائفءة ، تم إرسال الجفش المصرف على مءن البوارج إلى جبهة الأناوب ، هفء كلف بمهام قءالففة . وإنضم الأسطول المصرف إلى أسطول الأءالف ، والأف ءواء بشكل فعلف فف سبءمءر عام ١٨٥٣ داخل "مضفق البوسفور" . وبلع عءء الجفش الأركف ووفقا للجنرال "بءروف" مؤلف كتاب - الأرفخ الرسمى لءملة الأناوب والمشاركفن ففها - على الضفة الفمى لنهر الأناوب ، فف الأول مں أءوءبر مں عام ١٨٥٣ مائه وءمسفن ألف جنءف ، كما قءرء القواء الروسفة بمءل ذلك العءء تقرفبا ^{٨٠} .

وقع أول صءام عسكرفف بفن وءءاء الجفش المصرف والروسف فف أءوءبر (الأءوفم الجولفانى) عام ١٨٥٣ فف " رومفلفا" . وفف الرابع مں نوفمفر ، وبالقرب مں مءفنة (أولءنفءازا) جرء وقائع معركة طاحنة ، ءامء لءة ثلاثة أفا . ووفقا " لعمرطوسون " فإن الجنوء المصرفن أظهروا بسالة ناءرة ، وشجاعة فائفة ، كما أكءء الماصءا الروسية على هءه الحقفة : " لءء كانوا بالفعل أفضل القواء الأركفة " . خلفء هءه المعركة عءة مئاء مں الجرحى والقءلى مں كلا الجانبفن ، ووفقا لكءفر مں الماصءا .. قءء كانت الخسائر فف صفوف القواء الروسية أكثر ^{٨١} مں خسائر الجانب المصرف .

ءسلم " عباس باشا " بعء فءرة وجفزة أمرا مں الباب العالف بإرسال " النءة " الأائفءة ، وعلى الفور أرسل ثلاثة كءائب مں المشاة ، وسلاح الفرسان والمءفعفة (قءءربشكل عام بـ ٩٠ ألف شءص) ، والأف وصلت إلى إسطنبول فف أول أبرفل عام ١٨٥٤ ، ومں هءاك أرسلوا إلى الفونان ؛ لقمع الإنءفاضة الأف انءلعت هءاك . وقء غرقت الإنءفاضة فف بءور مں الءماء على أفءف قواء الجفش الأركف - المصرف .

أثناء المعارك الءائرة على جبهة الأناوب بءأ أسطول البءر الأسود الروسف ففجب الجانب الغربف للبءر الأسود بءءف إعءراض السفن الأركفة . وفف الخامس مں أءوءبر ١٨٥٣ ءءلء الفرقاطة الحربفة " فلاءفمفر " معركة ضء البارجة المصرفة " برفاز بءرى " ^{٨٠}

٨٠ «أ.ن. بءروف» الحرب الروسية ضء ءركفا . حملة الأناوب عام ١٨٥٣ - ١٨٥٤ ، سائء بءرسبورج ، ١٨٩٠ . ص ١٢٥ .

٨١ عمر طوسون . المرجع السابق ص ١٥٤ : بءروف ، المرجع السابق ص ١٥٣ .

وأجبرتها على إنزال العلم، وأسرت ٩٣ بحاراً، وسحبوها إلى "سيفاستوبول" ^{٨٢}.

وقع الصدام البحري الأكثر أهمية بين الأسطول الروسي والأسطول "التركي - المصري" في "سينوب" الواقعة على الشاطئ الغربي للبحر الأسود، والتي حولها الإنجليز والأترراك قبل حرب القرم، إلى واحدة من القواعد الثانوية للسفن التي تنقل الأسلحة والذخيرة لشامل (الإمام شامل الداغستاني قائد سياسي وديني آفاري في شمال القوقاز وأحد أشهر المقاومين للوجود الروسي في القوقاز- المترجم د. محمد رياض). وهناك كان يتم نقل الشحنات من السفن الكبيرة إلى مراكب الساحل ذات الصاري الواحد، التي كانت تبحر إلى ساحل القوقاز. ما إن علمت القوات الروسية بهذا الأمر حتى حاصرت جزءاً كبيراً من الأسطول العثماني في "سينوب" والمكون من ١٦ بارجة مزودة بـ ٤٧٦ مدفعاً وأربعة وأربعين مدفعاً من مدافع القلاع على ٦ بطاريات ساحلية وأربعة آلاف جندي تم إنزالهم في باتومي كمدد لجيش الأناضول.

قبل بدء المعركة، عرض الأدميرال "ناخيموف" على العدو الاستسلام، وهو الأمر الذي قوبل بالرفض. كانت السفن التركية تفتقر مدفعيتها للمناورة، وأقل شأنًا من السفن الروسية في التصنيف والقوة؛ فتكبدت خسائر فادحة، ودمرت سفنها الواحدة تلو الأخرى.

كانت الفرقاطة المصرية "دمياط" من بين السفن التي تعرضت للهجوم، وكان على متنها ٥٦ مدفعاً وطاقماً مكوناً من ٥٠٠ شخص بقيادة "أحمد إبراهيم بك". وبعد معركة قصيرة، أعلنت الفرقاطة استسلامها، ووقع في الأسر أكثر من ١٠٠ أسيراً وكشفت التحقيقات التي أجرتها القوات الروسية النقاب عن أن "القادة والضباط قد غادروا السفينة متجهين إلى الشاطئ، وهم يجرون أذيال الخزي والعار" وفقد الأسطول العثماني ٢٠٪ من سفنه و١٢٪ من قوة النيران ^{٨٣}.

كانت تلك أكبر كارثة للأسطول المصري أثناء حرب القرم فقد، تحطمت بارجتين من بوارجه في نهاية أكتوبر ١٨٥٤، خلال عودتهما إلى اسطنبول للصيانة، حيث هب إعصار مدمر، وأعاق الضباب الكثيف طريقهما، وحال دون دخولهما إلى مضيق "البوسفور". وبالقرب من المدخل تزايدت قوة الإعصار، فاصطدمت البارجتان "مفتاح الجهاد" و"البحيرة" ببعضهما ببعض، ولحقت بهما أضرار جسيمة أدت إلى غرقهما، ومن على متنهما من بحارة، والذين يقدرون بحوالى ١٩٢٠ شخص، وكان من ضمنهم قائد الأسطول

٨٢ «زفريف» نصر سينيوسكايا، سيمفيروبول، ١٩٥٤. ص ٤٦.

٨٣ المرجع نفسه، ص ٩٦-١٣٠.

المصري "حسين باشا الإسكندراني" و"محمد شهاب بك" وهو واحد من أفضل البحارة المصريين ونجا فقط ١٢٠ شخص^{٨٤}.

في نفس الوقت، لم تتوقف المعارك على جبهة الدانوب، حيث كان يهدف القادة الروس من هذا الهجوم إلى الاستيلاء على قلعة "سيلسترا" على الضفة اليمنى لنهر "الدانوب" في المرحلة الأولى. وقد دارت هناك تحديداً معركة طاحنة بين القوات المصرية والروسية لأهمية "سيلسترا" للجيش الروسي، حيث أنها كانت تعد مفتاحاً "لفلاخيا".

كانت "طابية العرب" أهم حصن في "سيلسترا". وكان من المستحيل بدون السيطرة عليها الاستيلاء على القلعة بأكملها. وقد أطلقوا عليها هذا الاسم إذ كانت هناك أربعة كتائب مصرية تتولى الدفاع عنها. عدا ذلك، كان يتواجد داخل الحصن أعداد لا تذكر من الأتراك و٥٠٠ ألباني، وكانت القوات المصرية والألبانية تخدمان تحت قيادة "حسين بك"، وأما عن باقي الوحدات المصرية فكانت متمركزة داخل القلعة.

في العاشر من مايو عام ١٨٥٤ م، كانت القوات الروسية قد تمكنت من نشر بطارياتها بطول النهر، بعد أن فرضت سيطرتها على بعض الجزر في نهر "الدانوب" بمواجهة "سيلسترا"، وفي التاسع عشر من مايو أجرت القوات الروسية أول عملية إستطلاع للحصن العربي وقصفته في اليوم التالي بنيران ٧٢ مدفعاً. وفي الحادي والعشرين من مايو نفذت أول هجوم على الحصن، فتم التصدي له وتكبدت القوات المهاجمة خسائر فادحة.

بعد أن قامت القوات الروسية خلال أسبوع بإعادة تجميع وزيادة القوات والمعدات، قررت شن هجوم متواصل على الحصن. وبالفعل هاجمت الحصن ثلاث مرات متلاحقة، غير أن الحامية المصرية كانت تظهر في كل مرة من المرات بطول منقطع النظير في صد هجوم المعتدين. نجحت القوات الروسية في اجتياز الخندق العميق المحيط بالحصن، وبدأت في تسلق سائر الحصن شديد الانحدار إلا أن القوات المصرية أجبرتها على الرجوع للخندق. ضف إلى ذلك أنه في اليوم التالي أغار الفرسان المصريون على مواقع القوات الروسية على حين غرة وأبعدتهم عن الحصن. ووفقاً للتقارير الحربية، فإن القوات الروسية فقدت ما يقرب من ١٥٠٠-١٨٠٠ جندي في هذا الهجوم. وابتداءً من الحادي والثلاثين من مايو قامت مدفعية الحصار الثقيلة، وكذلك مدافع أسطول الدينبر بصب نيرانها الهائلة على القلعة وطوايبها. وكانت الضربة الرئيسية موجهة بالأساس إلى طابية العرب. وتم

٨٤ «عبد الرحمن الرفاعي» عصر اسماعيل، الجزء الأول. القاهرة ١٩٨٧ ص ٤١.

الحفرت تحت السور الرئيس للقلعة بهدف، زرع الألغام، غير أن المصريين علموا بالأمر وحالوا دون تفجير الجدار. كان الاقتحام الأخير للحصن، سيتم تنفيذه فجر يوم الحادي والعشرين من يونيو، ولكن في منتصف الليل من تلك الليلة قرر القائد الأعلى "باسكيفيتش" رفع الحصار عن القلعة، وأصدر أوامره للقوات بالانسحاب من الحصن^{٨٥}.

الأسباب التي دفعت القوات الروسية للانسحاب، لم تكن أسباباً عسكرية بقدر ما كانت نتيجة تقديرات سياسية خاطئة جسيمة من جانب القيصر "نيقولا الأول" في تقييم سياسة "النمسا" و"بروسيا". وحثمت التغييرات السريعة في تطور العلاقات النمساوية-الروسية، والنمساوية-التركية فك الحصار الفوري عن "سيلبسترا" انسحاب القوات الروسية من إمارات الدانوب. وهذا ما حدث بالضبط.

في الرابع عشر من يوليو ١٨٥٤، توفي "عباس باشا" وحل محله والى جديد، هو "سعيد باشا" والذي صدر بشأنه مرسوم الباب العالي، بإرسال النجدة الثالثة لتتضم للقوات التركية في القرم. وحسب إرادة السلطان فقد اشتملت التعزيزات هذه المرة على ٦ أفواج مشاة (١٢,٦ ألف جندي)، وكتيبة فرسان (١,٢ ألف) وستة بطاريات مدفعية مسلحة بستة وثلاثين مدفعا^{٨٦}.

في الرابع عشر من سبتمبر ١٨٥٤ بدأت أكثر من ٣٠٠ سفينة نقل تحت غطاء من السفن الحربية، عملية إنزال للقوات الإنجليزية والفرنسية والتركية في "إيفباتوريا"^{٨٧}. وفي الرابع من أبريل ١٨٥٥، تم إرسال قوات مصرية من إسطنبول إلى إيفباتوريا، بقيادة القائد العسكري البارز "المنيكلي باشا" الذي حصل على وسام "المجيدى"، لدفاعه عن "إيفباتوريا".

قام "سعيد باشا" بتشكيل نجدة جديدة من أجل الباب العالي، وأصدر أمراً بزيادة رواتب الجند، وتقدر الزيادة للأفراد وضباط الصف ما يوازي نصف مرتباتهم الشهرية وثلث المرتب الشهري للملازمين الأول، والملازمين، وربع المرتب الشهري للنقباء، والرواد، وخمس المرتب الشهري للمقدمين والرتب الأعلى.

٨٥ الأرشيف التاريخي للدولة العسكرية الروسية ملف ٤٠١، مرجع سابق، حافظة ٤، وثيقة ١٠، ص ٨-١٠، حافظة إضافية ٤٩٩، نفس المرجع، السطر ٦-٧، «عمرطوسون» المرجع نفسه، ص ١٤٧-١٥٤.

٨٦ «عمرطوسون» المرجع السابق ص ١٨١.

٨٧ أوديسا الجريدة الرسمية. أوديسا، عدد ١٣١، ١٨٥٥.

كانت مهمة تلك القوات (جنباً إلى جنب مع الأتراك) هي الحفاظ على "إيفباتوريا"، ك رأس حربية لشن الهجمات من جانب قوات الحلفاء في عمق شبه جزيرة القرم. وبلغ عدد حامية المدينة ٤٠ ألف شخص، منهم ٥ أفواج مشاة مصرية بلغ عددهم ١٥ ألف جندي^{٨٨}.

وفقاً لما جاء على لسان المؤرخ المصري "عبد الرحمن الرافعي" "إن" معارك الدفاع عن "إيفباتوريا" كانت عنيفة جداً. وكان أول صدام بين الوحدات المصرية والجيش الروسي قد تم في الفترة من ١١-١٨ فبراير عام ١٨٥٥. وعلى الرغم من الهجوم القوي للقوات الروسية، بقيادة الجنرال "خروليف" فإن نيران المدفعية التركية المصرية قد ألحقت بهم أضراراً جسيمة، وأجبرتهم على التراجع. ويذكر أن الجانب الروسي خسر ما يقرب من ٥٠٠ جندي في هذه المعركة. أما من الجانب المصري والتركي فقد قتل أكثر من ١٠٠ جندي، وجرح ما يقرب من ٣٠٠ جندي^{٨٩}. وفي يوم الثامن والعشرين من فبراير قتل قائد القوات المصرية "سليم باشا فتحي" أثناء هجوم ليلي مباغت للقوات الروسية في "إيفباتوريا". اعتبرت وفاة القائد بمثابة خسارة فادحة للجيش، وكان وقعها ثقيلاً على الجنود والضباط. وكتب "الرافعي"^{٩٠} في رثائه تلك الكلمات: "تلقت مصر نبأ وفاته بالحسرة والألم، فقد فقدت رجلاً شريفاً وقائداً نادراً في صفاته وقدراته. دفن "سليم باشا" في "إيفباتوريا" ونصب تمثال برونزي فوق قبره. كما توفي أيضاً في هذه المدينة اثنان من قادة كتائب المشاة المصرية.

في يونيو عام ١٨٥٥ تم نقل ١٠ آلاف جندي تابعين للجيش المصري - التركي إلى مشارف "سيفاستوبول" عند الفرقة الإنجليزية الثانية، التي تمركزت عند مرتفعات "إنكيرمان"، حيث جرى الإعداد للهجوم على المدينة. وبعد ما يقرب من عام تقريباً قضتها القوات الروسية في الدفاع البطولي عن المدينة، سقطت "سيفاستوبول" في سبتمبر ١٨٥٥.

بعد سقوط "سيفاستوبول" وإحكام السيطرة، عليها قرر القائد الأعلى لقوات التحالف "بيليسييه" مواصلة الهجوم في عمق شبه الجزيرة. ولتنفيذ تلك المهمة، أرسل ثلاث كتائب من سلاح الفرسان الفرنسي، بقيادة الجنرال "دالونفيل"، وثلاث فرق تحت قيادة المشير التركي "أحمد باشا". كانت فرقتان منهما تركية، أما الثالثة فكانت من قوات المشاة المصرية^{٩١}.

٨٨ الأرشيف التاريخي للدولة العسكرية الروسية، ملف ٤٥٢، حافظة ٤، وثيقة ٢٠٤، السطر ٩.

٨٩ «عبد الرحمن الرافعي» المرجع السابق، ص ٤١-٤٢.

٩٠ المرجع نفسه ص ٤٢.

٩١ «عمر طوسون». المرجع السابق، ص ١٢١.

حدثت مناوشات بسيطة ذات طابع تكتيكي، بين قوات الحلفاء والوحدات الروسية، لأن العمليات العسكرية في "طرابزون" وعلى مشارف "كارسوم" حازت أهمية استراتيجية، حيث توجهت إليها فرقة حربية قوامها ٣ آلاف جندي مصري. وهناك تكبدت هذه القوات خسائر فادحة، والتي إزدادت بشدة إثر صقيع الشتاء الشديد عامي ١٨٥٥-١٨٥٦، بالإضافة إلى النقص الحاد في المواد الغذائية. أضف إلى ذلك تفشى وباء الكوليرا الذي كان يحصد ٨٠ نفساً^{٩٢} يومياً.

انتهت العملية غير المحسوبة في "مينجريلسى"، التي قام بها "عمر باشا" بالبحر وإصرار من قائد القوات الإنجليزية في القرم، بالهزيمة الساحقة للجيش التركي. وأسرعت فلول الجيش التركي بركوب السفن. ولاذوا بالفرار، وكان من ضمنهم أيضاً الوحدات المصرية^{٩٣}.

في نهاية عام ١٨٥٥ توقفت العمليات العسكرية. وفي الثالث عشر من فبراير عام ١٨٥٦ تم عقد هدنة. أما في الثلاثين من مارس خلال الجلسة الختامية لمؤتمر "باريس" تم التوقيع على معاهدة سلام.

بعد توقف الحرب بعث السلطان "عبد المجيد" فرماناً إلى "سعيد باشا" في بداية مايو عام ١٨٥٦ يشكره على ما قدمه من مساعدات. فقد قدمت مصر إلى الباب العالي جيشها وأسطولها، وأمدته بالسلاح والذخائر والمساعدة المادية. ففي عهد "عباس باشا" تم تحويل مبلغ ٨٥ ألف جنيهاً مصرياً، وفي ديسمبر عام ١٨٥٣ تم إرسال ٢٥ ألف بندقية. وفي أكتوبر من عام ١٨٥٤ أرسل حوالى ٣٦ مدفعاً، و١٠٨٠ قذيفة^{٩٤}.

على الرغم من أحداث حرب القرم، فإن العلاقات بين مصر وروسيا لم تكن عدائية. يشهد على ذلك عرض الخديوى "اسماعيل" في عام ١٨٧٠ على الجنرال "فادييف" (١٨٢٤-١٨٨٣) تحديث الجيش المصري. قبل الجنرال هذا العرض عام ١٨٧٤، وكتب الجنرال إلى الخديوي: "أنا لا أعلم تحديداً لماذا وقع علي الاختيار من قبل الحكومة المصرية لأجل هذه المهمة هل لاستخدامه ضد تركيا أم ضد الأبحاش؟ فقد نمت إلى علمي، أن الحكومة المصرية منذ فترة تبحث عن أحد جنرالات

٩٢ الأرشيف التاريخي للدولة العسكرية الروسية ملف ٤٨١، وثيقة ٦٨٧، السطر ٣١.
٩٣ «حسين أحمد» موسوعة تاريخ مصر، مجلد ٣، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٨٧؛ «الحاج مراد إبراهيميلى» القوقا في حروب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦ والعلاقات الدولية، موسكو، ١٩٧١، ص ٣٣٥-٣٣٦.
٩٤ «عمر طوسون» المرجع السابق، ص ٢٢٠، ٢٤٦-٢٤٨.

أوروباً ذائع الصيت في هذا المجال، وبالطبع فإن اسمى مصادفة أصبح معروفاً لدى القاصي والداني في الشرق وداخل الأراضي السلافية. فإذا كان الهدف هو تسليح الجيش ضد تركيا فأننى على استعداد أن أكرس نفسي لهذه المهمة. أما إذا كان الهدف من عملية التطوير هذه هو محاربة الأحباش، فضميرى لا يسمح لي بذلك ولن أقبلها!...^{٩٥}. قضى "فادييف" في مصر عامين، وغادرها في عام ١٨٧٦، وذلك عشية الحرب الروسية - التركية الجديدة واحتفظ بعلاقة طيبة مع الحكومة المصرية، لاسيما علاقته الشخصية بالخدوي. وكانوا يعدون الجنرال "وزيراً للدفاع المصري" أثناء فترة إقامته داخل مصر. وقد وجه الخديوى إلى إنتهاج سياسات أكثر استقلالية مدركاً مدى الاستفادة من جراء الوقعة بين مصر وتركيا، وتعزيز دور مصر وتحريرها من قبضة السلطان^{٩٦} وبالمناسبة فإن بعض ممثلو الدوائر الدبلوماسية الروسية، كانوا يعولون على الدعم المصري في حالة نشوب حرب روسية تركية جديدة. غير أن القنصل الروسي العام في "القاهرة" "ليكس" أكد أن: "هذا غير حقيقى تماماً، حيث قد يقدم الخديوي على مثل هذه الخطوة فقط، بموافقة الإنجليز"^{٩٧}. في واقع الأمر كانت مصر تعتبر حليفاً قوياً للباب العالي، وقد منع الخديوى السفن الروسية من العبور في قناة السويس بضغط من تركيا وإنجلترا، على الرغم من تأكيدات روسيا أنه ليس لديها أية نية لتهديد مصر، أو المساس بأمن الممر الملاحي عبر قناة السويس. وفي خطاب مستشار الدولة الأمير "جورتشكوف" للسفير الروسي في لندن الكونت "شوفالوف" مايلي: "أن مجلس الوزراء الإمبراطورى لا يرغب في محاصرة طريق الملاحة في قناة السويس، أو إيقافه أو تهديده بأي شكل من الأشكال حيث ينظر إلى قناة السويس على اعتبارها هيئة دولية تخدم تجارة العالم كله، وبالتالي يجب أن تكون بعيدة عن أي نوع من أنواع الصراع. إن مصر جزء من الإمبراطورية العثمانية ووحدات الجيش المصري تخدم داخل الجيش التركى؛ لذلك يمكن لروسيا أن تعتبر نفسها في حالة حرب ضد مصر. غير أن مجلس الوزراء الإمبراطورى يهتم بالمصالح الأوروبية في هذا البلد وتعيداً المصالح البريطانية؛ لذلك فإنه لن يدخل مصر في نطاق عملياته العسكرية"^{٩٨}.

٩٥ «ر. أ. فادييف» مجموعة مقالات، سانت بطرسبورج، ١٨٨٦، ص ١١٩.

٩٦ المرجع نفسه.

٩٧ العلاقات الروسية المصرية في القرن التاسع عشر، موسكو، ١٩٦٠، ص ٤٧ المرجع بواسطة "ج.ل. بونروفسكى".

٩٨ الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨، سانت بطرسبورج، ١٨٧٩، ص ٤٩-٣٠ المرجع بواسطة "خ.ف. سيديلينكوف".

من أجل إرضاء بريطانيا العظمى والإمبراطورية العثمانية؛ طلب الخديوى "اسماعيل" من القنصل العام الروسي مغادرة الأراضي المصرية، موضحاً أن بقاءه في القاهرة يعطي السلطان دافعاً ليشك في أن الخديوى يقيم علاقات مع العدو . لذلك فإن رحيل "ليكس" سيسهل الأمر للخديوى أن يتجنب مزاعم الباب العالي . في الوقت نفسه تفهمت "سان بطرسبورج" حاجة الخديوى الملحة في إبداء الدعم العسكري للسلطان ؛ لذلك فإن مشاركة مصر في الحرب الروسية التركية لم تترك أي آثار سلبية على طبيعة العلاقات المصرية الروسية . بالإضافة إلى ذلك أقامت الحكومة الروسية على وجه السرعة علاقات دبلوماسية مع مصر في محاولة منها لإضعاف الموقف الإنجليزي في مصر .



صورة لاسماعيل باشا قائد القوات المصرية في حرب القرم عام ١٨٥٥

جاء في التقرير الموجه للقيصر من وزارة الخارجية عن عام ١٨٧٦ : « أنه على الرغم من الوضع المالي الحرج جداً في مصر فقد اتخذ الخديوى قراراً بالمشاركة الفاعلة في الحرب الدائرة في شبه جزيرة البلقان . وبناءً على طلب من السلطان ، أرسل الخديوى بجاهزية عالية إلى القسطنطينية ، قوات مساعدة عبارة عن ٦ آلاف من جنود المشاة مزودة بكم هائل من المدفعية . وقد تم تسليح الجنود وتزويدهم بالذخيرة بشكل جيد . وفيما بعد تم زيادة عدد هذه الفرقة عن طريق إرسال الإمدادات لها»^{٩٩} .

٩٩ مصر بعيون الروس منتصف القرن التاسع عشر- أوائل القرن العشرين. السياسة. الإقتصاد والثقافة. الفنون، مقدمة، التعليقات، الفهرس والترجمة لجينادى جوريتشكين // شعوب الشرق الأوسط. الخامس عشر، المجلد الثاني. موسكو، ١٩٩٢ ص ٤٦.

قدم المؤرخ «عبد الرحمن الرافي» تفسيره الخاص للحرب في البلقان فقال : «إن روسيا قامت بتحريض إمارات البلقان على الإنتفاضة، وأعدت العدة للتدخل في هذه الأحداث بعد تشتيت ، وإنهاك القوات التركية في إخماد هذه القلاقل الداخلية . وأصبحت الانتفاضة داخل الهرسك عام ١٨٧٥ ذروة تلك القلاقل، وامتدت شرارتها إلى البوسنة فيما بعد . ساعدت «صربيا» المتמרدين بشكل فعال ، ولهذا طالبت تركيا من الخديوي «اسماعيل» «نجدة»، فأرسل الخديوى على الفور ٧ آلاف جندي وضابط بقيادة الجنرال «رشيد باشا حسنى» وشارك الفيلق المصري في إطار الجيش التركي لإخماد ثورة السلاف^{١٠٠} .

عند اندلاع الحرب الروسية - التركية الجديدة في إبريل عام ١٨٧٧ وجد المصريون أنفسهم في مواجهة الروس للمرة الثانية، وكما حدث من قبل أثناء حرب «القرم» طلب السلطان المساعدة العسكرية من الخديوي «اسماعيل» والذي بدوره تلقأ في إرسالها؛ بسبب تردي الأوضاع المالية في البلاد، ومواقف الدائنين غير المؤيدة لذلك، وهذا ما أثار غضب الباب العالي .

خوفاً من ردة الفعل التركية إزاء ما حدث، وخوفه من أن يصبح وحيداً في مواجهة القوى الأوروبية، خاصةً في مثل هذه الظروف الصعبة . قرر الخديوي الامتثال لفرمان السلطان ، ولكي يتمكن من حل مشاكل تمويل الحملة الجديدة . عرض الأمر أمام المجلس الإستشارى للبحث والمناقشة ، والذي أقر ما يسمى (ضريبة الحرب) والتي تمثل ١٠٪ من ميزانية الإيرادات العامة .

بهذه الأموال تم تجهيز حملة قوامها ١٢ ألف جندي ، كانت بقيادة نجل الحاكم «حسين باشا»^{١٠١} وطبقاً لشهادة أركان الجيش الروسي ، أصبح لدى تركيا قوات قوامها ٣٧٧ ألف جندي من بينهم ١٢ ألف مصري^{١٠٢} .

أشارت «المجلة البحرية» الروسية إلى أن الوضع الآن تماماً كما كان في السابق ” فقد لجأت تركيا في حملتها الحالية ضد «روسيا» إلى طلب قوات عسكرية إضافية من «مصر» وأعلن المصدر نفسه أن الباب العالي أمر الخديوي بإرسال قوات قوامها ١٠ آلاف جندي

١٠٠ «عبد الرحمن الرافي». المرجع السابق ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

١٠١ المرجع نفسه ص ٢٠٠ .

١٠٢ الأرشيف التاريخي للدولة العسكرية الروسية. ملف ٤٨٥، مرجع سابق، حافظة ١، وثيقة ٧٥٣ ، السطر ٧٥٣ .

وتألفت وحدات المشاة من ٦ آلاف جندي مشاة، و١١٠٠ من سلاح الفرسان، و٥٠٠ جندي مدفعية وأثنين بطاريات كروب. بالإضافة إلى ذلك أرسل الخديوي للسلطان على سبيل الهدية ٥٠٠ بندقية بنظام "ريمنجتن"، ومليون خرطوش، وبطارية ميدانية، وثلاثة زوارق بخارية للخدمة في نهر "الدانوب". تأخر إبحار الحملة العسكرية المصرية أسبوعين - حسب قول المصريين - بسبب ورود أنباء حول خروج الأسطول الروسي من أمريكا الذي لا يعلم أحد اتجاه سيره، وبالتالي احتمالات التقائه بالحملة البرمائية كانت كبيرة، وإننا لا يمكن أن نخاطر بسفننا ورجالنا حتى من أجل تركيا". لم تكن هناك أي صعوبة في معرفة سبب هذه المخاطرة، فقد كانوا يعلمون جيداً تاريخ المعارك البحرية بين روسيا ومصر. ولم تغادر الحملة المصرية ميناء الإسكندرية إلا بعد وصول قافلة تركية مرافقة للحراسة قوامها ٤ سفن حربية في الحادي عشر من مايو عام ١٨٧٧. وبعد خمسة أيام تم إرسال تعزيزات جديدة إلى القسطنطينية قوامها ٣ آلاف جندي^{١٠٣}.

مشاركة المصريين في الحرب ضد "روسيا" يمكن أن تكون سبباً قوياً ورسماً لجفاء العلاقات مع الدولة المصرية، غير أن هذا لم يحدث لعدة أسباب منها أولاً: عزلة روسيا السياسية في أوروبا في ذلك الوقت، ومصالحها في الشرق حتمت على الدبلوماسيين التابعين للقيصر تبني سياسات مرنة تجاه مصر، ثانياً: أرادت "روسيا" إضعاف عدوها الأبدى - الإمبراطورية العثمانية - أملته مع مرور الوقت أن تجعل مصر أحد حلفائها؛ ولذلك نجد أن إشتراك القوات المصرية في الحروب الروسية التركية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تلق بظلالها على أواصر الصداقة بين البلدين بشكل عام. غير أنه وبانتهاء الحرب (١٨٧٨-١٨٧٧) لفتت الخارجية الروسية انتباه القنصل العام في القاهرة "ليكس" إلى أنه: "يجب السعى في المقام الأول وبقدر الإمكان إلى إضعاف النفوذ الإنجليزي، الذي أحرز تفوقاً حاسماً في مصر". لذلك تم تكليفه بتجنب التدخل المباشر في شئون حكم مصر، ولكن يعمل على إحداث تأثير شخصي على الخديو والوزراء، وإبلاغهم أنه على الرغم من أعمالهم العدائية ضد "روسيا" خلال الحرب الأخيرة، فإن حكومة القيصر لا تزال تنظر بعين العطف للمصالح المصرية^{١٠٤}.

١٠٣ مجموعة البحر، سانت بطرسبورج، ١٨٧٧، عدد ٧، ص ٦٩ - ٧٣، المرجع نفسه

عدد ٨، ص ٨٤-٩٢.

١٠٤ «مصر بعيون الروس» ص ٤٨.

خلال الحروب الروسية - التركية تواجدت القوات المصرية في "أدرنة، ودبروجة، وبازاردجيك (شوملا)، شيبكا، وسالونيك، وصوفيا، والقسطنطينية" وبنهاية الحرب في يناير عام ١٨٧٨ كانت الحملة المصرية التي بلغ قوامها ٥ آلاف جندي متمركزة في "فارنا" ١٠٥ .

جاء في مذكرات "نيميروفيتش-دانتشينكو" أن المصريين خاضوا الحرب ضد الجيش الروسي في "أدرنة"، ووقعت وحداتهم الخلفية و"قوافل ضخمة من العربات ومائة جمل" ١٠٦ في الأسر ١٠٧. وأسر الروس الكثير من الجمالين، والحوذيين، وعمال خدمة من الوحدات الخلفية. ووفقاً لتقديراتنا بلغ العدد الإجمالي لقوات المشاة المصرية عامي (١٨٧٧-١٨٧٨) ٢٠ ألف جندي تقريباً .

كانت للحرب نتائج كارثية على الجيش العثماني. واستناداً إلى البيانات الأرشيفية، تجاوز العدد الإجمالي للأسرى ١٤٠ ألف شخص وتم تقسيمهم إلى مجموعات صغيرة تصل المجموعة الواحدة إلى بضع عشرات، وتم توزيعهم على ١٦١ مدينة روسية في القطاع الأوروبي (ووفقاً لمعلومات أخرى- ١٧٢ مدينة). ووفقاً لتقديرات "بيلياكوف" بلغ عدد الأسرى المصريين ٨ آلاف شخص تقريباً ١٠٨ .

لخدمة هذا العدد الهائل من الأسرى، من رعايا الإمبراطورية العثمانية، تم إنشاء لجنة خاصة تعني بشئون الأسرى العسكريين برئاسة القائد العام الأمير "جوليتسين". وضمت هذه اللجنة العاملين في مجال الصحة بشكل أساسي، وكان من مهام هذه اللجنة تفقد الأسرى، وتفقد أحوالهم المعيشية، وتوفير العلاج، والإستماع إلى شكواهم وطلباتهم وكانت ترسل تقاريرها إلى العاصمة.

تم استئجار شقق للباشوات والضباط، كما حصلوا أيضاً على رواتب: بلغ راتب الباشا في العام ١٠٢٧، وبلغ راتب الضباط من ٢٧٦ - ٤٤١ روبل، كل حسب رتبته. وأودع الجنود والرقباء داخل مساكن، توازي الشكنات الحربية المخصصة للدرجات المماثلة من الجيش الروسي .

- | | |
|-----|--|
| ١٠٥ | جمع مواد بشأن الحرب الروسية / التركية ١٨٧٧-١٨٧٨، عدد ١٢، سانت بطرسبورج، ١٩٠٣ ص ٩٠، ١٤٥ . |
| ١٠٦ | «ف. ي. نيميروفيتش-دانتشينكو» سنة الحرب، سانت بطرسبورج، ١٨٧٨، مجلد ٢، ص ١٩٩ . |
| ١٠٧ | الأرشيف التاريخي للدولة العسكرية الروسية ملف ٤٠٠، حافظة ٣٠، وثيقة ٢٠٣٨، السطر ١٠٦-١٠٧ المرجع نفسه، وثيقة ٢٠٤٧، السطر ١٩٧-١٠٦ . |
| ١٠٨ | «فلاديمير بيليياكوف» الأسرى المصريون في روسيا (النصف الثاني القرن التاسع عشر) // الجغرافيا السياسية . الأمن . ٢٠٠٥، الجزء ٩، ص ٤٥١ . |

كانت الحصص الغذائية توزع طبقاً للأعراف التركية حيث تم استبدال الخبز الأسود بالخبز الأبيض، كانت التكلفة واحدة، ولكن الوزن كان مختلفاً وتم استبدال حساء الكرنب الروسي المعتاد بحساء الحبوب. وحصل الأسرى العسكريون على ملابس شتوية ثقيلة، وأحذية كما تمتعوا بكامل الرعاية الصحية التي تقدم للجنود الروس^{١٠٩}. خالط الأسرى سكان المدن التي أقاموا فيها ربما يمكنهم ذلك على الأقل من العثور على وظيفة ما. وخلال فترة إقامتهم كانوا يعطون السلطات نصف الراتب للإنفاق على الإعاشة، والجزء المتبقى يمكن للأسرى إنفاقه حسب رغباتهم، بما في ذلك توفيره للأهل. علاوة على ذلك، كان يمكنهم التحرك بحرية في نطاق المناطق السكنية المختلفة، حيث يقطنون، كما أن الباشوات والضباط كان لهم مطلق الحرية في تغيير مكان إقامتهم.

بناءً على توصيات مؤتمر "برلين"، بدأ إرسال الأسرى إلى وطنهم ابتداءً من ديسمبر ١٨٧٨ - عن طريق أوديسا - سيفاستوبول - القسطنطينية - الإسكندرية. وفي سبتمبر ١٨٨٠ أعلنت هيئة الأركان الروسية أنه لم يبق في روسيا أحد من الأسرى العسكريين^{١١٠}، وأن السبب الرئيس في تأخر عودتهم هو انتشارهم في طول البلاد وعرضها، وارتفاع أعداد المرضى والجرحى الذين كانوا يتلقون العلاج داخل المستشفيات العسكرية الروسية.

وقوع الجنود المصريين في الأسر خلال الحرب التركية الروسية وانتشارهم في العديد من المدن الروسية في القطاع الأوروبي، أدى إلى ظهور بعض الحقائق المثيرة للاهتمام. كان من بينها أن عدداً من الأسرى المصريين، قرر البقاء داخل الأراضي الروسية وتجنسوا بالجنسية الروسية عن طيب خاطر وتنصر بعضهم واتخذوا لأنفسهم أسماء روسية^{١١١}.

على مدار عامين أو ثلاثة منذ وقوعهم في الأسر، لم يشعر المصريون بأي مشاعر عداة تجاه الروس، بل دائماً ما يتذكرونهم بحفاوة، وكذلك يتذكرون الموسكوفي "العجيب" غير المعلوم لديهم حتى اليوم، أضف إلى ذلك ظلت ذاكرتهم التاريخية قوية فيما يخص هذا الشأن^{١١٢}.

- ١٠٩ لمزيد من التفاصيل أنظر: «فلاديمير بيلياكوف». المرجع نفسه، ص ٤٥٢.
- ١١٠ الأرشيف التاريخي للدولة العسكرية الروسية ملف ٤٠٠، حافظة ٣، وثيقة ٢١٠٧، السطر ١٤
- ١١١ «فلاديمير بيلياكوف». المرجع السابق، ص ٤٥٣.
- ١١٢ لمزيد من التفاصيل أنظر: «فلاديمير بيلياكوف» «بلدية موسكو - حسنا..» // آسيا وأفريقيا اليوم، عدد ٨، ٢٠٠٩، ص ٦٠-٦١.

أعلن العقيد "سوللوجوب" بعد لقائه سكان مدينة "بليس" ومدن أخرى في الدلتا المصرية عن تعاطف المصريين تجاه الروس، وقد عبروا عن ذلك مباشرة، بعد هزيمة جيش "أحمد عرابي باشا" في الحرب التي خاضها ضد الإنجليز بالقرب من "التل الكبير" عام ١٨٨٢... وقد كتب أن المصريين ما فتئوا يرددون كلمتي "مسكوف" و"روسي" وكانوا يشعرون بالسعادة لرؤيته، والتحدث مع الروس. إعتبر المصريون الروس بمثابة أعداء للإنجليز، وكانوا يتساءلون: "هل ستحتل روسيا لندن؟" و هل لدى "سوللوجوب" رسائل من الحكومة الروسية تمنع إنجلترا من احتلال مصر؟ وأن هذه الرسائل لا بد، وأنه قد تم إرسالها كما سمعواهم بذلك. استطرد "سوللوجوب": "أن هؤلاء العرب أوضحوا لي أن "عرابي باشا" قبل الإستسلام ألقى بالعلم الروسي، ثم أعرب بعد ذلك عن ثقته في الروس وكرهيته للإنجليز". في وقت لاحق واصل المصريون المحيطون بـ "سوللوجوب" التأكيد على حب واحترام الروس ورفضهم البقشيش المقدم لهم من الروس، مقابل ما يقدمونه من خدمات لهم^{١١٣}.

جعلت تبعية مصر للإمبراطورية العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر المصريين يصطدمون بالروس، خلال تلك الفترة مرتين على أرض المعركة، غير أن هذا لم يفسد العلاقات بين البلدين. لقد تفهموا في "سان بطرسبورج" أنذاك الظروف القاهرة التي أجبرت المصريين على المشاركة في الحروب ضد "روسيا"، في حين أدركوا في "القاهرة" اهتمام "روسيا" أن تكون مصر قوية، ومستقلة في هذا الجزء الواقع على أطراف الإمبراطورية العثمانية. أما فيما يتعلق بوجود المصريين في الأسر داخل "روسيا"، فقد عزز من تعاطف المصريين.

١١٣ «مصر في عيون الروس» ص ١٤٩-١٥٠.

«المدينة الروسية» في سيدى بشر (١٩٢٠-١٩٢٢) من صفحات مجلة «في المهجر»

وصلت الأراضي المصرية في بداية عام ١٩٢٠ بعثة من المهاجرين الروس قوامها ٤٣٥٠ شخصاً ، كان أغلبهم من المرضى والجرحى الذين تم إيداعهم في بادىء الأمر في المستشفى الميداني الواقعة على أطراف مدينة القاهرة في حي «العباسية» ، ثم جرى نقل الأصحاء منهم إلى معسكر « التل الكبير » الكائن في المنطقة الواقعة على حافة الصحراء بين الاسماعيلية^{١٤} والقاهرة . ونظراً لأن معسكر التل الكبير كان يعد «مدينة خيام» على حافة الصحراء ، فقد تم نقلهم في يونيو ١٩٢٠ إلى معسكر آخر ، أكثر راحة في حي «سيدى بشر بالقرب من مدينة الإسكندرية» . كان المعسكر متاخماً لسواحل البحر المتوسط ، حيث المناخ أكثر اعتدالاً . وقد انتهت عملية ترحيل اللاجئين إلى المعسكر الجديد في «سيدى بشر» في يناير من عام ١٩٢١ .

دامت «المدينة الروسية» في «سيدى بشر» حتى صيف عام ١٩٢٢ ، فمع حلول ذلك الوقت كان عدد كبير من اللاجئين قد هجروا المعسكر ، وإستوطنوا في مدن مختلفة داخل مصر ، لكنهم تمركزوا بشكل أساسي في مدينتي الإسكندرية والقاهرة ، وتحولوا إلى مهاجرين . وفيما يتعلق بأولئك الذين لم يتمكنوا من تسوية أوضاعهم داخل مصر ، فقد تم ترحيلهم إلى صربيا وبلغاريا .

١١٤ عن مقالة : «Русский город» в Сиди Бишр (1920-1922 гг.). По страницам :
журнала «На чужбине» (окончание) ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى»
إصدار معهد الأستشراف التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي
Vladimir Belyakov «فلاديمير بيلياكوف» اللاجئين الروس في مصر
عن معسكر اللاجئين في «التل الكبير» راجع «فلاديمير بيلياكوف»
الأرشيف الشرقى عدد ١٠ ، ٢٠٠٣ . ص ٤٣ - ٤٩ .

أظهر اللاجئون الروس في معسكر "سيدي بشر" قدراً من الحيوية والنشاط أكثر مما كانوا عليه في معسكر "التل الكبير" فقد شرعوا في ممارسة حياتهم وفق طريقتهم المعتادة . وحول هذه الأمور تحدثنا مجلة "في المهجر" الشهرية، والتي شرعت في إصدارها في يوليو ١٩٢١ الجمعية الثقافية- التعليمية التي تأسست من قبل في معسكر "التل الكبير" وقد أرسلت هيئة تحرير المجلة نسخة من العدد الأول إلى السفير السابق للإمبراطورية الروسية في القاهرة "سميرنوف" ... وتخيرنا الرسالة المرفقة أن المجلة صدرت، بعد أن تغلب مجلس إدارتها على كثير من الصعوبات، والمتمثلة في بعض العوائق الفنية والتقنية، كما يأمل مجلس إدارة المجلة أن تذلل هذه العقبات في المستقبل، عن طريق الدعم المادي من جميع الروس المتواجدين. في مصر وسوف تظهر المجلة بشكل لائق وموضوعات أكثر ثراءً^{١١٥}. على ما يبدو، فقد صدر من ١١ إلى ١٢، عدداً من المجلة، لكن كل ما وصل إلينا عدنان إثنان فقط، أحدهما صدر في أكتوبر ١٩٢١ وهو محفوظ داخل المكتبة الحكومية الروسية، أما العدد الثاني والصادر في يناير ١٩٢٢ فهو محفوظ في الأرشيف الشخصي للمؤلف، والذي كانت قد أهدته له ابنة المهاجرين الروس "تاتيانا مونتى" المولودة في "سيريكوفا" عام ١٩٣٢ والتي تعيش في الإسكندرية. من هذا العدد نستطيع أن نعرف أن حجم ورق المجلة A4، وأن المجلة طبعت على آلة طبع هيكتوغراف، وكتبت على الآلة الكاتبة وبين السطور مسافات متساوية، وتضم ٤٨ صفحة، وطبع منها ما يقرب من (١٢٠) نسخة لكل عدد، وصل إجمالى ما تم توزيعه من الأعداد الستة الأولى (٧١٨) نسخة^{١١٦}.

تضمن العدد الذي بحوزة الكاتب معلومات أكثر غزارة، حول طبيعة الحياة داخل «المدينة الروسية» من عدد المجلة الآخر، وهذا يرجع إلى أن هيئة التحرير في العدد الصادر في يناير قد استعرضت مجمل الحياة داخل المعسكر على مدار السنة الماضية. وقد تم الاستعانة جزئياً ببعض مواد هذا العدد في مطبوعاتنا^{١١٧}، ولكن من وجهة نظرنا، أن المواد

١١٥ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ملف ٣١٧، حافظة ٨٢٠/٣، وثيقة ١٩٦، السطر ٨٧.

١١٦ «في المهجر» يناير/كانون الثاني ١٩٢٢ / ص ٢ / رقم الصفحة تم كتابته للأسف يدوياً ولا يوجد أي ترقيم مطبوع.

١١٧ «فلاديمير بيلياكوف «على خطى» الأضواء «القاهرة ١٩٩٤، ص ١١٠-١٢٠، نفس المرجع محمية أفريقيا للطيور، موسكو، ٢٠٠٠، ص ١٠٤، ١١٢، «على ضفاف النيل المقدس..» موسكو، ٢٠٠٣، ص ١٥٢-١٦٣.

الأكثر معلوماتية تستحق أن تنشر كاملة، نظراً لأنها تعد مصدراً تاريخياً نادراً يؤرخ للشتات الروسي على الأراضي المصرية. كما أن الكتابة، وعلامات الترقيم للأصول لازالت على حالها .

معسكر اللاجئين الروس في سيدي بشر^{١١٨}

كان معسكر اللاجئين الروس يقع على رمال البحر المتوسط ، على مسافة ١١ كيلومتراً تقريباً من مدينة الإسكندرية^{١١٩} . ومن الجهة الأمامية على بعد نصف ميل من المعسكر يمتد خط السكة الحديد ، الذي يربط بين الإسكندرية ورشيد^{١٢٠} موازياً للبحر وعلى هذا الخط تقع محطة سيدي بشر، وقد سُمى معسكر اللاجئين باسمها .

كان المعسكر في الماضي مخصصاً لأسرى الحرب الأتراك . وخلف المعسكر في الجزء السفلي يوجد مستنقع صغير ، تكوّن جراء تراكم المياه، حيث يقوم الأجانب بالصيد والقنص، أما اللاجئون الروس فكانوا يصيدون السمك بالسنانير . في الجانب الأيمن من الجزء السفلي للمعسكر (الكامب د)^{١٢١} يقف برشاقة بستان النخيل حيث كانت تقام فيه أحياناً المهرجانات الموسيقية ، ومباريات كرة القدم . وتوجد بجواره حقول المزارعين المحليين المتنوعة . وعلى مدى البصر تمتد حقول القطن والأرز والذرة التي يملكها الفلاحون . إنها الأرض النيلية - التي تختفي في الأفق الأزرق - وتشبه سهوب الكوبان عندنا وهي أيضاً أرض مستوية وتكسوها الخضرة الزاهية وليس بها أية هضاب أو مرتفعات . وتلوح في الأفق في مكان ما أشباح غير واضحة ، لبساتين صغيرة ولولا شهر ديسمبر والنخيل المنتشر على الروابي والمنازل المصرية المسطحة للملاك المحليين ، كان من الممكن أن تظن لوهلة أنك داخل السهول الروسية .

- ١١٨ الكتابات المعاصرة - في كلمتان : سيدي بشر .
 ١١٩ من وسط الإسكندرية - وهي الآن جزء من حدود المدينة .
 ١٢٠ الاسم العربي - رشيد . مدينة تقع إلى الشرق من الإسكندرية ، عند التقاء الفرع الغربي للبحر الأبيض المتوسط .
 ١٢١ الكامب (اللغة الإنجليزية) - المعسكر - هاتان الكلمتان هما المرادفتان لأجزاء «المدينة الروسية» المختلفة في سيدي بشر .

ويستكمل هذا التشابه ، أكواخ البستانيين العرب ، التي لا تختلف كثيراً عن أكواخ مواطني بيختشيساراي في الجنوب . وتخترق الدلتا ترعة المحمودية^{١٢٢} التي تزينها الصنادل الشراعية والفلايك^{١٢٣} ، والتي تبدو من بعيد ، كأنها تزحف ببطء على الأرض ، لأن الترعة تختفي بين خضرة الحقول .

وقد كتب أحد شعراؤنا القصيدة التالية ، عندما شاهد هذه الأماكن :

بمجرد أن تقترب الشمس من الرحيل .

أخرج وحدي خلف الكامب .

وأعبر سياج كامب « د » .

وأجلس طويلاً على الحجارة .

فالمشهد أمام ناظري غير جديد :

حقول وغابات وعرب

ويرعى الغنم عربي قاسى

بالقرب من خيمة مثقوبة

على اليسار تلوح أشجار النخيل

ومن خلفها تظهر ضيعة أحد الأثرياء

وبالقرب منها ثور ، عائد بتكاسل من العمل

بعد أن كان يجرمحراث بلا كلل

وهاهم العرب ، يحصدون الزرع في الحقول

وعبر الطريق البعيدة

تمر السيارات مسرعة

فالبغل لا يرغب في حمل المتاع

١٢٢ ترعة المياة العذبة «المحمودية» والتي تبدأ من الفرع الغربى من النيل وتنتهى في الإسكندرية

١٢٣ فلوكة - هى عبارة عن مركب صغير ذو شراع مائل .

هناك الثيران تسحب الماء
على أعينها عصابة بيضاء
ويمر العرب بهدوء
بمتاع ما ، تحملة الحمير

وتذهب المرأة العربية ، لجلب الماء
ويلمع بقدميها الخللخال
تحمل جرتها على رأسها
وتحمل في يديها طفلها الرضيع

وها قد حل المساء ، ولف السكون المكان
ثلاثة مشاعل تضيء من بعيد
ولا يسمع من البحيرة ، إلا نقيق الضفادع ، بصوت خفيض
وأحياناً ما يقرقع قليلاً هنا أو هناك

وأجلس ساعة متأماً .
أذكر ضيعتي
وأفكر ملياً وأتساءل ..
متى أعود إلى أحضان الوطن؟

كان المعسكر يغطي مساحة (٥٠٠٠٠) ساجين مربع^{١٤} ، وينقسم إلى عدة
”كامبات“ (أ) و(ب) و(ج) و(د) والأخير خاص بالمستشفى . ومن الناحية الصحية
والامدادات الضرورية ، فقد تم إعداده على غرار الكامبات الحربية الإنجليزية . أي أنه
محاط بسياج من الأسلاك الشائكة ، ومزود بالكهرباء والمياه ، وبه مطاعم مستقلة
ودورات للمياه وأماكن للاستحمام إلخ . كما أحيط بمصابيح كهربائية توفر الإضاءة

١٢٤ ساجين - هو عبارة عن وحدة قياس روسية قديمة تساوى (متر و ١٣ سننيمتر) ، تساوى ٢,١٣٣٦ متر مربع ، ٥٠٠٠٠ متر مربع ، (٢٢,٧٦ هكتار) .

من الغسق حتى الفجر . أما عن الإنارة داخل المعسكر ، فكانت في الأماكن السكنية حتى الساعة العاشرة باستثناء المستشفى . ويتم الوصول إليه عبر طريق مرصوف .

تولت السلطات العسكرية البريطانية إدارة المعسكر . أما النفقات العادية اللازمة لإعاشة المعسكر ، فكانت تقتطع من أموال الصندوق الحربى . وكان المندوب السامى البريطانى صاحب الحق فى البت فى النزاعات السياسية . وكان الجهاز الإدارى بأكمله والخاص بإدارة المعسكر ، يتركز فى ديوان المفتش البريطانى للاجئين الروس فى مصر . فهنا كان يتم تسجيل جميع الأشخاص الذين يعيشون فى المعسكر ، كما يحصل اللاجئون الروس على كافة الإجابات على تساؤلاتهم ، والحلول لمشاكلهم . ومن هنا يرسلون إلى الكامبات جميع المراسلات الواردة للاجئين . ولكي تكون هناك علاقة وثيقة للاجئين مع الإدارة البريطانية ، قامت الأخيرة بتوفير مترجم رسمى .

كان يدير الجهاز الإدارى الخارجى فى المستشفى طبيب إنجليزى ، لديه مكتب بالمستشفى ومترجم خاص . وكان القائم على النظام الداخلى طبيب روسى كبير ، يعمل معه طاقم من الموظفين الروس ، وطاقم من المرضى وفرقة حراسة من الممرضين الروس تكونت بموافقة القومندان الإنجليزى . وكلهم كانوا موظفين لدى الإنجليز .

كان يوجد فى كل الكامبات سالفة الذكر قومندان روس - وسطاء يقومون بحكم وظيفتهم ، بتنفيذ كافة أوامر مفتش اللاجئين . وكان يتم اختيارهم من ضمن المقيمين داخل المعسكر مع إمكانية استبدالهم بأخرين . كان هؤلاء القومندان يحصلون بشكل دورى على معونات من أموال لجنة القسطنطينية التابعة للصليب الأحمر^{١٢٥} ، وكانت لهم مكاتب خاصة بهم داخل المخيم ، والتي من خلالها يتلقون تعليمات السلطات البريطانية ويقومون بتنفيذ أوامره . وعلى سبيل المثال ، كانوا يقومون بإحصاء أعداد المتواجدين داخل المعسكر ، والقادمين من اللاجئين إلى مصر بصورة مؤقتة وتسليم البريطانيين معلومات عن التغيير اليومى فى هيكل الكامب ، وتحديد مواعيد النوبات وجدول الخدمات ، وإقرار النظام داخل المخيم ، بالمعنى البوليسى للكلمة .

١٢٥ يدور الكلام ، على ما يبدو ، عن هيئة «الصليب الأحمر» - وهى أحد المؤسسات الرئيسة التابعة لصفوف القوات المسلحة والمسؤولة عن إخلاء الأسرى من منطقة «القسطنطينية» فى الجنوب الروسى ومحيط البحر المتوسط .

ومن أجل حماية الكامبين "أ" و"د" اللذين يسكنهما العائلات، تم بناء على أوامر من مفتش اللاجئيين، وضع فرق للحراسة، بحيث يقع على عاتقهم مسئولية التأكد من شخصيات جميع القادمين إلى هذين الكامبين، وخاصة رجال الكامبات الأخرى. وكان الدخول مباحا فقط بتصاريح الدخول، أما بالنسبة للغرباء من غير اللاجئيين، فيتم أحيانا عمل استثناءات لهم بموافقة مفتش اللاجئيين.

وفي الكامب «ب» الخاص بالرجال أنشيء مركز للحراسة على مدار اليوم بنظام المناوبة، ودورية ليلية تحرس الجانب المتاخم للمقرى العربية. فضلاً عن ذلك يتولى اللاجئون من كامبي «ب» و«د» حراسة المستودع الإنجليزي^{١٢٦}. (حيث يتم تخزين مختلف الأشياء التي يحتاجها سكان المعسكر، وكانت تسلم لهم يدأ بيد، من أغطية وأشياء أخرى) والكانتون الإنجليزي^{١٢٧}. وكانت جميع المهام سالفة الذكر يقوم بها اللاجئون. إما طواعية أو بالتكليف بدون الحصول على أي مقابل مادي.

وفي الكامبات، والمستشفى كانت المستوصفات، تفتح أبوابها للاجئيين خلال ساعات عمل معينة، ويعمل بها أطباء روس، يأخذون رواتبهم من الأموال المخصصة لإعاشة اللاجئيين. (كان هؤلاء الأطباء موظفون يعملون تحت إمرة البريطانيين). ولايتقاضى اللاجئون الذين يعملون في المستوصفات والمكاتب في الكامبات إما تطوعاً أو تكليفاً أيضاً أي مقابل مادي لقاء العمل الذي يقومون به.

كان إمداد اللاجئيين بالمواد الغذائية في الكامبات والمستشفى، يتم من خلال ما يسمى «الإدارة الإنجليزية للمعسكر». وكان يشرف على تسليم المواد الغذائية إلى اللاجئيين ممثلو الكامبات الذين كانوا يلقبون بـ «المشرفين على المزارع». ومن هنا، من المستودع الإنجليزي كان اللاجئون يتسلمون بأنفسهم متطلباتهم من الأحذية، والملابس الداخلية، والأغطية، والبدل (البيجامات) وكان بإمكان اللاجئون إستبدال الأشياء غير الصالحة للاستخدام بالجديدة أو المستعملة. وكان اللاجئون المرضى يتسلمون أحيانا متعلقات وأشياء من مخزن المستشفى. وكان الإنجليز يقومون بتوزيع أمتعة من الإحتياطي المتبقي من الملابس الرسمية للأسرى السابقين، وكانت جزءاً من أموال الصليب الأحمر الروسي / الإنجليزي.

١٢٦ مخزن (بالألمانية) - مستودع .

١٢٧ كانتين (بالإنجليزية - مطعم غرفة الطعام - بوفيه " مخزن ") .

بالإضافة إلى ذلك ، فإن الأموال المجمعة من لجنة مساعدة اللاجئين الروس في مصر^{١٢٨} ، والصليب الأحمر الروسي- الإنجليزي والصليب الأحمر " فرع القسطنطينية " ، والصليب الأحمر داخل " مصر " كانت تذهب لصالح توفير وجبات غذائية إضافية للمرضى والضعفاء والنساء والأطفال . ولكن هذا الدعم الموجه للوجبات الإضافية قد توقف ؛ بسبب عجز موارد تلك المؤسسات السالف ذكرها .

كانت الحصّة الغذائية المقررة للاجئين ، هي تقريبا نفس الحصّة الغذائية المقررة للعسكري البريطاني . كان الفرد من الرجال يتسلم حصّة كاملة . أما حصّة النساء فكانت ثلاثة أرباع هذه الحصّة . وكان نصيب الأطفال حتى سن ١٤ سنة نصف حصّة الرجال .

على الرغم من اختلاف كمية الحصص الغذائية التي توزع على اللاجئين ، إلا أنه كان يتم توزيعها بالتساوي في الكامبين " أ " و " د " الخاصين بالعائلات بعيداً عن كون اللاجئين رجلاً أو امرأة أو طفلاً أو طفلة . كان يتم توزيع الطعام والشاي ، وأحياناً القهوة والكاكاو بدءاً من الساعة السابعة صباحاً حتى الثامنة مساءً عن طريق إشارات معينة كانت المطابخ في كل الكامبات روسية ، ويعمل بها رجال من اللاجئين . وكانوا يحصلون مثل جميع من يقومون بالعمل داخل الكامبات على مكافأة صغيرة ، يصرفها لهم مكتب مفتش اللاجئين بشكل دوري .

يتسلم كل لاجئ سرير مجهز بمرتبة ، بالإضافة إلى من ٢ إلى ٣ من البطاطين ، وفي بعض الأحيان وسادة محشوة بالشعر ، ويوزع عليهم في موسم الصيف شبكة رقيقة توضع أعلى الفراش (ناموسية) ؛ لحمايتهم ليلاً من لدغات الحشرات (الناموس والبعوض) إلخ ، وكانت الملاءات البيضاء مقصورة فقط على المرضى داخل المستشفى . كان يوزع عليهم أيضاً الأدوات الخاصة بالطعام وأكواب الشاي والأشياء الخاصة بدورات المياه . وفي بعض الغرف يوجد مناويزد كبيرة أو بعض قطع الأثاث بغرض الجلوس عليها وغالباً ما تكون جميع المتعلقات التي يتسلمونها من السلطات في حالة يرثى لها فهي غالباً ما تكون قديمة

١٢٨ صندوق (لجنة) دعم اللاجئين الروس في مصر تم إنشائه في ربيع عام ١٩٢٠ بناءً على مبادرة الدبلوماسيين القيصريين السابقين . وضم ممثلي الطبقة الأرستقراطية المحلية . ودوائر العمل داخل المجتمع الروسي . ترأست هذه اللجنة الإنجليزية الليدى «كنجراف» .

أو متهالكة. ولعل تفسير حالة الأثاث السيئة يرجع إلى أنها قد استعملت من قبل بواسطة أسرى الحرب. كما أنها لم تكن تكفي لسد حاجة اللاجئين، بحيث توزع على كل واحد على حدة.

أما عن المعيشة داخل المعسكر، فقد كان يجري تسكين الرجال العزاب داخل حجرات الثكنات الخشبية، بواقع من فردان إلى ثلاثة أفراد أو من ٢٥ إلى ٣٥ شخصاً داخل كل ثكنة. وفي الثكنات أرضية خشبية، وممر مشترك. والغرف محاطة بحصر من القش لا يتعدى ارتفاعها ثلاثة أمتار ومساحة أرضية في المتوسط (٣ أمتار في ٤ أمتار)، وحوالي (٥ أمتار في ٦ أمتار) ونصف أرشين^{١٢٩}...وبها من ٢ إلى ٣ نوافذ.

تتمتع الغرف بالإضاءة على نحو مرضي، بحيث تسمح هذه الإضاءة بإمكانية القراءة أثناء فترة المساء.. وكانت كل غرفتين تشتركان في الإضاءة بمصباح واحد أي أن الإضاءة داخل الغرف الكبيرة هي نفس قوة الإضاءة داخل الغرف الصغيرة الحجم، وهو ما لا يسمح بممارسة القراءة؛ نظراً لضعف قوة الإضاءة داخل الغرف الكبيرة. ولكن كان هناك بعض الاستثناءات لزيادة الإضاءة إلا أنه لا بد من الحصول على إذن من المفتش على هيئة تصريح خاص، من دونه يكاد يكون الأمر مستحيلاً.

كانت السيدات والعائلات يقمن في ثكنات مصنوعة من الإسبستوس المقاوم للحرارة داخل حجرات. وكان يعيش في الثكنة الواحدة من ١٥ - ٢٠ شخصاً. وكانت هذه الثكنات أكثر ملاءمة للحياة، على الرغم من أرضيتها الترابية وبدلاً من نظام الممرات داخل الثكنات، كانت هناك ممرات مستقلة من الشارع تؤدي إلى الغرف. وكان حجم الغرفة تقريباً من ٥ أمتار ونصف إلى ٦ أمتار ونصف، وجدرانها أيضاً من الإسبستوس بارتفاع ٤ أمتار ومتصلة بالسقف بواسطة الألواح الخشبية، والقماش. وكانت الحجرات جيدة الإضاءة نهاراً وليلاً ومحمية من تقلبات الطقس.

في المستشفى كانت عنابر المرضى من الإسبستوس وكان المرضى يوزعون داخل عنابر (ثكنات) كبيرة مشتركة، بمعدل ٢٠ شخصاً داخل العنبر الواحد في المتوسط. كانت الإضاءة داخل هذه العنابر على نحو مرضي سواء نهاراً أو ليلاً. وكان المرضى يحظون برعاية جيدة من قبل العاملين بالمستشفى. وكان العاملون الروس بهذه العنابر

١٢٩ أرشين - وحدة قياس روسية قديمة تساوي ١٢,٧١.

يقيمون في غرف مريحة ولديهم المطبخ الخاص بهم كما، أن أجنحة المرضى والممرضات وطاقم الحراسة كانت منفصلة (ثكنات مشتركة) .

الطقس الجيد الذي تتمتع به مصر كان عاملاً مساعداً في عدم تواجد أي عنصر من عناصر التدفئة داخل الثكنات، وسمح هذا أيضاً لمحبي الطبيعة أن ينشروا أنواع الزهور والأشجار أمام ثكناتهم. وكان لتواجد هذه النباتات المتنوعة دوراً ملموساً في كسر حدة الملل الذي قد يرتبط بطول التعود على مشاهدة منظر النخيل لفترة طويلة ومما لا شك فيه أن هذا الطقس الرائع سمح للاجئين بالاستجمام والسباحة طوال العام ولكن على الصعيد الآخر، تؤكد الإحصائيات من خلال أعداد المرضى الذين زاروا العيادات الخارجية، أن الطقس كان جيداً بما فيه الكفاية في محيط الإسكندرية. هذا الطقس الجيد لا غرابة فيه، فبالقرب منهم يوجد البحر والبحيرات الكبيرة التي تهب منها الرياح الرطبة، ليس فقط في فصل الشتاء ولكن في شهري أغسطس وسبتمبر (ولياليلهما الرطبة) له أثر طيب على صحتهم اللهم في بعض الحالات النادرة.

يضم المعسكر حالياً ما يقرب من ١٨٠٠ شخصاً منهم ١٢٠٠ رجلاً و٤٠٠ سيدة و٢٠٠ طفل. وقد كانوا في مجملهم من المحاربين السابقين في جيش دينيكين. ويبلغ عدد الرجال العزاب ٤٠٪، وعدد السيدات المتزوجات وغير المتزوجات ٤٥٪، بينما بلغت نسبة المدنيين ما بين المتزوجين والعزاب ١٥٪ ١٣٠. جميع اللاجئين الذين تم إجلاؤهم من جيش دينيكين يقدرون بنحو ٩٥٪ و ٥٪ منهم قدموا من أماكن مختلفة. وبسبب ظروف مختلفة. وجدير بالذكر، أن ما يقرب من نصف اللاجئين بما في ذلك النساء والأطفال، كانوا من الأصحاء، أما الباقون فكانوا نصف عرجة ومشوهين، والذين أنهكت قواهم وأعصابهم من أعباء حرب أوروبا والحرب الأهلية.

تعين على الرجال من سن ١٦ إلى ٦٠ سنة المشاركة في الخدمة داخل المعسكر، والقيام بالتناوب بالأعمال المنزلية وأعمال الحراسة، وتطهير الطريق المتاخم للمعسكر من الرمال المتراكمة إلى آخره. وتم فقط إعفاء جميع الموظفين الدائمين لدى إدارات القيادة، والموظفين في العيادات والمعلمين في المدارس المحلية من مثل هذه الأعمال. كما تم إدراج فئة ذوى الاحتياجات الخاصة تحت هذا البند، ولكن بشرط تقديم شهادات طبية معتمدة

١٣٠ جميع الأرقام في هذه الفقرة كتبت يدوياً بالحبر الأرجواني (كوبيا).

من القومسيون الطبي ، والتي بمقتضاها يتم إعفاءهم من الخدمة في مثل هذه الأعمال ، أو تكليفهم بأعمال بسيطة وخفيفة . وفيما يتعلق بالأعمال السوداء مثل تنظيف المجاري ، وجمع القمامة والنفايات فقد كان يقوم بها العرب بموجب عقد مع الإدارة الإنجليزية للمعسكر ، وبموجب هذا العقد كانوا أيضا يقومون بهذه الأعمال السالف ذكرها داخل المستشفى . وكان يتم غسل أغطية الفراش أو الملابس الداخلية الخاصة بالمصابين بأمراض خطيرة أو معدية ، بواسطة الماكينات الخاصة بذلك على نفقة الإنجليز . ولكن بصفة عامة كان اللاجئون يقومون بعملية غسيل الملابس بأنفسهم ، باستثناء المعاقين الذين تم إعفاؤهم من الغسيل . وقد خصص لهم مخصصات مالية من لجنة القسطنطينية للصليب الأحمر الروسي من أجل ذلك الغرض .

كانت المهام العادية عبارة عن الخدمة داخل المطبخ ، والخروج لتنظيف الطريق من الرمال ، ونوبات الحراسة عند الكانتين . وكانت الكامبات الخاصة بالأسر نادراً ما تقوم بالمهمتين الأخيرتين . أما المهمتان الأوليان فقد كان يقوم بها اللاجئون المقييون في الكامب ” ب ” يوميا وبالحراسة عند الكانتين في بعض الأحيان . فضلاً عن ذلك فخلافاً لكامبات العائلات تجدر الإشارة إلى الحصة غير العادلة من الأعمال ، الواقعة على كامب ” ج ” وأهم هذه الأعمال هي نقل وحمل البضائع إلى مقر الإدارة الإنجليزية للمعسكر والحراسة الليلية الدائمة عند المستودع الإنجليزي ، وفرز المواد التموينية المخزنة داخل المستودع بشكل دوري ، والتنظيف اليومي لخيمة التوزيع . وفي بعض الأحيان القيام بالأعمال السوداء (المتدنية) ، وكذلك الأعمال الشاقة ، ومنها حمل الأحجار وتثبيتها في أرضية المستشفى وأعمال الطلاء والتسقيف وفي النهاية تنظيف المستنقعات القريبة من المعسكر من الطحالب مما يحد من تكاثر البعوض ، وبالنسبة للأعمال الأخيرة فإن إتمامها أو إلغاؤها يتحدد بحسب الظروف .

في الأوقات التي تهب فيها رياح عاتية كان سكان الكامب ” ج ” يتحملون كل الأعمال على مدار اليوم ، ويقومون بجرف الرمال المتجمعة على الطريق الرئيسي . وعند المقارنة بين نسبة الرجال القادرين على العمل داخل المخيم ، يظهر لنا أن سكان الكامب ” ج ” يقومون بالمهام في فترة تتراوح مدتها من (٥-٤) أيام في المتوسط ، بينما سكان الكامب ” أ ” و ” د ” المخصصين للأسر كل فترة تتراوح مدتها من (١٠-١٢) يوم (أي أنهم لم يتحملوا المهام الصعبة وغير المريحة) .

كانت الإدارة الإنجليزية تعطي اللاجئين ، الذين لديهم عمل الحق في استئجار آخرين عوضاً عن أنفسهم . وكان هذا يتيح الفرصة لأولئك الذين يعملون في المدينة أن يكون لهم شقة داخل الكامب ، ويحفظ لهم حصصهم من المواد الغذائية . وبالنسبة لهؤلاء الذين ليس لديهم عمل ، فيحصلون على أجر ضئيل كمصروف جيب يذهب على الحلاقة وشراء السجائر والشمع ومعجون الأسنان ، أو إنفاق بضع قروش من أجل شراء طعام إضافي^{١٣١} .

كان اللاجئون في مجموعهم ، يشكلون كتلة غير متجانسة إلى حد بعيد . وقد ولى ذلك الزمن الذي بمجرد أن تتواجد في صفوف جيش المتطوعين ، تستطيع أن تحدد ملامح الأشخاص الذين يلتحقون به . فبعد انهيار ما يسمى الحركة البيضاء ، وانتقاد أيديولوجيتها ومساعدتها الاجتماعية والسياسية ، وكشف الجوانب الغامضة فيها ، أحدث كل ذلك تمايزاً حاداً في صفوف اللاجئين ، الذين كانوا يقاتلون من أجل فكرة واحدة ، ومن أجل قضية وطنية عامة . وقد خلقت هذه العملية البطيئة والمستمرة للتقسيم الطبقي ، مجموعات مختلفة داخل الكامبات طبقاً للوضع السابق ، ورؤاهم ومعتقداتهم والانتماء الحزبي والحالة السياسية الراهنة . إنقسم اللاجئون إلى عدة تيارات متناحرة ذات توجهات مختلفة وغير منسجمة فالبعض مكث على الشاطئ الأيمن ، وذهب البعض الآخر إلى الاتجاه المعاكس . هذه التيارات لم تكن أحزاباً سياسية أو جمعيات واضحة المعالم ذات ميثاق محدد وبرنامج موحد ونشاط مشترك . وإنما على الأرجح هذه مجموعات من المؤمنين ، الذين يشعرون ويفكرون بطريقة واحدة ومتوحدون نفسياً ومتشابهون في المعتقدات والأمال والغرائز باستثناء بعض التكتلات ، وهي مجموعات لاتعمل شيئاً على الإطلاق ، ولكنها تجادل بلا نهاية حول موضوعات سياسية وتناقش بقوة آليات إنقاذ روسيا .

١٣١ قرش - ١٠٠/١ من الجنيه المصري - عملة مصرية صغيرة .

لم يكن السواد الأعظم من اللاجئين ، ينتمى إلى هذه التقسيمات سألفة الذكر ، وكانوا ذوي مزاج ديمقراطي ساعين بذلك إلى تقادى التطرف الخطر . ولم يحسموا وهم القطاع الأكبر من حيث العدد ، قضية الانضمام إلى روسيا الجديدة الباقية في حدودها الإقليمية الحالية ، أم العيش على أمل استعادة روسيا القديمة والتاريخية ؟ بالنسبة لهم كان طريق النهضة القادمة للوطن غير واضح . ولا يعرفون هل سيحدث هذا أثناء التدخل الجديد (الذين لا يرغبون المشاركة فيه) ، أم أن هذا سيتم عن طريق تطور البلشفية إذا استطاعت أن تتطور . ومن هذا انبثقت استراتيجيتهم : "انتظار مؤلم ليس فيه حتى الآن بصيص أمل" .

تحسنت العلاقة داخل المعسكر في ذلك الوقت مع روسيا السوفيتية ، والشرق الأقصى الروسي وظهر ذلك جلياً من خلال حجم المراسلات الضخمة المرسلت من هناك إلى اللاجئين^{١٣} ومن الواضح أنه لم يعد ذلك الوقت بعيداً حين سيترك غالبية اللاجئين المخيم الكريه ؛ لأسباب مختلفة وحين الوقت أخيراً لفهم ، أنه بات من المستحيل في واقع الأمر بحجة انتظار الإستبيان "النهائي" للوضع السياسي ، العيش بلامبالاة في وضع مهين كلاجيء فقط من أجل تمضية العدد اللانهائي من الأيام والشهور في كنف أرض غريبة ...

انتهت حياة العريضة والمرح التي كان يحيها الجنود السابقون ، فلقد تخلصوا منها تدريجياً ثم نهائياً . وإن مبدأ "الجميع يخشى الزمن" قد لاقى صدى هنا بالمعنى الحرفي للكلمة ، فقد خالصهم من الحمية المتهورة والحياة غير المسؤولة الملازمة للجندية السابقة أثناء الحرب الأهلية . وكانت الأحداث غير المتوقعة ، قد حتمت عليهم أن يصبحوا لاجئين ، وأقنعتهم أخيراً أنهم لم يعودوا يتلقون العلاج في الخارج ، أو أنهم في إجازة حتى إشعار آخر ولم يعودوا لطيفي المعسكر كما كانوا في السابق وكان من المستحسن الابتعاد عنهم . وعندما أصبح ذلك الأمر واضحاً إنتبهوا إلى ضرورة البحث عن مخرج من هذه الظروف الطارئة ، وبدا ذلك جلياً من خلال سعيهم إلى تلبية النواحي الروحية والأخلاقية والمتطلبات العقلية . وتحت هذه الشعارات تأسست نقابات مستقلة . في نفس الوقت ظهرت لدى الغالبية العظمى الرغبة في السعي لحياة مستقلة ، بعيداً عن المعسكر غير عابئين بأية صعوبات . وقد أشارت إلى هذا الأمر مجلة "في المهجر" في عددها الأخير حيث أكدت أن أعداد الذين يعيشون بشكل مستقل ، بعيداً عن المعسكر قد بلغ حوالى

١٣٢ طبقاً لما ورد في «مجلة المهجر» في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢١ ، ويوليو/ تموز ، وسبتمبر/ أيلول من نفس العام غادر حوالى ١٠٤ شخص من «سیدی بشر» متجهين إلى روسيا السوفيتية

٦٠٠ شخص هذا العام . لكن من الصعب إعطاء إحصائيات مفصلة للوظائف التي شغلوها ، لعدم وجود بيانات محددة . ولكن لا يزال التصنيف التقريبي لها على النحو التالي : موظفو الترام من مشرفين وكمسارية و سائقين الترام يشكلون نسبة من ٥% إلى ٦% بينما الكتبة ممن يزاوون الأعمال الكتابية من ٣% إلى ٤% ، ونسبة العمال الذين يعملون في المهن المتدنية (السوداء) من ٤% إلى ٥% . وفيما يخص فئة الفنانين ، وأولئك الذين يعملون في المجال الطبى كانوا يشكلون نسبة ١% ، وعمال التبغ^{١٣٣} نسبتهم ١% . أما عن العاملين لدى الإدارة الإنجليزية كانت تقدر نسبتهم بـ ٢٥% وعن الذين يندرجون تحت بند العمالة النسائية من مربيات ، جليسات الأطفال ، ومربيات الحضنة والخياطة وصانعات القبعات النسائية فقد كن يمثلن نسبة من ٥٤% ، أما التخصصات الفنية المختلفة، والتي تضم (الفنيين والمهندسين والميكانيكيين والكهربائيين والسائقين) فهؤلاء كانت نسبتهم حوالى من ١٢% - ١٥% ، أما النسبة الباقية فقد كانت تدرج تحت فئة مهن غير محددة .

من الجدير بالذكر، أن نصف هذه المهن سألقة الذكر يتقاضى العامل بهاراتباً يكاد يوازي نصف مايتقاضاه الأوروبي في مصر ، وهذه العمالة تتركز أغلبيتها في الإسكندرية، والقاهرة وبورسعيد والسويس والسودان^{١٣٤} ، أو الذين يعملون عملا موسميا في أبي قير^{١٣٥} . وفي حالات أخرى استطاع بعض اللاجئين أن يحصلوا على دخل لائق أو أقل من ذلك داخل المعسكر نفسه لدى الإنجليز بمتوسط دخل من ١٥-٢٥ جنيه أو تعتبر هذا أعلى ما يمكن الحصول عليه من مرتبات وهى فئة الأطباء والكتبة ثم تأتي الفئة التي تليها وتشمل المرضى والمرضات والطباخين ، حيث كان متوسط دخلهم يتراوح ما بين ٣- ١ جنيهها وكانت تخصص لهم الحصص الغذائية من قبل الإنجليز .

لم يكن اللاجئين يتلقون أي دعم مالى بشكل رسمي . ولكن كانت هناك بعض الاستثناءات فقد كانت القنصليات الروسية المحلية العاملة منذ العهد^{١٣٦} القيصري ، تقدم حسب تقديرها ، مخصصات مالية لدائرة معينه من الأشخاص لمرة واحدة قد تصل أو تتجاوز معدل الحد المتوسط للمعيشة في مصر . أما عن مكاتب العمل التابعة للقنصليات ،

- | | |
|-----|---|
| ١٣٣ | باعة التبغ - تجار السجائر (الباعة الجائلين) بالأراج المحمولة . |
| ١٣٤ | السودان في ذلك الوقت كانت خاضعة للسيادة المصرية الإنجليزية . |
| ١٣٥ | مدينة على شاطئ البحر المتوسط على بعد ٠٢ كيلو متر إلى الشرق من وسط الإسكندرية . |
| ١٣٦ | حتى أكتوبر ١٩٢٣ ، كانت المؤسسة الرسمية المعتمدة هى الوكالة الدبلوماسية الروسية والقنصلية العامة (بالقاهرة) . والقنصلية في (الإسكندرية) ونائب القنصلية في (القاهرة وبورسعيد) . |

فقد فشلت في مهمتها. كما كان متوقعا. ففي أغلب الحالات كان اللاجئين يتمكنون من ترتيب شؤونهم بأنفسهم ، كما أن مكاتب العمل التابعة للإدارة الإنجليزية لم تحقق أي تغيير ملموس حتى أنها أغلقت أبوابها . لم يسجل مقر القيادة العامة الإنجليزية، أي شكل من أشكال خرق اللاجئين للوائح الداخلية أو الخارجية، خلال فترة إقامتهم في مصر التي استمرت عامين . وكانت العلاقة الظاهرية من جانب الأوروبيين المقيمين داخل مصر تجاه اللاجئين الروس ، تتسم بعدم الإكتراث والامبالاه . فيما يخص علاقات العرب بالروس ، فقد كانت الطبقات الدنيا في المجتمع تتعامل معهم بالهواة المعتادة . أما الطبقتين الوسطى والعليا ، فكانتا تتعاملان مع اللاجئين بنوع من شبه الازدراء وعدم الاكتراث ، معتبرين إياهم منافسين لهم إلى حد ما .

في فترة وجيزة أصبح للاجئين الروس الأفضلية في العمل لدى الأوروبيين عن العرب خاصة في شغل بعض الوظائف (كموظفين في الترام ، وموظفات لدى العائلات والعمل في وزارة المالية مع الإنجليز إلخ) ، إلا أن الجهل بعبادات وتقاليده أهل البلد ، وعامل اللغة كانا يحولان دون تواصل اللاجئين معهم .

القلق المستمر ، والمخاوف الدائمة لدى اللاجئين ، والمتعلقة بالنواحي المالية ، جعلت بعض الأشخاص يحاولون كسب بعض المال بطرق غير مشروعة ، وغير مصرح بها من قبل السلطات منها على سبيل المثال . محاولات التخلص من الأشياء غير الضرورية وأشياءهم الخاصة ، والتي يتلقونها من الإنجليز ، ويقومون ببيعها للعرب . وقيامهم في بعض الأحيان ببيع كميات من حصصهم الغذائية مثل زجاجة حليب ، أو برطمان من المربى ، وكان كل من يضبط متلبساً بفعل هذه الأشياء يعاقب بالحبس عدة أيام ، ويكبل بالأصفاد . وكان التجار من هذا النوع الذين يشترون كمية كبيرة من هذه البضائع ، ويسوقونها في المدينة بهدف الربح ، يكون عقابهم أشد ويقضون عقوبتهم في سجن القلعة^{١٣٧} بالقاهرة وأحيانا يؤخذ اللاجئين إلى هذا السجن ؛ بسبب المشاغبات الضخمة التي يحدثونها وهم في حالة سكر شديد .

١٣٧ القلعة - تعتبر مثل الكرملين في القاهرة . وشيدت في القرن الثاني عشر - على تلة متواجدة أعلى المدينة . وإعتبرت لفترة طويلة مقراً للحاكم وحاشيته ، وأيضاً كانت تستخدم كسجن . وفي نهاية القرن التاسع عشر انتقل حكام مصر إلى القصور في المدينة وانتقلت القوات إلى التكنات الخاصة بها . وظلت القلعة تستخدم كسجن .

بصفة عامة، كانت الحياة داخل الكامبات، تسير بشكل بطيء، وكان لاشيء يحدث هناك. فالحب والزواج والولادة يأتون في أوقاتهم المقررة. وهناك يحل المرض والموت الذي يخطف كل من لم يتواءم مع المناخ المصري ومن سحقتهم الحرب والثورة والمنفي وقد قام مواطنونا الأكثر نشاطاً، والذين إعتادوا على الحياة الاجتماعية، والتواصل الثقافي بإنشاء هيئات متنوعة بغرض تحسين وضعهم الاقتصادي، وظروف المعيشة، وتطوير الحياة الفكرية؛ وتلبية نشاطها.

في المعسكر توجد الهيئات التالية :

١- جمعية الثقافة والتنوير الروسية^{١٣٨}

تنص لائحته على أن يدير شئونها مجلس إدارة مكون من ٧ أعضاء، ولديهم مكتب خاص في الماكس^{١٣٩} يعمل به ممثل للجمعية. وفي أول يناير بلغ عدد أعضاء الجمعية ١٥٠ عضواً، من بينهم ٥٠ عضواً من الماكس. تضم الجمعية قسم للأطفال، بحيث يكون الحد الأدنى ١٦ عضواً، ويحد أقصى ٣١٥ عضواً، وكافة المباني التابعة للجمعية باستثناء المكتبة التعليمية، متاحة لجميع المقيمين داخل الكامبات. وتم إهداء المدرسة الثانوية كمية من الكتب الدراسية كمنحة. كما سمحوا لطلاب المدرسة الثانوية باستخدام مكتبة الأطفال حتى نهاية اليوم الدراسي.

٢- "فرقة الدراما الروسية الموسيقية" بيان.

تنص لائحته على أن تتولى شئونها هيئة رئاسية مكونة من ٤ أعضاء. ويتاح للفرقة استخدام المسرح المجهز بـ ٦٠٠ مقعد. ويتلقى تمويله من السلطات الإنجليزية. وتنظم الفرقة عرضين شهرياً بلا مقابل، وخلاف ذلك مقابل مبلغ مالي. وتتكون الفرقة من ٣٥ فرداً.

٣- "الحلقة الأوكرانية"، وينص ميثاقها على أن الرقابة فيها، ترجع لمجلس الإدارة الذي يتكون من ٥ أعضاء عاملين، عدد الأعضاء ٨٠ شخصاً. ولدى الجمعية قاعة للمطالعة ومكتبتها الخاصة. كما أصدرت الجمعية مجلة "في الأطلال" ^{١٤٠} حتى ١٥ أبريل لذلك العام.

١٣٨ تفاصيل عن أنشطة هذه الجمعيات تتحدث عنها الوثيقة التالية .

١٣٩ الماكس - ضاحية تقع غرب الإسكندرية .

١٤٠ لم يتم الكشف عن نسخ هذه المجلة .

٤- " المدرسة الثانوية الروسية " :

تضم فصولاً إعدادية للكبار والصغار أول فصلان (بالتوازي) ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، هي فصول اختيارية . وتجري الدراسة بها وفقاً للدراسة في المدارس العادية وتمضي الدراسة في الصف الثامن وفقاً لمناهج المدرسة الثانوية بنين وطاقم أعضاء هيئة التدريس مكون من ٢٠ مدرس . وهناك لجنة خاصة بأولياء الأمور وإجمالي أعداد الطلاب للعام الدراسي العالى ١٠٠ طالب . وفي العام الراهن لم يحصل المعلمون على أي راتب . كما تعاني المدرسة من نقص حاد في الكتب الدراسية والكراسات إلخ...

٥- " حضنة الأطفال " :

مكانها داخل الكامبين " أ " و " د " ، وتعتبر كياناً منفصلاً ويدرس بها ٢٠ طفلاً . يعمل بالحضنة الأولى إثنان من المشرفات . ويعمل بالثانية مشرفة واحدة ، وأيضاً لم يتم دفع رواتب لهم مقابل العمل هذا العام .

٦- " جمعية الروس ذوى الإعاقة والمحاربين المشوهين في مصر " : وينص ميثاقها على أن تدار شؤون الجمعية من خلال مجلس الإدارة الذي يضم ٥ أعضاء ، هؤلاء الأعضاء يحملون بطاقات طبية خاصة ، وتضم ١٨٦ عضواً عاملاً .

٧- " اتحاد الطلاب الروس في مصر " ، وتنص اللائحة التأسيسية الخاصة به على أنه اتحاد غير سياسي ، ولكنه في نفس الوقت ، لا يعترف بالسلطة السوفيتية كحكومة روسية شرعية . وعدد أعضائه ٢٠٤ من بينهم ٧٨ من الكامبات ، والباقي من خارج المدينة ٦٧ منهم من الاسماعيلية^{١٤١} ، ويتكون رئاسة الاتحاد من ٥ أعضاء .

٨- " اتحاد الطلاب الروس في الإسكندرية " ، وتنص لائحته أنه ، لا علاقة للاتحاد بأي نشاط سياسي من قريب أو بعيد ، وليس لديه أي أهداف سياسية . يتكون مجلس إدارته من ٦ أعضاء ، وعدد أعضائه ٨٩ ، وتتركز أهداف كلا من الاتحادين في العمل على مواصلة العملية التعليمية في الخارج .

١٤١ بالقرب من الاسماعيلية على شاطئ قناة السويس ، وفي معسكر منفصل يقع المعسكر الخاص بتلاميذ المدرسة العسكرية بالدون .

٩- «القرية القوزاقية السكندرية في مصر» «أخوية القوزاق»، وتنص لائحتها على أن يتأسس شئون الأخوية ١٠ أعضاء منتخبين، برئاسة قائد القوزاق، وتخضع لمركز الهيئة التنفيذية لحكومة الدون في صوفيا. وهي هيئة غير سياسية، وتضم ١٠١ من القوزاق، وتضم في جنباتها جميع القوزاق سواء كانوا من «الفلاحين أو من المحاربين»، والهدف من إنشاء الجمعية، هو حماية مصالح القوزاق، ونشر روح الاتحاد والتضامن بين القوزاق في الخارج.

١٠- «جمعية التعاون بين الضباط الروس في الإسكندرية»، وتنص لائحتها على أن يتأسسها ٤ أعضاء. وعدد الأعضاء الفاعلين ٥٠ عضواً.

١١- «النادي البولندي»، وتنص لائحته التأسيسية على أن يتأسسها ٤ أعضاء، وعدد الأعضاء حوالي ٣٠ شخصاً. الهدف منها هو مد أواصر التعاون بين المهاجرين والمنظمات الوطنية في بولندا، بغرض ربط المهاجرين بوطنهم الأم، وتوفير المساعدات السريعة للعودة إلى الوطن. (في الوقت الراهن تم إعلاق النادي؛ بسبب عودة الكثير من أعضائه إلى الوطن)

١٢- «الجماعة التعاونية لجوقة البلايكا الروسي العظيم»، وينص ميثاقها على أن يتولى رئاستها قائد الكورال، ويتولى كبيرهم الأمور المالية، وتتكون من ١٤ عضواً، والهدف منها تعريف المصريين بالموسيقى الروسية على نطاق واسع.

١٣- «الفرقة النحاسية الروسية»، وقد تأسست هذه الفرقة بأموال الإنجليز، بشرط تسديد هذه المبالغ من خلال استقطاع جزء من نسبة الأجور، ويديرها قائد الأوركسترا، وتتكون من ١٨ عازفاً.

١٤- «الأوركسترا السيمفوني الروسي»، وتضم ٨ أعضاء، وظل يعمل للعام الثاني. وكان يقوم بإحياء عدد من الحفلات المنزلية.

١٥- «الجوقة الروسية المختلطة» بقيادة «كوريتين»، الهدف من إنشائها هو الغناء غير الديني، والعروض الصوتية من ريبريتوار الأغاني الروسية في مصر. وكان عدد المشاركين ٢٥ شخصاً، مقسمين ما بين ١٣ رجلاً و١٢ سيدة.

١٦- «جوقة الرجال الروس» بقيادة «أفاناسييف» وتتكون من ١٦ شخص، والهدف منها أداء عروض مماثلة لعروض كورال «كوريتين».

١٧- "الجوقة الكنسية" بقيادة "جلا جوليفا"، وتقوم بالأداء داخل كنيسة الكامب "د" والمستشفى، وتتكون من ١٢ - ١٥ مطرباً .

١٨- "جماعة محبى الطبيعة"، وينص ميثاقها التأسيسي على أن تضم بين جنباتها ١٥ شخصاً، يتولى مسئولية الجماعة المدير والسكرتير. تم إعلان الجماعة في ١ فبراير ١٩٢١ .

١٩- "فريق كرة القدم"، ويتكون من ٤ إنجليز و٧ روس، وبدء ممارسة اللعب تقرره الإدارة المحلية للمعسكر الإنجليزي. وكان الفريق ينظم مباريات دولية على أرضه .

٢٠- "الجريدة الشفهية"، تم تأسيسها من قبل الدكتور "كليمينكو" منذ شهرين، وكان يتم قراءتها أسبوعياً في أيام الخميس، وكان لديها توجهات ضد البلشيفية.

٢١- "الاجتماع العام" تقام في الاجتماع معارض بشكل دورى ومحاضرات وندوات منظمة وأمسيات منزلية ثقافية وموسيقية. علاوة على ذلك تعمل هناك بشكل دائم المكتبة العامة والمدرسية وقاعة المطالعة الأوكرانية ومكتبة "الحلقة الأوكرانية" وقاعة المطالعة ومجلس إدارة ومتجر الجمعية الروسية الثقافية والتنويرية وهيئة تحرير وطباعة مجلة "في المهجر"

٢٢- "قسم الأطفال داخل جمعية الثقافة والتنوير الروسية":

هدف القسم، هو مساعدة الأطفال المحتاجين، وإمدادهم بالمستلزمات الضرورية. قبل يناير عام ١٩٢٢ قامت الجمعية بتوزيع مساعدات، عبارة عن أحذية وملابس وهلم جرا إلى ٣٠ طفلاً .

بالإضافة إلى المنظمات السابق ذكرها، كان المعسكر يضم ٣ كنائس، والكانتين الإنجليزي وصالون للحلاقة، وورش إسكافية وخياطة ومصورين وساعاتية، وورشة للمنتجات القصديرية، والكانتونات الروسية التي يباع فيها الأشياء الضرورية إلخ.

كانت القيادة العامة الإنجليزية تسمح للاجئين، بالخروج من المعسكر في نطاق الحدود المصرية. (لفترة قصيرة أو طويلة أو لأجل العيش بشكل منفصل خارج المعسكر إلخ...)

كان يتعين على اللاجئين المغادرين للمعسكر ، أن يستخرجوا تصاريح مؤقتة (مرور)^{١٤٢} من المكتب البريطاني ، طالما كانوا داخل الحدود المصرية ، وعند العودة للمعسكر يسلمونها إلى مكاتب الكامبات المختصة . وكان يتعين على جميع العائدين مجدداً أو العائدين بعد غيبة طويلة الخضوع للكشف الطبي .

د.ز فارليبايف

ديسمبر ١٩٢١

الجمعية الروسية الثقافية التنويرية

أنشطة عام ١٩٢١ :

”يقدم لنا المقال التالي تقريراً موجزاً عن أنشطة الجمعية في سيدي بشر . والجمعية هيئة غير حزبية ، وليس لها أي أهداف سياسية . والهدف الرئيس لها تفهم الحياة الروحية للكامبات ، وتلبية الاحتياجات الثقافية للاجئين ، وكذلك استثمار الوقت بشكل جيد أثناء الإقامة الجبرية للاجئين على الأراضي المصرية“ .

كانت هذه المسألة باستمرار ، تحدد جدول أعمال جميع المجالس ، والاجتماعات العامة ؛ ولذلك فقد سارت الجمعية على الطريق المرسوم ، وعملت بالثقافة وابتعدت عن السياسية وعمدت إلى الوقوف دائماً موقف المحايد ، وجمعت حولها فقط العنصر الذي يسعى إلى تلبية احتياجاتها الروحية .

بلغ عدد أعضائها في الأول من شهريناير عام ١٩٢٢ ، ١٥١ عضواً . والحد الأدنى ١٨ عضواً والحد الأقصى ٣١٥ عضو . وطبقاً لتقرير عام ١٩٢١ فإن الجمعية ضمت الهيئات التالية .

١- مجموعة الهيئات التي أوقفت عن العمل لأسباب مختلفة ، وهي كالتالي :

١- المدرسة الابتدائية للأميين عدد طلابها ١٣ طالباً . استمرت هذه المدرسة في العمل لمدة شهرين فقط .

٢- دورة متخصصة في الكهرباء ، وكان عدد طلابها ٤٥ طالباً ، وفترة العمل بها استمر ٦ أشهر .

٣- دورة متخصصة في المحاسبة عدد الدارسين في الدورة ١٠٥ واستمرت لمدة ٤ أشهر .

٤- ٥- ٦- دورات متخصصة في اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية عدد طلابها ٣٠٤٥ . ١٨- طالباً ، مدة استمرارها ٤-٣-١ أشهر .

١٤٢ مرور- (بالإنجليزية) تمرير .

بلغ مجموع ما تم إنفاقه على هذه الدورات ٧ جنيهات و ٥ قروش . بعض هذه الدورات مثل الدورات الخاصة بالكهرباء والمحاسبة، تم البدء بها في ” التل الكبير “^{١٤٣} وتم الانتهاء منها في ” سيدي بشر “ ، وقام بالتدريس في كل هذه الدورات ٩ معلمين .

الفئة الثانية : الجمعيات التي تعمل حتى الآن :

٧- المكتبة العامة ، كان يتواجد بها حتى يناير ١٩٢٢ نحو ٥٤٦ كتاباً (وفي الأول من سبتمبر وصلوا إلى ٤٧٤ كتاباً) منهم ٢٧٧ خاص بالجمعية بلغت مرات الإستعارة بدءاً من ٢٥ مارس (بحسب السجلات) إلى ٢٠٥٠٠ . ووصل عدد المشتركين حتى الأول من يناير إلى ٣٠٢ مشتركاً وكانت المكتبة تحتوي على ٢٧ كتاباً باللغة الإنجليزية ، و ٣٠ كتاباً باللغة الفرنسية . كان من حق المشتركين داخل المكتبة استعارة ٩ كتب في المتوسط ، وكان كل كتاب يتم استعارته ٥ مرات في الشهر . وإذا نظرنا إلى نوعية الكتب المستعارة ، نجد أن أغلب المشتركين يقبلون على الكتب الكلاسيكية ، ونلاحظ أن المكتبة أنفقت ٧ جنيهات و ٨٤ قرشاً على شراء الكتب الروسية . كما أنفقت الجمعية ٤ جنيهات و ٩٦ قرش على تغليف الكتب وشراء المواد اللازمة للمكتبة . وقد قدمت الإدارة الإنجليزية دعماً ملموساً في هذا الشأن .

٨- المكتبة المدرسية : يوجد بها ٣٤٣ كتاباً في الجغرافيا والتاريخ والرياضيات والأدب واللغات الأجنبية . وقد تم منح المدرسة الثانوية المحلية ٩ خرائط جغرافية وأكثر من ٢٠ كتاباً مدرسياً للاستخدام المؤقت . وتقوم المكتبة في الأساس على الكتب التي أرسلها باليتشيفسكى مدير قسم الثقافة والتنوير فرع ” زيمجور “^{١٤٤} في باريس ، واتحاد الشباب المسيحي في برلين وفي الأول من يناير كانت المكتبة تحوى ١١٩ كتاب وبقى الكتب كانت في أيدي أعضاء الجمعية .

٩- مكتبة الأطفال : فتحت أبوابها أمام الراود في الثاني عشر من شهر سبتمبر وتضم ٢٢٠ كتاب ، وفي أول يناير كان تم استعارة ١٢٢٢ كتاب وكان عدد المشتركين ٦٥ طفلاً . وفي أكتوبر تم تسليم المكتبة للمدرسة الثانوية للاستخدام المؤقت ، وقد تكونت هذه المكتبة في الأساس من الكتب التي تبرعت بها المؤسسات الخيرية في برلين وباريس وبعض الكتب التي تبرع بها الأطفال أنفسهم ، وجزء تم شراؤه من قبل الجمعية .

١٤٣ الكتابة المعاصرة - التل الكبير .
١٤٤ زيمجور : هي منظمة روسية أنشئت لمساعدة المواطنين الروس في الخارج خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٥ .

١٠- قاعة المطالعة. في خلال عام واحد من إنشائها، تسلمت قاعة المطالعة ٦٠ مجلة مشهورة باللغات الروسية والأوكرانية والبولندية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والأرمينية والأوروبية واليونانية والإيطالية. ويأتى للقراءة ما يقرب من ٥٠ إلى ١٠٠ شخص يومياً. ومن الملاحظ اختفاء بعض المجلات اليمينية واليسارية داخل القاعة في الأونة الأخيرة

١١- مجلات الحائط. تم تعليقها داخل حجرة الإطلاع منذ ٢٥ مارس، وتجاوزت صفحاتها ١١٧٢ صفحة مترجمة عن المجلات الإنجليزية والفرنسية. والهدف من المجلة هو نشر المعلومات الحديثة عن الأحداث الراهنة وخاصة المتعلقة بروسيا. وأنفق على هذا العمل حوالى ٩٦ قرشاً و٨ مليماً^{١٤٥}.

١٢- المجلة الروسية الشهرية "في المهجر". وصدرت أولى طبعاتها في يوليو وحتى الأول من يناير تم طبع ٦ أعداد بإجمالى توزيع ٧١٨ نسخة، وعدد صفحاتها ٢٦٩ خصص منها ١٣٧ صفحة، للموضوعات والمقالات الأدبية والسياسية والموضوعات ذات الطابع العلمى و٤٩ صفحة للأخبار المحلية، و ٢٥ صفحة للوقائع التاريخية، و ١٣ صفحة للنقد المسرحى و١٢ للترجمة، و صفحة واحدة للأخبار الرياضية بواقع ٦ أعمدة بالإضافة إلى ٢٤ قصيدة و٩٦ رسمه وخريطة لمصر و٦ صفحات للفهرس، علاوة على ٦ مقالات قصيرة، و٦ رسومات للغلاف، و٨ صفحات خصصت للإعلانات. تعاون أكثر من ٣٦ مؤلفاً من أجل أن تظهر المجلة للنور وأرسلت ٢٥١ نسخة إلى رؤساء تحرير الصحف والمجلات وممثلى المؤسسات الروسية في الخارج، والسلطات البريطانية المحلية ومختلف الناشرين والمؤلفين وبيع منها ٢٢٨ نسخة وتبقى ٧٤ نسخة، بالإضافة إلى ذلك لم يتم بيع ٨٥ نسخة من العدد السادس. وفي مقابل النسخ المرسله إلى هيئات تحرير الصحف، وناشرها، تسلمت الإدارة العديد من المجلات والصحف والكتب الأجنبية.

في ظل الظروف التي يعيشها اللاجئون داخل الأراضي المصرية، يعد خروج المجلة للنور عملاً بطولياً، مع الأخذ في الاعتبار أن عملية الطباعة البدائية، وغياب الوسائل الضرورية ونقص القوة الأدبية أعطى المجلة شكلاً بدائياً.

١٤٥ - مليم - ١٠٠٠/١ من الجنيه المصري و ١٠/١ قرش، وغير مستخدم حالياً.

- ١٣ - مجلة الأطفال (الأدباء الصغار) . كان المحرر "تيرليتسكي" وصدر عدد واحد منها وطبع منه ٥٠ نسخة، ١٢ صفحة عبارة عن نصوص و٥ رسومات^{١٤٦} .
- ١٤ - قسم الأطفال . ويهدف إلى مساعدة أطفال المعسكر المحتاجين . ساعد في توفير الأحذية والملابس وغيرها من الأدوات وكانت مشترياته بقيمة ٦ جنيهات و٢٥ قرشاً .
- ١٥ - قسم الطلاب . الهدف منه العمل على مواصلة الطلاب دراستهم في الجامعات الأوربية وقبل تحولها إلى منظمة مستقلة أنفقت الجمعية على القسم (٢ جنيه و٤٨ قرشاً) .
- ١٦ - تجارة الورق وملحقاتها . والتي تنتعش أثناء الاجتماعات العامة .
- ١٧ - المحاضرات . خلال عام واحد تم إلقاء ١٢ محاضرة . ولكن كان هناك دائماً صعوبات في إيجاد المكان لإقامة مثل هذه الفاعليات ، مما أدى إلى عدم انتشارها على نطاق واسع وكان أحد أهم العوامل المؤثرة في توقف مثل هذه الفاعليات ، هو عدم توفر المحاضر القوي والجيد وعدم توفر الكتب ووسائل شرائها .
- ١٨ - تنظيم دورات الدراسة عن بعد عبر "مركز حقوق الإنسان قسم برلين واتحاد الشباب" وبالفعل في شهر ديسمبر ، حصل عدد من الطلاب المسجلون في الدورة ، على عدد من البطاقات للسفر بغرض الدراسة . وكانت المحاضرة الأولى تعقد ويتم فيها شرح الإرشادات والبرنامج التعليمي وكيفية سير العملية التعليمية . وكذلك كان يقدم بعض المبالغ المالية في شكل مساعدات . ووصل عدد الطلاب ٤٠ طالباً .
- ١٩ - مكتب الماكس . كان يقوم بتوريد المجلات والصحف والمصنوعات الورقية ومستلزماتها ، والكتب من الجمعيات والمكتبات المدرسية . وكانت الفائدة العظيمة التي يقدمها هي جمع الأموال شهرياً وبصفة دائمة ؛ لشراء الأشياء الضرورية للأطفال المحتاجين . وقد كانت التبرعات تقدم من خلال قسم الأطفال ، وقد أعرب أولياء الأمور عن امتنانهم مراراً وتكراراً على المساعدات التي يتلقونها .
- أقامت الجمعية كل هذه المشاريع بمجهود شاق ، على الرغم من النقص المزمّن في التمويل . وكان الدخل الدائم للجمعية يعتمد بشكل أساسي على الأرباح من بيع ورق وأدوات الكتابة ، ورسوم العضوية ، والإشتراكات وآلة الطبع . وكانت الموارد

١٤٦ لم يتم الكشف عن نسخ هذه المجلة .

الثانوية تأتي من رسوم الحفلات الموسيقية وتبرعات الإدارة البريطانية. وقد قدم كل من السفير الروسي لدى مصر "سميرنوف" ^{١٤٧} ونائب القنصل في القاهرة "فينوجرادوف" ^{١٤٨} الدعم المادي والمعنوي وخاصة في الفترة الأولى. ومن أبرز الشخصيات التي قدمت الدعم للجمعية السيدة "موكبيفو" والدكتور "موكين". لم تقدم القنصلية الروسية في الإسكندرية أي دعم للجمعية، وكذلك "ماسلوف" ممثل "زيمجورا" في مصر، والذي رفض حتى منحهم قرصاً بقيمة ١٠ جنيهات، بحجة عدم قدرتهم على سداد الدين على الرغم من أن أملاك الجمعية كانت تقدر آنذاك بحوالى ٥٠٠ جنيه بعد أن إنقضى العام الأول أقر مجلس إدارة الجمعية أنه على الرغم من الصعوبات البالغة التي واجهتهم أثناء العمل، والتهديد الدائم بالترحيل إلى صربيا، ونقص الموارد المادية وعدم تطور التقاليد العامة في بيئتنا بشكل كاف؛ فإن أوضاع الجمعية في نهاية العام أصبحت أفضل بكثير من أي وقت مضى منذ إنشائها، وكان كل شيء يسير على مايرام باستثناء بعض الديون الطفيفة ولكن مجلس الإدارة استطاع أن يدبر المال من توزيع ستة أعداد من المجلة، ومن إشتراكات مئات الكتب وتنظيم دورات متنوعة داخل المكتبة وقاعة الإطلاع إلى آخره. مجلس الإدارة

الكنيسة الروسية الخاصة باللاجئين في مصر :

بدأ تدفق اللاجئين الروس إلى مصر منذ يناير ١٩٢٠، وفور وصولهم تم إيداعهم في المستشفى، تم تسكين البعض في "العباسية" بالقرب من القاهرة والبعض الآخر في "الثل الكبير" وفي كلا المعسكرين أقام القساوسة الشعائر الدينية داخل خيام معينة خصصت لذلك الأمر. وفي منتصف مارس عام ١٩٢٠ وصلت دفعة جديدة من اللاجئين الروس قوامها ١٥٠٠ شخص، وكانت تضم طلاب المدرسة العسكرية بالدون، والذين تم إلحاقهم فيما بعد بأحد المعسكرات، التي تقع بالقرب من الاسماعيلية. وفيما بعد في يونيو ١٩٢٠ تم نقل حوالى ٣٠٠ أسرة من اللاجئين إلى "سيدي بشر" للكامب "د"

١٤٧ سميرنوف ألكسى ألكسندر فيتش (سانت بطرسبورج ١٨٥٧ - القاهرة - ١٩٢٤) في الفترة ما بين ١٩٠٥ - ١٩٢٣ كان يمثل الدبلوماسية الروسية - حيث شغل منصب القنصل العام في مصر
١٤٨ نيكولا فينوجرادوف إيفانوف فيتش (١٨٨١ - القاهرة - ١٩٣٥) في الفترة من ١٩٢٠ - ١٩٢٣ النائب العام الروسي من قبل القنصلية في القاهرة .

الكائن بالفعل وفي ديسمبر تم ترحيل لاجئي كامبي " ١ " " ٢ " من معسكر " التل الكبير " إلى " سيدي بشر ". وفي يناير ١٩٢١ نقلت المستشفى إلى هناك وتم توزيع اللاجئين على الكامبات " أ " ، " ب " ، " ج " ، " د " وكانت الشعائر الكنسية تقام في مبان خاصة ، تسمى ثكنات داخل الكامبين " ب " و " د " وفي المستشفى .

أقيمت الكنيسة داخل معسكر العباسية لمدة ٤ أشهر فقط ثم أغلقت بعد ذلك في أعقاب غلق المستشفى ونقلها إلى " سيدي بشر ". وكانت الكنائس التي أقاموها داخل معسكر " التل الكبير " ، والتي تم نقلها إلى " سيدي بشر " تفتقر في بادئ الأمر إلى الأشياء الضرورية ، مثل : الأدوات الكنسية والأيقونات والملابس الكهنوتية والكتب اللوتورجية و حائط الأيقونات ، وعدم وجود شيء يفصل المذبح عن الجزء الأوسط من المعبد ، باختصار كان هناك نقص في كل الأشياء ، ولكن مع مرور الوقت تم توفيرها فقد أرسل كل من بطريرك الإسكندرية " فوتي " ^{١٤٩} والإرسالية الروحية الروسية ^{١٥٠} في القدس الأدوات الكنسية ، والأثاث الكهنوتية ، والكتب اللوتورجية .

بفضل القنصل " بيتروف " ^{١٥١} قامت البارجة التابعة للأسطول " النسر " بتسليم الكنيسة العسكرية إلى " سيدي بشر " ، وكانت أهم محتوياتها " حائط الأيقونات والمذبح ، والملابس الكهنوتية ، والشمعدانات ، إلخ... " وتولى القنصل عملية الإشراف على نقل ممتلكات الكنيسة التابعة " للبيت الروسي في الإسكندرية " ^{١٥٢} لكنيسة كامب " د " في سيدي بشر ، والذي تم إغلاقه في الأول من ديسمبر ١٩٢٠ إثر مغادرة اللاجئين المقيمين داخل البيت الروسي أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ إلى فلسطين .

- ١٤٩ البطريرك الأرثوذكسي اليوناني وعموم إفريقيا (ينبغي عدم الخلط بينه وبين البطريرك القبطي بالإسكندرية) .
- ١٥٠ أنشئت بعثة الكنيسة الروسية في القدس (الإرسالية) في ٣١ يوليو/تموز ١٨٤٧ - حيث وصلت إلى فلسطين في فبراير/شباط من العام التالي ، في أعقاب دخول الأتراك الحرب العالمية الأولى وبعد إجلائهم من الإسكندرية - عادت إلى القدس .
- ١٥١ ألكسندر بتروف ميخائيلوفيتش (موسكو ١٨٧٦ - الإسكندرية ١٩٤٦) شغل في الفترة من ١٩١٠ إلى ١٩٢٣ منصب القنصل الروسي بالإسكندرية .
- ١٥٢ ما يعرف «بالبيت الروسي» عاش فيه بالإسكندرية ، بعد أن تم إجلاؤهم من فلسطين أعضاء بعثة الكنيسة الروسية . وإثنان من رهبان الأديرة الروسية . وبعض الحجاج الذين وقعوا في الأسر أثناء الحرب في فلسطين . وهي تعد أول كنيسة أرثوذكسية روسية تم تأسيسها في مصر .

في الوقت الحالي ، يوجد داخل الكنائس الثلاثة جميع الأشياء الضرورية ، لإقامة القداس . وقد قام اللاجئون الروس بجهودهم الذاتية بإقامة حوائط الأيقونات وتكوين الجوقات ، ورسم الأيقونات منذ بداية الحرب في عام ١٩١٤ حين بدأت الخدمة الكنسية في البيت الروسي ومع افتتاح الكنائس داخل المعسكر بعد ذلك ، تكفل القنصل "بيتروف" بتوفير رواتب الكهنة ومساعدتهم ، وقدم لبعض الوقت مساعدات مالية لجوقة الكنيسة .

داخل الكامب "د" كانت الجوقة المختلطة تغني لوقت طويل بقيادة "أفاليا" ثم "أفاناسييف" بعد ذلك والآن في كنيسة المستشفى (كامب ج) ، وكنيسة كامب "د" المخصص للعائلات ، تقام الصلوات بالتناوب (لوجود نقص في الكهنة) وتقوم بالغناء فيهما جوقة مختلطة بقيادة "جالجوليفا" .

جميع الكنائس تعتمد بشكل أساسي في تمويلها ، على الإيرادات التي تأتي من بيع الشموع . ويقوم بالإشراف على كنيسة الكامب "د" مجلس الإبراشية المنتخب ، ويذكر أنه على مدار عامين من إقامة اللاجئين في الأراضي المصرية ، وقد سجلت ١٢ حالة ميلاد و ١٨ حالة زواج و ٦٢ حالة وفاة منهم ١٣ جندي ، ٥ متطوعين ، ٤ موظفين عسكريين و ٣ قوزاق ، و ١٥ ضابط ، و ١ جنرال ، وطالب ، و ٤ من المدنيين ، و ١ كاهن ، و ١٠ سيدات ، و ٤ من الأطفال .

سيدي بشر

١٩٢١-١٢-٢٨ م

القس آل . فولخوف.

ذكرى تأسيس كنيسة "القديس" ألكسندر نيفسكي :

منذ أن انتقل الجرحى من المحاربين واللاجئين المدنيين ، من المستشفى إلى "التل الكبير" ، راودت اللاجئين المدنيون فكرة إنشاء كنيسة أرثوذكسية في المعسكر . وكان الهدف من إنشائها هو خدمة اللاجئين القادمين من المستشفى ، والموزعين على الكامب رقم "١" الخاص بالأسر والكامب رقم "٢" المخصص للرجال الذين يقضون فترة نقاتهم داخل المعسكر ، وقد استوعبت الإدارة الإنجليزية حاجة اللاجئين إلى إقامة كنيسة داخل المعسكر . وتقبلوا هذه الفكرة بروح طيبة وشرعوا ، في إصلاح الثكنة الكبيرة وتحويلها إلى كنيسة ، ولكن نقص المال لدى اللاجئين حال دون إنشاء كنيسة

بالشكل الملائم . وبحلول أسبوع الآلام ، تم البدء في إقامة الصلوات داخل الكنيسة . غير أن نقص الموارد داخل الكنيسة التي كانت تعتمد على الشموع والخبز والنبيد ، أثار على إمكانية استمرار الشعائر الدينية بل أصبح الأمر في غاية التعقيد . حينها أثارت بعض الأقاويل عن احتمال غلق الكنيسة . ولكن بفضل الطاقة التي لا تكل للداعم المالي للكنيسة ” إساكوف “ ، تم إلغاء هذه الفكرة من أساسها . وكانت الإدارة الإنجليزية للمعسكر تساهم بمبلغ ضئيل الأمر الذي جعل الكنيسة تواصل القيام بالدور المنوط بها حتى مغادرة جزء كبير من اللاجئين ، إلى جزيرة القرم في أكتوبر وقبيل نقل اللاجئين واستقرارهم في سيدي بشر في ديسمبر ١٩٢٠ .

داخل معسكر ” سيدي بشر “ تمكن اللاجئين بصعوبة من تحويل أحد المباني التي كانت تستخدم كمسرح من قبل الأسرى الأتراك إلى كنيسة ، غير أنه لم تكن هناك أي أدوات كنيسة على الإطلاق . وقد استجاب الكامب العائلي ” أ “ على الفور لتقديم المساعدات المادية . وتم جمع مبلغ ٣ جنيهات و ٦٨ قرش في أول نداء وجه إليهم هذا بالإضافة إلى مبلغ ٥ جنيهات تم إرساله من قبل القنصلية الروسية في الإسكندرية .

كان أبرز المساهمين في بناء الكنيسة من كامب ” ج “ كل من ” كوستينيتس “ ، و ” بافلوف “ ، و ” شيتيليونكا “ ، و ” دوبريانكا “ ، و ” جانجا “ الذين قاموا بهذا العمل طواعية ، ودون مقابل . وقد بنيت هذه الكنيسة بفضل أولئك الأفراد المتحمسين على الرغم من الإمكانيات الضعيفة . وقد قام أو . جالوبياتنكوف بعمل أول قداس إحتفالي عشية عيد الميلاد ، بمشاركة الجوقة بقيادة ” كورتين “ .

أتم كل من ” كوستيتسين “ و ” بوبوف “ البناء الداخلي للكنيسة . إذ قاما بكل أعمال النجارة والزخرفة والطلاء وإتمام الشكل العام لحائط الأيقونات . وكان حائط الأيقونات قد سبق تصنيعة من البراويز المغطاه بقطع من القماش الأبيض ، زينوها بالألوان الزيتية . وكانت هناك أربعة أيقونات معلقة على حائط الأيقونات بجوار البوابات المؤدية للمذبح ، وأيقونة العشاء الأخير ، و البشارة ، وأيقونة المسيح المخلص من تنفيذ ” دوبرينا - كونيخوف “^{١٥٣} ، ولكن ما أثار الدهشة تلك الثريا الرئيسية والشمعدان اللذان صنعهما ” جانجي “ ببراعة من صفائح علب البسكويت .

١٥٣ بيتر ياكوفليفيتش (؟-الإسكندرية - ١٩٥٤) كما هو موضح في مجلة «في المهجر» .

بعد ذلك تولى إقامة الصلوات "بطرس جولبياتنيكوف"، ثم المتنيح "ألكسندر ديكاروفيم". وحالياً يقوم بها "هيبوليت شيشلوف".

في البداية، غنت الجوقة بقيادة "أفاناسييف"، ثم "أرييكوف" داخل "التل الكبير" في "سيدي بشر" بقيادة "كوريتين"، والتي تم حلها في الوقت الراهن. ولكن الجوقة التي تكونت بقيادة "أفاناسييف" لاتعني داخل كنائس الكامب.

على الرغم من أن أعداد الرعية التي تتردد على الكنيسة كانت كبيرة، خاصة في أيام الأعياد الكبرى، إلا أنهم كانوا لا يولون أي اهتمام بالشئون الداخلية للكنيسة حتى أن محاولات تشكيل مجلس كنسي لم تؤد إلى أية نتائج وكان الجانب المالي للكنيسة يخضع لكبيرهم، والكاهن.

تم وضع التقرير المالي للكنيسة على غلاف المجلة^{١٥٤}

١٩٢١-١٢-٢٨

سيدي بشر

في العدد الماضي من «الأرشيف الشرقي»، تم نشر مواد عدد شهري يناير من مجلة «في المهجر» عام ١٩٢٢، التي صدرت في معسكر اللاجئين الروس في «سيدي بشر» بالقرب من الإسكندرية في مصر^{١٥٥}. هذه المجلة تعد أحد أهم المصادر النادرة التي تتحدث عن تاريخ المغتربين الروس في مصر، والنسخة الوحيدة الشهيرة لذلك العدد توجد في أرشيف المؤلف، وقد قمنا بنشر المواد الأكثر معلوماتية في المجلة. وقد بقيت أصول القواعد الإملانية والترقيم على حالها.

صخور وشعاب في طريق المرأة الروسية في مصر:

(خطاب تم إرساله من القاهرة)

كانت حياة اللاجئين الروس داخل مخيم الأسرى^{١٥٦} «بسيدي بشر»^{١٥٧} تسير بهدوء تشوبه الرتابة، حيث كانت الأسلاك الشائكة تحكم قبضتها على الخلية البشرية مثل الخاتم الضيق. وكل يوم نفس الاهتمامات، ونفس الشخصيات، ولا يوجد أي شيء

١٥٤ لا يوجد لدى المجلة التي بحوذتنا في الأرشيف أي غلاف.

١٥٥ الأرشيف الشرقي المجلد الثالث عشر، ٢٠٠٥، ص ٨٦-٩٧.

١٥٦ الكامب (بالإنجليزية) - المخيم - هذه الكلمات تشير إلى أقسام «المدينة الروسية».

١٥٧ الكتابات المعاصرة - في كلمتان - سيدي بشر.

جديد ، فظهر الشقاء والشعور بالعجز. وفرد كثير من اللاجئين أجنحتهم ، وحلقوا في السماء البعيدة في مختلف أنحاء مصر بحثاً عن الرزق .

كان طريق السيدة الوحيدة وعراً فقد نصبت لها الشراك على الطريق وسمحوا لى أن أسرد لكم بعضاً من هذه المشاكل في طريق المرأة الروسية الكادحة . كانت الكثيرات مناقبل مغادرة المعسكر لديهن وظيفة معينة ، ونظراً لضيق اليد وقلة الأموال، كنا نضطر أحياناً للإقامة في الفنادق الصغيرة الرخيصة ، وغير الآمنة . كما أن القذارة ورائحة الثوم الكريهة والفراش المليء بجميع أنواع الحشرات، وأسراب البعوض والذباب وعدم وجود الناموسية يجعل النوم كابوساً . أضف إلى ذلك أنه في أحيان كثيرة كان العرب يتسللون ليلاً إلى الغرفة ، أو يسمحون بدخول أحد الغرباء . تكونت في القاهرة وبورسعيد روابط لحماية المرأة (الاسم مكتوب بخط اليد بالفرنسية ولا يمكن قراءته - المؤلف) ، ولكن هل توجد مثل هذه الرابطة في الإسكندرية ؟ للأسف لم أستطع معرفة ذلك . في القاهرة يمكن للسيدة بعشرة قروش فقط في اليوم أن تحظى في هذه الرابطة بسرير جيد ، وملاءات جديدة وافتطار مع الشاي في الصباح ، وغداء عند الظهيرة ، ثم شاي ووجبة عشاء .

الغالبية العظمى من السيدات الروسيات كن يخدمن لدى الإنجليز . وكان يتعين إخبار كل سيدة من القادمات للعمل ، أن تطلب يوم عطلة في الأسبوع . والعمل لساعات محددة . وكان راتب المربيات ٤ جنيه إسترليني . وفي بعض الأحيان أكثر من ذلك . كان البريطانيون يرحبون بهذه الشروط ويلتزمون بها ، وإذا لم تشتترط ذلك سلفاً فلن يمنحوك إياها من تلقاء أنفسهم . وتعد الخدمة لدى الإنجليز أسهل كثيراً من الخدمة لدى الجنسيات الأخرى ؛ فهم أكثر الجميع لباقة وأدباً ويأخذون بعين الاعتبار ثقافة السيدات الروسيات ولا يمكن قول ذلك عن الجنسيات الأخرى ، فالفرنسيون على سبيل المثال يحاولون أن يدفعوا أقل أجر ممكن كما أن الطعام الذي يقدمونه يثير الإشمئزاز ويجبرونهن على العمل كما يعمل العرب على قدم وساق والأمر الأسوأ في تلك العائلات ، هو نظرتهم إلى المرأة الروسية . فقد تواترت بعض الأنباء عن سلوك مواطناتنا التعيسات التي دفعت بهم البطالة إلى شوارع القسطنطينية مما ألقى بظلاله على التعامل مع نساتنا . فكان هؤلاء السادة ومعظمهم جهلاء ينظرون إلينا «على أننا أكثر النساء ظرفاً وأسهلهن منالاً» وفي بعض الحالات لم تستطع نساؤنا الاستمرار في الخدمة والبقاء داخل منازل مثل

هذه الأسر لمدة أكثر من ثلاثة أيام ، على الرغم من حاجتهن الشديدة إلى المال . هذه المواقف انطبقت على جميع الجنسيات باستثناء الإنجليز . وداخل المتاجر والمؤسسات وفي كل مكان ، بمجرد أن يعرفوا جنسيتنا حتى تكتسي وجوههم بضحكات مميزة ويرفعون الكلفة في الكلام ، وفي الحركات . وإذا جاءت امرأة للبحث عن عمل يكون الجواب واحد في كل مرة : « أنت شابة وجميلة لماذا ترغبين في العمل؟ يمكنك أن تمتلكين كل شيء ، إذا أردت ذلك قولي كلمة واحدة فقط ” كنت أعرف إحدى السيدات ، التي أرادت أن تفتح ” أتيليه ” للملابس العصرية ، ولكن كان ينقصها المال فأرسلوها لأحد الأثرياء اليونانيين الذي تحدث معها مطولاً عن روسيا ، وأنها وطنه الثاني ثم أنه يعاني بسبب إنهيارها ويشعر بالأسى تجاه الروس ، الذين يعيشون في هذه الحالة الفظيعة ووعدها بالمساعدة . وفي اليوم التالي قام بتأجير شقة فاخرة مجهزة بالأثاث لأجلها . وقد أصيبت بالذهول من جراء هذا البذخ وقالت إنه ليس بمقدورها دفع الثمن فقال المحسن اليوناني أنه لا ينبغي عليها دفع أي شيء فكل ما يطلبه منها أن تلاحظه كأخ شقيق .

وهكذا أسدل الستار على مشروع هذه المرأة ، أن يكون لها أتيليه خاص بهذا . ومما ساعد على هذا الموقف تجاهنا ، هو عدم وجود حماية لنا . وكان هؤلاء السادة يتصرفون هكذا بوقاحة ، لأنهم يعلمون أننا وحيدات ولن يدافع عنا أحد . ومن الصعب احتمال تلك المعاملة لأنها غير عادلة ؛ فسلوك المرأة الروسية في القاهرة يستحق الاستحسان . أنظروا كيف تكدح سيداتنا الروسيات في القاهرة ، في أتيليه الأزياء العصرية (مكتوب بخط اليد اسم عائلة فرنسية ، غير مقروء - المؤلف) وعلى الرغم من أن الفتيات كن غير معتادات على العمل الشاق ، هاهن يجلسن طوال اليوم منكمفات على الإبرة ، ويزداد العمل ويتسع . ومعلمات الموسيقى والرقص ومدرسات اللغات الأجنبية ، يركضن على مدار الأسبوع في أنحاء القاهرة ولا يجنين سوى مبالغ ضئيلة ، وهاهن أخوات (راهبات) الرحمة يعملن طوال النهار . وكثيرات منهن تصل رواتبهن من عشرين إلى ثلاثين جنيهاً شهرياً وتم هنا إنشاء جمعية دولية لأخوات الرحمة ولا يزال تسجيل الأخوات يجري على قدم وساق حتى الآن (مكتوب بخط اليد باللغة الفرنسية غير مقروء - المؤلف) . وعادة ما يكون هناك طلب على العاملات المثقفات من مختلف التخصصات وهذا الأمر لم يكن صعباً على السيدات الروسيات اللاتي اتخذن قراراً بكسب رزقهن بأنفسهن ويحملن في نفس الوقت راية السيدات المثقفات بكرامة . ومن الملاحظ أنه في الآونة الأخيرة غير الأجانب موقفهم ونظرتهم وأصبحوا يتعاملون معهن باحترام .

ويستمد الكثيرون القوة ، من أنه في حالة الفشل ، دائماً ما يكون هناك ركن يمكن الذهاب إليه لتستريح مؤقتاً ، كي تعاود النضال مجدداً من أجل الوجود . وبلا شك فإنه في حالة إغلاق الكامبات سينعكس ذلك علينا بالسلب وسيعترينا الألم ، لأننا سنجد أنفسنا آنذاك بلا ركن وبلا مأوى . ديسمبر ١٩٢١ ، ن . ب .

بائعو التبغ في الإسكندرية :

كان من الطريف معرفة ما هي الآفاق التي تنتظر أولئك اللاجئين ، الذين يخرجون من الكامب لكسب الرزق في بلد لم يكن يريد لهم على حد قول الليدى "كنجريف" ممثلة لجنة مساعدة اللاجئين الروس في مصر! " ١٥٨ .

كانت العمالة الروسية داخل مدينة الإسكندرية ، تنقسم إلى عدة فئات وفقاً لطبيعة عملهم . فقد عمل اللاجئون كباثني سجانز متجولين ، وسائقين وميكانيكين وعمال ترام (سائق ومشرف ومحصل) ، وعمال المصانع ، وحرفيين مهرة في المؤسسات المختلفة . بالإضافة إلى عدد قليل من الموظفين في المكاتب والدوائر وفي ورش العمل إلخ...

كل هذه الوظائف بصفة عامة ، من الوظائف الدنيا ونادراً من كان منهم يحصل على وظائف راقية ذات أجر عالٍ على سبيل المثال ، أساتذة الجامعات أو حتى مشرفين في مدارس الليسية (المدارس الثانوية) والفنيين والمهندسين وموظفي المؤسسات أو البنوك إلخ...

لا نستطيع في هذا المقال الموجز التطرق إلى حياة اللاجئين بتوسع ، نظراً لقلة المادة المتاحة . ولكن نود هنا فقط أن نصف أحد أكثر أشكال العمل صعوبة وهو عمل "بائعو التبغ المتجولين" .

في شوارع الإسكندرية يشاهد منذ الصباح الباكر ، وحتى حلول المساء العديد من الروس الذين يرتدون القمصان الروسية التي لها أزرار من الجانب ، والسترات العسكرية الإنجليزية ، والسترات مزدوجة الصدر العسكرية وأحياناً يرتدون الملابس العادية ، وهم يحملون على أكتافهم علب السجائر الموضوعة داخل الألواح الخشبية الخاصة بذلك .

١٥٨ وصل اللاجئون الروس إلى الأراضي المصرية في تلك الفترة التي تصاعدت فيها حدة حركة التحرير الوطنية ، والتي لم تكن موجهة ضد الوجود البريطاني فحسب ، ولكن ضد الهيمنة الأجنبية على مصالح البلاد بشكل عام ، وهو الشيء الذي عانى منه الروس والمصريين على حد سواء .

هؤلاء هم "بائعو التبغ الروس"، الذين يتنافسون مع الباعة العرب في صراع من أجل الوجود شبه الجائع، وكثيراً ما ترى على أكتاف هؤلاء الناس المتعبين، والفضوليين مهنياً أشرطة أفواج المتطوعين الشهيرة .

كان الكاب المبرقش لمحارب الجيش الإمبراطوري السابق يومض على خلفية المتاجر. وهاهو يعدو بسرعة البرق من مقهى إلى مقهى، محتفظاً بحماس التاجر حديث العهد، وفي انتظار الزبائن يجلس بجوار البورصة معاق بيد مصابة مكتئباً. وبالقرب منهم حياة أخرى. فها هي السيارات تسير باندفاع وسيدات يسرن وهن يرتدين ملابس أنيقة. ويصعد أصحاب النفوذ في البورصة درجات السلم في وقار .

عادة ما يبدأ بائع التبغ عملة بمبلغ ضئيل جداً؛ ومع ذلك يجمع هذا المبلغ بصعوبة بالغة وحرمان كبير. وفي أفضل الأحوال يحصلون على النقود من مندوب "زيمجور"^{١٥٩} السابق "ماسلوف" الذي يعطى المال مقابل رهن الملكية، أو كفييل مضمون بنسبة ١٢٪ من رأس المال المقدم. وهذه النقود مع النسب المقررة عليها يتم استردادها بمنتهى الدقة، فهذه المؤسسة كانت تلجأ أحيانا إلى إجراءات صارمة، مثل الحجز على الممتلكات وما شابه. كبدائية لا بد أن تملك حوالى خمسة جنيهاً، ولكن لكي تتاجر بشكل جيد، فلا بد أن تملك من ٨ إلى عشرة جنيهاً، فبدون السجائر الغالية، والاختيار الكبير لا يمكن تحقيق النجاح. بدأ بعض اللاجئين الذين لم يستطيعوا الحصول على نقود من مندوب "زيمجور" عملهم بجنيهن. ومن الواضح أن مثل هذا العمل عادة ما يكون في حالة بائسة.

في موسم الصيف الذي يبدأ في مدينة الإسكندرية بداية من شهر مايو وينتهي في شهر نوفمبر^{١٦٠} الذين كان بإمكان بائع التبغ أن يجمع ما بين ١٥-٣٠ قرشاً. وقد يصل في بعض الأحيان إلى ٥٠ قرش يومياً. وكان المبلغ يتوقف على قدرات البائع التجارية وخبرته، وصحته، واتقانه للغة. ولكي يكسب الباعة، الذين لديهم بضاعة قليلة ٣٠ قرشاً يومياً، كان عليهم أن يتجولوا في أنحاء المدينة من الثامنة صباحاً حتى الواحدة ظهراً، ثم يستأنفون العمل من الساعة الرابعة عصراً إلى الثانية عشر ليلاً. ويبدل التجار الكبار مجهوداً أقل فيعملون من العاشرة صباحاً إلى الحادية عشر ومن الرابعة عصراً إلى الحادية

١٥٩ زيمجور- لجنة مدينة "زيمتوف" الروسية لمساعدة اللاجئين الروس .

١٦٠ ولما كان المناخ في مدينة «الإسكندرية» ألطف منه في مدينة «القاهرة» في الصيف، فإننا نلاحظ أن الملك وحاشيته والطبقة الراقية وجميع أفراد السلك الدبلوماسي، كانوا ينقلون كل أنشطتهم إلى مدينة «الإسكندرية» في فترة الحكم الملكي .

عشر ليلاً ، وهو بالنسبة لهم وقت كبير جداً . ولا يعد العمل كبائع تبغ عملاً صعباً من الناحية الجسمانية فقط ولكن من الناحية المعنوية . ففي كثير من الأحيان يحدث سوء تفاهم بينهم وبين منافسيهم من الباعة العرب بالإضافة إلى الإهانات والعراك أحيانا وكان المجتمع الأوروبى ينظر إلى الباعة الروس بنوع من التعاطف فيقومون بالشراء منهم عن طيب خاطر ، ولكن لا يميزهم بشكل خاص عن العمالة الأوروبية الأخرى أما المجتمع العربى باستثناء القلة فكان ينظر للعمالة الروسية على أنهم ضمن الكتلة الأوروبية فكان إما يقاطعهم أحيانا ، وإما يتعامل معهم بلا مبالاة في أفضل الأحوال . وهناك بعض الحالات ولحق فهي فردية : إذ يقوم أحد العرب الوجهاء بشراء علبة سجائر ، ثم يقطع الغلاف ، ويهم بدفع المال لكن في تلك اللحظة يندفع بائع السجائر العربى ويصرخ بلغة غير مفهومة لنا فيترك المشتري العربى علبة السجائر المفتوحة بالفعل في صندوقك ويشترى من ابن بلده . وإعترضوا إن استطعتم ، فلن يعير أحد هذا أى اهتمام وسيظنرون إليكم كما ينظرون إلى شخص غريب الأطوار كما إن علبة السجائر المفتوحة باتت في عداد المفقودين .

من الناحية المعنوية ، يعد هذا العمل الأكثر مشقة وصعوبة . فدائما ما يتم طردهم من المطاعم والكافتريات ومن دور السينما إلخ .

في غير الموسم ، يقل الدخل ليصل من ١٠-١٥ قرشاً يومياً ، ولا يجب أن نغفل المنافسة القوية من قبل الباعة العرب . وكان يكسب المال بشكل جيد فقط ، أولئك الذين تمكنوا من الحصول على زبائن دائمين في بعض المتاجر والمنازل والقنصليات والمكاتب . ومن بين بعض الشخصيات المعروفة بالثراء . ذلك كان هو الشخص الذي يستطيع أن يتاجر بنجاح . ومع ذلك فإن كسب لقمة العيش بهذه الطريقة يعد أمراً صعباً .

قام بالإبلاغ عن ذلك س.ى.س .

الأمسيات الأدبية في سيدي بشر

أقام اتحاد الطلاب الروس في الحادى عشر والتاسع عشر من شهر نوفمبر أمسيتين أدبيتين في مدينة الإسكندرية. كان برنامج الأمسية الأولى يتضمن إلقاء وتحليل قصيدة "أندريّة بيلي" بعنوان "اللقاء الأول" وقراءة مقطعات من رواية "درب الألام" للكونت "ألكسى نيكولايفيتش تولستوى" ومشاركات الكتاب المحليين. وقام "كاللنيكوف" بتحليل القصيدة، وأعطى صورة واضحة جدا عن موهبة الشاعر الروسي المعاصر.

تعد الأمسية الثانية من أنجح الأمسيات، التي تمت برعاية الاتحاد. فقد كرست لإحياء الذكرى المئوية للأديب الروسي "فيودر دوستوفسكى" حيث اجتذبت الأمسية عددا كبيرا من الجمهور المحلى^{١٦}، ومن أبناء المدينة، ثم قدم الشاعر الشاب "ليكى" خطاباً قصيراً، إلا أنه كان قوياً ومؤثراً حيث تطرق لأهمية عملية الثقافة لهذه الظواهر مثل الأديب العبقرى العالمى "فيودر دوستوفسكى". وبعد الخطاب قرأ الشاعر قصيدة رائعة خصصت لذكرى صاحب اليوبيل. قرأ الملخص الشاعر المعروف إلى حد ما "كاللنيكوف" الذي أوضح للجمهور عمق الفكرة، والعبقرية العظيمة لمؤلف "الأخوة كارامازوف" إلخ...

كان قمة نجاح الأمسية ذلك الحوار من رواية "الجريمة والعقاب". فقد تم تقديم مشهد يجمع ما بين "راسكولنيكوف وميرمالادوفا" داخل الحانة. وظهر "تشيستوفسكى" الذي لعب دور "ميرمالادوفا"، اداه بشكل رائع، وقدم صورة ساطعة للبطل الشهير. وإزالة الإنطباع الكئيب الناجم عن هذا المشهد المذهل، عزف الأوركسترا الوترى المحلى ببراعة إثنين من رباعيات "تشايكوفسكى".

ترك كل من "كاللنيكوف" و"ل. كى" و"زاخاروف"، الذين قرأوا قصائدهم الخاصة انطباعاً جيداً لدى الحضور. ولن نتكلم عن الشعارين الأولين؛ فهما معروفان هنا لجمهورنا. ومن غير الممكن ألا نتحدث عن "زاخاروف"، فهذا الشاعر الشاب المبتدئ ألقى بعض القصائد الرقيقة، والمليئة بالشعر الغنائى الصافي، والتي تكشف عن موهبة

١٦١ مصطلح (محلى) يشير إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون في نطاق المعسكر، وقد غادروا المخيم واستقروا في مدينة الإسكندرية «المدينة الحضارية».

الشاعر الفريدة ، وتنم عن مستقبل واعد لهذا الشاعر الشاب . ولا يمكننا أيضاً أن نخفل النجاح الكبير الذي حققته الكلمات ، التي ألقاها كل من ” يليتس “ و ” شيرينين “ ، و ” أوموف “^{١٦٣} . وكان الدخول إلى الألفية مجاناً .

المسرح الروسي في سيدي بشر

في هذه الأيام يكون قد مر عام على بدء تشييد مسرح ”سيدي بشر“ وفقاً للمبادرة التي أطلقها مجموعة من الفنانين ، الذين انتقلوا من ” التل الكبير “^{١٦٣} ، وكذلك العمل المنظم لوضع البرنامج المستقبلي لفننا الدرامى . وقد ألقى الفنان ” م . كوزنيتسوف - سويلوت “ في افتتاح المسرح في ٢٤ مارس ١٩٢١ كلمة رائعة ، وقد قامت هيئة التحرير بوضعها في الأسفل .

مدونات تاريخية للمسرح

وصل إلى أيدينا الإصدار الرفيع من أغاني (الرومانس) العجبية (الاسم كتب بخط اليد وغير مقروء- المؤلف) التي قدمتها فنانتنا الشهيرة ” ليديا بري أوبراجينسكى “ بنجاح باهر في حفلات الإسكندرية والقاهرة . كما يوجد على الغلاف بورتريه رائع لهذه الفنانة . وقد قام ” فلاديمير “^{١٦٤} بعمل ترجمة جيدة إلى اللغة الفرنسية في قالب شعري . هذه الأغاني العجبية صدرت في الإسكندرية (الاسم مكتوب بخط اليد باللغة الفرنسية وغير مقروء- المؤلف) وكانت مكرسة لقضايا الحياة الأدبية ، والمسرحية ، والاجتماعية ، وستصدر عما قريب إصدارات جديدة .

- ١٦٢ «إيفان بافلوف الفصح» - شغل منصب السكرتير السابق للجمعية الروسية في «الإسكندرية» ولديه ديوانان شهيران ، «إيفان الفصح» ، و « الضيف الخفي» - أشعار « تشيخوف» «سوثيرى» كونيتيكت الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٤٩ (أرشيف الشتات الروسي المركز الثقافي لـ «متحف مارينا تسفيتايفا» موسكو) إيفان الفصح (أوموف) قصائد الإسكندرية ١٩٥٨ (أرشيف المؤلف -) المتوفي والمدفون في الإسكندرية ١٩٦١ .
- ١٦٣ مكان يقع ما بين «القاهرة والاسماعيلية» ، حيث يتواجد معسكر اللاجئين الروس في بادىء الأمر (كتابات معاصرة - التل الكبير) أنظر : «فلاديمير بيلياكوف» - المهاجرون الروس في مصر ١٩٢٠ // الأرشيف الشرقى المجلد العاشر ، ٢٠٠٣ ص ٤٣ - ٤٩ .
- ١٦٤ (فلاديمير ديمترى) (المتوفي ١٩٦٨) - وضع كتيب حول حياة المهاجرين الروس في مصر هذا الكتيب صدر منه طبعتين باللغة الفرنسية في الإسكندرية ، ترجمة الكتيب أنظر : «فلاديمير بيلياكوف» ، «على ضفاف نهر النيل المقدس» الروس في مصر إصدار ٢٠٠٣ ، ص ٢٤٤ - ٢٥٩ .

كان وجود أغاني (الرومانس) العجبية الروسية في الإسكندرية حدثاً غير متوقع ولكنه رائع . فقد قامت الثورة بتصدير الموسيقى الروسية ، بعد مسيرتها الضاهرة إلى الغرب خلف البحر في الشرق الرومانسى ، حيث يعرفون روسيا فقط على أنها "بلد الجليد" و "الدببة" ، وبعض المخلوقات الغريبة التي تسمى الرجال الروس القرويين الأجلاف . ونتمنى أن تزيد هذه المبادرة الرائعة وتتوسع وتكتسب أصدقاء جدد للفن الروسي ، في هذا البلد الذي ظلت موسيقاه على المستوى البدائي للعصور الوسطى . وكانت قيمة تذكرة العرض ٨ قروش^{١٦٥} .

كان مسرحنا يكابد إحدى الأزمات المزمنة ، والتي تمثلت في عدم ثبات اللائحة الداخلية التنظيمية للعمل في المسرح وقد تم استبدال مجلس الحكماء المحبين للفن المسرحي بمجلس إدارة فرقة "بايان" ودائماً ما تتعرض هياكل الإدارة فيها للتغيير ولم تكن هناك خطة موحدة محددة ، للعمل وعدم توفير إخراج قوى . وكان الريبيريتوار يتغير بطريقة خرافية إلى اتجاهات غير متوقعة ؛ فبعد أن كان يقدم على خشبة المسرح "الخال فانيا" انحدر المستوى ليصل إلى "الذباية الإسبانية" وتحول من "أوستروفسكى" إلى "سابوروف" ، وأعمال صغيرة وثافية . كما أصبح تقديم العروض شيئاً نادراً جداً حتى أن الحياة داخل المسرح تكاد أن تتوقف وتتلاشى . كان لابد من ضخ دماء جديدة من الخارج والسماح بعودة الفنانين الذين رحلوا بالانضمام للفرقة مجدداً ، وتجديد الريبيريتوار وتغيير أسس المنظومة السابقة ككل . وبالطبع لم تكن هذه العملية بالأمر الهين كما أنها كانت تتطلب وقتاً طويلاً ؛ لأن الأشكال الجديدة للحياة عادة ماتتحقق ببطء . لذلك كانت تقع على عاتق مجلس الإدارة الجديد مهمة صعبة وهامة وكان المجلس الجديد يتكون من "مانجلير" رئيساً لمجلس الإدارة .

"سميرنوف" نائباً للرئيس .

"بيتوخ" أميناً للصندوق .

"أولجين" سكرتيراً .

قبل إعادة بناء المسرح، وفي آخر عروض فرقة "بايان"، قدموا للجمهور المسرحية الكوميديّة "شليمينكو - باتمان" في أربعة فصول، وكانت من تأليف "كفيتكو أصنوفياينكو"، وقام بتقديمها على المسرح "مانجلير". وهذه الكوميديا القديمة كانت مفهومة مع بدائيتها حتى لأصحاب الذوق العادي وكانت ناجحة بالنسبة للممثلين من حيث العرض المسرحي، ومن حيث كوميديا المواقف الطبيعية والمصطنعة أحياناً. ولكن المسرحية لم تكن متوازنة تماماً، فقد شعرنا بأن الأداء لم يكن كاملاً وجيداً. وبصفة عامه فقد احتسب العرض كواحد من إنجازات فرقة محبى الفن المسرحي، والتي ضمت في جنباتها بعض الممثلين الذين ظهروا لأول مرة في حياتهم على خشبة المسرح. وجدير بالذكر أن القصور العام للنشاط المسرحي لفرقة "بايان" تمثل في عدم استقرار العنصر النسائي بطريقة غير طبيعية. فبعد عدة عروض تختفي فناناتنا لفترة طويلة عن خشبات مسرح سيدى بشر. وكان من جراء ذلك أنه لم تكن هناك إمكانية لتحقيق انسجام عام في التمثيل. وقد شارك في المسرحية كل من السيدات: "فيليبوفا وفلورافا ودوجلى وبانينا، والسادة: مانجلير كيلديش مينيف. علاوة على ذلك قدموا عدة مسرحيات خلال شهر نوفمبر. والتي تعد مسرحيات كوميديّة قصيرة وهى: "العصفورة" و"المنتحر" و"الكثير من الضواء من لاشيء".

كان ريبريتوار عيد الميلاد والعام الجديد (حسب التقويم الجديد) كالآتي: في عيد الميلاد الموافق السابع من يناير، سيتم تقديم العرض المسرحي "زيبينا" (الاسم غير واضح - المؤلف) وهى عبارة عن كوميديا من أربعة فصول للمؤلف "ريشكوف". (العرض غير مجاني). وفي يوم الإثنين الموافق الثامن من يناير حفلة غير مجانية، بمشاركة الفنان "فادييف" وأفضل الفنانين المحليين في مدينة الإسكندرية. في الحادى عشر من يناير سيقدم العرض المسرحي الكوميدي "في مكان مزدحم" وهو كوميديا من ثلاثة فصول تأليف "أستروفسكي" الدخول للعرض مجاناً. في الرابع عشر من يناير (في رأس السنة الجديدة) ستقام حفلة تنكرية بتذاكر خاصة. وفي الخامس عشر من نفس الشهر ستقدم المسرحية الكوميديّة "شليمينكو-دينشيك" في أربعة فصول للمؤلف "كفيتكو - أصنوفينينكو". الدخول للعرض مجاناً. وفي الثامن عشر من يناير سيقدم المسرح "الذبابية الإسبانية" وهى كوميديا من ثلاثة فصول للمؤلف "سابوروف" والدخول بأسعار مخفضة. وفي التاسع عشر من يناير الموافق يوم الخميس،

سيعرض العرض المسرحي «مذنبون بدون ذنب» في أربعة فصول لمؤلفه «أوستروفسكي».
الدخول للعرض بتذاكر.

في الثاني عشر من يناير، أقيمت أمسية لصالح جمعية المعاقين الروس، والجنود المشوهين في مصر. وقد تم الإعداد الجيد لهذه الأمسية، ووجهت الدعوة إلى أفضل فنانى المعسكر، وإلى فرق الأوركسترا الثلاث «السيمفونية»، و«النحاسية»، و«الوترية» كما شاركت في الحفل راقصة البالية المشهورة «شوبيرت» وشريكها «إجناتوف»، وقام بالغناء الجوقة المختلطة. وعموماً شارك في الحفل ما يقرب من ١٢٠ شخصاً. ومن الفقرات المختلفة التي تستحق الذكر مسرحية «الأرجوحة» من أوبريت «الأرملة الطروب» لـ «فرانز ليهار»، وإخراج «فيديرنيكوف». وقد تركت مسرحية «الأرجوحة» الفعالة مع الورد والأضواء المبهرة والفتيات الصغيرات الجميلات، إنطباعاً قوياً لدى الحضور. ولكن للأسف شوش الأوركسترا المصاحب على صوت الكورال الضعيف، وأدى «سيسويف» منفرداً. كما مرت القطعة الموسيقية الدرامية المثيرة «الأصوات السحرية» على نحو مقبول، وكانت من أداء «أفالوفوى» و«كيلدليش»، كما صدح الدويتو «سيسويف» و«كيلدليش» بأحلى الألحان. وقد أثار رقص «شوبيرت» و«إجناتوف» بالإضافة إلى الحماسة الهائلة سعادة غامرة لانهائية. ففي كل حركة لهذا الزوج كانت تتبدى علامات العشق والغرام. وبدأ جليا في إشارات وإيماءات وإيقاعات رقصة «فالس كابريس» التقنية العالية وروعة الفكرة والتصميم. وفي نهاية تلك الليلة تم جمع مبلغ ٦ جنيهات مصرية.

الحياة الطلابية

هذا العنوان غريب، بل ويبدو كأنه سخيفاً، فكيف تكون هناك حياة طلابية في مصر، حيث يتركز التعليم العالى في الجامعة الإسلامية والمتمثلة في الأزهر^{١٦٦} ذات الطابع الدينى وفي بعض مدارس الحقوق والزراعة والتعليم الفني المتنوع بالجيزة^{١٦٧} فحياتنا نحن اللاجئين تختلف عن الحياة العادية، والطبيعية للناس الأحرار وكم هى

١٦٦ الكتابات المعاصرة - الأزهر - هى أحد أهم الجامعات الدينية التي تم إنشاؤها في نهاية القرن الثانى عشر مع تأسيس الجامع الأزهر .

١٦٧ الكتابات المعاصرة - الجيزة - كانت في ذلك الوقت إحدى ضواحي القاهرة ، الواقعة على الجانب الغربى لنهر النيل ، وفي الوقت الحالى إندمجت مع «القاهرة» بشكل كامل ، ولكنها منفصلة إدارياً بحيث تعد محافظة مستقلة .

مصطنعة حتى أن كلمة الحياة الطلابية هنا في "سيدي بشر" تبدو مفارقة تاريخية ومثيرة للسخرية .

ولكن دعونا ننسى الواقع لبرهة ونتساءل : هل تحول معسكرنا الأفريقي الصغير إلى جامعة روسية تترد فيها بوقار كلمات العلم الذي نسى في سنوات الحرب الأهلية أو ربما انبعثت داخل ثكنات أفضل التقاليد الأكاديمية التي أقيمت في تلك الروسيا الجديدة الأجنبية غير المفهومة؟ أو تحطمت مطاعنا ومسرحنا التي تحولت إلى قاعات للدراسة من جموع الطلبة الصاخبة المتعطشة لحرارة العلم .

الجواب بالنفي . إن المعسكر لا يزال صحراء جرداء ، ولا يوجد به كما في السابق أية قاعة للدراسة ، ولا تترد بين جنباته أصوات الأساتذة المحبوبين . ومنذ عامين كانت المطاعم تمتلئ فقط في أوقات الغذاء والإفطار ، وترتج جنبات المسرح من جراء التصفيق الحاد بعد إنتهاء العروض المسرحية "الذبابة الإسبانية" أو "الأفاعي" وليس بعد إنتهاء إحدى المحاضرات . وفيما يتعلق بالدراسة ، فإن معسكرنا لا يقدم شيئا تقريبا باستثناء مجموعة صغيرة تستعد جاهدة لاجتياز الشهادة الثانوية . لكن ما هي أسباب الحديث عن الحياة الطلابية آنذاك؟ وما هو الشيء الذي دعى آنذاك إلى المظاهرات الصاخبة والمثيرة لهؤلاء الناس الذين يطلقون على أنفسهم طلاب؟ وما الذي يجبرهم على وقف التلاسن وتبادل الإتهامات خلافاً للأخلاق الطلابية أو للحقيقة ببساطة؟ وما الذي يجعلهم يشعرون بالإنزعاج ويدفعهم إلى الإستياء؟ وعن أي شيء يكتبون الرسائل الطويلة وما هي مضامين أحاديثهم؟ وهذه البلبلة البابية كانت في واقع الأمر بسبب الإعتراف أو عدم الإعتراف بالسلطة السوفيتية ، وإدراج هذا الموضوع أو عدم إدراجه في ميثاقهم . وهذه القضية التي لم يستطع القادة السياسيون العالميين "لويد" "جورج وهاردينج" و"بريان" و"برت" حلها لصالح شعوبهم يريد بعض طلبة "سيدي بشر" حسمها بفقرة واحدة في الميثاق أو حتى بحاشية تلحق بأي فقرة .

إن اتحاد الطلاب الذي أنشئ بهدف الحصول على التعليم العالي في أوروبا ، وتوفير الكتب الجامعية ، وتنظيم محاضرات دراسية جماعية قبيل مغادرة أفريقيا يمارس التلاعب السياسي بالمعنى السئ للكلمة ، ويبذل من خلال مجلس إدارته أو حتى من خلال الشخصيات غير المرتبطة به ، جهودا كبيرة من أجل أن يعطى بشرف تسميته اتحاد

الطلبة الروس في مصر ولحسم قضية من يملك الحق في هذا اللقب السامى : هل من بقوا في الاجتماع أو من غادروه ؟ . وقد شاركت في هذه المناقشات القيادة الإنجليزية ، والمؤسسات الروسية في مصر ، وتقريباً جميع سكان المعسكر . ولن نتطرق هنا إلى من كان محقاً في هذا الجدل الذي لم يشغل معسكرنا في سيدي بشر فقط ، بل شغل الإسكندرية والقاهرة معا . ونذكر فقط تلك الحقيقة كظاهرة غير طبيعية لحياتنا في المهجر . فبدلاً من الوحدة ساد الانقسام ، وبدلاً من العمل الجماعى حل الصراع . وبدلاً من مؤسسة موحدة ظهرت جماعات متناحرة .

هكذا يصنع التاريخ . والتاريخ زد على ذلك سيء للغاية . ومرة أخرى نسقط أنفسنا في عيون الأجانب الذين حصلوا على مبرر إضافي ليتعاملوا مع الروس باحتقار وبشفقة . وفي هذا التفكك كما في مرآة مقعرة إنعكس الاتجاه المنحرف في الحياة الطلابية في " سيدي بشر " . وفي الوقت الراهن انقسم اتحاد الطلبة إلى هيتين : ١- اتحاد الطلاب الروس في مصر . ٢- اتحاد الطلاب الروس في الإسكندرية وحرصت الهيئة الأولى أن يتضمن ميثاقها هذه الفقرة : " هذا الاتحاد غير مسيس ، لكنه في نفس الوقت لا يعترف بالسلطة السوفيتية ، كممثل شرعي للحكومة الروسية " . فيما أكدت الهيئة الثانية على نفس المبدأ ، ولكن بشكل مختلف . وكان ميثاقها يتضمن هذه الفقرة : " لا يمارس الاتحاد أي نشاط سياسي ، ولا يسعى لتحقيق أي أهداف سياسية " . كانت فكرة إنشاء اتحاد للطلاب حتى قبل منح الحكومة التشيكوسلافية أماكن في جامعاتها للطلبة الروس تنتمي لسوسنيتسك وأوجفازدين . وعن طريق المفاوضات الخاصة قاما بتشكيل المجموعة الأولى ، ودعيا إلى اجتماع عام لجميع طلاب المعسكر وأنشئ قسم للطلبة تابع للجمعية الروسية للثقافة والتنوير . وقبل انفصال القسم عن الجمعية لم تطرح فيه أي قضايا سياسية ، حيث أنه كان يخضع لميثاق هذه الجمعية . تواصل القسم مع مختلف المؤسسات التابعة لجمهورية تشيكوسلوفاكيا ، وجميع الهيئات الطلابية في «براغ» بدعم مالي من الجمعية . أصبح لدى الطلاب مسألة محددة وهي مواصلة التعليم العالي . بعد انفصال القسم عن الجمعية في نهاية أكتوبر من ذلك العام بدأت تطفو على السطح ، بالإضافة إلى الأهداف الأكاديمية البحتة قضايا تتعلق بعدم الإعراف بالسلطة السوفيتية ، والسماح بعضوية الاتحاد فقط لأولئك الذين يعترفون بأنهم روس في النواحي السياسية والثقافية والوطنية . وفي هذه الحالة لعبت خطابات

«رودنيف» مفوض الطلاب الروس في مصر إلى المؤتمر الطلابي في «براغ» دورا كبيرا والذي كان يشير دائما إلى الحاجة لهذه السياسة. من جراء ذلك حرم من الإنضمام إلى الاتحاد أشخاص ينتمون للحلقة الأوكرانية المحلية^{١٦٨}، وكذلك الطلبة الذين سافروا إلى روسيا، ولم تسمح لهم السلطات السوفيتية بدخول البلاد. وقد أدى ذلك إلى انقسام أضعف المنظمات الطلابية داخل مصر.

طالب سابق

مدونات تاريخية للمعسكر

في اليوم الثالث لميلاد السيد المسيح التاسع من يناير، وضع مفتش المعسكرات الروسية في مصر العقيد «أنسفورتس» شجرة الكريسماس في مسرحنا؛ خصيصاً لأطفال المعسكر مع الشاي والهدايا، وبعد الانتهاء من الوليمة التي تم إعدادها حان وقت الرقص، وشعر الأطفال بسعادة غامرة. وتوجهت المدرسة والأطفال بخالص الشكر لكل من ساهم في تنظيم هذه الإحتفالية الممتعة.

في الرابع من يناير زارت الليدي «كنجريف» المدرسة الروسية وكان الجميع في استقبالها وأعقب الاستقبال تناول القهوة.

خلال شهر ديسمبر، كان تلاميذ الفرقة النهائية بالمدرسة الثانوية الروسية، يقومون بعمل البروفات، طبقاً لمنهج الفرقة الثامنة بالمدرسة (٦ أفراد)، وطبقاً لمنهج الفرقة السابعة التكميلية بالمدرسة (٨ أفراد).

في الرابع من ديسمبر، تم تكريم ذكرى الأديب الروسي «دوستويفسكي» داخل المدرسة.

طبقاً لاستعلامات اللاجئين الواردة إلى مكتب المفتش حول إمكانية العودة إلى روسيا في أسرع وقت، جاء الرد من المقرر الرئيس للقيادة الإنجليزية في مصر، أن جوازات السفر الخاصة، التي حصل عليها اللاجئون بأنفسهم من لندن، هي الوسيلة السريعة والناجعة

١٦٨ منظمة «جورتك الأوكرانية المحلية» واحدة من المنظمات المجتمعية (العامة)، والتي تم إنشاؤها من قبل المهاجرين الروس. وهي لديها ميثاق خاص بها، ومكتبة، وقاعة للإطلاع قيل أبريل/نيسان ١٩٢١، أصدرت عدة إصدارات من جريدة «فوق الأطلال»، وبحلول ١٩٢١ كانت تضم في جنباتها ٨٠ عضواً عاملاً.

للرجوع إلى الوطن ، بالإضافة إلى مكتب المفتش عن طريق الاستثمارات ، التي لا بد وأن يكونوا على علم بها .

فيما يتعلق بالشائعات والمعلومات ، التي ينشرها دائرة معروفة من الناس عن الترحيل في القريب العاجل إلى صربيا ، نعتقد أنه من الضروري التأكيد للمرة الثانية ومن خلال المعلومات لدى مكتب المفتش ، أنه ليست هناك نية لنقل المعسكر إلى أي مكان في الوقت الراهن .

كان حجم الحصص الغذائية التي يحصل عليها اللاجئون (حسب الوزن طبقا للأوقية الإنجليزية)^{١٦٩} في المتوسط للرجل ٢٨ أوقية من الخبز ، ٦ أوقية من اللحم (أو ٤ من العلب المحفوظة) ٣ أوقيات من الجبن (يوزع فقط خلال فصل الشتاء) ، ١,٥ أوقية من الحليب ، ٣ أوقيات من المربى ، وربع أوقية من الشاي ، ونصف أوقية من الكاكاو ، أو القهوة ، أما عن البطاطس ، الثوم ، والخضروات الأخرى الطازجة) والأعشاب المجففة من ٨,٣ أوقية ، أما الدقيق والأرز فنادرًا يتم توزيعهما ، والملح والفلفل والتوابل ، أيضاً كانت تتوافر بكميات غير محددة .

يوجد في المكتب الإنجليزي صندوق بريد. وهناك يستقبلون الخطابات ، ويسجلونها ويرسلونها . وكان يتم تفريغ الصندوق من الرسائل مرتين في اليوم : في الثامنة صباحا وفي الثانية والنصف ظهراً . فيما يتعلق بالمراسلات المرسلّة إلى سيدي بشر بأسماء هؤلاء اللاجئين ، الذين يعيشون في الإسكندرية والقاهرة ، وأماكن أخرى في مصر كان المكتب الإنجليزي يقوم بإرسالها إلى القنصلية الروسية بالإسكندرية ؛ لتظل بها حتى يأتي من يسأل عنها . كان هذا هو النظام المتبع آنذاك في حق الأشخاص ، الذين تفرقت بهم السبل ، ولا يمكن الاستدلال على عناوينهم ، في حالة إذا لم يكتب على الخطاب ، لم يكتب عنوان الراسل .

قامت اللجنة المصرية لمكافحة الجوع بتنظيم يانصيب في الإسكندرية ، لصالح الجوعى في روسيا في إطار احتفال «السوق الخيري» . وحقق «اليانصيب» نتائج مرضية . ولم تقتصر المشاركة في الاحتفال وفي اليانصيب على الأثرياء من الأوروبيين والعرب بل إن فقراء الشعب المصري الذين تبرعوا بسعادة بأخر ما يملكون من ملايم ؛ لأجل الذين يموتون جوعاً ، والأكثر تعاسة منهم .

١٦٩ الأوقية - تساوى ٣١,١ جرام .

في الرابع من يناير، قام اتحاد الطلبة الروس في الإسكندرية بافتتاح معرض للمنتجات الفنية الروسية، من صنع لاجئين معسكرنا في فندق «سافوى». وفي أيام الحفلات التنكرية والأمسيات الثقافية، يحدث انتعاش في عملية البيع. واستمر المعرض قرابة الثلاثة أسابيع.

في أواخر شهريناير هذا العام، خرجت للنور المجلة الطلابية لسان حال اتحاد الطلبة الروس في الإسكندرية^{١٢٠}.

في الثاني عشر من يناير، عقدت على المسرح أمسية ثقافية مجانية، تحمل اسم «نيكراسوف» والتي نظمها اتحاد الطلبة الروس في الإسكندرية.

في الثامن والعشرين من يناير، في مقر قيادة الكامب «أ»^{١٢١} أقام الكابتن «ريدفسكي» معرضاً للمنتجات اليدوية المنزلية، وأشغال التطريز من صنع اللاجئين أنفسهم. ومن بين المعروضات القيمة، أو المثيرة تميزت أعمال «بيلافينيتس» المعدنية و الجلدية والجلبان الرائع على القماش من صنع «سافويسكاى» وأعمال التطريز المفرغة بواسطة «أنسيموفوى». زار الإنجليز وإداريو معسكر «سيدي بشر» ومفتش اللاجئين «أنسفورتس» المعرض - وسرعان ما انتقل المعرض بالكامل إلى نادى «سبورتنج»^{١٢٢} بالإسكندرية.

في منتصف شهر نوفمبر، خرجت إلى النور مجلة «الأدباء الصغار»، وهى من إصدار قسم الأطفال التابع لمنظمة الثقافة والتنوير الروسية، وكان سعر العدد قرش ونصف. تضم المجلة في طياتها قصص للأطفال، وقصائد وكانت تباع في الاجتماع العام (بجوار المسرح)^{١٢٣}.

١٢٠ للمرة الأولى ومن الممكن أن تكون المرة الوحيدة، التي خرج فيها أول عدد لجريدة اتحاد الطلاب الروس في الإسكندرية أول ١٩٢٢ تحت عنوان «أوريون»، أنظر: «تيدلسكى يفجينى» - ذكريات المعسكر // أفريقيا في عيون المهاجرين. إصدار ٢٠٠٢. ص ١٢٢.

١٢١ الكامب «أ» وأيضاً الكامب «د» - كانا القطاعان المخصصان للأسر داخل المخيم.

١٢٢ «نادى سبورتنج» مكان للراحة والترفيه، كان يذهب إليه الأوروبيون والأثرياء من المصريين، حيث يوفر للزائرين إمكانية ممارسة رياضة المشي. لما يمتلكه من مساحات شاسعة، كما كان يتواجد به مطعم للأكل.

١٢٣ لم يتم العثور على نسخ من هذه المجلة.

في ديسمبر، نظمت جمعية الثقافة والتنوير الروسية مجموعة من الندوات لـ «دوبرينيا كونيوخوفا»^{١٧٤} بعنوان (المفاهيم الأساسية للكيمياء)، (التحليل الطيفي) وأخرى لـ «بارمانين» عن (الأهمية الاقتصادية لزراعة القطن في مصر) ومحاضرة الدكتور «بوجارسكي» بعنوان (هل يعيش الموتى) التي تعد محاضرة افتتاحية عن القضايا المتعلقة بالدراسات الحديثة عن الخلود. وكان الدخول مجاناً.

على الرغم من عدم التأكد من توقع نقل اللاجئين إلى صربيا بشكل رسمي، إلا أنه بناءً على مبادرة من المتعاطفين مع الحركة الملكية، إقترحوا على قاطني المعسكر التعرف على النص المعد بشكل خاص لمخاطبة الملك الإنجليزي، ويذيلوه بتوقعاتهم. وهذا النداء يجب أن يكون إلتماساً جماعياً لملك إنجلترا لنقل اللاجئين إلى صربيا، في موعد لا يتجاوز مارس ١٩٢٢، وفي هذه الصدد عقدت عدة لقاءات داخل المعسكرات وكما كان متوقفاً كان عدد الراغبين في الذهاب إلى صربيا قليلاً.

قامت مجموعة من الشخصيات المبادرة داخل الكامب "أ" بالطواف على ثكنات اللاجئين وإقترحوا -نظراً لنقل اللاجئين المزمع في القريب العاجل إلى صربيا، عمل قائمة جماعية مع توقعاتهم، لكي يقوموا بعمل التماس، بغرض تشكيل سريع للجنة اللاجئين التي فور الوصول إلى صربيا يجب أن تكون منظماتهم الموحدة في الشأن المالي، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل لعدم تعاطف اللاجئين

أصدر مفتش اللاجئين منشوراً عمومياً بمنع توصيل أسلاك كهرباء إضافية داخل المساكن بدون إذنه. وسيحرم المذنبون وكذلك لاجئوا ذلك الكامب على السواء من الكهرباء لمدة شهر. وعوضاً عن الكهرباء سيتم تسليم اللاجئين الشموع.

في الثانی عشر والثالث عشر من نوفمبر في الاجتماع العام نظمت جمعية المعاقين ومصابو الحرب معرض أعمال فنية من صنع اللاجئين. كانت هناك الكثير من المعروضات القيمة حيث ضم المعرض حوالي ٣٠٢ قطعة فنية تجاوزت قيمتها ٢٥٠ جنيهاً وتم بيع أشياء بقيمة ٨٠ جنيهاً و ٨٥ قرش وإستقبل المعرض أكثر من ٢٠٠ زائر من السكان المحليين والإنجليز بالإضافة إلى زوار الإسكندرية.

١٧٤ «دوبرينيا كونيوخوفا (؟- الإسكندرية - ١٩٥٤) مصمم الغلاف والرسومات التوضيحية الخاصة بمجلة «في المهجر».

في السادس من ديسمبر في عيد القديس "جيورجى المنتصر"، وبناءً على مبادرة من الجنرال "زيبلين"، في الكامب "د" تم تنظيم حفلة لتكريم فرسان جيورجى فيسك، وبعد الانتهاء من إقامة الشعائر مباشرة، تم تقديم المقبلات للفرسان والضيوف. كما عزف الأوركسترا النحاسي المارش التقليدي القديم لفوج برى أوبراجينسكى "فصول صيف كثيرة..."

في التاسع عشر من ديسمبر في عيد القديس "نيكولاس صانع المعجزات" داخل كنيسة الكامب "د" وبعد القداس بناءً على مبادرة مجموعة من الأشخاص أقيم قداس لتأبين الإمبراطور "المقتول نيكولاي الأول".

في الرابع عشر من ديسمبر عقد مؤتمر سكان قرية القوزاق^{١٧٥} بالإسكندرية. وقد تم بحث قضايا تتعلق باختيار ممثلين في المؤتمر المزمع عقده لكل القوزاق في "صوفيا"، بمبادرة من حكومة الدون في الخارج.

بلغ عدد المتطوعين لفرقة الحراسة الروسية المزمع تشكيلها في القنطرة^{١٧٦} ٢٠٠ شخص ومن المحتمل أن العدد المطلوب هو ١٥٠ فقط، منهم ستون وظيفة ستمنح لطلبة فيلق الاسماعيلية وغير معروف حتى الآن بشكل رسمي موعد تشكيل هذا الفريق.

خلال شهر ديسمبر أقيمت مجموعة من المباريات بين منتخبنا، وفرق من المناطق المجاورة لـ "سيدي بشر"، ففي اليوم الأول والثاني من الشهر، لعبنا مع فرق من منطقتي "مصطفى باشا" و "أبوقير"، وجاءت النتائج كالتالي: ٣: صفر، و ٦: صفر، لصالح الإنجليز. وفي السابع والثامن عشر والتاسع عشر من ديسمبر كانت مبارياتنا ضد الفريق الهندي وجاءت النتائج كالتالي: ٣: صفر لصالح منتخبنا ثم ١: ١ و ١: ١.

١٧٥ بلدة الإسكندرية في مصر- الأخوة القوزاق برئاسة رئيس منتخب .
١٧٦ في نهاية الحرب العالمية الأولى داخل معسكر القنطرة (الكتابات المعاصرة) المقام على شاطئ قناة السويس بين الاسماعيلية (الكتابات المعاصرة) وبورسعيد ، تحفظوا على أسرى الحرب من الأتراك ، ثم ما بين عامي ١٩١٩-١٩٢٠ استخدم هذا المكان لاستقبال الجنود الروس المحررين من الأسر التركي . وكانوا في انتظار عودتهم إلى أرض الوطن ، ولكن من غير الواضح ، هل مع بداية عام ١٩٢٢ إحتاجوا في منطقة القنطرة إلى تأسيس فرقة حراسة روسية أم لا ؟ وهل تم إنشاؤها بالفعل ؟ على ما يبدو هذا الكلام يشير إلى «فيلق الاسماعيلية» ، وهو المكان الذي ضم تلاميذ المدرسة العسكرية بالدون. وهو المخيم الذي تواجد في هذه المنطقة بالقرب من المدينة .

في الرابع عشر والثاني والعشرين من ديسمبر كانت مبارياتنا مع الإنجليز من منطقة مصطفى باشا، وجاءت النتائج كالتالي : ٣ : ٤ و ٣ : ١ لصالح الإنجليز . في الثلاثين من ديسمبر وفي الأول من يناير، كانت مبارياتنا مع فريقين من الفياليق الإنجليزية، وجاءت النتيجة في الشوط الأول : ٢ : صفر لصالح الإنجليز ثم ٣ : ٢ لصالح منتخبنا . في الثامن من يناير لعب المنتخب مع فريق الكلية اليونانية في الإسكندرية، وكانت نتيجة المباراة ١ : صفر لصالح المنتخب .

في الرابع والعشرين من يناير بمبادرة من مفتش اللاجئين، أقيمت مجموعة من المباريات بين فرق المعسكر المختلفة (الكامب "أ"، "ب"، "د") تنافسوا على المركز الأول، والذي كان من نصيب الكامب "ب" ^{١٣} . وفي السادس والعشرين من ديسمبر أقيمت مباراة بين فريق كامب "ب" وفريق من الإدارة الإنجليزية للمعسكر (الكامب رقم ٤) وتم رصد جائزة قدرها "١٥٠" قرشاً وجاءت النتيجة لصالح الروس ٢٢ / ٢١ .

خلال الأيام التي كانت تقام فيها مباريات كرة القدم، لوحظ تدفق أعداد كبيرة من الجمهور مع عزف بديع للموسيقى.

ابتداءً من يناير ١٩٢٢، وبأمر من الجيش البريطاني تم خفض الحصص التموينية الخاصة بالجنود، وكان أكثر المتضررين من هذا الإجراء في المعسكر هم سكان الكامب المخصص للأسرى. (يذكر أن أعلى مستوى للحصص التموينية تم تسجيله في عام ١٩٢١).

في الأونة الأخيرة شهد المعسكر هجمات متكررة بغرض السرقة، كما تكررت عملية السرقة في جميع الكامبات، والمبنى الخاص بالإنجليز، وكانت أصابع الاتهام تشير إلى العرب المحليين .

في يوم السبت الموافق الحادي والعشرين من يناير، ومن داخل مبنى الجمعية (بجوار المسرح) عقد الاجتماع السنوي لأعضاء منظمة الثقافة والتنوير الروسية العاملين . وكان البرنامج كالتالي : عرض التقارير الدورية والسنوية التي تخص أنشطة المنظمة، وتقرير لجنة الحسابات، وانتخاب الإدارة الجديدة، تغير فقرات ميثاق الجمعية مناقشة ما يستجد على الساحة من أحداث . كان الدخول ببطاقات العضوية . سيتم إغلاق قاعة الإطلاع

والمكتبة بدءاً من ٢١ يناير، وسينعقد الاجتماع في السادسة والنصف مساءً، وفي حالة عدم وصول النصاب القانوني من الأعضاء سيؤجل الإجتماع إلى السابعة والنصف من نفس اليوم، وسيتم عقد الاجتماع في حضور أي عدد من السادة الحضور أعضاء هيئة التحرير.

المهاجرون الروس في مصر عام ١٩٢٠ م



نسخة من جواز سفر "نانسين" هي أول بطاقة هوية معترف بها دولياً أصدرتها عصبة الأمم للاجئين كوثيقة سفر عام ١٩٢٤

بعد قيام الثورة الروسية ، واندلاع الحرب الأهلية زادت حركة الهجرة من "روسيا" إلى "مصر". وتمدنا المعلومات التي بين أيدينا إلى أن الوفود الروسية الكبيرة بدأت في القدوم إلى مصر، من يناير إلى أبريل ١٩١٩ وكان هذا بسبب عودة جيش "دينيكين"^{١٧٨} إلى الجنوب .

عُثر في المقابر البريطانية العسكرية الموجودة في " التل الكبير في منتصف الطريق بين القاهرة والاسماعيلية بالقرب من معسكر الجيش ، على ثمانية قبور لجنود روس لقوا حتفهم في ربيع

١٩١٩^{١٧٩} . ولم يكن هؤلاء من المهاجرين بل أسرى حرب سابقين ، قامت القوات البريطانية بترحيلهم من تركيا عقب إنتهاء الحرب العالمية الأولى ، كما جاء بوضوح في إحدى وثائق

١٧٨ عن مقالة : Русские беженцы в Египте в 1920 году ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Belyakov Vladimir . (يو.ف. لوكونين) جواز سفر «نانسن» على شاطئ النيل// الشتات الروسي في أفريقيا. موسكو، ٢٠٠١. ص ٢٦ .

١٧٩ « فلاديمير بيلياكوف» الجبانة الروسية في مصر . موسكو ، ٢٠٠١ ، ص ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ ، ٣٤ . قيران بدون أسماء . أرشيف المؤلف . صندوق «الروس في مصر» . وثيقة ١ ، السطر ١٠٤ .

الوكالة الدبلوماسية الروسية والقنصلية العامة في مصر^{١٨٠}. أما بالنسبة للاجئين، فلم يرد عنهم شيء في وثائق القنصلية العامة عن عام ١٩١٩، ويبدو أنه قدم إلى مصر في ذلك الوقت عدد قليل من اللاجئين من جنوب روسيا؛ فقد بدأ الخروج الجماعي في فبراير من عام ١٩٢٠ م.

بطبيعة الحال، لم يكن بوسع الدبلوماسيين الروس سوى المشاركة في تحديد مصير مواطنيهم، وبدورهم ناشد المهاجرون الدبلوماسيين لمساعدتهم بشكل مباشر، وقاموا بإعلامهم خطياً عن أحوالهم فور وصولهم وبشكل تفصيلي. وقد أتخمت الخطابات والمناشآت التي خطها اللاجئون بأنفسهم أرشيف القنصلية^{١٨١}.

وصل المهاجرون إلى الأراضي المصرية على متن ٥ بوارج، كانت ثلاثة منهم بريطانية وهم كالتالي: «إمباير»، و«جلوتشيستر كاستيل»، و«جيلمجرور»، وإثنتان روسيتان هما: «ساراتوف»، و«البارون بيك». وعن عملية إجلائهم من روسيا إلى مصر، توجد وثائق مختصرة إحداهما عامة وكذلك وثائق عن كل سفينه على حدة أعدت خصيصاً للقنصلية العامة نقلاً عن اللاجئين أنفسهم على الأرجح في بداية صيف ١٩٢٠ وإحدى هذه الوثائق مؤرخة بالثاني والعشرين من يونية، بينما الوثائق الأخرى بدون تاريخ^{١٨٢}. غادرت السفينة «إمباير» ميناء «نوفوروسيسك» في الثالث من فبراير ١٩٢٠، وعلى متنها ٦٣٤ شخصاً من ضباط ومرضى وجرحى وضباط صف وجنود يخدمون بالفعل في القوات المسلحة في جنوب روسيا، ولم يكن على متنها أي مدنيين. هذا بالإضافة إلى طاقم السفينة وقوامه ٢٧ فرد والذي يتكون من أطباء وممرضين وممرضات وقس و مترجم، ورسد السفينة في ميناء الإسكندرية في الخامس عشر من شهر فبراير. بينما غادرت السفينة «جلوتشيستر كاستيل» ميناء «سيفاستوبول» في الخامس من فبراير، وعلى متنها ٤٨٠ شخصاً ما بين جريح ومريض من جنود الجيش المتطوعين، كانوا قد

١٨٠ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية (أس خ إر) صندوق رقم ٧١٣. القنصلية في مصر. قوائم جرد ٢٨٣/٠٢٨٧١-٦٩٧١-٢٣٩١. وثيقة ٧، السطر ٧١. الوكالة الروسية القيصرية الدبلوماسية السابقة والقنصلية العامة في مصر والتي كانت تعمل بشكل رسمي حتى أكتوبر/تشرين الأول من عام ٣٢٩١.

١٨١ بعد إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر عام ١٩٤٣، قام «رازومفسكي» (١٨٧٥-١٩٤٧) حارس الأرشيف الدبلوماسي الروسي بتمريره إلى البعثة السوفيتية، ومن هناك تم إرسالها إلى موسكو ليحفظ داخل أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية.

١٨٢ أرشيف السياسة الخارجية ملف رقم ٣١٧، حافظة ٨٢٠/٣، وثيقة ٢١٠، سطر ٦-١٦ مجموع السطور.

نقلوا من مستشفيات «سيفاستوبول ويفباتوريا» ، هذا بالإضافة إلى ٢٧ من زوجات هؤلاء العسكريين وطفلين . تذكر الوثيقة أنه خلال الرحلة البحرية توفي ٦ أشخاص نتيجة لإصابتهم بعدوى التيفود ، إذ لم يكن على متنها أفراد للخدمة الطبية ، ورس في ميناء «الإسكندرية» في نفس يوم وصول السفينة «إمباير» في الخامس عشر من فبراير . أوصلت السفينة «جيلمجورن كاستيل» اللاجئيين الروس إلى الإسكندرية مرتين كانت الأولى في الثامن عشر من شهر مارس ، والثانية في الثالث عشر من شهر أبريل ولكنها لم تبحر رأساً من «روسيا» ولكنها أبحرت من ميناء «سالونيك» اليوناني ، وكان مجموع المهاجرين في الرحلتين ١٢٩٠ شخصاً ما بين مريض وجريح من العسكريين ، و٥٠ من العاملين والذين غادروا «نوفوروسيسك» على متن الباخرة «بنما» في العشرين من شهر يناير و «بارون» في الخامس والعشرين من شهر يناير من ميناء «نوفوروسيسك» .

على متن السفينة «ساراتوف» قام الإنجليز بإجلاء أسر الضباط والعاملين في مختلف قطاعات جيش المتطوعين ، وكذلك فيلق تلاميذ «المدرسة العسكرية بالدون» والبعض من فيلق «القوقاز الأدنى» وكانت تقدر أعدادهم جميعاً حوالي ١٤٠١ شخصاً . وكان من بين المدنيين على متن السفينة الرسام «إيفان بيليبين» ، وابنتى الكاتب «يفجينى تشريكوف» «لودميلا وفالنتينا» . في السابع من مارس غادرت السفينة «ساراتوف» التي كان يوجد بها أماكن فقط لـ ٨٠٠ شخصاً ، مما اضطرت الطلاب الذين بلغ عددهم ٣٠٠ شخص إلى النوم على سطح السفينة في فصل الشتاء القارس . وبعد احتجاز السفينة في الحجر الصحي في مضيق البوسفور ، واصلت رحلتها لتصل ميناء فاما جوستا القبرصى في الثامن عشر من مارس . وقد أعلنت السلطات البريطانية في البداية أن المهاجرين الروس ، سوف يتم تسكينهم داخل المعسكر المحلي ، حيث كان الأسرى الأتراك محتجزين بداخله من قبل . ولكن بعد خمسة أيام أرسلوا «ساراتوف» إلى «الإسكندرية» ، ورس في مينائها في الخامس والعشرين من مارس ، وعلى الرغم من نقشي مرض الكوليرا والتيفود على متن السفينة ، إلا أنه لم تسجل أية حالة وفاة على متنها طوال الطريق إلى «الإسكندرية» . السفينة «البارون بيك» آخر من نقلت الجرحى الروس أبحرت من «نوفوروسيسك» في السادس والعشرين من مارس ، حين كان الجيش الأحمر على مشارف المدينة . وكان على متنها ٤٢٣ شخصاً ما بين جريح ومريض بالإضافة إلى ٤١ من أفراد الطاقم الطبي . في بادئ الأمر أبحرت السفينة إلى ميناء «فاما جوستا» تماماً مثل «ساراتوف» ولكن لدى وصولها إلى الميناء ، تم رفض طلبها لاستقبال المهاجرين الروس ، مما اضطرها إلى تغيير مسارها

وواصلت السفينة طريقها إلى ميناء «الإسكندرية» ، حيث رست هناك في الثاني عشر من أبريل . ويذكر أنه قد توفي على متنها أثناء الطريق ١٧ شخصاً بسبب انتشار التيفود . يتضح لنا من خلال الوثائق ، أن أعداد المهاجرين الروس الذين وصلوا إلى مصر في بداية عام ١٩٢٠ كانت تقدر بـ ٤٣٥٠ شخصاً . وقد قمنا بالاستعلام عن عددهم حيث أنه وردت معلومات عديدة بهذا الصدد في المصادر المختلفة . كتب بيللين أحد أبناء الأطباء المشهورين المهاجرين إلى «القاهرة» « ف.أ.بيللين» في مقالة الموجز «حياة الروس في مصر» أنه في عام ١٩٢٠ وصل ما يقرب من ٦٠٠٠ مهاجراً روسياً على متن البوارج التي أبحرت من مينائى «نوفوروسيسك» و «أوديسا» إلى مصر . لكن الأرقام الدقيقة يؤكدنا «د. فلامبوريني» الذي يقول أن الأعداد بلغت ٤٠٠٠ شخصاً ، ويكتب «أ.و.ف. لوكونين» الذي استقى معلوماته من منشورات المهاجرين أنفسهم : «نرح ما يقرب من ستة^{١٨٣} آلاف شخصاً خلال عام ١٩٢٠ عبر مينائى «نوفوروسيسك» و «أوديسا» متوجهين إلى مصر ، وهناك تقديرات أخرى تدعو للدهشة ، تشير إلى أن البريطانيين قد قاموا بترحيل ما يقرب من ٤٠٠٠^{١٨٤} روسيا إلى ميناء «الإسكندرية» في عام ١٩١٩ وما يقرب من ٦٠٠٠^{١٨٥} آخرين من ميناء القسطنطينية في عام ١٩٢٠ .

وتحدد الوثائق الأماكن التي أبحرت منها السفن وهي: «نوفوروسيسك» و«سيفاستوبول» ، وبشكل جزئى من ميناء «يفباتوريا» وليس ميناء «أوديسا» كما تم التأكيد عليه في المنشورات المذكورة أعلاه .

في نهاية الأمر ، تعطينا هذه الوثائق نبذة مختصرة عن الهجرة الطارئة من روسيا إلى مصر ، والتي جاءت على متن السفن الروسية والبريطانية ، وكانت أغلبها من المرضى أو الجرحى والمجندين في الجيش المتطوعين وفي الحقيقة يمكن أن نطلق عليهم مجازاً لقب «لاجئين» حيث اضطروا إلى مغادرة البلاد رغماً عنهم . قررت قيادة جيش المتطوعين وحلفاؤهم البريطانيين ترحيل العسكريين ممن لا يستطيعون حمل السلاح بسبب إصابتهم أو أمراضهم التي تمنعهم من مواصلة الحرب ضد «الجيش الأحمر» الذي يتقدم

- ١٨٣ «ديميتري فلامبوريانى» الروس على الأراضي المصرية . الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٣٦ ، السطر ٥ .
- ١٨٤ «بيللين» . حياة الروس في مصر . في كتاب «كوفالسكى» . روسيا في الخارج . باريس ، ١٩٧١ ، ٣١٩ .
- ١٨٥ «ي.و.ف. لوكونين» . المرجع وما إلى ذلك . ص ٢٧ .

نحوهم بإضطراد . وفي حالة الإستيلاء على مدينتى «نوفوروسيسك» و «القرم» ، فإن حياة هؤلاء الأشخاص ستكون عرضة للخطر . وكما يتضح من الوثائق، فإنه لم يتحدد المكان النهائي الذي سيستقبل هؤلاء اللاجئين على الفور ؛ ولكن على كل حال يجب أن يسكنوا في مكان قريب من جنوب روسيا تابعاً للتاج البريطانى . في بادئ الأمر ، تعاملت السلطات البريطانية مع مدينة «سالونيك اليونانية» على أنها نقطة التجمع الرئيسية للاجئين . على الأقل لم يكن في مقدورهم الإقامة لفترة طويلة، بدون موافقة حكومة اليونان المستقلة . وعلى ما يبدو فإنه لم يكن بقبرص الواقعة تحت سيطرة التاج البريطانى آنذاك ، بنية تحتية تستوعب مثل هذا العدد من اللاجئين فيما كان الوضع مختلفاً بالنسبة إلى مصر التي كانت منذ ١٩١٤ تقع تحت الحماية البريطانية، حيث دارت على أرض مصر إبان الحرب العالمية الأولى معارك شرسة ضد القوات التركية، ويوجد بها العديد من المعسكرات التي كانت مخصصة للأسرى الذين تم تسريحهم إلى بلادهم عقب انتهاء الحرب مباشرة . وعلى ما يبدو فإن البريطانيين لم يأخذوا في اعتبارهم، أن الطقس والجو الثقافى والدينى المحيط في قبرص كان أكثر ملاءمة للروس عنه في مصر .

بالفعل تم إرسال جميع اللاجئين الروس لدى وصولهم «الإسكندرية» بالقطار إلى القاهرة، وتحديدًا إلى معسكر خاص يقع «بالعباسية» على أطراف القاهرة . ولم يتخلف للسفر إلى «القاهرة» سوى المصابين بأمراض معدية، حيث تم إحتجازهم داخل المستشفى العسكرى «بسيدي جابر» على مشارف مدينة «الإسكندرية» في الوقت الذي تم نقل اللاجئين القادمين على متن البارجة «ساراتوف» في نهاية مارس، وعلى متن «جيلمجون كاستيل» في رحلتها الثانية في إبريل إلى معسكر «التل الكبير» ، إذ كان معسكر «العباسية» قد امتلأ عن بكرة أبيه، حيث لم يكن يتسع لاستقبال هذا العدد من اللاجئين .

في المعسكر - المستشفى في العباسية كان يقيم في البداية المرضى والجرحى من الأسرى «الألمان والبلغار والأترک» . وقبل وقت قليل من وصول أول مجموعة من اللاجئين الروس إلى الإسكندرية، أرسلت السلطات البريطانية الأسرى إلى أوطانهم، وكانت تنوى إزالة المعسكر، ولكن عند اقتراب البارجة «إمباير» من الشواطئ المصرية، قاموا بإعداد المعسكر فوراً لاستقبال الوافدين الجدد^{١٨٦} .

١٨٦ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية . الملف رقم ٣١٧ ، ٨٢٠/٣ ، وثيقة ٢١٠ . السطر ٧ .

أقام المهاجرون الروس داخل المعسكر بالعباسية، في ثكنات كانت تضم من ٥٠ إلى ٦٠ شخصاً. أما الخيام كانت تضم من ١٠ إلى ٢٠ فرداً. ولا ننسى أن نذكر أنهم قبل تسكينهم داخل الثكنات، كانوا قد وضعوا في الحجر الصحي. وقد رفع عنهم الحجر الصحي في أول مارس، ولكن تم السماح لهم بزيارة المدينة بدءاً من الثاني والعشرين من مارس. في بادئ الأمر، كان الأستراليون يقومون بحراسة المعسكر، ثم استبدلهم بطاقم حراسة هندي. وكانت تصاريح الخروج إلى المدينة، والتي تسمى "تصاريح مرور"، تُعطى مرفقة بالأسماء، وتصدر مباشرة من القائد البريطاني لـ ١٦ شخصاً في اليوم، وسارية فقط من الساعة الثانية ظهراً إلى السابعة مساءً^{١٨٧}.

لم تكن حياة اللاجئين داخل المعسكر تسير وفقاً لإرادتهم، ولا وفقاً لما تعودوا عليه، ولكن كان هناك استثناء، فقد أقاموا كنيسة داخل إحدى الخيام. وقد أمدتهم البطيريركية اليونانية في بادئ الأمر بالمواد الكنسية اللازمة، كما أرسلت الإرسالية الروسية في القدس بعض الأدوات في إبريل. وكان الكاهن "بوليكارب فيلاتوف"^{١٨٨} يخدم في هذه الكنيسة.

في ربيع ١٩٢٠ بناءً على مبادرة قام بها الدبلوماسيون الروس، وممثلو الجالية الروسية في مصر، تم إنشاء لجنة لمساعدة اللاجئين، والتي ترأسها الإنجليزية الليدي "كونجريف" وقد قدم المساعدة من قدر عليها. وقد عرض طبيب الأسنان إسرائيل "سولومونوفيتش جولدنبيرج" الذي يملك عيادة في "القاهرة" في شارع "قصر النيل"، منزل رقم ٤٠ معالجة اللاجئين بدون مقابل. وقد تبرع رجل الأعمال "إرنست إجورفيتش ماليسون" لصندوق اللجنة بمبلغ "٥٠٠" جنيهًا مصرياً، كما تلقى الصندوق مبلغاً آخر من ممثل شركة التأمين "روسيا" "ج. خيورميوز" يقدر بـ "٢٥٠" جنيهًا مصرياً. وهذه المبالغ كانت تعد مبالغ كبيرة في ذلك الوقت، كما تذكرنا المصادر مساهمة السكان المحليين، وأغلبهم من المسيحيين المصريين بنصيب من التبرعات عن طيب خاطر^{١٨٩}. كما أعطى بطيريرك الإسكندرية "فوتي" اللجنة مبلغ ٥٥,٦٦ جنيهًا مصرياً تم جمعها من رعايا الكنيسة التابعة له؛ لمساعدة اللاجئين، فيما تذكر المصادر أن زوجة "نجيب باشا بطرس غالى" وهى أرمنية الأصل، وتمثل واحدة من أعرق العائلات المسيحية في مصر، قد تبرعت بمبلغ رمزي لصالح الصندوق يقدر بـ ١٠ جنيهات مصرية. وقد أنفقت هذه المبالغ

١٨٧ نفس المرجع .

١٨٨ نفس المرجع . وثيقة ١٩٣ ، السطر ٨ ، ٥١ مجموع ٥٨ سطر .

١٨٩ نفس المرجع السطر ١٣ ، ٩-٢١ ، ٣٣ ، ٨١ .

في شراء ما يحتاجه اللاجئون من مواد إضافية، حيث كانت الحصص الغذائية المقررة للأسرى شحيحة، ولا تسد رمقهم.

بخصوص المرضى والجرحى الذين كانوا يتلقون العلاج داخل المستشفى الميداني بمعسكر "العباسية"، فقد تم إرسالهم بعد تعافهم إلى معسكر أكثر رحابة، يقع في "التل الكبير". ومع حلول شهر مايو ١٩٢٠ قاموا بإزالة معسكر "العباسية" عن بكرة أبيه، وقد تم إرسال حوالي ٥٠٠ مريض ممن بقوا هناك إلى مستشفى معسكر "التل الكبير" بينما كان هناك ٧٠ آخرين كانوا بحاجة ماسة إلى الرعاية الفائقة، فتم توزيعهم على مختلف المستشفيات الأجنبية داخل "القاهرة"^{١٩٠}.

أقام المهاجرون الروس داخل معسكر "التل الكبير"، الواقع على حافة الصحراء حتى بداية ١٩٢١. وفي الثامن عشر من مارس توجهت مجموعة من اللاجئين، أغلبهم من المدنيين الذين تم نقلهم مباشرة من على متن السفينة "ساراتوف" إلى هذا المعسكر بخطاب إلى السفير الروسي "أ.أ. سميرنوف" لشرح الظروف المناخية داخل معسكر "التل الكبير" جاء فيه "إن الأيام الحارة التي نشهدها الآن بالإضافة إلى فترة الخماسين، أثرت بالسلب على الحالة الصحية للاجئين مع الأخذ في الاعتبار أن أغلب المقيمين داخل المعسكر من المدنيين الذين قدموا من شمال روسيا، حيث الطقس البارد"، أدت إلى إصابة البعض بضربات الشمس، والالتهابات وأمراض القلب. وبحلول الصيف المقبل مع الارتفاع المضطرب في درجات الحرارة ستصبح الظروف المناخية داخل معسكر "التل الكبير" كارثية، وستشكل خطراً على صحة وحياة اللاجئين، لاسيما كبار السن وضعاف البنية، ولا يخفي على سيادتكم أن المهاجرين، قد عانوا كثيراً خارج الوطن ودخله، وشاهدنا صمودهم الذي لا يتزعزع خلال رحلة ترحيلهم جنباً إلى جنب من أجل الأمة ومن أجل الحرية والثقافة وبناءً عليه نتوجه إلى سيادتكم بكل الود والعرفان لتوفير المساعدة لـ ٥٠٠ شخص من المقيمين لنقلهم إلى مكان آخر في فترة وجيزة، يكون أنسب من حيث الطقس، وتكون بيئته مشابهة لما تعودنا عليه في بلادنا وتناسب حياة أناس مثقفين. وقد كتب "سميرنوف" بخط يده على الخطاب "لقد نجحت في نقل ما يقرب من ٣٠٠ فرد إلى سيدي بشر"^{١٩١}.

١٩٠ نفس المرجع، وثيقة ١٩٤، السطر ٢٨، مجموع ٢٨ سطر.

١٩١ نفس المرجع. وثيقة ١٩٣. السطر ١٣٥-١٣٦.

” سيدى بشر“ كانت آنذاك من ضواحي الإسكندرية، والآن هي أحد أحياء المدينة الواقعة على شاطئ البحر المتوسط، والتي يعد مناخها أكثر. إعتدالاً من ” القاهرة“ ناهيك عن منطقة ” التل الكبير“. فلا عجب أن الملك وحاشيته وحكومته كانوا ينتقلون إلى ” الإسكندرية“ طوال فصل الصيف خمسة شهور، وكان يعيش في الإسكندرية ” العاصمة الشمالية“ آنذاك كثير من الأوربيين من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين واليونانيين والذين كانوا بالطبع أقرب إلى الإنسان الروسي من المصريين.

كان عدد السكان حوالى ٤٠٠٠٠ نسمة. وباستثناء الحى العربي كانت المدينة أوروبية خالصة، وفي منتهى النظافة، والأناقة، وذات كورنيش جميل، كما أنها تتميز بميادينها الواسعة، وتزدان حدائقها العامة الرائعة بالتماثيل، وفنادق فخمة، والعديد من دور السينما، ومختلف أنواع المقاهي. هكذا وصف المدينة أحد الصحفيين الروس^{١٩٢} الذين زاروا مدينة ” الإسكندرية“ عام ١٩١٢، ولذلك يعد نقل بعض اللاجئين الروس من ” التل الكبير“ إلى ” سيدى بشر“ هدية حقيقية.

نعود إلى ” المعسكر الروسي“ في التل الكبير. وقد وصفت ” فالانتينا شيريكوفا “ المعسكر وصفاً دقيقاً: ” حولنا سهل رملى قاحل بلا نهاية، وفوق الرؤوس تسطع شمس أفريقيا الحارقة. ويحيط بمدينة الخيام أسلاك شائكة وطاقم حراسة هندي على مدار الساعة مع غياب تام للمناظر الطبيعية الخلاب، وفي المساء يتنامى إلى سمعك عواء ابن أوى، وتستطرد ” فالانتينا: “ هنا تم احتجاز عدة مئات من الأشخاص أغلبهم من الضباط والعسكريين الروس المحطمة معنوياتهم تماماً، بينما النصف الآخر مقسم بين جريح ومصاب بالتيفود “^{١٩٣}.

عن الأوضاع الصحية داخل المعسكر ونظافته، تقدم الشهادة التفصيلية للطبيب ” فيسولود شيفاندين “^{١٩٤} في العاشر من يولية ١٩٢٠ معلومات وافية. ” ينقسم المعسكر إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول كان مخصصاً للنساء والعائلات من اللاجئين، بينما القسم الثانى يضم الرجال غير المتزوجين، والقسم الثالث عبارة عن مستشفى. وكان يتم إيواء الجميع داخل الخيام. وفي معسكر العائلات الذي تبلغ مساحته ٣٣٠٠٠ متراً مربعاً كانت

١٩٢ «الوقت الجديد» عدد ١٢٩٤٨، ٢٩ مارس/آذار ١٩١٢.

١٩٣ «إ.يا. بيليبين» مقالات. خطابات. ذكريات عن الفنان. ليننجراد، ١٩٧٠، ص ١٨٥.

١٩٤ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ٣١٧، حافظة ٨٢٠/٣. وثيقة ١٩٤ السطر ١٢-٢٤. نفس المرجع السطر ٢٥-٢٧.

توجد ٢٩٢ خيمة يعيش بها ٣٦٤ شخصاً. وكانت نسبتهم كالآتى: (١٠٥ رجلاً، ٢٠٥ سيدة، ٥٤ طفلاً)، وكان يتم إيواء من ١ إلى ٣ أشخاص داخل الخيمة الواحدة.

وفي معسكر الجنود والضباط الذين يقضون فترة نقاهتهم البالغ مساحتها ٢٥٥٠٠ متراً مربعاً أقيمت ٣٤٥ خيمة، يعيش بها ١١٥٤ شخصاً (٦٧٢ ضابطاً، ٤٨٧ جندياً) وكان كل ٣ ضباط يقيمون داخل خيمة واحدة. أما فيما يتعلق بالجنود فكان كل ٥ أفراد، وفي أحيان أخرى كل ٧ أشخاص داخل الخيمة الواحدة.

كانت الخيام في كلا المعسكرين مصنوعة من الكتان، وتأخذ الشكل المخروطى وحوائطها بلا نوافذ. وفي السقف كان هناك ٣ فتحات للتهوية، وأرضيتها ترابية، وكانت مساحة كل خيمة تبلغ ٧,٦٥ متراً مربعاً.

كان المعسكران متشابهين من حيث الأثاث المعيشى. إذ كان الأثاث مصنوعاً من الحديد وكانت الأسرة حديدية وتعلوها ناموسية، وكومودينات خشبية غير مدهونة ذات رجلين اثنتين بواقع كومودينو لكل فرد. ولم يكن بداخل الخيمة أي من المقاعد أو الطاولات، وكان كل سرير مزود بمرتبة ووسادة صغيرة الحجم وبطانية، ويعلوكل سرير ناموسية للحماية من البعوض والذباب، بينما لم يكن هناك أي من مفروشات على المرتبة. تسلمت كل خيمة حوضاً مجلفناً لغسيل الملابس، ومصباحاً للإضاءة بواسطة الشموع "فانوس"، كما كان هناك جوال لتخزين الخبز. أما عن الأواني فكانت مطلية بمادة المينا وبواقع قرح وطبق للشخص الواحد. كما وفر البريطانيون ملعقة وشوكة وسكينة للاستخدام الشخصي لكل فرد من أفراد المعسكر، كما وفروا في وقت لاحق أطباق عميقة للحساء.

على الجانب الآخر، كان الوضع مخالفاً للوضع في المعسكر الثاني حيث كانت الخيام الخاصة بالضباط مزودة بالأثاث، بينما لم يكن لدى الجنود أي من الأسرة أو المراتب أو الكومودينات. وكانوا يفتشون الأرض وينامون على مفارش من المشمع دون أي وسادات. في كلا من المعسكرين، تم بناء حجرات طعام فسيحة ذات أرضية ترابية، وكانت جدرانها وأسقفها مصنوعة من القش وامتألت بصفوف من المناضد والمقاعد. في بداية الأمر كان البريطانيون يقدمون نصف الحصاة الغذائية للنساء ونصيب الأطفال حتى سن ١٢ سنة الربع فقط. وكانت هذه الكمية غير كافية لسد جوعهم مما جعل الرجال يتنازلون عن جزء من حصتهم لصالح أطفالهم وزوجاتهم. ويتم توزيع المنتجات داخل

المعسكر بالتساوي بين اللاجئيين دون النظر إلى الجنس أو السن حيث أن عدد الرجال داخل معسكر العائلات كان قليلاً ، فقد كان عددهم ١٠٥ رجلاً مقابل ٢٥٩ من النساء والأطفال ، لذلك كان الطعام غير كاف .

كان سكان المخيم يعيشون على الكفاف باستثناء فئة قليلة كانت قادرة على شراء ما يلزمها من المنتجات . وفي العشرين من يونيو زاد نصيب النساء إلى ثلاثة أرباع والأطفال زاد نصيبهم إلى النصف ، وقد ساعد هذا على تحسين الوضع الغذائي للاجئين .

كانت الوجبات الغذائية تحتوي على ٣٠٠٨ سعر حرارى ، ولكنها تفتقر إلى البروتين والكربوهيدرات . علاوة على ذلك ، كانت بعض المنتجات غير صالحة للاستهلاك الأدمي وقد أشار الطبيب الروسي : وفقاً لهذه المعلومات ، نخلص إلى أن الوجبات التي كان يتسلمها اللاجئون داخل معسكر " التل الكبير " كانت سيئة .

كانت الوجبات تتكون من (خبز- شاي- سكر- دهن- لبن - مربي) ، وكانت تسلم إلى اللاجئين أنفسهم . أما باقي المواد الغذائية فكانت في وعاء مشترك . تذكر لنا الوثائق : " أن الطعام كان يعد بلا مبالاة وكان بدون نكهة " ، فالحساء الذي يعد الطبق الساخن الوحيد للاجئين طوال اليوم ، يتم إعداده دائماً من لحم الضأن الدهنية ، الأمر الذي يجعل كمية اللحم ضئيلة ، ودائماً ما يغطي الحساء طبقة سميكة من الدهون المتجمدة على السطح مما يجعل من الوجبة الساخنة الوحيدة شيئاً مثيراً للاشمئزاز . وجدير بالذكر أن الروس هم ، الذين كانوا يقومون بإعداد الوجبة بمساعدة الأسرى الأتراك الذين تم توظيفهم لهذا الغرض .

كان الحساء يقدم في الرابعة مساءً ، بينما قبل ذلك في السابعة ، والحادية عشر صباحاً كان من الممكن الحصول على الماء الساخن بمعدل مرتين في اليوم ، فيتمكن المهاجرون من تحضير الشاي الذي يتناولون معه ، الخبز ، ودهن الخنزير والمربي ، وقد كانوا يوزعون الماء الساخن أيضاً وقت الغداء .

فيما يخص اللاجئون البالغون ضعيفو البنية والذين يعالجون داخل المعسكر فقد كانوا يحصلون بأمر من طبيب المعسكر الروسي على تعيين إضافي ، فوق حصتهم الغذائية دون تمييز في الجنس أو السن ، وكان يتكون من بيضة و٥٠ جرام من الحليب المعب وملعقة كبيرة من الكاكاو .

أما عن المياه وكيفية حصولهم عليها داخل المعسكر ، فتحكى لنا الوثائق أن المعسكر كان مزوداً ببئر إرتوازية تمد اللاجئيين بحاجتهم من المياه ولكن الحصول على المياه لم يكن متاحاً على مدار اليوم ، بل كان متاحاً في ساعات محددة من الساعة ٥ إلى الساعة ٨ صباحاً ، ثم من الساعة ١١ إلى الساعة ١٢ والنصف . وهذه الفترة تعد غير كافية لتلبية حاجة كل المقيمين داخل المعسكر وفي أوقات الظهيرة ، خاصة في الأيام شديدة الحرارة لم يكن في مقدور سكان المعسكر الاستحمام وكان كل معسكر يضم ١٠ أماكن للاستحمام . كان الماء الساخن ينعدم تماماً ويضطر الناس إلى استعمال الماء البارد في غسيل الملابس ، وبالأدق الماء الدافئ ، حيث أن المواسير في السطح وسرعان ما كانت تسخن من حرارة الشمس .

كان معسكر المستشفى في ” التل الكبير ” يختلف عن المعسكرين الآخرين . فقد تم وضع المرضى في خيام كبيرة ذات سقف هرمي ، وتبلغ مساحة كل واحدة منها ٣ في ٤ أمتار لذلك كانت كل ثلاث خيام مترابطة فيما بينها ، لتشكل خيمة واحدة كبيرة ، وكان عدد تلك الخيام في المعسكر ٣٩ خيمة . وكان يوجد في كل خيمة ثلاثية ٥٠ سريراً ، وبهذا كانت المستشفى تتسع لـ ٢٠٠٠ شخص تقريباً . وفي العاشر من يوليو وقت كتابة هذه الوثيقة كان المستشفى يضم ٦٦٢ مريضاً ، وبذلك يكون عدد المرضى داخل الخيمة الواحدة ٣٠ شخصاً .

أما عن حالة الأثاث والأواني المستعملة داخل المستشفى فلم تختلف عن مثيلاتها في المعسكرين الآخرين ، ولكنهم كانوا يعطون المرضى خلافاً للاجئيين الأصحاء ملايات السراير التي كانت تستبدل مرة كل أسبوعين .

كان بالمستشفى عدة أقسام مثل : قسم الباطنة والجراحة وطب العيون وأمراض النساء والتوليد والأمراض المعدية والأمراض التناسلية . بالإضافة إلى عيادة للأسنان وكان قسمي الأمراض المعدية والتناسلية منعزلين وبعيدين عن بعضهما البعض وبحسب ما ذكره الطبيب الروسي ، فإن المستشفى قد تم تجهيزه بشكل مقبول ، فقط كان يوجد بها معمل لإجراء الفحوصات العادية ، وصيدلية مزودة بالأدوية اللازمة .

أما عن التغذية داخل المستشفى فقد كان المرضى أوفر حظاً من الآخرين ، وكانت الوجبات مغذية وصحية . وكانت وجبة الغذاء تتكون من طبقين رئيسيين دافئتين

وكما جرت العادة، كان الطبق الأول عبارة عن حساء اللحم أو "البورش" (حساء خضروات روسي)، أما الطبق الثاني فيتألف من الدجاج أو شرائح اللحم. وبناءً على توصية الطبيب كان يقدم لبعض المرضى وجبات إضافية تتكون من السمك الطازج والبيض وشرائح الليمون وعصير الليمون، حتى أنهم في بعض الأحيان كانوا يقدمون النبيذ.

كان معظم العاملين داخل المستشفى من الروس، باستثناء ٤ أطباء إنجليز شغل أحدهم منصب المدير. كما كان المستشفى يضم ١٢ طبيباً و٢ من الصيادلة و٢٨ من الممرضات و٣ من الممرضين وكاهناً وقائداً ومترجماً وكتائباً رئيسياً للمرضى، بالإضافة إلى ١٥٣ من الممرضين. وبهذا يصبح مجموع العاملين داخل المستشفى ٢١٢ شخصاً. ولخدمة ٦٦٢ مريضاً كانوا يعالجون داخل المستشفى في ذلك الوقت، كان هذا العدد كافياً جداً. وقد عمل الأطباء الروس تحت إمرة البريطانيين. كما أنهم لم يكونوا يعملون مجاناً، بل كانوا يحصلون على رواتب. على الرغم من أن الأطباء والمرضى كانوا في نفس الخندق مع اللاجئين وعانوا من نفس الظروف التي عانى منها اللاجئون، إلا أن الوثائق تذكر لنا أن معاملة الموظفين للمرضى كانت تتميز بالفطور والتكليف، مع وجود بعض الاستثناءات. على ما يبدو ونضيف من عندنا أن بعض الأطباء كانوا يكونون الضغينة لمرضاهم وذلك يرجع إلى اضطرابهم إلى ترك عائلاتهم خلفهم في روسيا بعد تعيينهم للخدمة هنا داخل المعسكر. وبحسب مؤلف هذه الوثيقة "إن عمل إخوة وأخوات الرحمة كان دائماً ما يحظى بالقبول والرضا، الأمر الذي لا يمكن قوله عن عمل الممرضين والممرضات الذي كان في أغلب الحالات، يتصف بالإهمال، والتهور". وكان يعتقد بصفة عامة أن موقع المستشفى في الصحراء والجو الحار والعواصف الترابية، بالإضافة إلى الرعاية السيئة تجعل المرضى ذوي الحالات الخطرة أو الأقل خطورة في وضع صعب للغاية. ووفقاً لهذه الوثيقة التي صدرت في يوليو عام ١٩٢٠ فإن معسكر اللاجئين الروس في "التل الكبير" كان يقطنه نحو ٢٤٠٠ شخصاً، ومع اللاجئين الآخرين الذين يقدر عددهم بألفي لاجئ كان الوضع على النحو التالي: توفي ٥٤ شخصاً على أقل تقدير منهم: ٣١ شخصاً من معسكر "العباسية"، و٢٣ آخرين من معسكر "التل الكبير" ١٩٥. كما أشير إلى عدد من المرضى المصابين بالأمراض المعدية (وعددهم غير معروف) تم إيداعهم في مستشفى "سيدي جابر" فور وصولهم إلى ميناء "الإسكندرية"، وهناك ٧٠ مريضاً

وجريحا من معسكر "العباسية" تم توزيعهم على مستشفيات "القاهرة" المختلفة فيما تم نقل ما يقرب من ٣٠٠ شخصا من "التل الكبير" إلى "سيدي بشر" (من المحتمل كان ذلك وقت صدور الوثيقة وربما كانوا أكثر من ذلك)، ٣٢٦ في معسكر منفصل بالقرب من "الاسماعيلية"، والخاص بتلاميذ المدرسة العسكرية بالدون وكانوا عبارة عن ٢٨٦ طالباً، و٢٨ موظفاً و١٢ فرداً مع عائلاتهم^{١٩٦}. أما باقي العدد فعلى ما يبدو أنهم قد غادروا مخيم اللاجئين، كما فعل "إيفان بيليبين" والأختين "تشيريكوفا" وتفرقوا في أنحاء البلاد وربما غادروها.

يذكر أن القوات البريطانية، لم تجبر اللاجئين الروس على الإقامة داخل مخيمات الإيواء، وسمحوا لهم بمغادرة المعسكر، وأن يعيشوا بصورة مستقلة طالما لديهم المال والقدرة التي تعينهم على تحمل نفقاتهم الخاصة. وفي البداية كان البنك الوطنى الذي يسيطر عليه الإنجليز شأن كل شيء في مصريقوم بتغيير الروبلات وخاصة روبلات الدون وجيش المتطوعين إلى الجنيه المصري بسعر عال جدا. إذ كان الجنيه المصري يقابله ١٠٠٠ روبل. وهكذا يكون قد تم تغيير ٢,٢٥ مليون روبل. ومع وصول وافدين جدد أرض البلاد، وتدهور حالة جيش المتطوعين على جبهات الحرب الأهلية، بدأ سعر الروبل في الانخفاض في مصر بسرعة، ووصل مقدار ٠,٠٥ من الجنية المصري مقابل ألف روبل^{١٩٧}.

على الرغم من أن أعداد المدنيين كما تمت الإشارة من قبل، كانت قليلة بين اللاجئين، فقد كانوا لا ينتمون إلى الطبقة الفقيرة. وكان الكثير من الضباط العاملين أو الذين ارتدوا الزى العسكري فقط أثناء الحرب ينحدرون من أسر ثرية. بعض من هؤلاء الناس حملوا معهم أموالا. ومجوهرات وهذا أتاح لهم فرصة العيش بعض الوقت معتمدين على هذه الأموال لحين البحث عن دخل ثابت.

وقد قدم بعض اللاجئين إلى مصر من قبيل المصادفة ولعل أشهر هؤلاء عضو مجلس الدولة البارز البارون "فاسيليفيتش فون بتروفيتش إيجرت" وزوجته "ناد يجدا يوليفنا"، حيث كانا عائدين من رحلة عمل في "القوقاز"، وكانا في طريقهما إلى موطنهما "ليتوانيا" وركبا على متن "ساراتوف" من ميناء "نوفوروسيسك" على أمل نقلهم إلى القسطنطينية^{١٩٦} "ومن هناك سوف يستقلان القطار إلى بلدهما. لكنهما لم يتمكن

١٩٦ نفس المرجع . السطر ٦-٨.

١٩٧ نفس المرجع . السطر ٤٠.

من العثور على غرفة فارغة لشحن أمتعتهما ؛ مما اضطرهما لاستكمال الإبحار حتى "الإسكندرية"^{١٩٨} وقد تمكن البارون وزوجته من الخروج من المعسكر سريعاً ومعهما متعلقاتهما الشخصية وأموالهما ، ولكنهما قررا البقاء في مصر^{١٩٩} وعدم العودة إلى بلدهما وعاشا داخل الأراضي المصرية بقية حياتهما .

في يونية عام ١٩٢٠ تم افتتاح "عيادة روسية" كان يعمل بها ٩ من الأطباء الذين رفضوا الانتقال إلى " التل الكبير " بعد غلق معسكر "العباسية" . وقد قدم الدعم في إنشاء تلك العيادة ، لجنة مساعدة للاجئين الروس . وقد قام الأمير المصري " ميشيل لطف الله باقراض الأطباء الروس مبلغ ٥٤ جنيهاً مصرياً قيمة إيجار العيادة ، وكذلك أقرضهم السفير "أ.أسميرنوف" ٣٥٠ جنيهاً مصرياً نظير التجهيزات . بدأت العيادة في مباشرة العمل فعلياً في يونية ، واستقبلت ٣٦ مريضاً ، وتم علاج ١٨ حالة مجاناً (وكانت الخدمة المجانية تتوفر فقط للاجئين الروس) . وفي يولية استقبلت العيادة ٣٧٧ مريضاً ، من بينهم تم علاج ١٢٤ حالة مجانية وقد تم علاج ٤٠٦ لاجئاً^{٢٠٠} مجاناً في العام الأول من افتتاح العيادة . تبين لنا هذه الأرقام أنه في نهاية ١٩٢٠ ، وبداية ١٩٢١ ، كان قد عاش في " القاهرة " وحدها مئات اللاجئين الروس الذين غادروا المخيم ، كما عاش عدد لا بأس به في " الإسكندرية " وعدد قليل في " بورسعيد " .

واصل معظم المهاجرين الروس إقامتهم داخل المعسكرات . فلم يكن بوسع الجميع أن يتكفلوا بمصاريف الحياة خارج المعسكر . فهذه الإمكانية لم تتوفر قط للجنود وكثير من الضباط السابقين ، وحتى لأفراد الطبقة الأرستقراطية . في نهاية ١٩٢٠ ومن داخل معسكر " التل الكبير " توجهت البارونة " أنستاسيا فاسيليفنا إنجليجاردت " برسالة إلى السفير الروسي "أ.أسميرنوف" ^{٢٠١} جاء فيها : " أتوسل إليكم مساعدتي في توفير بعض الملابس لطفل حديث الولادة ، فأنا لا أملك المال لشراء ذلك " وكانت الرسالة مكتوبة على قصاصة من الورق بالقلم الرصاص .

- | | |
|-----|--|
| ١٩٨ | نفس المرجع ، وثيقة ١٩٣ ، السطر ٢٠ - ٩١ . |
| ١٩٩ | فلاديمير بيليakov . الجبنة الروسية في مصر . صفحة ٣٦ . |
| ٢٠٠ | أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الإمبراطورية . صندوق رقم ٧١٣ . حافظه ٨٢٠/٣ . وثيقة ٢٢ . السطر ١ ، وثيقة ٢٢٣ ، السطر ١٥ ، ٢٢ - ٢٤ . |
| ٢٠١ | نفس المرجع . وثيقة ١٩٣ . السطر ٢٠٩ . |

كما يتضح لنا من الوثائق المذكورة أعلاه ، أن وضع اللاجئين الروس في التل الكبير يمكن إحتمالته باستثناء الظروف المناخية . على الأقل حاولت السلطات البريطانية نوعاً ما توفير حياة كريمة للاجئين . وقد كتبت ” ماريا بتروفنا “ أرملة اللواء البحري ” أك.دريجينكو “ للسفير الروسي أ.أ. سميرنوف في الرابع عشر من أكتوبر : ” إنني أجد معاملتهم للمهاجرين الروس لا تشوبها شائبة ، حتى لو وجد ما يكدر الصفو العام أحيانا داخل المخيم . ففي هذه الحالة يقع اللوم على اللاجئين أنفسهم”^{٢٠٢}

لم يكن لدى اللاجئين في ” التل الكبير “ كما كان في العباسية أي فرصة لتحسين وضعهم المالي ، فما كان منهم في البداية سوى محاولة التركيز على الجانب الروحي بكل همة ونشاط . ومن المحتمل أن عدة عوامل قد لعبت دوراً في هذا . وتجدر الإشارة أن صدمة الترحيل من روسيا إلى مصر ، التي شلت إرادة الناس في البداية ، قد بدأت تزول تدريجياً . بالإضافة إلى ذلك أصبح جلياً أنهم سيقضون وقتاً طويلاً على الأراضي المصرية . وبحلول الصيف كان عدد كبير من المرضى والجرحى قد تعافى ، وهؤلاء الناس كانوا يستطيعون أن ينتهجوا أسلوب حياة أكثر نشاطاً .

كان أول شيء فعلوه ، أن قاموا بإنشاء كنيسة في كل جزء من أجزاء معسكر ” التل الكبير “ الثلاثة . ، وشغل القس ” ألكسندر فولسكوفسكى “ منصب الأسقف داخل الجزء المخصص للعائلات ، القس ” بطرس جلوبياتنكوف “ شغل منصب القس في الجزء المخصص للضباط . أما عن الجزء الخاص بالمستشفى ، فقد شغل منصب الأسقف هناك الكاهن ” نيكولاي ايكانيكوف “ . أما عن الأثاث الكنسى فقد تم جلب جزء آمن معسكر العباسية الذي تم إغلاقه وجزءاً آخر عبارة عن ٦ أوان من الفضة ، وملابس كهنوتية أرسلتة الإرسالية الروسية في القدس^{٢٠٣} . ولكن هذا لم يكن كافياً نظراً لوجود ثلاث كنائس مما اضطر اللاجئين إلى صنع الأواني بأنفسهم من المواد المتوفرة بين أيديهم .

على الرغم من الأوضاع غير المألوفة داخل المعسكر ، إلا أن الحياة أخذت مسارها الطبيعي . فقد ولد أناس وتزوج آخرون . كما ألقى الموت بظلاله على البعض حتى أن الأب ” جولوبياتنكوف “ قد قام بإعداد الأوراق الرسمية الخاصة بالتعميد والزواج والدفن^{٢٠٤} .

٢٠٢ نفس المرجع السطر ٢١٨ .

٢٠٣ نفس المرجع . السطر ٣٨ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٧٤ ، وثيقة ١٩٤ ، السطر ٣٠ .

٢٠٤ نفس المرجع ، وثيقة ١٩٣ ، السطر ١١٦ ، ١١٦ مجموع السطور .

في الثالث من مايو ١٩٢٠ في المخيم العائلي من المعسكر، تم افتتاح مدرسة ثانوية يديرها البروفيسور "أن فاتييف"، والذي تخرج في جامعة "خاركوف". وقام بالتدريس فيها ٢٨ مدرساً لـ ٧٦ تلميذاً. وقام الإنجليز والدبلوماسيون الروس بتوفير الأدوات المكتبية. وقد تعذر توفير الكتب المدرسية للتلاميذ، مما جعل التلاميذ لا يأخذون واجبات منزلية^{٢٠٥}.

دخل المستشفى، تم إنشاء حلقة تعليمية وثقافية روسية، وسرعان ما امتد نشاطها ليصل إلى القسمين الآخرين داخل المعسكر. وقد أبدى اللاجئون استعداداً للعيش المستقل والاعتماد على النفس فقامت إدارة الحلقة بتنظيم دورات تدريبية في الهندسة الكهربائية، والجيوديسيا "علم المساحة التطبيقية" والرسم والمحاسبة، كما نظموا دورات في محو الأمية ووضعوا حجر الأساس لمكتبة متواضعة، كانت تضم الكتب التي جلبها اللاجئون من بلادهم^{٢٠٦}.

من المدهش أن المعسكر سرعان ما كشف عن مواهبه الفنية وقد كتبت لودميلا يفجينينا تشريكوفا " ذات الـ ٩٥ ربيعاً من مدينة سانت بطرسبورج والمقيمة في ولاية فلوريدا الأمريكية، رسالة للكاتب في ٢٠ يناير ١٩٩٢: "لأننسى أن تذكر الفرقة الكاملة من عازفي "البلايكا"، لقد قاموا بصنع آلات البلايكا من خشب الكراسى البسيطة والتي عزفوا عليها بنجاح في الحفلات^{٢٠٧}.

دخل المعسكر تأسست جمعية لذوي الاحتياجات الخاصة في صيف ١٩٢٠ ويفضل جهودها تم افتتاح ورشتين من ورش العمل واحدة كانت للأحذية والتي عمل بها ١١ شخصاً والأخرى كانت للخياطة، وعمل بها ثلاثة من الأسطوات وكانت المواد الخام الخاصة بورشة الأحذية ترسل إليهم من القاهرة، عن طريق الدبلوماسي الروسي "س.ب.رازومفسكى" ومن الجدير بالذكر، أن ورش العمل لم تكف بتلبية احتياجات قاطني المعسكر، ولكنها تخطت حدود المعسكر لتقدم خدماتها للسكان المحليين^{٢٠٨}.

- | | |
|-----|--|
| ٢٠٥ | نفس المرجع، وثيقة ١٩٤، السطر ٣١ - ٣٢. |
| ٢٠٦ | نفس المرجع. وثيقة ١٩٣، السطر ٢٢٦ - ٢٥٨. |
| ٢٠٧ | أرشيف المؤلف. صندوق «الروس في مصر». وثيقة ٢. السطر ٢٧٥. |
| ٢٠٨ | أرشيف السياسة الداخلية للإمبراطورية الروسية. صندوق ٣١٧، حافظة ٨٢٠/٣، وثيقة ١٩٣، السطر ١١٤، ١٥٥، ١٥٦. |

في الخامس عشر من أكتوبر من ذات العام ١٩٢٠ ، أبلغت السلطات البريطانية السفير الروسي آنذاك "أ.أسميرنوف" أنها تنوى ترحيل المهاجرين إلى "صربيا" ، وسيكون ذلك في غضون الشهور القليلة القادمة . كما نوهت السلطات البريطانية إلى أن من يرغب منهم البقاء في داخل الأراضي المصرية يمكنه ذلك ولكنه سيفقد حقة في الدعم المادى ، ووفقا لتقديرات البريطانيين فقد كان يعيش في مصر بالفعل بعيدا عن معسكر اللاجئين ، حياة مستقلة ما يقرب من ٢٧٣ مهاجرا روسيا ، كان من بينهم ١٢٨ محاربا ، و ٣٨ من الرجال المدنيين ، و ١٠٥ سيدة وطفلان^{٢٠٩} ، إلا أنه ولأسباب غير معروفة تأخر تنفيذ هذه الخطة حوالى عامين ، وبدلاً من الترحيل إلى "صربيا" تم نقلهم من معسكر "التل الكبير" إلى معسكر اللاجئين في "سيدي بشر" بحلول ١٩٢١ . انتقل "المعسكر الروسي" من الصحراء إلى شاطئ البحر غير أن الكثيرين من اللاجئين الروس كانوا يعيشون حياة اللاجئين التي لا يحسدون عليها معتمدين ، إعتماداً كاملاً على النوايا الطيبة للإنجليز الذين إستضافوهم على الأراضي المصرية.

الموجات التاريخية للهجرة الروسية إلى مصر

تشكل الشتات الروسي في مصر في أواخر القرن التاسع عشر. وإذا كان في عام ١٨٨١ بحسب بيانات القنصلية العامة الروسية قد عاش في مصر ١٠٨ مواطن روسي^{٢١٠}، فإنه طبقاً لأول تعداد سكاني عام في مصر، وصل تعدادهم في عام ١٨٩٧ إلى ثلاثة آلاف روسي^{٢١١}. كانت الجالية الروسية آنذاك تتكون بشكل أساسي من اليهود^{٢١٢}. وكانت هذه الجالية أحد روافد التيار العام لهجرة اليهود من روسيا، الذي بدأ بعد اغتيال الإمبراطور "ألكسندر الثاني" عام ١٨٨١^{٢١٣}.

كانت مصر قبلة لليهود الروس على الأقل لثلاثة أسباب أولاً: إبحار السفن من أوديسا إلى الإسكندرية بشكل منتظم، بالإضافة إلى انخفاض أسعار التذاكر مما أدى إلى سهولة الوصول إلى مصر. ثانياً: شمل المواطنين الروس منذ عام ١٧٧٤، خاصة بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية في حربها ضد روسيا، ما يسمى "نظام الامتيازات"، الذي بموجبه لن يقعوا تحت طائلة قانون السلطات المحلية، مما أعطى وضعهم طابعاً مميزاً زدهم ناهيك أن إنجلترا، التي احتلت مصر عام ١٨٨٢، كانت الضامن لذلك الأمر.

- ٢١٠ عن مقالة: «Исторические волны российской эмиграции в Египте»، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov. مصر في عيون الروس منتصف القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين: السياسية، والاقتصاد، والثقافة. مجموعة من الوثائق. التصنيفات والمقدمات والتعليقات، والملاحظات، وترجمات «جينادى جورياتشكين». موسكو، ١٩٩٢، السطر ١٢٥-١٢٦.
- ٢١١ «جينادى جورياتشكين»، «ت. ج. جريتشينكو»، «و. إ. فومين»، الهجرة الروسية في مصر وتونس (١٩٢٠-١٩٣٩)، موسكو، ٢٠٠٠. ص ٦.
- ٢١٢ «فلاديمير بيلياكوف» «على ضفاف النيل المقدس» الروس في مصر. موسكو ٢٠٠٣. ص ١٠٠-١٠٢.
- ٢١٣ «سولجنيتسين» ماننا عاماً معاً. الجزء الأول. موسكو، ٢٠٠١. ص ٢٥٥، ٣٠٩.

ثالثاً : وجود جالية يهودية كبيرة وناجحة في مصر ، والتي من خلالها لن يكون من العسير الاندماج داخل المجتمع المحلي . ووفقاً للتعداد السكاني لعام ١٨٩٧ بلغت أعدادهم ٢٥٢٠٠ شخص^{٢١٤} .

على الرغم من أن الشتات الروسي كان أغلبية من اليهود ، إلا أنهم لم يجلبوا معهم إلى مصر الثقافة اليهودية فقط ، بل جلبوا أيضاً الثقافة الروسية واللغة الروسية . ويشير الباحثون إلى "الهواء الروسي اليهودي الخاص" الذي تنفسه اليهود الذين عاشوا في الجنوب الروسي ، وشعورهم الجارف بالهوية الوطنية ، والولاء الشديد للثقافة الروسية^{٢١٥} .

في عام ١٩٠٧ عندما تم إجراء ثاني تعداد سكاني في مصر لوحظ انخفاض طفيف في أعداد الشتات الروسي الذي بلغ ٢٤٠٠^{٢١٦} على ما يبدو أن بعض المهاجرين قد غادروا البلاد ، فيما استوطن آخرون وحصلوا على الجنسية المصرية .

بعد اندحار الثورة الروسية الأولى ١٩٠٥-١٩٠٧ اتجهت إلى مصر موجة هجرة جديدة قادمة من روسيا . وهنا ظهرت مجموعة من اللاجئين السياسيين ، ورغم قلت عددها إلا أنها كانت نشطة . وقد استقر اللاجئون السياسيون على وجه الخصوص في الإسكندرية ، وقاموا بالدعاية بين أفراد أطقم السفن الروسية ، التي تأتي بانتظام إلى الميناء الرئيس لمصر . وقد أدى القبض على ثلاثة من اللاجئين السياسيين من قبل السلطات المصرية في يناير ١٩٠٧ بناء على طلب من القنصلية الروسية إلى مظاهرة احتجاجية لعدة أيام نظمها ممثلي الجاليات الأجنبية في الإسكندرية والقاهرة^{٢١٧} .

في عام ١٩١٢ ، وصلت إلى الإسكندرية اللجنة الخارجية لنقابة البحارة التجاريين في البحر الأسود برئاسة «ميخائيل آدموفيتش» قادمة من إسطنبول ، وقام أعضاؤها أيضاً بنشر الدعاية الثورية بين أفراد السفن الروسية ، كما أصدروا صحيفة «البحار» الشهرية . وأدى القبض على «آدموفيتش» في مايو ١٩١٣ إلى مظاهرات عارمة اجتاحت القاهرة والإسكندرية ، مثل تلك التي حدثت في يناير ١٩٠٧^{٢١٨} .

- ٢١٤ سيد أحمد ، نبيل عبد الحميد «اليهود في مصر» . القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ١٨ (باللغة العربية) .
 ٢١٥ «ليفين» . «عقالية الشتات» . موسكو ، ٢٠٠١ ، ص ١١٧ .
 ٢١٦ «جينادى جورياتشك» ، «جريتسينكو» ، «ديميتري فومين» . المرجع السابق ص ٦ .
 ٢١٧ «فلاديمير بيلياكوف» . نفس المرجع ، ص ١١٠-١١٣ .
 ٢١٨ نفس المرجع ص ١١٨-١٢٤ .

ولم تؤد الثورة في روسيا عام ١٩١٧ إلى عودة الثوار الروس إلى أرض الوطن، فقد وجدوا في مصر ملاذاً لهم، وفي عام ١٩١٩ كانت لاتزال لجنة المهاجرين السياسيين الروس، في الإسكندرية^{٢١٩}. تؤدي عملها.

سجل تعداد السكان لعام ١٩١٧ داخل مصر ٤٢٢٥ شخص من مواطني الإمبراطورية الروسية^{٢٢٠}. وكانت زيادة أعداد الشتات الروسي؛ بسبب هجرة اليهود مجدداً، لكن هذه المرة من فلسطين. بعد اشتراك الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى في ٢٩ أكتوبر ١٩١٤، تدفقت أعداد كبيرة من اليهود الذين يحملون جواز السفر الروسي نازحين من الأراضي المقدسة، متجهين إلى الإسكندرية. وفي يناير ١٩١٥ قدرت أعدادهم بحوالى ٣٢٧٦ شخصاً^{٢٢١} وقد وفرت لهم السلطات المصرية مساكن مؤقتة ومؤمن. وعندما سنحت الفرصة أرسلوهم إلى الوطن عبر أوروبا أو من خلال الشرق الأدنى. ولكن على ما يبدو أن بعضهم قرر البقاء على الأراضي المصرية.

في ربيع ١٩٢٠م وصل إلى الإسكندرية ما يقرب من ٤٣٥٠ لاجئاً روسياً^{٢٢٢}، قادمون من «نوفوروسيسك»، وكان أغلبهم من الجنود الجرحى والمرضى التابعين لجيش المتطوعين وموظفي المستشفى. وكانت هذه هي الموجة الرابعة، للهجرة الروسية إلى مصر. وفي صيف ذلك العام، أرسل جزء من اللاجئين بعد تلقيهم العلاج إلى القرم، أما الجزء المتبقى منهم فقد تم وضعهم داخل معسكرات خاصة، على مدار عامين تحت رعاية السلطات الإنجليزية. وقد هجر اللاجئون الذين كانت تخصصاتهم مطلوبة في مصر، خاصة في المجال الطبى والفنى المعسكر تدريجياً واندمجوا في الحياة المحلية، أما البقية الباقية فقد تم إجلاهم في صيف ١٩٢٢ إلى «بلغاريا» و«صربيا».

كان المهاجرون الجدد بمثابة الهيكل للشتات الروسي، الذي تواجد في مصر بصورة مستقرة حتى منتصف عام ١٩٥٠، ثم بدأ في التقلص شيئاً فشيئاً لأسباب منطقية. وطبقاً لبيانات التعداد السكاني الدورى في مصر قدرت أعدادهم في عام ١٩٢٧ بنحو ٢٤١٠ شخصاً، وفي عام ١٩٣٧ قدرت بنحو ١١٧٦، أما في عام ١٩٤٧ كانت أعدادهم تقدر

٢١٩	أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ملف ٣١٧. القنصلية في مصر. حافظة ١/٨٢٠، وثيقة ٥٠٨، السطر ٦.
٢٢٠	محمد محمود سليمان (الأجنبي في مصر). ١٩٢٢-١٩٥٢. القاهرة، ١٩٩٦، ص ٦٠ (باللغة العربية).
٢٢١	أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ملف ٣١٧، حافظة ١/٨٢٠، وثيقة ٦٥٧، السطر ١٢٤-١٢٨.
٢٢٢	نفس المرجع حافظة ٣/٨٢٠، وثيقة ٢١٠، السطر ٦-١٢٨.

بـ ١١٧٤^{٣٣} وفقاً لحساباتي التي ارتكزت بالأساس ، على وصف الجبانة الأرثوذكسية الروسية في مصر، فإن الشتات الروسي بعد اندلاع الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، سرعان ما تقلص إلى أكثر من النصف^{٣٤}. وكان سبب ذلك يرجع إلى الخوف من إضطهادات جديدة وسياسة النظام الجمهوري التي تهدف إلى طرد الأجانب من مصر . ووفقاً للقانون الجديد يجب أن تكون نسبة العمالة داخل المؤسسات المصرية ٧٥٪ موظفين ، و ٩٠٪ عمال ممن يحملون الجنسية المصرية^{٣٥} وأدى ذلك القانون إلى إنتشار البطالة بين الأجانب وتعرض كبار السن بالمقام الأول ، الذين يمثلون الأغلبية المطلقة للجالية الروسية للإقالة .



دار مسنين قام المهاجرون الروس ببنائها عام ١٩٥٠ في حي هيليبوليس ، وتحمل اسم القديس نيكولاى

- ٢٢٣ محمد محمود سليمان . المرجع السابق ، ص ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ .
- ٢٢٤ «فلاديمير بيلياكوف» . المرجع السابق ، ص ١٩٣-١٩٤ ؛ نفس المرجع ، الجبانة الروسية في مصر . موسكو ٢٠٠١ ، ص ١٠-٣٧ .
- ٢٢٥ الشرقي «ماركوف» . الروس في مصر // «روسكايا ميل» ، باريس ، عدد ٦٣٧ ، ٣ . ٣ . ١٩٥٤ .

بحلول الثمانينيات من القرن العشرين ، لم يعد هناك وجود للمهاجرين البيض الروس في مصر . وفي عام ١٩٨١ ، تم بيع إحدى الشقق بوسط القاهرة خصصت منذ عقود للنادي الروسي الذي كان يضم مطعماً ومكتبة . وفيما يخص كنيسة القديس «نيكولاي» صغيرة الحجم التابعة لبيت المسنين ، فقد تم نقلها إلى البطريركية اليونانية بالإسكندرية^{٣٦} .

تركت الجالية الروسية في مصر أثراً كبيراً ، وغير محدود مقارنة بأعدادها . وكان أغلبها من المتخصصين ، الحاصلين على تأهيل عال ، ومن بينهم الأطباء وعلماء المصريات ، ورجال الثقافة والفن . ، وما زال المصريون من الجيل القديم ، يتذكرون بكل امتنان هؤلاء الناس . وقد أسهم الروس بقسط كبير في تنوير المصريين وتحديث الدولة .

بنهاية الستينيات وبداية السبعينيات ، وبشكل مواز لبقايا جالية الهجرة البيضاء ، ظهرت جالية جديدة من السيدات السوفيتيات ، اللاتي تزوجن من مصريين أثناء فترة دراستهم في الاتحاد السوفيتي . لكن في حقيقة الأمر ، لا يمكن أن نطلق عليهن لقب «مهاجرات» ، فقد كن يحتفظن بجواز السفر السوفيتي ، كما كان بإمكانهن العودة إلى الوطن وقتما أردن ذلك . أعداد «المواطنات السوفيتيات» ، كما كان يطلق عليهن آنذاك لم تكن كبيرة ، حيث قطعت مصر علاقتها السابقة والوثيقة مع الاتحاد السوفيتي في نهاية عام ١٩٧٠ . وفي عام ١٩٩١ وفقاً لبيانات سفارة الاتحاد السوفيتي يعيش على ضفاف النيل حوالي ٢٥٠ سيدة سوفيتية ، واللاتي تزوجن من مصريين ، وكانت ٥٤٪ منهن حاصلات على تعليم عال^{٣٧} . وهن يعشن في مصر إلى الآن ، وتم تغيير جوازات السفر الخاصة بهن ، إلى جواز السفر الروسي (أو الأوكراني ، أو غيره) ، وتحمل أغلب سيداتنا ، اللاتي ينتمين لهذا الجيل جواز السفر المصري أيضاً .

الشتات الروسي الحالي في مصر ، يحمل الطابع الأنثوي . ولا ينبغي أن نطلق عليهم كلمة مهاجرين ذلك ؛ لأن هذا الشتات تشكل نتيجة للسياحة الهائلة القادمة من روسيا إلى مصر . وفي عام ٢٠٠٩ تزايدت أعداد السائحين الروس في البلاد لتصل إلى ٢ مليون شخصاً . والعدد الدقيق لمواطني روسيا الذين يقيمون في مصر بصفة دائمة ، لا يمكن

٢٢٦ «فلاديمير بيلياكوف» . مصر الروسية . موسكو ، ٢٠٠٨ ، ص ١٣٤ .

٢٢٧ «فلاديمير بيلياكوف» «ماروسيا» ، زوجة الشيخ ، أو «مواطنات بحقوق مجزئة» ، ٢٨ . ١٩٩١ . ٩ .

معرفته ، حيث أنهم الآن غير مطالبين بتسجيل أنفسهم في القنصليات ، وكما علمت من مصادر رسمية في السفارة الروسية في فبراير ٢٠١٠ ، تم تقديرهم بـ ٢٠-٢٥ ألف شخص ، ويمثل ثلاثة أرباعهم نساء متزوجات من مصريين . وهن يقمن بشكل أساسي في المدن السياحية ، وباقي ممثلى الجالية الروسية يتمثل في العاملين بالقطاع السياحي داخل الشركات السياحية ، ورجال الأعمال و الذين يخدمون السائحين ، و الشتات الروسي ، الذي يقيم بشكل أساسي داخل المدن السياحية . وينزع الشتات الروسي إلى النمو السريع فنرى أنه مع بداية عام ٢٠٠٧ ، بلغت أعداد من يحملون جواز السفر الروسي في مصر يتراوح ما بين ١٢ إلى ١٢ ألف شخص^{٣٢٨} .

الشتات الروسي المعاصر الذي تولد من الكم الهائل من السياحة ، ساهم في نشر اللغة الروسية والثقافة الروسية في ربوع مصر ، كما ساهم بقدر كبير في تقوية النموذج الإيجابي للروس الذي تكون تاريخيا لدى المصريين ، ويدعم أواصر التعاون بين الشعبين .



المغنى الروسي "فيوادر إيفانوفيتش شاليابين"، الصورة التقطت عام ١٩٢٣ ، من أرشيف الهجرة الروسية

٢٢٨ «فلاديمير بيلياكوف» . السياحة والتبادل الثقافي الدولي//آسيا وأفريقيا اليوم ، ٢٠٠٧ ، عدد ٩ ، ص١٤٨ .



في خدمة الملك المصري من مذكرات «أناتولي ماركوف»

أناتولى ماركوف (ولد في ١٨٩٤-١٩-١٠ في مقاطعة كورسك ، وتوفي في ١٩٦١-٨-١٠ في سان فرانسيسكو)، ينتمي إلى فئة محدودة من المهاجرين الروس، التي استقرت في مصر في أعقاب الحرب الأهلية الروسية، وعثرت بسرعة بالغة على عمل دائم ولائق، ولم تعاني مطلقاً من أي صعوبات مالية. عمل «أناتولى ماركوف» على مدار ثلاثين عاماً فيما يسمى الشرطة الأنجلو-مصرية. وقد توافقت تلك الأعوام (١٩٢٢-١٩٥٢)، مع فترة وجود النظام الملكي في مصر. وقبيل اندلاع ثورة يوليو ١٩٥٢، التي وضعت نهاية للحكم الملكي في مصر قام «ماركوف» بتقديم إستقالته وتفرغ لكتابة مذكراته. وقد نشرها في أول الأمر بجانب عدة مقالات أخرى له على صفحات مجلات المهاجرين في باريس تحت اسم «الشرقي».

تتكون هذه المذكرات من أربعة أجزاء غير مترابطة وتغطي فترات حياته المختلفة وكان الجزء الأسبق في النشر، ذلك الجزء الذي يتناول خدمته في الشرطة^{٣٩} «الأنجلو-مصرية»، وهو الجزء الذي يعيننا داخل هذه المذكرات بالمقام الأول. أما الجزء الثاني من المذكرات فقد تناول فترة الخدمة في سلاح الفرسان الأنجوشي (حيث تخرج «ماركوف» في مدرسة نيكولايف لسلاح الفرسان) والجزء الثالث من المذكرات يتحدث الكاتب

٢٢٩ عن مقالة: «На службе египетского короля. Из воспоминаний» التي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Belyakov Vladimir «الشرقي». في خدمة ملك مصر // مفكر روسي، باريس ١٩٥٥ أعداد ٧٥١، ٧٥٣، ٧٥٥، ٧٥٩، ٧٦١، ٧٦٥، ٧٦٦.

فيه عن فترة شبابه ، والتي أنهى فيها دراسته في (كتيبة تلاميذ فورونيج) ٣٠ . كما يتخلل هذا الجزء مقالات عن تاريخ المدارس العسكرية في روسيا ٣١ . أما الجزء الرابع فقد كان مخصصاً للحديث عن سنوات الطفولة التي قضاها الكاتب في روسيا ، وقد نشر هذا الجزء بعد وفاة «ماركوف» ٣٢ .

في منتصف عام ١٩٥٠ غادر «ماركوف» مصر، متوجهاً إلى الولايات المتحدة ، واستقر تحديداً في «سان فرانسيسكو» ، وفي تلك الفترة غادر البلاد بصفة عامة أكثر من نصف أعضاء الجالية الروسية . حول هذه الظاهرة كتب «ماركوف» عام ١٩٥٤ في صحيفة «روسكيا ميسل» : «سعى الجميع إلى مغادرة مصر، وغالباً ما كانت تدور الأحاديث في مجالس الروس حول موضوع واحد» من سيرحل ومتى وإلى أين ؟» ٣٣ . وجه القانون الذي أصدرته الثورة المصرية بأن تكون نسبة الموظفين المصريين في أي شركة أو مؤسسه ٧٥٪ ، والعمال ٩٠٪ ، ضربة موجعة لجميع الأجانب المقيمين داخل مصر، إذ فقد الكثير منهم وظائفهم . وقد عانت الجالية الروسية التي تشكلت في بداية ١٩٢٠ بصفة خاصة من هذا القرار ، فقد كان أغلب أعمار أعضائها فوق الخمسين عاماً بشكل أساسي .

إن مذكرات «ماركوف» «في خدمة الملك المصري» التي جذبت إنتباه القارئ تضم روايات شيقة لشاهد عيان عن الأوضاع في مصر بين عامي ١٩٢٠-١٩٤٠ وعن الجاليات الأجنبية و العادات السائدة في البلاد في تلك السنوات ، وقد نشرت بشيء من الإيجاز .

الشرقي في خدمة الملك المصري

لقد التحقت مصادفة بالخدمة الملكية المصرية ، أو ما كان يسمى بالصيغة القديمة «في خدمة جلالة الملك المصري» ، في نوفمبر عام ١٩٢٢ ، وقد التحقت بالشرطة الأنجلو-مصرية برتبة كونستابل ، وأحيلت إلى التقاعد برتبة نقيب في عام ١٩٥٢ قبيل الثورة المصرية بشهرين ، والتي حولت البلاد من الملكية إلى الجمهورية .

- ٢٣٠ «الشرقي» . في سلاح الفرسان الأنجوشي//قصة واقعية عسكرية ، باريس ١٩٥٧ رقم ٢٢- ٧٥ مذكرات نشرت منفصلة في كتيبات في موسكو ١٩٩٧ .
- ٢٣١ «ماركوف» . التلاميذ والطلبة ، بيونس آيرس ، ١٩٦١ . الصادر في موسكو ٢٠٠٧ .
- ٢٣٢ أناتولى ماركوف (الشرقي) العث الوطني . سان فرانسيسكو ١٩٦٢ .
- ٢٣٣ «الشرقي» . الروس في مصر//مفكر روسي ، ١٩٥٤ ، رقم ٦٣٧ .

كانت الشرطة الأوروبية تتواجد بشكل حصري في "القاهرة والإسكندرية وبورسعيد"، حيث تتمركز الجاليات الأجنبية، وتخضع لسلطة الضباط الإنجليز، وتنقسم إلى عدة أقسام منها: الجنائية، والسياسية، ومكافحة المخدرات، والجمارك، والمرور والأداب. وكانت الشرطة المحلية داخل نطاق تلك المدن، وكذلك كتيبة القوات الخاصة التابعة لكتيبة المشاة، وكتيبة الغيالة، تمتثل لأوامر رؤساء الشرطة الأوروبية. وكان القادة ضباط إنجليز برتبة لواء، ويرتدون الزي العسكري كباقي الشرطة في مصر.

تبدأ الخدمة داخل البوليس الأوروبى برتبة "كونستابل"، وكان كل الأوروبيين يبدءون عملهم داخل جهاز الشرطة بهذه الرتبة، دون أي استثناءات، حيث لا يتم تعيين أحد كضابط مباشرة. وكان يتم تعيين الراغبين في الوظائف الشاغرة فقط، زد على ذلك كان يُطلب من المرشحين لشغل هذه الوظائف توصية خاصة من القناصل، بالإضافة إلى التمتع بجنسية إحدى الدول الأوروبية، وأداء الخدمة العسكرية حتى رتبة رقيب^{٣٤} على الأقل، وشهادة الثانوية، ومعرفة لغتين أوروبيتين، والتمتع بقامة طويلة، والتخلي بالقوة الجسدية. ولأن هذه الخدمة قد أنشأها، وتولى الإشراف عليها الإنجليز، وخصصت لهم بشكل رئيس، فقد كانت أحوالها ورواتبها ممتازة. وبالمقارنة مع زملائهم المصريين من نفس الرتب، فإن رجال الشرطة الأوروبيون كانوا يحصلون على راتب أكبر أربع مرات، وكانوا أيضاً بالمقارنة معهم- في وضع متميز. وليس من العجيب مع كل فرصة عمل متاحه لشغل وظيفة كونستابل، أن يتقدم عدد كبير من الراغبين، فأنا على سبيل المثال قد التحقت بهذه الخدمة، حيث تم اختياري من بين ٤٤ منافساً.

كان ينبغي على كل كونستابل بعد إتحاقه بالخدمة أن يتلقى تدريباً عسكرياً وتقنياً لمدة ٦ أشهر وبعد ذلك يؤدي الامتحان، وعادة يتم تعيينه داخل أحد المراكز الشرطة في المدينة، وبعد مرور عامين على الأقل ودراسة الخدمة الشرطة جيداً، يتمكن من الانتقال إلى مقر الشرطة الرئيس "المديرية" للعمل داخل المكاتب المركزية.

٣٤ قد كان «ماركوف» يشغل رتبة نقيب.

كانت خدمة الشارع للكونستابل الأوروبي تتمثل في ، الحراسة الشرطية العادية مع الفارق ، في مصر كان الكونستبلات الأوروبيون يقومون بالحراسة فقط في الأحياء السكنية الأوروبية . وكان جميع أفراد الشرطة المحلية في تلك المنطقة يمثلون لأوامرهم . وبما أن غالبيتهم كانوا لا يتقنون اللغات الأجنبية ، كان يقوم بهذه الخدمة عادة الإنجليز ، في حين كان يعمل في القيادة المركزية بجانب القادة ، ضباط وكونستبلات مالطيين وإيطاليين ويونانيين إلخ... ”ورغم أن الإنجليز كانوا يؤدون أقل المهام الشرطية ، إلا أنهم يترقون داخل جهاز الشرطة“ الأجلو-مصرية بسرعة . لأنه كانت توجد قاعدة سرية لترقيتهم . وبالنسبة للأخريين بما في ذلك المالطيين واليونانيين من قبرص بالرغم من أنهم يحملون جواز السفر البريطاني لم يعتبروا بريطانيين فإن الترقية من كونستابل إلى ضابط كان يعد تقريبا شيئا مستحيلا ، حيث أن وظائف الضباط في الإسكندرية لم تتجاوز ١٥ وظيفة .

لذلك ليس من العجيب ، أن معظم الكونستبلات الأوروبيين قد أنهاوا الخدمة في تلك الرتبة بعد مرور ١٥-٢٠ سنة ، وأصبحوا يحصلون على معاش . أما بالنسبة لي فأنا شخصيا قد سئحت لى فرصة الخدمة داخل العديد من إدارات الشرطة ، وتعرفت على جميع التخصصات ، لهذا تتناول هذه الذكريات العديد من المواقف ، والظواهر المختلفة . ولكن قبل أن نتطرق إلى ذكريات العمل ، فمن الضروري أن أخبر القاريء عن ماهية قانون الامتيازات ، والذي بمقتضاه تم تأسيس وتفعيل الشرطة الأوروبية في مصر .

قانون الامتيازات

قانون الامتيازات أو حق الحصانه يتلخص في أنه ، طبقاً لاتفاقية خاصة أبرمت في عهد ”الخدوي اسماعيل “ بين مصر والدول الأوروبية العظمى فإن رعايا تلك الدول المقيمون في مصر لا يخضعون للسلطات الإدارية أو الشرطية أو القضائية المحلية ، وإنما كانوا يخضعون لإشراف ودائرة اختصاص قنصلياتهم وقوانين بلادهم . وبفضل هذا النظام لم يكن للمحكمة المصرية الحق في إصدار حكم ، أو عقاب أحد من رعايا الدولة صاحبة الامتياز . كما إنه لا يمكن للشرطة المصرية أن تصدر أمراً بالقبض عليه ، أو تفتيش منزله ٣٥ .

٢٣٥ «نظام الامتيازات» وضع من قبل «الإمبراطورية العثمانية» ، وذلك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . مع مختلف البلدان المحيطة ، بهدف تطوير التجارة معهم ، وفي بداية القرن التاسع عشر ، تم منحه أيضاً لجميع الحكومات الأجنبية بموجب عقد . كما إنتشر داخل أجزاء الإمبراطورية بما في ذلك مصر . وفي عام ١٨٧٥ تم التراجع عن هذا النظام ، إلى حد ما ، بإنشاء المحاكم المختلطة المصرية الأوروبية . منذ ذلك الوقت أصبح للمصريين الحق في المثل أمام المحاكم المختلطة فيما يخص الأمور المدنية مع الأجانب .

ولمساعدة القنصليات الأجنبية في وظائفها القضائية والشرطية ، تم تأسيس شرطة أوروبية خاصة من الأجانب ، تمثل جميع البلدان الأوروبية المستفيدة بحق الامتياز مما يعطي على سبيل المثال القنصلية الإيطالية والمحكمة الإيطالية ، فيها الحق في اعتقال أي مواطن إيطالي وتقديمه إلى المحكمة بواسطة الشرطة الإيطالية على الرغم من أنهم يعملون في إطار الخدمة المصرية .

بالإضافة إلى ذلك ، في حالة ارتكاب أي من الرعايا الأجانب إحدى الجرائم يتم احتجازه قبل عرضه على المحكمة داخل "سجن أوروبي" خاص يعمل به موظفون أوروبيون أما في حالة إدانته فيتم تنفيذ العقوبة في بلده وليس في مصر .

بالإضافة إلى المحاكم القنصلية في مصر ، كان هناك ما يسمى " بالمحكمة المختلطة " ، التي تتكون من درجتين ، وكانت الدول العظمى ممثلة فيها بقضاتها ، وكانت تختص بالنظر في الأمور المدنية بين المصريين والأجانب . ولا شك أن هذا القانون به جانب إيجابى ، ألا وهو حماية الرعايا الأوروبيين من الاستبداد الشرقي آنذاك . لكن أثناء عملي ، أي في الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن ، كان يعد من بقايا العصور القديمة ومصدرا للتعسف من جانب عالم الجريمة الأجنبى . وتفسير ذلك الأمر بشكل رئيس أن السلك الدبلوماسي الذي لم يلعب أي دور مماثل في البلاد الأخرى ، قد حظى بحقوق كبيرة في مصر ، بفضل قانون الامتيازات . كانت كل قنصلية تابعة لإحدى الدول العظمى تعد كما لو كانت دولة داخل دولة وخارج نطاق أي سيطرة ، وكانت تفعل حرفياً ماتشاء ضاربه عرض الحائط بمصالح وقوانين مصر .

وحيث أن القنصليات صاحبة الامتيازات مثل قنصليات : بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان والبلاد الإسكندنافية . بالإضافة إلى وظائفها العادية كانت لها مهام قضائية وتحقيقية فإن عدد موظفيها كان كبيرا للغاية ، ويصل أحيانا إلى ٥٠ موظف أو أكثر من جميع الكوادر ، وذلك بداية من القناصل العموم ووصولاً إلى "عساكر الدرك" وهم القائمون بأعمال الحراسة في الشرق عند القنصليات ، وباستثناء كبار الموظفين كان جميع الموظفين والعاملين في تلك القنصليات من الشوام (المسيحيين اللاتين)^{٣٣} مع كل العواقب المنبثقة عن هذه الحالة .

٢٣٦ الشوام - مجموعة صغيرة من اللبنانيين والسوريين المنحدرين من نسل المهاجرين الأوربيين خلال الحروب الصليبية ، والتي إنصهرت مع السكان المحليين . وهم غالباً من الكاثوليك والموارنة .

جدير بالذكر أن بلدان أوروبا الصغيرة والفقيرة مثل : " البرتغال ، الدنمارك والمجر " لم تكن لديهم القدرات المالية للإنفاق على بعثات مكلفة ، ولكن كان لديهم قنصل "فخريين" من هؤلاء الشوام والذين لا يتقاضون رواتب في مقابل خدماتهم ، ولكن بدلا من ذلك إستغلوا مكانتهم الدبلوماسية والمميزات القنصلية في تحقيق مكاسب شخصية .

لا يمكننا أن نغفل أن هؤلاء الشرقيين يدبرون أمورهم بمهارة ، متجاهلين تماما المصالح المصرية . وفي الشرق ينظر الناس بصفه عامة إلى الوظيفة الحكومية على أنها أسهل الطرق للحصول على المال ؛ لأن الخدمات القنصلية المتمثلة في الحقيبة الدبلوماسية ، وإصدار جوازات السفر ، وجميع أنواع الشهادات تعد بالنسبه لهؤلاء الشوام العاملين في تلك القنصليات مصدراً لدخل لا ينيضب . وقد حدثت في السنوات الأخيرة قبل إلغاء قانون الامتيازات سلسلة من الفضائح المدوية في الإسكندرية ، تمثلت في التهريب داخل الحقائق الدبلوماسية وإصدار وثائق مزورة وبيع جوازات السفر ، وحماية الإتجار بالبشر . وكانت تجارة جوازات السفر الأجنبية التي تعطى حق عدم المساس من جانب السلطات المصرية تعد شيئاً عادياً في تلك الفترة ، حتى أن جوازات السفر كانت لها تسعيرة محددة في السوق السوداء .

وفي مصر ، عاشت عائلات كاملة ذات أصول محلية ، لم تغادر البلاد أبدا . ولم تسر في عروقهم قطرة دم أجنبية ، ومع ذلك يملك أفرادها جوازات سفر مختلفة ، زد على ذلك أنه لم يخجل أحد من وضعيته أن أحد إخوته قد أصبح إيطالياً وآخر يونانياً وثالث تركيا . كان من المعروف أنه إذا كان الشخص يحمل جواز سفر أجنبي ، فإن السلطات المصرية لا يجب أن تعترض ، ولا تسأل عن الطريقة التي تم الحصول بها على هذا الجواز لأن إصدار جوازات السفر يبعد من إختصاص القنصليات ولا تجرؤ السلطات المصرية التدخل في شئونها .

يعد من نافلة القول بالطبع ، أن غالبية هؤلاء الأجانب " المزيفين " ، ينتمون إلى العالم المظلم ، ويحظون بدعم قوي من الموظفين الشوام داخل القنصليات الذين يقتسمون معهم دخولهم غير القانونية . وليس من العجيب أن القنصليات نفسها ، وأغلب المحاكم القنصلية التابعة لها في الإسكندرية في ذلك الوقت يتمتعن بسمعة لا يحسدون عليها وزد على ذلك كانت كل محكمة من تلك المحاكم ، لها ممثلها الخاص تبعاً للسيكولوجية الوطنية .

بات معروفاً لدى الجميع ، أن محكمة القنصلية الإنجليزية تبريء المواطنين الإنجليز طوال الوقت من القضايا التي يتورطون فيها ، مستندة في ذلك إلى أنه ، لا يجب أن تهتز الهيبة الإنجليزية في الشرق لصالح ” الإمبراطورية “ . هذه القاعدة لا تنطبق على الرعايا الإنجليز الآخرين ، الذين لا تسرى في عروقهم الدماء الإنجليزية مثل اليهود ، والمالطيين والقبارصة اليونانيين ، فضلاً عن ” السادة الملونين “ القادمين من المستعمرات .

اشتهرت محكمة القنصلية اليونانية على مدار أعوام متتالية بأنها ، الحامية والراعية للمهريين اليونانيين . أضف إلى ذلك ، عدم قدرة القضاة اليونانيين على الصمود أمام مواطنيهم الأغنياء ، الذين كانوا دائماً يعولون على أنه ، إذا لم يحصلوا على البراءة الكاملة ، فسيحصلون على حكم مخفف في جميع الأحوال .

المحكمة الفرنسية كانت أكثر تساهلاً فيما يتعلق ، بالقضايا الأخلاقية ، والإتجار بجسد المرأة في جميع أشكاله ؛ لأنه كان من المستحيل تقريباً للشرطة المصرية أن تحصل من القنصلية على إدانته ، أو حتى مجرد إجراءات إدارية بسيطة ضد القوادين وأصحاب بيوت الدعارة الفرنسيين .

أما المحكمة الإيطالية قبل الحرب الأخيرة ، وفي سنوات الفاشية قد برأت جنائياً جميع المواطنين الإيطاليين ، هذا في حالة إذا ما تمكنوا من توفير الأمن لأنفسهم ، والتحقوا بالفاشية ، ولكنها في نفس الوقت تدين بشدة كل من لم يفعل ذلك .

وقد أدى هذا الوضع إلى عدم عقاب عالم الجريمة الأجنبي في مصر ، وتكبير أيدي وأرجل الشرطة في ” الإسكندرية “ ، ووضع عقبات لا حصر لها في طريقها . على سبيل المثال ، كان لزاماً عليها اتباع إجراءات معقدة ؛ كي تجري عملية تفتيش بسيطة ، أو اعتقال أي أجنبي ، وبعد كل ذلك كانت جهودها دائماً ما تبوء بالفشل .

كان على قائد الشرطة أن يرسل ورقة رسمية إلى القنصل ؛ يطلب فيها الحصول على موافقته على التفتيش ، أو إلقاء القبض على شخص ما استناداً إلى وقائع وأسباب مؤكدة ، ويطلب تقديم المساعدة من رجال شرطتهم التابعين للشرطة الأوروبية والتي بدون حضورهم ، لا تملك الشرطة المصرية الحق في دخول بيت الجاني . يلجأ القنصل المسؤول عن حماية مصالح رعايا البلد التابع لها ، إلى طريقة المراسلة لمنع التفتيش أو الاعتقال لرعايا قنصليته . وسرعان ما تصبح هذه المراسلات معروفة لدى موظفي القنصلية من الشوام

الذين بدورهم ، كانوا يقومون على وجه السرعة بتحذير جميع الشخصيات المعنية بالأمر؛ في محاولة منهم لإتاحة الفرصة لهم لإخفاء أي دليل على المخالفة أو الجريمة. وبالتالي لا تستطيع الشرطة العثور على الأدلة، وفي المقابل يحصل الشوام على مبلغ مالى كنوع من الامتنان على أفعالهم. وحتى لو أن التفتيش وأمر الاعتقال قد سمح بهما القنصل بدون الإجراءات الروتينية ، فهذا لا يعني إطلاقاً أن العملية ستتم بنجاح. وذلك أن غالبية رجال شرطتهم كانت لهم علاقات عمل مع عالم الجريمة ، والتي بسببها ما أن يتلقى أحدهم أمراً من رؤسائه يقضي ”بتعاون البوليس“ ، يقوم على الفور بتحذير الأشخاص المعنيين بالتليفون ، وهكذا كانت غالبية عمليات البوليس ، التي يشارك فيها ” شرطتهم “ دائماً ما تنتهي إلى لا شيء ، لأن المجرم يكون قد أعد العدة لزيارتهم المرتقبة .

بالإضافة إلى كل ما سبق ، كان هناك قانون ينص على أنه لا يحق للسلطات المصرية إزعاج الأجانب في منازلهم ، بعد غروب الشمس ، وهذا قدم فعلياً لعالم الجريمة الأجنبي كارت بلانش (شيك على بياض) لفعل ما يحلو لهم طوال الليل . وللحقيقة فنادرا ماتم الالتزام بهذا القانون ، ولكن عند الرغبة كان أي قنصل أجنبي يتمسك بنص هذا القانون ، ويرفض إعطاء الإذن للبوليس .

وحيث أن موظفي السفارة الكبار ، كانوا من الدبلوماسيين الذين كانوا ، يستبدلون كل فترة ، وليست لهم دراية بأحوال البلاد التي يعملون فيها ، فإن صاحب هذه المؤسسات الفعلي والمتصرف فيها هو الطقم الدائم المتمثل في الشوام ، حيث يشغلون وظائف السكرتارية والترجمان و ” عساكر الدرك “ ، الذين يتحدثون بكل اللغات ، ويعرفون جميع أبناء الجالية معرفة شخصية. ولا عجب أن هؤلاء السادة كقاعدة عامة، كانوا يحالون إلى المعاش وهم أثرياء جداً بعد أن كانوا على مدار سنوات عديدة متتالية أوصياء وحماة عالم الجريمة.

ظهرت بعض الأسماء من هذا الوسط مرات عديدة ، خلال المحاكمات والتحقيقات فعلى سبيل المثال في ” الإسكندرية “ ، وداخل القنصلية الفرنسية كان يتواجد على مدار عقدين من الزمان المترجمان المغربى الحاج ” محمد أزولاي “ . كان هذا الرجل أحد المساهمين في عدة بيوت دعارة ، ويحصل على نسبة محددة من تجار الرذيلة عن كل امرأة ترسل من فرنسا للعمل في بيوت الدعارة المحلية . وقد توقف نشاطه بسبب أنه أثناء إحدى المحاكمات داخل القنصلية البريطانية عام ١٩٣٥ ، عند نظر قضية أحد المالطين من الذين يتاجرون بالبشر ، أدلت ” أوديت “ إحدى الضحايا من فرنسا ، أنها لم

تفلح هي وزميلاتها في الحصول على الحماية لدى قنصل دولتهم، بسبب أن المترجمان "أزولاي" لم يسمح لهن بتخطي أعتاب الباب، ويصادر رسائلهن وشكاويهن. ونظرا لأن هذه الشهادة قد نشرت في جميع الصحف المصرية، فإن الفضيحة لم تخدم، وتمت إقالة "محمد أزولاي" من العمل. وبعد أن فقد دعم القنصلية التابع لها انخرط في تجارة المخدرات، وسيق إلى السجن. وكان أمثال «أزولاي» يتواجدون تقريبا في كل القنصليات الأجنبية ولكن غالبيتهم أنها حياتهم الوظيفية بنجاح.

من البديهي أن الشرطة المصرية اضطرت وهي تواجه مثل هذه الأشياء، إلى تطوير أساليب فائقة؛ لكي تتصدى بدون خرق القانون لعالم الجريمة الذي صنع له قانون الامتيازات في مصر وفي الإسكندرية بصفة خاصة أرض الميعاد.

لكن كل هذا قد ولى وانقضى، وأصبح من الماضي، فمئذ خريف عام ١٩٣٧ تم إلغاء قانون الامتيازات بموجب توقيع المعاهدة «الأنجلو-مصرية» في «موننترو»^{٣٣} والتي حلت قيود الإدارة المصرية، وأعطتها الفرصة للتخلص من المجرمين الأجانب.

في الوقت الحالي، وصل الأمن العام في مصر إلى درجة فائقة، ربما لا يوجد مثلها في أي بلد أوروبي. وأشعر بالرضى التام، أننى بذلت جهدى في هذا الأمر.

العاملين في الكباريات وقاعات الموسيقى

توجد بجانب الدعارة العلنية والسرية في مصر دعارة شبة قانونية تغلفها الأخلاق النسبية للمجتمع البرجوازي الحديث، والتي تتصدى لها السلطات المصرية "بقدر ما"، وذلك نظرا لارتباطها بمصالح غاية في التعقيد. وهذه الدعارة شبة القانونية ترتبط بشكل كامل بعالم الملاهي الليلية، والكباريات، وقاعات الموسيقى. وقبل حرب عام ١٩٣٩ ازدهر هذا النوع من الصناعة في مناطق شرق أوروبا، وبلدان البلقان، وفي الشرق الأوسط بصفة خاصة. وفي هذا المجال اعتبرت مصر من بين بلدان الشرق منجم ذهب. وفي هذا المجال بالذات باشرت عملى في "شرطة الآداب" حيث تم نقلى عام ١٩٢٩ كمراقب لقاءات الموسيقى والملاهي الليلية في "الإسكندرية".

٢٣٧ مؤتمر تم عقده في المدينة السويسرية «موننترو» حول إلغاء الامتيازات من مصر في الفترة من ١٢ أبريل إلى ١٨ مايو ١٩٣٧. شاركت فيه ١٢ دولة مستفيدة من صلاحيات الامتيازات في مصر. إنتهى المؤتمر بعقد إتفاقية لإلغاء الامتيازات. غير أنه تم الإبقاء على المحاكم المختلطة لمدة ١٢ سنة كفترة إنتقالية.

عشرات الآلاف من السيدات الجميلات ، اللاتي يعملن بالرقص ، ويمارسن الفن بجميع أنواعه على خشبة المسرح داخل هذه المؤسسات ، ورؤساء الجوقات ، وأصحاب هذه "الأماكن" والوكلاء ، ومدربين الباليه ، وجميع أنواع الطفيليات التي تنمو وتتغذى حول هذا العمل يمثلون عالماً خاصاً ، لا يعلم عنه الجمهور العريض ، الذي يتواجد في مؤسسات التسلية فقط أثناء العروض الرائعة ، أي شيء .

تبدأ فنانات الكباريات عملهن الحقيقي في الصالته بين الجمهور ، خلافاً لجميع أنواع المسارح حيث تتوجه الفنانات إلى بيوتهن ، بمجرد أن ينتهين من تقديم فقراتهن . وبذلك ينتهي عملهن . ولاتعد الفقرات التي تؤديها فنانات الكباريات على خشبة المسرح مصدر دخلهن الرئيس ، ولكن ما يسمى "كمية الاستهلاك" والذي يعد دعارة مقنعة . ويتلخص في أن فنانات الكباريات ، يدفعون الزبائن إلى صرف مبالغ طائلة وخاصة في شرب الشمبانيا . وكان كل من الفتاة و"الزبون" يعلمان جيداً أنه لا أحد سينفق مبلغاً كبيراً من المال لأجل زجاجة شمبانيا أو من أجل متعة أن يشربها برفقة امرأة فائنة وأنيقة . كانت الأموال تنفق بهدف مواصلة التعارف في وضع أكثر حميمية في شقة الفنانة بعد إغلاق الحانة الليلية .

كانت جميع فقرات "البرنامج" في المؤسسات من هذا النوع المتواجدة في مدينة الإسكندرية ، فيما عدا فقرة أو فقرتين من ألعاب الملاهي بمثابة ورقة توت تغطي على الطابع الحقيقي لها عبارة عن رقصات بدائية تؤديها سيدات عاريات ، وشبه عاريات للجمهور المتواجد بالصالة وكانت معظم الفتيات لا يملكن أي موهبة ولا يقدرن على الأداء الفني الراقي ولذلك كن يعملن فقط في الصالة "محظيات" مقابل المشروبات .

كانت متطلبات أصحاب الملاهي "المحليين" وممثلوهم في الخارج . بالنسبة لاختيار مثل هذه المواهب عادة واحدة : لا بد أن تكون الفنانات المتعاقدات على درجة كبيرة من الجمال ، وأن يكن جميلات القوام وأن يجدن "التسويق" أي ألا يفرضن طلباً "للزبون الجيد" وأن يدفعن للإنفاق الجيد لصالح الملهى . وطبقاً للعرف غير المكتوب في العقود تحصل كل سيدة تعمل في هذه المؤسسات على نسبة تصل من ١٠٪-٢٠٪ من إجمالي المبلغ الذي أنفقه العميل داخل صالة الملهى وقد حثت إدارة الملهى الفتيات العاملات داخلها على دفع العميل لطلب الشمبانيا بشكل خاص ؛ نظراً لأنها تكلف صاحب الملهى مبلغاً ضئيلاً وتجلب دخلاً يصل إلى ٥٠٠٪ وهو ما يعد الدخل الرئيسي للملهى .

تزامن تعييني مع الوقت الذي قررت فيه السلطات المصرية أخيراً ، أن تولى كل ماسبق ذكره ، وكل القبح الذي يحيط بهذه المؤسسات ومن على شاكلتها اهتماماً خاصاً . كما عهد إلى رؤسائي في العمل بإعداد تقارير ، بخصوص إرساء قواعد شرطية جديدة تنظم إقامة الفنانات الأجنبية داخل مصر وأحوال عملهن وحمايتهن من الاستغلال .

بعيداً عن التسلسل الزمني للأحداث ، سوف أقوم بتلخيص ماهية هذا العالم قبل الإصلاح ، وكيف تم هذا الإصلاح ، وأحوال فنانات الملاهي الليلية بعد أن شرعت لهم الحكومة المصرية قوانين جديدة .

ينقسم العالم الدولي للملاهي الليلية إلى قسمين وهما تحديداً ، المستغلون والمستغلين . أصحاب الأماكن الليلية الترفيهية يتبعون الفئة الأولى ، كما يتبعها أيضاً الإدارة ووكلاء الفنانات ومدربين البالية ، والعديد من الشخصيات التي يشوبها الغموض وتحوم حول المكان والتي يصعب إيجاد اسم لها بينما ينتمي للفئة الثانية- الذين يتم استغلالهم- الآلاف والآلاف من الفتيات الفاتنات من مختلف الجنسيات ، ويحملن عن حق أوبدون حق لقب فنانات الكباريات .

المستغلون بدون استثناء ينتمون إلى الفئة التي عادة ما يطلق عليها العالم المظلم وهم في الماضي والحاضر من فئة المهريين والقوادين وجميع أنواع المنتهكين لواجبات ووظائفهم ولكل منهم ملف شخصي داخل الشرطة ، يحفل بجميع أنواع الجرائم .

نرى على سبيل المثال في مدينة الإسكندرية أن أصحاب أماكن اللهو ، التي تحمل أسماء " الكورسال " و " بيل فيو " و " كريستال " و " الأجنحة الزرقاء " هاربون من الجندية يتجرون بالبشر كما إنهم لصوص محترفون وتجار مخدرات . ويعتلي أصحاب الأوكار الليلية قمة هذه المهنة ثم يليهم في الترتيب المديرون والريجيسيرات وهم قوادون محترفون مثل باقى الموظفين لأنهم لا يتقاضون أي رواتب من المالك ، ولكنهم كانوا يمارسون استغلال الفنانات .

الفتيات التي يطلق عليهن لقب فنانات قدموا إلى الإسكندرية من مختلف بلدان العالم وتصل أعدادهن إلى ١٥٠٠ شخصاً سنوياً وأكثر . وقد تم استقدامهم من أوروبا بعقد فردي أو جماعي أو (كراقصات بالية) ، وقد تصل هذه المجموع أحياناً إلى ٢٠ فرداً ، وعادة إذا ما كانت إحدى هذه المجموعات "البالية" تتكون من خمسة أشخاص عندئذ يتأسسها أحد الرجال . أما بخصوص المجموعات التي كانت تضم أعداداً ضخمة فكان يتولى

رئاستها اثنان أو ثلاثة من الرجال هؤلاء الرجال . لا يعدون مديرين فنيين فقط ، ولكن رؤساء للجوقات ومحاسبين وقبل كل شيء مستغلين للنساء ، وزد على ذلك أنهم أيضا بلا ضمير!

من يطلقون عليهم " قادة الباليه " كانوا يتحكمون في كل شيء ، خاصة فيما يتعلق بالأمور المالية . وكانوا أيضا يبرمون التعاقدات للفنانات ، ويوقعون على العقود ، ويقومون بكافة المراسلات للفرقة ، ويتاجرون بالنساء ، ويحصلون من جراء ذلك كله على نصيب الأسد .

حتى عام ١٩٢٥ ، كان كل مالك ملهى ليلي داخل مصري يقدم تأميناً يقدر بـ "٢٠٠" جنيهاً مصرية استخدمه الشرطة ؛ لشراء تذكرة باخرة لمن يتم ترحيلهم قسراً من الفنانات إلى أرض الوطن . علاوة على ذلك ، كانت السلطات تطالب الفنانات الراغبات في المجئ إلى مصر بوجوب تواجد تعاقدهما حتى لو كانت هذه العقود وهمية والتي بدونها لا يسمح القنصل المصري في الخارج بإعطائهم التأشيرات . ولم تكن هناك أي قواعد أخرى لعمل الفنانات في مصر . وبفضل ذلك ترسخت في الفترة ما بين الحربين العالميتين في عالم الكباريه قاعدة تقضي بأن كل السيدات الأوروبيات الوحيدات يتحولن إلى سلعة في تلك التجارة عديمة الضمير .

وقد كان ذلك يحدث كالآتي :

عندما كانت واحدة من تلك المؤسسات ترغب في " تجديد البرنامج " ، أي تجدد اختيار النساء كانت : إما ترسل وكيلها إلى الخارج ، أو ترسل إسطنبول وبودابست أو بوخارست لإرسال العدد المطلوب من النساء وبالشروط المطلوبة . كانت الملاهي الليلية في أوروبا عادة ما تتلقى هذا الطلب بفرحة غامرة ؛ لأنه بفضل سعر العملة المرتفع ، وغياب التشريعات ، وكثرة الأغنياء تعد مصر بالنسبة لهذه الدعارة شبه القانونية أرض الميعاد حيث الأموال " ملقاة في الشارع " . كان وكلاء الفنانات في الخارج ، ينشرون عن عمد ويجشع بين الفنانات هذه السمعة عن مصر . ويؤكدون لهم أن فلانة وفلانة عدن من أرض الفراعنة ويحودتهن مبالغ هائلة من الأموال والمجوهرات .

لوضع " البرنامج " كان وكيل الفنانات يوجه الدعوة لاثنتين أو ثلاث فنانات بشروط إنسانية إلى حد ما ، ثم يشرع في تجنيد قطيع العمل . وكان في كل من

”بوخارست، ويودابست، وبراغ واسطنبول“ وكلاء مخصصون لهذا الهدف. وهو جمع عدد من الفتيات للعمل في فرق ”الباليه“، سالفة الذكر. وكانت تلك الفرق عادة ما تتكون من فتيات فانتات اعتلين خشبات المسارح بطريقة أو بأخرى، ولذلك يمكنهن التفاهم مع العملاء، وفي نفس الوقت يستطعن الشرب كالبرميل وكان أغلبهن يحملن جنسيات رومانية وهنجرية من الطبقة الفقيرة، وكان يعشن خاصة في الفترة ما بعد ”فرساي“ أوروبا على الخبز والماء وأجبرن على الدعارة في المنزل. وقد تنامى إلى سمعهن الأخبار الواردة من مصر عن منجم الذهب. وبكل سرور وقعن هن و”مصممورقصات الباليه“ على شروط كما بدا لهم مفيدة للغاية بأرقام فلكية من عملات ”البنجوس“ أو ”اللي“. بالإضافة إلى ذلك كان رئيس الباليه يتعهد بتقديم الإعاشه الكاملة لجمع أعضاء فرقته، ودولاب للملابس، وشقة، وبعد ذلك يتم تسجيل العقد بطريقة قانونية في الشهر العقاري المحلي.

من جانبه يتولى رئيس فرقة الباليه، توقيع العقد مع إدارة الملهى الليلي في مصر باسمه فقط، وبشروط لايعلمها غيره. وبعد توقيع العقد كان قائد الفرقة يتوجه إلى القنصلية المصرية في ”بوخارست، أو صوفيا أو إسطنبول“، ومعه أسماء الفرقة للحصول على التأشيرات. بعد ذلك يتم شحن مجموعة البنات المجريات أو الرومانيات إلى ”تريستي“ أو ”إسطنبول“ على متن باخرة متوجهة إلى الإسكندرية، في حالة معنوية عالية، تحسباً لعمل سهل ورواتب ضخمة. ولكن ما إن تطأ أقدامهن الأراضي المصرية، حتى يتسلل الإحباط إليهن سريعاً. ومنذ الوهلة الأولى يصدمن بالفرق الكبير في سعر العملة، التي لم يكن يعلمن عنها شيئاً، ليحول المبلغ الضخم من عملتهن ”البنجوس“ المتفق عليه في العقد إلى مبلغ تافه يوازي جنيهاً ونصف أو جنيهاً الذي لا يكفي للحياة داخل مصر مدة أسبوع واحد! وسرعان ما يدركن أنه سيخصم من راتبهن القادم أتعاب الوكيل وثمان تذاكر السفر، والتأشيرات والبرقيات، وخلافه وهي مبالغ ضخمة تفوق الخيال وغير خاضعة للسيطرة. وأن ما يسمى ”النفقات غير المباشرة“ للفنانات هي حيلة دائماً ما تحاك ضدهن بمجرد خروجهن من الباخرة في ميناء الإسكندرية. كما هي العادة يستقبلهم في الميناء مندوب صاحب الملهى، وهو أحد الموظفين الصغار في الكباريه الذي يقوم بإنهاء إجراءات جواز السفر والجمارك، ويقلمهم إلى بانسيون ”للفنانين“ حيث يتم تسكينهم في غرف أعدت لهم مسبقاً.

كانت الفتيات اللاتي لم يكن يستطعن في الخارج ، أن يخطون خطوة واحدة سعيدات لوجود من يعتنى بهن ، وتركن أنفسهن في رعاية ذلك الشاب اللطيف الذي ما إن يقلهن إلى المكان المنشود فسرعان ما تتغير نبرة صوته ويقدم لهن الحساب نظير أتعبه. وهذا الحساب بالطبع سرقة مذهلة ويوازي أكثر من عشرة أضعاف المبلغ الحقيقي. أتذكر إحدى الحالات حيث قام واحد من تلك "الأوز" بأخذ جنيهين من إحدى الفنانات القاديات ودفع فعليا مبلغ ٢٠ قرشاً^{٣٨} ، وهذا يعني أنه قد حصل منها على نسبة ١٠٠٠٪ وبالإضافة إلى المبلغ الذي يحصل عليه من الفنانات ، يحصل هذا الرجل أيضاً على "عمولته" من مالكة البنسيون ؛ ذلك لأنه أحضر العميل لها ، وليس لغيرها من المنافسات لها في عملها وهذا المبلغ تضيفه مالكة الفندق على زبائنها المقيمين عندها والتي لا تستج منهم أبداً لقاء غض الطرف عن كثير مما يحدث داخل الغرف المغلقة للفتيات . وكانت في نفس الوقت على يقين تام أن الفنانة لن تتقدم بشكوى ضدها بسبب سلوكها غير القانوني !

ما إن تبدأ الفنانة في "العمل" على خشبة المسرح ، حتى تظهر نفقات جديدة ، وغير محددة لم ترد في العقد : وبالتالي تضطر الفتاة أيضا إلى الإنفاق من جيبها الخاص على الكوافير وأدوات الزينة والجوارب والقفازات وسيارات الأجرة إلخ . وبعد مرور ٢-٣ أشهر يترسخ لدى الفتاة الفقيرة ، أنها لن تحصل على أي نقود في يديها وأنها ستكون مثقلة بديون باهظة لا يمكن سدادها للإدارة ومدير فرقته .

هنا تحين عند الفتاة اللحظة النفسية ، التي مهد لها تجار الرقيق ، وبنوا عليها حساباتهم. كان الهدف أن تصبح الفنانة محطمة والأترض أن تكون عاهرة أو أن تكون مثقلة بالديون وتضطر إلى مغادرة مصر محملة بالعار بالإضافة إلى احتمالات فرض عقوبات عليها وهذا ما سيضع نهاية حتمية لمشوارها الفني . لم يكن هناك حل ثالث حيث أن التوجه إلى القنصل لن يفضي إلى شيء فلدى قائد الفرقة العقد القانوني الذي تم إبرامه في "بودابست" ووفقاً لقانون الامتيازات لا تملك الشرطة الحق في خرقه بخلاف ذلك كان قادة فرق البالية يتمتعون بعلاقات جيدة مع صغار موظفي القنصليات عن طريق الخدمات اللطيفة من الجنس اللطيف !

٢٣٨ ١٠٠ قرش في الجنية المصري الواحد .

نتيجة لهذا الوضع البائس ، كانت حوالي ٩٥٪ من الفتيات اللاتي لم تمارسن تجارة الجسد من قبل يوافقن على كل شيء كي ينجون بأنفسهن من المصيبة المرتقبة . وهذا ماكانت ترغبه إدارة الكباريه ، و "قادة الباليه" الذين كانوا معها على وفاق كامل . وسرعان ما تظهر على الساحة بعد ذلك ، العادات المصرية التي تعطي الفنانة سهولة الانقياد الفرصة لتسوية ديونها وإطعام الطفيليات العالقه بها وأيضاً إعطائها مبلغاً من المال يساعدها في العودة إلى الوطن دون خسارة لنقودها ... وسمعتها الفنية .

هكذا تكون الأحلام " البودابستية " قد تحققت مع الفارق أن الفتاة تعود إلى وطنها ويجوزتها الأموال التي حصلت عليها من النشاط غير القانوني ، في البنسيونات والعرجسونيرات العثمانية بالإسكندرية ، وليس من العمل على خشبات المسارح الفضة .

وقبل الإصلاحات التي تم تنفيذها بفضل تقاريرى قبل الحرب الأخيرة ، كانت جميع الملاهي الليلية بالإسكندرية تعمل بدون أوقات محددة طوال الليل بدءاً من الساعة العاشرة مساءً وحتى الساعات المتأخرة من الصباح . وكان برنامجها ينتهي بحلول منتصف الليل ، ثم يتبعه السكر والفجور في المقصورات و الحدائق الشتوية والأركان المريحة والمنعزلة .

عالم الملاهي الليلية الذي سبر أغوار النفس البشرية جيداً ، وكذلك بعض الصفات السيئة للطبيعة البشرية ، محققاً بسببها ثراء كبيراً يستطيع أن يتوقع كل التفاصيل الصغيرة ، التي تمثل له فائدة بطريقة أو بأخرى . مثال لذلك أورد حقيقة قد تبدو للبعض تافهة ولا قيمة لها أنه في تلك الملاهي لا توجد أبدا ساعة حائط ! لماذا يتوجب تذكر الزبائن بأن الوقت قد تأخر في ، حين كانت الإدارة تحرص على إبقائهم في " الملهى " أكبر وقت ممكن .

لا يصعب التكهّن بأن مثل تلك الحياة قد أثرت على صحة ومستقبل فتيات الملاهي الليلية ، وبأي ثمن تحصلت تلك الفتيات على مائتين أو ثلاثمائة من الجنيهات أخذتها بعضهن معهن عند مغادرتهن البلاد . ناهيك عن الأمراض " الخاصة " التي تعاني منها حوالي ٤٠٪ منهن على الرغم من حداثة أعمارهن . كما أصيبوا أيضاً بأمراض الكلى والمعدة والكبد . بسبب السكر الإجبارى والدائم . بعد ٦-٧ سنوات من مثل تلك الحياة تتحول النساء الصغيرات الأصحاء والجميلات إلى نساء عجائز ، وبعد ١٠ أعوام يتحولن إلى بقايا إنسان ، كما انتشرت بينهن الأمراض النفسية والعصبية وحالات الانتحار . فضلاً عن تحول أغلب الفتيات إلى مدمنات للخمر .

تعد الشمبانيا أكثر المشروبات الكحولية ضرراً على صحة الانسان ، رغم كونها المشروب الأساسي والإجباري للعاملات في ذلك المجال . وكم من آلاف النساء كن فانتات في وقت ما الآن فيعانين في بيوت فقيرة من أمراض مختلفة؛ بسبب هذا المشروب الروحي ولا أحد يعلم عنهن شيئاً !

كنت شديد القسوة وعديم الرحمة مع ” قادة فرق الباليه ” المذكورين أعلاه من بين جميع الأوغاد المنتمين إلى عالم الملاهي الليلية ، وقاعات الموسيقى الذي أعلنت عليه حرباً لاهوادة فيها ، بعد تعييني في الشرطة . يقوم الوغد بعد أن يستبعد ستة من النساء الشابات الفانتات عن طريق عقد إحتيالي بناءً على إتفاقه مع إدارة الملهى ، بالحصول على مبلغ من ١٠٠-٣٠٠ جنيه شهرياً ، تدخل مباشرة إلى جيبه ؛ لأنه حسب العقد معه فإن إدارة الملهى الليلى ، ليس لها أي معاملات مالية مع ”فناناته” . ومن لحظة توقيع العقد يصبح هو الديكتاتور بلا منازع ، والحاكم المطلق على تلك الفتيات الفقيرات . لدى قدوم الفتيات للعمل يتم وضع من ٣ إلى ٤ فتيات في غرفة واحدة . ووفقاً للعرف ، فإن أكثر الفتيات جمالاً تصبح محظية له . وكان يطعمهن كفافاً بالمعنى الحرفي للكلمة معتقداً عن حق أن الفتاة التي تتناول طعام العشاء كل ليلة مع العملاء لن تذهب إلى النوم تلك الليلة وهي جائعة ! وكانت إعاشة ” الفرقة ” بالإضافة إلى الرواتب الهزيلة تكلفه مبلغاً ضئيلاً لا يتجاوز ٨-١٠ جنيهات شهرياً لكل واحدة . وهذا يعتبر مبلغاً زهيداً جداً . وكرئيس لفرقتة فقد كان هذا السيد يحكمها بنظام حديدي ويتحكم في الأموال غير الرسمية وله مطلق الحرية في التصرف في كل شيء . وكونه يتقن عدة لغات كان يجوب أرجاء المدينة أثناء عمل ” فتياته ” ويزور الاماكن العامة والترفيهية ويتعرف على الأغنياء المنغمسين في المذات ذلك فرصة لكي يختلط بطبقة الأغنياء وزملاءه من القوادين المحليين . كان يجد في ذلك فرصة للبحث عن عشاق جديرين بالفتيات وعملاء يدخل معهم في مفاوضات عمل ، ويحدد الأسعار وأماكن اللقاءات لتسليم الفتيات ، والحصول على المال .

أتذكر ذلك النوع الكلاسيكى لواحد من مصممي الرقصات وهو البلغارى “روكوف” ، الذي كان يحضر إلى الإسكندرية سنوياً ومعه دستة من البلغاريات الحسنات . وكان يختار لكل واحدة منهن يوماً عميلاً متيماً ويتقاضى أتباعه مقدماً ! وبعد عدة سنوات من العمل المثمر كون “روكوف” ثروة وعاش كأحد ملاك

الأراضي في بلدته حيث له زوجة وأولاد . ومن الطريف الإشارة إلى أنه لم يمارس الرقص أبدا وإنما كان يعمل حوزيا (عربجياً) .

وفقاً لقواعد الملاهي الليلية غير المكتوبة، كان لزاماً على العميل أن يتردد على الملهى، حيث تعمل الفتاة لعدة ليالي، بغرض الإنفاق كي يقضي ليلة مع إحدى الفنانات وهذا الضمان إنفاقه مبالغ طائلة من المال، وكان العرف يقضي بأن المرشح لا يجب أن ينشغل بالتفاهات المختلفة مثل الكوكتيل والويسكى بل على الأقل "يفتح" زجاجتين من الشمبانيا كل مساء . وعموماً، كان زائر الملهى الذي لا يشرب الشمبانيا في هذا العالم يعد "عميلاً غير جاد" ولم تكن الفنانات يضيعن وقتهن في صحبتهم خوفاً من العقاب القاسى .

هذه الأمور كانت تحدث عادة، داخل الملاهي وقاعات الموسيقى من الدرجة الثانية والثالثة. أما بخصوص ملاهي الدرجة الأولى، فكانت تتبع نظاماً مختلفاً إذ كان يتم دعوة إحدى الممثلات المميزات وبشكل استثنائي إلى تلك الأماكن وعادة ما تكون ذات مظهر جذاب وتجيد الرقص بشكل احترافي. هؤلاء السيدات كن لا يضيعن وقتهن على التفاهات، فبمجرد وصولهن إلى مصر، يصبحن محظيات لدى الأمراء والباشاوات والبكوات الذين هم زبائن دائمين، ويترددون على تلك الأماكن بصفة مستمرة .

كنوع من الإمتنان كان هؤلاء السادة مرغمين من الناحية الأخلاقية، على زيارة تلك الأماكن التي تعرفوا من خلالها على صديقاتهن المؤقتات، وإنفاق مبالغ طائلة من المال وفي أحيان كثيرة كانوا يقدمون للإدارة مبلغاً من المال على سبيل التعويض والذي بمقتضاه يحق للفتاة عدم الالتزام بالعمل داخل المكان، على الرغم من أن الإدارة كانت تلتزم من جانبها بالحفاظ على المبررات القانونية لتواجد هؤلاء الفنانات بمصر وتقدم للشرطة العقد الخاص بهذه السيدة والقابل للتجديد كل شهر، والذي بمقتضاه، في حالة عدم التجديد لا تستطيع البقاء داخل مصر .

من الجدير بالذكر، أن مصر بخلاف البلدان الأوروبية لا تنتشر فيها المسارح والأوبرا أو الباليه^{٣٩} لذا كان السهر طوال الليل في الملاهي وقاعات الموسيقى بصحبة الفنانات

٢٣٩ غير صحيح، فقد أسست الأوبرا في مصر عام ١٨٦٩ عند افتتاح قناة السويس، وفي بداية القرن العشرين تأسست نفس الأوبرا في الإسكندرية . والحقيقة أن هذا الفن كان جديداً على المصريين وكانت أعداد قليلة جداً تذهب لمشاهدة مثل هذه العروض (ولا يزال حتى الآن) - الكاتب .

حتى لأولئك الذين يشغلون أعلى مناصب في الدولة ، وصولاً إلى الملك نفسه لا يعد سلوكاً مستهجناً .

من المشاهد الطريفة التي يمكن أن تراها داخل اثنين أو ثلاثة من الملاهي الليلية في مصر ، هو عندما تصل إحدى الوافدات الجدد ” النجوم “ من أوروبا لأول مرة حيث يتحول الملهى في ذلك اليوم إلى ما يشبه معرضاً للجمال الأنثوى مكاناً لعرض البضائع الحية ويكتظ المكان بحشود من البشر ” المشتريين “ من ممثلي الطبقة الأرستقراطية المصرية وأصحاب المال خاصة الذين وصلوا من قصورهم الفخمة ، ومن محال إقامتهم في البلاد الأخرى .

وكانت تلك الشخصيات المرموقة المعنية بهذا الأمر تشكل تأثيراً قوياً وخفياً ، جعل رواد هذه الصناعة يتمتعون بالحصانة لسنوات طويلة ، على الرغم من كل الجهود المبذولة من الشرطة .

قراءة هذه السطور بالنسبة لأي ، شخص لديه قليل من الوعي والدراية بهذه المسألة يستدعي طرح سؤال : لماذا تقف قنصليات البلاد الأوروبية مكتوفة الأيدي أمام ما يحدث لرعاياها من عمليات بيع وشراء داخل مصر ، وماذا كان يفعل البوليس المصري؟ فيما يتعلق بالقنصلية فقد تحدثنا بشكل كاف، فيما سبق أعلاه كيف تجرى الأمور داخل القنصليات . أما بخصوص الشرطة ، فإنها من رأسها إلى أخمص قدميها مكبلتة بالقوانين واللوائح التي لا يمكنها خرقها ودائماً ما تكبل تلك القوانين مبادراتها . لكن العائق الأساسي الذي يقف حائلاً ضد مكافحة تجارة الرقيق التي تقدم وصفها هو أن الفنانة التي تعمل داخل الملهى لا توافق على تقديم أي بلاغ ضد إدارة المكان تحت أي ظرف من الظروف ، أو تدلي بشهادتها في قضية إدانة ضد مستغليها ، وهو الأمر الضروري جداً لقيام الشرطة بواجبها وإقامة الدعوى القضائية .

جميع مديري وموظفي المراقص والملاهي الليلية ، عبارة عن فريق مترابط يعمل لأجل المصلحة العامة ولذلك نجدهم كلهم يصبحون جبهة واحدة ضد أية فتاة ، تعلن تمرداً ونراها لا يجدون عقدها . وعندما تحاول الفتاة البحث عن عمل في أماكن أخرى تذهب كل محاولاتها أدراج الرياح ! ويتم إلغاء ارتباطاتها داخل مصر وتصبح بلا عمل ونتيجة لذلك تنتهي إقامتها على الأراضي المصرية وطبقاً للقانون يتوجب عليها في تلك الحالة مغادرة البلاد . يصل صدى هذه الأخبار إلى الرعاة الآخرين في ”بودابست وبوخارست“

عن طريق أصحاب الملاهي في مصر. ويترتب على ذلك عدم إشراكها في أي أعمال هناك ،
وفعلياً يسدل الستار على مشوارها الفني على خشبة المسرح .

لكن دعونا نفترض أن الممثلة المتضررة نجحت في عرض شكواها على القنصل
أو السلطات المعنية ، وفحوى هذا التظلم أنها حرمت من رزقها ؛ لأنها رفضت العمل ك
”نادلة“ تجبر الزائرين على الإنفاق داخل الملهى- أي البغاء . لكن كيف ستثبت ذلك ؟
إذا كانت الإدارة - إذا لزم الأمر- ستوفر شهود عيان سيشهدون تحت القسم بالأيمان المغلظة
بالعكس تماماً . ليس هذا فقط ، بل سيكيلون لها التهم ، ويلصقون بها جميع الجرائم
وإذا لوحث إلى الشروط التعجيزية المنصوص عليها داخل العقد عندئذ سيجيبونها، بأنها
كاملة الأهلية ويجب عليها أن تكون على دراية بما وقعت عليه بيديها ، ويجب عليها
تنفيذ بنود العقد .

كان هذا هو أسلوب الضغط الإقتصادي على الضحية ، وبالإضافة إليه كان هناك
أسلوب العقاب البدني أو الإرهاب ، الذي يطبقه رعاة أعضاء فرق الباليه ”الرومانية أو
الهنجارية“ ضد أعضاءه. وقد استطاع هؤلاء كونهم قوادين ذوى خبرة الاحتفاظ بالسيدات
التابعين لهم عن طريق الإيذاء الجسدي مما يجعل السيدات التعيسات تفضل الموت عن
اللجوء إلى تقديم شكوى ضدهم .

لكن كانت هناك بعض الشكاوى تقدم بها أناس غرباء أو جيران رحماء ، تفيد
أن رئيس فرقة الباليه يضرب فتياتهن إلى تلك الدرجة التي تجعل صياحهم اليائس يمنع النوم
والهداىء عن المحيطين بهم وتظهر على أجساد السيدات في كثير من الأحيان الكدمات
والسحجات . ولكن أمام هذه الأدلة الدماغية ينكران وينفين بشدة . ! كان تاجر الرقيق
قد أقنعهم مرة واحدة ، وللأبد أنه في حالة تقديم شكوى ضده فإنه عاجلاً أو آجلاً سيقوم
بنفسه أو عن طريق زملائه بالإنتقام منهم انتقاماً رهيباً الأمر الذي خلق لدينهن قناعة
لتصديقه . ! تدريب مثل هؤلاء المخلوقات البائسات وصل إلى الحد الذي أصبح يشبهن فيه
الكلاب التي تفهم إيماءات ونظرات مربيتها .

كان الشرط الأول لمكافحة هذا الشر المشار إليه ، يتمثل في محاولة إقناع الفنانات
أن السلطات تقف في جانبهن وتريد تحريرهن من استغلال قائد الفرقة وإدارة الملهى كما
أنها ستوفر لهم لقمة عيش شريفة ومستقلة تكفيهن كى لا يعاودن إستئناف الدعارة

مجدا . وقد وقت في هذا الأمر منذ اللحظة التي استشعرت فيها الفتيات الفقيرات بالأمان وأنهن أصبحن في مأمن من الاستغلال الجسدى والمادى وأصبحن من أكثر المعاونات لى صديقات مخلصات في مكافحة جريمة الاتجار بالبشر .

كان لا يكاد يمر أسبوع واحد إلا باستدعاء أحد قادة فرق الباليه أو مدير الملهى إلى مقر الشرطة ومواجهتهم بملفاتهم التي تمتلىء بالعديد من الشهادات والتوقيعات ثم بعد ذلك يتم ترحيلهم فوراً من الإسكندرية أما في حالة ما إذا كان من السكان المحليين كان يحرم من حق العمل في الملهى . بهذا تم التخلص من "قادة الباليه" بطردهم الواحد تلو الآخر من البلاد ، وتم حل فرقهم ، أما بخصوص الفنانات داخل الفرقة فقد وقعن عقود فردية مع الإدارة الجديدة وكنت مشاركاً في هذا الأمر . في البداية حاولت إدارة الملهى رفض التوقيع على عقود منفصلة مع عضوات الفرق المنحلة آنذاك رفضت السلطات إعطاهم تأشيرات للفنانين الجدد ولكن في النهاية كان عليهم الاستسلام وقبول الأمر الواقع ، كى لا يتخلوا عن البرنامج الذي كان في الأصل غطاءً لأنشطتهم الخفية !

كان من أهم التدابير التي إتخذت ضد ممارسة البغاء داخل قاعات الموسيقى ، تطبيق لائحة شاركت في صياغتها تقضى بأن الفنانات الأجنبيات ، لسن مجبرات على التواجد بصفة منتظمة ، في الملاهي الليلية التي وقعوا معها العقود وألا يقمن في مصر أكثر من ٨ أشهر . وقد قابل العالم المظلم هذا الإجراء بسلاح جديد متمثل في الزواج الوهمى حيث تتزوج الممثلة الأجنبية من أحد الرجال المصريين ، وهذا يعطيها الجنسية المصرية . وبالتالي يكون لها حق المواطنة والذي بمقتضاه لا يمكن ترحيلها إلى الخارج . ما سهل هذه العملية أن الإجراءات الشكلية لإتمام الزواج الإسلامى وكذلك إجراءات الطلاق تعتبر سهلة للغاية فخلال ثلاثة أيام يمكن للزوجة أن تطلق زوجها ، وفي نفس الوقت تحفظ بالجنسية المصرية . بفضل تلك الأوضاع تفشى الزواج والطلاق الوهميان في مصر ، حتى وصل الأمر إلى أن كل فنانة داخل الملهى كان لديها عميل جيد ، أو كانت بصحبة أحد الأغنياء كانت لا بد أن " تتزوج " بعد إنتهاء العقد .

كما هو معرف ، فالطلب على البضاعة يخلق العرض . كان في الإسكندرية فئة عريضة من الناس المستعدة لتقديم خدماتها لقاء الحصول على مبلغ زهيد من المال كزوج قانونى مؤقت . كان هؤلاء من سائقي التاكسي ، ومصففي الشعر ، والمكوجية ، والخدم

من الرجال وبعد عقد هذا الزواج الوهمي كانت الفتاة تسير وعشيقها على اليمين وزوجها على اليسار، ويحصل الأخير على الأجر المتفق عليه، ويتم الطلاق بأقصى السرعة وبهذا الشكل تصبح كل الأطراف راضية عما حدث سوى، شرطة الآداب التي كانوا يحتالون عليها ويستغفلونها!

بحلول عام ١٩٣٨، نجحنا في تطبيق جميع الإصلاحات التي قمت بصياغتها على أرض الواقع، والتي بفضلها تم منع الاتجار بالبشر نهائياً داخل الملاهي الليلية وقاعات الموسيقى. وبعد ذلك تناقص عدد تلك المؤسسات التي كانت تدر أرباحاً هائلة على مالكيها.

والآن يتم السماح بالقدوم إلى مصر من الفنانات الأجنبية فقط لمن لهن أسماء شهيرة ويتقاضين رواتب كبيرة، ومدة لاتزيد على ثلاثة أشهر. كما أن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة قد ساعدتهن في التخلص من خطر التعرض للاستغلال من قبل أي شخص. كما أن العمل كـ "نادلة" تجبر العميل على استهلاك أكبر قدر من المشروبات أصبح ممنوعاً وأصبح للفتاة الحق في عدم البقاء داخل الصالة بعد إنتهاء فقرتها على خشبة المسرح، وتم حظر قادة فرق الباليه ذوي السمعة السيئة من الدخول إلى البلاد. وأصبحت العقود تبرم بشكل فردي وليس جماعياً. يجدر القول أنه بعد الثورة المصرية، اختفت من البلاد حياة المذات التي كانت تغذى صناعة الملاهي الليلية، حيث أن القضاء على طبقة الأمراء والباشوات والبكوات التي كانت كل أغراضها إنفاق المال الذي لم يكدهوا في جمعه، حرمت الملاهي الليلية من زبائنها الدائمين.

الحمام الزاجل

بدأ البلاشفة نشاطهم في مصر منذ عام ١٩٢٢. ونظراً لأن الحكومة المصرية لم تعترف بالسلطة السوفيتية في "روسيا" لفترة طويلة، فقد اقتصر نشاط البلاشفة في مصر على إرسال عملاء سربيين من "موسكو" وتنظيم الخلايا الشيوعية في "القاهرة والإسكندرية"، ولكن ذلك الأمر كانت تكتنفه الصعوبة؛ لبعد المسافة وندرة المراسلات وقد أعاق نجاح الدعاية السوفيتية الظروف المحلية البحتة، والتي تمثلت في عدم وجود شيوعيين مصريين في مصرفي ذلك الوقت^{٢٤٠}. وكان العملاء الأجانب وخاصة

٢٤٠ تم تشكيل «الحزب الشيوعي المصري» في صيف ١٩٢٢، وتم الإعتراف «بالمكتورن» في نفس العام. وفي ربيع ١٩٢٤ تم إعتقال قادة الحزب، بعد ذلك تم تفعيل أنشطة الحزب سراً.

الأوروبيين بالنسبة لموسكو بلا فائدة ؛ لأنهم يستطيعون العمل فقط داخل نطاق الأحياء الأوروبية فقط وداخل نطاق أثنتان أو ثلاثة من المدن المصرية . كما أنهم لن يتمكنوا من اختراق طبقة العمال والفلاحين في مصر .

بالنظر للعلاقات المتبادلة السائدة في مصر، فإن الأوروبيين والعرب كانا يمثلان هنا مجموعتين مختلفتين اختلافاً تاماً وإن لم يكونا أعداء، فقد كانا يتعاملان مع بعضهما البعض بريبة كبيرة ! ولذلك كان من المستحيل تواجد المحرضين الأوروبيين بشكل مطلق في الأحياء الشعبية للمدينة، فضلاً عن المحافظات، حيث كانوا يعيشون هناك كاستثناء وأي ظهور لأجنبي جديد يكون معلوماً على الفور للسلطات .

وبعد أن اقتنعت موسكو بهذا الأمر ، وضعت نصب عينها في عام ١٩٢٥ هدف تمكين بعثتها دخول مصر بأي ذريعة . كى تبدأ بالعمل الدعائي بين السكان المحليين الذين يمكن شراؤهم . وقد ساعد القطن المصري موسكو في هذا الشأن .

كان هذا المنتج في بلاد الفراعنة ، في العشرينات الألف والياء (أي كل شيء) للتجارة والوجود المصري ، وفي عام ١٩٢٦ نشأت في السوق أزمة القطن ؛ بسبب مضاعفة زراعة القطن في السودان البريطانية مما أدى إلى انخفاض أسعاره بطريقة حادة . ورغبت الحكومة المصرية تقديم يد المساعدة للفلاحين المهديين بالإفلاس ، فقامت الحكومة المصرية بشراء محصول عامين كاملين وتخزينهما في المخازن على أمل بيعه عندما تعاود الأسعار ارتفاعها . غير أن الأمور لم تسر بشكل جيد ، ولم يحدث ما كانت تتوقعه الحكومة المصرية ، وأصبح القطن الذي تم شراؤه عبئاً ثقيلاً على السوق المحلي والموازنة العامة للدولة .

في تلك اللحظة الحرجة التي تمر بها البلاد ظهرت ” موسكو “ في المشهد ، لتعرض على الحكومة المصرية شراء كل ما لديها من قطن بشرط إجبارى وهو قبول ” البعثة “ السوفيتية والسماح لها بالدخول إلى مصر ، تحت غطاء خبراء في القطن . وقد شنت الحملة المناسبة في الصحافة المحلية بأموال سوفيتية وظهرت عدة مقالات تتحدث عن إعتزام ” موسكو “ شراء كميات فلكية من القطن ، ولكن إنجلترا تقف حجر عثرة في طريق إزدهار الاقتصاد المصري ، ذلك أن عدم بيع القطن المصري كان يصب في مصلحة بريطانيا . كان أعضاء البرلمان المصري وكافة الشخصيات المصرية التي في السلطة من مزارعي القطن ، وكادت أن تطير عقولهم فور سماعهم الوعد الروسي ، وطلبوا الحكومة

بشكل قاطع قبول الشروط السوفيتية . لم يملك مجلس الوزراء برئاسة المحامي الثرثار غير الموهوب " النحاس باشا " ^{٢٤} سوى الرضوخ لرغبة الأعضاء والسماح " موسكو " بإرسال " بعثتها " إلى الإسكندرية .

وصلت البعثة التي كانت تضم ٦ أعضاء برئاسة " الكسى فاسيليف " وكان رجالاً طاعناً في السن لديه خبرة حزبية كبيرة وكان لاجئاً قبل الثورة حيث عاش على الأراضي السويسرية حتى قبل الثورة، والتقى " بلينين " نفسه كما أنه شغل داخل التسلسل الهرمي للحزب مكانة رفيعة وكرجل حزبي حقيقى كانوا ينقلونه من منصب إلى آخر تدريجياً . ووفقاً لمبدأ " لينين " العظيم : " إن أي طاهية يمكن أن تحكم البلاد " فقد شغل " فاسيليف " كثير من المناصب الدبلوماسية كمدير للعديد من المؤسسات وكثير من المناصب الأخرى . في عام ١٩٢٩ في مدينة " الإسكندرية " وفي إطار زيادة عدد البعثة السوفيتية ، والتي إتخذت غطاء تحت مسمى " لجنة إستيراد الغزل والنسيج " وصل " جوجورودلف " المواطن السوفيتي بجواز سفر لاتفي " كخبير " في القطن ، وفي أبريل من نفس العام تسلم رئيس مجلس الوزراء تقرير من شخص إيطالي خبير في القطن ويعمل في لجنة " إستيراد الغزل والنسيج " منذ نشأتها يحتوي على الآتي : " حيث أننى أملك خبرة تمتد لثلاثين عاما فقد تمت دعوتى من قبل الوفد الروسي كخبير . وقد قاموا بتقدير خبرتى وعلمى أيما تقدير . وهكذا إستمر الحال حتى وصول المدعو " جوجورودلف " والذي لا يتقن أي لغة أخرى سوى اللغة الروسية . وقد تم تعيين هذا السيد بناءً على أوامر من " موسكو " في وظيفتى ، وأصبحت أنا مساعده . وإتضح أن " رودلف " ليس لديه أدنى فكرة عن القطن ، كما إنه لا يعمل به وليس لديه أي اهتمام بهذا الأمر على الإطلاق لكنه أرسل إلى الإسكندرية ليقوم بدور العميل السياسي . وأود أن أبلغ الحكومة أن باقى أعضاء البعثة التي يترأسها " فاسيليف " لا يعملون بالقطن، وليس لديهم أي اهتمام به سواء من قريب أو بعيد ، وأوكل لى هذا الأمر برتمته . وإن " فاسيليف " مدير المكتب المحلى ليست لديه دراية مطلقاً عن العمل في مجال القطن أو أي عمل تجارى آخر ولكنه مشغول فقط باستقبال الزوار ويجرى معهم المفاوضات السرية ويعطيهم مبالغ طائلة ، وقد رأيت ذلك بعينى هذه الأموال بالتأكيد ليست لها أي علاقة بعمليات " إستيراد الغزل والنسيج " وفي رأي المتواضع أنهى الخبير الإيطالي

٢٤١ «مصطفى النحاس» (١٨٧٩-١٩٦٥) ، والذي ترأس الحزب البرجوازي «الوفد» ، وذلك بعد وفاة مؤسس الحزب «سعد زغلول» في سبتمبر/ أيلول ١٩٢٧ . وفي مارس/ آذار ١٩٢٨ أصبح أول رئيس للحكومة المصرية .

خطابه - كل هؤلاء السادة لم يكونوا أكفاء لهذا المهمة بالمرّة ، والتي أرسلوا بصددنا إلى هنا ولكونهم شيوعيين فقد جاءوا إلى مصر فقط ، بغرض الدعاية للشيوعية . وحيث أنني على يقين من هذا الأمر ، ونظراً لأنى مواطن صالح فإنني اليوم أترك العمل في مكتب "استيراد الغزل والنسيج" ، وذلك بعد أن أبلغت الحكومة بكل ما لدي من معلومات .

هذه الشهادة التي أدلى بها الخبير الإيطالي قد تكون مثيرة للاهتمام ، ولكنها لم تكن كافية لاتخاذ إجراءات حاسمة ضد "فاسيليف" ، وجماعة "استيراد الغزل والنسيج" ذلك لأن إعتقالهم ومن ثم طردهم من "الإسكندرية" قد يثير عاصفة من الاحتجاجات من جانب مزارعو القطن الذين يرغبون في التخلص من محصول القطن مهما كان الأمر ! وبناءً على ذلك تم وضع جميع موظفي " الغزل والنسيج " تحت المراقبة الدقيقة من قبل البوليس السياسي ، وكان ينتظر أدلة دامغة حول النشاط السياسي لـ "فاسيليف" ورفاقه ولم يدم هذا الانتظار طويلاً كما يحدث دوماً في القضايا المعقدة جداً .

في مدينة "الإسكندرية" وتحديدأ في وسط المدينة ، كان يوجد أحد أقسام الشرطة في حي " اللبان " . هذا القسم عبارة عن مبنى ضخم مكون من ثلاثة طوابق وشغلت الطوابق السفلى المؤسسات الشرطة ، بينما كان الطابق الأعلى عبارة عن مدرسة ، ونزل للكونستبلات الأوروبيين .

ذات صباح بينما كان الخادم يقوم بتنظيف الشرفة الواسعة للمنزل عثر فيها على حمامة ميتة ، وما إن رفع الجثة حتى عثرت تحت جناحها على أنبوب من مادة السيلولويد وبداخله ورقة صغيرة . وقد تم تقديم هذه الورقة مع تقرير رسمي إلى القسم السياسي للمحافظ .

كانت الورقة عليها الشمع الأحمر ومكتوب بداخلها أسطر وكانت الكتابة عبارة عن علامات غريبة مربعة ، تذكرنا بالحروف العبرية القديمة ، ولكن بعد عرضها على المترجم وفحصها أكد على أن الكتابة ليست باللغة العبرية ولم يتمكن جميع الخبراء اللغويين المحليين من تحديد اللغة المكتوبة .

عكفت السلطات أيام عديدة لحل هذا اللغز حيث أنني لم أتمكن أنا شخصياً من الوصول إلى مفتاح لحل هذا اللغز ، ولكني تذكرت فجأة أن أبى أثناء طفولتي كان قد أهداني كتاباً فريداً ومميزاً وداخله طبعت عبارة بكل لغات العالم ، وتحديدأ ٥٦٧ لغة ، وهى عبارة من الكتاب المقدس : "هكذا أحب الله العالم حتى أرسل إليه ابنه الوحيد" . تذكرت أن هذا الكتيب أصدرته جمعية الكتاب المقدس الدولية

والمنتشرة في بلدان العالم ، والتي لديها فرع في مدينة الإسكندرية . وبالفعل تم العثور لديهم على هذا الكتيب ، واستطاعت السلطات تحديد اللغة المكتوب بها الخطاب بكل سهولة وكان الخطاب مكتوباً باللغة المنغولية وتحديداً بلهجة ” الكوبو“ . وقد تم إرسالها إلى المتحف البريطاني في لندن لترجمته ، حيث تم فك الشفرة وتبين أنها إحدى المهام السياسية ، والتي قد أرسلت إلى ” فاسيليف “ من على متن إحدى السفن السوفيتية بواسطة الحمام الزاجل . ولكن الحماسة قد توفيت كما يحدث عادة إثر أزمة قلبية ولم تجتاز غير حى واحد من مجمل المسافة المقررة لها .

وهكذا لم يعد لدى السلطات أي شك في أن ” فاسيليف “ ، القنصل السوفيتي السابق ، الذي عمل لعدة سنوات في غرب ” منغوليا “ ويتقن اللغة المنغولية ولم يخف هو ذلك ، ليست لديه في مصر مهمة تجارية وإنما سياسية . وفي غضون عدة أيام إكتشفت الشرطة أسرار أخرى عن أنشطة مكتب ” الغزل والنسيج “ التي أرغمت أخيراً الحكومة المصرية اتخاذ إجراءات حاسمة فيما يتعلق بالبعثة السوفيتية ، علاوة على ذلك ألغت موسكو عملية شراء القطن في ذلك الوقت ^{٢٤٢} .

اعتقال البعثة السوفيتية التي لم تكن تملك أي امتيازات دبلوماسية ، وبالتالي لم تكن تتمتع بأي حصانة دبلوماسية ، تم بشكل غير متوقع بالنسبة لها . الأمر الذي أدى إلى أن السلطات إنتزعت من أعضاء البعثة وثائق هامة للغاية والتي على سبيل المثال قد تبين منها أن ” فاسيليف “ نفسه ، و ” جوجورودولف بينيس “ ، كانا موظفين في القسم الخارجى للإدارة السياسية الحكومية ، بالإضافة إلى أن الأخير هو شقيق ” إدوارد بينيس “ ممثل الدائرة الخارجية للإدارة السياسية الحكومية في الشرق الأوسط ومقره القسطنطينية .

جاء في التعليمات التي وجدت عنده وتم فك شفرتها : ” أن دورهم لا بد أن يكون مقنعاً بأهداف تجارية ولا بد لهم عن طريق الرشوة شراء عملاء لهم من أعضاء البرلمان المصري والقادة السياسيين عن طريق ” أنطون عزيز “ أحد المحامين عضو حزب ” الوفد “ وعضو آخر داخل البرلمان (متوفي حالياً) ، كان قد حصل من ” موسكو “ على مبالغ بشكل منتظم، ليكون محاميه ونصيرها داخل البرلمان ، حيث قاد حملة قوية لصالح اعتراف مصر

٢٤٢ قام الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٢٨ بشراء ٤٧٩ قنطار من القطن المصري ، حيث إحتلت (المركز الرابع بعد كل من بريطانيا ، فرنسا ، الولايات المتحدة) وفي عام ١٩٢٩ - ٤٣٦ قنطار وإحتل المركز (السادس) - أنظر أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية ملف ٥ ، حافظة ١٠ ، ٦٥ ، وثيقة ٩٠ ، سطر ٨ .

بالحكومة السوفيتية . وتضمنت الوثائق معلومات عن شراء وزراء وموظفين كبار في الحكومة المصرية والذين وعدوا بالحصول على عمولات عند شراء "موسكو" للقطن ! وتضمنت الوثائق التي تمت مصادرتها ، أيضا معلومات عن تخصيص مبلغ يقدر بـ ٥٠٠٠٠ جنيه ، تم تحويله لحساب السفير السوفيتي في "تركيا" بهدف شن حملة في الصحف العربية والمجتمع تهدف إلى إقرار مصر باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية.

أيام عصبية رومل على أعتاب الإسكندرية

وصل في الرابع والعشرين من أكتوبر ١٩٥٤ المارشال "مونتجمري" خصيصا إلى مصر لإفتتاح النصب التذكارى للأبطال الذين قتلوا في الحرب . وقد كان ذلك في حضور ممثلو دول الحلفاء وممثلو الوحدات التي شاركت في المعركة قبالة الإسكندرية .

كما هو معروف أن هذا المعركة المشهودة ، تعد نقطة تحول في تاريخ الحرب حيث بدأ "الفيلق الأفريقي" بقيادة "رومل" الانسحاب في إثرها وانتهت بانتصار الحلفاء .

شاعت الأقدار أن أكون شاهداً على هذه الأيام المأساوية التي جرت في "الإسكندرية" حيث لم يتقرر مصير الإسكندرية ومصر فقط ، بل مصير الحرب كلها .. كنت في تلك الفترة أشغل منصب ضابط اتصال بين قيادة الحلفاء والحكومة المصرية مما سمح لي بمعرفة بعض الحقائق التي لم يتسن للعامة من الناس معرفة أي شيء عنها حتى الآن وبعد مرور كل هذه السنوات أستطيع حالياً أن أخبر القراء عنها .

بالإضافة إلى مهام الاتصال سألقة الذكر ، كنت ضمن مجموعة من ضباط "الإسكندرية" المكلفون بحراسة أماكن الترفيه بالمدينة ، مما جعلني على اتصال دائم مع الشرطة العسكرية البريطانية ، والتي بعونها ومساعدتها استطعت أن أحافظ في هذه الملهة على النظام واللياقة .

كانت الأيام الثلاثة الأولى من شهريونيو ١٩٤٢ أصعب أيام شهدتها مدينة الإسكندرية من الناحية العسكرية ، حيث تراجع القوات البريطانية أمام قوات المدرعات الألمانية . وفي مساء ٣٠ يونيو بدأ الوضع ميؤساً منه^{٢٤٢} ، ففي تلك الليلة ملأت قعقعة الأسلحة المكتومة وأصوات الأسلحة الثقيلة الأجواء وكسرت هدوء الليالي المصرية بحيث

٢٤٣ مساء ٣٠ يونيو/ حزيران ١٩٤٢ أصدر «رومل» تعليماته بالهجوم القاسم ، أملاً بذلك كسر خطوط دفاع الحلفاء بالقرب من «العلمين» ، وعلى بعد ١٠٠ كيلومتر وإلى الغرب من «الإسكندرية» إستمرت المعارك ٣ أيام ، وتوقف زحف الحلفاء . لمزيد من التفاصيل أنظر : «شمور- ستيفان» «العلمين» ١٩٤٢ «موسكو» ٢٠٠٣ . ص ٩٤-٩٨ .

بات من الممكن أن تسمع بوضوح أصوات طلقات الأسلحة المختلفة . وفي الأول من يوليو أصبح معروفاً أن العدو قد احتل " برج العرب " ، ووصل جنود الاستطلاع التابعين " لرومل " على الموتسيكلات بالفعل إلى " كينج ماريوت " ، التي تبعد عن الإسكندرية مسافة ٢٠ كيلومتراً .



صورة للصفحة الأولى من جريدة «روسكيا ميسل»

عدد ٧٦٣ ، ١٨ مايو ١٩٥٥

في نفس اليوم دخل الأسطول البريطاني ، الذي كان قابلاً عند الميناء إلى البحر وأخذ معه رصيفاً عائماً وكافة الأجهزة التي تعطي إشارات التحذير عند ظهور الطائرات الألمانية؛ لتحذير السكان قبل الغارات. بحلول مساء ذلك اليوم تم إجلاء قوات الحلفاء المتمركزة في الإسكندرية، وضواحيها، علاوة على ذلك خرج الجنود البريطانيون في محطات القطارات عن طاعة الضباط وأخرجوا المدنيين من عربات القطار وكذلك أصحاب الرتب من الحلفاء، الذين لا يستحقون شرف الانتماء إلى الأمة الإنجليزية.

تم الإجلاء على عجل ، لدرجة أن

الوحدات طرحت خيامها وثكناتها

بشكل عشوائي . وقام البدو المجاورين لها بنهبها على الفور . قام الإنجليز قبل مغادرتهم بتلغيم ميناء " الإسكندرية " وجميع الجسور التي تمر عبر الترععة^{٢٤٤} التي تربط الإسكندرية بالقاهرة وقد خلفوا وراءهم مجموعة صغيرة من خبراء المتفجرات كي تقوم بتفجير الألغام حال ظهور العدو .

٢٤٤ برج العرب تقع على بعد ٤٠ كيلومتر إلى الغرب من «الإسكندرية» - وقد أشيعت أخبار عن وقوعها في قبضة النازيين وفقاً لمعلومات مضللة ، الهدف منها تقويض الروح المعنوية للحلفاء .

٢٤٥ ترعة «المحمودية» تربط بين «الإسكندرية» والفرع الغربي لنهر النيل .

على مدار اليوم الأول من يوليو وصباح اليوم التالي ، اجتاحت المدينة شاحنات كبيرة وصغيرة وسيارات خاصة محملة بعائلات البريطانيين والأوروبيين الذين تم إجلائهم . وفي نفس الوقت بدأ نزوح جماعي لليهود عبر الطريق إلى قناة السويس . وقد عرضت السلطات الإنجليزية علي شخصياً المغادرة ولكنى رفضت ذلك بشكل قاطع ؛ فقد كنت لازلت أتذكر الإجلاء البريطانى من مدينة " نوفوروسيسك " والإقامة الشاقة داخل معسكر اللاجئين في " التل الكبير " وسط الصحراء المصرية " ضيفاً على الملك الإنجليزي " ٢٤٦ وإلى جانب هذا ، فأنا لا أستطيع أن أقذف بالأسرة لمصير مجهول . وأعتقد أن كوني في خدمة دولة محايدة وكونى روسياً أبيض يجعلنى لم أخطر بشيء ذي أهمية إذا احتل الألمان مصر .

رئيس الحكومة المصرية سيء السمعة " النحاس باشا " ، أثناء مكالمته مع محافظ الإسكندرية في صباح الأول من يوليو ، ما إن سمع أصوات مدافع رومل بشكل مفاجئ ، حتى خاف لدرجة أنه قطع الحديث عند هذا الحد ، وأمر المحافظ بدلا من التعليمات التي أبلغه بها أن يتصرف " حسب الظروف " .

منذ تلك اللحظة إنقطعت الاتصالات بين " القاهرة والإسكندرية " ، ودعا المحافظ إلى عقد إجتماع طارئ لبحث التدابير اللازم اتخاذها في حالة احتلال المدينة من قبل القوات الألمانية . وبالفعل تم عقد الإجتماع خارج المدينة داخل إحدى مقصورات الشاطئ ٢٤٧ حتى لا يثير أمر الإجتماع الطارئ الذعر في نفوس السكان ، وكى لا يلفت إنتباه العملاء الألمان . حضر الإجتماع بخلاف المحافظ مدير بلدية " الإسكندرية " ، وقائد الشرطة ، وقائد الحامية العسكرية المصرية الجنرال " محمد زكى باشا " . وهنا يجدر الإشارة إلى موقف الأخير ، الذي صرح وبشكل قاطع أنه على الرغم من رحيل الإنجليز فإنه يرى أن من واجبه حماية المدينة حتى آخر جندي ، مع الأخذ في الاعتبار أن أعداد الجنود التي تحت قيادته تقدر بمئات الجنود والتي كانت عبارة عن جزء من فرقة المدفعية المضادة للطائرات .

٢٤٦ عن إجلاء المهجرين من «نوفوروسيسك» و «المعسكر الروسى» في «التل الكبير» أنظر : «فلاديمير بيلياكوف» «عند شاطئ النيل المقدس...» الروس في مصر . موسكو ٢٠٠٣ ، ص ١٣٦-١٥٢ ، «بيليبين» في مصر ١٩٢٠-١٩٢٥ . الرسائل والوثائق والمواد موسكو ٢٠٠٨ . ص ٢٦٧-٢٧٠ «فلاديمير بيلياكوف» . في ضيافة الملك الإنجليزي مذكرات الجنرال «ريريبرجا» عن إجلاء المهجرين في مصر // الأرشيف المصري ، ٢٠٠٩ العدد ٢ (٢٠) ص ٧٩-٨٤ .

٢٤٧ شواطئ " الإسكندرية " مجهزة بكبائن وغرف صغيرة للعائلات . حيث يمكن تبديل الملابس ، وأيضاً للإستحمام .

كالعادة بحلول العاشرة مساءً ، خرجت برفقة ثلاثة كونستبلات ، لتفقد المدينة التي غمرها الظلام الدامس . مدينة ” الإسكندرية “ ، التي لاتوجد بها نافذة واحدة مضيئة أصبح لها أصبح شكلاً مربعاً كمدينة مهجورة . كانت الطرقات يسودها هدوء قاتل يقطعه بين الحين والآخر ، وقع خطوات أقدام المارة في وقت متأخر من الليل ، وفي ضوء كشاف يدوي يظهر من العتمة رجل يسرع لمكان ما وفي يده حقيبة .

من وقت لآخر كنا نقطع عتمة الليل بمصباح ذى ضوء خافت . ووصلنا أخيراً إلى باب أول ملهى ليلي . في القاعة الكبيرة ، التي اكتظت بحشد هائل من الجنود ساد الظلام . وفي الركن المظلم بجوار الأوركسترا ، وقف حشد من الموسيقيين والفنانات الخائفات الشاحبات واللاتي يصدر عنهن نشيج مسموع . هؤلاء الفتيات الشاحبات المرتجفات اللاتي يرتدين كالمعتاد فساتين السهرة ، أحطن بى وبدأن يتوسلن إلى كى أسمح لهن بالعودة إلى منازلهن ، حيث أن الجمهور قد إنصرف ولم يبق منه أحد ! لكنى لم أستطع أن أسمح لهن بذلك حيث صدرت الأوامر بالحرص على عدم نشر الهلع بين الناس ، تعمل أماكن الترفيه في المدينة على أكمل وجه كأن شيئاً لم يحدث ! فيما أعلنت إدارة الملهى المرتبكة أن ” برنامج ” السهرة لا يمكن أن يبدأ خاصة أن نصف الموسيقيين لم يأتوا كما أن نصف الفنانات كونهن يحملن الجنسية البريطانية قد تم إجلائهن من قبل القنصلية هذا المساء .

وجدت نفس لوحة الفرع هذه في ملاهي ليلية أخرى ، وقاعات الموسيقى وتجمع موظفي تلك الأماكن مع الموسيقيين والفنانات ، وكونوا كتلة بشرية إذ لم يجروا على خرق أوامر السلطات بالعودة إلى منازلهم . وقد أضفى مسحة من البهجة على هذا الجو الكئيب لهذه الليلة أحد قادة الأوركسترا ، عازف الجاز المرح سيوما اليهودى من أوديسا الذي وجدته كعهدي به في حالة نفسية رائعة .

توجهت إليه وسألته باستغراب : وماذا تفعل أنت هنا يا صاح ؟ ولماذا لم تغادر ” الإسكندرية “ أنت تمتلك سيارتك الخاصة وأنت وحيد بلا عائلة ؟!

أجاب باندهاش على سؤالى : ” يا صاح لماذا على أن أرحل ومن أجل ماذا ؟ قلت له : لكنك يهودى بالإضافة إلى جذورك الروسية ! الأتخاف الألمان ؟ أجابني : ” هل تعرف سيدي الكابتن ، حسنا ، دعنى أخبرك بأمر ما “ ، هكذا الرجل الشجاع . ” لم يسبق لى الخوض في الأمور السياسية من قبل ، فأنا أقوم بعملى فقط بمنتهى الأمانة ! أما بخصوص تغير السلطة فهذا ليس من شأنى أما أن تأتي حكومة بريطانية أو ألمانية ، مصرية أو حتى

من أثيوبيا ، هذا الأمرسيان عندي أو كما يقولون في أوديسا "اللى يتزوج أمى أقول له ياعمى" وبالمعنى الحرفي " من ينام مع أمى يصبح أبى" !

بحلول منتصف الليل دبت الحياة في المدينة مرة أخرى حيث دوت في الشوارع الأصوات الإنجليزية ، وامتلات البارات والملاهي الليلية بجنود وصلوا لتوهم إلى المدينة وهم يرتدون قبعات رعاة البقر الأنيقة فوق رؤوسهم . لقد رست إحدى السفن الحربية القادمة من سيدني على متنها كتيبة أسترالية . وعلى ما يبدو كانت هي المدد الاخير لجيش "مونتجمرى" ^{٢٤٨} وستذهب بعد ساعتين إلى المعركة ^{٢٤٩} ؛ أملاً في انقاذ الموقف الذي بدا ميؤساً منه تماماً وعرف الأستراليون أنه ينتظرهم أوامر بالإننتشار في جميع المواقع الشائكة.

مع إقتراب الثانية صباحاً عندما استقل الجنود الحافلات كانت نصف بارات المدينة قد تم تدميرها تماماً ونهبت خزائنها بعد أن هرب منها الصرافون في فزع ، وخلال ساعتين تم كنس بقايا المرايا والأثاث والأطباق المحطمة ، ولم يكن في وسع أحد أن يتصدى لهؤلاء المحاربين ؛ فقد هربت الشرطة العسكرية في الصباح . أما الضباط الأستراليون الذين سكنوا في أفضل حانة ، فقد ضربوا عرض الحائط بمقدمى الشكاوى ولم يبدوا رد فعل تجاه أي شيء .

مع إقتراب طلوع الفجر ، وبعد أن عدت إلى منزلى، خرجت إلى الشرفة التي تطل على الصحراء ، بينما لاحت في الأفق نيران المدفعية ، وانتشر أزيز المدافع الثقيلة التي هزت زجاج النافذة وارتج المبنى الخرسانى المكون من ٧ طوابق بينما انتابتنى حالة من القلق الممزوج بالفزع ، فاستلقيت على الفراش وأنا أرتدى ملابسى تحسباً لوقوع أي انفجار بالقرب من مكان السكن ، فيمكننى الهرب بسرعة. الوقت الآن فجراً وفوق رأسي يتزايد أزيز الطائرات الألمانية وهي تلقى القنابل أسقط أحد الألمان ثلاث قنابل من طائرته ، بينما على الجانب الأخرى تطلق طلقة واحدة من المدفعية المضادة للطائرات ثم ساد الصمت القاتل الذي بدأ يلف المكان ، ولدهشتي ، فقد لاحظت فجأة أنسى لم أعد أسمع دوى المدافع الذي إعتادت عليه الأذن ، الأمر الذي أحدث إنطباعاً رهيباً .

٢٤٨ عدم الدقة . الجيش الثامن البريطانى بقيادة الجنرال «أوكنيليك» آنذاك تم إستبداله بـ «مونتجمرى» فقط في الثامن من أغسطس .

٢٤٩ على ما يبدو ، أن هذا الكلام هنا يدور حول الفرقة الأسترالية ٩ مشاة ، والتي وصلت مصر في أوائل يوليو/ تموز ، وشاركت في المعركة في ١٠ أغسطس - أنظر : « شمور- ستيفان» . المرجع نفسه ص ٩ .

هرعت إلى مقر الشرطة يحدوني الأمل ، وعلمت من عامل التليفون الذي بدا وجهه شاحباً رامادياً جراء التعب والإرهاق أن الكتيبة الإستراتيجية التي قضت ليلتها في السكر والعريضة ، توجهت مباشرة إلى المعركة على متن الشاحنات . وشاركت في أكثر أوقات المعركة ضراوة وبفضل مساعدتها استطاعت قوات «مونتجمري» صد الهجوم الألماني بحلول الفجر وتراجع «رومل» إلى «العلمين» ، وخلف وراءه أكوام من الجثث .

مع حلول المساء في «الإسكندرية» ، بدأت الوحدات البريطانية وجميع العاملين في العودة مرة أخرى ، بعدما كانت قد هربت إلى «بورسعيد» وعادت المدينة مرة أخرى تدريجياً تأخذ شكلها المعتاد الذي يشبه المخيم العسكري .

مرت حوالي ١٢ سنة ولا زالت الصحراء المحيطة بالمكان ، الذي تحدد فيه مصير الحرب



صورة قائد القوات البريطانية بشمال أفريقيا «برنارد مونتجمري»

يلفها الصمت مرة أخرى . ولكن حول العلمين ظهرت مدينة لانهائية من المقابر ذات الصلبان البيضاء^{٢٥٠} وتمائيل لكل من بذل روحه «من أجل حياة أفضل» !

على بعد حوالي عشرات الكيلومترات في الرمال تبدو بقايا الدبابات والطائرات والأسلحة المحطمة وقد أصابها العفن والصدأ ولا زالت الألغام غير المرئية التي تم زرعها أثناء الهجوم الألماني تتربع المسافر الغافل ، وهي جاهزة لأن تنفجر في أي لحظة ، ويموت من جرائها كل عام كثير من السائحين والبدو والحمير والجمال^{٢٥١} . ومن بين آلاف وآلاف الصلبان التي تغطي سطح الصحراء الليبية هناك عدد غير قليل تظهر عليها أسماء روسية^{٢٥٢} ، فليرقدوا بسلام في الأرض الأجنبية البعيدة .

- ٢٥٠ داخل المقابر العسكرية البريطانية تم دفن ٧٣٦٧ ألف جندي ، وضم النصب التذكاري حوالي ١١٩٤٥ اسم أيضاً . هؤلاء الذين لقوا حتفهم في شمال أفريقيا ولم يشيدوا لهم قبور . وبالقرب من المقابر البريطانية يتواجد مقبرة يونانية صغيرة وإلى جهة الغرب نصب تذكاري ألماني وآخر خاص بالجيش الإيطالي أنظر : «فلاديمير بيلياكوف» الروس في مصر موسكو ٢٠٠٨ . ص ٢٩٤-٢٩٥
- ٢٥١ وفقاً للصحافة المصرية عام ٢٠١١ ، في منطقة الأعمال العسكرية أثناء الحرب العالمية الثانية تم زرع حوالي ٢٢ مليون لغم حتى الآن .
- ٢٥٢ شارك في الحرب مع قوات الحلفاء عدة مئات من مواطنينا المغتربين والذي قتل العديد منهم لمزيد من التفاصيل أنظر : «فلاديمير بيلياكوف» العلمين ، أو الجنود الروس في شمال أفريقيا (١٩٤٠-١٩٤٥) موسكو ٢٠١٠ ص ٥٧-٧ ، ١٨٥-١٨٥ .



قائد القوات الألمانية في شمال أفريقيا «ارفين رومل»



مدينة الصليان البيضاء بالعلمين

من أوروبا إلى أوروبا ، عبر أفريقيا مصر قاعدة ترانزيت ، لعودة أسرى الحرب السوفيت السابقين إلى الوطن (١٩٤٤-١٩٤٥)

لم تترك الحرب العالمية الثانية أفريقيا في حالها . ففي الفترة من ١٣ سبتمبر عام ١٩٤٠ حتى ١٣ مايو ١٩٤٣ ، قامت قوات الحلفاء بعمليات عسكرية في شمال القارة ضد القوات الفاشية (دول المحور) . وبعد أن دحرت أمريكا وانجلترا قوات العدو ، قامت باستخدام أفريقيا بعد ذلك كقاعدة انطلاق لفتح جبهة ثانية في جنوب أوروبا . فقد استولت قوات الحلفاء على جزيرة صقلية الإيطالية في الفترة من يونيو إلى أغسطس ١٩٤٣ ، وفي الثالث من سبتمبر بدأت قوات الحلفاء عمليات الانزال في إيطاليا ، وبحلول عام ١٩٤٤ تمكنت قوات الحلفاء من تحرير الجنوب الإيطالي بالكامل ، وأحكمت قبضتها على المنطقة المنيعنة التابعة للقوات الفاشية ”أورتونا- كاسينو“ والتي تقع إلى الجنوب من العاصمة الإيطالية روما بحوالي ١٢٠ كيلومتر . وكلما تقدمت قوات الحلفاء نحو الشمال كانت تقوم بتحرير الأسرى من مختلف الجنسيات ، وكان من بينهم جنود سوفيت .

قامت سفارة بريطانيا العظمى المتواجدة في جمهورية مصر العربية في ١٠ يناير ١٩٤٤ ، بإبلاغ بعثة الاتحاد السوفيتي ، إنه طبقاً لما ورد إليهم من معلومات من السلطات العسكرية البريطانية ، فقد تم إطلاق سراح الشخصيات التالي ذكرها من الأسر وهم :

الملازم ”بويكو بافل جيورجفيتش“ ، كتيبة ٨٣٩ .

رقيب ”تينوفوف فيودر دينوفيتش“ ٤٨ سلاح المدرعات الجيش السادس .

رقيب ”جيرانوف ألكسي نيكولافيتش“ شعبة ١٠٣ .

الجندي ”ستريجنوت فيدور سيميانونفيتش“ كتيبة سائقين ١٠٥ .

الجندي " إيرجول ديمتری فاسيليفيتش " كتيبة ٩٧ .
الجندي " دوبيتس نيكولای ماكسيموفيتش " كتيبة ١٤٩ الجيش الثامن .
الجندي " تولستوخين بطرس إيفانوفيتش " ٨٥ سلاح المدفعية .
المرضة " كوزمينا تيخونوفنا " المستشفى القوقازي رقم " ١ " ٢٥٢ ، لكن اسم " كوزمينا " لم يتم تحديده في الوثيقة .

نظراً لصعوبة نقل الأسرى السوفيت السابقين ، من خلال أقصر طريق إلى وطنهم ، جراء استمرار العمليات العسكرية هناك ، فقد إتخذت السلطات البريطانية قراراً بترحيلهم من إيطاليا إلى مصر تمهيداً ؛ لنقلهم إلى وطنهم عبر بلدان الشرق الأوسط وإيران .

في الثاني والعشرين من يناير من عام ١٩٤٤ ، قامت بعثة الاتحاد السوفيتي في مصر بإبلاغ وزارة الخارجية الروسية بشأن المذكرة البريطانية^{٢٥٤} ، وحيث أن الوقت مازال بعيداً لتطهير إيطاليا من الفاشيين ، فإن هذه المذكرة تعد تحديداً أول إشارة سيتبعها حتماً معلومات أخرى على نفس النمط ؛ لذلك أرسلت " موسكو " إلى القاهرة ، وتحديدًا إلى المقر العام للحلفاء في الشرق الأوسط الرائد " أنسيم فاسيليفيتش كاراسوف " ٢٥٥ ضابط الإتصال لعودة الأسرى العسكريين .

يصف الكاتب الأذربيجاني " سليمان فيلييف " ، وهو أحد العائدين من إيطاليا إلى مصر في مذكراته " ١ " فيقول : ينتمي " كاراسوف " إلى هؤلاء الناس الذين يتركون لديك إنطباعاً جيداً " ومن المدهش أن ملامح وجهه وعيناه ، كانتا تجمعان بين الشدة واللين ، وقد حاز على تعاطفنا جميعاً ، بمجرد أن تعارفنا عليه . وقد أعطى " كاراسوف " البعض من هؤلاء الأسرى المحررين المغادرين مصر عنوانه في " موسكو " ، وفي عام ١٩٥٥ خلال زيارة " س . فيلييف " لموسكو قام بزيارته ، كما تبادل بعد ذلك المراسلات^{٢٥٦} .

- ٢٥٣ عن مقالة : Из Европы в Европу – Через Африку. Египет – перевалочная база репатриации бывших советских военнопленных 1944-1945 والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، 2004 ، عدد 11-12 للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov . أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية ، ملف رقم ٠٧٨ وفق المرجع المصري ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٣١ .
- ٢٥٤ المرجع السابق .
- ٢٥٥ المرجع السابق ، محفظة رقم ٣ ، وثيقة رقم ٤ ، السطر ٣٥ .
- ٢٥٦ «فالييف سليمان» ، الطرق إلى الوطن / مذكرات ، «فالييف . س» لؤلؤة المطر ، «موسكو» ١٩٦٣ من ص ٢٩٣ إلى ٣٠٢ .

في أواخر شهر مايو عام ١٩٤٤ وبعد عدة محاولات فاشلة، تمكنت قوات الحلفاء في النهاية من إختراق خط دفاع العدو على خط "كاسينو-أرتون"، وأخذت في التقدم نحو الشمال. وفي الرابع من يوليو تم تحرير "روما"، وبحلول العام الجديد، تم تطهير "الحداء الإيطالي" من القوات الفاشية بالكامل، وكانوا يسيطرون فقط على الجزء الشمالي.

ومنذ نهاية أغسطس ١٩٤٤، بدأت حشود الأسرى السوفيت السابقين في القدوم إلى مصر بأعداد غفيرة من إيطاليا، حيث تشهد بذلك المراسلات بين السفارة البريطانية، وبعثة الاتحاد السوفيتي في القاهرة، وقد أرسل الدبلوماسيون البريطانيون لنظرائهم السوفيت الإخطارات التالية التي تفيد بوصول مجموعات من الأسرى السابقين إلى الأراضي المصرية:

في العشرين من سبتمبر — ٥٣، و ٢٢٨٩ شخص^{٢٥٧}

في السادس والعشرين من أكتوبر — ٤٢ شخص^{٢٥٨}

في الحادى عشر من أكتوبر — ٨٦,١١١ و ١٨٦٤ شخص^{٢٥٩}

في الثامن عشر من أكتوبر — ١١٠٠ شخص^{٢٦٠}

في الثانى والعشرين من أكتوبر — ٤٤ شخص^{٢٦١}

في الرابع من نوفمبر — ٩٦ شخص^{٢٦٢}

يكون بذلك إجمالى أعداد أسرى الحرب السوفيت السابقين، الذين قدموا من إيطاليا إلى الأراضي المصرية في عام ١٩٤٤ وصل إلى ٥٦٩٤ شخص، وربما قامت السلطات البريطانية بتقديم قوائم كل مجموعة من المجموعات للجانب السوفيتي، ولكنها غير موجودة في المراسلات الدبلوماسية.

فور وصول الأسرى السوفيت للأراضي المصرية، تم تسكينهم في معسكرات ترانزيت أحد هذه المعسكرات كان يقع في منطقة «سيدي بشر» إحدى ضواحي الإسكندرية^{٢٦٣} ويحمل رقم ١٩٠، والذي على ما يبدو، أنه كان عبارة عن الثكنة البريطانية القديمة

٢٥٧ أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، ملف رقم ٠٧٨ وفق المرجع المصري، رقم المحظة

٥، وثيقة رقم ٣١، السطر ٢.

٢٥٨ نفس المصدر السابق، السطر ٦.

٢٥٩ المرجع السابق، السطر ٩.

٢٦٠ المرجع السابق، السطر ١١.

٢٦١ المرجع السابق، السطر ١٢.

٢٦٢ المرجع السابق، السطر ١٧.

٢٦٣ المرجع السابق، السطر ١٧.

التي أقيم فيها معسكر اللاجئيين الروس فيها خلال الفترة فيما بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢٢^{٢٤} والمعسكر الثاني الذي كان يحمل رقم ٣٠٧ كان يقع في «جنيفا» على شاطئ البحيرات المرة الصغيرة ، والتي عبرها يمتد الجزء الجنوبي لقناة السويس ، وبحواره كان يوجد المعسكر الثالث الذي كان يحمل رقم ٣٠٦ ، كان المعسكر رقم ٢٨ يقع إلى الشمال منه على شاطئ البحيرات المرة الكبرى^{٢٥} ، وفي منطقة «التل الكبير» (وهي المنطقة الواقعة بين القاهرة والاسماعيلية) ، كان يتواجد المعسكران رقمي ٣٠٥ ، ٣٧٩ ، كما كان هناك معسكران بالقرب من مدينة «القاهرة» في ضاحية «العباسية» يحمل رقم ١٥٢ وآخر في ضاحية «المعادي»^{٢٦} (لكن لم يذكر رقمه) ، أما المعسكر الذي كان يحمل رقم ١٥٧ ، على الرغم من أنه قد ورد ذكره في المراسلات الدبلوماسية ، إلا أنه لم يعرف مكانه بالضبط ، لكن من الملاحظ أنه في وقت مبكر من العام ١٩٢٠ قد تم تسكين اللاجئيين الروس في «العباسية» و «التل الكبير» و «سيدي بشر»^{٢٧} .

في المقبرة العسكرية البريطانية الواقعة في القنطرة شرق ، على شاطئ الجزء السينواي من قناة السويس يوجد قبران لإثنين من العسكريين السوفيت أحدهم يدعى «ف. زميربنج» ، والذي توفي في الثامن من أكتوبر ١٩٤٤ والثاني الرقيب «ي. كارسين» والمتوفي في الثاني والعشرين من أكتوبر من العام نفسه^{٢٨} ، وعلى ما يبدو أن الجنديين قد توفيا داخل المستشفى التي تقع في «القنطرة» ، حيث توجد المقابر العسكرية البريطانية إلى الشمال من مدينة «القنطرة» ، في «بور سعيد» ، وإلى الجنوب في «التل الكبير» ، فلو كانت المستشفى حيث توفي الجنديان بعيداً عن مدينة «القنطرة» ، ل يتم دفنهما في مكان آخر ، ولكن على الأرجح أن المعسكر الذي نقلنا منه إلى المستشفى ، هو المعسكر الذي كان يحمل رقم ١٥٧ ويقع على مقربة من المستشفى .

- ٢٦٤ لوصف المخيم ، أنظر كتاب فلاديمير بيلياكوف : «عند شواطئ النيل المقدس» الروس في مصر ، موسكو ٢٠٠٣ ، من ص ١٥٢ إلى ١٦٣ .
- ٢٦٥ فاليف . س «المرسوم» ، ص ٢٩٢ .
- ٢٦٦ الأرشيف الحكومي لروسيا الاتحادية ، ملف رقم ٩٥٢٦ ، وثيقة رقم ٤٢٧ .
- ٢٦٧ فلاديمير بيلياكوف «المرسوم» من ص ١٣٦ إلى ١٥١ .
- ٢٦٨ فلاديمير بيلياكوف «مقبرة الروس في مصر» ، موسكو ٢٠٠٣ ، كُتِبَ لفظ «كراسين» بالخطأ على شاهد المقبرة «كراسي» ، وتم التوصل إلى اللقب الصحيح (بفضل الرجوع إلى الوثائق الأرشيفية بالأرشيف الخاص بالسياسة الخارجية لروسيا الاتحادية ، ملف رقم ٠٨٧٥ محفظة رقم ٥ ، وثيقة ٣١) وهو ما ذكره مكتب تمثيل «Commonwealth War Graves Commission» بالقاهرة والمسؤول عن حماية مقابر الإنجليز في جميع أنحاء العالم .

من المثير للدهشة ، أن قبرى الجنديين الروسيين «زمبيرنيج وكارسين» هما القبرين الوحيدان للعسكريين السوفيت الذان لقيتا حتفهما في عام ١٩٤٤ في مصر ، وقد قام الإنجليز بدفنهما في أحد مدافنهم . ويشير «س.فيليف» أن جندياً داخل معسكر اللاجئين رقم ٣٠٧ أقدم على الانتحار غير أن اسمه غير معلوم ، كما لا يعرف مكان دفنه^{٣٦٩} . ومن المحتمل أن هذا كان آخر خسائر الأسرى السابقين في عام ١٩٤٤ على الأراضي المصرية . على الأقل لم نعثر في سجلات ١٠ مقابر خاصة بالجنود البريطانيين بطول البلاد وعرضها ، أو في الوثائق أو في المصادر الأدبية معلومات أخرى عن خسائر في صفوف الأسرى السابقين خلال فترة إقامتهم في مصر .

يروى لنا «سليمان فلييف» بعض الحوادث المثيرة للاهتمام حول الوضع داخل معسكر الترانزيت رقم ٣٠٧ : «أنه لدى وصول الأسرى السابقين ، وبمشاركة المقدم «كاراسوف» تم تشكيل كتيبة من الجنود الموجودين داخل المعسكر . وفي السابع من يناير قام أفراد الكتيبة بتقديم عرض عسكري أمام مقر القيادة بمناسبة الذكرى السنوية لثورة أكتوبر ، في حين قام الجنود من الأسرى الألمان المتواجدين في المعسكر المجاور بالصياح ، ورشق الجنود المشاركين في العرض بالحجارة ، مما دفع الرقيب «كراسوف» للتوجه إلى الضابط الأمريكي قائد معسكر الألمان ، وفي غضون دقائق هدا الأسرى الألمان ، وبعد الانتهاء من العرض العسكري أقيمت حفلة موسيقية شارك فيها عدد من الفنانين الهواة ، وكانت هذه الحفلات ، والأمسيات الأدبية تقام بعد ذلك أسبوعياً كل يوم أحد» .

يستمر "فيليف" في روايته عما كان يحدث داخل معسكر ٣٠٧ للاجئين فيقول : " قبل العيد قام الأسرى السابقين ، الذين ربما كان بينهم عدد لا بأس به من الجنود الأذربيجان بتقديم العرض الموسيقي الكوميدي الأذربيجاني الشهير " أرشين مال آلان " للموسيقى الشهير " جاد جيبكوف " ، وحقق العرض نجاحاً مبهراً ، حيث لم ينل إعجاب الأسرى فقط ، بل والمصريون أنفسهم . وقد جاء إلى عروضنا سكان القرى المجاورة ، وقد سمعنا العرب في الشوارع يدندنون بأشهر الألحان الأذربيجانية ، أمثال " أسكر " و " جولتسوخرا " ، حتى الشباب يتغنون بأشهر ألحان الأوبريتات الأذربيجانية " .

٢٦٩ «س. فيلييف»، «المرسوم» ص ٢٩٨ ومن ص ٢٣١ إلى ٣٠٣ .

٢٧٠ المرجع السابق . من ص ٢٩١ إلى ٢٩٨ .

استناداً إلى ما ذكره الكاتب في مذكراته ، فإن الجنود الأسرى لم يكونوا معزلاً عن السكان المحليين . وفي طريقهم إلى المعسكر توقف القطار الذي كان يقلهم من بورسعيد بعد وصولهم من إيطاليا لمدة طويلة في مدينة الاسماعيليت ، مما أتاح لهم مشاهدة معالم المدينة . وقد شاهد المصريون العرض العسكري في السابع من نوفمبر ، وكانوا يأتون إلينا ” يومياً فرادى أو في جماعات ، ويتبادلون معنا أطراف الحديث ويمطرونا بالأسئلة ...“ وعندما حان وقت الرحيل ، امتلأت محطة القطار بحشود هائلة من وفود الشعب المصري الذي جاء لوداع الجنود الروس .

يرسم ” سافيلي ياكوفيليتش شيرييف“ لوحة أخرى في رسائله . وقد ولد في ١٩٢٤ ، ويعيش الآن في ” منرالني فودي“ . وقد تعرف الكاتب على حفيد ذلك الرجل في القاهرة عام ٢٠٠٠ ، وقد أخبر الكاتب بمصير جده ، الذي تم ترحيله عبر الأراضي المصرية إلى بلاده ، وقد حصل الكاتب على عنوانه . تم إطلاق سراح شيرييف من الأسر في الثاني من يونيو ١٩٤٤ من قبل قوات الحلفاء أثناء هجومها على ”روما“ ، ونقل بعد ذلك مع الأسرى السوفيت السابقين ، بالباخرة من ميناء ” ميلانو“ إلى ميناء ” الإسكندرية“ . وعلى حد قوله : ” لم يسمح الحراس للأسرى السابقين بأن يتحدثوا مع المصريين ، حتى أن خط سير الرحلة قد تم وضعه ، بحيث يتجنب المرور بالمناطق المأهولة بالسكان“^{٣٣١} .

ذكر ” س . فيلييف“ أن الإدارة الأمريكية للمعسكر ، كانت تحاول إقناع الجنود بعدم العودة لبلادهم وترهبهم دائماً بـ ” سيبيريا“ ..! وذات مرة تم زرع ضباط بولنديين سابقين من جيش الجنرال ” أندريس“ داخل المعسكر لنفس الهدف ، ولكن ذكر المؤلف أن هذه المحاولات باءت بالفشل .

لم يذكر كل من ” س . فيلييف“^{٣٣٢} أو ” س . يا . شيرييف“ أية معلومات بخصوص ماهية معسكرات الترانزيت ، وهل كانت ثكنات عسكرية أم مجرد خيام عادية ؟ . ولم يرد شيء بهذا الخصوص في أية وثائق من المتاحة لدينا ، بيد أنه قد تم الإشارة في إحداها أن الحلفاء قاموا بتوفير تغذية للأسرى السابقين بنفس معدلات تغذية الجنود الإنجليز ، وبزات عسكرية بريطانية ، طبقاً لفصول السنة^{٣٣٣} .

٢٧١ أرشيف المؤلف ، ملف «الروس في مصر» ، وثيقة رقم ٨ ، السطور : ٣ ، ٤ ، ٨ ، ١٠ .
٢٧٢ فيلييف «المرسوم» من ص ٢٩٦ إلى ٢٩٨ .
٢٧٣ الأرشيف الحكومي لروسيا الاتحادية ، ملف رقم ٩٥٢٦ ، محفظة رقم ١ ، وثيقة ٤٢٧ .

في الثامن من ديسمبر ١٩٤٤ ، تم نقل الأسرى السابقين للمعسكر رقم ٣٠٧ ، والذي كان من ضمنهم "س. فيلييف" إلى السويس بالقطار . ومن هناك نقلوا على متن باخرة إلى ميناء البصرة العراقي ، وبعد أسبوعين من وصولهم إلى البصرة ، نقلوا مرة أخرى من هناك بالقطار إلى طهران . وهناك أمضوا فترة وجيزة ، نقلوا بعدها بالقطار إلى ميناء "بندر شاه" المطل على بحر قزوين . ومن هناك وعلى متن البارجة "تركمنستان" ^{٣٥} نقل الأسرى السابقين إلى "باكو" ^{٣٥} .

تمت عودة الجندي "س. أشيريايف" بطريقة أخرى . فقد تم ترحيله ضمن مجموعة من الأسرى السابقين ، داخل إحدى الشاحنات التجارية ، والتي كانت تحمل العلامة التجارية "ستوديبك" مباشرة إلى "طهران" ، وذلك عبر الأراضي : "الفلسطينية والعراقية" ، ثم وصلوا رحلتهم في الطريق من "طهران" إلى "باكو" في عربات النقل .

من خلال الوثائق الأرشيفية يتضح "أن العائدين كان يتم نقلهم من مصر عبر خط السكك الحديدية الذي كان يمر داخل أراضي "فلسطين وسوريا والعراق وإيران" وفي عام ١٩٤٥ نقل البعض بواسطة البوارج البريطانية إلى "إيطاليا" ومنها إلى "الاتحاد السوفيتي" بالقطار عبر "فيينا" ^{٣٦} .

عقب انتهاء الحرب ، تم نقل اللاجئين إلى الوطن مباشرة عن طريق البحر . وقد أشار "ب. بوليان" أنه في الثامن والعشرين من أغسطس ١٩٤٥ أبحر نحو ٢٦٤٠ جندي من ميناء "بورسعيد" على متن البارجة النرويجية ^{٣٧} إلى ميناء "أوديسا" .

أبلغ الدبلوماسيون البريطانيون ، البعثة السوفيتية بنقل الأسرى السابقين إلى طهران . وقد تضمنت خطاباتهم في عام ١٩٤٤ المعلومات الآتية :

في السادس والعشرين من سبتمبر - ٣٨،٤٧ و ٢٥٢ شخص ^{٣٨}

- | | |
|-----|--|
| ٢٧٤ | فيليف «المرسوم» من ص ٣٠٣ إلى ٣١٠ . |
| ٢٧٥ | أرشيف المؤلف ، ملف «الروس في مص» وثيقة رقم ٨ . |
| ٢٧٦ | الأرشيف الحكومي لروسيا الاتحادية ، ملف رقم ٩٥٢٦ ، محفظة رقم ١ ، وثيقة رقم ٤٢٧ . |
| ٢٧٧ | بوليان بافل ، «ضحايا نيكيتاتوريين» ، أسرى الحرب بالرايخ الثالث وعملية إعادتهم إلى أوطانهم ، موسكو ١٩٩٦ ، ص ٢٢٤ . |
| ٢٧٨ | أرشيف الخارجية الروسية ، ملف رقم ٠٧٨ ، محفظة رقم ٥ ، وثيقة رقم ٣١ ، السطر السادس . |

- وفي العاشر من أكتوبر- ٥٠ و٢٨٧ شخص^{٣٧٩} .
في الثامن عشر من أكتوبر- ١٩٠ شخص^{٣٨٠} .
في التاسع من نوفمبر- ٢٨ و٩٤٢ شخص^{٣٨١} .
في السابع من ديسمبر- ١٠٣ شخص^{٣٨٢} .

من واقع المراسلات الدبلوماسية، تم في الفترة من سبتمبر إلى ديسمبر ١٩٤٤ وتحديدًا من داخل معسكرات الترانزيت في مصر، ترحيل ما يقرب من ٢٠٦٦ أسير سوفيتي سابق إلى طهران^{٣٨٣} . ونلاحظ أن "ب. بوليان" أورد رقمًا متواضعًا جدا وهو ٢٨٢ شخص فقط . وإذا حسبنا طبقا للخطابات البريطانية خلال تلك الفترة، أنه تم ترحيل ٥٦٩٤ أسير سابق إلى مصر، توفي منهم ثلاثة أشخاص ، يكون عدد الأسرى السوفيت السابقين المتواجدين على الأراضي المصرية ٣٦٢٥ في الأول من يناير ١٩٤٥ م .

على ما يبدو أن عدد الأسرى السوفيت ، كان أكبر من العدد الذي جاء في الوثائق الدبلوماسية، فقد أشار "س. أشيرييف" أنه قد عاد إلى الوطن في أغسطس^{٣٨٤} ، رغم أن المذكرة البريطانية ذكرت أن أول مجموعة من العائدين ، قد غادرت الأراضي المصرية يوم الرابع والعشرين من سبتمبر^{٣٨٥} . من ناحية أخرى ، لم ترد أية معلومات عن ترحيل مجموعة "س. فيلييف" في الثامن من شهر ديسمبر . وحقيقة تمت الإشارة في الوثائق إلى ترحيل مجموعة من ١٣٠ شخص في السابع من ديسمبر إلى طهران ، ولكن من معسكر رقم ١٥٧ ، وليس من معسكر ٣٠٧ ، حيث تواجد س. فيلييف ، وثانياً حجم هذه المجموعة لا تتناسب مع عدد الفوج^{٣٨٦} .

٢٧٩	المرجع السابق ، السطر الثامن .
٢٨٠	المرجع السابق ، السطر الحادي عشر .
٢٨١	المرجع السابق ، السطر العشرين .
٢٨٢	المرجع السابق ، السطر السادس والعشرين .
٢٨٣	بوليان . ب المرجع السابق ، ص ٢٢٦ .
٢٨٤	أرشيف المؤلف ، ملف الروس في مصر ، وثيقة رقم ٨ السطر الثالث .
٢٨٥	أرشيف الخارجية الروسية ، ملف رقم ٠٧٨ ، حافظة رقم ٥ ، وثيقة ٣١ ، سطر ٦ .
٢٨٦	المرجع السابق ، السطر ٢٦ .

وفقاً لـ "ب. بوليان" أنه بحلول فبراير ١٩٥٤^{٢٨٧} تم عودة ما يقرب من ١١٢٩٢ أسير عبر الأراضي المصرية. هذا الرقم ضعف العدد الذي لدينا ، استناداً إلى الوثائق الدبلوماسية^{٢٨٨}، ولعل الكاتب قد استند إلى مصادر أخرى غير التي بين أيدينا ، فأحصى أولئك الأسرى العائدين، الذين لم يرد ذكرهم في الوثائق البريطانية. بالإضافة إلى الأعداد التي تشمل المرشحين في عام ١٩٤٣ ، والذين كان قد تم تحريرهم من قبل الحلفاء ، أثناء المعارك العسكرية التي دارت في شمال أفريقيا^{٢٨٩} .

بحلول عام ١٩٤٤ ، بات من الصعب على الرائد "كاراسوف" أن يقوم وحده بالمهمة الملقاة على عاتقه ، نظراً لكثرة أعداد الأسرى ، وانتشارهم في معسكرات الترانزيت . وكما ذكر "س. فيلييف" ربما مع رغبة الجنود في العودة إلى الوطن لم يكن الطريق مفروشاً بالورود . يروي "ن. د. تولستوي" أنه كان على الأقل في كل مجموعة من الأسرى السابقين يوجد أشخاص تساورهم المخاوف من العودة إلى أرض الوطن .

مع بداية تحرك الجيش السوفيتي ، خارج حدود الاتحاد السوفيتي^{٢٩٠} وانتقال المعارك إلى شرق أوروبا أصبحت أعداد الجنود المحررين من الأسرى تضاعف مستمر مثل كتلة الثلج وكانت عملية إعاشتهم وعودتهم إلى أرض الوطن ، مشكلة لم يقدر الجيش المحارب على حلها . لذلك إتخذ مجلس مفوضي الشعب في ٢٣ أكتوبر ١٩٤٤ قراراً بإنشاء لجنة تابعة للمجلس تختص بشؤون الأسرى والمعتقلين^{٢٩١} . وقامت الإدارة بدورها بتشكيل عدد من البعثات خاصة بعودة الأسرى المحررين ، تتوجه إلى عواصم الحكومات المختلفة في المناطق ، التي توقفت فيها الأعمال العسكرية أو أوشكت على الانتهاء . وفي يناير عام ١٩٤٥ توجهت هذه البعثة إلى مصر وكان من ضمنها :

٢٨٧ بوليان ب. ، المرجع السابق ، ص ٦٢٢ ، وفقاً للوثائق الخاصة بإدارة شؤون الترحيل - التي كُشف النقاب عنها في عام ٢٠١٢ ، فقد وصلت أول مجموعة من الجنود السوفيت الأسرى إلى مصر في يوليو/ تموز ١٩٤٤ وتم ترحيل حوالي ١٠٤٠٠ جندي منها . أنظر فلاديمير بيلياكوف " العبور عبر أفريقيا " ، رودينا ، ٢٠١٣ من ص ١١٢ إلى ١١٤ .

٢٨٨

٢٨٩ عن ترحيل الجنود الأسرى السوفيت من مصر ١٩٤٣ من كتاب سولجينيتس ، (نوفي مير ، ١٩٨٩ العدد ٨ ، ص ٥١) وكذلك من شهادات كتاب فلاديمير بيلياكوف «أفريقيا المأوى» موسكو ، ٢٠٠٠ من ص ٢٣٣ إلى ٢٣٦ ، وأشار إلى ذلك أيضاً ب. بوليان (مرسوم ص ٢٢٢) ون. د. تولستوي «ضحايا بالطة» موسكو ، ١٩٩٦ من ص ٥٢ إلى ٥٣ ، ولم يتم التوصل حتى الآن إلى عدد المرشحين بالضبط .

٢٩٠

تولستوي. ن. د. المرجع السابق ، ص ٥٣ .

٢٩١

الأرشيف الحكومي لروسيا الاتحادية ، ملف رقم ٩٥٢٦ .

العقيد "مايكل ستافروف" ... رئيساً للبعثة .
الرائد "بافل بيللايف" ... نائباً لرئيس البعثة .
المقدم "ألكسندر ديميدوف" ... نائب للرئيس .
الرائد "بافل دوركين" ... مساعداً للرئيس .
الرائد "فاسيل نازاروف" مساعداً للرئيس .
الرائد "نيكولاي سيمين" مساعداً للرئيس .
الرائد "نيكولاي تشاينيتشيكوف" مساعداً للرئيس .
الكابتن "جالينا تاراسوفا" ... مترجمه .
ملازم "كورين أنداتيكين" ... مترجماً .
ملازم أول "ألكسي باخروف" ... مترجماً .

وكانت البعثة تضم "كاراسوف" كمساعد لرئيس البعثة، وترقى إلى رتبة مقدم^{٢٩٢} .

وصلت القاهرة بعثة الاتحاد السوفيتي، الخاصة بعودة الأسرى المحررين في الرابع والعشرين من شهريناير ١٩٤٥^{٢٩٢}، وإستمر عملها أكثر من عام . وانتهت من عملها وغادرت عائدة إلى الوطن في بداية فبراير ١٩٤٦^{٢٩٤}، ولكن لسوء الحظ أن الأرشيف الخاص بالبعثة والمحفوظ في الأرشيف الحكومي الروسي غير متاح للباحثين ! كان الاستثناء تلك المعلومة الموجزة عن عملية عودة المواطنين الروس من مصر، والتي كتبها، ووقع عليها على الأرجح في بداية فبراير ١٩٤٦، الرائد "سيمين"، ولكن هذه الوثيقة غير مؤرخة . وقد ورد فيها أن الجنود الروس كانوا يتواجدون في المعسكر رقم ٣٠٧ في الفترة من يناير حتى مارس ١٩٤٥ . وكانت المغادرة الرئيسية في أبريل ١٩٤٥، دون الإشارة إلى أعدادهم . وفي وقت كتابة هذه الوثيقة، لم يكن هناك أي مواطنين سوفيت مسجلين، لنقلهم إلى الاتحاد السوفيتي من مصر^{٢٩٥} .

وحيث أنه تمت الإشارة في الوثيقة إلى أنه في عام ١٩٤٥ كان المواطنون السوفيت يتواجدون فقط في المعسكر رقم ٣٠٧، وأن المغادرة الرئيسية تمت في أبريل من نفس

٢٩٢ أرشيف الخارجية الروسية، ملف رقم ٠٧٨، حافظة رقم ٦، وثيقة رقم ٣ السطر ٦ .
٢٩٣ المرجع السابق، محفظة رقم ٨، وثيقة رقم ٤٧ السطر ٥ .
٢٩٤ المرجع السابق، محفظة رقم ١٠، وثيقة رقم ٢، السطر ٢٧ .
٢٩٥ الأرشيف الحكومي لروسيا الاتحادية، ملف رقم ٩٥٢٦، محفظة رقم ١، وثيقة رقم ٤٧٢ سطر ٣ ، ٧ .

العام. هنا تساورنا بعض الشكوك بخصوص إحدى الحقائق التي أوردتها "ب. بوليان". فعلى ما يبدو أن العائدين من المواطنين السوفيت من ميناء "بورسعيد" إلى ميناء "أوديسا" في ٢٨ أغسطس ١٩٤٥، والذي بلغ عددهم ٢٦٤٠ مواطن روسي قد تم نقلهم من بلد آخر، أو عدة بلدان. وكانت "بورسعيد" إحدى المحطات التي توقفت فيها البارجة، في طريقها إلى ميناء "أوديسا".

أورد "ن.د. تالستوي" الواقعة التالية: في نقطة تجمع الجنود المحررين في مدينة أفيرس الواقعة بالقرب من نابولي الإيطالية، رفض حوالي ٨٠٠ جندي شيشاني وأنجوشي مسلم من مواطني الاتحاد السوفيتي العودة إلى أوطانهم. وتم ترحيلهم إلى مصر تحت رعاية الملك فاروق، وتم توزيعهم على البلدان العربية بغرض الإقامة الدائمة^{٢٩٦}، إلا أنه لم يتم العثور على الوثائق التي تؤكد هذه الحادثة حتى الآن. من الجدير بالذكر أن كتاب "تالستوي" الذي ينحدر من سلالة أحد المهاجرين قد نُشر أولاً في إنجلترا، ويعتمد فقط على المصادر الغربية، ولهذا السبب فهو يحمل طابعاً أحادياً بوضوح.

تعد عملية نقل المواطنين السوفيت إلى بلادهم عبر الأراضي المصرية صفحة محدودة الشهرة في التاريخ الوطني والعلاقات الإنسانية بين البلدين. فعلى ما يبدو أن الجنود المرحلين قد أتاحت لهم الفرصة للتواصل مع المصريين. فقد كان مع أولئك الجنود كثير من المقاتلين الذين حاربوا ضمن القوات الدولية في "إيطاليا"، حيث فرضت عليهم الظروف تعلم اللغات الأجنبية المختلفة، لذلك لم يشعر مواطنونا بحاجز اللغة في تعاملهم مع المصريين الذين - بالطبع - يعرفون اللغة الإنجليزية والفرنسية.

على سبيل المثال أورد "س. فيلييف"، الحوار الذي دار بينه وبين أحد المدرسين المصريين المهتمين بأوضاع المسلمين، داخل جمهوريات الاتحاد الاشتراكي السوفيتي آنذاك. قال وهو يتذكر مغادرتهم للمعسكر: "كان العرب يدعون الله من أجلنا، ومن أجل عودتنا بسلام إلى أرض الوطن، ومن أجل سعادتنا، وقدموا لنا الفواكه كـ "الكاكي أو الكاكا"^{٢٩٧*} و "التين"^{٢٩٨} ويذكر أن بعض الجنود كان ينتابهم شعور بالخجل ويمتنعون عن أخذها، ولكن كان المصريون يضعونها عنوة في أيديهم، أو يدسونها في جيوبهم..!

٢٩٦ ن.د. تالستوي، المرجع السابق، ص ٣٥٠.

٢٩٧ * فاكهة الكاكي.

٢٩٨ فيلييف، المرجع السابق من ص ٣٠٠ إلى ٣٠٢.

مع إقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها أصبح الاهتمام في مصر بالاتحاد السوفيتي كبيرا ، وتميزت علاقة المصريين بالمواطنين السوفيت بالتعاطف الصادق . وفي السادس والعشرين من أغسطس ١٩٤٣ تم أخيراً إقامة علاقات دبلوماسية بين البلدين ، وفي نوفمبر من هذا العام وصلت القاهرة البعثة السوفيتية . وفي الخامس عشر من مايو ١٩٤٤ كان عرض الفيلم الوثائقي ” ستالينجراد ” في دار سينما ” الأوبرا ” إشارة بدء حملة لجمع التبرعات لمساعدة مواطني اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية . حضر العرض السينمائي كافة أطراف النخبة السياسية المصرية ، وعلى رأسها الملك فاروق^{٣٩٩} . وقد ذكرت المجلة الأمريكية ” كوليرز ” في عددها الصادر بتاريخ ١٧ فبراير عام ١٩٤٥ أنه ” قد ساد بين الأوروبيين ، وكذلك المصريين شعور بأن روسيا انتصرت في الحرب فعليا بدون مساعدة أحد^{٣٠٠} .

نظر الشعب المصري إلى الجنود كممثلين لقائمة الدول المنتصرة في الحرب العظمى ، وقد أشار ” س. فيلييف “ : ” أنهم قالوا لنا إننا بالنسبة إليهم تمثل الشعب السوفيتي ، وعبروا عن مشاعرهم الطيبة نحونا ، وعن حبهم للشعب السوفيتي ولبلادنا “^{٣٠١} . وربما قد حكى المصريون الذين اتاحت لهم الفرصة بالتواصل مع المواطنين السوفيت عن ذلك فيما بعد ، لذويهم وأقربائهم .

ولكن آلاف الجنود الذين تواجدوا داخل مخيمات الترانزيت ، في مصر قد نقلوا بالفعل انطباعاتهم عن هذه البلد إلى وطنهم ” . ذكر ” س. فيلييف “ أنهم سعوا إلى التعرف على حياة العرب عن كثب ، وقد كانت بالفعل صعبة ، وكنا نشعر بالتعاطف العميق معهم . وقد وصلت إليهم هذه المشاعر وشعروا نحونا بالامتنان العميق ، ولقد أحببنا هذا الشعب الطيب القلب والمضياف بطبعه^{٣٠٢} ... “ .

تأثر ” فيلييف ” بإقامته في مصر ، والعراق فقام بكتابة ” قصص عربية “ . وقد ترجم البعض منها مثل ” شجرة التين “ و ” أحلام فلاح “ و ” إبريق الماء “ إلى اللغة الروسية^{٣٠٢} ، الأمر الذي ساعد على توسيع معرفتنا ببلد النيل وشعبها العظيم .

- ٢٩٩ نوفيكوف . ن «طرق الدبلوماسية» موسكو ١٩٧٦ ، ص ١٠٢ .
٣٠٠ أرشيف الخارجية الروسية / ملف ٠٧٨ ، الحافظة رقم ٨ ، وثيقة ١٨ ، السطر ٩ . فيلييف . س المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
٣٠١
٣٠٢ المرجع السابق .
٣٠٣ المرجع السابق من ص ٢٣٤ إلى ص ٢٥٤ .

بين الغرباء .. «الأسرى الأتراك في روسيا : ١٨٧٧-١٨٨٠»

في نهاية حقبة السبعينيات من القرن التاسع عشر كان من الممكن ، أن تسمع اللغة التركية واللغة العربية في الجزء الأوروبي من روسيا ، حيث ظهرت في المدن الكبرى والصغرى الروسية ، مجموعات من الأفراد يتحدثون لغات غير معروفة للمواطن الروسي . كان هؤلاء هم جنود الجيش التركي (العثماني) الذين تحولوا إلى أسرى حرب . وأقصد هنا تلك الحرب التي دارت بين روسيا وتركيا في الفترة من عام ١٨٧٧-١٨٧٨ وانتصرت فيها القوات الروسية علي الإمبراطورية العثمانية ، وتم أسر عدد كبير من الجنود والضباط الأتراك . وفقاً لتقرير رئاسة هيئة الأركان الروسية ، الصادر في الحادي عشر من أبريل ١٨٧٨ وصل إجمالي عدد الأسرى الأتراك إلي ١٤١٧٠٨^{٣٠٤} أي ما يعادل خمسى تعداد الجيش التركي ، الذي كان موزعاً على النحو التالي (٢٢٥ ألف جندي في منطقة البلقان ، ٧٥ ألف في القوقاز^{٣٠٥} أي ٣٥٠ ألف) .

من المعروف أن الأسر لا يعني الذهاب لرحلة في ضيافة أحد الأصدقاء بل إنه يرتبط عادة ، بمشاعر الإهانة والحرمان . وبالرغم من ذلك لم يشعر الجنود الأسرى من الأتراك ، أو من الجنسيات الأخرى التي كانت تعيش في رحاب الإمبراطورية العثمانية ، وتخدم بالجيش التركي بأي من تلك المشاعر علي وجه الإطلاق أثناء تواجدهم في الأسر الروسي . إن هؤلاء الأسرى قد منيوا بهزيمة ساحقة ، ولم يعودوا يمثلون أي مصدر للخطر ضد روسيا ، وقد أظهر المنتصرون حيال أعداءهم السابقين كرم الضيافة ، الذي يعد من خصائص الشعب الروسي .

٣٠٤ عن مقالة : «Свои среди чужих. Пленные турки в России в 1877 – 1880 гг. » والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، ٢٠٠٥ ، عدد ١٣ ، للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov . الأرشيف التاريخي العسكري للدولة الروسية ، ملف رقم ٤٠٠ ، حافظة رقم ٣ وثيقة رقم ٢٠٤٧ السطر ٨١ - ١٠٤ .
٣٠٥ القاموس الموسوعي العسكري ، موسكو ، ١٩٧٢ .

وفقا لبيانات الوثائق الأرشيفية فقد توزع الجنود الأسرى إلى مجموعات، تقدر بعضها بالمئات، والبعض الآخر تقدر بالعشرات في المدن الصغيرة. وبلغ عدد المدن الموزع عليها الجنود الأسرى حوالي ١٦٢ مدينة في القطاع الأوروبي من روسيا^{٢٠٦}. وقد تم تسكين القيادات العليا من الأسرى مثل الباشوات والضباط داخل شقق مدنية، وعلاوة على بدل السكن فقد كانوا يحصلون على إعانات مالية. الباشا علي سبيل المثال كان يتقاضى مبلغ ١٠١٧ روبيل سنوياً، وضابط الأركان كان يتقاضى ٤٤١ روبيل، والضابط ٢٧٦ روبيل^{٢٠٧}. وكان من حق الضابط الأسير أن يتجول بكل حرية في شوارع المدينة ويقوم بشراء ما يريد من احتياجات. وكان من حقه كذلك أن يستأجر لنفسه شقة في حال إذا لم يرق له السكن الذي تم تأجيره له. أما باقي الرتب الأدنى للجنود الأسرى فقد تم توزيعهم على ثكنات الكتائب العسكرية، التي تم إرسالها في ذلك الوقت إلى الجيش المحارب. وفي المدن الصغيرة يُستأجر لهم منزل خاص، ثم يتحول بعد ذلك إلى ثكنة عسكرية. وكانوا ينصبون السرائر ويجلبون الحطب للتدفئة ويجهزون الطعام، والشموع للإضاءة.

جاء في التقرير الطبي العسكري المتعلق بتلك الحرب ١٨٧٧-١٨٧٨ مايلي: « وفقاً لآراء مفتشي الهيئة الطبية التابعة للقوات المسلحة، أنه من الناحية الصحية، لم تكن أماكن الأسرى الأتراك أسوأ حالاً، من الثكنات الخاصة بقواتنا بأي حال من الأحوال. وجدير بالذكر أن كل الثكنات كانت مزودة بأماكن للإستحمام والوضوء والصلاة^{٢٠٨} ».

كانت كمية الطعام المقدمة للجنود الأسرى تعادل كمية الطعام المقدمة للجنود الروس تماما، إلا أنه قد أدخلت بعض التعديلات علي النظام الغذائي بما يتناسب مع عادات وتقاليد الجنود الأتراك. نذكر علي سبيل المثال أنه تم استبدال الخبز الأسمر الروسي بالخبز الأبيض وللحقيقة ليس بنفس الحجم، ولكن بنفس الثمن، واستبدال شوربة الكرنب الروسية الشهيرة بأنواع أخرى من شوربة الحبوب، وفي أحيان كثيرة كان الأتراك يقومون بإعداد الطعام بأنفسهم. وكان كل أسير يُسلم الزي العسكري الرسمي الذي يتكون من معطف، وسترة، وقبعة، ورباطة عنق، وسروال، وحذاء، وطاقمين من الملابس الداخلية. وفي فصل الشتاء يتم إضافة معطف قصير إلي كل

- ٣٠٦ الأرشيف التاريخي العسكري للدولة الروسية، ملف رقم ٤٠٠،حافظة رقم ٣ وثيقة رقم ٢٠٣٨ السطر ١٠٦-١٠٧.
- ٣٠٧ التقرير العسكري الطبي الخاص بالحرب مع تركيا ١٨٧٧-١٨٧٨ جزء ٣ تقرير عن قوات الاحتلال، سانت بطرسبورج، ١٨٨٧، ص ٣٣١.
- ٣٠٨ المرجع السابق، ص ٢٣٣.

ما سبق وقفازات سميكة للوقاية من الصقيع . وحظى الأتراك برعاية طبية لا تقل في مستواها عن تلك التي تقدم لقواتنا»^{٣٠٩} .

على صعيد آخر آثار وجود كل هذا الحشد الهائل من الأسرى الأتراك ، العديد من المشاكل لدى السلطة المركزية والمحلية . ولأجل التغلب علي هذه المشاكل ، أصدر الإمبراطور ألكسندر الثاني قراراً بتشكيل لجنة متخصصة في شؤون الجنود الأسرى الأتراك برئاسة كبير الياوران الأمير جولستين . ضمت هذه اللجنة عدداً من الأطباء والعاملين في الحقل الطبي . كانوا يقومون بتفقد الأماكن التي يعيش بها الأسرى وتفقد الحالة الصحية لمساكنهم ويستمعون إلى الشكاوى الواردة منهم ، ويرسلون تقارير بكل زيارة يقومون بها إلى العاصمة لاتخاذ الإجراءات المناسبة^{٣١٠} .

كان من حق كل أسير الإلتحاق بالعمل وهذا يعني الاحتكاك المباشر بالروس ، وهو الأمر الذي دفعهم لتعلم اللغة الروسية . كان الأسرى يضعون نصف راتبهم في الخزينة من أجل الإنفاق عليهم ، وباقى الراتب يتصرفون فيه كيفما يشاءون^{٣١١} .

لقد وقع عدد كبير من القوات التركية في الأسر في فصل الشتاء ، بعد عملية حصار طويلة لحامياتهم . وفي البداية كانوا يشعرون بوعكات صحية ، وضعف عام في قواهم البدنية ، وكانوا منهارين معنوياً ، لذلك أصيبوا تلقائياً بالعديد من الأمراض ، وكان مرض التيفود أكثر هذه الأمراض شيوعاً فيما بينهم . وتفيد التقارير الطبية الصادرة آنذاك أن نسبة الإصابة بالأمراض بين الأسرى الأتراك وصلت إلي نحو ٨٦٪ ونسبة الوفاة إلي ١٥٪^{٣١٢} وكان يتم دفن الموتى منهم وفقاً للشريعة الإسلامية . وحيث إنه لا يوجد مقابر للمسلمين كما في مدينة «شوايا» التابعة لمنطقة فلاديمير على سبيل المثال ، فقد تم تخصيص عدة أماكن لدفن الموتى من الأسرى الأتراك^{٣١٣} .

في ديسمبر من عام ١٨٧٨^{٣١٤} بدأ الأسرى يعودون إلى وطنهم بناءً علي القرارات الصادرة من مؤتمر برلين للسلام ، حيث كان يتم عادة نقلهم في البداية إلي أوديسا ونادراً إلي

- | | |
|-----|--|
| ٣٠٩ | المرجع السابق من ص ٢٣٥ : ص ٢٣٧ . |
| ٣١٠ | الأرشيف التاريخي العسكري للدولة الروسية ، ملف رقم ٤٠٠ ، حافظة رقم ٣ ، وثيقة رقم ٢٠٤٧ السطر ١ : ٨٠ . |
| ٣١١ | المرجع السابق ، وثيقة ٢٠٨٨ ، سطر ٩ . |
| ٣١٢ | التقرير الطبي العسكري ، ص ٣٤١ . |
| ٣١٣ | أنظر : إيفانوف . يو . أ «الأسرى الأتراك في المدينة الروسية» ١٨٧٨ ، مجلة الأرشيف الروسي ، العدد ٤ - ٥ ، ٢٠٠٠ ، من ص ٤٣ - ٤٤ . |
| ٣١٤ | الأرشيف التاريخي العسكري للدولة الروسية ، ملف رقم ٤٠٠ ، حافظة رقم ٣ ، وثيقة رقم ٢٠٥٩ السطر ١٤ . |

سيفاستوبول ومنها إلى القسطنطينية عبر البحر. وقد كانت عملية ترحيل الجنود الأسرى بالفعل طويلة، وذلك بسبب كثرة أعداد الجنود الذين كانوا موزعين في كل أنحاء القطاع الأوروبي من روسيا. ولم يفلح البعض منهم في الوصول إلى أماكن التجمع التي من المفترض أن ينطلقوا منها إلى وطنهم؛ بسبب اعتلال صحتهم. أخيراً في سبتمبر ١٨٨٠ صرح رئيس الأركان أنه «لم يعد هناك أي أسير حرب على الأراضي الروسية»^{٣١٥}.

علمنا أن هناك عدداً من هؤلاء الأسرى لم يرجع إلى وطنه. ووفقاً لبيانات القيادة المركزية الروسية كان هناك ما يقرب من ٤٥ أسيراً تركيا؛ قد حصلوا على الجنسية الروسية طواعية بل وصل الأمر إلى اعتناقهم الديانة المسيحية، كما تخلوا عن أسمائهم التركية ويات لديهم أسماء روسية^{٣١٦}. والرتب الأدنى من هؤلاء الأسرى أقدموا على ذلك لأسباب تجارية، معتقدين أنه سيكون لهم في روسيا نصيب أفضل مما كانوا عليه في بلدهم. وعلى الأرجح فقد ظل الضباط يعيشون في بلاد الغربية لأجل؛ عيون الروسيات. وماذا نقول في ذلك؟ إنه الحب!

نذكر على سبيل المثال إحدى تلك الحالات، وهو الملازم مصطفى كامل، الذي كان يعيش في محافظة كاسترومسك، واعتنق المسيحية في الخامس والعشرين من مايو ١٨٧٩، وغير اسمه ليصبح ألكسندر زاتوف. وفي الخامس من أكتوبر ١٨٨٠ تزوج من أرملة روسية برجوازية تدعى فارفارا فيدروفا^{٣١٧}. وأود أن أشير هنا إلي أنه من المرجح أن يكون مصطفى كامل من أصل مصري.

رأينا كيف هيأت الحكومة الروسية مستوى معيشة جيد، للجنود الأسرى الأتراك. فقد تساوا مع الجنود الروس بل وسمح لهم، بالحصول على فرص عمل للتكسب والترجيح منها. وإذا ما نظرنا إلى هذا التصرف سنجد أنه لم يكن إنسانياً فحسب، بل كان ذا نظرة مستقبلية صائبة بعيدة المدى من الناحية السياسية، حيث تشكل لدى هؤلاء الأسرى معتقد قوي، بأن الروس شعب طيب أصيل الطباع، حتى وإن كان «ملحداً». وبعد عام من البقاء في الأسرى في روسيا، عاد أكثر من مائة ألف أسير تركي إلى وطنهم وهم في صحة جيدة وقد أصبحوا أثرياء يرتدون ملابس جيدة وتمتليء جيوبهم بالمال. وقد ترك هذا أثراً

٣١٥ المرجع السابق، وثيقة رقم ٢٠٨٨ السطر ٤٣.

٣١٦ المرجع السابق.

٣١٧ المرجع السابق، وثيقة رقم ٢١٠٧، السطر رقم ١٤.

طيباً لدى الأتراك بوجه عام وخاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار، ذات تأثير ذلك على أقارب ومعارف وأصدقاء هؤلاء الأسرى . سيبدو واضحاً كيف أصبح لروسيا ، والروس مكانة طيبة داخل قلب كل تركي يعيش في رحاب الإمبراطورية العثمانية ، وباتت تلك المكانة راسخة لدى وجدان الشعب التركي ، ويشهد علي ذلك العديد من السياح الروس .

أشار الرحالة الروسي المعروف ألكسندر يلسيف الذي كان يعيش ويتجول ، في دول الشرق الأوسط في عام ١٨٨١ إلى ذلك في مذكراته : « لقد أثرت الحرب على مئات الآلاف من الأسرى الذين عاشوا في ضيافة الروس بشكل حضاري بل ظهر أثرها علي كافة سكان الإمبراطورية التركية ، حتى يمكنك أن تلتقي على ضفاف نهر النيل بمواطن يتحدث الروسية . وأشار يلسيف إلى حوار مع الصاغ المصري الذي عاد لتوه من الأسر الروسي^{٣١٨} .

من المثير للدهشة أن الذاكرة التاريخية عن تلك الفترة ، التي مكثها الأسرى الأتراك في الأسر الروسي مازالت قوية . يقول المرشد المصري للطبيب ألكسندر جيفاجو من موسكو ١٩١٠ : «إن الناس هنا في مدينة الإسكندرية تألف الروس ، وتكن لهم كل الود والحب، إذ أن العائدين من الأسرى الأتراك بعد الحرب ، قد أشادوا بمواطنوكم ومدحهم بقوة^{٣١٩}» . وهناك رواية أخرى لشاهد عيان ، وهو الصحفي الروسي البارز فاسيلي نيمروفيتش دانتشينكه الذي عمل في فترة شبابه ، مراسلاً عسكرياً أثناء تلك الحرب التي دارت بين روسيا وتركيا . وكتب بعد مرور نصف قرن من تلك الحرب في عام ١٩٢٦ : «إن العلاقة الطيبة التي يكنها العرب للروس تعود إلى تلك الذكريات الجميلة التي حملها الآباء والأجداد الذين كانوا بالأسر الروسي من عام ١٨٧٧-١٨٧٨ ، حيث كانوا يقصون علي أبنائهم وأحفادهم ما وجدوه من كرم ضيافة ، لدى الشعب الروسي الطيب»^{٣٢٠} .

من المعروف أن الحرب تعني الموت والدمار . وغالباً ما تخلق حالة من الشعور بالعداء بين شعوب الدول المتحاربة ، يبقى أثرها لوقت طويل . ولكن لكل قاعدة حالات استثنائية والأمهنا يتعلق بطبيعة المعاملة التي كان يتلقاها ، العدو المهزوم من الفريق المنتصر . فالعرب التي دارت بين روسيا وتركيا ١٨٧٧-١٨٧٨ ساهمت في إحداث حالة من التقارب بين

٣١٨ أنظر : إليسيف . أ . ي «الطريق إلي سيناء» ، سانت بطرسبورج ١٨٨٣ ، من ص ٢ : ص ٤ .

٣١٩ أنظر : جيفاجو . الطبيب - عالم المصريات ، موسكو ١٩٩٣ ، ص ١٤٤ .

٣٢٠ أنظر : نيمروفيتش ، دانتشينكو فاسيلي «أفريقيا في عيون المهاجرين» ، موسكو ٢٠٠٢ ، ص ١٣٩ .

شعوب البلدين بشكل أكبر من تأجيج مشاعر العداة بينهما . فالأتراك والعرب الذين عادوا إلى أوطانهم من الأسر الروسي ، بات لديهم انطباع قوي عن تلك الحضارة العظيمة والمبهرة لأعدائهم المجاورين لهم . وقد تجاوز الروس مع مسلمي الشرق الذين بدوا لهم أنهم أيضا أناس عاديين مثلهم ، واستفادوا منهم دروس محددة . وقد بدا ذلك واضحا في أعوام الحرب العالمية الأولى ، عندما اختفت معالم القسوة الصارمة من جانب الأعداء علي جبهة القوقاز ، وأثناء سقوط الإمبراطورية العثمانية ، وأثناء خروج قوات الروس «البيض» عبر المضيق في تركيا ومنها إلى البلقان .

طلاب في قناة السويس .. الهجرة في عيون المراهقين

كان من بين اللاجئين الروس الذين تم ترحيلهم من نوفوروسيسك ، علي أيدي الإنجليز في ربيع عام ١٩٢٠ مجموعة معينة ، وهم طلاب فيلق الدون^{٣٣١} والذين ظلوا على الأراضي المصرية لفترة من الزمن ، إمتدت إلى أكثر من عامين . وهى فترة تسترعي الاهتمام ، لكن الأمر المثير للاهتمام أن هؤلاء الشباب المراهق قد استقبلوا فكرة نفيهم بطريقة مختلفة تماما عن باقي اللاجئين البالغين . فالنفي بالنسبة لهؤلاء الشباب كان مغامرة ممتعة ، ولم يمثل لهم في حقيقة الأمر مأساة . ” لقد عاشوا في وضع جيد في مصر لقربية ثلاث سنوات^{٣٣٢} ، وكانوا يسبحون خلالها في مياه قناة السويس ويأكلون البلح ، وأصيب أحد هؤلاء الطلاب بطلق ناري ، ولقى طالبين وضابط مصرعهم ، فيما اندلعت بعض الحرائق ، وبالرغم من ذلك ، فقد أمضوا السنوات الثلاث في حالة جيدة . وذلك كما يتذكر الطالب أبالاشوف في عام ١٩٢٣ . ولكنهم اضطروا في النهاية إلى مغادرة مصر علي غير رغبتهم“^{٣٣٣} .

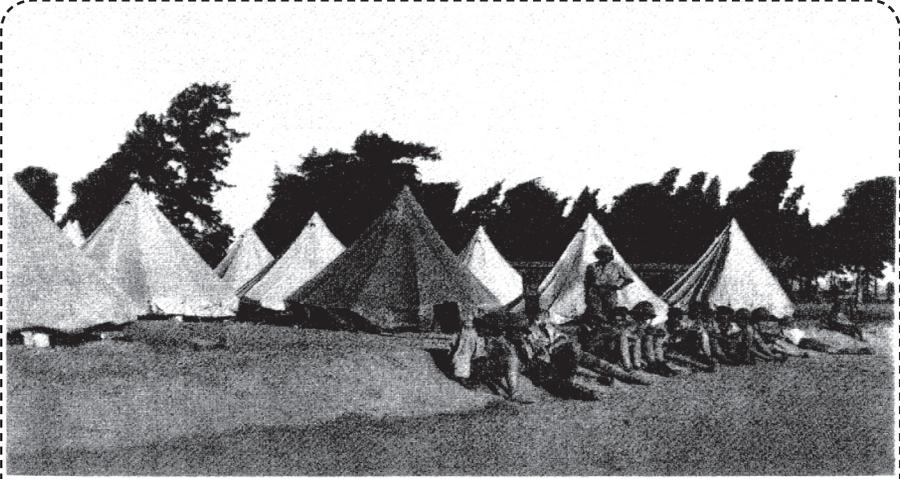
- ٣٢١ عن مقالة : «Кадеты на Суэцком канале. Эмиграция глазами подростков» ، التي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، ٢٠٠٨ ، عدد ١٨ ، للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov . تأسس فيلق تلاميذ المدارس العسكرية بالدون في نوفاتشير كاس في عام ١٨٨٣ بناءً علي قرار الإمبراطور ألكسندر الثالث ، وبعد مصرع الإمبراطور في ٢٠ نوفمبر ١٨٩٤ ، تغير اسم ذلك الفيلق ليصبح «طلاب الإمبراطور ألكسندر الثالث بالدون» (وفي ديسمبر ١٩١٩ ، تم نقله إلي نوفوروسيسك ، وذلك خوفاً من خطر إستيلاء كتائب الجيش الأحمر عليه . أنظر الهجرة الروسية في أوروبا ١٩٢٠-١٩٣٠ ، ساننت بطرسبورج ، ٢٠٠٥ ص ٢٢٦ .
- ٣٢٢ عاشوا بالفعل عامين وثلاثة شهور من مارس/ آذار ١٩٢٠ إلى يونيو / حزيران ١٩٢٢ .
- ٣٢٣ «أبناء الهجرة الروسية» ، موسكو ، ١٩٩٧ ، ص ٢٠٦ .

تم نقل هذا الفيلق من نوفوروسيسك إلى الإسكندرية على متن سفينة "ساراتوف"، مثلهم مثل غالبية اللاجئين المدنيين. ويتذكر، ن. فارويف، الذي كان صبياً صغيراً في الثانية عشرة من عمره في ذلك الوقت: "أن الطلاب واللاجئين المسنين والأطفال والمصابين والمرضى كانوا يشغلون أرجاء السفينة، وكان الطعام على متن السفينة رديئاً، والبسكويت يرتفع فيه الدود. وينظر الصغار بعين الحسد إلى الأغنياء، الذين ظهرت عندهم فجأة علب كبيرة من معلبات إسترالية، تحتوى على لحم الأرنب المعلبة، فقد كان الصغار يشتهونها ويريدون أن ينالوا بعضاً منها ... كانت الانطباعات جديدة، بالإضافة إلى البحر، وأشياء كثيرة لم يشاهدونها من قبل، وكذلك حاله الإضطراب العامة، فضلاً عن الشائعات، والقمل ..."^{٣٤}

بعد أن قضى الطلاب أسبوعين في الحجر الصحي بالإسكندرية، نُقلوا إلى "المعسكر الروسي" في التل الكبير^{٣٥}، الواقع بين القاهرة والاسماعيلية، حيث كانت "الحياة هناك أشبه بنعيم الجنة" - كما يتذكر أحد الطلاب ذو السابعة عشرة ربيعاً من عمره آنذاك في عام ١٩٢٣: "كان الطعام متوفراً وتستطيع أن تأكل قدر ماتريد، وكنا نعيش في مخيمات، وبصفة عامة مضت الأيام بسلاسة، وعلى نحو جيد."^{٣٦}

لأن هذه الحياة الرعدة لم تدم سوى شهر واحد فقط، حيث قرر مدير الفرقة الجنرال ألكسندر فاسيليفيتش تشيرياتشوكين، أن يقوم الإنجليز الذين استقبلوا اللاجئين الروس بنقل الفرقة إلي معسكر خاص. فقد رأى تشيرياتشوكين أن مجاورة أفراد تلك الفرقة للاجئين المسنين في معسكر التل الكبير، تنطوي على مصادر لانتضب من الإغواءات والتأثيرات السلبية على الشباب"^{٣٧}. وأصبح الموقع الجديد لإقامة فيلق الدون أحد المخيمات على شاطئ بحيرة التماسح المواجهة للاسماعيلية.

- ٣٢٤ ذكريات تلاميذ المدارس العسكرية بالدون، مدريد ١٩٧٤، ص ١٨٨ .
- ٣٢٥ ترحيل اللاجئين الروس من نوفوروسيسك إلى التل الكبير، أنظر كتاب فلاديمير بيلياكوف «نحو شواطئ النيل المقدس» و «الروس في مصر» ، موسكو ٢٠٠٣، ص ١٣٦ : ص ١٦١ .
- ٣٢٦ أطفال الهجرة الروسية، ص ٣٣٩ .
- ٣٢٧ جونتشاروف يوري، ذكريات عن فرقة تلاميذ الدون في مصر // أفريقيا في عيون المهاجرين، موسكو، ٢٠٠٢، ص ١٩ .



Лагерь Донского кадетского корпуса под Исмаилией. 1920 год.

صورة توضح شكل الخيام داخل معسكر طلاب المدارس العسكرية بالدون ، والذي كان يقع بالقرب من مدينة الاسماعيلية

يتذكراً. بليشاكوف أحد طلاب تلك الفرقة فيقول : ” كان المعسكر يوجد في مكان جميل على مشارف المدينة ، وكان أمامه طريق طويل يبلغ عرض من خمس إلى ست ساجين (ياردات) ، وفي نهايته تبدأ بحيرة التمساح التي تمر بها قناة السويس . وكانت قناة السويس تبعد عنا حوالي نصف ميل ، وفي الخلف تظهر الصحراء^{٣٢٨} التي يمتد بها خط سكة حديد ، ثم تعاود الصحراء الليبية اللانهائية الظهور من جديد خلف السكة الحديد ، وعلى الجهة اليمنى نرى المدينة ومن خلفها مساحة غنية من أشجار النخيل . وخلف النخيل يبدأ منحنى قناة السويس . لقد وضعونا بالفعل في مكان رائع للغاية ”^{٣٢٩}.

كان المعسكر يتألف من خيام مخروطية الشكل ، وكانت مزدحمة بطبيعة الحال ، حيث كان يسكن في أول الأمر داخل كل خيمة سبعة طلاب ، مما أجبر الإنجليز على إقامة خيام أخرى ؛ لكي يعيش بالخيمة الواحدة أربعة أفراد فقط^{٣٣٠}.

٣٢٨ عدم دقة : حيث يطلق على تلك الصحراء التي تمتد من غرب وادي النيل بالصحراء الليبية ، وفي شرق النيل كان يقع ذلك المعسكر وهنا تمتد الصحراء العربية .
٣٢٩ أطفال الهجرة الروسية ، ص ١٩٤ .
٣٣٠ المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

وضم المعسكر ٢٨٦ من طلاب الفيلق من مختلف الأعمار. هذا إلي جانب ٢٨ عاملاً و ١٢ من ذويهم . ووصل العدد الإجمالي للمعسكر ٣٢٦ فرد . الوضع في المخيم كان سيئاً للغاية ، بحيث لم يكن هناك أي أسرة أو مراتب . وكان الطلاب ينامون على بطانية ، ويتدسرون بأخرى ^{٣٣١} .

غير أن الأسرة ظهرت سريعاً بعد تلك الحادثة الشيقة . يروي لنا هذه القصة أحد سكان هذا المخيم فيقول : ” بمجرد وصول الطلاب الصغار إلى المخيم ، قاموا بعمليات التنقيب حول المخيم . وعثروا في الصحراء علي مسافة إثنين كيلومتر على بناء غريب عبارة عن أكياس من الرمال وصفائح معدنية ، ويجوارها أيضاً كومة من العلب الفارغة ، على ما يبدو وكانت تنكات بنزين . ولأننا لم نشاهد في حياتنا مطلقاً مكان للرماية ، لذلك اعتقدنا أن هذا البناء لا قيمة له . وفي غضون ساعتين لم يبق من موقع الرماية غير تل كالذي يكون فوق قبر قديم ، فقد نقلنا كل شيء إلى المعسكر... وصنعنا منها أسرة والآن لا داعي للخوف من العقارب والحشرات الهائلة ، إلا أن سعادتنا هذه لم تدم طويلاً . ففي صباح اليوم التالي وصلت سرية إنجليزية إلى موقع الرماية ، ويتبع الإثر وصلت إلينا في المعسكر . وقد تعين علينا إعادة تلك الألواح الثقيلة من المعسكر إلى موقع الرماية ، ولكن زب ضارة نافعة ، فسرعان ما تم إحضار أسرة للجميع ^{٣٣٢} .

أعد الجنرال تشيرياتشوكين لتشجيع الطلاب علي الاهتمام بالمخيمات بشكل مثالي ، جائزة دورية عبارة عن العلم الروسي ؛ ليكون جائزة من نصيب المخيم الأكثر نظافةً وتنظيماً . وكان شرفاً عظيماً لكل طالب أن يقوم بتزيين المخيم الخاص به . وسرعان ما ساد النظام في المكان ^{٣٣٣} . كان الطلاب يأكلون بشكل جيد في المخيم . ويروي الطالب يوري جونتشاريف أن الطعام كان وفيراً ”فقد كان هناك مشروبات متنوعة من القهوة والكاكاو والجبن والمربى . وكانت وجبات الغذاء والعشاء مشبعة للغاية“ ^{٣٣٤} ، وكان الطلبة بصرف النظر عن أعمارهم يحصلون على مؤونة غذائية كاملة كالتي تصرف للجندي الإنجليزي ^{٣٣٥} . كان لدى كل طالب بالمخيم أدوات المائدة الخاصة به من

- ٣٣١ أرشيف الخارجية الروسية ، الملف رقم ٣١٧ ، المحفظة ٣/٣٢٠ ، وثيقة رقم ٨٢٠ ، السطر ٦ إلى ٨ .
- ٣٣٢ مذكرات طالب بفرقة الدون ، ص ١٩٢ .
- ٣٣٣ المرجع السابق .
- ٣٣٤ جونتشاريف يوري ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .
- ٣٣٥ مذكرات طلاب فرقة الدون ، ص ١٩١ .

زمزية وسكين ، وملعقة ، وشوكة . كان كل طالب منهم يأخذ أدواته معه عند الطعام ، ثم يعود بها إلي مخيمه مرة أخرى^{٣٣٦} .

حصل أعضاء الفرقة على الزي الرسمي الإنجليزي الأصفر اللون ، والخوذة ذات الوشاح الأحمر ، وقبعة بها ثقوب من الجوانب ، وقميص ، ورابطة عنق ، وسترة ، وملابس داخلية ، وبنطال وسروال وحذاء ، بالإضافة إلى أدوات خاصة لتنظيف الأزرار النحاسية^{٣٣٧} .

جرت الدراسة في أكواخ من أعواد القصب ثم انتظمت بشكل تدريجي ، بالرغم من نقص الكتب والمعلمين . ولم يكن النظام مثلما كان عليه الحال في نوفاتشركاس . وقد لفت انتباه ج.ب. تشيبوتارييف مساعد الجنرال تشيرياتشوكين وهو على متن السفينة "ساراتوف" ، تواجد لفائف من أوراق الطباعة فطلب من قبطان السفينة ، أن يمنحها للفيلق . وفي المخيم تم تصنيع كراسات وكشاكيل من تلك اللفائف الورقية^{٣٣٨} . لكن حدثت مشكلة أدت إلى عرقلة عملية الدراسة وفق ما ذكره الجنرال تشيرياتشوكين : "لم يتم دفع الرواتب لأي شخص ، وبالتالي فقد كان من الصعب إجبار المعلمين والمربين على العمل"^{٣٣٩} . ولم يقتصر الأمر على العجز في الرواتب فحسب ، بل أضف إلى ذلك الوضع السيء والمناخ الحار ، وخاصة مستقبل المعلمين الغامض لم يكن ليشجعهم على استكمال عملية التدريس . يروي الطالب السابق سيتشينكوف : "كنا نذاكر بصعوبة بالغة بسبب حرارة الجو الذي لا يُطاق . وكان الكسل يخيم على الجميع بما فيهم المدرسين"^{٣٤٠} .

على الرغم من ذلك ، كان هناك طلاب متميزون بين أعضاء الفرقة . ففي مطلع عام ١٩٢٢ تلقى أربعين طالباً منهم خمسة طلاب من كل فصل ، منحة مدهشة لقضاء أسبوع كامل بالقاهرة . وأرسل تلك الدعوة قائد الفوج الإنجليزي الذي نُقل مؤخراً من الاسماعيلية إلى القاهرة . وكان الجيران القدامى يوفرون للطلاب المبيت والطعام في معسكرهم . ذهب الطلاب المتميزون لزيارة القلعة والأهرامات والمتحف المصري ، كما حضروا عرض "يفجيني أنيجين" في الأوبرا ، والذي قامت فرقة كييف الأوكرانية بتقديمه على مسرح الأوبرا المصرية^{٣٤١} .

٣٣٦ المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

٣٣٧ المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

٣٣٨ المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

٣٣٩ أرشيف الخارجية الروسية، ملف رقم ٨١٧، محفظة رقم ٣/٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٩٤ ، السطر ٩ .

٣٤٠ أطفال الهجرة الروسية ، ص ٩٣ .

٣٤١ مذكرات فريق الدون ، من ص ١٧٣ إلى ص ١٧٤ .

يتذكر م. جيراسيموف : ” لقد تركت الأهرامات والمتحف المصري انطباعات لا تنس لديهم ” ، وقام بشرح المعالم الأثرية ، عالم المصريات المهاجر جريجوري إيفانوفيتش لوكيانوف ، الذي كان يأتي قبل ذلك لمخيم فيلق الدون لإلقاء المحاضرات “^{٢٤٢} .

استحوذت الرياضة على عقول الكثير من طلاب الفرقة . وكانت الأولوية لألعاب القوى ، والكرة الطائرة وكرة القدم . وكان يوجد في كل فصل فريق لكرة القدم . وكان منتخب المعسكر يعد من أفضل المنتخبات في الاسماعيلية كلها ، ودائماً ما كان يشارك في مباريات ودية مع المصريين ، والإنجليز ، والفرنسيين ، والهنود والماليزيين . ويتذكر بافل شتتين أحد الطلبة ” إن فريقنا عادة ما كان يتغلب على الإنجليز والماليزيين ، ولكن الفريق العربي الأول لمدينة الاسماعيلية أصاب مرمى فرقنا بثلاثة أهداف “^{٢٤٣} .

لم ينس المعلمون التربوية الدينية للطلاب ، حيث تم تجهيز واحدة من الشكنات الست الخاصة بالاحتياجات العامة لتتحول إلى كنيسة . وكان الطلاب هم من قاموا بتجميل وتزيين الكنيسة من الداخل^{٢٤٤} . وكان يخدم بالكنيسة القسيس ديمتري ترويتسكي . وأنشأ الوصي ن.م. فيروشكين وهو قوقازي من الأورال كورالاً رائعاً ، حتى أنه كان يتجول به في فلسطين.

تشرف الكورال بأداء القداس في كنيسة ” قبر الرب “ ، والذي كان يخدم بها بطيرك القدس ، ويتذكر الطالب ن. فاروبيف : ” أنه بعد الانتهاء من أداء القداس قام بطيرك الكنيسة بكسر قطعة من قبر الرب بمطرقة ذهبية خاصة ، وقدمها لممثل فيلقنا لكي يضعها في قاعدة أيقونة “^{٢٤٥} .

عاش الطلاب الصغار في القدس داخل دير نسائي روسي ، في جبل الزيتون . وقبل مغادرتهم للدير تلقى كل عضو هدية من الراهبات الروسيات . كانت في الغالب عبارة عن وسائل مطرزة يدوياً . ويتذكر ن. فاروبيف : ” لقد كان مجئ الكورال لهذا الدير حدثاً كبيراً بالنسبة للراهبات ، فقد تمكنوا من جديد من الاستماع إلى حديث يدور باللغة الروسية “^{٢٤٦} .

- | | |
|-----|--|
| ٣٤٢ | المرجع السابق ، م. لوكيانوف أنظر فلاديمير بيليakov «نحو شواطئ النيل المقدس» ، من ص ٢٢٠ إلى ص ٢٢٢ . |
| ٣٤٣ | أطفال الهجرة الروسية ، ص ١٧٦ . |
| ٣٤٤ | مذكرات طلاب فرقة الدون ، ص ١٨٦ . |
| ٣٤٥ | المرجع السابق ، ص ١٩٧ . |
| ٣٤٦ | المرجع السابق ، ص ١٢٦ . |

في خريف ١٩٢١ أصبح لدى الطلاب جوقة موسيقية كبيرة تعزف الآلات النحاسية. فقد كانت البارجة "أوريل" التي أبحرت من الشرق الأقصى متجهة إلى بنزرت، حيث استقرت هناك بارجة البحر الأسود الحربية، التي لم تستسلم للجيش الأحمر، قد قامت بإلقاء مراسها في بحيرة التمساح. واستدعى القبطان الجنرال تشيرياتشوكين علي متن السفينة. وبعد أن علم أن الطلاب ليس لديهم أوركسترا، قام بإهداءهم الآلات الموسيقية الفائضة عن الحاجة الخاصة بالسفينة، وكانت غالبية الأدوات الموسيقية في حالة يرثي لها. ولكن سرعان ما قاموا بإصلاحها في الاسماعيلية. واشتروا آلات المزمار والكلارينت من بورسعيد بمال، تبرع به أحد أثرياء الاسماعيلية^{٢٤٧}.

أصبح لدى الفرقة كذلك مسرح. وكانت أولى المسرحيات التي تم عرضها عليه هي مسرحية "الرومانسيون لـ"ي.روستان"^{٢٤٨}.

لقد عاش الطلاب في المعسكر دون أن يكون هناك أي اتصال مباشر مع المصريين ويروي ن.فارووبيف أنه: "لم يكن لدينا أي اتصال بالسكان العرب سوى "عايد" ذلك الصبي العربي المسيحي البالغ من العمر ستة عشر عاماً، حيث كان يتعامل معنا بثقة ويتحدث قليلاً من الإنجليزية، ومن العجيب كنا نفهم بعضنا البعض"^{٢٤٩}.

كان يصدر في ذلك المخيم مجلة شهرية بخط اليد باسم "الدون في الغربية" بحجم ورق A4 ويتراوح عدد صفحاتها ما بين ١٨-٢٤ صفحة وكان يحررها كبار الطلاب، في البداية ف.عليموف ثم إي. إيجوروف. كانت المجلة تضم الأعمال الأدبية والإبداعية لمربي فيلق الطلاب، ولم تكن تتطرق للحديث عن نظام المعيشة في المخيم. وكانت الرسومات تصاحب القصص والقصائد الشعرية، وذكريات عن روسيا، وصور للمضاحي المحيطة بالمخيم. وقد أشار المحرر في العدد السابع من المجلة إلى أن: "النصف الثاني من الصحيفة لم يتضمن الكثير من الرسومات؛ بسبب نقص الحبر الخاص بالطباعة". كما ورد في العدد الثالث من المجلة تلك الملحوظة: "رجاء إلى قراء المجلة توخي الحرص في التعامل مع المجلة، وبعد قراءتها داخل الخيام يرجى عدم تأخيرها وتمييرها إلى الطلاب الآخرين"^{٢٥٠}.

٣٤٧ المرجع السابق، ص ١٧١.

٣٤٨ جونتشاروف، يو، المرسوم، ص ٢١.

٣٤٩ مذكرات تلاميذ المدارس العسكرية بالدون، ص ١٩٨.

٣٥٠ الأعداد رقم: ٢، ٤، ٦، ٧ من مجلة «أبناء الدون في الغربية» محفوظة في مكتبة الأرشيف الحكومي لروسيا الاتحادية.

ويمكن التعرف على توجهات طلاب الفرقة من خلال مقطع من القصيدة الشعرية " في الغربية " .

روح روسيا تسود بيننا دائماً ...
وفي المساء حيث الهدوء والسكون
غناء الكورال صاخب ...
ولكنه يسير في تناغم جميل
وتصدح صدى روح قوقازية ...
وفي الليل يعود الهدوء سريعاً للمخيم
وننسى أعباء اليوم في الأحلام
ودائماً ما نحلم بالوطن روسيا
وبالسهول والقرى بالوطن العزيز^{٢٥١} .

علي أية حال ، نلاحظ عند قراءة الكثير من مذكرات الطلاب ، أثناء فترة وجودهم في مصر (خاصة وأن معظم هذه المذكرات قد كتبت بعد عامين من وصولهم الى أوروبا) أنه لم يكن لديهم مشاعر الحنين إلى الوطن ، فالدافع العام لدى الجميع يتمثل في أنهم يسبحون كل يوم في مياه قناة السويس ، ويلعبون كرة القدم ويتسلقون أشجار النخيل بحثاً عن البلح . وكانوا يعيشون حياة جيدة . ونسوق بعض الأمثلة من أبرز مشاهد الإقامة في مصر، التي بقيت في ذاكرة الطلاب .

قال بافل شتيتين : " كنا في مصر نعيش في ظروف جيدة جداً ، غير أن حرارة الجو لم تكن تطاق ، وكنا نسبح في مياه قناة السويس . أتذكر كيف كنا نخرج من الماء إلى شاطئ القناة ، ونتمرغ في الرمل ، ثم نذهب للبحر (يقصد بها مياه قناة السويس - فيبيلياكوف) مرة أخرى للسباحة ، ثم نرتدي ملابسنا ونعود أدرأنا مرة أخرى للمخيم لتناول الغذاء والاستحمام ؛ لأن مياه البحر مالحة بطبيعتها . وعندما تقترب إحدى السفن سرعان ما نسبح نحوها ، فيلقي ركابها النقود والبرتقال والعيش الأبيض . وذات مرة اقتربت من إحدى السفن فقام أحد ركابها بالقاء رغيف من العيش الأبيض نحوي فأمسكته ، ولم يقع في الماء . وكنا نسبح حتى نصل إلي الشاطئ الآخر من القنال .

٣٥١ مجلة «دونتس نا تشوجيبني» ، العدد الرابع ، ص ٥ .

وكنا نجد هناك نقوداً قديمة جداً ، وكنت أحب اصطياد الأسماك هناك“ ^{٣٥٢} .

أما سيتشنكوف (لم يذكر اسمه الأول) فيقول : ” كنا نذهب كل يوم للسباحة في قناة السويس ، ونصل إلى الجهة الآسيوية من القناة ، ونتمشى هناك ، ونقوم بتجميع الخراطيش.. وفي أحيان كثيرة كنا نعر علي نقود ^{٣٥٣}. كنا نذهب يوم الأحد من كل أسبوع لصيد الأسماك ، ونقوم بشوائه في البرية ولكن إذا ما قبض علينا فكانت الأمور تسير بشكل سيئ لأنهم لم يكونوا يسمحوا لنا بذلك . كنا نذهب لجمع البلح وفي نفس الوقت كنا نخشى أن يمسكوا بنا ، فنكون في عداد المفقودين ، لأنهم يضرّبونك إلى درجه أنه بعدها لا تستطيع أن تجلس أو تستلقى على ظهرك . ذات مرة ذهب أحد طلاب فصلنا إلى مزرعة النخيل لكي يجمع البلح ، فأمسكوا به وقطعوا يده بالسكين وأوسعوه ضرباً مبرحاً لدرجة أنه وصل إلى المخيم بصعوبة بالغة . وعرف المعلمون بذلك ولم يعاقبوه ، فيكفي العقاب الذي ناله ، وبالرغم من ذلك فقد واصلنا الذهاب إلى هناك...“ ^{٣٥٤} .

وقال ي . ت . كاروليف : ” تم تنظيم مسابقة للغطس في أحد الأعياد الفرنسية“ ^{٣٥٥} شاركت فيها لأنني كنت أمارس تلك الهواية منذ زمن بعيد . وعندما دلفنا إلى المنزل ، وزعوا علينا سراويل قصيرة للغطس لأن أعدادنا كانت كبيرة . وعندما جاء دورنا في الغطس خرجنا إلى المرسى وغطسنا . للأسف كانت المياه هناك عكرة مما إضطرنى إلى الغطس وأنا مغمض العينين فارتطمت بأحد الأحجار . وكان المكان ضحلاً ومن أثر ارتطامي بالحجر كانت قدمي تظهر من المياه . كان ذلك بالقرب من الشاطئ ، وأخذ الجميع يضحك علي هذا الموقف وهو ما تنامي إلى علمي بعد ذلك . ولم يوقفنى ذلك من مواصلة الغطس مرة ثانية . وحصلت على المركز الثاني وتسلمت جائزة تقدر بنحو خمسين قرشاً (أي نصف جنيه إنجليزي) . ثم أخذونا إلى الجانب الآخر من المدينة في اتجاه المطار ، حيث ركبنا الطائرات المتواجدة هناك“ ^{٣٥٦} .

- | | |
|-----|--|
| ٣٥٢ | أطفال الهجرة الروسية ، ص ٧٦ . |
| ٣٥٣ | كانت تدور معارك حربية بين القوات البريطانية والتركية في شبه جزيرة سيناء في سنوات الحرب العالمية الأولى . |
| ٣٥٤ | أطفال الهجرة الروسية ، ص ٩٦ . |
| ٣٥٥ | كان يوجد بالاسماعيلية المقر الإداري لشركة قناة السويس ومعظم العاملين بها من الفرنسيين . |
| ٣٥٦ | أطفال الهجرة الروسي ، ص ٩٧ . |

لكن يبدو أن الحنين للوطن يظهر هنا، لدى أحد أعضاء تلك الفرقة بشكل واضح، وهو طالب في الثامنة عشر من عمره كتب في مذكراته: " لقد تحقق حلمي المنشود أخيراً بالوصول إلي أفريقيا - ولكن هل كان راضياً عن ذلك أم لا ؟ سترى عزيزي القاريء بنفسك، لقد كنا نعيش في الحزام المعتدل من الكرة الأرضية ثم انتقلنا إلى الحزام الاستوائي . في البداية كنا سعداء بالحرارة التي كانت تصل إلى أربعين درجة مئوية واستمتعنا كذلك بالحقول الخضراء الإستوائية . غير أن نمط الحياة غير المتغير وحرارة الجو ورمال الصحراء قد دفعتنا نحو الحنين بإخلاص للوطن روسيا بحقولها ومروجها الفسيحة الغناء وأهلها المغامرين ، الأمر الذي نفتقده هنا . حيث أتذكر في كل خطوة أخطوها تغريد الطيور في حديقتنا . فمن الطبيعي إذن ، أن يشعر أي إنسان كان يعيش حراً طليقاً وسط المروج والسهول ، ثم ينتقل فجأة إلي الصحراء البرية ، بالملل والمعاناة ويتذكر الماضي " ^{٣٥٧} .

في الثاني والعشرين من فبراير ١٩٢٢ منحت بريطانيا الاستقلال الرسمي لمصر . وعلى أثر ذلك صوت البرلمان البريطاني على وقف تمويل معسكر اللاجئين الروس في مصر من مطلع يوليو (المعسكر الرئيس كان يوجد في سيدي بشر بالإسكندرية) وعلم الطلاب أنهم سرعان ما سيغادرون الأراضي المصرية . يتذكر يوري جوتشاروف : " أن هذا القرار سبب لديهم حالة من الارتباك والذهول في نفس الوقت ، خاصة وأن مصر أضحت بمثابة الوطن الأم بالنسبة لهؤلاء الطلاب " ^{٣٥٨} . تم إرسال الطلاب الصغار للإلتحاق " بالمدرسة الروسية " التي أنشأها الإنجليز في مدينة بيوك دير القريبة من إسطنبول ، والتي كانت مقراً سابقاً للسفارة الروسية خارج المدينة . وتم إرسال باقي الفريق إلى مدينة فارنا البلغارية . وهناك بشهادة الطلاب انهار تماماً فيلق طلاب الدون . وظل قسماً من طلاب الفيلىق في بلغاريا ، وأرسل الباقي إلى التشيك ، وتحديداً إلى مدرسة شومن الروسية الثانوية ^{٣٥٩} . وفي هذه المدرسة كتب الطلاب الروس مذكراتهم في الفترة فيما بين عامي ١٩٢٢- ١٩٢٤ ، التي نُشرت في كتاب " أطفال الهجرة الروسية " .

٣٥٧	المرجع السابق ، ص ٣٧٨ .
٣٥٨	المرجع السابق ، ص ٢٢ .
٣٥٩	المرجع السابق ، ص ٣٧٢ .



صورة لطلاب المدارس العسكرية

الفنان إيفان ياكوفليفيتش بيليبين في مصر



الفنان الروسي إيفان بيليبين

بعد اندلاع ثورة ١٩١٧ في روسيا ، هاجرت مجموعة من النخبة المثقفة إلى خارج البلاد. وكان من ضمن تلك النخبة الفنان الروسي البارز إيفان ياكوفليفيتش بيليبين (١٨٧٦-١٩٤٢). وفي مطلع عام ١٩٢٠ تم ترحيله مع مجموعة من اللاجئين على متن السفينة "ساراتوف" من نوفوروسيسك إلى الإسكندرية (بمصر) ومز على معسكر اللاجئين الروس في التل الكبير ثم استقر في القاهرة .

لم يكن إي. بيليبين بمفرده في مصر بل كانت بصحبه طالته النجيبه لودميلا (١٨٩٦-١٩٩٥) ابنة يفجيني نيكولايفيتش

تشيريكوف (١٨٦٤-١٩٣٢)، حيث تفجرت حالة من العشق بين الفنان الرسام الوحيد ومساعدته الشابة. وعندما غادرت لودميلا مصر إلى أوروبا في أبريل من عام ١٩٢٢ ظل بيليبين يرسل لها رسائل مفصلة، كل أسبوع علي مدار عام بأكمله. وتعد هذه الخطابات مصدراً هاماً ليس فقط لدراسة تفاصيل حياة وإبداع الفنان العظيم ، بل وكذلك للتعرف علي الوضع في مصر آنذاك ووضع الجالية الروسية البيضاء في هذه البلاد .

في مطلع عام ١٩٩١ أهدت لودميلا تشيريكوفا التي كانت تعيش بالولايات المتحدة في ذلك الوقت ، برفقة زوجها شنيتنيكوف ، خطابات إي. بيليبين لصندوق الثقافة السوفيتي^{٣٦} وقد نجحت في صيف ذلك العام في الاطلاع علي مضمون تلك المراسلات. وأوردت

٣٦٠ عن مقالة: И.Я. Билибин в Египте ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي» إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov ، توجد حالياً خطابات لودميلا للفنان بيليبين في أرشيف الخارجية الروسية ، متحف مارينا تسيفيتايفا ، موسكو.

بعضاً منها في مؤلفاتي عن الروس في مصر^{٣١١}. وكتبتُ إلى لودميلا أستوضح منها بعض الأمور المبهمة بالنسبة لي في تلك المراسلات.

وقد أوردت هنا بعضاً من تلك المراسلات الخاصة بالفترة التي قضاها بيليبين في مصر، والتي تبادلها مع لودميلا تشيريكوفا. أما بالنسبة للمراسلات الخاصة بالفنان ذاتها فقد أفردت لها فصلاً منفصلاً بعنوان "إ.ي. بيليبين في مصر ١٩٢٠-١٩٢٥: وثائق ومواد"، تم إعدادها بالإشتراك مع معهد الاستشراق بأكاديمية العلوم الروسية و متحف مارينا تسيفيتايف^{٣١٢}.

فلاديمير بيلياكوف - ل.ي. تشيريكوفا
القاهرة، ٢٣ سبتمبر ١٩٩١^{٣١٣}
العزيرة لودميلا يفجينيفنا!

لقد اطلعتُ بشغف بالغ علي خطابات الفنان إ.ي. بيليبين المرسلّة إليكم، والتي أهديتها مؤخراً لصندوق الثقافة السوفيتي. وأود أن أعلمكم أنني بصدد الانتهاء من كتابي عن الروس في مصر. وقد نُشرت مقتطفات منه في صحيفة "برافدا". وأفردتُ مساحة كبيرة في الكتاب للحديث عن تلك الفترة التي قضاها الفنان بيليبين في مصر. وجمعتُ مادة خصبة حول هذا الموضوع على مدار خمس سنوات من العمل في مصر، مع البحث الدؤوب في نفس الوقت في الأرشيفات والأدبيات السوفيتية. وكما تعلمين فإن مثل هذا العمل لا يمكن أن يحمل نهاية منطقية. فلديّ العديد من التساؤلات والشغرات التي أمل أن تساعدني في الإجابة عليها.

إنني على علم بظروف وملابس إقامتكم بمصر. ولكن كنتُ أود أن أعرف متى وأين تعرفتي على بيليبين؟ وهل كان ذلك في باتيليمان^{٣١٤} أم في بيتروجراد؟ من المعروف أن بيليبين كان يسكن في شارع الأنتيخانة (وقد تغير اسمه الآن) ولكني وجدت أرقام عدة للمنزل الذي كان يقطن فيه بيليبين تارة منزل رقم ٢، وتارة أخرى منزل رقم ١٣، وذلك في عدة مصادر مختلفة ولكن ماهو رقم المنزل الذي كان يعيش فيه بيليبين تحديداً^{٣١٥}؟ ومن غير المستبعد أن يكون هذا البيت مازال قائماً حتى الآن.

٣٦١ فلاديمير بيلياكوف. إقفاء آثار سفينة «بيرسيفيت»، القاهرة، ١٩٩٤ من ص ١٦٧-١٨٠، أنظر كذلك «أفريقيا محمية الطيور المهاجرة» موسكو، ٢٠٠٠ من ص ١٥٧ إلى ص ١٦٨.

٣٦٢ نُشر هذا الكتاب في موسكو في نهاية عام ٢٠٠٩، وقدم عرض له في إطار معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٠.

٣٦٣ حيث كان المؤلف يعمل في هذه الفترة كمراسل خاص لصحيفة «برافدا» بالقاهرة.

٣٦٤ باتيليمان: منتج ساحلي في منطقة القرم، حيث كان يمتلك بيليبين وأسرة تشيريكوف عدة فيلات هناك، ظلوا بها في الفترة من عام ١٩١٧ - ١٩١٩.

٣٦٥ كان يشار في الخطابات التي يرسلها بيليبين إلي عنوان الراسل «١٣ ش الأنتيخانة»، ولم يُشر إلي رقم المنزل الذي يقطنه بيليبين.

تسنى لي في العام الماضي، البحث داخل إحدى الكنائس اليونانية القديمة بالعباسية (بالقاهرة) ووجدت ثلاث أيقونات من أعمال بيليبين وهي: البشارة، ورؤساء الملائكة ميخائيل وجبريل. وتحمل الأيقونات الأحرف الأولى «إ. ب» بتاريخ ١٩٢١ والإطار المحيط بالأيقونات مكتوب عليه أنه صنع في شارع الأنتيكخانة^{٣٦٦}. أعتقد أن عدد اللوحات الخاصة بالفنان بيليبين الموجودة في تلك الكنيسة، هي أكثر من ثلاث لوحات. ولكن كان من الصعب علي التعرف عليهم. وأرجح أن تلك اللوحات رُسمت في وجودك وربما بمشاركةك بها. فهلاً أخبرتنا بقصة كل لوحة؟ وهل من الممكن أن تروي لنا عما إذا كان بيليبين رسم أية لوحات أخرى لأية كنيسة أخرى؟

أريد أن أعرب عن خالص أسفي، نظراً لوجود خطأ مطبعي في الأحرف الأولى الخاصة بك في مقالي بصحيفة "برافدا" عن لوحات بيليبين^{٣٦٧}.

أكون شاكراً لسيادتكم إذا ما حدثتني عن تلك الفترة التي قضيتها في مصر. وأين كنت تعيشين بالقاهرة، ماذا كنت تعملين إلى جانب مساعدة بيليبين، ومع من كنت تتواصلين؟ لقد ورد في خطابات بيليبين لكم تلك الأسماء مثل: ليليافسكي^{٣٦٨}، وساندر^{٣٦٩}، وببيكوف^{٣٧٠}، ويوريتسين^{٣٧١}، ولوكيانوف^{٣٧٢} والبروفسير جولينشيف^{٣٧٣}

٣٦٦ لمزيد من التفاصيل عن البحث عن هذه الأيقونات، أنظر كتاب «تعقب آثار الباهرة بيريسفيت» لفلاديمير بيلياكوف، من ص ١٣١ إلى ص ١٣٢، وكذلك كتاب «أفريقيا مأوى الطيور المهاجرة» من ص ١٢٢-١٢٤.

٣٦٧ صحيفة برافدا، العدد رقم ٩، ١٩٩٠.

٣٦٨ ليليفاسكي سيرجي نيكولايفيتش، ١٨٩١-١٩٦٣، مهندس إتصالات، متزوج من ليليا فيسكايا كاترينا سيبرودونوفنا (وتوفيت بالقاهرة عام ١٩٦٣، عن عمر يناهز السبعين)، أنظر: "المقبرة الروسية في مصر" لفلاديمير بيلياكوف، موسكو، ٢٠٠١.

٣٦٩ ساندر أولجا فلاديميروفنا، فنانة، مساعدة بيليبين في رسالة الماجستير الخاصة به بالقاهرة، متزوجة من الطبيب ساندر بيتر فيدروفيتش وبعد ذلك غادروا مصر متوجهين إلى أوروبا دون معرفة تاريخ المغادرة.

٣٧٠ بيبكوف ألكسندر سيرجيفيتش (توفي بالقاهرة ١٩٤٧) مهندس، فنان، أحد مساعدي بيليبين في رسالة الماجستير بالقاهرة، أنظر "مقبرة الروس في مصر" لفلاديمير بيلياكوف.

٣٧١ يوريتسين سيرجي بيتروفيتش (١٨٧٣ - ؟؟؟)، صاحب دار نشر، هاجر إلى مصر عقب الثورة من ١٩٠٥-١٩٠٧، ومن المرجح أن يكون قد غادر الأراضي المصرية بعد وفاة زوجته إليسا ألكسندروفنا ١٩٢٩، أنظر فلاديمير بيلياكوف "مقبرة الروس في مصر".

٣٧٢ لوكيانوف جريجوري إيفانوفيتش ١٨٨٥-١٩٤٥، أستاذ في علوم المصريات، وزوجته لوكيانوفنا إليزابيت سيرجيفنا (١٨٨٨ - ؟؟؟) متخصصة في الفن البيزنطي، ويبدو أنها قد غادرت البلاد بعد وفاة الزوج، أنظر: فلاديمير بيلياكوف "نحو شواطئ النيل المقدس" موسكو، ٢٠٠٣ من ص ٢٢٠: ص ٢٢٣.

٣٧٣ جولينشيف فلاديمير سميرنوفيتش (١٨٥٦-١٩٤٧) أستاذ روسي بارز في علم المصريات، قام بتجميع آثار المسيحية المصرية القديمة الموجود بمتحف بوشكين للفنون بموسكو. عاش في نيس بفرنسا منذ عام ١٩١٠، في سنوات ١٩٢٠ قضى الشتاء بمصر حيث كان يحاضر بجامعة القاهرة.

(سأفرد له في كتابي فصلاً كاملاً عنه)^{٣٤} ما قصة هذه الشخصيات؟ في انتظار رد سيادتكم بفارغ الصبر. ويمكنك تسجيل الرد علي شريط كاسيت إذا ما كان هذا مناسباً لك.

طلب أخير، سأكون ممتناً لك إذا ما أرسلتي لي صورة لك ولبيلبين أثناء تواجدكما بالقاهرة. بالطبع سيكون لديك صور عن تلك الفترة. مع خالص الشكر ووافر الاحترام.

بيلياكوف فلاديمير فلاديميروفيتش - مراسل صحيفة "برافدا" بالقاهرة. من أرشيف المؤلف، ملف "الروس في مصر - ٠٤"، السطور ٢٤٢-٢٤٣.

خطاب ل.ي.تشيريكوفا إلى فلاديمير بيلياكوف^{٣٥}

١١ أكتوبر ١٩٩١

فلوريدا. الولايات المتحدة الأمريكية.

العزیز فلاديمير فلاديميروفيتش.

رداً على خطابكم الذي قرأته بسعادة بالغة واستلمته مؤخراً في الثلاثين من شهر سبتمبر ١٩٩١، فهو يعتبر بالنسبة لي بالفعل «اللحظة الأخيرة». ففي الثاني والعشرين من نوفمبر ١٩٩١ أكون قد بلغت الخامسة والتسعين من عمري. من الممكن أن تنتهي حياتي في أية لحظة لأنني مريضة جداً، ولكني على الرغم من ذلك ما زلت أحتفظ بذاكرة قوية. بالنسبة لخطابات بيليبين التي أهديتها لصندوق الثقافة السوفيتي كان لها طابعا خاصاً. ومن الممكن أن تساعدك جزئياً في استيضاح الكثير من الأمور في عملك. ولكن لا بد من الإشارة إلى أن تلك الرسائل تخص الفترة فيما بين عامي ١٩٢٠-١٩٢٦.^{٣٦}

بالمناسبة فقد سلمت «مذكراتي» لـ «ف.ب.أنيشيرلوف» رئيس تحرير مجلة «ناشي ناسليديا» (تراثنا) لكي ينشرها في المجلة. وإنكم ربما تعلمون بهذا الأمر.. وإذا ما كان في العمر بقية أمل أن أطلع عليها قبيل عيد الميلاد لعام ١٩٩١ في مجلة «ناشي ناسليديا» (تراثنا)^{٣٧}. وإذا ما اطلعت علي «مذكراتي» سيتكشف لك النقاب عن الكثير من الأمور في عملك.

- ٣٧٤ فلاديمير بيلياكوف «تعقب آثار باخرة بيريسفيت» من ص ١١٥ : ص ١١٧ ، وكذلك كتاب «أفريقيا مأوى الطيور المهاجرة» ص ١٢٥ : ص ١٣٧ .
- ٣٧٥ ورد الخطاب بتلك الإختصارات في كتاب «تعقب آثار بيريسفيت» لفلاديمير بيلياكوف ، ص ١٩٣ : ص ١٩٦ ، وكتاب «أفريقيا مأوى الطيور المهاجرة» من ص ١٨٠ : ص ١٨٢ .
- ٣٧٦ في الواقع من عام ١٩٢٠-١٩٢٣ .
- ٣٧٧ تشيريكوفا ، لودميلا «ذكريات عن بيليبين» // ناشي ناسليديا ، العدد رقم ٦ ، ١٩٩١ .

بالنسبة لسؤالك المتعلق ببداية التعارف على إي.بيليبين ، أستطيع أن أقول إننا التقينا في سانت بطرسبورج منذ زمن . فقد كان إيغان ياكوفليفيتش صديقاً عزيزاً والدي الكاتب إي.ن.تشيركوف . كان والدي يصطحبنا لمشاهدة الصور واللوحات الفنية الخاصة بإيغان بيليبين ، وذلك عندما كنت فتاة بضع فئات (كان بيليبين يكبرني بعشرين عاماً) وكنت مولعة جداً بالفن آنذاك . لقد أصبحنا أصدقاء في فترة صعبة جداً وهي فترة الحرب والثورة في باتي ليمان ، حيث كانت أسرتي تمتلك فيلا هناك وكذلك إيغان ياكوفليفيتش . وكان بيليبين يذهب إلى هناك وبرفته تلميذته الرسامة الفنانة الشابة الجميلة رينيه أوكونيل^{٣٧٨} كنا نذهب سوياً لسماع الموسيقى ونستمع بالرسم . ولكن في هذا التوقيت الصعب كان بيليبين يذهب إلى باتي ليمان بمفرده أعزب ويجهد نفسه بالعمل . وكان يرسم لوحات بالقلم الرصاص لوجه والدي وشقيقتي الكبرى ، وكذلك لي وذلك في عام ١٩١٩ .

ازدحمت الضيعة بعد ذلك وبات الوضع أكثر صعوبة . كنا في حاجة إلى الطعام والكيروسين للإضاءة . وكنا نذهب بحثاً عنهم في سيفاستوبول وبالطا على الخيول . ونحمد الله أن الصيادين كانوا يمدوننا بالأسمك .

فيما يتعلق برسومات حامل الأيقونات ، في الكنيسة اليونانية بالعباسية بالقاهرة ، فقد رُسمت بالفعل أمام عيني : وإنني أتذكر جيداً أن حامل الأيقونات كان يتكون من ثلاث أيقونات فقط . وأعتقد أنه لم يتجاوز ذلك العدد ، ولم يتم إضافة أي شيء آخر لتلك الأيقونات ، ولم يعد بيليبين إلى تلك الأيقونات مرة أخرى . ولم أكن مساعده في تلك الأيقونات بل كان هناك شخص آخر يدعى إيساول^{٣٧٩} ، فمن المعروف أن العمل في رسم الأيقونات يتطلب مهارات خاصة ، واتقان لعملية الطلاء بالذهب . أتفق معك في أهمية الحصول على هذه الأيقونات وترميمها . ومن الضروري الكشف عن بعض اللوحات الصغيرة التي لاتحمل طابعاً دينياً لدى ملاكها المصريين ، والحصول على الأقل على نسخة طبق الأصل منها . أتذكر الآن المليونيرات اليونانيين الذين كانوا يعيشون بالقاهرة والإسكندرية ، مثل بيناكي الذين كانوا يمتلكون مزارع شاسعة لزراعة

٣٧٨ أكونيل رينيه رودولفونفا ١٨٩١-١٩٨١ وهي فنانة خزف ، والزوجة الثانية لإيغان بيليبين ، ولكن لم يتم تسجيل هذا الزواج .

٣٧٩ لم يتسن التوصل إلى لقب إيساول ، مساعد بيليبين .

قصب السكر في مصر. وليس في وسعي الآن أن أتذكر باقي الأثرياء ، الذين كانوا يقومون بشراء لوحات إيفان يكوفيليفتش .

لاشك أنك تعلم تمام العلم أنه عند وصولنا إلى مصر ، كان قد تم تسكين جميع المهاجرين الروس في معسكر بالتل الكبير . وظل البعض هناك لفترة طويلة . وقد عرض على الراغبين مغادرة المعسكر إطلاق سراحهم بشرط ، عدم الحصول على أي مساعدة من قبل السلطات المحلية .

لقد غادرتُ روسيا مع شقيقتي الصغرى فالانتينا^{٣٨٠} . وكان لدينا في مصر أصدقاء كثر إلى جانب بيليبين ومنهم : ماجدالينا فلاديميروفنا ستيبانوفا ، وهي زوجة لأحد أعضاء مجلس الدوما ، وكانت تعتبر نفسها والدتي المصرية . أتذكر كذلك اثنين من رجال الصحافة الروس من أصدقاء والدي ، وكانا بمحض الصدفة يحلمان لقب عائلة واحد وهو يابلونوفسكي ، وأتذكر أحدهما ويدعى سيرجي^{٣٨١} . وكان من بين أصدقائنا كذلك البروفسير عالم المصريات لوكيانوف والذي ذهب معنا إلى صعيد مصر تحت رعاية رئيس النادي الروسي (بالقاهرة)^{٣٨٢} . هؤلاء الناس الذين كان لديهم قدر من المال ، خرجوا من المعسكر سريعاً وعلى رأسهم بيليبين وأنا وشقيقتي ومدام ستيبانوف العريضة . وقد سكنتُ مع شقيقتي في بنسيون إنجليزي باسم «Young Women Christian Association»^{٣٨٣} في القسم الأوروبي من القاهرة^{٣٨٤} . صنع بيليبين مرسماً له في شارع الأنتيكخانة الذي تعرفه جيداً ، ولكنني للأسف الشديد لم أعد أتذكر رقم المنزل .

كان البنسيون الذي كنا نقطنه ذا التوجه المسيحي منظماً بشكل جيد . فكنا نأكل ونشرب ونحتمى به من تقلبات الحياة . كان مسموحاً لكل الأصدقاء والمعارف بزيارتنا . كنا نستقبلهم في غرف الاستقبال الجميلة والمريحة بالطابق الأول حيث لم

- ٣٨٠ تشير كوفالنتينا فيجينينا ، ١٨٩٨-١٩٨٨ ، عاشت في المهجر من ١٩٢٠ - ١٩٤٨ .
- ٣٨١ يابلوكوفسكي ألكسندر ألكسندروفيتش ١٨٧٠-١٩٣٤ أديب وخبير بالقانون الدولي ، يابلونوفسكي سيرجي . ف - خبير بالقانون الدولي .
- ٣٨٢ كان رئيس نادي الروس بالقاهرة آنذاك هو المحامي كيريل أوسوبوفيتش تيخي (١٨٧٧-١٩٣٦) ، وهاجر إلى مصر قبل ثورة ١٩١٧ ، أنظر : « نحو شواطئ النيل المقدس » (فلاديمير بيلياكوف» ، ص١٦٧ .
- ٣٨٣ رابطة الفتيات المسيحيات (من الإنجليزية) .
- ٣٨٤ يقصد به منطقة وسط القاهرة الآن ، التي صُممت علي الطراز الأوروبي في عهد الخديوي اسماعيل (١٨٦٣-١٩٧٩) .

يكن من المفضل الصعود بهم إلى غرف المعيشة. وهو الأمر الذي كان مسموحاً به فقط، للخدم العرب الذين كانوا يرتدون الباطو الأبيض والوشاح الأحمر، وكانوا يصعدون إلينا في الطابق الثاني ليخبرونا بوصول الضيوف. وكان الفندق مؤمناً بشكل جيد، وكان يتم إغلاق البوابات الكبيرة أثناء الليل؛ للحماية من أية هجمات متوقعة من البلطجية أو المشاركين في أعمال الشغب، التي كانت تنتشر في تلك الفترة في المدينة^{٣٨٥}. وكان البنسيون على مقربة من مرسوم إيفان ياكوفليفيتش بليبين وكنت أذهب مع أختي إلى هناك سيراً على الأقدام كل يوم.

كنتُ أحياناً أعمل في المتحف العربي^{٣٨٦}، وكنتُ أشارك في عمل اسكتشات الفخار القديمة لمدير المتحف، الذي كان يُعد كتاباً عن الخزف الفارسي. وكنتُ أستعين بأحد الحوذيين لكي يقلني إلى المتحف العربي المتواجد في الجزء العربي من المدينة. وكانوا متوفرين بشكل ملحوظ في الأحياء الأوروبية. وكانت وسيلة النقل عبارة عن عربّة أنيقة يجرها اثنان من الخيول. وبالنسبة لشقيقتي فقد وجدت عملاً لها كممرضة في إحدى المستشفيات.

كنا دائماً ما نذهب برفقة أصدقائنا، إلى الحي العربي بالقاهرة لزيارة بازار الموسكي الشرقي الشهير^{٣٨٧} حيث تُباع فيه المقتنيات الثمينة بدءاً من الفخار والخزف وانتهاءً بالسجاجيد كنتُ أنطلق مع شقيقتي بصحبة إي. بيليبين. من مأوانا المسيحي الذي نقطنه. إلى أرجاء المدينة لنشاهد أبرز معالمها.

أريد أن أؤكد للمرة الثانية على أن كل المعلومات المهمة بالنسبة لك، يمكنك أن تجدها في «مذكراتي» التي سبق وأن ذكرتها من قبل، ولا أعلم هل أطلعت عليها أم لا؟

أما فيما يتعلق بالصور الفوتوغرافية، فلدي منها القليل وأغلبها في حالة سيئة.

أشير إلى أن أفضل تلك الصور قد تم طباعتها في مؤسسة للنشر

«IVAN BILIBIN» (text by) Sergei Golynets, Harry N. Abrams, inc., New York, Aurora Art. Publishers, Leningrad).

- | | |
|-----|---|
| ٣٨٥ | شهدت مصر في الفترة من ١٩١٩-١٩٢١ صعود لروح حركة التحرر الوطنية، والتي أدت إلى إنهاء الإنتداب البريطاني على مصر وإعلان إستقلالها التام في ٢٨ فبراير/ شباط ١٩٢٢. |
| ٣٨٦ | متحف الفن الإسلامي. |
| ٣٨٧ | يقصد هنا شارع خان الخليلي القريب من حي الموسكي. |

أريد أن أشير كذلك إلى معلومة غير واضحة، في هذا الكتاب الثري بالمعلومات القيمة: جاء في الصورة رقم ١٢٠ أسفل صورة شقيقتي فالانتينا ورد فيها اسمي بالخطأ. وسيكون من الجيد، لو أن هذا الإصدار تضمن صوراً لوالدي وشقيقتي الكبرى وصور ألي^{٣٨٨}.

أتذكر كذلك مغادرتي من القاهرة في عام ١٩٢٢، حيث كان يتعين علي السفر إلى دولة التشيك، للحاق بوالدي الذي كان ينتظر وصول باقي أعضاء الأسرة بفارغ الصبر ومزيد من القلق. وكان لابد علينا جميعاً مساندة والدي في مثل هذا التوقيت الصعب؛ لكي نساعدته في التغلب على مشاق السنوات الأولى بالمهجر.

أود أن أشير إلى أنني غادرت القاهرة، متوجهة إلى أبي في التشيك في عام ١٩٢٢. وفي فبراير عام ١٩٢٣ تزوج بيليبين صديقه القديمة الفنانة الصديقة ألكسندرا شياتيخينا باتوتسكي^{٣٨٩}، التي قدمت إليه من روسيا وقد كتب بيليبين عن ذلك في أحد خطابه لي. ولهذا السبب فقد توقف الجانب العاطفي في خطابه. أتذكر أننا افترقنا كأصدقاء حقيقيين لأننا كنا نتعامل مع بعضنا البعض بتفاهم واحترام. وعندما رحلت قال لي إيفان بيليبين بالحرف ما يلي: "إذا ما حدث وافترقنا ولم يعد كل منا يرى الآخر. فتذكرني أنه مهما كنت في أي مكان على وجه البسيطة، وعندما تحين ساعة الموت ولن أقدر على الكلام سألوح لك مثل كلب عجوز بذيله ذو الشعر الكثيف"^{٣٩٠}.

سأكون سعيدة إذا ما استطعت مساعدتك، ولكني أعتقد أن لديك العديد من مصادر المعلومات. أريد أن أعلم أين توجد الآن مجموعة الأعمال الفنية الكاملة لبيليبين، وهل ستنضم إليها اللوحة الخاصة بي^{٣٩١}.

رجاء إذا كنت تعلم أي شيء عن ذلك، وكان لديك متسع من الوقت فاكتب لي بايجاز عن ذلك (حتى ولو عنوان المتحف).

خالص الأمنيات الطيبة ومزيداً من التوفيق في عملكم، مع وافر الاحترام.
لودميلا تشيركوف شنيثنيكوف

- | | |
|-----|--|
| ٣٨٨ | تشيركوف نوفيلا يفجينينا (١٨٩٤ - ١٩٧٨) . |
| ٣٨٩ | شيكاتيخينا باتوتسكايا ألكسندرا فاسيلينا (١٨٩٢ - ١٩٦٧) فنانة خزف . |
| ٣٩٠ | الصورة مستوحاة بسبب وفاة أحد الكلاب التي كان يربها بيليبين في مرسومه ، وكان يُدعى هذا الكلب باسم خوفو ، وعند وفاته كان يشير بذيله إلي صاحب الرسم . |
| ٣٩١ | يقصد بها اللوحة المرسومة بالقلم الرصاص ل . ي . تشيركوف ، التي رسمها إ . ي . بيليبين في بالتيمان ١٩١٩ ، والمحافظة الآن في متحف مارينا تسفيتوفا . |

من أرشيف المؤلف ، ملف ” الروس في مصر-٥٤ “ ، السطور من ٢٥٥-٢٥٩ نسخة أصلية .

خطاب فلاديمير بيلياكوف إلى ل.ي.تشيريكوف

١٧ أبريل ١٩٩٢ القاهرة

السيدة المحترمة لودميلا يفجينينا .

لا أستطيع أن أصف مدى سعادتي بالعثور على الكنز الذي توصلت إليه مؤخراً بفضل هديتكم الرائعة ، المتمثلة في خطابات إيفان ياكوفليفيتش بيليبين ، والتي أهديتها لها لصندوق الثقافة السوفيتي^{٣٩٢} ، وللأسف فقد سمحت رئاسة تحرير مجلة ” إيخا بلانيتا “ صدى الكوكب ” الأسبوعية بنشر الصور الأبيض في أسود فقط ، ولكن لم يتم نشر المنظر الكلى للوحة لسبب لا أعلمه . ولكن وبالرغم من ذلك ، فقد بات لدى القاريء إمكانية التعرف على باكورة أعمال الفنان الرائع غير المعروفة^{٣٩٣} .

بالنسبة لمذكراتك التي نشرتها مجلة ” ناشي ناسليديا “ (تراثنا) ، وقرأتها الأسرة بأكملها ، و قمت بإدراج مقتطفات منها في كتابي^{٣٩٤} .

أريد أن أطرح عليك سؤالين قصيرين : السؤال الأول بعد مغادرتك مصري عام ١٩٢٢ ، هل أتيت لك الفرصة والتقيت مع إيفان ياكوفليفيتش مرة أخرى ؟ وإذا ما كانت الإجابة بنعم ، هل تتذكرين أين ومتى وما هي ملابس ذلك اللقاء ؟ السؤال الثاني : هل عاودت الزيارة إلى مصر مرة ثانية بعد ذلك ؟

خالص الأمنيات الطيبة !

فلاديمير بيلياكوف

من أرشيف المؤلف ، ملف ” الروس في مصر-٥٤ “ السطر رقم ٢٨٣ . صورة وليس الأصل .

خطاب ل.تشيريكوف - شنينيكوفا إلى فلاديمير بيلياكوف

١٩ مايو ١٩٩٢ فلوريدا .

سانت بطرسبورج

- ٣٩٢ تحفظ لوحة «الرقص الشرقي» المستوحاة من غلاف كتاب «أفريقيا مأوى الطيور المهاجرة» ، محفوظ لدى ورثة نجيب باشا بطرس غالي .
- ٣٩٣ أنظر : فلاديمير بيلياكوف ، «أشياء لا تظهر في الكالوجات» «إيخو بلانيتي» العدد ١٤ ، ١٩٩٢ .
- ٣٩٤ أقصد كتاب «تعقب آثار بيريسفيت» ، وكذلك جزء منها في كتاب «أفريقيا مأوى الطيور المهاجرة»

السيد المحترم فلاديمير بيلياكوف!

أتوجه لكم بخالص الشكر علي بالغ اهتمامكم بي! وأعرب لك عن خالص التهاني لوصولك إلى ذلك الاكتشاف الجديد المهم - وهو مجموعة لوحات بيليبين. سأحاول الآن الإجابة على تساؤلاتك: فيما يتعلق بالسؤال الأول: هل التقيت مع بيليبين بعد مغادرتي لمصر؟ في عام ١٩٢٦ (وربما أخطأت في التاريخ الدقيق؟) عندما كان بيليبين متزوجا وكان في باريس ينظم لواحد من معارضه، هناك رأيته وأخذت اللوحة الكبيرة الخاصة بي المرسومة بالقلم الرصاص والتي تم إقراضها له؛ لعرضها في إحدى المعارض في مصر (بعد مغادرتي من هناك) وهي محفوظة الآن في متحف مارينا تسفيتوفا في موسكو. لقد كان افتراقنا مؤثرا للغاية؛ لأننا أدركنا في تلك اللحظة أننا لن نلتق مرة أخرى (حيث كان يتوجب علي العودة إلى أمريكا والتي ذهبت إليها في عام ١٩٢٥، وكان بيليبين يفكر في العودة إلى الوطن.^{٣٩٥}

السؤال الثاني: هل ذهبت إلى مصر مرة أخرى؟ أقول إنني لم أتردد عليها مطلقاً بعد ذلك.

مع خالص الشكر ووافر الاحترام والأمنيات الطيبة.

لودميلا تشيركوفا شنتنيكوا

من أرشيف المؤلف، ملف «الروس في مصر-٠٤» السطر ٢٨٦.

٣٩٥ عاد إ. ي بيليبين إلى الوطن في عام ١٩٣٦.

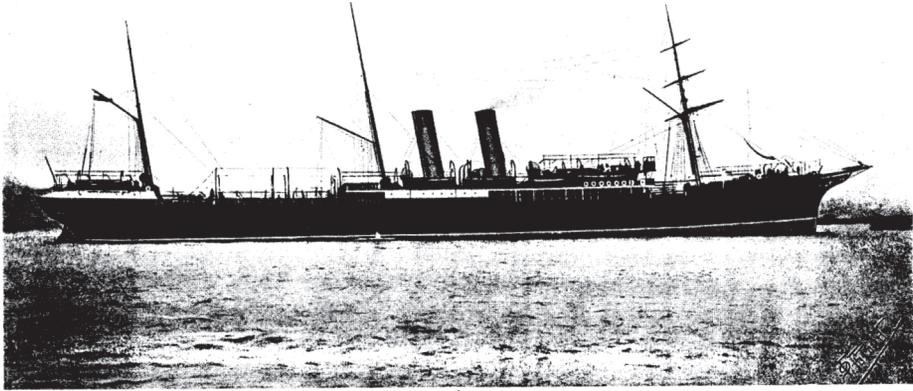
في ضيافة الملك البريطاني .. مذكرات الجنرال ف. ب. ريربرج حول ترحيل اللاجئين الروس إلى مصر

صار اليوم معلوما وبشكل واضح ، الكيفية التي جاء بها في ربيع عام ١٩٢٠ عدد ٤٥٠٠ لاجئ روسي إلى مصر بفضل الوثائق الأرشيفية^{٣٩٦} ، والمذكرات^{٣٩٧}. غير أن المذكرات التي عثرت عليها مؤخراً في أرشيف مكتبة "روسكي زاروبيج" بموسكو ، والتي كتبها اللواء ورئيس الأركان فيدور بيتروفيتش ريربرج (تبليسي) ١٨٦٨/١٠/٨ - الإسكندرية ١٩٢٨/٩/١٤^{٣٩٨} تضيف إلى لوحة ترحيل اللاجئين من روسيا ألوان زاهية جداً وغير متوقعة ، بالإضافة إلى ذلك فإنها تمتلك قيمة أدبية .

يعد المشهد الذي يصور لنا نزوح اللاجئين الروس ، وابعارهم من نوفوروسيسك إلى الإسكندرية ، وعملية تسكينهم في معسكر اللاجئين في التل الكبير الواقع بين القاهرة والاسماعيلية جزءاً صغيراً في مذكرات اللواء ف. ب. ريربرج .. وقد تم كتابتها في الإسكندرية في منتصف عشرينيات القرن الماضي ، وهى عبارة عن عدة كراسات متشابكة ، كتبت على الآلة الكاتبة ويصل حجمها لأكثر من ١٥٠٠ صفحة ، وكتبت بواقع مسافة واحدة بعرض الصفحة . فيما كتبت الفقرة بشيء من الإيجاز .

- ٣٩٦ عن مقالة : Гости английского короля. Воспоминания генерала Ф.П. Рерберга об эвакуации беженцев в Египет «الأرشيف الشرقى» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، القنصلية المصرية ، حافظة رقم ٣/٨٢٠ ، وثيقة ٢١٠ ، السطر ٦:٨ ومن السطر ١١-١٦ .
- ٣٩٧ أنظر : «عبر البحار» من مذكرات ف . ي . تشيريكوفا أوليانيشوفا \\\ إيفان ياكوفليفيتش بيليبين ، مقالات ومراسلات : مذكرات عن الفنان ، ١٩٧٠ من ص ١٨٢-١٨٥ . أنظر : كذلك «على متن الباخرة» س . م . بيليايف \\\ الهجرة الروسية في أوروبا ١٩٢٠-١٩٣٠ ، سانت بطرسبورج ، ٢٠٠٥ . ص ٢١٥-٢٢٨ .
- ٣٩٨ فلاديمير بيلياكوف «مقبرة الروس في مصر» ٢٠٠١ ، ص ٢٩ .

في المساء^{٣٩٩} عندما بدأ يحل الظلام، كانت «ساراتوف»^{٤٠٠} ترفع مراسيها، وبدأت قاطرتان تدفعنا بعيداً عن المرسى. وعندما بدأ المودعون في حلكتة الظلام القادم الإختلاط بالأشياء المحيطة بها ارتجفت «ساراتوف» القديمة وتحركت المسامير في مؤخرة السفينة، وخرجنا إلى البحر المفتوح!
وهنا فقط يمكننا أن نقول «وداعاً روسيا!» .



Пароходъ «Саратовъ».

صورة للسفينة الروسية "ساراتوف"

في صباح اليوم التالي خرج جميع ركاب "ساراتوف" من غرفهم، وأخذوا يتأملون وجوه بعضهم البعض في نظرات تشوبها الريبة والقلق. ثم شرعوا في التعارف فيما بينهم إلى حد ما وفي المساء أخذوا يتجولون مثنى مثنى على سطح المركب ذهاباً وإياباً، وقطعان كاملة من الشباب الذين لا يزالون بأي شيء. وأخذ كثير من الأطفال يمرحون وهم فرحين بإمكانية الجرى على سطح السفينة النظيف، ومباشرة الألعاب الطفولية.

٣٩٩ الخامس من مارس/آذار ١٩٢٠ .
٤٠٠ ساراتوف هي إحدى سفن الأسطول التطوعي الذي بُني في إنجلترا عام ١٨٩٢، وتصل حمولتها إلى ٨٩٥٠ طن، وعدد الغرف بها ٧٦ غرفة، وعدد المقاعد على ظهر السفينة للركاب ذوي المسافات البعيدة يصل إلى ١٥٢٠ مقعد (بوجنبيول . م، مقتطعات من ظهور ونشاط الأسطول التطوعي في عامه الخامس والعشرين . سانت بطرسبورج، ١٩٠٣، ص ٢٣٤ : ص ٢٣٥) أثناء إبحار السفينة ساراتوف من نوفوروسيسك إلى الإسكندرية كان علي متنها ١٤٠١ راكب (أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ٣١٧، حافظة ٨٢٠-٣، وثيقة ٢١٠، السطر ١٢).

كان معنا على متن السفينة فيلق طلبة المدرسة العسكرية بالدون (التي كانت تحمل اسم الإمبراطور ألكسندر الثالث سابقاً) ، وكان يترأسهم مدير الهيئة العامة لأركان الحرب اليفتانت جنرال ألكسندر فاسيليفيتش تشيرياتشوكين^{٤٠١}.

كثيرة هي تلك الآمال التي كانت لدى الكثيرين ، من ركاب السفينة ! ولسبب ما اعتقد تشيرياتشوكين أنه سيتم إرسال فرقته إلى لندن مباشرة ، وقد تحدث إلى أحد المودعين من على سطح «ساراتوف» أنه بمجرد وصوله إلى لندن من المرجح ، أن يمثل أمام الملك البريطاني... وكان الكثيرون يستمعون بحسد ، إلى تخمينات وظنون تشيرياتشوكين ولم يكن لدى ركاب السفينة أي تصور عن الوجهة التي سيذهبون إليها .

في اليوم الثاني والعشرين^{٤٠٢} ظهر لدينا العديد من المهام ، بينما نحن لم نزل على متن السفينة مثل : «توزيع اللحوم ، والخبز والشاي والسكر» . وأطلق علينا بعض الركاب مسمى «رجال العنابر» ، حيث كان يتعين عليهم الصعود للعنابر للحصول على المواد الغذائية، وقد عهد للصبية الصغار القيام بهذه المهام ، الذين جمعوا بين «خدمة المجتمع» والمزاح. وتم اختيار عدد من الركاب وخاصة من السيدات ؛ لتولي إعداد الطعام في مطبخ السفينة ولكي نكون منصفين ، فقد حصلنا في الأيام الأولى على قدر لا بأس به من الأطباق الجيدة .

في الثالث والعشرين وصلنا إلى القسطنطينية ، تحت راية العلم الأصفر^{٤٠٣} وهنا علمنا جميعاً أن السلطات الروسية قد نجحت في الحصول على طلب لإنزال كافة ركاب السفينة إلى القسطنطينية . وفي الصباح وصل إلى السفينة ممثل الجيش التطوعي رئيس الأركان الجنرال أجاييف (الشقيق الأصغر للعقيد أجاييف) الذي لقي مصرعه في الحادي والثلاثين من مارس ١٩٠٤ مع الأدميرال ماكاروف^{٤٠٤} في انفجار سفينة (بيتروباولسك) .

٤٠١ أنظر : كتاب فلاديمير بيلياكوف « طلاب في قناة السويس » عن وصول فرقة طلاب المدارس العسكرية بالدون إلى مصر || مجلة الأرشيف الشرقي ، العدد رقم ١٨ \ ٢٠٠٨ من ص ٥٠ : ص ٥٤ .

٤٠٢ الثاني والعشرين من فبراير/شباط .

٤٠٣ العلم الأصفر هنا ، يستخدم كإشارة إلى وجود أمراض معدية علي متن السفينة .

٤٠٤ ماكاروف ستيبان أوسيبوفيتش ، ١٨٤٩/١/٨ ، نيكولايف - ١٩٠٤/٤/١٣ بالقرب من ميناء «آرثر» ، نائب الأدميرال في بداية الحرب بين روسيا واليابان ١٩٠٤-١٩٠٥ ، قائد سرب المحيط الهادئ . وكان مسئولاً عن الدفاع عن ميناء آرثر ، وتم تدمير البارجة «بيتروباولسك» من جراء لغم انفجر بالقرب من ميناء آرثر . ويضع ف . ب . ريربرج هنا تاريخ وفاة الأدميرال ماكاروف ولكن وفقاً للنمط القديم .

بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يرغبون ، في البقاء في القسطنطينية أو في الجزر. فكان يتعين عليهم المساهمة بضمانات مالية. اقتربت سفينة بالقرب من «ساراتوف» لتحمل باقي الركاب إلى الجزيرة مباشرة. ومن كان لديه وفرة من المال ، كان ينقل فوراً إلى القسطنطينية. وكان من بين هؤلاء الذين نزلوا إلى الشاطئ بدون أي صعوبة البروفسور ب.ب. سترويف^{٤٥}. وقد كنت أنا وأسرتي ضمن الأفراد ، الذين حصلوا على تصريح للبقاء في القسطنطينية... وقد منحونا ثلاث ساعات لجمع أغراضنا. وقد أخذ أولئك ، الذين حصلوا على إذن بالنزول بالخروج سريعاً لأنهم لم يكونوا يرغبون في الإبتعاد لفترة طويلة عن الوطن روسيا ويأملون في العودة إليه سريعاً. وتوجه البعض تارة إلى القبطان ، وتارة إلى المفتش ، وتارة أخرى إلى الحاكم العسكري بطلبات للإفراج عن أمتعتهم. ولكن بدا ذلك بالنسبة للكثيرين أمراً مستحيلًا ، فعند شحن الأمتعة من نوفوروسيسك تم وضعها بشكل عشوائي تماماً ، لدرجة أنه كان من الصعب علينا الحصول على أغراضنا. وعندئذ سمح لنا الجنرال أجاببييف ، الذي كان علي متن السفينة بناءً على طلبى أن نواصل رحلتنا على «ساراتوف» حتى قبرص ، وحين يتم تفرغ الأمتعة كلها ، نأخذ متاعنا ونعود أدراجنا. وشعرنا أننا نساfer مع أمتعتنا ، وليست أمتعتنا هي التي تسافر معنا. وقد تم إعطاؤنا الأوراق المناسبة ، وكان كل من يتمكن من العثور على أمتعته كاملة ، يذهب ليركب في السفينة الصغيرة ، ويرحل إلى الجزيرة .

في صبيحة اليوم التالي ، عبرت «ساراتوف» إلى مياه بحر مرمرة ، وكان الجو أكثر من رائع ، حتى أن الركاب بدأوا يستمتعون بالمناظر الطبيعية التي لم تكن تثير في حد ذاتها أي اهتمام ، ولا تصلح أن تكون حذاءً لمناظر شواطئ البحر الأسود الرائعة. وكان الشيء الأكثر إمتاعاً رؤية آثار الحرب التي جرت قبل وقت قريب في هذه المياه ، والتي تمثلت في بقايا السفن الغارقة والملقاء على شاطئ بحر مرمرة ، وعلى ما أذكر ، الجزء الأسفل من بارجة حربية مقلوبة .

لم تكن الرحلة حتى قبرص تثير في حد ذاتها أي اهتمام . وحسب العادات المكتسبة في روسيا المسكينة والمسترسلة في الكلام ، كنا نشهد بشكل يومي داخل عنابر وحجرات الركاب العديد من الاجتماعات والأحاديث والأوامر والقرارات عديمة الفائدة .

٤٥٥ سترويف بيتر بيرناردوفيتش ، (١٨٧٠/٢/٧ برما ، ١٩٤٨/٨/٦ باريس) ، فيلسوف بارز ، محلل سياسي وإجتماعي وشخصية إجتماعية وسياسية مرموقة .

لقد عانت السفينة من أفراد قلقين ومشوشين . وكان يوجد فوق سطح السفينة محطة لإرسال البرقيات ، وكانت تعمل لبعض الوقت . وبدأ بعض سكان الجزيرة في ترويج أنباء على متن السفينة من خلال التلغراف اللاسلكي ، وسرعان ما بات يطلق على هذه الأنباء اسم «في الراديو» .

وطئت أقدامنا أراضي قبرص في الأيام الأولى من شهر مارس . وكنا نشاهد بإستمتاع من فوق سطح السفينة المناظر الخلابة للشواطئ الصحراوية لتلك الجزيرة . وبعد انتصاف نهار اليوم وجدنا أنفسنا نقرب من ميناء كانت تقف به سفينة واحدة فقط ، وهي طراد إنجليزي صغير يرباط هناك بصفة دائمة . وعلى ما يبدو أنها مدينة صغيرة . ورأينا ثكنات علي يمين شاطئ الجزيرة ، ولم تعبأ «ساراتوف» بإشارة المرشد البحري ، وابتعد عن الشاطئ القارب الذي كان يعترض طريقنا .

بموافقة المرشد البحري استدارات «ساراتوف» على شكل نصف دائرة إلى اليسار ودخلت الميناء الذي لم يكن مرئياً من بعيد . كان من المستحيل ألا نعجب بمناوره تلك السفينة الضخمة ، التي طارت كقارب صغير إلى الميناء ، والذي كان بالكاد يتسع لسفينتين» ، وإلى تلك البوابات الضيقة حتى من بعيد كانت تبدو كأنها بوابات «ساراتوف» . مثل ما كان الحودي الجيد في الأيام الخوالي يستطيع أن يدخل من أبواب عزبة رجل أستقراطى ، ثم ينحرف بشدة جهة اليمين ، ويقرب بسرعة من مدخل صاحب العزبة .

كانت المدينة التي اقتربنا منها هي مدينة فاما جوستا . وهى مدينة صغيرة على ميناء قبرص . وبمجرد أن وصلنا ظهر حراس الميناء على سلالهم سفينتنا ولم يسمح لأي من الركاب ، بمجرد الخروج إلى السلم . وخرج الجميع إلى سطح السفينة ؛ ليشاهدوا المناورات التي تقوم بها القاطرة البخارية الصغيرة ، التي تجر ذهابا وإيابا عربات قطار صغيرة ، وبدأ الجميع يفكر في المصير الذي ينتظر كل منا . وفي المساء وصلت سفينة تقبل ممثلي السلطة البريطانية المحلية ، وكانوا يتحدثون مع إدارتنا حول شيء ما ، ولم يكن الركاب يدرون بما يجرى حولهم ، إلا بعد أن انتهوا من حديثهم ، وخرجوا علينا بهذا الأمر : يتعين على جميع ركاب «ساراتوف» من صباح باكر الذهاب في مجموعات ، تضم كل مجموعة مائتين شخص إلى الشاطئ للتطهير وإبادة الجراثيم ، ثم بعد ذلك سيتجهون إلى

الحجر الصحي وينتقلون أولاً إلى عنابر الميناء ، ثم بعد ذلك إلى معسكر أسرى الحرب ، بعد أن يتم إخراج الأتراك من ذلك المعسكر .

بالفعل وبمجرد أن وصلت «ساراتوف» إلى المرسى ، جاءت عربتان تجرهما الخيول . أحدهما محملة بالخبز الأبيض ، والثانية محملة بالبرتقال . فعلى ما يبدو أن أحد أثرياء اليونان قد علم بوصول سفينة تحمل لاجئين من الروس المساكين ، فقرر أن يتبرع بحوالي ألف ونصف رغيف خبز ، وكمية كبيرة من البرتقال . وساهمت مثل هذه الأمور التافهة في تأجيج الرغبة لدى غالبية الركاب بالبقاء في قبرص ، والنزول بسرعة إلى الشاطئ ، الأمر الذي لا بد وأن يحدث بسرعة ، لأنه في اليوم التالي لوصولنا ، بدأ في الصباح الباكر يعمل ونش البكرة في مؤخرة السفينة ، وبدأ بحارة الطراد الإنجليزي في جمع متاعنا من عنابر السفينة وإنزاله إلى الشاطئ ، ولكن تلك الشواهد التي تدل على النزول السريع للشاطئ كانت عند الركاب قليلة وغير كافية ، لذا عقدوا اجتماعات في العنابر ، والتي قرروا فيها كتابة التماس إلى الحاكم العسكري بالسفينة يطالبونه فيه بسرعة إنزالهم . وبدأ في ذلك الإلتماس إشارات مبالغ فيها لأجل تليين القيادة البريطانية . وكتب في الإلتماس كذلك أننا لدينا على متن السفينة عدد من المرضى بأمراض معدية ، وإذا لم يتم إنزالنا سريعاً من السفينة ، سنصاب بتلك الأمراض ، وأن القمل يغطي أجسادنا كاملة... الخ .

كان لهذا الإلتماس عواقب غير متوقعة : في صباح اليوم التالي بدأ البحارة الإنجليز بالفعل في شحن حقائبنا وإعادتها من المرسى إلى السفينة . وبعد إنتهاء عملية الشحن ، صدر الأمر إلى «ساراتوف» بالمضي في طريقها لحين صدور أوامر أخرى ، حكى لي فيما بعد ، من هم على دراية ببواطن الأمور ، أنه بمجرد أن تلقى الحاكم العسكري البريطاني الإلتماس ، سرعان ما إرتعد خوفاً لأن الجزيرة بأكملها ستكون مهددة بانتشار أمراض معدية ، وأمر بوقف عملية تفريغ السفينة ، وسرعة إخراجنا من الميناء . وكان ذلك بفضل الإلتماس الذي قدمناه . وانتابت حالة من السخرية الكثير ، ممن كانوا بيننا ممن لم يحبذوا النزول في مدينة فاما جوستا ، وصاروا يتهكمون على أصحاب هذا الإلتماس .

عندما كانت سفينتنا واقفه في الميناء ، اقتربت سفينة «خرسون»^{٤٦} من فاجوميسستا ، ودخلت إلى الميناء كما دخلنا في نفس اليوم . في صباح اليوم التالي صدرت الأوامر لكل

٤٠٦ خيرسون ، إحدى السفن الخمسة التي كانت تنقل اللاجئين الروس من نوفوروسيسك .

من «ساراتوف» و«خرسون» بالإبحار إلى الإسكندرية، التي وصلنا إليها في صبيحة السابع من مارس. وعند دخولنا الميناء اعتلى الكثيرون سطح السفينة، وانتابت الجميع حالة من البهجة لرؤية مدخل المدينة. كنت أنظر إلى الإسكندرية بقدر من اللامبالاة؛ لأنني تذكرت أننا سنظل على متن السفينة إلى أن تتم عملية تفريغ الحمولة، وسنعود مرة ثانية إلى القسطنطينية. إلا أن إدارة السفينة وافقت على أن تأخذ معنا الأمير جوليتسين، ورفضوا أن أذهب معهم؛ بحجة أنهم لا يعلمون الوجهة التي ستبحر إليها السفينة. ورفضنا جميعنا للأوامر، وتم حجزنا داخل الحجر الصحي، ولم تشفع لنا الأوراق لمنع خضوعنا لذلك الحجر، ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب، بل تم تفتيش كل المتعلقات الخاصة بنا، وحصلنا على حقائبنا في الحجر الصحي، بعد أن تم إنزالها من على متن البارجة. وكان التعامل مع الأمتعة في غاية الحدة والصرامة. وقد بدا لنا ذلك جلياً، حيث تهشمت بعض الحقائب وتم سرقة ما بداخلها. ومنذ هذه اللحظة، تحولنا جميعاً إلى قطع من الحيوانات البائسة التي لا حول لها ولا قوة، وتم الزج بنا في المبنى الدائري للحجر الصحي. وهناك نأكل (حتى نشبع) ونشرب ونستحم، ولكن لا يسمح لنا بالخروج، ولا يُعيرنا أحد ثمة انتباهاً. وطوال فترة احتجازنا داخل الحجر الصحي، لم يتحدث إلينا أحد عن مصيرنا بعد ذلك. وكان من يعرف من بيننا اللغة الإنجليزية، يذهب إلى الإنجليز ليتحدث معهم ليعرف مصيرنا، وبلغوننا بأنه بعد إنتهاء فترة الاحتجاز بالحجر الصحي سنتوجه إلى القاهرة وضواحيها ليتم توزيعنا هناك، وسيتم إستئجار عدة فيلات لنا، ولن يكون الجو حاراً هناك، وبالنسبة للعائلات سيتم تسكينهم في منازل خاصة، أما غير المتزوجين سيتم توزيعهم على الفيلات، وسيستأجر لهم طبائخين وخدم من العرب. كان هناك العديد من التساؤلات التي يطرحها اللاجئون، ولكن دون مجيب. وقد طلب البعض دعوة القنصل الروسي بالإسكندرية ويدعى بيتروف^{٤٧} ليأتى إلينا في الحجر الصحي. وقد أثارت هذه الدعوة ثورة عارمة من الجدل لأنه لا أحد يعلم أي شيء عن بيتروف هذا، فالكثير منا كان يخشى الوقوع بين براثن أحد صنائع البلاشفة أو الماسونيين!

في نهاية الأمر وصل القنصل وتوجه إلى أحد الأماكن المخصصة، لعقد إجتماع مع ممثلينا وتم اختيار ثلاثة فقط من بيننا لحضور هذا الاجتماع الذي كان الإنجليز طرفاً فيه ولكي لا يقوم أحد من غير المدعويين بالدخول إلى قاعة الاجتماع، ولزيد من الجدية وقف

٤٠٧ بيتروف ألكسندر ميخائيلوفيتش (١٨٧٦/٩/٢٢ موسكو - ١٩٤٨/٨/٦ الإسكندرية) شغل منصب القنصل الروسي في الإسكندرية منذ عام ١٩١٠ . وقد رفض الإعتراف بالسلطة السوفيتية مثله مثل أي دبلوماسي روسي يعيش في مصر .

بعض الطلاب العسكريين علي بوابات المكان للحراسة ! أو هكذا قيل لي (حيث إنني لم أكن ضمن الممثلين الذين تم اختيارهم) .

في المساء امتلأت أركان غرفتنا بالشائعات حول نتائج ذلك الإجتماع . فقيل إن القنصل بيترروف لم يكن يعلم أي شئ عن وضعنا . بل وكان يتهمك ويسخر منا ويقول لا أحد سيمنحنا فيلات هنا كما يقال وإنما قد ابتكرنا ذلك الاسم الذي أطلق علينا «ضيوف الملك البريطاني» . ولن نسكن في مساكن فاخرة بالقاهرة ولا ضواحيها . بل سيتم نقلنا إلى معسكرات أسرى الحرب الخاصة بالأتراك ، وذلك بمجرد أن يتم إعادة الأسرى الأتراك إلى وطنهم . كان من الطبيعي أن يستاء الجميع من حديث القنصل ، ووصل بنا الحال إلى أن فكر البعض في كتابة التماس أو شكوى ضده ، وقال البعض أن الصورة اتضحت الآن ، وأصبح جلياً أن هذا القنصل ما هو إلا أحد صنائع البلشفية ، ويقول هذا الكلام عن عمد لكي نبدأ بالاحتجاج ، وتسوء علاقتنا بالإنجليز ، خاصة وأن الجميع يعلم جيداً أن الملك البريطاني هو من وجه لنا الدعوة ، بأن نكون في ضيافته، ويتعين على الجميع أن ينظروا إلينا على أننا ضيوف الملك ، وبالتالي لا يليق بالمقام الملكي أن يضع الملك ضيوفه في معسكرات لأسرى الحرب .

قبل وقت قصير من مغادرتنا طلب قائد «خرسون» أن نذهب للاستحمام والتعقيم وقد علمنا منه أن كلتا السفينتين ، ستعودان أدراجهما مرة أخرى إلى القسطنطينية . وهكذا قذف بي المصير لكي أحضر إلى مصر!

قبل ثلاثة أيام من مغادرتنا قالوا لنا إن فترة بقائنا في الحجر الصحي بالإسكندرية قد إنتهت ، وحانت ساعة الرحيل إلى القاهرة . حيث تم تقسيمنا إلى مجموعتين : القطار الأول سيغادر في الرابع عشر . والثاني سيغادر في اليوم التالي . وسرعان ما ظهر الطمع على الجميع . حيث رغب الكثيرون استقلال القطار الأول ؛ خوفاً من أن تستحوذ المجموعة الأولى علي كل المساكن الفاخرة المخصصة للاجئين ، وبالتالي فلن يبق أمام المجموعة الثانية سوى الرضا بما تبقى من المجموعة الأولى ، ونظراً لأن غالبية اللاجئين لم تكن لديها ثقة في الجنرال خفوستوف ، فقد تم تشكيل لجنة شارك فيها كل من : بروتاسيف ، وباشماكوف ، وما نجليز . وكانت المهمة الرئيسية لتلك اللجنة تتمثل في وضع كشوف بأسماء المجموعتين . غير أن اللجنة لم تفلح في عملها ، وبدأ يوجه إليها سيل هائل من الاتهامات . وعلي رأسها تهمة تقاضي الرشاوي .

وفقا لروايات الأفراد الأكثر نزاهة، لم يكن هناك عدل في عمل اللجنة. بل كان العامل الرئيس يتمثل في المحسوبية وطبيعة الرتبة واللقب اللذين يحملهما اللاجيء. وكثرت الأقاويل التي تروج إلى أن الجميع الآن باتوا متساوون ولم يعد للرتب السابقة أي وزن هنا.. إلخ، لقد تملكنا جميعا الاندهاش داخل المخيم. وفي المساء جاءتنا اللجنة لمراجعة قوائم أسمائنا قبل المغادرة. وبدلاً من أن يقوم سكان المخيم بالإجابة على أسئلة اللجنة ومنحها البيانات الخاصة بهم، التفت الجميع حول بروتاسيف وباشماكوف وأخذوا يكيلون لهم الاتهامات بسبب تقصيرهم في عملهم بتلك اللجنة، وطلبوا من اللجنة أن تعطيهم قوائم الأسماء التي وضعتها لكي يقرأوها بأنفسهم، وإلا فلن نعطيكم البيانات الضرورية الخاصة بنا. بل وقفز أحد اللاجئيين ويدعى فيورير على المقاعد وقال بصوت عال، بأنه لن يسمح لتلك اللجنة بمغادرة الغرفة، إلى أن تجيب على كل الأسئلة التي طرحناها عليها، ولن يخرجوا من هذه الغرفة إلا على جثته. ثم جاء الكاتب سيرجي يابلونوفسكي^{٤٠٨} ليهديء من غوغائية الموقف وبأسلوبه الجيد الذي لا يكيل فيه الاتهامات جزافاً لأي طرف من الأطراف، حاول إصلاح ما أفسده زميلنا الذي وبخ أعضاء اللجنة بما يكفي وهدد بفضح ممارسات السيد بروتاسيف. لقد كان المشهد غير لائق تماماً، وكان يستحق قلم المبدع مكسيم جوركي لكي يقوم بوصفة. لم يكن اللاجئون يتصرفون بوصفهم نخبة مثقفة، بل كانت تصرفاتهم تشبه إلى حد كبير تصرفات السكارى من الحرفيين. فالسبب وراء تلك المشكلة هو الرغبة العارمة في الاطلاع على تلك القائمة وإجبار اللجنة حتى ولو بالقوة على سحب الجنرال خفوستوف وأسرته من القائمة؛ نظراً لنجاحه في زرع بذور الفرقة والشقاق بين صفوف كل من كان على متن السفينة، كما نجح في اللعب على وتر التباين الطبقي بين الركاب. وبعد وابل السباب الذي وجهه مخيمنا على لسان كل من فيورير ويابلونوفسكي، تم قراءة قائمة الأسماء وخيمت خيبة الأمل علي الجميع حيث لم يظهر اسم خفوستوف ولا أي من أعضاء أسرته داخل القائمة وأصبح لمحاربينا مظهر كلب الصيد الذي اتخذ وقفة جعلت العصفور بدلاً من السمان يهرب من تحتها، وبداء بروتوسايف وباشماكوف أناس أفاضل في ذلك المشهد، وكان الخزي والعار من نصيب فيورير ويابلونوفسكي.

٤٠٨ يابلونوفسكي (بيترسوف) سيرجي فيكتوروفيتش (١٨٧٠- ١٩٥٣ باريس) وهو صحفي ، شاعر ، ناقد أدبي ومسرحي وفي عام ١٩٢٠ رحل من مصر إلى فرنسا .

في صباح اليوم التالي كانت السعادة تخيم علي كل من سمع اسمه بالقائمة، وهرع الجميع ليجمع حقايبه ومتعلقاته، وسمح لهم ممثلونا والقادة الإنجليز طبقاً للقائمة بعبور بوابات الحجر الصحي، والسير واحداً تلو الأخر ليشرحوا أماكنهم في القطار الذي جاء حتى الحجر الصحي. وكان القطار أنيقاً للغاية، تشبه عرباته عربات قطار الدرجة الأولى، ليقتنعونا بالفعل أننا ضيوف «الملك البريطاني» وبأننا سننتقل للحياة داخل فيلات فاخرة تم استئجارها خصيصاً لنا بأمر من الملك البريطاني، ولكن لا أحد يعلم مدة إيجار هذه الفيلات ؟ !

أثناء الطريق وبناء على تعليمات الملك المضيف، كان يوزع علينا الشاي مع البسكويت. يقوم بتوزيعها الجنود الإنجليز على عربات القطار. في نفس الوقت أتيحت لنا الاستمتاع برؤية المشاهد الجميلة في مصر، وشاهدنا في الطريق فيلات وبيوت الأثرياء، وكنا نحاول أن نرسم في مخيلتنا شكل الفيلات التي استأجرها لنا السادة الكرماء. واليوم بدأت السيدات الرقيقات يحملن بتناول فنجان الشاي في شرفة الفيلا التي سيسكن بها. وفي تمام الساعة الخامسة مساءً توقف القطار بالقرب من إحدى المحطات الكبرى، وقد قرأنا اسمها على الياقظة القائمة في المحطة وهي محطة الزقازيق. وحيث أننا لم يسبق لنا أن اطلعنا علي خريطة لمصر من قبل. ولسنا على دراية بشبكة السكك الحديدية بها، لذا فإن هذه الياقظة لم تعلمنا بشيء. وفجأه جاء أحد الأشخاص إلينا وقال «تفضلوا سعادتكم إلى هنا. كيف تفسرون لنا هذا الوضع؟ قام زملائي باصطحابي إلى خريطة للسكك الحديدية بمصر، كانت تلك الخريطة معلقة في نهاية إحدى عربات القطار. لنكتشف أننا قد تجاوزنا القاهرة منذ مدة، وأنها توجد بعيداً على اليمين من موقعنا، وأن محطة الزقازيق التي توقف القطار عندها ما هي إلا محطة تتوسط المسافة بين القاهرة والسويس. لقد زاد هذا الموقف من حيرتنا بعض الشيء، علاوة على ذلك فقد تذكر أحد الموجودين أن القنصل في الإسكندرية قد تكهن بحدوث شيء من هذا القبيل وعلى الرغم من ذلك فما زلنا نحتفظ بدرجة من التفاؤل. عندما توقفنا في الزقازيق، أدركنا حينئذ السبب وراء زيادة الحمل على الخط الرئيس الإسكندرية - القاهرة. وأن تشغيل قطار عاجل في حالة الطوارئ يتطلب ضرورة استخدام طرق دائرية، ولذا سيبدأ القطار الآن في السير بالاتجاه المعاكس وسنصل إلى القاهرة في غضون ثلاث ساعات. حيث لم يتبق سوى ساعة واحدة على حلول المساء. بات واضحاً لنا أننا لن نفلح اليوم في توزيع

أنفسنا على الفيلات التي استأجروها لنا ولكن مع حلول الصباح... فجأة أطلق القطار صفارته المعتادة، ولكنه لم يأخذ إتجاهه إلى القاهرة بل سلك الاتجاه الذي يبتعد عن القاهرة. إعتقدنا آنذاك أن مساكننا لن تكون بالقرب من القاهرة. عدتُ إلى مكاني لكي أحدث زملائي عن المخاوف التي تملأ رأسي والشكوك حول مسألة تسكيننا في فيلات جاء رد السادة والسيدات من زملائي: «إنك دائماً ماتخترق أشياء غير سارة».

بعد مرور أربعين دقيقة، بدأ القطار يبطيء من سرعته. لقد كان من الصعب علينا أن نتخيل أن ذلك المكان الذي يقطعه القطار من الممكن أن يكون هو الموقع الذي سيعيش فيه «ضيوف الملك». فعلى الجانب الأيمن للطريق توجد قناة مائية قذرة، وبشعة بالإضافة إلى بعض القرى الصغيرة، والجو العام الغالب على المكان يمكن وصفه بالكئيب. وعلى الجانب الأيسر على مدى البصر كانت تمتد رمال الصحراء التي لا تحتضن شجرة واحدة ولا حتى عشباً أخضر. أخذ القطار يبطء من سرعته رويداً رويداً، إلى أن توقف تماماً في المحطة. ليبدو لنا فيما بعد أنها محطة التل الكبير.

حاول أحد الأشخاص أن يخيف السيدات اللاتي معنا بالقطار، أن هذه هي نهاية المطاف وانتهاء الرحلة، ولكن لا أحد كان يصدق هذا الواقع السخيف. وفجأة سرى الهمس الممزوج بالخوف بين ركاب القطار، إذ شوهد بين البيوت الطينية التي شيدها حيوانات الخلد أو الطوبينيات رجلان يمشيان، قد أتيا من الطريق الصحراوي أشبه بجنودنا الروس! وقام البعض بتهدئة الموقف، وقالوا بأنهم جنود إنجليز. وفي هذه اللحظة تحرك القطار وبدأت مشاعر الخوف تزول إلا أن الأمر لم يدم طويلاً. فقد عاود القطار ليستكمل سيره بشكل بطيء للغاية واتجه نحو الشرق ببطء مسافة ٤٠٠ خطوة، وتوقف عند رصيف عسكري. دخل شخص ما إلى عربة القطار وقال بصوت مهيب: «لقد وصلنا أيها السادة وعليكم بالنزول الآن!».

كان من الصعب أن أصف لكم ملامح اليأس التي ارتسمت على وجوه جميع اللاجئين، فعندما نزلوا من القطار، وصلوا إلى المنطقة العسكرية ليشاهدوا بأم أعينهم المصير الذي ألوا إليه في نهاية الرحلة. سمعنا تنهات السيدات وأصوات الرجال المختنقة وتساءل: «أنى لنا العيش في هذا الكامب؟»^{٤٩}. وتعال في مكانين صيحات هysterية، وأغرورقت

٤٠٩ Camp يقصد به معسكر (من الإنجليزية).

عيون الكثيرين بالدموع. وسرعان ما تبخر حلم الإقامة داخل الفيلات، وإرتشاف فنجان الشاي في الشرفة لنستيقظ على واقع أليم وهو العيش في الصحراء الأفريقية صيفاً، وداخل معسكرات الجنود المحاطة بالأسلاك الشائكة، وأفراد حراسة في كل مكان وبدلاً من تناول فنجان الشاي، والمرطبات في الشرفات الخلاصة شربنا دموعنا الغزيرة. ووسط هذا الزخم من الدموع، طالبت بعض السيدات بإرسال برقية إلى الملك البريطاني مهددات بقتل أنفسهن في حال رفض مطالبتهن! لقد كانت الصورة بالفعل مأساوية للغاية. وبالرغم من أنني لم أكن سيدة، وكنت رجلاً عسكرياً، إلا أنني أقولها صراحة إنني قد أصابتني الصدمة إلى حد ما، مدركاً ضرورة تقصير أيامي في الصحراء الأفريقية وبعيون حزينة أنفحص منظر المعسكر الإنجليزي المشيد في قلب الصحراء. لقد نجح المهرجون الإنجليز الأقوياء في إقناع السيدات الروس (وكذلك عدد كبير من الرجال) بالإقامة في الفيلات ثم إذا بهم يقذفون بنا في الصحراء!

روسيا وسيناء .. خبايا وأسرار تفصح عنها مخطوطات سيناء



تذخر شبه جزيرة سيناء بالعديد من الأماكن المقدسة، التي ورد ذكرها في سفر "الخروج" بالإنجيل. ويجيء من أهمها العليقة الملتهبة وجبل سيناء. كانت كنيسة سيناء الأرثوذكسية المستقلة اليونانية هي المسئول الأول عن الحفاظ على تلك الأماكن المقدسة ورعايتها. تقع تلك الكنيسة وسط دير سانت كاترين الذي شيد في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي في عهد الإمبراطور البيزنطي جوستنيان. وتحول هذا الدير والأماكن المحيطة به منذ زمن بعيد إلى مزارا للحجاج من مختلف دول العالم، وخاصة من روسيا.

يشير الرحالة البارز أ.ف. يليسيف (١٨٥٨-١٨٩٥) الذي جاب العديد من دول الشرق الأوسط، إلى أن «الحاج الروسي قد عرف طريقه إلى الأماكن المقدسة بالشرق، حتى ربما قبل أن يعم نور المسيحية جميع الأسرة السلافية»^{٤١٠}. وهذا الكلام صحيح بالفعل،

٤١٠ عن مقالة: «روسيا و سيناء. O чём молчат синайские манускрипты» والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov. يليسيف . أ. ف «مع الحجاج الروس إلى الأراضي المقدسة بالشرق في ربيع ١٨٨٤»، سانت بطرسبورج، ١٨٨٥ ص ١.

فقد ورد في مخطوطة ليكونوفسكي : «في صيف ٦٥٠٩ (أي في عام ١٠٠١ - بيلياكوف» أن فلاديمير قد أرسل سفراء إلى عدة دول .منها على سبيل المثال روما ، والبعض الآخر إلى القدس ومصر وبابلليون ، وذلك بهدف التجوال عبر أراضي تلك الدول وأيضاً من أجل التعرف على عاداتهم وتقاليدهم»^{٤١١} . والمقصود ببابلليون المذكورة هنا هي «بابلليون المصرية» الواقعة بالقرب من القاهرة القبطية القديمة . ويبدو من جغرافية السفارات أن المهمة التي أرسل لأجلها هؤلاء السفراء كانت مهمة دينية في المقام الأول . ففي روسيا كانوا يعلمون جيداً الأهمية الدينية لتلك الأماكن المقدسة ليس فقط في روما والقدس ، بل وكذلك في مصر وشبه جزيرة سيناء .

كتب يلبسيف يقول : «منذ قديم الزمان والحجاج الروس يذهبون إلى أماكن العبادة في جبل آثوس^{٤١٢} وسيناء والأماكن المقدسة في فلسطين ، وكان جبل آثوس من أكثر الأماكن التي يفد إليها الحجاج الروس نظراً لقربه من روسيا إذا ما قارناه بسيناء التي كانت الصحراء البرية الموحشة تفصلها عن العالم ، وبسبب وضعها الجغرافي لم تكن سيناء المكان المحب للحجاج»^{٤١٣} . وبالرغم من ذلك ، فقد كان الروس يحجون إلى سيناء بصورة منتظمة . وهو ما أشارت إليه المدونات التي خطوها بأيديهم . ويعود أقدم تلك الكتابات التي تخص الحجاج الروس الذين زاروا سيناء إلى العام ١٣٧٠ م لصاحبها أرشمندريت دير سمولينسك أفرامسكي أجريفييني . بيد أن كتابات هذا الحاج كانت شحيحة ، حيث أنه لم يكن يقدم أي وصف للأماكن المقدسة في سيناء . وتحدث فقط عن مسافات رحلات الحج من سيناء إلى فلسطين ، وجاء في كتاباته الآتي : « ... كانت المسافة من غزة إلى مصر تستغرق حوالي إثني عشرة يوماً ومن مصر (القاهرة) إلى الإسكندرية ستة أيام ، أما المسافة من القاهرة إلى طور سيناء فكانت تستغرق خمسة عشر يوماً ، وكذلك المسافة من غزة إلى طور سيناء كانت تستغرق نفس المدة ، وهي خمسة عشر يوماً . وإلى يومنا هذا يذهب المسيحيون الأرثوذكس إلى هناك . ولا يذهبون لأبعد من ذلك»^{٤١٤} . لم يتضح لنا

٤١١ المجلد الكامل للمخطوطات الروسية ، مجلد رقم ٩ - ١٠ مخطوط باتريارشايا أو نيكونوفسكي ، موسكو ١٩٦٥ ، ص ٦٨ .

٤١٢ * هو الجبل المقدس في بلاد اليونان . وكان قديماً اليونان يرونه أعلى جبل في العالم ، واستخدمه فلكيوهم مرصداً . تحيط بالجبل غابات واسعة من أشجار الكستناء والسنديان وغيرها ، وكان يقطنه رهبان في القرن الخامس عشر ويقومون فيه أديرتهم حتى نافت على ٣٠ ديراً بقي منها ٢٠ ديراً فقط (المترجم) .

٤١٣ يلبسيف . ف ، المرجع السابق ، ص ٩ .

٤١٤ مسيرة الأرشمندريت أجريفيينيا ، تحرير الأرشمندريت ليونيد // مجموع فلسطين الأرثوذكسية ، الإصدار رقم ٤٨ ، سانت بطرسبورج ١٨٩٦ ، ص ٢ .

من هذا النص القصير ما إذا كان أجريفينى قد ذهب إلى سيناء أم لا . لكن من المتوقع أن يكون قد حصل على تلك المعلومات وهو داخل الأراضي الفلسطينية. وعلى أية حال ، فإن الأرشمندريت الذي يعيش في منطقة سمولينسك يتحدث عن زيارة الحجاج الأرثوذكس إلى أرض سيناء ، وكأنه يتحدث عن موضوع تقليدي . وهو الأمر الذي ظهر جلياً من خلال البحث الأخير الذي أجراه العلماء الروس ، على إحدى المخطوطات القديمة المحفوظة في مكتبة دير سانت كاترين . وفي عام ١٩٩٥ تعرف العالم ي.ن شابوف على مخطوطة تعود لنهاية القرن الثاني عشر محفوظة في ملف يحمل اسم (Sin.Slav. 39) . وكان الجمع يعتبرها مخطوطة من صربيا . وتوصل العلماء إلى أن هذه المخطوطة هي مخطوطة للرسول أبراكوس مع تقويم^{٤١٥*} وهي مخطوطة روسية قديمة . وعلى حواشى الأوراق توجد قوائم بأسماء . ويشير «ي.ن شابوف» : «أنه بسبب تلك الأسماء ، ومن أجل إقامة صلاة الغائب عليهم داخل دير سانت كاترين في سيناء تم نقل هذه المخطوطة من روسيا إلى سيناء . وكان لابد أن يقوم بهذا أحد أفراد تلك الدولة بعد وفاة الأمين علي تلك المخطوطة ، والذي توفي في القرن الثالث عشر»^{٤١٦} .

بحلول منتصف القرن الرابع عشر بدأت العلاقات بين روسيا ودير سانت كاترين في سيناء تتسم بالاستقرار . وفي مقدمة كتاب رحلة أجريفينى يشير الأرشمندريت ليونيد ، مستنداً إلى ما جاء في المدونات التاريخية أنه في عام ١٢٧٦ كان قد جاء إلى موسكو الأسقف مارك ، وذلك لجمع الصدقات لدير سانت كاترين^{٤١٧} . وفي عام ١٣٩٠ نُقل من سيناء إلى موسكو حجر مرسوم عليه صورة شجرة العليقة المحترقة ، ليوضع داخل كاتدرائية البشارة في موسكو^{٤١٨} .

- ٤١٥ * يقصد بهذا التقويم : تقويم كنائسي أو شعبي يشير إلى ذكرى القديسين وأعياد الكنيسة .
(المترجم)
- ٤١٦ شابوف . ي . ن «ثلاثة أيام في دير سانت كاترين في سيناء // جيناديوس» ، مجموعة مقالات الأكاديمي ج . ليتافيرس ، موسكو ، ١٩٩٩ ، ص ٢٨٧
- ٤١٧ مسيرة الأرشمندريت أجاربيف ، ص ٨ .
- ٤١٨ الفير وفا . ف . «الحج إلى سيناء» ، موسكو ، ١٩٩٨ ، ص ٢٧ .

في عام ١٤٥٣ سقطت الإمبراطورية البيزنطية ، التي كانت معقلاً للمسيحية تحت ضربات الأتراك لها . وأشار «ن.ف. كابتروف»^{٤١٩} في مطلع القرن العشرين إلى أن : «سقوط بيزنطة قد ألقى على عاتق الدولة الروسية العديد من الالتزامات تجاه الأرذوكسية في كل أنحاء العالم» . ففي هذا التوقيت كانت موسكو قد انتهت من عملية تجميع شتات الأراضي الروسية ، لتتحول روسيا إلى دولة كبرى موحدة ، وفي عام ١٤٨٠ تخلصت من النير التتاري - المغولي ، وأصبح في إمكان روسيا وحدها أن تحل محل بيننطة ، لتصبح حامية العقيدة الأرذوكسية في العالم . ويشير الأسقف تيموتي أوير المؤرخ الإنجليزي للمسيحية إلى أن : «شعب موسكو كان يشعر أن تزامن سقوط الإمبراطورية البيزنطية مع الخلاص من بقايا هيمنة وسيادة التتار ، لم يكن من قبيل المصادفة . وكان الرب منحهم الحرية لأنه اختارهم خلفاً لبيزنطة»^{٤٢٠} بيد أن إمكانيات روسيا باعتبارها أكبر دولة عظمى أرذوكسية بالعالم آنذاك لمساعدة إخوانهم في العقيدة كانت محدودة للغاية . فلم يكن بإمكانها تحريرهم من قبضة الأتراك . ولكن سمح الحكام الروس للبطاركة الشرقيين من القسطنطينية ، والقدس ، وإنطاكية ، والإسكندرية وسيناء بمصر ، بإيفاد رسلهم إلى موسكو لجمع التبرعات والصدقات . يشير البروفسير كورت وايزمان الأستاذ بجامعة بريستون في واشنطن والذي كان يترأس البعثة العلمية الأمريكية التي ذهبت إلى دير سانت كاترين في السبعينيات^{٤٢١} إلى أنه : «بعد أن تعهدت روسيا بأن تلعب دور الحارس الأمين علي الأرذوكسية في كل أنحاء العالم ، أخذت تقوم بتزويد الأديرة اليونانية بالأدوات الكنسية والمخطوطات والأيقونات . كذلك الحال بالنسبة لجبل أثوس والقدس وسيناء كانوا قد حصلوا علي قدر ، ليس بالضئيل من تلك الهدايا القيمة» .

تعود المدونات الأولى التي وصلتنا عن رحلات الحجاج الروس إلى أراضي سيناء إلى عهد القيصر إيفان الثالث ، حيث زار الراهب فارسونوفي دير سانت كاترين في مطلع عام ١٤٩٢ ، ووصف الدير بإسهاب ، ومعبده الرئيسي كنيسة التجلي والعليقة الملتهبة

٤١٩ كابتروف . ن . ف « طبيعة علاقة روسيا بالشرق المسيحي بالقرنين ١٦-١٧ الميلادي ، الطبعة الثانية ، سيرجيف بوساد ، ١٩١٤ ، ص ١٠٣ .

٤٢٠ Ware T. Orthodox Church. New Edition. London, 2000, p. 102

٤٢١ Weitzmann K. Introduction to: John Galey. Sinai & the Monastery of St. Catherine. Cairo, 1985, p. 153

وصعوده فوق جبل موسى وجبل سانت كاترين^{٤٢٢}. وقد أرسل القيصري إيفان جروزني تبرعات قيمة لسيناء عدة مرات. في عام ١٥٥٨ م أرسل القيصري إيفان جروزني تبرعات مع التاجر فاسيليفيتش بوزنياكوف، من أجل صحة العائلة المالكة، الأمر الذي كان مألوفاً في تلك الفترة. وذات مرة كتب القيصري إيفان للبطريرك يواقيم، بطريرك الإسكندرية يقول: «من الآن فصاعداً سنرسل لك عطية الرب بصفة دائمة، مع رئيس الشماسية جينادي والتاجر فاسيلي بوزنياكوف. وهي عبارة عن أدوات كنسية مرسلتة مع ألف أوقية من الذهب داخل معطف مخملي. كما طلبت من المطران وجميع الرهبان إنشاء دير في جبل سيناء وأرسلت حوالي ١٠٠٠ عملة ذهبية، وها أنا، أناشدك أن تدعو الرب وأمه الطاهرة، وجميع القديسين بالحفاظ علينا وعلى صحتنا، وأن يحفظوا القيصرة أنستاسيا وأبناعنا القياصرة الصغار إيفان وفيدور، وأن يحفظوا لنا الأرذوكسية المسيحية بأكملها»^{٤٢٣}. وبعد ذلك أرسل إيفان الرهيب صدقة إلى سيناء علي روح زوجته الأولى أنستاسيا التي توفيت في عام ١٥٦٠، وصدقة أخرى على روح شقيقه يوري^{٤٢٤}، وأخيراً، أرسل صدقة علي روح ابنه إيفان: «سيادة القيصري الحاكم إيفان فاسيليفيتش، وكل روسيا ترسل إليك من موسكو صدقة علي روح ابنها القيصري الصغير إيفان إيفانيفيتش (الذي توفاه الله في عام ١٥٨٢، ف. بيلياكوف). والصدقة مرسلتة مع التجارين تريفون كاروبينيكوف ويوري جريك وسيكون معهم فيودور العراب في دروب الصحراء، وسيرسل معهم الحاكم ٥٠٠ روبل نقداً لصالح إنشاء دير للقديسة كاترين^{٤٢٥} في جبل سيناء....»

كان فاسيلي بوزنياكوف الذي رافقه البطريرك ألكسندر يواقيم، في رحلته إلى دير سانت كاترين، قد كتب وصفاً رائعاً لرحلته إلى سيناء وفلسطين. ولكنه لم يحظ بالاهتمام والتقدير اللائق من مواطنيه. في حين كان هناك مصير مغاير لمدونات كل

- ٤٢٢ رحلة فارسونوفيا في مصر، سيناء وفلسطين || كتاب رحلة، موسكو ١٩٨٤، ص ٣٤٤ : ص ٤٤٩.
- ٤٢٣ رسالة القيصري إيفان فاسيليفيتش ليواقيم بطريرك الإسكندرية مع التاجر فاسيلي بازنياكوف، ورحلة التاجر بوزدنياكوف إلى فلسطين والقدس والأماكن المقدسة في عام ١٥٥٨، موسكو، ١٨٨٤، ص ١٢.
- ٤٢٤ بيانتنسكي. يو «سيناء، بيزنطة والروس» || ناشي ناسليديا، العدد رقم ٥٨، ٢٠٠١، ص ٣٠، ص ٣٣.
- ٤٢٥ رحلة تريفون كاروبينيكوف || كتاب المسيحية الفلسطينية، الإصدار رقم ٢٨، سانت بطرسبورج ١٨٨٨، ص ٦.

من : تريفون كاروبينيكوف ، ويوري جريك ، والتي تُعد نسخة طبق الأصل من مدونات بوزنياكوف : «باتت رحلاتهم ومسيراتهم تحظى بشعبية كبيرة منذ وقت طويل» . ووفقاً لما أشار إليه «أساخاروف» في منتصف القرن التاسع عشر ، فإنها باتت معروفة في مئات القوائم^{٤٢٦} . وساهمت شهرة هذا العمل الأدبي في جذب عدد كبير من الروس ، لزيارة تلك الأماكن المقدسة في دول الشرق الأوسط .

في منتصف القرن السابع عشر ، بدأت روسيا تولي سيناء اهتماماً كبيراً من بين كل الأماكن المقدسة ، على الرغم من بعد المسافة بينهما . ونذكر على سبيل المثال أن زُسل أربعة من بطاركة الشرق الذين كانوا يذهبون إلى روسيا لجمع الصدقات والتبرعات ، كان عليهم أن ينتظروا على الحدود في منطقة بوتيفلي ، إلى أن يصدر الإذن من القيصر للسماح لهم بالدخول إلى العاصمة ، إلا أنه ووفقاً للوثيقة الممنوحة لدير سيناء في عام ١٦٤٨ ، كان يُسمح لزُسل ومبعوثي الدير بالدخول إلى العاصمة موسكو على الفور دون أي انتظار^{٤٢٧} . على الأرجح إن الأهمية الدينية لسيناء ، والشهرة الطاغية في روسيا للقديسة كاترين ، التي ترقد رفاتها في الدير قد لعبا دوراً هاماً . ويتضح ذلك جلياً من خلال تلك الحقيقة التي تقيد بأن أول وسام نسائي أسسه القيصر بطرس الأول في عام ١٧١٤ هو وسام التحرير باسم القديسة الشهيدة كاترين^{٤٢٨} . وهناك مشهد آخر يثير الدهشة بشكل كبير . ففي الرابع والعشرين من نوفمبر ١٦٥٨ ، تجلت القديسة كاترين للقيصر أليكسي ميخائيلوفيتش الذي قرر المبيت في خيمة أثناء قيامه برحلة صيد إلى أحراش إيرمولينسك ، بالقرب من موسكو ، فتجلت له القديسة كاترين ونبأته بأن الرب سيمنحه طفلة ، وفي اليوم التالي بعد أن عاد إلى موسكو وجد القيصر بالفعل أن زوجته قد أنجبت مولودة جميلة ، أطلق عليها اسم كاترين ، وقرر القيصر أن ينشئ ديراً للقديسة كاترين في المكان الذي رأى فيه تلك الرؤية . وما زال قائماً حتى الآن (في مدينة فيدنوي^{٤٢٩} * ٤٣٠) .

- ٤٢٦ «حكايات الشعب الروسي» ، إعداد وتجميع أ . ساخاروف ، مجلد ٢ ، سانت بطرسبورج ، ١٨٤٩ ، ص ١٣٦ .
- ٤٢٧ كابيتروف . ن . ف ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .
- ٤٢٨ القاموس الموسوعي لـ ف . أ بروكجوز ، ي . أ . يفرون ، المجلد ٢٢ سانت بطرسبورج ، ١٨٩٧ ، صفحة «وسام» .
- ٤٢٩ * فيدنوي هي إحدى مدن روسيا في الكيان الفيدرالي الروسي إقليم موسكو وعاصمة منطقة لينينسكي (المترجم) .
- ٤٣٠ دير سانت كاترين ، إصدار دير سانت كاترين للرجال ، موسكو ، ١٩٩٨ ، ص ٧ .

من الجدير بالذكر أيضاً ، أن أبناء القيصر أليكسي ميخائيلوفيتش قد لعبوا دوراً كبيراً ، في تعزيز العلاقات بين روسيا وسيناء . ففي عام ١٦٨٨ بناءً على مبادرة من آباء سيناء ، أعلنت روسيا رسمياً رعايتها لديرسانت كاترين . وجاء في الوثيقة الممنوحة لديرسانت كاترين في الخامس من فبراير ١٨٦٦ باسم القيصر وكبار الأمراء إيوان وبيتر أليكسيفيتش والأميرة الكبرى صوفيا أليكسيفنا^{٤٣١} : «أنا سنخصص جزءاً من الأعمال الخيرية لصالح الحفاظ على ديرسانت كاترين ، وشجرة العليقة المحترقة ، وذلك تكريماً للمؤمنين بالمسيحية في كل أنحاء العالم» . ويذكر أنه قبل عام من هذا الحدث ، تم إعداد وإرسال تابوت فضي مطلي بالذهب ليضم رفات القديسة كاترين . سجل الكاتب المعروف والحاج فاسيلي جريجوريفيتش بارسكي ، بعد زيارته لسيناء في عام ١٧٢٨ في مدوناته : «أن ذلك التابوت الفضي الذي تم إرساله إلى ديرسانت كاترين هو من إبداع القيصرة كاترين أليكسيفنا وهي شقيقة الإمبراطور بطرس الأول^{٤٣٢} . بل ومن المرجح أن تكون هي صاحبة مبادرة إهداء هذه الهدية» . بيد أن التوقيع الموجود على التابوت يقول : «إنه في صيف ٧١٩٥ (أي عام ١٦٨٧ ف. بيلياكوف) وفي أحد أيام شهريونيو نحن كبار الأباطرة المسيحيين في العالم من ملوك وقيصرة وأمراء كبار ، مثل إيوان أليكسيفيتش وبيتر^{٤٣٣} أليكسيفيتش وجلالة الملكة والأميرة الكبيرة صوفيا أليكسيفنا ، قد أهدينا هذا التابوت الفضي المطلي بالذهب من خزانتنا الملكية إلى جبل سيناء المقدس^{٤٣٤} »

منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى ثورة ١٩١٧ ، ظلت نفقات الكنيسة الأرثوذكسية في سيناء تأتي من روسيا بصفة أساسية . ويرجع هذا في المقام الأول إلى أنه بعد الحرب التي اندلعت بين روسيا وتركيا (١٨٠٦-١٨١٢) قد انضمت بيسارابيا^{٤٣٥} * إلى روسيا ، حيث كان السيناويون يمتلكون بعض الضياع المهداة لهم ، من ملوك وأباطرة مولدافيا . وتؤكد المادة السابعة من معاهدة بوخارست للسلام ١٨١٢ ، والتي أكدت علي حقوق الأفراد

- ٤٣١ بياتسكي . يو ، المرجع السابق ص ٣٤ .
- ٤٣٢ رحلة فاسيلي جريجوريفيتش بارسكي بلاكي ألنوبا وهو أوكراني الأصل ، راهب من أنطاكية ، قام بعدة رحلات للأماكن المقدسة في كل من آسيا ، وأوروبا وأفريقيا ، بدأت في عام ١٧٢٣ ، لنتتهي في عام ١٧٤٧ ، سانت بطرسبورج ، ١٧٨٩ ، ص ٢٧١ : ص ٢٧٢ .
- ٤٣٣ الحج أو الرحالة الكهنوتي إيوليت فيشنيفسكي ، موسكو ، ١٨٧٧ ، ص ١٣٣ .
- ٤٣٥ * بيسارابيا هو مصطلح يشير إلى منطقة جغرافية تقع في أوروبا الشرقية يحدها من الشرق نهر الدنستير ومن الغرب نهر بروت (المترجم) .

في الملكية في بيسارابيا ، وفي مارس من عام ١٨١٧ ، سرت تلك المادة على باقي العقارات التابعة للدير^{٤٣٧}.

وفقاً لعملية جرد أملاك الأديرة في الخارج ، والتي جرت في بيسارابيا في عام ١٨٨٠ ، تبين أن دير سيناء يمتلك حوالي ثلاث عشر ضيعة في كيشنيفسك ، وأرخيفمنسك ، وباسك ، وساروكس بمساحة إجمالية تصل إلى ١٥٠٤٩ فدان . وكان يُزرع بها محاصيل زراعية مختلفة ، من فاكهة وعنب وتبغ^{٤٣٨} . ولكي ندرك قيمة وأهمية هذه الأملاك في عملية تمويل الأماكن المقدسة في سيناء ، علينا أن نحكم من خلال بنود المصروفات الخاصة بميزانيتهم في عام ١٨٩٠ حيث ساهمت أملاك منطقة بيسارابيا بحوالي ٦٠ ألف فرنك من إجمالي ١٠٥ ألف ، وساهمت المزارع في كل من كييف وتيفليس بثلاثة آلاف من عائدات الأوراق المالية الروسية^{٤٣٩} . وهكذا نجد أن السيناويين كانوا يحصلون على ثلثي دخلهم من الإمبراطورية الروسية . إن هذا المعقل القديم للأرثوذكسية يعيش مؤخراً وبشكل رئيس بفضل الأموال الهائلة التي ترسلها حكومة الإمبراطورية الروسية من عوائد أملاك بيسارابيا - وذلك وفقاً لما كتبه الدبلوماسي أ.أ. سميرنوف بالخرافية الروسية عقب زيارته إلى سيناء في عام ١٩١٠ - والذي أشار إلى : ” أن العلاقة المادية مع وطننا كانت السبب الرئيس وراء احتفاظ الكنيسة المستقلة في سيناء بأفضل مستوى في علاقاتها مع روسيا وهو ما يمثل مسألة في غاية الحيوية والأهمية “^{٤٤٠}.

في جورجيا كان السيناويون يمتلكون ضيعة ميغريفسك في مقاطعة جوريسكي بمساحة ٦٨٥ فدان ، وضيعة في تفليس ، وكنيسة لسانت كاترين بمساحة ٤٠٠ متر مربع^{٤٤١} . وقد بنى تلك الكنيسة في عام ١١٢٣ القيصر الجورجي ديفيد الثالث . وقد تبرع بتلك الكنيسة لصالح دير سانت كاترين في سيناء . أثناء الثورة في عام ١٩٠٥ احترقت تلك الكنيسة ، ودمرت بالكامل . وطلب المطران بورفيرى الثاني مطران سيناء

- | | |
|-----|---|
| ٤٣٧ | أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ١٥٩ ، قسم شؤون الأفراد والشؤون التجارية ، أملاك بيسارابيا (١٨٤٩-١٩١٧) ، وثيقة رقم ٨١ ، سطر رقم ٣ . |
| ٤٣٨ | المرجع السابق ، وثيقة رقم ١٠٤ ، السطور : ١٣ ، ١٤ . |
| ٤٣٩ | المرجع السابق ، ملف رقم ٣١٧ (القنصلية الروسية في مصر) ١٧٩٦-١٩٣٢ ، حافظة ٨٢٠/١ ، وثيقة ٥٧٢ ، السطر رقم ٦٨ . |
| ٤٤٠ | المرجع السابق ، المائدة المستديرة باليونان ١٨٢٥-١٩١٧ ، حافظة رقم ٧٩٨ ، وثيقة رقم ٣١٠٨ ، السطر الأول . |
| ٤٤١ | المرجع السابق ، ملف ٣١٧ ، حافظة رقم ٣١٨٢٠ ، وثيقة رقم ٢٤٦ ، السطر ١٠ . |

من روسيا في عام ١٩٠٨ أن تخصص ١٥٠ ألف روبل لإصلاح الكنيسة. وكذلك تخصيص الربيع القادم من المزارع في تيفليس، بيد أن طلبه هذا قوبل بالرفض^{٤٢}.

في عام ١٧٣٨ أوصى اليوناني ستوماتي، وهو أحد سكان كييف بإهداء قطعة أرض يملكها، لصالح الكنيسة في سيناء لبناء كنيسة مكرسة لسانت كاترين. وبعد مرور ست سنوات نفذت الإمبراطورة إليزابيث بيتروفنا هذه الوصية. وفي عام ١٧٤٨ تم تشييد دير تابع لكنيسة سيناء الأرذوكسية. وقد ظل قائماً حتى مطلع الثلاثينيات^{٤٣}.

على مدار عشرات السنوات، تم تأجير أملاك بيسارسكي إلى بعض المستأجرين من الأفراد وبعد ذلك وجدت الحكومة الروسية أن تلك الأملاك لا يُستفاد بها بالشكل الأمثل، وفي التاسع من مارس من عام ١٨٧٣ تم اتخاذ قرار أن تستأجر الدولة تلك الأملاك في شكل إيجار دائم. وانتقلت إدارة تلك الأملاك إلى وزارة أملاك الدولة وتم تكليف وزارة الخارجية بإرسال عوائد الإيجار إلى الملاك. ورأي المسؤولون الروس آنذاك، طالما أن هدف التبرع من تلك الأملاك كان يتمثل في الانفاق المادي، ليس فقط على دير سانت كاترين في سيناء فحسب، بل وكذلك على المدارس والكنائس والجمعيات الخيرية في منطقة بيسارابيا، فقد تقرر تقسيم عوائد تلك الأملاك إلى خمسة أقسام علي النحو التالي :
خُمسين من حق الدير، وخمسين من حق مجلس المنطقة في بيسارابيا، والخمس الباقي للمصروفات الإدارية^{٤٤}.

يبدو أن السيناريويين لم يرحبوا بهذا القرار. ولكنهم في الوقت نفسه لم يكن لديهم الفرصة لمجرد الحديث عنه. وفي عام ١٨٨٣ توجه المطران سيانسكي كاليسترات بطلب إلى الإمبراطور ألكسندر الثالث، يناشده بإعادة إدارة أملاك بيسارابيا إلى الدير مرة أخرى متعللاً بحجة أنه أثناء قيام الإنجليز باقتحام الإسكندرية في صيف ١٨٨٢ احترقت كافة الأملاك التي تدر دخلاً للدير، وبات الدير في أمس الحاجة إلى مصروفات إضافية^{٤٥}.

- ٤٤٢ المرجع السابق، ملف ١٤٩، مائدة تركيا (الجديدة) ١٨١-١٩١٧، الحافظة ٥٠٢٦، وثيقة رقم ٤٣١٢، السطور: ١، ٢.
- ٤٤٣ بيرميكوف. ب «إبتسامة أبو الهول»، الطبعة الثانية، موسكو ١٩٩١، ص ٢٢٤.
- ٤٤٤ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ١٥٩، حافظة رقم ٤٦٢، وثيقة رقم ٨١، السطور من ٥ : ٨.
- ٤٤٥ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ١٤٩، الشأن التركي (١٨١٨-١٩١٧) حافظة رقم ٥٠٢، وثيقة رقم ٣٩٣٢، السطور من ٢١ : ٢٣.

لم يُنظر في مسألة عودة الأملاك للدير مرة ثانية، بيد أن السفير الروسي في القسطنطينية أ.أ. نيليدوف اقترح زيادة نصيب نفقات الدير في سيناء. وكتب السفير في سانت بطرسبورج :

” إن الأراضي والمزارع المملوكة للدير في مصر لا تحقق له أية عوائد تذكر، كما أن غالبية زوار طور سيناء هم من الفقراء، ولا يعودون بأية فائدة على الدير، هذا بالإضافة إلى أن انخفاض سعر الروبل لدينا في غضون الإثنتي عشرة والأربعة عشر عاماً الأخيرة، قد أدى إلى تقلص حجم العوائد من أملاك بيسارابيسك، وظلت احتياجات الدير الذي لم يعد ينتج أي شيء، ويحصل حتى على الخبز من مصر لأجل الرهبان كما هي^{٤٤٦}. وفي الرابع من مايو ١٨٨٤، قرر مجلس الوزراء زيادة نصيب الدير من عوائد أملاك بيسارابيا من خمسين إلى ثلاثة أخماس^{٤٤٧}.

على مدار ثمانية أعوام ازداد نصيب الدير إلى أربعة أخماس تقريباً، واتخذت الحكومة الروسية هذا القرار في الثامن والعشرين من أبريل ١٨٩٢^{٤٤٨}، وذلك ردأ على طلب مطران سيناء. وعزز طلبه قائلاً إن الزلزال القوي الذي ضرب البلاد واصلح الضرر البالغ الذي أحدثته السيول بالدير يتطلب الكثير من النفقات المالية^{٤٤٩}.

ظلت روسيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر تدفع سنوياً مبالغ محددة لمطرانبة الشرق الأربعة، وكذلك الأديرة الشرقية. ووفقاً للقائمة التي تعود لعام ١٨٢٧ كان من المفترض أن يحصل دير سانت كاترين علي مبلغ سبعين روبل من الفضة، وهو يقارب تقريباً المبلغ الذي يحصل عليه البطاركة الذين كان يخصص لهم مائة روبل فضة^{٤٥٠}.

كانت تبرعات الروس للدير كثيرة، والتي نذكر منها على سبيل المثال تبرعات السيدة ناتاليا بيكيفا أرملة أحد التجار من رايبانسك^{٤٥١} والتي توفيت في عام ١٨٦٨ قد

- | | |
|-----|---|
| ٤٤٦ | المرجع السابق، السطر ٢٦. |
| ٤٤٧ | المرجع السابق، السطر ٥٢. |
| ٤٤٨ | المرجع السابق. |
| ٤٤٩ | أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٣١٧، حافظة ١١٨٢٠، وثيقة رقم ٥٧١، السطر ٧٦. |
| ٤٥٠ | أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ١٨٠، القنصلية في القسطنطينية، حافظة رقم ١١٥٧١، وثيقة رقم ٣٥٢٥، السطر رقم ٣. |
| ٤٥١ | * رايبانسك: هي إحدى مدن روسيا في الكيان الفيدرالي الروسي إقليم ياروسلاف (المترجم). |

تبرعت بثلاثة تذاكر بقيمة ٥٪ من البنك المركزي بمبلغ ٧٠٠ روبل^{٥٢}. وفي عام ١٨٦٩ تبرعت أنستاسيا ليخاتشيفا بثوب مزركش بمبلغ ١٢ روبل^{٥٣}. وأ.ليوبوف إيفانوفنا تروخيننا التي توفيت في عام ١٩١٠ كانت قد تبرعت للدير بحوالي ٤٠٠ روبل^{٥٤}.

ساهم امتلاك الكنيسة الأرثوذكسية في سيناء لأملاك في بيسارابيا وفي كييف وتفليس في إرغام قيادة الكنيسة على زيارة روسيا بصورة دورية، هذا إلى جانب الزيارات التي كان يقوم بها الحجاج الروس لدير سانت كاترين، مما دفع القساوسة في سيناء لتعلم اللغة الروسية. وفي عشرينيات القرن التاسع عشر، كان المطران سيانيسكي قنسطنطين يرأسل المبعوث الروسي في القسطنطينية البارون ستروجانوف، باللغة الروسية. وكتب ستروجانوف في الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٨٢٠ قائلاً: "لم أقرأ الصحف الروسية منذ وقت طويل، وأنت بذلك تكون قد أسديت لي معروفاً"^{٥٥}. وبعد الحريق الذي اندلع في كنيسة سانت كاترين في تفليس^{٥٦} في عام ١٩٠٥ عاد إلى سيناء الأرشيمندريت نيوفيت الذي يعرف اللغة الروسية جيداً، وأصبح هو حلقة الوصل وراعياً للحجاج الروس^{٥٧}.

ظلت رحلة الحج إلى سيناء بمثابة رحلة حقيقية باسم الإيمان وذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر. لكنها في نفس الوقت ظلت رحلة شاقة، وتستغرق عدة شهور بل وقد تصل أحياناً إلى سنوات، وكان المتدينون فقط هم من لديهم الدافع لهذه الرحلة الشاقة. بيد أن الموقف تغير تماماً بعد أن تم إنشاء شركة الملاحة والتجارة الروسية في عام ١٨٥٦ والتي قامت بعد عامين من إنشائها بتأسيس خط بحري ملاحى يبدأ من الأوديسا - القسطنطينية - بيرى - سميرنا - رودس - الإسكندرون - بيروت - يافا - الإسكندرية وفي العام الأول من تشغيل هذا الخط تم تسيير حوالي ٤٢ رحلة بحرية، نقل علي أثرها حوالي ١٢,٤ ألف راكب كان معظمهم من الحجاج. وفي العام الثاني تضاعف حجم

٤٥٢ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ٣١٧، حافظة رقم ١١٨٢٠، وثيقة رقم ٥٦٧، سطر ٣٣.

٤٥٣ المرجع السابق، السطر ٥٤.

٤٥٤ المرجع السابق، وثيقة رقم ٥٦٧، السطر ١٧.

٤٥٥ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ١٨٠، حافظة رقم ١١٥١٧، وثيقة رقم ٣٥٢٠، السطر ١٥.

٤٥٦ * تفليس: هي تبليسي وهي عاصمة جورجيا وأكبر مدنها.

٤٥٧ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، الملف رقم ١٤٠، حافظة رقم ٤٩٧، وثيقة رقم ٣١٠٨، السطر رقم ٢.

الرحلات والركاب^{٤٥٨}. ذات مرة كتب إ. أليكس القنصل العام الروسي في مصر في تقرير عام ١٨٨١: "إن عدد الحجاج الروس الذين يذهبون عبر الإسكندرية يتزايد كل عام، ولكن معظمهم يذهب إلى القدس والقليل منهم يتوجه إلى سيناء: ووصل عددهم في عام ١٨٨٠ إلى نحو ٨٧ حاجاً، وفي عام ١٨٨١ إلى ٦٠"^{٤٥٩}. حيث كانوا يخشون شدة حرارة الجو، والسير عبر الصحراء الموحشة.

في مطلع القرن العشرين وبشهادة الباحث المصري نعوم بك شقير. أنه قد زاد عدد الحجاج الروس إلى سيناء. وكتب في عام ١٩١٦: "إن من يذهبون إلى الحج إلى سيناء أعدادهم قليلة في أيامنا الحالية، وخاصة إذا لم يكونوا من الروس المعروفين مثل "سكان موسكو". ففي كل عام تسافر مجموعات من الرجال والنساء تصل أعدادهم في المتوسط إلى نحو مائتين فأكثر. ويقضون في الدير حوالي ثمانية أيام، كل هذه المدة كانوا يقضونها في عمل جولات بالمناطق المحيطة بالدير، وليس فقط الإكتفاء بمشاهدته. فغالبية الحجاج الروس ينتقلون من القدس في عيد رأس السنة أو يوم التعميد، والبعض الآخر يسافر من بلده مباشرة قبيل يوم الاحتفال بميلاد القديسة كاترين، الذي يوافق الخامس والعشرين من يناير والذي يحتفل به الرهبان بشكل مهيب. ويتوجه الحجاج أولاً إلى مدينة السويس، ومنها إلى منطقة الطور حتى يصلوا إلى دير سانت كاترين أو ينتقلون مباشرة من السويس إلى الدير"^{٤٦٠}.

حول حقيقة أن جزءاً من الحجاج الروس كان يتوجه من فلسطين إلى سيناء يحدثنا كاتب هذه السطور من خلال الحقيقة المدهشة التي عثر عليها في عام ١٩٩١ على مسافة ١٦٠ كم شمال شرقي دير سانت كاترين، وبالتحديد في الطريق القديم المؤدي إلى فلسطين في وادي خضرا، حيث توجد صخرة كان يوقع عليها الرحالة أسماءهم منذ مئات السنين. وكان من بينها توقيع مكتوب فيه: "في الطريق إلى دير سانت كاترين". وكان مكتوباً بالحروف الروسية البدائية قبل تعديها"^{٤٦١}.

- ٤٥٨ مصر في عبور الروس: القرن التاسع عشر وبداية العشرين: السياسة، الإقتصاد والثقافة || مجموعة وثائق من إعداد وتقديم جينادى جورياتشكين، موسكو ١٩٩٢، ص ١٦: ص ١٧.
- ٤٥٩ المرجع السابق، ص ١٢٥.
- ٤٦٠ نعوم بك شقير، سيناء وتاريخ العرب، القاهرة، ١٩١٦، ص ٢٢٥ (باللغة العربية).
- ٤٦١ فلاديمير بيلياكوف «مصر بالطول والعرض» «المرشد التاريخي، موسكو ٢٠٠١، ص ٢٩٦.

كتب الدبلوماسي الروسي أ. سميرنوف إلى وزارة الخارجية والذي توجه إلى الدير في عام ١٩١٠ إن عدد الحجاج الروس الذين يذهبون لزيارة الأماكن المقدسة في سيناء سنوياً يتراوح ما بين ٢٠٠-٣٠٠ حاج حيث يقول : ” لقد أتيت لي الفرصة للتعرف على أجواء السفر المريحة وعلى حفاوة الاستقبال بالنسبة للحجاج الروس داخل الدير ، وكان البعض منهم يذهب مباشرة من السويس إلى الدير . وكنت أتحدث مع هؤلاء الأفراد الذين أتوا من شتى بقاع الأراضي الروسية ومن سيريا ، كما أعربوا من جانبهم عن بالغ سعادتهم ورضاهم بالوضع العام للرحلة والاستقبال الحميم في سيناء “^{٤٦٢}.

هذا وعلى الرغم من إنشاء الخط الملاحي الأوديسا - الإسكندرية ، إلا أن رحلة الحج إلى سيناء ظلت رحلة شاقة ، وتتطلب المزيد من الوقت والجهد والأموال أكثر من الرحلة إلى فلسطين . فعند الوصول إلى الإسكندرية لابد من ركوب القطار للذهاب إلى القاهرة ، ثم تغيير الخط لركوب القطار إلى السويس . وفي ميناء السويس الذي يطل على البحر الأحمر كادت السفن التي تبحر إلى مدينة الطور، تلك المدينة التي تقع غرب سواحل السويس ، أن تكون نادرة ، فهي كانت بمثابة أقرب نقطة إلى الدير . وتستغرق الرحلة من الطور إلى جبل سيناء ما بين ثلاثة وأربعة أيام فوق ظهور الجمال ، وذلك وفقاً لما أشار إليه أ. سميرنوف^{٤٦٣} . ولم يكن بمقدور كل الحجاج تحمل عبء هذا الطريق عبر الصحراء المحوشة . وفي الرابع من سبتمبر ١٨٩٥ لقت ابنة الشماسة تاتيانا نيكراسوفا مصرعها جراء السير لمدة أربعة ساعات من دير سيناء في طريق العودة من سيناء إلى السويس . وقد تم دفنها في اليوم التالي في مقبرة الدير^{٤٦٤} .

كان الطريق من السويس إلى الدير يستغرق أسبوعاً كاملاً فوق ظهور الجمال وكان أ. ف. يليسييف يستخدم هذا الطريق لكي يصل إلى جبل سيناء في عام ١٨٨١ . بينما كان يلتقي هناك في هذا الطريق مع أقرانه من الروس . وكتب يليسييف^{٤٦٥} يقول : ” كان من الغريب أن ترى فلاحين على شواطئ البحر الأحمر ، في زيهم التقليدي الذي هو عبارة عن العذاء الكبير ، والأكمام الحمراء ، والمعاطف ، والبرنيطة ، والمخلتة فوق أكتافهم ، وهم يمسكون بفروع الشجر السيناوية يقصد بها فروع شجرة العليقة المحترقة - فلاديمير بيلياكوف . ويتضح من حديثه كذلك ، أن الحجاج الروس اتسموا بالإيمان بالله والبساطة في التعامل وقوة الشخصية ، وكذلك بالصبر على المتاعب

٤٦٢ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، الملف رقم ١٤٢ ، حافظة رقم ٤٩٧ ، وثيقة رقم ٣١٠٨ ، السطر رقم ١٢ .

٤٦٣ المرجع السابق ، السطر الأول .

٤٦٤ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، الملف رقم ١٤٩ ، حافظة رقم ٥٠٢ ، وثيقة رقم ٦٦٥ ، السطر الأول .

٤٦٥ يليسييف . أ . ف « الطريق إلى سيناء » سانت بطرسبورج ١٨٨٣ ، ص ٣ .

وتحمل المشاق. وقد أعجب المصريون كثيراً بهذه الصفات“. ويستمر الرحالة الروسي في الكتابة: ” كنتُ أجد حولي جواً من الصداقة والوئام في كل مكان، وأسمع عبارات الترحيب التي كانت تُقال باللغة الروسية المكسرة. ولم يكن هناك أي من مشاعر العداء في أي مكان“^{٤٦٦}.

أشار نعوم بك شقير إلى: ” أن الحجاج الروس كانوا يقيمون على حساب الدير أثناء إقامتهم بالدير، ومقراته في القاهرة والسويس وطور سيناء. وكان البعض منهم يتبرع بجزء من أمواله وأغراضه الثمينة لصالح الدير“^{٤٦٧}.

لم يكن الروس من أكثر الضيوف الدائمين لزيارة الدير في سيناء فحسب، بل أصبحوا من الطلائع المتقدمين في دراسة كنوز الدير التاريخية - الثقافية، والعمل على إصلاحها. فكان يوجد إلى جوار لوحة ” تجلي الرب ” ، وهي من الأعمال البيزنطية التي تعود للقرن الرابع في كنيسة الدير، هناك رقعة من الممر منقوش عليها باليونانية: ” الشمس صموئيل من روسيا أضاء تلك اللوحة في عام ١٨٣٧“^{٤٦٨}.

كان الأرشمندريت بورفيري أوسبنسكي (١٨٠٤-١٨٨٥) أول باحث في تلك المكتبة الثرية للدير. وقد قام بعدة زيارات إلى سيناء منذ بداية عام ١٨٤٥. ومع أول زيارة له للدير، أهداه الرهبان كتاباً مقدساً (سفر المزامير) يعود لعام ٨٦٢، وهو الكتاب المعروف بين الأوساط العلمية اليوم باسم ” كتاب أوسبنسكي المقدس“^{٥١}.

هذا وقد حصل أوسبينسكي على هدايا أخرى ثمينة من الدير، ومنها ثلاث أيقونات تعود للقرن الرابع الميلادي، هذه الأيقونات قد رسمت ”بتقنية اللوحة الفنية“ - ”سيرجيوس و وواخس“، ”أم الإله مع الطفل الرضيع“، ”يوحنا المعمدان“. وتنتهي معظمها إلى مجموعة الأيقونات التي تعود إلى فترة محاربة رسم الأيقونات (٧٢٦-٨٤٣). ولم تكن مصرفي تلك الحقبة تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية، بل كانت تحت الحكم الإسلامي الذي تعامل مع المكان المقدس بتسامح كبير. وتوجد هذه الأيقونات في الوقت الحالي في متحف الفن الشرقي والغربي باسم بوجدان وفارافارا خانينكو بالعاصمة الأوكرانية كييف^{٤٦٩}.

٤٦٦ المرجع السابق، ص ٢٣.

٤٦٧ نعوم شقير بك، المرجع السابق، ص ٢٢٧ : ص ٢٢٨.

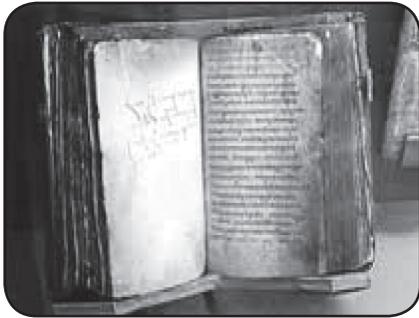
٤٦٨ «د. نيكيتش» الدير الأرثوذكسي في سيناء || آسيا وأفريقيا اليوم، يونيو/ حزيران ١٩٨٨

The Monastery of St. Catherine. London, 1996, p. 97.51-a

٤٦٩ تم نقله إلى متحف بوشكين للفنون الجميلة في موسكو في مطلع عام ٢٠٠٢، وقد حظى هذا الحدث باهتمام بالغ في المجتمع الروسي.

في عام ١٨٤٥ اكتشف أوسينسكي الذي عرفه العالم بأنه مكتشف "قانون سيناء" حيث اكتشف نسخة مخطوطة كاملة للإنجيل تعود للقرن الرابع عشر، كتبت هذه النسخة على ورق الرق المقوى، وكانت تتألف من ٩٢ كراسة منفصلة، وتضم كل كراسة من ٤ - ٨ ورقات. وقد إختفت أول ٣٦ كراسة "أو كما قيل لي إنها مخبأة داخل إحدى جدران الدير"^{٤٧٠}.

قد تأكدت صحة هذه المعلومات بعد أكثر من مائة عام. وفي عام ١٩٧٥ أثناء عملية إعادة البناء لأحد المباني الذي التهمته النيران، اكتشف الرهبان إحدى الغرف السرية في الدير، وكان بداخلها أكثر من ألف ونصف مخطوطة، وكتب من أوائل المطبوعات وأطلق على هذا الإكتشاف اسم "المجموعة الجديدة". وبعد فحص مقتنيات تلك المجموعة، عثر الرهبان على عشرين ورقة من ورق الرق المقوى، به صفحات غير كاملة "قانون سيناء" وبعض من مقتطفاته^{٤٧١}.



صورة قانون سيناء



صورة قانون سيناء المتواجدة بمتحف لندن

٤٧٠ فيما يتعلق بدساتير سيناء، فهي تضم نسخة غير كاملة من كتاب العهد القديم، ونسخة كاملة من العهد الجديد مع رسالة للقديس فارناف الرسول، وكتاب إيرما، والأرشمندريت بورفيريا أوسينسكي، سانت بطرسبورج، ١٨٦٢، ص ٢.

٤٧١ فلاديمير بيلياكوف «أفريقيا مأوى للطيور المهاجرة» - الروس في مصر، موسكو ٢٠٠٠، ص ١٧.

علم البروفسير الألماني قنسطنطين فون تيشيندورف ، المتخصص في علم اللاهوت وتاريخ الكتابة ، عن ذلك الكنز الذي عثر عليه أوسبنسكي . وفي عام ١٨٥٩ وبمساعدة الدبلوماسيين الروس ، حصل تيشيندورف على إذن من الرهبان يسمح له بالحصول على هذا المخطوط لمدة معينة لغرض الدراسة والبحث والنشر^{٤٧٢} . وبعد مرور ثلاث سنوات تم إصدار المخطوط في أربعة مجلدات في سانت بطرسبورج^{٤٧٣} . بيد أن روسيا لم تكن ترغب في البعد عن هذه المخطوطة النادرة ، والتي تأتي من حيث القدم بعد " قانون الفاتيكان " من حيث قيمتها التاريخية . لهذا الغرض أجرت مباحثات طويلة مع أعضاء الدير في سيناء . وأسفرت هذه المباحثات عن إبرام قانون لتمليك " قانون سيناء " لروسيا في عام ١٨٦٩ ، وعلى أثر ذلك ، فقد تبرع الإمبراطور ألكسندر بحوالي ٩٠٠٠ روبل لصالح الدير^{٤٧٤} .

في عام ١٨٧١ وبهذه الأموال ، تم إنشاء برج أجراس في كنيسة التجلي . ويصف الباحث الأمريكي جورج فورست هذه الأجراس بأنها " هدية روسيا " ^{٤٧٥} . كما يضيف كتاب " دليل الدير " الذي أصدرته كنيسة سيناء الأرثوذكسية ، أن هناك تسعة من هذه الأجراس المختلفة الأحجام هي " هدية من القيصرية الروس " ^{٤٧٦} . وقد تم صناعة هذه الأجراس بالفعل في موسكو في عام ١٨٧٠ في مصنع ديمتري سامجين ، بأموال التبرعات والصدقات ، كما أننا نجد توقيعاً باسم أصحاب تلك التبرعات على كل جرس^{٤٧٧} .

أما فيما يتعلق بقانون سيناء فهو موجود الآن في المتحف البريطاني في لندن . وفي عام ١٩٣٣ باع قادة الاتحاد السوفيتي هذا الكتاب بمائة ألف جنيه إسترليني^{٤٧٨} .

في عام ١٨٧٠ أجريت أول تجربة لفهرسة المخطوطات اليونانية بمكتبة الدير ، على أيدي الأرشيمندريت أنطونين كابوستين . حيث قام بفهرسة ١٣١٠ مخطوطاً أي ما يعادل نصف حجم المخطوطات الموجودة آنذاك بالمكتبة . وقد ترك كابوستين نسخة من هذه الفهرسة

٤٧٢ للمزيد حول تاريخ إقتناء روسيا لقانون سيناء ، أنظر : Volkoff O.V. La recherche de manuscrits en Egypte. Le Caire, 1970, p. 197-219

٤٧٣ Bibliorum Codex Sinaiticus. T. 1-4, СПб., 1862

٤٧٤ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم 317 ، حافظة رقم 1٨21 ، وثيقة رقم 567 ، السطر 13.

٤٧٥ Forsyth G. The Monastery of St. Catherine at Mount Sinai: the Church the Fortress of Justinian. In: Gale, John. Op. cit., p. 56

٤٧٦ بابايوان . أ - «دير سانت كاترين» مترجم من الإنجليزية ، فلاديمير بيلياكوف ، إصدار دير سانت كاترين ، ١٩٩٦ ، ص ٢٦ .

٤٧٧ ألفيروفا . ف ، المرجع السابق ، ص ٢٠ : ص ٢١ .

٤٧٨ بابايوان . أ ، المصدر سالف الذكر ، ص ٣٣ .

لدى الدير، وقام بإهداء النسخة الثانية للهيئة الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية^{٤٧٩}.

تلك التجربة التي بدأها كابوستين، قام بإستكمالها باحث روسي آخر يدعى فن. بينشيفيتش. فقد ارتحل إلى سيناء ثلاث مرات في أعوام: ١٩٠٧، ١٩٠٨، ١٩١١ وقد أنهى عملية فهرسة المخطوطات اليونانية. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل قام بينشيفيتش بإصدار أول وصف أثري للدير. وقد بذل مجهوداً جباراً في وضع وإصدار دليل إرشادي كبير بـ "أسماء الشخصيات التي زارت سيناء، وبعض الأعمال عن سيناء"^{٤٨٠}.

لم يكن من الطبيعي أن يكتب النجاح لمثل هذا العمل الشاق الطويل، لولا مساعدة آباء الكنيسة في سيناء، وقد حظيت تلك المساعدة بتقدير واضح في روسيا. ففي السادس عشر من ديسمبر من عام ١٩٠٩ حصل مطران سيناء بورفيرى الثاني على وسام القديسة أنا من الدرجة الأولى وذلك نظير "مساعدته في الأعمال العلمية للبروفيسر فن. بينشيفيتش من أكاديمية سانت بطرسبورج الدينية، الذي تم إرساله في مهمة علمية إلى شبه جزيرة سيناء"^{٤٨١}، في شبه جزيرة سيناء. ونشر هنا إلى أن أعضاء الكنيسة في سيناء قد حصلوا على أوسمة ومكافآت من الإمبراطورية الروسية، وذلك لأكثر من مرة نظير مساعدتهم للروس. حيث حصل المطران بورفيرى الأول وخليفته في عام ١٨٩١ على وسام القديسة أنا من الدرجة الأولى^{٤٨٢}، وفي عام ١٩١٠ حصل الأرشيمندرت نيوفيت على وسام القديسة أنا من الدرجة الثانية، وكان هو المسئول في دير سيناء عن تحديد مكان إقامة الحجاج الروس^{٤٨٣}.

تجدر الإشارة إلى أن الباحثين الروس، كانوا أول من اهتم بمجموعة الأيقونات القيمة المحفوظة داخل الدير. ففي عام ١٨٨٨ وضع البروفيسر أ. أ. ديمتريفسكي الأستاذ بأكاديمية كييف الدينية، كاتالوجاً يضم أكثر من ٥٠٠ أيقونة^{٤٨٤} أي ما يعادل ثلث ما كان يحويه الدير آنذاك.

- | | |
|-----|---|
| ٤٧٩ | وصف المخطوطات اليونانية بمعبد دير سانت كاترين، المجلد الأول، سانت بطرسبورج، ١٩١١، ص ١٧. |
| ٤٨٠ | ذاكرة سيناء. الآثار والجغرافيا، ب. ف. بينشيفيتش، الإصدار الأول، سانت بطرسبورج، ١٩١٢، الإصدار الثاني ١٩٢٥. |
| ٤٨١ | أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ٣١٧، حافظة ١١٨٢١، وثيقة رقم ٥٧٦، السطر ١٦. |
| ٤٨٢ | المرجع السابق، وثيقة رقم ٥٧١، السطر ٥٦. |
| ٤٨٣ | أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ١٤٢، حافظة رقم ٤٩٧، وثيقة رقم ٣١٠٨، السطر الخامس. |
| ٤٨٤ | نيكيتين. د، المرجع السابق. |

بعد أحداث ثورة ١٩١٧ انقطعت صلات روسيا العلمية ورحلات الحج إلى سيناء . والسبب الرئيس وراء ذلك يتمثل في اضطراب الوضع داخل روسيا ، وهناك سبب آخر يتمثل في أن الإنجليز الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك ، كانوا يحرصون على عرقلة تطور علاقة مصر مع دولتنا ، خشية تغلغل الأفكار الشيوعية إلى البلاد . وكانت النتيجة تأخر البدء في إقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفيتي التي بدأت عام ١٩٤٣ .

في السنوات الأخيرة عادة رحلات الحجاج الروس إلى سيناء من جديد ، وبدأ أيتزايد تعداد الحجاج الروس إلى دير سانت كاترين . ولهذا فقد تم ترجمة كتاب دليل الدير إلى اللغة الروسية^{٤٨٥} . وظهرت أولى المطبوعات التي تروي تاريخ الأماكن المقدسة في سيناء^{٤٨٦} . وعلى الرغم من ذلك ، مازالت الصلات العلمية مع الدير مقطوعة حتى الآن .

فعلى مدار قرن بأكمله ، وفي الوقت الذي لم يشارك فيه العلماء الروس في الدراسات والأبحاث الأثرية والثقافية - التاريخية للكنوز التي يحويها الدير ، تقدم علماء الغرب في هذا المجال بصورة مذهلة^{٤٨٧} . ولكنهم تطرقوا بالكاد إلى جانب على درجة من الأهمية بالنسبة لنا ، ألا وهو دراسة الجانب المادي لعلاقة روسيا بالدير التي استمرت عدة قرون . وهناك أدلة عدة لذلك .

سبق وأن ذكرنا الضريح الفضي المطلبي بالذهب ، ليضم رفات القديسة سانت كاترين والذي تم إهدائه في عام ١٦٨٧ وتم إرساله في عام ١٨٦٠ ، من قبل أميرة روسية من العائلة المالكة .^{٤٨٨} ، هذا بالإضافة إلى برج الأجراس الذي تم إنشاؤه بأموال روسية وأجراسه التسعة المصنوعة بأيدي روسية . كذلك يوجد بالدير مجموعة هائلة من قلب الثقافة الروسية مثل الأدوات الكنيسة والأيقونات والمخطوطات ، وأوائل المطبوعات . وقد شاهد المؤلف بعينه عدداً من تلك الكتب أثناء زيارته المتعددة للدير بداية من عام ١٩٨٨ والجولات التي قام بها تحت قيادة مطران الدير دميان .

٤٨٥ بابايوان . ي ، المرجع السابق .

٤٨٦ ألفيروفا . ف ، المرجع السابق ، دير سانت كاترين ، موسكو ١٩٩٨ .

٤٨٧ أنظر : على سبيل المثال مقدمة الأساتذة الأمريكان جورج فورست وكورتز فايتسمان في كتاب

"The Monastery of St. Catherine (Cairo, 1985) (Galey, John. Sinai and Monastery of St. Catherine) أو في كتاب "

"The Monastery of St. Catherine" . الصادر من المؤسسة الدولية لدير سانت كاترين ،

في لندن ١٩٩٦ .

٤٨٨ بابايوان . أ ، المرجع السابق ، ص ١٣ .

أشار جريجوريفيتش بارسكي الذي زار سيناء في عام ١٧٢٨ : " إلى وجود عدد هائل من الأيقونات الصغيرة والكبيرة الحجم داخل الدير ، رسمها فنانون مهرة من البندقية واليونان والبعض بيد فنانيين روس مهرة " ^{٤٨٩} وفي يناير من عام ١٩٩٢ أتاحت الفرصة لمؤلف هذه المقالة ، للتحقق من صحة تلك المعلومات ، حيث عرض المطران دميان وكان شخصية معروفة للروس الأيقونات الروسية : " ميلاد السيدة العذراء " والتي تعود للقرن السابع عشر وأيقونة " البشارة " وتعود للقرن الثامن عشر في كنيسة العليقة الملتهية . وفي الكنيسة الصغيرة المجاورة لشهداء سيناء عرض أيقونتان مترافقتان وهما أيقونة " العذراء إيفرسكايا " ، وأيقونة " الرب القدير " وتوجد على الأيقونة الثانية تاريخ رسمها والذي يعود إلى الحادي والعشرين من ديسمبر ١٧٥٤ . وعرض الأب سيلفان على المؤلف ثلاث أيقونات روسية محفوظة في عدة كنائس للدير . والأيقونات هي : " عيد الصعود " وتعود للقرن السادس عشر ، وأيقونة " القديس نيكولاي " ، وأيقونة " السيدة العذراء " ^{٤٩٠} .

قد أشار د. نيكيتن في مقاله إلى الأيقونات الروسية الثلاث وهي : " أيقونة " تجلي الرب " وتعود للقرنين ١٥-١٦ ، وأهديت من موسكو للدير في نهاية القرن السادس عشر ، وأيقونة " البشارة " وهي من أعمال الفنان رسام الأيقونات ماكاري أوستاتكوف ، وتم نقلها للدير في عام ١٦١٠ (ومن المرجح أن يكون ذلك فوق الأيقونة الموجودة في كنيسة العليقة الملتهية) وأيقونة " ميلاد السيد المسيح " بالقرن السابع عشر ، التي رسمها وأهداها سيميون بروزانوف ^{٤٩١} .

أورد الباحث جون جالي في كتابه نسخاً لثلاث أيقونات روسية وهي :

" القديس سيرجي أمام السيدة مريم العذراء مع بطرس ويوحنا " القرن السابع عشر ، وأيقونة " القديس نيكولاي " القرن السابع عشر ^{٤٩٢} (تلك التي أرانى إياها الأب سيلفان) وأيقونة " القديس أليكسي " القرنين السابع عشر والثامن عشر .

هذا ، وقد اكتشف المهاجر الروسي البروفسير المؤرخ ، جريجوري إيفانوفيتش لوكيانوف (١٨٨٥-١٩٤٥) ، والذي وصل إلى الدير في عام ١٩٣٢ أيقونة ثلاثية في كنيسة العليقة الملتهية ، وهذه الأيقونة هدية من القيصر أليكسي ميخائيلوفيتش . ويعتقد لوكيانوف أنها تنتمي لأعمال رسام الأيقونات المعروف ياكوف سلطانوف ^{٤٩٣} .

٤٨٩ رحلة فاسيلي جريجوريفيتش بارسكي براكي ألوف ... ، ص ٢٧٢ .

٤٩٠ فلاديمير بيلياكوف « أفريقيا مأوى الطيور المهاجرة » ، صفحات ١٥ ، ١٨ .

٤٩١ نيكيتن . د ، المرجع السابق .

٤٩٢ Galey J. Op.cit., icons No. 76, 85 & 91

٤٩٣ Volkoff O.V. Voyageurs Russes en Egypte. Le Caire, 1972, p. 7, 319

نضيف هنا أن حامل أيقونات كنيسة دير جورجي رائيفسك في منطقة الطور والذي بنى في نهاية القرن التاسع عشر، وينتمي إلى كنيسة سيناء الأرثوذكسية، كان من إهداء روسيا أيضاً^{٤٩٤}. وقد رأى كاتب هذه السطور الأيقونات الروسية في كنيسة القديس موسى في الدير النسائي في وادي فيران، الذي ينتمي إلى كنيسة سيناء الأرثوذكسية.

كذلك يوجد بمكتبة دير سانت كاترين الغنية التي لا تتفوق عليها، أي مكتبة أخرى غير مكتبة الفاتيكان، مخطوطات وكتب روسية قديمة، حيث يوجد في ما يُسمى بـ "المجموعة القديمة" حوالي ٤٠ مخطوطة سلافية، ومنها مخطوطات روسية^{٤٩٥}، ولم تخضع كل هذه المحتويات للدراسة والبحث. كما توجد مخطوطات روسية في "المجموعة الجديدة"^{٤٩٦}، وهي لاتزال في انتظار دراسات وأعمال الباحثين.

عرض المطران دميان على كاتب هذه السطور ثلاثة كتب روسية قديمة- وهي "المزامير" والذي يعود للقرن السادس عشر، وهو مكتوب على ورق الرق، وغلاف سميك مع مشابك معدنية و" الإنجيل" ويعود للقرن السابع عشر، وأخيراً، عرض علي " أعمال الرسل " وقد تم طباعته في عام^{٤٩٧} ١٧٣٨، في منطقة غار كييف بيتشرسكى^{٤٩٨}.*

كما يوجد في الدير كذلك عدد لا بأس به، من الأدوات الكنسية المصنوعة في روسيا. وقد ذكرنا سابقاً تابوتين وتسعة أجراس. وليس هذا كل شيء، بل قليل من كثير. ويبرز جون جالي في كتابه القلادة فائقة الصنع، التي تعود للقرن السابع عشر، ويدخلها الحجر الكريم الخاص بالقديسة كاترين المرصع بالياقوت واللؤلؤ^{٤٩٩}.

إن ما أوردناه هنا من نماذج الثقافة المادية الروسية، قليل من كثير تراكم على مدار قرون من تاريخ العلاقات المتميزة بين روسيا والكنيسة الأرثوذكسية بسيناء، تحويها جدران كنيسة دير سانت كاترين. ويؤكد المؤلف أن فهرستها ودراستها ستثمر عن قيمة علمية مهمة. وليس من المستبعد أنه خلال ذلك العمل يمكن التوصل إلى

٤٩٤ ألفيروفا . ف ، المرجع السابق ، ص 172.

٤٩٥ Galey J. Op. cit., p. 154

٤٩٦ Tarnanidis J.C. The Slavonic Manuscripts Discovered in 1975 at St Catherine's Monastery on Mount Sinai. Thessaloniki, 1988

٤٩٧ فلاديمير بيليوكوف «أفريقيا مأوى الطيور المهاجرة»، صفحات : 17 ، 18 .

٤٩٨ * منطقة كييف - بيتشارسكايا لافرا : هي أول دير في كييف الروسية وتوجد الآن وسط كييف ،

على الشاطئ الأيمن من نهر دنيبر (المترجم) .

٤٩٩ Galey J. Op. cit., object No. 139

اكتشافات نادرة ، حيث إن الدير طوال أربعة عشر قرناً من وجوده ، لم يتعرض أبدا لأي نهب أو تدمير . ومن غير المستبعد أن هذا الدير يحوي نماذج من الثقافة المادية الروسية ، التي لا يوجد مثيلاً لها حتى في بلدنا روسيا .

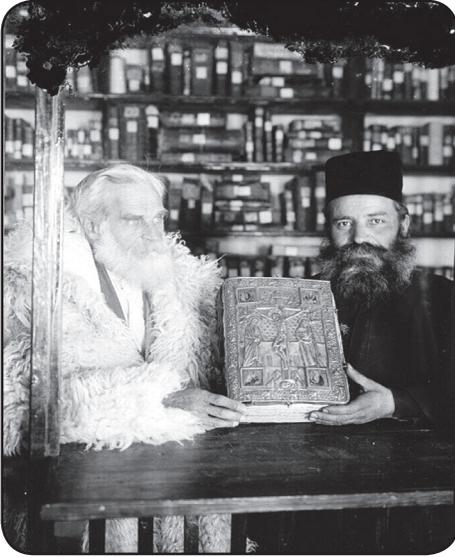
مثل ذلك العمل ، وكذلك لكتابة تاريخ العلاقات بين روسيا وسيناء ، يمكن أن تمد أرشيفات الدير يد العون والمساعدة بدرجة كبيرة . بيد أن هذه الأرشيفات لن تكون متاحة للباحثين في المستقبل القريب ، حيث إن علماء من اليونان بدأوا للتو في وصف تلك الأرشيفات .

من خلال المبادرة التي تقدم بها كاتب هذه السطور يقوم مركز علوم المصريات باسم البروفسير ف.س. جولينشيف ، التابع لجامعة موسكو للعلوم الإنسانية ، بإعداد أول بعثة علمية روسية إلى سيناء منذ قرن ، بهدف فهرسة ودراسة مواد الثقافة الروسية المتواجدة بالدير .

قد حصلت البعثة على الموافقة المبدئية من المطران دميان ، مطران الدير في سيناء . ونظراً لأن هذه البعثة ستتوجه بغرض العمل والدراسة في دير ، وليس في متحف ، فقد كان من الضروري أن تلعب الكنيسة الأرثوذكسية الروسية دوراً هاماً ، في دعم ومساندة وإعداد تلك البعثة . وبارك البطريك أليكسي الثاني ، بطريك الكنيسة في موسكو والكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، جميع أعضاء تلك البعثة في ربيع ٢٠٠٢ ، وكذلك ممثلي باقي التخصصات المختلفة في تلك البعثة .

الآن بات الأمر متوقفاً ، على تمويل نشاط تلك البعثة . وفي حالة الوصول إلى ممول وقيام البعثة بعملها ، فإن مادة عملها ستكون العلاقة بين روسيا ودير سيناء الممتدة لقرون طويلة ذات النتائج الفريدة بل وسيصبح هذا العمل بمثابة قاعدة راسخة لانعاش وتطوير تلك العلاقات في إطار عملية التحضر الإقليمي والعالمي^{٥٠٠} .

٥٠٠ كان الموسم الوحيد لتلك البعثة في الفترة من مارس/ آذار – أبريل/ نيسان ٢٠٠٣ . أنظر : نتائجها في كتاب «كنوز سيناء» فلاديمير بيلياكوف ، موسكو ، ٢٠٠٤ ، باللغة الروسية ، وتحت الطبع ترجمته للغة العربية من إصدار دار نشر أبناء روسيا ٢٠١٤ .



صورة من داخل دير سانت كاترين
تعود إلى بداية العشرينيات

روميل و «العبيد الروس» : رحلة العودة إلى الوطن



في مايو عام ١٩٤٣ ألحقت قوات الحلفاء الهزيمة بالقوات الإيطالية - الألمانية في شمال تونس ، واكتشفت وجود عدد من جنود الجيش الأحمر ضمن الأسرى المحررين، من قبلهم داخل المعتقل الفاشي . وفي المرحلة النهائية للحملة التي استهدفت شمال أفريقيا تم نقلهم من إيطاليا لمزاولة أعمال ثانوية . وكان يُطلق على هؤلاء الأفراد وصف «العبيد الروس» لرومل ، وقد وردت هذه التسمية في العديد من الأعمال الأدبية^{٥٠١} . غير أنه لم يكن هناك حتى وقت قريب بيانات دقيقة عن تعدادهم الأصلي . وقد تم الحديث عن الكيفية التي تم بها إعادتهم إلى الاتحاد السوفيتي بإيجاز شديد . واليوم بات من الممكن تحديد عدد «العبيد الروس» بدقة ، وذلك بفضل الوثائق الأرشيفية ، والحديث عن عودتهم إلى الوطن بشيء من التفصيل .

٥٠١ عن مقالة : «Русские рабы» Роммеля: возвращение на родину نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov .
أنظر : تولستوي . ن . ف «ضحايا بالطا» ، موسكو ١٩٩٢ ، ص ٥٢ ، أنظر : أيضاً بوليان ، بافل «ضحايا ديكتاتورين» ، موسكو ١٩٩٦ ، ص ٢٢٢ ، أنظر : أيضاً .! زاجورين «تاريخ ليبيا» القرن العشرين ، موسكو ١٩٩٩ ، ص ١١٥ .

لقد تسنى لي في عام ٢٠٠٤، الحصول على دليل مختصر من أرشيف هيئة الأمن الفيدرالي، عن عملية العودة من شمال أفريقيا في الفترة من أغسطس ١٩٤٣-مارس ١٩٤٤ مع ملحق به قائمة لأسماء «الأفارقة» التي أرسلت إلى المعسكرات الخاصة، في ريزان وبودولسك التابعة للمفوضية الشعبية للشئون الداخلية للاتحاد السوفيتي؛ للتأكد منها داخل الوطن. وقد تبين من خلال ذلك الدليل وصول حوالي ٣١١ مجند بالجيش الأحمر إلى أراضي الاتحاد السوفيتي طوال تلك الفترة من شمال إفريقيا. وتتضمن إحدى تلك الوثائق تحليلاً مفصلاً عن أول مجموعة من المرشحين، وكانت تضم ٥٩ شخصاً، وقد وقعوا في الأسر في عام ١٩٤١، وعام ١٩٤٢. وفي البداية تم استغلالهم في ألمانيا في الأعمال المدنية، ثم بعد ذلك تم ضمهم إلى وحدات المدفعية الألمانية، ووحدات الدفاع الجوي. وفي الفترة من يناير ١٩٤٢-يناير ١٩٤٣ تم إرسال أسرى الجيش الأحمر ضمن تلك الوحدات إلى إيطاليا ومنها إلى تونس. ويتضح كذلك من خلال القائمة الخاصة بمعسكر ريزان أن عدداً من «الأفارقة» قد وقعوا في الأسر في ديسمبر ١٩٤٢. وفي الفترة من الثامن حتى العاشر من مايو ١٩٤٣ وأثناء هجوم قوات الحلفاء على تونس إنحاز جزء منهم إلى جانب القوات الأنجلو-أمريكية، أما الباقين فتم أسرهم ضمن القوات الفاشية^{٥٠٢}.

وضعت قوات الحلفاء جنود الجيش الأحمر في معسكرات أسرى الحرب. وكان المعسكر الأمريكي لأسرى الحرب، يوجد بالقرب من مدينة مطبورة، أما المعسكر الإنجليزي عند مدينة علما. وفي الخامس والعشرين من مايو وبناءً على قرار صادر من المفوض الشعبي للاتحاد السوفيتي، تم نقل هؤلاء الجنود إلى المعسكر السوفيتي في مدينة ميزون كاري بالجزائر، ذلك المعسكر الذي تم إعداده لأجل المشاركين السابقين في الكتائب الدولية في أسبانيا. غادرت أول مجموعة من الأسرى المحررين والتي كانت تضم ٥٩ أسيراً، هذا المعسكر إلى كراسنافودسك في السادس عشر من يوليو ١٩٤٣. وفي اليوم التالي تم نقل ٢٠٥ أسير من المعسكر إلى ميزون كاري، وانتقلوا عبر البحر من ميناء سوسة التونسي إلى ميناء بورسعيد في مصر، ومنها إلى العراق عبر فلسطين ثم إلى طهران، لإبلاغ ممثلي القيادة السوفيتية^{٥٠٣}.

٥٠٢ أرشيف المؤلف، ملف «العلمين-١» السطور من ١٤٤-١٤٦، خطاب هيئة التوثيق الأرشيفي - مجلس الأمن الفيدرالي الصادر ٢٠-٥-٢٠٠٤ رقم ١٠/٢٢٥٢.

٥٠٣ المرجع السابق.

في قائمة معسكر ريزان الخاص رقم ١٧٨ تم تسجيل «فريدمان بوريس نيكولايفيتش»، وُلد عام ١٩٠٧، ووقع في الأسر في السادس من أغسطس ١٩٤١ في المنطقة الواقعة بين سباس-ديمينسك وفيازما، وقد نجحت في العثور على مذكرات ب.ن فريدمان، والتي يُطلق عليها «طرقى العسكرية»، وهي محفوظة في أرشيف مكتبة «روسكي زاروييج» في موسكو. وقد تم كتابة تلك المذكرات على الكمبيوتر. ويحتل الجزء الأكبر منها الحديث عن عملية ترحيل مؤلفها، فريدمان من الجزائر عبر مصر في خريف ١٩٤٣^{٥٤}. انضم ب.ن فريدمان مهندس الغزل والنسيج طواعية، إلى الجبهة في بداية الحرب، ثم سرعان ما وقع في الأسر في قطاع «فيازيمسك». وقد تم احتجازه في معسكر في موحيليف، ثم انتقل منه إلى معسكر في فلنيوس، ومنه إلى ألمانيا ليعمل كخراط في مصنع صناعة السيارات التابع لشركة «شوارتسكوف» في قرية فيلداو الواقعة على بعد ٣٠ كم جنوب برلين. ومن هذا المصنع تم نقله ليعمل في فيلق قوات الدفاع الجوي الألماني. وفي نهاية عام ١٩٤٢ نُقل هذا الفوج إلى إيطاليا، وفي الثالث عشر من ديسمبر تم نقله على متن سفينة من نابولي إلى تونس. ولم يذهب فريدمان إلى أفريقيا هذه المرة، حيث قام الطيران البريطاني بإغراق سفينة الفاشيين. ونجح فريدمان في الإمساك بعوامة الإنقاذ، حيث كان الإيطاليون، يقومون بانتشال الحلفاء ساء الحظ من المياه، وتعاملوا مع فريدمان على أنه جندي من الجيش الألماني: حيث كان يرتدي الزي الألماني ويتحدث الألمانية بطلاقة ولم يكن بحوزته أية مستندات تدل على جنسيته. تم نقل الأشخاص الذين تم إنقاذهم إلى المستشفى العسكري في نابولي، ومنها إلى مصحة كبيرة في سان-ريمو. وهناك تم التحقق من شخصية فريدمان ومن ثم أعاده إلى وحدته في سرب قوات الدفاع الجوي المتمركز في سيردينا. وأخيراً، وفي يوليو ١٩٤٣ تم نقل فريدمان إلى كورسيكا للعمل في المستشفى الألماني. في الثالث من سبتمبر من عام ١٩٤٣، رفعت إيطاليا الراية البيضاء، وأطاح هذا الخبر بالحامية الفاشية في كورسيك، وفي الخامس من نفس الشهر، هرب فريدمان من المستشفى وتوجه إلى القوات الفدائية الفرنسية، الذين قاموا بإرساله إلى الجزائر في مطلع نوفمبر، كما أمدوه بالأوراق اللازمة.

٥٠٤ أرشيف مكتبة «روسكي زاروييج»، ملف رقم ١، وثيقة ٤٢٩، السطور من ١٤٢: ١٦٣.

نعود الآن لنقلب صفحات مذكرات ب. ن فريدمان ، والحديث بالتفصيل عن عملية ترحيله.

كتب ب. ن فريدمان : « ها نحن قد وصلنا أخيراً إلى الجزائر . وكانت الفرقة الموسيقية تعزف الألحان لاستقبال السفينة ، تلك السفينة التي نقلت شحنة من الفرنسيين الذين تم تحريرهم من معسكر الأسر الألمانى . وقد رأيتهم ، وهم ينطلقون نحو الشاطئ وكان كل واحد منهم يتلقى باقة من الزهور . وكان يتعين على الآخرين المرور على رقابة الحدود والجمارك . وقد دخلت إلى غرفة بها منضدة طويلة ، يجلس عليها عشرة من أفراد القوات المسلحة ، وجلست على مقعد في مقابل أحدهم ، وقدمت له أوراقى ... وطلبوا فحص محتويات حقيبة الظهر الخاصة بي ، وبعد ذلك إقترحوا أن أذهب إلى ضابط آخر يحمل رتبة أعلى . وقد رمقني بنظرة فاحصة قوية ، وأخذ يمطرنى بوابل من الأسئلة على طريقة : ما هي بلدك ؟ ما هي الوحدات التي كنت أخدم بها داخل الجيش السوفيتي ؟ وما هي الرتب التي حصلت عليها ؟ وكيف وصلت إلى كورسيكا ؟ ثم فجأة قال لي : « أقترح عليك الانضمام إلى الفيلق الأجنبي ، لماذا تريد أن تعود إلى الاتحاد السوفيتي ؟ لن تجد هناك الوضع جيداً ، لكن هنا ستشعر بأنك في وضع أفضل بيننا » ، إلا أنني رفضت اقتراحه بالرغم من الإلحاح الشديد من جانبه ، وأبدى الضابط انزعاجاً وضيقاً شديداً .

أرشدوني إلى طريق الفندق العسكري (القريب من الميناء) ، وقاموا بتسجيلي في الفندق ، وأوصلوني إلى صاله كبيرة مليئة بالأسرة ، وأرشدوني إلى سرير خال . وفي الصالة كنت أستمع إلى حوارات تدور باللغة الإنجليزية ، والتي كان يتحدث بها الجنود الإنجليز والأمريكان والكنديون . كان المطعم هنا يعمل طوال اليوم ، وكان من حق أي شخص طلب كل ما يحلوه من المطعم دون أي قيود . والطلبات تقدم مجاناً ، باستثناء المشروبات الكحولية (الويسكي والخمر) . قضيت في هذا الفندق يومين أو ثلاثة ، وعند تسجيل اسمي به أفصحت لهم عن رغبتى في التوجه إلى السفارة السوفيتية ، ولكن أحداً لم يكن يعلم عنها أي شيء . أخبرني ضابط النوبة : «انتظر ريثما نرى ، ثم نخبرك بها» لم أكن لأسبق الأحداث ، فقد كانت المدينة رائعة للغاية ، وتتألف من قسمين : القسم الأوروبي : حيث الشوارع الواسعة ، والمباني الجميلة والنظام ، والمحال الفخمة الراقية ، والمطاعم ، والمقاهي ، أما القسم العربي : فكانت تلمح فيه المباني المتهاككة ، والأزقة الضيقة ، والقاذورات تملأ المكان ، والسيدات يرتدين النقاب . علمت

مجموعة من الجنود الكنديين أنني روسي الأصل، فرحبوا بي أشد التحراب، ونظموا لي حفلة شراب ضخمة في المطعم. واضطرت في الأيام التالية أن أتجنبهم؛ لأنني لم أكن لأحتمل وليمة الشراب مرة أخرى.

لا أستطع أن أتذكر ما الذي كان يسبق هذا. ولكني أتذكر أنني كنت ورفاقي على الباخرة من البولنديين بصحبة أحد الجنود الفرنسيين نتجول في شوارع الجزائر، وتم نقلنا إلى مكان آخر. وهو مكان جديد يشبه الثكنة العسكرية إلى حد قريب، ومن الجائز أن يكون هذا المكان هو مقر القيادة العسكرية للبلاد، لست أدري بالضبط... أسكنوني في حجرة بها عدد من الجنود الفرنسيين. ولم أرى الجنود البولنديين بعد ذلك. وكنت كل يوم أسأل الضابط المناوب: متى سيرسلونني إلى السفارة السوفيتية، ولكن كنت دوماً لا أحصل على أية أجوبة! وقد إكتشفت وجود روسي أخرفي الغرفة المجاورة لي، تعرفنا على بعضنا البعض. وكان يُدعى فاسيلي ويبلغ من العمر ثلاثين عاماً وكان من سكان مدينة لينينجراد ويعمل سائقاً، وقد هرب هو الآخر من الأسر الألماني، وأقام أيضاً في كورسيكا. كما أخبرني بأنه قضى هنا أسبوعين، وهو يعيش بشكل جيد، ولا يتعجل أمر الذهاب إلى سفارتنا.

مرت الأيام وأنا أزداد قلقاً وتوتراً، وأدركت في قرارة نفسي أنه من الممكن أن تكون هذه وسيلة للضغط عليّ للموافقة على الإنضمام إلى ذلك الفيلق الأجنبي. نجحت في مقابلة القائد المحلي (ولم يكن هذا أمراً سهلاً) وطلبت بأن ينقلوني على الفور إلى السفارة السوفيتية. وفي اليوم التالي اقتادوني داخل سيارة بجانب فاسيلي، بينما كان يجلس في الأمام ضابط فرنسي. إقترينا من فندق فخم للغاية، وصعدنا إلى الطابق الثاني. أمرنا الضابط بالانتظار بجانب إحدى الغرف، وطرق الباب ثم دلف إلى الغرفة. وانتابتني حالة من القلق: فهذا هو أول لقاء مع ممثل السلطة السوفيتية، وكنت أتساءل: ترى كيف سيكون استقبالهم لنا؟ ثم فُتح الباب بعد ربع ساعة تقريباً، ودعانا شخص يرتدي ملابس مدنية كان يتحدث الروسية للدخول ثم الجلوس، ثم بدأ يطرح علينا الأسئلة، وجلس هنالك الضابط الفرنسي الذي كان يرافقنا. وكنت أجب على الأسئلة مع فاسيلي: اسم العائلة، الاسم، محل الإقامة في الاتحاد السوفيتي، ومتى تم أسرنا؟ والعديد من الأسئلة الأخرى. «نعم، هؤلاء هم مواطنونا» - هكذا قال بالفرنسية الشخص الذي كان يستجوبنا للضابط الفرنسي، الذي ودعنا بعد ذلك دون أن يُبدي لنا أية إيماءة.

والآن، أهلاً بكم، - وجه لنا هذه التحية صاحب الغرفة، وصافحنا، وقال لنا: «أنا المستشار الأول للسفارة السوفيتية واسمي أفايف إيفان إيفانوفيتش، وأعتقد بأننا سنكون أصدقاء»، لقد كان شخصاً طويل القامة، وسيماً، وأنيقاً، وفي الخامسة والأربعين من عمره.

أريد قبل أي شيء، أن أصف لكم الوضع العام، الذي تشكل في ذلك الوقت (بالقدر الذي أصبح معروفاً فيما بعد). كانت منطقة جنوب إيطاليا والجزر الثلاث (سيشل، وسيردينيا، وكورسيكا) تقع تحت سيطرة قوات الحلفاء (قامت القوات الأنجلو-أمريكية بعملية إنزال في جنوب إيطاليا في التاسع من سبتمبر ١٩٤٣، وقد ذهبت إلى الجزائر في مطلع نوفمبر).

تعتبر الجزائر بمثابة الذيل للجبهة الإيطالية، حيث كان يتم من خلالها إمداد الجيش بالموارد البشرية والسلاح والذخيرة والمعدات الحربية، بالإضافة إلى المواد الغذائية. وباتت تلك المدينة الجميلة بمثابة خط دفاع تابع للجبهة، كما أنها عانت ظروفًا عصيبة، وكان هذا الحال، ينطبق على كل المدن الجزائرية. وتركزت الموارد المادية الضخمة في المنطقة المجاورة لها، وكانت المخازن الحربية تمتد على عشرات الكيلومترات، وتحميها قوة الدفاع الجوي الأنجلو أمريكي الجبارة. وظهرت في الجزائر حكومة فرنسية انتقالية برئاسة ديغول، وهنا يكمن سر وجود سفارة سوفيتية، لكي تمثل مصالح الاتحاد السوفيتي في تحرير الفرنسيين من أيدي القوات الألمانية. وكان طاقم تلك السفارة يتألف من أربعة أفراد هم: السفير بوجامولوف^{٥٥}، والمستشار الأول أفايف، والملحق العسكري، بالإضافة إلى السائق. وقد كان بوجامولوف سفيرنا في فرنسا قبل اندلاع الحرب. ولم يكن لديه مقراً للسفارة، وكان طاقم السفارة يعيش في أحد الفنادق، ويزاولون فيه مهام عملهم. أقول هنا إننا التقينا فقط مع أفايف ولم نر باقي طاقم السفارة رأي العين. وكان أفايف مكلفاً من قبل الحكومة السوفيتية بتجميع المجندين السوفيت الذين يتم تحريرهم من الأسر الألمان، والعمل على ضمان إعادتهم إلى أرض الوطن. وكان الأساس هنا هو ذلك الاتفاق المبرم بين الحكومتين السوفيتية والإنجليزية. وتعهدت الحكومة الإنجليزية بتوفير الطعام والملبس للجنود السوفيت ونقلهم إلى مدينة البصرة (في العراق)

٥٥٥ بوجامولوف ألكسندر أفرومفيتش (١٩٠٠-١٩٦٩) - دبلوماسي سوفيتي. شغل منصب مستشار سياسي في الفترة من ١٩٤٠-١٩٤١، مندوب الاتحاد السوفيتي لذي فرنسا، في الفترة من ١٩٤١-١٩٤٣، وسفير الاتحاد السوفيتي لدى حكومات دول الحلفاء في لندن. وحتى عام ١٩٥٠، عين سفيراً للاتحاد السوفيتي في فرنسا. وأخيراً شغل منصب نائب وزير الخارجية للاتحاد السوفيتي ثم سفيراً للاتحاد في كل من تشيكوسلوفاكيا وإيطاليا، أنظر: «القاموس الدبلوماسي» مجلد ١، موسكو ١٩٧١، ص ٢١٥.

(مدينة البصرة في العراق وليس في إيران د. محمد رياض) ، حيث يتم تسليمهم للقيادة السوفيتية^{٥٠٦}. ولتنفيذ هذه الاتفاقية فقد تم إنشاء معسكر ترانزيت على بعد ٢٥ كم من مدينة الجزائر، يعيش فيه الجنود ، أثناء فترة انتظارهم للعودة إلى الوطن. وكانت تتم عملية النقل في حالة بلوغ عدد العائدين ثمانين فرداً .

نعاود الحديث مرة أخرى ، عن لقائي مع أفاييف ، فبعد مغادرة الضابط الفرنسي استمر حديثي مع أفاييف . أريد الإشارة هنا إلى أن إيفان إيفانوفيتش أفاييف ، ظل في ذاكرتي شخصية محترمة إلى أبعد الحدود . فقد تعامل معنا جميعاً بكل الاحترام والاهتمام بمطالبنا . وبعد عودتي إلى موسكو في عام ١٩٤٦ كانت لدي رغبة شديدة في البحث عنه ؛ كي أعرب له عن مشاعري النبيلة نحوه وخالص الشكر والإمتنان لشخصه . ولكني للأسف لم أفعل ذلك ، حيث كانت تلتصق بي صفة «الشخص المشبوه» ، مما سيعود عليه بالضرر . اتضح من خلال أول حديث لي معه ، أننا من موسكو ونعيش في منطقة زاماسكوفاريتشي ، وأن كلانا ينتمي إلى طبقة المثقفين ؛ ولهذا فقد تعامل معي بثقة بالغة .

قام إيفان إيفانوفيتش بتوصيلنا إلى المعسكر بالسيارة ، وفي أثناء الطريق قال لي إنه سيجعلني رئيساً للمعسكر . يتألف المعسكر من مجموعة ثكنات خشبية ، وفي كل واحدة توجد عدة غرف . تحتوي كل غرفة على سرير مجهز بشكل جيد ، ودوايب للملابس والأحذية ، بالإضافة إلى جهاز راديو . وفي منزل منفصل يوجد المطبخ وبه كافة التجهيزات اللازمة ومخزونات للمواد الغذائية . وهنا الحجره التي كنت أعيش فيها بصحبة الطباخ ومساعدته ، وكان إثنان من المجندين السوفيت اللذين ينتظران إعادتهم للوطن . وكان هناك أيضا مخزن للملابس والأحذية : حيث كان يتعين على كل نزيل جديد بالمعسكر ، أن يرتدي زي الجنود الإنجليز ، وقد ارتديته بالفعل . وها قد غادرت المجموعة الأولى من الجنود متوجهة إلى الاتحاد السوفيتي ، والتحقت أنا بالمجموعة الثانية^{٥٠٧} .

أصبحت «رئيساً» للمعسكر ، وكنت أتابع الالتزام باللوائح ، وإحصاء عدد أفراد المعسكر ، واستقبال النزلاء الجدد ، وكانت كل أوامري ملزمة ، وكان على الجميع السمع والطاعة . كان الطباخ يقوم بإستلام المواد الغذائية وعمل تقرير عن المصروفات ،

٥٠٦ إيضاح مزدوج : مدينة البصرة توجد في العراق وليس في إيران وتم نقل قدامى أسرى الحرب إلى القيادة السوفيتية في طهران وليس في البصرة .

٥٠٧ إيضاح : وفقاً للإستعلام من أرشيف هيئة الأمن الفيدرالي ، كان قد تم ترحيل مجموعتين في ذلك الوقت من المعسكر .

وتسليم الرزي الإنجليزي للمجندين الجدد ، وأصبح هو المساعد الخاص بي . كان في الخامسة والعشرين من عمره ، وهو شخص يتمتع بذكاء محدود ، منظم ، وعلى دراية جيدة بعمله ، كنت أناديه باسم سيرجي . ولا يفوتني الإشارة هنا ، إلى أن الحصاة التمونية الخاصة بالجندي الإنجليزي (المحارب) ، كانت تتضمن دائما شاياً بالحليب (معلبات) ، وورق الحمام .

كان من حق كل فرد بالمعسكر، الخروج منه والتجول كما يشاء . فقد تجولت أكثر من مرة في الجزائر . وللقيام بذلك كان ينبغي ، أن نخرج إلى الطريق السريع الذي يبعد عن المعسكر بحوالي ٤٠٠ متر . وعلى الطريق كانت السيارات العسكرية تنطلق ذهاباً وإياباً ، ولم تكن هناك تلك القاعدة أنه إذا لم تتوقف السيارة الأولى ، لا تتوقف الثانية . وكان غالبية من يجلس خلف عجلة القيادة في السيارات الأمريكية هم الزوج ، وكانوا يسيرون بسرعة جنونية ، ولا يخفضون السرعة حتى عند الاقتراب من السيارات الأخرى ، فعندما ركبت معهم ذات مرة ، كادت دقات قلبي أن تتوقف رعباً ، وبدت هناك كارثة حتمية لا مفر منها ، ورجعنا إلى المعسكر بنفس تلك السرعة الجنونية .

كان أفايف يزور المعسكر بانتظام ويتجول عبر أقسامه ، ويتحدث مع الناس . وقد حذرتني في إحدى جولاته من أنه في اليوم التالي ، سيصل إلى المعسكر (لأول مرة) مجموعة جديدة تضم بعض المحاربين القدامى في الألوية الدولية ، والتي كانت تحارب في إسبانيا لصالح الجمهوريين . وبعد فوز فرانكو ، فروا هاربين إلى فرنسا ، حيث تم اعتقالهم وحبسهم في جنوب البلاد . وبعد احتلال الألمان لفرنسا وغزوها الإستعماري لدول شمال أفريقيا (الجزائر والمغرب) ^{٥٨} ، قامت حكومة بيتان بإرسالهم إلى معسكر المجندين الجدد المنتشرة في واحات القطاع الشمالي للصحراء ^{٥٩} . لم يساهم طرد الألمان من أفريقيا كثيراً في تغيير الوضع : حيث ظلت قيادة قوات الحلفاء تعتقل «أفراد تلك القوات الدولية» لوقت طويل في معسكرات الصحراء ، وذلك على الرغم من مطالبهم الملحة حول منحهم الفرصة لمحاربة جبهة الألمان ، ضمن صفوف قوات الحلفاء . وفي النهاية تم إخراجهم من الصحراء دون

٥٠٨ إيضاح : لم يكن هناك قوات احتلال ألمانية في المغرب ولا الجزائر ، وإنما كانت تخضع إدارتهم لحكومة الجنرال بينين المتعاونة مع العدو المحتل .

٥٠٩ إقرأ عن هذا المعسكر في مدينة جلفا بالجزائر ، أنظر : روباكين ، ألكسندر ، مذكرات فرنسية ١٩٣٩-١٩٤٣ ، موسكو ١٩٤٧ ، ص ١٩٥ : ٢٢٨ .

إعطائهم أي نوع من أنواع السلاح ، وتم استخدامهم في خدمة المستودعات العسكرية في مؤخرة الجيش وكان لهذا الغرض خلفية سياسية : حيث كان مقاتلو الكتائب الدولية شيوعيين راسخين ، وكانت قيادة قوات الحلفاء تتعامل معهم بدون ثقة بل وبكراهية في بعض الأحيان ، ولم يكونوا يرغبون في رؤيتهم ضمن صفوف قواتهم . أما الحكومة السوفيتية فقد كانت ترغب من جانبها ، في تقديم الدعم المعنوي لشركائهم في الفكر والعقيدة، فأعلنت أنها ستسمح لأفراد هذه الكتائب بالانتقال إلى الاتحاد السوفيتي ، وبناء على ذلك ، فقد اتفقت مع حكومات كل من إنجلترا وأمريكا على نقل الراغبين إلى أراضي الاتحاد السوفيتي .

ضمت المجموعة التي استقبلتها حوالي ٤٠ جندياً ألمانياً ، ومجرياً ، وبولندياً ، وتشيكياً ، وعدد من دول البلطيق وفرنسي واحد . وكان الألمان من أكثر الأعداد ، حيث وصل عددهم إلى خمسة عشر جندياً . وكان أغلب الوافدين من الضباط . وكان هؤلاء الناس بالطبع غير عاديين ، وكانت أتعامل معهم على سجيتي ، وسادت بيننا علاقات طبيعية جداً ، فقد كانوا دائمي الحفاظ على النظام والالتزام داخل المعسكر . وكانوا جميعهم تقريباً يتحدثون الروسية ، وقد أصبح أحدهم صديقاً لي ، كان طبيباً ، وهو يهودي من ريجا ، ويتحدث الألمانية والفرنسية ، وقام بناءً على طلبى بترجمة الوثائق والبيانات العسكرية الخاصة بي إلى اللغة الروسية .

في السابع من نوفمبر أقيم حفل عشاء فخم ، وقد أبدع سيرجي في إعداد الطعام وقدم لنا طعاماً لذيذاً وشهياً ، فيما تناول مقاتلو الكتائب الدولية كميات كبيرة من الخمور وصل أفاييف وهنأنا بالعيد . وأعلن عن خبر استيلاء القوات السوفيتية على كييف ، وعندئذ دوى التصفيق الحاد في أرجاء المكان . وسرعان ما وصل عدد الأفراد بالمعسكر إلى مائة . وقال أفاييف : «استعد للرحيل» واقترح تقسيم المجموعة إلى فصائل ، وتشكيل سرية . وأضاف : «ستكون أنت قائداً لهذه السرية وأنا أقدمك كملازم أول» فأجبت قائلاً : «ولكني مازلت برتبة رقيب» فأجابني : «من الضروري فعل ذلك لأن جميع أفراد الكتائب الدولية يحملون رتبة ضباط ، ولا يصح أن من يرأسهم يكون في رتبة رقيب» .

تم تشكيل فصdلتين من قوات الكتائب الدولية وثلاث فصائل من الجنود السوفيت. وقمت بتعيين قادة تلك الفصائل (وكان من بينهم فاسيلي الذي كان يحمل أيضا رتبة رقيب). لابد من الإشارة هنا إلى أنه لم يكن بين المجندين السوفيت من يحمل رتبة ضابط. وقال لي أفاييف أيضا إنه طالما أنه لا يوجد حامل للحقيبة الدبلوماسية في السفارة، فقد وكل إلى إذن مهمة توصيل البريد الدبلوماسي إلى طهران. وأضاف: «هذه المهمة تتطلب شخص آخر». وقد تم اختيار هذا الشخص بناء على توصيتي ويدعى أندريه.

جاء يوم الرحيل وقبل هذا اليوم، أخذونا مع أندريه إلى المدينة. وفي غرفته سلم أفاييف كل واحد منا حزمة من الأوراق، وقال مازحاً: «لا تأخذها منكم أحد إلا على جثثكم» كان يوجد بالقرب من معسكرنا وحدة من الثكنات التي لا يفصلها عنا أي سور. كان يعيش بها الجنود البولنديون من وحدات جيش الجنرال أندرس، الذي انتقل بموافقة الحكومة السوفيتية من أراضي الاتحاد السوفيتي (بدون سلاح) ليكون تحت تصرف الحكومة البولندية في المنفى. قال لي أفاييف: «يبدو أنهم سيراقبون عملية التشكيل الخاصة بنا، ولهذا فمن الضروري، أن تسير الأمور على ما يرام». وفي الصباح قمت بجمع قادة الفصائل، وشرحت لهم الوضع، وشددت على الحفاظ على النظام أثناء عملية التشكيل، ومايستجد من أمور.

ها قد تم الانتهاء من تشكيل السرية، وكان البولنديون يخرجون من ثكناتهم ويتابعوننا لحظة بلحظة بعيون واسعة. توجهت أفاييف إلى السرية قائلاً: «أقدم لكم قائد السرية الملازم أول بوريس فريدمان» تقدمت إلى الأمام قائلاً في صيغة الأمر: «على كل السرية أن تطيع أوامري!» «كل شيء يسير بشكل جيد، وبدأ أفاييف راضٍ عن الحديث. وتظاهرت بأنني القائد الحاسم، وظللت هكذا إلى أن وصلنا إلى حدود الاتحاد السوفيتي. وصلنا إلى الطريق السريع بنفس تشكيل السرية، وكانت السيارات في انتظارنا، ثم ركبنا، وانطلقنا. وقامت بتوصيلنا إلى محطة سكك حديد الجزائر الرئيسية، جلسنا في عربات البضائع وقضينا من ١٠-١٢ ساعة وسط البضائع إلى أن وصلنا إلى مدينة فيليبفيل الجزائرية، وكان أفاييف في رفقتنا أثناء الطريق كانت هناك استراحة طويلة في مدينة قسطنطينة، كنا في انتظار أن ينقلونا إلى أحد القطارات العابرة.

أحكى لكم عن واقعة حدثت لنا . عندما أوضح أفاييف أننا سنتحرك في خلال ما يقرب من أربع ساعات ، قررنا جميعاً - بمن فيهم أنا - التجول في المدينة . وكان وقت الغسق . قال أفاييف أنه من الأفضل عدم التجول بمفردكم ، حيث تقف إلى جانب عربات القطار سرية من كتائب جيش أندريس ، في انتظار الذهاب إلى الجزائر . لقد كانت مشاعر العدا لل سوفيين لدى البولنديين واضحة للغاية . وحدث أن تأخر أحد زملائنا ، وعندما كان في طريقة للحاق بنا ، قام البولنديون باعتراض طريقه وضربه بشدة ، أثار هذا حالة من الاستياء ، سواء لدى الزملاء السوفيت ، أو أفراد القوات الدولية ، وقد بذلت أنا وأفاييف جهوداً مفضية للحيلولة دون حدوث مشاجرة .

صعدنا على متن سفينة إنجليزية كبيرة ، كانت في انتظارنا في مدينة فيليبفيل . وقدمني أفاييف إلى الضابط الإنجليزي الذي التقينا به قائلاً : « هذا قائد وحدتنا » ثم قاموا بتسكيننا في عنبر فسيح ومريح ، حصل كل منجد على أرجوحة شبكية ، يتم طيها أثناء النهار ووضعها داخل الدواب ، وفي المساء تعلق في أعمدة خاصة . وقبل أن يودعنا أفاييف تمنى لنا رحلة سعيدة .

في الصباح الباكر بدأت السفينة تتحرك بعيداً عن الميناء ، نحو وجهتها المنشودة وكنا نسير ضمن قافلة مكونة من ١٠-١٥ سفينة تجارية عملاقة ، تحرسها بوارج حربية . كانت قافلة السفن تتحرك لتعبر مياه المحيط الهاديء إلى مسرح العمليات العسكرية في الشرق الأدنى ، وهي محملة بالسلاح والذخيرة والمؤن الغذائية والأفراد . لقد كنا نشغل نصف العنبر تقريباً ، والنصف الثاني كان يشغله المجندون الإنجليز في زيهم المدني . بدت مياه البحر المتوسط ساكنة وهادئة ، فقد كنت أمضي معظم الوقت فوق سطح السفينة لكي أستمتع بمشاهدة السماء الزرقاء ومياه البحر ، ولا يمكن أن ينمحي من ذاكرتي ذلك المشهد ، لقافلة السفن التي كانت تمتد لمسافة ١٠ كم .

كان هناك نظام يومي صارم على متن السفينة : فكان الجميع ينهض في السابعة صباحاً من النوم ، ويأخذ حمامه ، وكان موعد تناول وجبة الغذاء يحين في الثانية ظهراً ، ووجبة العشاء كنا نتناولها في السابعة ، لينتهي اليوم في الثامنة مساءً والعودة إلى العنبر . وكان يقدمون لنا الطعام في العنبر ، وكانت الموائد الكبيرة تتيح الجلوس بشكل مريح لتناول الطعام . وكان يقوم أفراد النوبة من بيننا بأعمال التنظيف والتنظيم .

وفي كل يوم بعد الإفطار كان ضابط النوبة يتفقد المكان ، وكنا نقوم معه بالإشراف على النظام في الغرف التي نشغلها . وكان المكان تسوده ظلمة حالكة ، حيث كان يتم إغلاق كافة المصابيح على متن السفينة ، كما أن المداخل التي تصل إلى سطح السفينة كانت مغلقة باستائر ضخمة . وكانت الغرف الداخلية تضاء طوال الليل والنهار ، وبعد اطلاق إشارة العودة للعنابر يتم إغلاق البعض من تلك المصابيح . وبالنسبة إلى الصعود على سطح السفينة ، فقد كان ممنوعاً ، إلا أنه لم تكن هناك رقابة مشددة على هذه المسألة ، وقد استقدت منها كثيراً .

انضم إلينا العقيد الإنجليزي الذي كان يتحدث الروسية بطلاقة ، وكنا نلتقي معه كل يوم ، فقد كان شخصاً محبوباً ، وكان يهتم بالسؤال عن كل فرد ، ويستعلم بنفسه عما إذا كنا راضين عن مستوى الطعام الذي يُقدم بالسفينة؟ وهل لدينا أي طلبات؟ وما إلى ذلك من أمور . كنتُ أتحدثُ معه عن بعض الأشياء التي تخصني . ثم حكى لي أن السفينة التي كان يبحر على متنها منذ عدة شهور ، تم نسفها بواسطة أحد الطوربيدات التابعة لإحدى الغواصات الألمانية ، وأنه ظل يسبح داخل مياه البحر قرابة الثلاث ساعات قبل أن يتم التقاطه ، وقلت له «إن هذا يعد مشهداً مألوفاً» وأنا أشرح له لماذا يعد هذا مشهداً مألوفاً !

في أحد الأيام دوى صفير الإنذار بغارة جوية ، وكان يتعين على الجميع مغادرة سطح السفينة المكشوف ، ولكنني استطعتُ البقاء على السطح لأراقب ما يحدث . فكان إنطلقت مجموعة من المناطيد من كل سفينة حربية أو تجارية ، وبدا واضحاً أن المجال الجوي فوق قافلتنا قد أُغلق تماماً . بينما ظهرت الطائرات الألمانية على ارتفاع كبير ، وتم فتح النيران من المدافع المضادة للطائرات . ولم تكن هناك ضربات بالقنابل ، وتم وقف الغارة سريعاً . وقال لي العقيد إنه من الممكن أن يعاود الألمان الغارة مرة ثانية بالليل ، ولهذا تم تغيير خط سير قافلة السفن .

صعدت إلى السطح في منتصف الليل تقريباً . وكانت الظلمة حالكة للغاية ، حتى أنه لم تكن هناك نجمة واحدة في السماء . ولكن ظهرت من بعيد ومضات مضيئة ، كانت عبارة عن قنابل إضاءة ، يلقي بها الألمان وكان الهدف منها البحث عن قافلتنا ، إلا أنهم لم يتمكنوا من العثور علينا . وفي اليوم التالي بدت الأمور هادئة ، وتجاوزت القافلة منطقة الخطر القريبة من جزيرة كريت والتي تتمركز بها القواعد الجوية للألمان .

تعامل معنا طاقم السفينة بمنتهى الود والاحترام ، وذلك في الوقت الذي كان فيه شباب الإنجليز ، جيراننا في نفس السفينة لم يعيرونا أدنى اهتمام بالرغم من معرفتهم بنا .

كان يقترح علينا عمل جولات في السفينة ، ولكنها لم تكن تخرج عن إطار تلك الجولات الثلاثة : جولة لفحص السفينة بشكل كامل ، وجولة للتعرف على الأسلحة الموجودة بها (حيث كان يوجد على سطحها مدفعية مضادة للطائرات ، ومدافع رشاشة ثقيلة مضادة للطائرات) وجولة لتفقد قسم الماكينات . وقد قمتُ بجولة في قسم الماكينات الذي أدهشني بشكل كبير .

ذات مرة سألتني العقيد عما إذا كان بإمكانني تنظيم كورال لعمل حفلة في صالون السفينة ، خاصة وأنه من المعروف أن الروس ينشدون الأغاني بشكل جيد . اتفقتُ مع الزملاء واستطعنا تشكيل كورال من المغنيين الذين قاموا بعمل بروفات لبعض الأغاني الشعبية الروسية والسوفيتية المعروفة ، وأقيمت الحفلة . وامتلاً الصالون عن آخره بطاقم السفينة والبحارة العسكريين ، وكان هناك شخصيات مدينة رفيعة المستوى ، وحقق كورالنا الغنائي نجاحاً باهراً .

ها نحن قد اقتربنا من الشاطئ ، ودخلت السفينة في المياه الإقليمية المصرية عند قناة السويس ، ثم اقتربنا من مدينة بورسعيد . غير أن عرض قناة السويس ، الضيق لم يكن يسمح بمرور السفن إلا في شكل سلسلة واحدة تلو الأخرى . توقفت حركة سير قافلة السفن وبدأت عملية التجميع الضرورية للسفن ، وظللنا في انتظار دورنا لمدة تزيد عن ساعتين وتحركنا في النهاية . وقبل الدخول إلى القناة شاهدنا مجموعة كبيرة من الجزر الصغيرة وكنت أقضى طوال اليوم فوق سطح السفينة (بعد أن تم رفع حظر الصعود إلى سطحها) وأنا أستمتع بمشاهدة تلك المناظر الخلابة . بالنسبة لشواطئ القناة فكانت مبنية بالخرسانة الأسمنتية وكان يحيط بها الشاطئ الرملي والأحجار ، ونادراً ما كنت تجد أشجار النخيل ، ولم يكن بإمكان المرء أن يلمح أي منازل بالقرب من القناة . وبعد ٢٠٠-٣٠٠ متر ، كنا نجد على جانبي القناة مباني كانت مخصصة للخفر والحراسة ، بالإضافة إلى المناطق العسكرية : فالقناة محصنة ومعززة بشكل جيد . وكان المصريون المسئولين عن الحراسة ، ويتضح ذلك جلياً من البشرة السمراء للجنود . أتذكر هنا واقعة ما : كان إثنين من جنود الحراسة يتابعان سفينتنا ، ثم فجأة أخذوا في الضحك بصوت عالٍ

حتى تلالأت أسنانهم البيضاء ، ثم أنزلوا سراويلهم ، وأبرزوا لنا مؤخرتهم ، وهم يرقصون بطريقة بربرية . وأخذ الأوروبيون ينظرون إليهم باحتقار شديد ، ولم يفهم الأوربيون مغزى هذا الأمر ! هل هذا بسبب العلاقة غير الطيبة مع البيض ، أم هي ومضة مرح فجائية من إنسان بدائي؟

كانت القافلة تسير في مياه القناة بسرعة بطيئة . وفي المساء دخلنا نطاق إحدى البحيرات الكبيرة ثم قررنا المبيت بالقرب من مدينة الاسماعيلية . وبعد تناول طعام العشاء سعدت إلى السطح ، وكانت الدنيا مظلمة ، وتجمدت في مكاني من هول ما رأيت حيث كان هناك طوفان من الأضواء يتلألأ أمام ناظري (وكان الحال في مصر مثله مثل الحال في الدول المحايدة ، لم يكن بها أي تعميم للأضواء^{٥١٠}) . إغرورقت عيناي بالدموع ، فقد قضيت عامين كاملين في ظلام دامس ، وبدت تلك المدينة المضيئة معجزة بالنسبة لي . توقفتنا بالليل ، ثم تحركنا بعد ذلك في الصباح ، وقضينا في المياه حوالي ست ساعات لكي نصل إلى مدينة السويس . وعبرنا القناة ثم اقتربنا من الشاطئ واستكملت القافلة طريقها نحو المحيط الهادي .

وقبيل التوقف بوقت قصير ، جاء إلينا العقيد الإنجليزي ؛ لكي يودعنا ، وقد شكرناه على حسن معاملته ، والظروف الجديدة التي هيأها لنا ، وقد أشاد بحرص مجموعتنا على النظام واحترامه والمحافظة عليه . وفجأة انتحى بي جانباً وقال لي بصوت منخفض : «لماذا ستعودون أدراجكم إلى الاتحاد السوفيتي ؟ سيكون وضعكم هناك صعباً وغير متوقع ، إبقوا معنا فهذا سيكون أفضل لكم ، وها أنا أقدم لكم اقتراحاً رسمياً بذلك» ، وكان ردي واضحاً ، فمد العقيد يديه وصافحني وهو يتأسف على رفضي لهذا الاقتراح وتمنى لنا كل الخير .

نزلنا إلى الشاطئ ، وركبنا قطار الركاب ووصلنا إلى القاهرة ، ومن هناك استقلينا قطاراً آخر لنصل سريعاً إلى المحطة الرئيسية بالإسكندرية ، حيث كانت السيارات في انتظارنا هناك لتقلنا إلى المعسكر الإنجليزي المتواجد على أطراف المدينة . وقد كان معسكر ترانزيت مزوداً بكل أسباب الراحة . تم توزيعنا في خيم كبيرة أرضيتها مصنوعة من الخشب ومغطاه بمشمع ، وحصل كل واحد منا على سرير بالفرش . قضينا داخل هذه المخيمات أسبوعين ونحن في انتظار الرحيل . وقد مال إلينا ضابط إنجليزي يتكلم الروسية بطلاقة . كان شخصاً ذكياً وفي نفس عمري . وكان وسيماً ومهدباً ،

٥١٠ لم تكن مصر بالفعل أعلنت الحرب على ألمانيا في نهاية ١٩٤٣ (حدث هذا في ٢٦ فبراير/ شباط ١٩٤٥) ، ولكن غياب العتمة والظلام هنا لا يعود لهذا السبب المذكور ، بل لأن مصر كانت في المؤخرة .

وهو ابن لأحد الأمهات الروسيات المهاجرات وأب إنجليزي. وكان حريصاً على أن تسير حياتنا في المعسكر دون أية مشاكل. كنت ألتقي معه يومياً، وكنا نجد الوقت الكافي للأحاديث الطويلة الممتعة، في كافة الموضوعات. كان يروق لي هذا الشخص العظيم ولكنه قال لي ذات مرة: «أنا أراقبكم..! أنت ضابط حقيقي!».

بعد يومين من وصولي للمعسكر، جاءني شخص في ملابس مدنية وقدم نفسه على أنه موظف في القنصلية السوفيتية، وأخرج بطاقة العمل الخاصة به، وقال لي إن مهمته تتمثل في العمل على القضاء على أي عراقيل تظهر أثناء إقامتنا، وألا يكون هناك أي تأخير في عملية نقلنا. كان هذا الشخص في الخامسة والعشرين من عمره، وكان يتعامل معنا ببساطة، وود. وقد أصبحنا أصدقاء له، وقد أدركت سريعاً أنني أتعامل مع موظف يعمل في جهاز أمن الدولة. وكان يقطن في أحد الفنادق الواقعة في وسط مدينة الإسكندرية.

كان المعسكر قريباً من محطة السكة الحديد، ولكي نصل إلى المحطة الرئيسية بالمدينة كان يتعين علينا عبور بعض المحطات بقطار الضواحي. وكثيراً ما كنت أتاود في الإسكندرية، وهي تشبه إلي حد كبير مدينة الجزائر. وكانت مقسمة إلى قطاعين: أوروبي وعربي، لكن الأحياء الأوروبية بمدينة الإسكندرية كانت أكثر فخامة عن مثيلاتها بالجزائر، حيث كان بها مبانٍ غاية في الروعة والجمال، ومحلات فاخرة مليئة بالبضائع، وعدد هائل من المطاعم والمقاهي، والشعب حسن المظهر. وفي المساء نرى الشوارع والطرق مفعمة بالأنوار، وأكسبت الإضاءة الخاصة بالإعلانات المكان مزيداً من الجمال. وهنا يتضح لنا الفرق بين المدينتين: حيث كانت الجزائر مدينة تابعة للجبهة، وكانت تعيش في ظلام دامس، أما الإسكندرية فهي مدينة محايدة لم تعيش أوقات الحرب العصبية، ولم يكن مفروضاً عليها أي نوع من القيود^{٥١١}. أما بالنسبة للأحياء العربية بالإسكندرية فقد كانت أشبه بالعشوائيات، وكان محظوراً على الجنود الدخول إلى تلك الأحياء لعدة أسباب: أولاً- كانت الشوارع مليئة بالعاهرات، وبيوت الدعارة التي يعمل بها منادون ينادون على المارة، وكانت القيادة تخشى علي الجنود الإصابة بالأمراض التناسلية، ثانياً: كان البعض في تلك الأحياء العشوائية كثيراً ما يقوم بالهجوم على الأوروبيين، ومن يلبسون الزي العسكري أيضاً بغرض السرقة.

٥١١ قام سلاح الطيران الفاشي من ١٩٤٠-١٩٤٢ بشن حوالي ٢٢٩ غارة جوية على الإسكندرية، مما كبدها خسائر فادحة ودمر المدينة. مزيد من التفاصيل انظر: أليكسي، الأسقف برياشيفسكي «سماة النيران - ملحمة الإسكندرية» يوميات قديس ١٩٤٠-١٩٤٢ «ص ١٤٨، والفترة التي يصف فيها فريدمان البلاد كانت قد عادت إليها الحياة بشكل طبيعي.

ولذلك كانت الشرطة العسكرية الإنجليزية، تقوم بعمل دوريات داخل الأحياء العربية العشوائية، وكان من يتم القبض عليه من الجنود ينتظره عقاب رادع .

ذات مرة ضللت الطريق وعرجتُ بطريق الخطأ على إحدى المناطق العشوائية في الحي العربي، وقبضوا عليّ، إلا أنه قد تسنى لي أن أوضح لهم أنني جندي روسي، وعندما تبينوا من ذلك أصابتهم حالة من الاندهاش وتعاملوا معي بشكل ودود وأطلقوا سراحي ونصحوني بمغادرة تلك العشوائيات في التو، واللحظة. كان «جيببست» يأتي إلى المعسكر كل صباح، وكنتُ أبلغه بأحوال المعسكر، ثم يرحل سريعاً. وعندما توطدت علاقتي به كنا نتجول سوياً بالمدينة. سبق وأن دعاني للذهاب إليه في الفندق الذي يقطنه، وقام بالاتصال بأفاييف في الجزائر، وكنتُ سعيداً جداً بالحديث مع إيفان إيفانوفيتش عبر الهاتف، الذي كان مهتماً بكيفية وصولنا وكثير السؤال عن حالنا. وذات مرة ذهبتُ بصحبة جيببست إلى السينما لنشاهد أحد أفلام هوليوود الموسيقية، وقد ترك هذا الفيلم إنطباعاً جميلاً في نفسي. من المثير للدهشة أنني لم أستطع رؤية مثل هذه الموسيقى في الاتحاد السوفيتي.

ذات مرة دعاني الضابط الإنجليزي لتناول الطعام في المطعم الخاص بالضباط. وكنتُ أرتدي زي الجنود، إلا أنهم منعوني من الدخول، حيث كان محظوراً على الجنود الدخول إلى هذا المطعم. وقال صديقي الضابط إنني معه، وقضيتُ أمسية رائعة بصحبة الضباط الإنجليز. كان الطعام رائعاً، وكنتُ مشدوهاً بالأوركسترا وغناء المطربة.

ذات يوم جاءني أحد الأشخاص يرتدي زي الضباط، وكان في العقد الخامس من عمره ويتحدث الروسية بطلاقة، قال لي إنه سعيد بمقابلة ضابط روسي، وأخبرني أن هناك جالية كبيرة من اليهود تعيش بالإسكندرية ممن هاجروا من الاتحاد السوفيتي، وأوضح لي أنه هو وعائلته ينتمون إلى تلك الجالية^{٥١٢}. واختتم حديثه قائلاً: «سنكون سعداء إذا ما قمتم بزيارتنا». وقد اتفقنا على موعد اللقاء وأعطاني العنوان. واقترحتُ على جيببست مرافقتي في تلك الزيارة وقد وافق على الفور.

٥١٢ يبدو أن هنا يوجد إيضاح: فمن المرجح أن يكون هؤلاء الأفراد قد غادروا من روسيا قبل ثورة ١٩١٧ ولا توجد أية معلومات عن هجرة اليهود من روسيا إلى مصر في سنوات ما بين الحرب. يقدر عدد اليهود الروس في مصر عام ١٩٤٣ بحوالي ٨٠٠ يهودي كان يعيش معظمهم في الإسكندرية. أنظر: أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية، ملف ٨٢، حافظة رقم ٥، وثيقة رقم ١١، السطور من ٢٦-٢٧.

استقبلونا هناك بحفاوة . وكان هناك الكثير من الأفراد الراغبين في مقابلة الضابط الروسي . فقد كان الروس أبطالاً في نظر الحاضرين هذا اللقاء ، وقد استشرنا هذا بشكل واضح . فالكثير هنا يتحدث الروسية وكانت المائدة عامرة بالطعام وبزجاجات الخمر . مر الوقت في أحاديث ممتعة ، أغانٍ ورقص . وإقترب مني مستضيفي قائلاً بصوت خفيض أن هناك بولنديين يعيشون في الغرفة المجاورة ، وهم ممثلي الحكومة البولندية في المنفى ، وما إن علموا بوجود روس عندنا ، حتى وجهوا إلينا الدعوة للذهاب إليهم . ضحك جيبسيست ، وقال إنه محظور عليه الذهاب إلى هناك ، وأضاف موجهاً كلامه إلي : «إذهب أنت» ولكني رفضتُ ، وقد فهم المضيف مغزى حديثنا .

في الأيام التالية ، كنتُ أتردد على تلك الأسرة وكانوا يقابلونني بترحاب شديد . كنتُ أتذكر ذلك الجو العام الذي استشرته في كورسيكا في منزل الفنان الرسام . إنني أتذكر جيداً هذه العائلة الطيبة . وذات مرة طلبت من ربة تلك الأسرة ، أن تساعدني في شراء زوج من الأحذية لزوجتي (وكان معي النقود الكافية) ، وفي اليوم التالي ذهبنا إلى المحال واشترينا الأحذية . وفي مرة أخرى بناءً على اختيارها قمتُ بشراء ساعة يد سويسرية من أحد محلات الساعات التي كانت تشغل الدور الأول في جميع بنايات أحد الشوارع ، وكان أصحاب تلك المحلات من الأرمن . ومن الجدير بالذكر ، أنه كانت هناك جالية كبيرة من الأرمن تعيش في الإسكندرية .

عندما حان موعد الرحيل ، انضم إلى مجموعتنا اثنان من الضباط الروس (برتبة ملازم) ، وكانوا قد جاءوا إلى المعسكر قبل وصولنا إليه ، وكذلك ثلاثة من أبناء المهاجرين الروس «فتى وفتاتان» أعربوا عن رغبتهم في الانضمام إلى صفوف الجيش السوفيتي لمحاربة الفاشيين ، وقد سجلتهم جميعاً في قائمتي .

حان يوم الرحيل وجاء أصدقائي اليهود لوداعي ، وساعدوني وحملوا عني حقيبة السفر التي حلت محل حقيبة الظهر ، التي كنت قد أتيت بها . وفي الصباح قمت بتسليم كافة مستلزمات الفراش التي تسلمتها مجموعتنا ، منذ وصولنا في أول يوم لمسئولي المهمات الإنجليز ، وكان ذلك في حضور صديقي الضابط الإنجليزي ، الذي قال شيئاً ما لمسئولي المهمات ، فقام هؤلاء بإعطائي بطنانية قائلين لي : «ستفعلك هذه» وقد أخذتها معي إلى موسكو . وطلب الأصدقاء اليهود أن أقوم بتوصيل بعض الساعات الذهبية ، والمشغولات الذهبية إلى أقاربهم الذين يعيشون داخل إحدى مدن الاتحاد السوفيتي . وقالوا رداً علي رفضي : «لا تقلق سيأتون إلى موسكو من أجل أن يتسلموا هذه الهدايا» دون أن يدركوا

الأسباب التي دفعتني إلى ذلك، وبدأت أوضح لهم أن الظروف التي تنتظرني في الوطن، لا يمكن التنبؤ بها، ومن الممكن أن يكون الوضع به مزيداً من التعقيدات، وفي نهاية المطاف استطاعوا أن يتفهموا وجهة نظري بشكل صحيح.

انتقلنا هذه المرة عبر قطار الركاب، وبرفقتنا ذلك الضابط الإنجليزي، الذي كان يرافقنا في المعسكر. وكان معنا جيبيست، ولكنه في عربة أخرى من عربات القطار أثناء الرحلة مررنا على القاهرة ثم الاسماعيلية، وتحركنا ليلاً لعبور جسر قناة السويس، وعبرنا حوالي ٢٠٠ كم في فلسطين بطول شاطئ البحر المتوسط حتى حيفا^{٥١٣}. ثم نزلنا من القطار في حيفا. وكان الصباح مشمساً، واستقبلونا بكل ترحاب، وعزف الأوركستر النحاسي، وكان على المنصة موائد طويلة عليها أطباق مليئة بالسندوتشات، هذا إلى جانب أطباق الفاكهة، وزجاجات العصير والمياه المعدنية، وأنواع من الخمور المحلية الصنع وكانت الفتيات اليهوديات يرتدين الزي العسكري، يرحبن بنا بابتسامة عريضة. ثم ودعت جيبيست وقال لي: «إلى اللقاء في إيران».

إضطررنا إلى عبور صحراء سيناء وصولاً إلى بغداد^{٥١٤}، وكانت المسافة تقدر بألف كيلومتر. كان في انتظارنا حوالي عشرين سيارة نقل عسكرية مزودة بكافة الإستهعدادات المناسبة لنقل الأفراد. وهنا عانقت الضابط الطيب الذي كان بمثابة الراعي لنا في المعسكر، فلم يكن باستطاعته السفر معنا لأكثر من ذلك. وكان مساعدي سيرجي يتسلم الوجبات الغذائية الجافة للجميع لعدة أيام، وقلت لهم أمراً: «إلى السيارات انطلقوا».

في السيارة الأمامية كان يركب قائد موكب السيارات، وهو ضابط إنجليزي عجوز ومرح، ولكنه متعرج بعض الشيء. جلست في السيارة الثانية بجوار السائق، وفي الخلف كان يجلس سيرجي مع مساعديه، بجوار المؤن الغذائية الخاصة بنا. وكان خلفنا سرب من السيارات لنقل باقي الأفراد. وفي كل خمسين دقيقة نتوقف لمدة عشرة دقائق يخرج فيها الأفراد من أجل الإجماع، وكان الإنجليز قد أعطونا عدداً من كرات القدم وهو الأمر الذي سمح لنا بالدمج بين الشيء الممتع والمفيد.

٥١٣ إيضاح: المسافة من الاسماعيلية إلى حيفا تقدر بأكثر من ٢٠٠ كم، والطريق بينهما يكون عبر سيناء المصرية وليس عبر فلسطين. وتم تدمير خط السكة الحديد هذا من جراء الصراع العربي الإسرائيلي ولكنه عاد للعمل من جديد الآن.

٥١٤ خطأ: المقصود هنا صحراء سوريا وليس سيناء.

قطعنا قرابة ٦٠ كم في عمق الأراضي الفلسطينية، وانتقلنا منها إلى الأردن لتمر على مدينة إربد، وتذكرنا مرة أخرى تلك الشوارع الضيقة والمنازل الفقيرة، ومررنا ببعض القرى. وما نحن في العراق، وفي الصحراء السورية. وكنا نسير على الطريق السريع الاستراتيجي الذي يربط بين حيفا وبغداد. وكان الطريق في حالة جيدة للغاية. وما قد مر ٥٥ عاماً منذ ذلك الوقت^{٥٥} وما أنا أقف عاجزاً عن وصف هذا اللقاء مع الصحراء، رغم أن هذه الصورة كانت مثيرة للإعجاب. وكان السهل الرملي اللانهائي الرتيب يحيط بنا، يفتننا، وفي ذات الوقت يسبب لنا الضيق والكآبة. وأحياناً ما كانت تظهر من حين لآخر صور جمالية متشابهة وكان هذا يبدو لنا معجزة في حد ذاته. هذا إلى جانب بعض النباتات الصحراوية التي تفتش الرمال وهي تشير إلى عدم وجود حياة في تلك المنطقة. وكانت تظهر حولنا كثبان عالية وبدأنا أن هناك شخصاً ما يحاول أن يقطع علينا الطريق. إلى أن الجو كان دافئاً وبعيداً نسبياً عن قيظ الحر، فنحن في شهر ديسمبر من عام ١٩٤٣. وقد وقعت تحت تأثير إنطباعات جديدة وغير عادية، وكذلك كان الحال بالنسبة لباقي الزملاء، وكان يقترّب مني الروس القرويون من وقت لآخر، ويعربون لي عن اندهاشهم تجاه تلك الطبيعة.

وصلنا في المساء إلى واحة الزطبة (مكان في منتصف الطريق بين حيفا وبغداد) حيث اضطررنا إلى المبيت هناك في معسكر الترانزيت الإنجليزي. وقاموا بتوزيعنا داخل مخيمات جيدة وأدخلوا السعادة على قلوبنا بالعشاء الساخن. ولكني لا أستطيع أن أنسى ذلك المشهد: بعد أن التقى بنا قائد المعسكر، أخذ ينيهننا إلى أهمية الحفاظ على الماء وقد وجهت نفس التنبيه لقادة الفصائل. وقد نفذ الجميع هذا الأمر فيما عدا الألمان، الذين لم يحرموا أنفسهم من متعة أخذ حمام ساخن. وانتقدنا جميعاً هذا السلوك، ووجهت بعض الملاحظات إلى قائد الفصيلة الألمانية، ولكنه لم يستطع أن يفهم لماذا يجب عليهم أن يتخلوا عن عاداتهم.

بعد تناول العشاء أخذوني فجأة إلى قائد المعسكر. كنت أعتقد أن الأمر يتعلق بالإفراط في استخدام الماء ولكن الأمر لم يكن كذلك. فقد كان في انتظاري عدد من الضباط البولنديين إلى جانب قائد المعسكر. وبدأ أنه كانت بالمعسكر مجموعة صغيرة من أفراد جيش أندرس البولندي، الذين كانوا في طريقهم من الاتحاد السوفيتي إلى الجزائر،

٥١٥ تم كتابة تلك المنكرات في عام ٢٠٠٠.

وأن قيادة تلك المجموعة كانت على علم بتلك الواقعة، التي حدثت في مدينة قسطنطينة، عندما قام البولنديون بضرب أحد جنودنا (فقد كتبت عن ذلك سابقاً). كان الضباط يخشون من أن يكون لدى الروس رغبة في الانتقام والأخذ بالثأر، وطلبوا مني الحيلولة دون وقوع أي صدام مؤكدين : « نحن بالطبع ندين ما حدث في قسطنطينة». وقد أيد القائد طلبهم هذا. وقد وعدتهم باتخاذ الإجراءات اللازمة، وتحدثنا بعد ذلك بطريقة ودية، وفي الختام تناولنا بضع زجاجات من الخمر. وبعد أن عدت إلى مكاني، جمعت رؤساء الفصائل، وأكدت على أهمية الحفاظ على النظام. قبل النوم خرجت من الخيمة، وفتحت عيني على صفحة السماء المليئة بالنجوم الزاهرة المتلألئة.

في الصباح تواصلت رحلتنا، وعند نهاية اليوم تغير المشهد : تظهر شجيرات صغيرة، ثم يليها أشجار أكبر، وتتوارى صورة الرمال رويداً رويداً إلى أن تختفي تماماً. مررنا على مدينة الرمادي، ثم شاطئ البحيرة، الذي بدا لنا معجزة كبيرة بعد مشهد الرمال التي ليس لها نهاية. عبرنا نهر الفرات لتظهر على مرمى البصر، ملامح مدينة بغداد. وبمجرد أن دخلنا المدينة بهرنا أحد المباني بجماله الأخاذ، ثم حل المساء، وها نحن نبيت في مدينة طلبية عسكرية.

في صباح اليوم التالي، استطعتُ التجول قليلاً في بعض الشوارع المجاورة التي لم تترك لدي أي إنطباع خاص. كنتُ أرغب كثيراً في مشاهدة مدينة بغداد، بيد أنه لم يكن هناك متسع من الوقت للقيام بذلك، حيث جاء موعد المغادرة سريعاً، ولكنني أتذكر جيداً مشهد هؤلاء النسوة اللاتي إرتدين ثياباً رثة، وكن يتسولن في الطرقات وفي أيديهن الأطفال الصغار، لكن الشيء الذي أثار دهشتنا أنهم كن يتحدثن الروسية قليلاً، وتبين لنا أنهم من الأكراد الذين هاجروا من أراضي الاتحاد السوفيتي.

بعد ذلك أوصلونا بالسيارات إلى محطة القطار. وصل القطار السريع إسطنبول-بصرة، وتم توزيع مجموعتنا على عربات الدرجة الثالثة، وبالنسبة لي فقد ركبت في عربات الدرجة الثانية باعتباري القائد. ظل القطار ينهب الأرض قرابة ٥٠٠ كم بجوار وادي نهر الفرات المزدهر بالخضرة الغناء، ولم أعادر نافذة القطار لحظة واحدة. فأشجار النخيل وبساتين الفاكهة تمتد على طول الطريق، وتترى القرى تتبع إحداها الأخرى. وصلنا إلى البصرة في النصف الثاني من اليوم، تلك المدينة التي كانت تقع على مسافة ١٨-٢٠ كم تقريباً من الحدود مع إيران على شاطئ نهر شط العرب، الذي تشكل نتيجة التقاء نهر دجلة والفرات. وتسنى لنا العبور عبر إيران من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال^{٥٦}.

٥١٦ إيضاح : تقع مدينة البصرة مقابل مدينة خرمشهر الإيرانية الواقعة في وسط البلاد .

بعض الكلمات عن الوضع العام في المنطقة . في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن الماضي ، بدأت ألمانيا الفاشية تتغلغل في الأراضي الإيرانية ، حيث أن إستيلاءها على هذه البلاد كان سيجعل لها تفوق إستراتيجي كبير في الحرب التي يتم الإعداد لها ، ولهذا فقد إستعدت القيادة الألمانية لغزو إيران . غير أن أنصار الائتلاف المضاد لهتلر قاموا بتوجيه ضربة وقائية : وتم احتلال إيران في أغسطس من عام ١٩٤١ ، على أيدي القوات السوفيتية والإنجليزية ، وتم تقسيم البلاد إلى قطاعين شمالي وجنوبي . وكانت كتائب الجيش السوفيتي تسيطر على القطاع الشمالي ، بينما كانت كتائب الجيش الإنجليزي تسيطر على القطاع الجنوبي . وكانت طهران في القطاع الذي يسيطر عليه السوفيت ، وقد علمت هذه المعلومات من إيفان إيفانوفيتش أفاييف .

التقينا في البصرة مع الضباط السوفيت ، ولكن اللقاء أقتصر على توجيه أسئلة من هذا القبيل : هل الأمور لدينا على ما يرام ؟ هل نحن في حاجة إلى أية مساعدة ؟ ولم نراهم بعد ذلك . وكانت هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها الزبي الجديد للجنود السوفيت والذي أعجبنا به جميعاً ، وقد حازت الكتابات على إعجابنا بشدة . ثم أصبح ترتيب الجزء الباقي من الرحلة بين أيدي الإنجليز . ركبنا في قطار الركاب ، وعبرنا به الحدود وبعد ساعتين وصلنا إلى مدينة الأهواز الإيرانية . وقادونا إلى عربات القطار المسائي الآخر ، الذي سنستكمل فيه رحلتنا : الأهواز - طهران ، حيث قمنا بوضع حقائبنا ومأكولاتنا به ، وقبل الرحيل من الأهواز كان لي جولة محدودة بها ، واتضح لي أنها مدينة المنازل المتواضعة ذات الطابق الواحد .

بدأت السماء تظلم عندما تحرك القطار . ولم يتبق من المسافة إلى طهران سوى ٧٠٠ كم ولكني أتذكر جيداً ، ذلك الطريق السيء . فعندما دخلنا إلى القطاع الذي يسيطر عليه الإنجليز ، توقف القطار في إحدى المحطات . وخرجت من عربة القطار لكي أستنشق هواءً نقياً حيث كنا في ساعة مبكرة من الصباح . وكان يوجد بالقرب من عربتنا سلسلة من المدافع المضادة للطائرات يقف عليها جنود هنود . وشاهدتُ الهنود الصغار الرائعي الجمال بعد الإستحمام يقومون بتمشيط شعرهم الطويل ، الذي يصل إلى الكعوب ، ويجدلون شعر بعضهم البعض ، ويصنعون منه جدائل طويلة ، وكنتُ أتبادل الإبتسامة معهم .

هناك مشهد آخر أستطيع أن أذكره بوضوح: حيث كنتُ أشاهد من نافذة القطار سلسلة ممتدة من سيارات النقل المتحركة من طراز ليندليزا، والتي كانت تقوم بنقل الذخيرة والسلاح والغذاء إلى داخل أراضي الاتحاد السوفيتي. وتبين لي فيما بعد أن تلك الشحنات التي تحملها هذه السيارات كان يجري نقلها إلى أحد موانئ إيران المطلّة على بحر قزوين، ومنها إلى باكو عبر الطريق البحري .

وصلنا إلى طهران في المساء، وكان في استقبالنا مجموعة من الضباط السوفيت برئاسة عقيد. قمت بتعريف نفسي. تعاملوا معنا بشكل لائق، ولكن بجفاء. وسألونا عما إذا كان يتواجد بيننا مرضى أم لا؟ قلتُ للعقيد إننا نحمل بريداً دبلوماسياً وكان مندهشاً بعض الشيء، وقال إنه سيخبر قنصليتنا بهذا الأمر. قمنا بانزال حقائبنا المتواضعة، ومؤتتنا من عربات القطار إلى السيارة، وذهبنا مشياً بالتشكيل العسكري إلى الثكنات القريبة من محطة القطار. وتم توزيع الأفراد على الثكنات، وذهبوا إلى غرفة الضابط النوبتجي. وقام بسؤالني عن رتبتي العسكرية ومتى وقعت في الأسر؟ وكانت نغمته في الحديث تتسم بالتعاطف معي. داخل الغرفة كان هناك أريكة واسعة، قدم لي الضابط وسادة، وبطانية، وطبقاً كبيراً مليئاً بالسندوتشات إلى جانب كوب من الفودكا ممتلئاً عن آخره وتمنى لي أحلاماً سعيدة، ثم تركني وغادر الغرفة.

أيقظوني في الصباح الباكر، حيث كان لابد من مواصلة السفر، وصل شخص يرتدي الزي المدني قمتُ بتسليمه البريد الدبلوماسي وشكرني. ذهبنا إلى المحطة بتشكيلنا العسكري، وقامت السيارة بنقل متاعنا. وقد أحضروا لنا بضع عربات لنقل البضائع، وجلست في إحداها وأنا وسيرجي ومساعدته، وشحنوا فيها أيضاً المواد الغذائية الخاصة بنا. وسرعان ما وصلنا إلى قطار الركاب وظل يقطع الطريق قرابة ٣٠٠ كم عبر طريق غاية في الجمال! فيما بدا النهار مشمساً وجميلاً. وقام سيرجي بإعداد شهيأ فخماً، وأخرج من جعبته زجاجة خمر، وكنا نقترّب من حدود الاتحاد السوفيتي، ونحن في حالة مزاجية ممتازة ...

تم نقل المرشحين إلى بندر شاه على شاطئ بحر قزوين، وتم توزيعهم على أطراف المدينة في منازل صغيرة، وكانوا يتناولون الطعام في مطاعم مجاورة تابعة للوحدة العسكرية وبعد مرور عشرة أيام تم نقل المجموعة عبر إحدى السفن إلى كراسنافودسك، ثم تلى ذلك عملية العرض على الحجر الصحي، ويذكر مؤلف هذه الذكريات أنه انضم إلى معسكر «ريازان» الخاص في الثامن من فبراير ١٩٤٤.

من الجدير بالذكر أن مذكرات «ب.ف. فريدمان» تعد المذكرات الوحيدة المعروفة حتى هذه اللحظة التي تروي بالتفصيل رحلة الجنود السوفيت الذين يطلق عليهم «العبيد الروس» لرومل من الجزائر في عام ١٩٤٣، فيما تمثل لنا تلك المذكرات قيمة استثنائية، وهامة جداً وجدير بالذكر، أن هذه المذكرات كتبت في نهاية عام ١٩٩٠، عندما كان مؤلفها في مرحلة عمرية متقدمة جداً (أذكر أنه من مواليد عام ١٩٠٧)، ولم تكن هذه المذكرات معدة للنشر، طالما أنها لم يكن بها مسحة أيديولوجية وتفتقر إلى المراجعة التحريرية.

إن بعض المشاهد التي ساقها لنا المؤلف، تجعلنا نشكك في تلك التصورات المعهودة عن عداء السلطات السوفيتية للأسرى القدامى والمهاجرين الروس. ويستدل على ذلك من خلال رحلة ب.ن. فريدمان في نقل البريد الدبلوماسي من الجزائر إلى طهران، وسلوك جيببست بالإسكندرية الذي كان يذهب معه لزيارة المهاجرين الروس. ونخلص من هذا النص إلى أن هناك بعض التفاصيل الخاصة بتلك الرحلة، قد محيت من ذاكرة فريدمان، ولكن تبدو مذكراته في مجملها صادقة تماماً ...

И вот Алжир. Пароход встречали с музыкой — он доставил сюда партию освобожденных из немецкого плена француз. Я видел, как они сходили на берег, каждому вручали букет цветов. Все остальные прибывшие должны были пройти пограничный и таможенный контроль. Я вошел в комнату, где за длинным столом сидело человек десять военных, сел на стул напротив одного из них, показал свои бумаги — справку из мэрии и ту, что получил от Жака. Меня попросили показать содержимое рюкзака, после чего предложили пересечь к офицеру довольно высокого звания. Он окинул меня внимательным взглядом и стал спрашивать — откуда я, в каких частях Советской армии служил и в каком звании, как попал на Корсику, а затем неожиданно произнес: «Я предлагаю вам вступить в наш иностранный легион, зачем возвращаться в Советский Союз, вас там ничего хорошего не ждет, тогда как у нас вы будете чувствовать себя прекрасно». Я ответил отдулом и, несмотря на долгие уговоры, согласия не дал. Офицер был явно раздосадован.

Мне дали направление в военную гостиницу, объяснили, как ее найти (она находилась неподалеку от порта) и выпустили в город. В гостинице я предъявил направление дежурному, меня зарегистрировали, проводили в большой зал, тесно уставленный кроватями, и указали свободное место. В зале звучала английская речь — преобладали английские, американские и канадские военнослужащие. Столовая работала круглосуточно, каждый мог бесплатно пользоваться ею без всяких ограничений, выбирая себе любые блюда по вкусу. Плату брали только за вино и виски. Я прожил в этой гостинице дня два или три. При регистрации и объяснил, что мне нужно попасть в советское посольство, но никто о нем ничего не знал, дежурный офицер сказал: "Подождите, пока живите,

узнаем — сообщим". Я не форсировал события. Город оказался очень интересным. Он состоит из двух частей: европейская часть — это широкие проспекты, красивые здания, нарядная толпа, шикарные магазины, рестораны, кафе, и арабская часть — ветхие постройки, узкие улочки, грязь, женщины с закрытыми лицами. Группа канадских солдат случайно узнала, что я русский. Они бурно приветствовали меня, сейчас же потащили в ресторан и устроили большую попойку. Пришлось в следующие дни избежать их, так как выдержать такую выпивку вторично я бы не смог.

Не могу вспомнить, что этому предшествовало, но вижу, как мы с поляками, моими спутниками по пароходу, в сопровождении французского солдата идем по улицам Алжира — нас переводят в какое-то другое место. Это новое место походило на казарму, а может быть, это была военная комендатура города — не знаю. Меня поместили в комнату, где находились несколько французских солдат. Поляков я больше не видел. Каждый день я справлялся у дежурного офицера, когда меня передадут в советское посольство, но ответа не получал. В одной из соседних комнат я обнаружил русского. Мы познакомились. Его звали Василий — высокий крепкий парень лет тридцати, ленинградец, по профессии шофер, тоже бежавший из немецкого плена и тоже побывавший на Корсике. Он сказал, что находится здесь уже две недели, живет тут неплохо и нет смысла так уж спешить с переходом в наше посольство.

Дни шли, и я уже стал тревожиться — не есть ли это форма давления на меня, чтобы вынудить согласиться на вступление в иностранный легион. Добился приема у местного начальника (это было нелегко) и потребовал, чтобы меня незамедлительно передали в посольство СССР. На другой день меня посадили в машину, рядом сидел Василий, впереди — французский офицер. Мы подъехали к роскошного вида оте-

Fransuzlari

تاريخ الصحافة الروسية في مصر

غالباً ما كانت الصحافة الروسية تفرض نفسها على الساحة، خاصة داخل تلك البلدان التي يتواجد علي أرضها الشتات الروسي، ويظهر ذلك جلياً في الفترات التي أعقبت اندلاع الثورات، وبشكل واضح داخل المدن التي تركزت فيها الهجرات الروسية بشكل كبير مثل: «باريس، وبرلين، وهاربيين^{٥١٧}»، كما نجدها أيضاً تظهر في تلك البلدان، التي ظهرت فيها هجرات صغيرة الحجم، لنجد أن الحاجة الفكرية لهذه الجماعات الصغيرة دائماً ما تدفعهم، لإصدار مطبوعات صحفية تعبر عنهم.

كانت مصر من تلك البلدان التي توجهت إليها بعض الهجرات التي يمكن أن توصف بأنها قليلة العدد نسبياً، ففي ربيع عام ١٩٢٠ استقبلت الأراضي المصرية حوالي ٤٣٥٠ مهاجر روسي^{٥١٨} تم إيداعهم في معسكرات خاصة، وبهذا تكون مصر قد عرفت ولأول مرة في تاريخها، خروج إصدارات دورية باللغة الروسية.

شهد يوليو ١٩٢١ باكورة إصدار المجلة الشهرية «في المهجر» داخل المخيم الروسي في «سيدي بشر» القريبة من مدينة الإسكندرية. هذه المجلة التي صدرت عن الجمعية الروسية للعلوم والتنوير، كان لها دور في توحيد عدد من اللاجئين. وتم طباعة ٧١٨ نسخة^{٥١٩} من أول ستة أعداد من المجلة (والتي على ما يبدو لم تزد أعدادها عن ١٢ عدداً، حيث تم إخلاء المعسكر في يونيو ١٩٢٢).

٥١٧ عن مقالة: Русская печать Египта، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov.

* هي مدينة تقع في شمال شرق الصين. (المترجم)

٥١٨ فلاديمير بيلياكوف «على ضفاف النيل المقدس» الروس في مصر. إصدار ٢٠٠٣ - ص ١٣٨.
٥١٩ في المهجر. سيدي بشر. يناير ١٩٢٢ ص ٢. العدد محفوظ لدى المؤلف، نشر محتواها في مجلة «الأرشيف الشرقي» عدد ١٣، ٢٠٠٥ ص ٨٦ - ٩٧، عدد ١٤ - ١٥ إصدار ٢٠٠٦ ص ١١٣ -
١٢١ النسخة الإلكترونية لهذا العدد من جريدة «في المهجر» محفوظ داخل مكتبة «الدوما» الروسي في موسكو.

أرسلت نسخة من العدد الأول من المجلة للسفير الروسي السابق «أ. أ. سميرنوف» وجاء في خطاب مرفق : «عند صدور المجلة إستطاع مجلس إدارتها التغلب على عدة صعوبات مادية ، وتقنية» . «ويأمل مجلس الإدارة أن تذلل تلك العقبات في المستقبل ، ولن يتأتى ذلك بدون دعم أصدقائنا الروس ، ونحن نعددهم أن تصدر المجلة بشكل لائق ، وتكون ذات مضمون ثرى»^{٥٢٠} .

ترزخ المجلة في صفحاتها بموضوعات تثقيفية متنوعة . كما تضمنت عدة مقالات عن مصر ، وقامت المجلة بنقل أخبار الأمور الحياتية داخل المعسكر ، فيما ضم عدد شهر أكتوبر من عام ١٩٢١ عدة مقالات حول : «الاتجاهات الحديثة في علم القانون» و«مسألة الصحة الاجتماعية في أوقات الحروب» و «بورترية الإنجليزي» لأندرية موروا مترجم عن الفرنسية و«الاضطراب السياسي في أوروبا» و«أسباب دموية الثورة الروسية» ، كما تم تكريس مجموعة من المقالات تتناول البلد المضيف - مصر^{٥٢١} ، كما تضمنت المجلة مجموعة أشعار خاصة باللاجئين وبشكل دوري ، ولن نختلف كثيراً مع التقرير الوارد من الجمعية الروسية للتثوير والتربية لعام ١٩٢١ ، والذي أكد على أن : «ظهور مثل هذه المجلة يعد عملاً بطولياً خاصة في ظل الظروف التي يعيشها اللاجئون داخل مصر»^{٥٢٢} .

كانت هناك محاولة أخرى من داخل معسكر «سيدي بشر» لإصدار مجلة متخصصة للأطفال . أطلقوا عليها اسم «الأديب الصغير» ، ومن خلال التقارير الخاصة بالجمعية أمكن التعرف على أنه في عام ١٩٢١ كان قد صدر عدد واحد فقط من المجلة . هذا العدد مكون من ١٢ صفحة وكان عبارة عن مجموعة من المقالات مصحوبة بخمسة رسومات ولم يطبع منه سوى خمسين نسخة^{٥٢٣} ، ولا يمكننا أن نتأكد عما إذا كان قد صدرت أعداد أخرى من هذه المجلة في العام التالي أم لا ؟... فلم نتمكن من العثور على أي من هذه الأعداد .

- ٥٢٠ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ملف ٣١٧ ، مرجع سابق ، وثيقة ٨٢٠/٣ ، السطر ٨٧ .
- ٥٢١ في المهجر . سيدي بشر . أكتوبر/تشرين الأول ١٩٢١ . هذا العدد من المجلة محفوظ داخل قاعة الهجرة الخارجية بمكتبة الحكومة الروسية في موسكو .
- ٥٢٢ في المهجر . سيدي بشر . يناير/كانون الثاني ١٩٢٢ ص ٢ .
- ٥٢٣ المرجع نفسه .

من بين كثير من الجمعيات التي تم إنشاؤها ، داخل المعسكر الروسي في سيدي بشر كان هناك «الحلقة الأوكرانية» ، والتي أصدر أعضاؤها من عام ١٩٢٠-١٩٢١ عشرة أعداد من مجلة «فوق الأطلال» ، وخرج كل عدد في خمس أو ست نسخ ، غير أن النقص الحاد في الإمكانيات المادية حال دون استمرار صدور المجلة^{٥٤} ، ولم يتم العثور على أي أعداد أخرى من المجلة ولا نعرف هل صدرت المجلة باللغة الأوكرانية أم باللغة الروسية؟ كما صدرت عدة مجلات أخرى عن بعض المنظمات ذات الطابع الإجتماعي ومنها : « اتحاد الطلاب الروس في الإسكندرية » والتي صدرت في مطلع عام ١٩٢٢ أول عدد من مجلتهم الخاصة تحت اسم «أوريون»^{٥٥} . وليس من الغريب أن يكون هذا العدد هو الإصدار الأول والأخير لهذه المجلة ، حيث أشير من قبل أنه في يونيو من نفس العام ، تم إخلاء المعسكر في سيدي بشر .

بالتوازي مع المعسكر المتواجد ، في «سيدي بشر» ، وعلى مدار عامين ، كان هناك معسكر روسي آخر بالقرب من الاسماعيلية والذي يخص «تلاميذ المدرسة العسكرية «بالدون» ، حيث صدرت من داخل هذا المعسكر مجلة شهرية محررة بخط اليد تحت اسم «إبن الدون في المهجر» بحجم (A4) - وخرجت في ٢٤ صفحة .

قام بتحريرها طلاب الفرقة النهائية أولاً «أليموف» ثم «إيجورف» . وتميزت هذه المجلة عن نظيرتها «في المهجر» بأنها لم تتناول موضوعات إعلامية ، ولم تتطرق إلى الحياة داخل المعسكر ، ولكنها أحتضنت الإبداعات الأدبية الخاصة بالطلاب ، وكانت عبارة عن قصص وروايات مصحوبة بالرسوم ، كما ضمت ذكرياتهم عن روسيا ، وتصوير الأحياء السكنية للمعسكر . في حين خلا النصف الثاني من المجلة من أية رسومات . ولعل السبب في ذلك ، على ما يبدو ، يرجع إلى عدم توفر الحبر الكافي ... قام بتوضيح ذلك الأمر أحد محرري المجلة داخل الصفحة السابعة الأخيرة ... وفي نفس المكان ولكن في الصفحة الثالثة وضع هذا التنويه : «قرأ المجلة الكرام ... رجاء أن تقرأوا المجلة بكل حذر وعناية واحرصوا على عدم تركها داخل ثكنات المخيم ، ومرروها على الآخرين ، كي يتسنى لأكثر عدد من الأشخاص قرائتها»^{٥٦} .

٥٢٤ المرجع نفسه .

٥٢٥ نيدزليسكي ، يفجينى . مذكرات المخيم // أفريقيا في عيون المهاجرين . إصدار ٢٠٠٢ ص ١٢٢ .

٥٢٦ العدد ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ من مجلة « طلاب المدارس العسكرية في المهجر » محفوظ داخل مكتبة الأرشيف الحكومي لروسيا الاتحادية بموسكو .

مع بدء إجلاء اللاجئين الروس من المخيمات داخل الأراضي المصرية، اختفت الطباعة فترة طويلة من الزمن، حيث تقصت الجالية الروسية المتواجدة في مصر خلال السنوات التالية، واقتصرت على أعداد محدودة من اللاجئين المتفرقين في طول البلاد وعرضها. فلم يعد المهاجرون يعيشون بشكل جماعي داخل مجمع سكني واحد.

لكن من ناحية أخرى عاودت الصحافة الروسية الظهور مرة أخرى، على هيئة إصدار تخصصي، ففي عام ١٩٣٠ أصدر العقيد «ألكسي ياكوفليفيتش فون برتزل» (٢٠٢٤-١٨٨٤ سانت بطرسبورج، ٥-٨-١٩٤٩ بالإسكندرية)، في الإسكندرية مجلة «تاريخ اسماعيلوفسكي». قامت هذه المجلة بالقاء الضوء على تاريخ «فوج اسماعيلوفسكي» (كان واحدا من أقدم الأفواج في الجيش الروسي إحدى وحداتها من كتيبة المشاة الأولى للحرس في الحرس الامبراطوري الروسي. تشكل الفوج في موسكو في ٢٢ سبتمبر ١٧٣٠ المترجم د. محمد رياض) حيث أصدر منها ٣٠ عدداً. في بداية الأمر أصدر «برتزل» من ٤٠٣ أعداد في العام. وكان كل عدد يضم من ٥٥-٥٠ صفحة ثم بعد ذلك، أصبح صدورها بشكل سنوي، وكان العدد السنوي يضم ٢٠٠ صفحة، وفي كثير من الأحيان كان يتوفر ٢٠١٥ نسخة من العدد السنوي. وكان يتم توزيعها في الأساس على عدد محدود من أصدقاء الناشر بحيث يتم توزيعها عليهم وفقاً لقائمة معدة مسبقاً (بالحجز)، وكانت المجلة مخصصة لمقالات تدور موضوعاتها حول تاريخ «فوج اسماعيلوفسكي»، والسيرة الذاتية لضباطه. بخصوص تجميع المواد الخاصة بموضوعات المجلة، بالطبع كان «برتزل» يتولى بنفسه جمع جزء من العلومات، والجزء الباقي يقوم أصدقاؤه الذين استقروا في «لندن، وبراغ، وبلجراد»، وغيرها من المدن المختلفة بتجميعه، وكان عمل «ألكسي» يتمثل في تجميع المواد وكتابتها على الآلة الكاتبة، بالإضافة إلى تحريرها، ويا لها من جهود عظيمة تستحق التقدير، في ظل الظروف العصيبة التي يعيشها في الإسكندرية. وتحدثنا الملاحظة التالية التي وضعها الناشر داخل صفحات العدد وتحديداً الصفحة السابعة: سوف تلاحظون أيها القراء الأعزاء بداية من هذا العدد والأعداد القادمة، عدم الاختلاف بين حرفين «التفخيم والترقيق»، وذلك نظراً لحدوث عطل ما في مفتاح الآلة الكاتبة، التي تخص حرف «التفخيم»، ونظراً لعدم وجود قطع غيار لها في مصر. وصعوبة توفر ذلك في الفترة القادمة، إلا أننا نأمل أن يصل إلينا هذا الحرف من أمريكا قريباً»^{٥٧٧}.

٥٢٧ مجموعة من مجلة «اسماعيل الكبير» باستثناء العدد ١٧-٢٩ تم حفظهما في الأرشيف الروسي للمؤسسة الثقافية الدولية بموسكو.

عاودت الصحافة الروسية الظهور مرة أخرى داخل مصر، في القرن الحادى والعشرين، حيث أصبحت مصر وجهة لكثير من السائحين والمهاجرين^{٥٢٨} الروس مرة أخرى، وكان الظهور الأول لها من خلال جريدة «كسمولسكايا برافدا في مصر» الطبعة التجارية، والتي تعتمد في توزيعها بالأساس على المجتمع الروسي المحلي والسائحين الوافدين، وصدرت المجلة ابتداءً من عام ٢٠٠٤ على يد أحد رجال الأعمال الروس ويدعى «يورى شيجولكوف»، حيث يتم تجميع المواد الخاصة بالجريدة في موسكو ثم إرسالها للطباعة في القاهرة، ومحتواها عبارة عن مجموعة من المقالات المختارة من الطبعة الأصلية التي تصدر في موسكو، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من المقالات التي تم إعدادها من قبل المراسلين المستقلين التابعين للجريدة داخل مصر، وتصدر «كسمولسكايا برافدا المصرية» يوم الأحد من كل أسبوعين، بحجم (A 3) وعبارة عن ٢٤-٣٠ صفحة مستطيلة وتعتمد في تمويلها على الإعلانات وخاصة العقارات، كما أنها كانت توزع مجاناً على فنادق وكافتريات، ومطاعم، ومتاجر الغردقة وشرم الشيخ، وتوزع أيضاً على جميع المؤسسات الروسية في القاهرة والإسكندرية^{٥٢٩}.

مع بداية الأزمة المالية العالمية بدأت الجريدة تواجه بعض الصعوبات، والتي تمثلت في انخفاض التوزيع من ١٠ إلى ٢-٢ ألف نسخة، كما تم إغلاق الموقع الإلكتروني التابع لها، وتأثرت الجريدة بشكل سلبي، نظراً لظهور منافسون جدد على الساحة، حيث إنه منذ أكتوبر ٢٠٠٩ بدأ صدور أول عدد من جريدة «موسكوفسكى كومسوموليتس في مصر».

مجلة «ماسكوفسكى كومسوموليتس» في مصر «نشأت على غرار منافستها. كان ناشرها يقيم في الغردقة وهو أيضاً أحد رجال الأعمال الروس ويدعى «مكسيم شيفيل»، وتعد الجريدة ذات طابع تجارى وتعتمد بشكل أساسي على أعداد السائحين والمجتمع الروسي المحلي، وتعتمد أيضاً في تمويلها على الإعلانات وبصفة خاصة إعلانات العقارات. وتضم الجريدة مجموعة مقالات من الصحيفة الأم (الطبعة الأصلية) والتي تم إعدادها من قبل المراسلين المستقلين في مصر، ويتم تجميع المادة الخاصة بالطبع في موسكو ثم يتم إرسالها إلى القاهرة للطبع، وتخرج للنور صباح كل أحد من كل أسبوعين، وبنفس شكل وحجم منافستها «كسمولسكايا برافدا». ويتم توزيع

٥٢٨ عن الشتات الروسي المعاصر في مصر. أنظر: فلاديمير بيلياكوف. السياحة والتفاعل بين الثقافات// آسيا وأفريقيا اليوم، إصدار ٢٠٠٧ رقم ٩.

٥٢٩ تعرف الكاتب على هذه الجريدة جيداً، وبشكل شخصى، حيث عمل بها منذ ٢٠٠٥-٢٠٠٩.

مجلة «ماسكوفسكى كومسوموليتس في مصر». مجاناً وتتواجد بصفة أساسية داخل فنادق وكافيتريات ومطاعم ومتاجر الغردقة وشرم الشيخ، هذا بالإضافة إلى انتشارها داخل المؤسسات الروسية في القاهرة والإسكندرية، وأيضاً يتم توزيعها داخل سفارات دول: «أوكرانيا وبيلاروسيا وكازاخستان». ويتم تداول ٢٠ ألف نسخة. غير أن الأمور تغيرت خاصة بعد الأحداث التي شهدتها مصر عام ٢٠١١، حيث لوحظ انخفاض أعداد السائحين الروس وتعقدت المشاكل الاقتصادية، مما أدى إلى تخفيض أعداد النسخ المطبوعة^{٥٣٠}.

على النقيض من «كاساموليسكايا برافدا» في مصر تتميز «موسكوفسكى كاساموليتس» في مصر بأن لديها نسخة كاملة على الموقع الإلكتروني www.mkegypt.net هذا الموقع لا يكتفي بنشر موضوعات الجريدة فحسب، وإنما يتضمن أيضاً أخبار مصر الراهنة. كما يضم أخبار المجتمع الروسي وأنشطة المركز الثقافي الروسي للعلوم والثقافة بفرعيه في القاهرة والإسكندرية. بالمقام الأول، تعتمد الجريدتان في تمويلهما على إعلانات العقارات وتوزيعها على السائحين القادمين من روسيا. فضلاً عن ذلك، تلعبان دوراً هاماً لدى المجتمع الروسي المتواجد داخل الأراضي المصرية، كما أنها تسد حاجتهم في الحصول على المعلومات، الذي يتكون أغلبه من النساء المتزوجات من أزواج مصريين واللاتي يقمن بشكل دائم في المنتجعات السياحية، واللاتي يستطعن معرفة آخر أخبار الوطن، بفضل انتشار القنوات الفضائية الروسية، ولكن فيما يخص الحصول على المعلومات الكافية حول مصر وثقافتها وديانته وعاداتها وتقاليدها، هذا الأمر يعد غير ممكن، والسبب في ذلك يرجع إلى عدة أسباب أهمها؛ وجود نقص حاد في تعلم اللغات المختلفة لدى هؤلاء النساء، ويرجع أيضاً إلى أن الصحافة المحلية تصدر باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية، وبذلك تعد عملية الحصول على المعلومات بالنسبة لهن غير متاحة، إلا عبر هاتين الجريدتين، فلا يمكن لأحد أن ينكر هذا الدور العظيم الذي تقوم به الجريدتان داخل مصر.

كانت مجموعة الكتاب المستقلين المحررين للجريدتين، يهدفون إلى استعراض العادات والتقاليد المصرية على صفحاتها، وتقديم المشورات القانونية، والمعلومات المفيدة التي يقدمها قناصل روسيا أوكرانيا وبيلاروسيا وكازاخستان، وبالتالي تلعب

٥٣٠ تعاون الكاتب مع هذه الجريدة منذ بداية إصدارها لعددتها الأول.

الجريدتان دوراً هاماً في توحيد وتدعيم الجالية الروسية، إلى جانب تقديم وجبة ثقافية دسمة لكل الناطقين باللغة الروسية داخل مصر.

في عام ٢٠٠٨، بدأ المجلس التنسيقي للمواطنين الروس في مصر، بإصدار مجلة فصلية باسم «مصر الروسية»، تكونت المجلة من ٤٨ صفحة مستطيلة، بالإضافة إلى غلاف بالألوان، ولم يذكر عدد النسخ المطبوعة، ولكن من الواضح أن أعدادها كانت محدودة، فيما كانت المجلة مكرسة لاستعراض حياة المواطنين، والأنشطة التي يمارسونها داخل المنظمات والأندية المجتمعية المختلفة. كانت هذه المجلة تحمل عنواناً فرعياً اسمه «مجلتنا عن المواطنين ولأجلهم»، هذا بالإضافة إلى المواد المعرفية الأخرى عن مصر، ونلاحظ أن الصفحة الثانية من مجلة «مصر الروسية» من أعداد شهور (أبريل - يونيو ٢٠٠٨) قد نشرت معلومات عن عيد النصر واليوم العالمي للطفولة وذكرى ميلاد الشاعر الروسي «بوشكين».

أما الجزء المخصص لمصر فتناول معلومات حول مدينة الإسكندرية، وإحياء مكتبتها الشهيرة^{٥٣١}، ويتم توزيعها مجاناً، وللأسف، وكما أعلن ممثل التعاون الروسي في مصر أنه منذ ٢٠١٠ توقفت المجلة عن الصدور لأسباب تتعلق بالأمر المالي^{٥٣٢} ومشاكل في التنظيم. تم إصدار مجلة أخرى داخل مصر تحت اسم «njoy»^{٥٣٣} تنتشر هذه المجلة أيضاً وسط السائحون غير أنها تصدر باللغتين الروسية والإنجليزية، وتصدر عن الشركة الروسية «نجوى للدعاية والإعلان»، وهى مجلة فصلية وبدأت تصدر منذ عام ٢٠٠٩. وتصدر بالألوان، وكانت عبارة عن ٨٨ صفحة مستطيلة، وكانت تعتمد في تمويلها على الإعلانات، وعن أعداد النسخ المعلن عنها، فكانت ٢٠ ألف نسخة، وضم العدد الخامس (٨) لعام ٢٠١٠ معلومات عن مصر القديمة، والعمارة الإسلامية في العصر الفاطمي، وعن باليه «الليالي المصرية»، والسفر والرحلات إلى مرسى علم وأسماك البحر الأحمر. كما يمكنك أن تحصل بين جنبات العدد على بعض وصفات الطهي المصرية ويمكنك أن تعثر على عناوين المطاعم والبارات في شرم الشيخ والغردقة، بالإضافة إلى بعض المعلومات العامة.

- ٥٣١ مصر الروسية . القاهرة . أبريل/نيسان ، مايو/أب ، يونيو/حزيران ٢٠٠٨ . العدد الثاني محفوظ لدى المؤلف .
- ٥٣٢ أرشيف المؤلف . مجلد «الروس في مصر» - ١٠ خطاب ممثل التعاون الروسي في مصر من ٢٠١٢-٢٠٢٧ .
- ٥٣٣ Njoy القاهرة . العدد ٥ (٨) ، ٢٠١٠ . العدد محفوظ لدى أرشيف المؤلف .

لكن بعد الثورة المصرية في ٢٥ يناير ٢٠١١، ومع توقف تدفق حركة السياحة الأجنبية داخل مصر، تم تعليق طبع المجلة، والتي ما كاد أن يصدر منها سوى ٩ أعداد فقط^{٥٣٤} باختصار لا يمكن للسائحين والمجتمع الروسي المحلي أن يتجاهلوا دور الناشرين المحليين والذين بفضل تمركزهم في مصر، استطاعوا أن يحصلوا على المعلومات السياحية الدقيقة وزيادة معارفهم عن ثقافة وعادات هذا البلد، على الرغم من تغيير الأوضاع بعد الثورة في عام ٢٠١١ وتقلص أعداد السياح، وتوقف نمو المجتمع الروسي إلا أن آفاق تطور العلاقات الإنسانية بين البلدين والإصدارات الروسية تعتبر مستقرة .

روسيا بعيون مصري

رحلة محمد طلعت إلى سانت بطرسبورج ما بين ١٩٠٦ - ١٩٠٧^{٥٣٥}

صدر في القاهرة عام ١٩٠٧ عن «دار التقدم»، كتاب محمد طلعت «السير والنظر» والكتاب في شرح مبسط عبارة عن: «ملاحظات المؤلف... التي تحتوي على معلومات حول الأراضي الروسية وحول أوضاع المسلمين هناك، كما يتحدث الكاتب أيضاً عن تونس وطرابلس ومالطا، وكيف يعامل المسلمين في فرنسا وإنجلترا وروسيا».

وخلافا للروس الذين ارتحلوا إلى مصر مرات عديدة في العصور الوسطى والعصر الحديث، نجد أن المصريين قلما سافروا إلى روسيا وغير معروف لدينا أية إصدارات تتناول تلك الرحلات قبل كتاب «محمد طلعت»، ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب الصغير الذي بين أيدينا (وهو عبارة عن ٨٠ صفحة صغيرة الحجم)، الذي يرجع له الفضل في إلقاء الضوء على إنطباعات المصريين عن روسيا والروس منذ مائة عام.

بدأت رحلة «محمد طلعت» إلى «سانت بطرسبورج» في أغسطس من عام ١٩٠٦ عندما زاره في منزله بالقاهرة «صابر عليم أفندي» التتاري، خريج جامعة الأزهر الإسلامية حيث سلم «طلعت» خطاباً كان قد أرسله له صديقه التتاري المواطن الروسي «لطف الله شكرى الإسحاقى»، والذي كان مثله مثل أخيه «أحمد أفندي الإسحاقى» خريج الأزهر. وقد تلقى كل منهما تعليماً دينياً ممتازاً، وقضياً وقتاً ممتعاً في بلاد الشرق، خاصةً في مصر والحجاز وفي سوريا أيضاً.

٥٣٥ عن مقالة: Россия глазами египтянина. Поездка Мухаммеда Талаата в Петербург в 1906-1907، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Goriachkin Gennady.

تعرف «محمد طلعت» على الأخوين منذ وقت طويل ، ويشير إلى ذلك في كتابه : « لقد ربطتنا علاقة صداقة متينة وحب متبادل . وهذا ما تؤكدُه القصيدة التي كتبها خصيصاً لهما عام ١٩٠٢ » (ص ١٢) .

من الخطاب علم «محمد طلعت» أنهما يطلبان منه السفر إلى «سانت بطرسبورج» للعمل كمحرر في صحيفة «التلميذ» التي تصدر باللغة العربية براتب ١٠٠ روبل شهرياً في بداية الأمر رفض «طلعت» الدعوة بسبب خوفه من اضطرابات الموجة الثورية في روسيا غير أنه رضخ في آخر الأمر «والفضل في ذلك يرجع إلى إصرار البعض والضغط من قبل البعض الآخر»، وبالفعل أبحر في ١٦ أكتوبر ١٩٠٦ من الإسكندرية ، وذلك على متن أكبر وأنظف باخرة روسية ، والتي كانت تابعة لشركة التجارة والشحن «تشيخاتشوف» والتي تشق المياه بسرعة ١٩ ميلاً بحرياً في الساعة (ص ١٣-١٤) .

وصلت السفينة إلى ميناء أوديسا في ٢٥ أكتوبر وحيث إن رحالتنا كان يهتم بشكل أساسي بالمسلمين المقيمين في روسيا، فكان أول ما قام به هو معرفة أعداد المسلمين المتواجدين بالمدينة . وأوضح «محمد طلعت» أن أعدادهم لم تتجاوز ٢٠٠ شخص لحظة وصوله . وكان أغلبهم يشتغل بالتجارة ، وكان البعض منهم يمتلك فنادق ومطاعم صغيرة . كان رئيس رابطة المسلمين في أوديسا شخص يدعى «صابر أفندي» . كان يبلغ من العمر واحد وخمسون عاماً ويتمتع ببنية قوية ويميل وجهه إلى الامتلاء قليلاً . وكان يفهم اللغة العربية الفصحى وكان يسعى طوال الوقت إلى التحدث معهم ولكن كان ذلك بصعوبة بالغة كما اعتبر «طلعت» أن الأنشطة التي يقوم بها في أوديسا تحمل فائدة عظيمة بالنسبة للمسلمين المقيمين داخل المدينة . « فلم يكن يشغله أي شيء آخر سوى أمور المؤمنين المتواجدين في المدينة لفترة قصيرة وتنظيم صلواتهم » (ص ٣٧) .

أشار «محمد طلعت» إلى أن ميناء أوديسا يعد أكبر موانئ الإمبراطورية الروسية المطلّة على البحر الأسود . كما أشاد بجمال المدينة ومبانيها الضخمة ، مشيراً في نفس الوقت إلى شوارعها المستقيمة والواسعة . وكم كانت رائعة لدرجة أنها تخطف الأنظار ، كما أبدى فرحته بالمنزهات العامة خاصة تلك التي كانت تشرف على البحر قائلًا أنه لم يرى لها مثيل في روعتها وأناقتها . كما نوه الكاتب إلى رحابة الدرجات المؤدية للبحر والتي يتواجد على الجهة المقابلة لها إحدى الآلات والتي تقوم بمساعدة اثنتين من العربات التي تشبه عربات الترام برفع وإنزال المتنزهين ، وكذلك الذين لا يمكنهم التحرك بمفردهم .

ذكر «محمد طلعت» أن مدينة أوديسا تضم متحفاً للأثار ومكتبة عامة، بالإضافة إلى عدد من المدارس. وتحدث الكاتب عن المنتجات الصناعية المتطورة في المدينة، والنشاط التجاري الهائل للسكان حيث إن الميناء لا يعد حلقة وصل في مجال التجارة مع تركيا فقط ولكن مع الشرق بصفة عامة (ص ٣٨).

وفقاً لشهادة «محمد طلعت» أظهر «منصور أفندي» كرم ضيافة لا مثيل له. كما بذل كل ما في وسعه لإكمال رحلته. ولكن في يوم مغادرتة أرسل إليه المؤذن المحلى لمرافقته إلى محطة القطار حيث إنه كان يقوم بالتحضير لسفر مجموعة من الحجاج إلى مكة. داخل محطة القطار تسلم «طلعت» ثلاثة تذاكر الأولى تذكرة القطار موضعاً عليها رقم العربية ومكان الجلوس والثانية: للوجبات الغذائية والثالثة: كانت لأجل القطار السريع (ص ٣٩).

كان يعمل في عربية المطعم بالقطار مجموعة من المسلمين الترك من بلدة «قاسيموف»، (في حقيقة الأمر بدأ لرحالتنا محمد طلعت أن جميع العاملين كانوا من قاطني هذه البلدة)، الأمر الذي لم يجعل عند محمد طلعت أي مشاكل بخصوص الطعام، ذلك أن رحلته كانت خلال شهر «رمضان». كانوا يقومون بدعوته للإفطار معهم، ويقدمون له وجبة السحور داخل مقصورته، غير أنه وبناءً على ما كتبه المؤلف كان يتواصل مع العاملين بالعربية بمنتهى الصعوبة؛ وذلك يرجع إلى أنه لم يكن يعرف الكثير عن اللغة التركية، ونفس الحال بالنسبة إليهم» (ص ٣٩). «وهكذا أمضيت الوقت تحت رعايتهم وفي كنفهم كأنني في حلم ساحر، وكان «محمد طلعت» يختلف عن باقي المسافرين من حيث الملابس ولون البشرة. كما أنه لم يكن يفهم لغتهم وكان يلتزم الصمت طوال الوقت أثناء رحلته، وأحياناً كان يتبادل اللفات والإيماءات مع جيرانه» (ص ٣٩).

فور وصول «طلعت» إلى مدينة سانت بطرسبورج في السادس عشر من نوفمبر، التقى «عبد الرشيد إبراهيم أفندي» أحد طلاب الأزهر السابقين. وقد أذهلت محطة قطار السكك الحديدية الوافد المصري بارتفاعها وعظمتها ورحابتها ومنظرها البديع» (ص ٤٠).

يستمر الكاتب في الوصف قائلاً: «بعد أن انطلقت العربية بضع خطوات لم أسمع صرير العجلات؛ فقد حلت محلها المزالق الحديدية التي تنزلق على الثلج الذي يغطي أراضي الشوارع وأسطح المدينة والأشجار والطريق الواصل بين أوديسا وسانت بطرسبورج

وفي أوديسا نفسها لم أزمثل ذلك ولكن بعد أن غادرتها إستيقظت في صباح اليوم التالي رأيت الثلوج تغطى المحطة فتبادر إلى ذهني على الفور أنه ربما تكون بقايا من مادة الجبس أو الجير المستخدمة في بناء أو ترميم المحطة ولكن سرعان ما تبين لي ماهيته استدارت العربية يمينا ويسارا بينما أنا أنظر بإندهاش على الجانبين حتى توقفت أمام أحد المباني المهيبة . وكان هذا المنزل ذا طابق واحد يملكه السيد «عبد الرشيد» . ويضم البيت قاعة كبيرة بها أثاث ثمين وبيانو وبها باب يؤدي إلى غرفة استقبال أخرى ، وإلى اليسار منها يوجد مدخل يؤدي إلى غرفة بها مكتبة ، وبينهما ممر يؤدي إلى غرفة الطعام» (ص ٤١) .

أما الجزء التالي من الكتاب ، فمخصص بأكمله لمدينة سانت بطرسبورج . وقد بدأه «محمد طلعت» بوصف الطبيعة الجغرافية للمدينة وتاريخ بنائها . كما أشار المؤلف إلى أنه بعد أن أصبحت عاصمة لروسيا ، تحولت من وجهة النظر المعمارية إلى مركز عالمي ضخم . كما أنه تطرق بالوصف إلى حياة «بطرس الأول» ، وأعماله الحكومية الإبداعية، كما أعطى نبذة تاريخية عن سلالة «ريوريكوفيتش» في روسيا ، وظهر قبائل «روسيتشي» ، وتعميد روسيا ، والحروب الروسية-البولندية، والتي كان من نتائجها سيطرة بولندا على جزء من الأراضي الروسية حتى القرن الثامن عشر . وتوحيد روسيا في عهد القيصر «إيفان الثالث» ، و ظهور سلالة «رومانوف» (ص ٤٢ - ٤٤) .

ثم عاد رحالتنا مرة أخرى ، إلى تلك الفترة التي تم فيها اختيار مصب نهر النيفا ليكون ضمن الأماكن لتدشين العاصمة الجديدة . كان السبب في هذا الاختيار عدم وجود وسائل مواصلات بين روسيا والدول الغربية . وقد أشار المؤلف إلى أن القيصر قد باشر العمل بنفسه ، حتى أنه قام بخلع أسنان العامل الذي قدم إليه يشكو من الام الأسنان (ص ٤٤) . ولكي يجبر «بطرس الأول» الناس على المجيء للعيش في المدينة الجديدة قام بنقل رفات القديسين والتماثيل الدينية التي كانت داخل كنائس موسكو وكيف إلى المدينة الجديدة ، وأشار المؤلف إلى أنه بهذه الطريقة وبفضل رعايته ومثابرتة وإبداعه أصبحت سانت بطرسبورج واحدة من أضخم مدن العالم من حيث العظمة والجمال . ويعيش بها حوالى ٢,٥ مليون نسمة . قسم نهر النيفا المدينة إلى ست جزر ، إلا أن الجسور الحجرية والمعدنية العديدة على نهر النيفا وقنواته ، سهلت الاتصال بين أجزاء المدينة المختلفة . كل هذه القنوات والروافد والأرصفة العالية المتينة والسياجات الحديدية ذات الأشكال

المتكررة لا تقدر بثمن وترتسم الدهشة على ملامح من يشاهده خاصة بعد معرفة المبالغ التي أنفقت عليها (ص ٤٤ - ٤٥) .

يستمر المؤلف في الكتابة عما يجب أن يؤخذ في الاعتبار بالنسبة لهؤلاء الذين يعتزمون الترحال إلى بلاد ، تتميز بطقسها البارد ، كما يورد بعض النصائح القصيرة عما يجب أن يلم به المسافر عن تلك الشعوب (ص ٤٥) . ولا يوجد شيء أهم من التعرف على العقيدة داخل هذه البلدان . يذكر الكاتب أنه يوجد في روسيا اثنان من المذاهب الدينية الأول هو المذهب الأرثوذكسي ، والذي يعتنقه أغلبية السكان - والثاني هو المذهب الكاثوليكي وأتباع هذا المذهب يمثلون الأقلية وفيما بينهما يعيش اليهود والمسلمون . وهم جميعاً من أكثر الناس ولاءً للدين والبعد عن الخرافات ، ويتميزون بالإخلاص ، والتقوى والصدق ، لاسيما هؤلاء الذين يعتنقون الديانة الإسلامية . ومن الملاحظ أنه توجد عدواة خفية بين أصحاب المذهب الأرثوذكسي ، وأصحاب المذهب الكاثوليكي كما بين أصحاب المذهب الأخير ، وأصحاب الديانة اليهودية . أما فيما يتعلق بالمسلمين فكان جميعهم يتعاملون معهم بطريقة متساوية . ويقول الكاتب : إنني عشت مع أسرة يهودية لكنهم لم يتقبلوني معهم إلى أن تيقنوا أنني مسلم (ص ٤٦) . من المرجح أن ملاحظة المؤلف توضح أنهم كانوا ينظرون إليه كمسلم أجنبي على أنه واحد من الأعاجيب . وكتب الرحالة أنه عاش أيضاً مع أسرة أرثوذكسية ، ولم يقبلوه عندهم إلى أن تيقنوا من أنه لا يدين باليهودية .

يتعامل أصحاب المذهب الأرثوذكسي تجاه الكنائس والمعابد ، وأيضاً ورجال الدين بكل إجلال . وبحسب تعبير الكاتب ، أنه كثيراً ما شاهد الحوزي سرعان ما يخلع قبعته راسماً علامة الصليب في كل مرة يمر فيها ، من أمام إحدى الكنائس أو أي من الأيقونات التي تخص أحد القديسين ، وكانت هي نفس الحال بالنسبة لجميع المارة والركاب . كل هذه التصرفات كان لها طيب الأثر لدى « محمد طلعت » ؛ ذلك أن هذه المشاهد : قد جسدت أمام ناظري وحدانية الخالق سبحانه وتعالى واستعداد جميع الخلائق لتمجيده ولعبادته» (ص ٤٦) .

كما أشار الرحالة إلى أن ما يثار حول إهدار كرامة واضطهاد المسلمين من قبل الروس هو محض افتراء . وأن بعض الشخصيات المؤثرة الذين يفعلون ذلك ، يصمون الأمة كلها بأفعالهم هذه (ص ٤٦) . وفي رأي «محمد طلعت» فإن الروس يتحلون بالحلم والمودة وأنهم أهل صلاح وتقوى . والحجة التي يسوقها للتدليل على ذلك أنه طوال فترة إقامته في روسيا والتي دامت تسعة أشهر لم يشهد أي عراك في الشوارع أو في الأماكن العامة ، وأضاف أيضاً أن : «عاداتهم الدينية تختلف عن عاداتنا ، فيما عدا وجود بعض الاحتفالات المرتبطة ببعض القديسين ، مثلما يحدث عندنا في مولد النبي» (ص ٤٦-٤٧) .

يرجع عدم شيوع الجريمة بين أفراد الشعب الروسي إلى قوة الوازع الديني في قلوبهم ولا يناقض هذا القول حسب رأي الكاتب تلك الأعمال الوحشية التي يرتكبها «أعضاء اللجنة الثورية» (على ما يبدو ، الثوار - المؤلف) : فليس لديهم إيمان بأي شيء بسبب ضبابية معتقداتهم التي استمدوها من الكتب الملحدة للفلاسفة الفرنسيين .

كانت أولى المهام التي طلبت من «محمد طلعت» كمحرر ، هي كتابة بعض الكلمات الموجهة إلى المسلمين . هذا النداء تم نشره بين صفحات العدد السابع لجريدة «التلميذ» في الأول من ديسمبر لعام ١٩٠٦ على هيئة قصيدة تحمل عنوان «إلى المسلمين» (ص ٤٧ - ٥٠) . وتتلخص فكرة القصيدة في أن التأخر في بعض المجالات في المجتمع الإسلامي عن المجتمع الروسي ؛ ترجع إلى سيطرة الأجانب عليهم فترة طويلة . ويتوجب على المسلمين أن يتشبثوا بإيمانهم كي يتمكنوا من الخروج من حالة التخلف هذه والمضي قدماً نحو تحقيق التقدم . وهنا تطرق المؤلف لقضية المرأة ، معلناً أن أحد أهم أسباب تخلف العالم الإسلامي يرجع إلى ترك المرأة المسلمة فريسة للجهل ، والتي بدورها تمرره إلى صغیرها أثناء الرضاعة . وقد لجأ «محمد طلعت» إلى الشكل الشعري مرات عديدة ل طرح أفكاره (ص ١٢-١٣ ، ١٤ - ١٥ ، ٦٦-٦٧ ، ٧١-٧٩) .

يستطرد المؤلف : «لا يتعرض المسلمون لأي نوع من أنواع الاضطهاد أو الظلم فيما يخص النواحي الإيمانية» (ص ٥٠) ، وذكر أن أعدادهم تقدر بـ ٢٥ مليون نسمة (طبقاً لتعداد السكان عام ١٨٩٧ كانت تقدر أعدادهم بـ ١٤ مليون نسمة - المؤلف) ويعيش داخل العاصمة الروسية نحو ١٠ ملايين مسلم يشتغلون بالتجارة والأعمال الحرفية بشكل أساسي ، ومن بينهم شخصيات ذات شأن وثراء . لم يكن لدى المسلمين

داخل العاصمة مسجد للصلاة ، فتم استئجار أحد المنازل وتخصيصه لهذا الغرض . وعبر جريدة «التلميذ» ناشدنا الرأي العام للاكتتاب ، كما خاطبنا أيضاً رؤساء الحكومات الإسلامية . كان أمير بخارى «الجليل» هو الوحيد الذي لىبى نداءنا ، وقدم المال لأجل شراء قطعة أرض لتشييد مسجد عليها من ماله الخاص ، وهذا ما شجع سكان الإمارة على جمع الأموال . وبالفعل تم جمع رأس مال ضخم ، بالإضافة إلى الأموال التي جمعها رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية بسانت بطرسبورج والمسلم البولندي . وتم شراء منزل كبير في شارع «نيفسكي» ، إلا أنه حتى هذه اللحظة لم يتم عمل أي شيء . لعب الدور الأكبر في الإكتتاب الثريّ الكريم «محمد عليم مقصود أفندي» المعروف عنه التقوى ونكران الذات وأيضاً مشهور بأخلاقه العالية والمثالية» (ص ٥٠ - ٥١) .

فيما بعد انتقل «محمد طلعت» إلى وصف الحالة الاقتصادية في روسيا ، وكتب : «إن إقتصاد البلاد في حالة تنمية مستدامة ولا يتخلف عن إقتصاديات باقي البلاد الأوروبية الأخرى إن لم يكن يتفوق عليها» . (ص ٥١) . فهنا العديد من الصناعات متطورة ، وهنا يتم بالفعل إنتاج كل الذي تنتجه أوروبا ، وكثير من المصانع والمعامل ، كما أن صناعة الأخشاب متطورة جداً . وفي منطقة الأورال يتم استخراج الذهب الأبيض - البلاتين (ص ٥٢) .

أما بالنسبة لقطاع الزراعة ، فهو مخصص بشكل أساسي لإنتاج القمح . وهذا يتناسب مع المناخ وخصائص التربة الروسية . وأشار المؤلف إلى أنه يتم زراعة الكرنب أو الملفوف ، والذي يدخل ضمن التكوين الأساسي لتحضير الحساء الروسي الشهير (بورش) ، وبالنسبة للأحوال الزراعية فلا تختلف كثيراً عما يوجد عندنا في صعيد مصر ، حيث ينتظر الفلاحون ذوبان الجليد ، وانحسار المياه ، وبعد ذلك يقومون ببذر البذور في الأرض . وإلى جانب القطاع الزراعي فإن الصناعات التحويلية متطورة جداً . يقوم النساء والأطفال بالمشاركة في جمع محاصيل الفاكهة من التفاح والكمثرى إلخ داخل صناديق ، هذه الصناديق تشبه تلك التي تستخدمها الشركات الأجنبية وتجار الفاكهة في مصر (ص ٥٢) .

ينتقل بنا الكاتب للحديث عن مشكلة التعليم، فيكتب «طلعت»: «لديهم جميع أنواع المدارس الخاصة، ماعدا المؤسسات التعليمية العلمية والدينية، فهي تتبع الحكومة. وفي كل مدرسة سواء كانت حكومية أو خاصة يرتدى التلاميذ زياً خاصاً بهم. هذا الزي يشمل: الحرفيين من التريزية والحدادين وسائقي المركبات. ويتميز الزي برموز تميزهم بطراز معين وهو يتميز أيضاً بالأناقة. وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن يسمح لطلاب المرحلة الابتدائية والثانوية بارتداء الأماكن العامة- المقاهي إلى آخره، في حين كان لطلاب المرحلة الجامعية الحق في ذلك. وعلى النقيض من ذلك ففي مصر تعج أماكن اللهو والفجور بطلاب المدارس الحكومية و الخاصة على السواء» (ص ٥٢).

كان لدى مسلمي سانت بطرسبورج «مدارس ابتدائية بسيطة»، أو كتاتيب لا تخضع لرقابة الحكومة، وعدد قليل من هذه الكتاتيب، كان يديرها أناس معروفين ومتعلمين. وكانت تعتمد في تواجدها على التبرعات الخيرية (ص ٥٤). وكانت لدى المسلمين إمكانية بناء مدرسة كبيرة في العاصمة، إلا أنه كانت تواجههم بعض الصعوبات. يرى «محمد طلعت» أن الحكومة الروسية تختلف عن الحكومة الفرنسية التي أنشأت المدرسة الصناعية في تونس بأموال أوقاف مدرسة «الصادقية»، والتي إستحوذ عليها فيما بعد مواطنون فرنسيون. ولم تعد أعداد الدارسين المسلمين داخل هذه المدرسة ستة أشخاص، ذلك لأن فرنسا إعتبرت أن التعليم يفسد أخلاق المسلمين (نفس الصفحة السابقة). علاوة على ذلك تساوى السلطات الروسية بين جميع رعاياها في الحقوق. حيث يتم قبول الفتيان والفتيات المسلمين في المدارس الثانوية الحكومية، ويدرسون كذلك في مؤسسات التعليم العالي مع الشباب والشابات الروس. ويحدث نفس الشيء في المدارس العسكرية، والتي بعد التخرج فيها يترقى عدد كبير من خريجي هذه المدارس من المسلمين حتى رتبة أدميرال. غير أن الحكومة الروسية أرادت أن تجعل الدراسة داخل المدارس الإسلامية باللغة الروسية، ولكن عند تدريس واستخدام اللغة التتارية كان يتم اللجوء إلى الأبجدية الروسية.

أشار المؤلف إلى أن أوضاع التعليم لدى مسلمي روسيا تتحسن بشكل مطرد يشبه سرعة السيل العارم، وليس فقط بين الطبقات الغنية، وإنما الفقيرة أيضاً. كان بداخل كل قرية كتاب لتدريس القرآن الكريم، ولا يتقاضى المعلمون أي رسوم من الطلاب، اللهم سوى بعض الحزم من الحطب، التي كانوا يستخدمونها كوقود للتدفئة، حيث المناخ في روسيا شديد القسوة، لدرجة قد تصل فيها درجة الحرارة إلى ٣٠ درجة تحت الصفر، وفي

أغلب الأحوال تتراوح ما بين ٢٥-٢٠ درجة. ويذكرنا التساقط المستمر للثلوج بندف القطن المتناثر.

وفقاً لما أشار إليه المؤلف، كان الأغنياء يشيدون داخل كل حي من الأحياء السكنية كُتاب أو عدداً من الكتاتيب. وقد أسس أحد أغنياء «باكو» مائة كُتاب على نفقته الخاصة. وكان الأثرياء يقدمون المساعدة للفقراء ويكونون مشاعر الاحترام للعلماء كما كانوا يظهرون تعاطفاً كبيراً نحو العرب أيضاً.

أشار «محمد طلعت» إلى أن أوضاع المسلمين الروس بشكل عام، أفضل بكثير من أوضاع إخوانهم في بقية بلدان العالم، إذ أنهم من وجهة النظر الحضارية في تقدم مستمر. قام أحد المسلمين الذي يمتلك ثروة طائلة بافتتاح أحد الكتاتيب في مدينة «هاربين» بالصين، ومن وجهة نظر المؤلف فإنه نجح بدون شك في نشر الإسلام في الصين في نطاق المسلمين الروس (ص ٥٦).

أذهلت مدينة سانت بطرسبورج المؤلف بحركة مرورها المنتظمة. ويشير الرحالة إلى أنه مما يثير العجب التام، أن الشارع في العاصمة الروسية ينقسم إلى عدة خطوط، حيث هناك جزء للمشاة وآخر للعربات، والثالث للترام، أما الرابع فمخصص للنزمة. وكقاعدة أساسية يوجد في مفترق الطرق حدائق عامة، يتوسطها تماثيل الأدباء والقادة العسكريين والعلماء والسياسيين والقيصرة. ويعد شارع «نيفسكى» أحد أهم شوارع المدينة والذي يمتد من الشرق إلى الغرب بمساحة ٥ كيلومتر. ويقع على جانبه الفنادق والمسارح والمتاحف والكنائس، والمحلات التي تمتليء بالبضائع المتنوعة (ص ٥٧).

يعد الترام الكهربائي، من وجهة نظر «محمد طلعت» أحد الأعاجيب بحيث يسير على الثلوج المتجمدة طوال فصل الشتاء من العاصمة لإحدى القرى التي تسمى «الجانب البطرسيورجى». ويبلغ إرتفاع الثلوج نحو ثلاثة أمتار، ويبدأ الروس في تكسيه بحلول شهر مايو ثم يأخذون كتلاً ضخمة منه، ويدخرونها في أقبية تحت الأرض لاستخدامها أثناء فصل الصيف. ويبدأ فصل الصيف عندهم في شهر مايو، وينتهي في شهر سبتمبر (ص ٥٧).

كان من المدهش بالنسبة للمؤلف أن الجسور الممتدة على نهر النيفا وقنواته تقدر أعدادها بـ ١٥٠ جسر. وتبلغ مساحة بحيرة «لادوجا» ١٨٠٠٠ كيلومتر مربع، ويبلغ طولها ٢٠٠ كيلومتر، وعرضها ١٥٨ كيلومتر. ويذهب الناس إلى هناك للاستجمام عبر قوارب

صغيرة للنزعة . فالمسافة إلى هناك تستغرق خمس محطات بالقطار ، و٢١ محطة بالترام (ص ٥٧) .

أدهشت الرحالة «محمد طلعت» الخدمة التي يحظى بها عليية القوم ، وخاصة أسرة القيصر : إذ أن سائقى سياراتهم، وسائقي عربات الخيل ، يرتدون ملابس مصنوعة من الديباج ومزركشة بشرائط من القصب . كما يرتدى الضباط ملابس فاخرة ويحملون أسلحة متنوعة (ص ٥٨) .

كتب طلعت إن كل كنيسة في روسيا ترتبط بحدث تاريخي . فيوجد في روسيا تقاليد خاصة : إذ أنه كان يتم تشييد كنيسة على شرف كل معركة تاريخية هامة ، خاصة تلك المعارك التي حققوا فيها نصراً مبيناً ، وكان يتم الاحتفاظ داخل هذه الكنيسة بالغنائم التي غنموها أثناء المعركة . وتوجد في سانت بطرسبورج كنيسة نصبت أمامها المدافع العثمانية (نفس الصفحة السابقة) .

كتب «محمد طلعت» معدداً المعالم السياحية للمدينة : «كان الجسر المصري الذي شيده» «بطرس الأول» ويمتد عبر نهر النيفا أحد أعاجيب مدينة سانت بطرسبورج ، ويشير إلى سعيه إلى احتلال مصرنا الحبيبة (ص ٥٩) .

هذا الإدعاء يعد من السخافة ، ذلك لأن الجسر تم بناؤه بعد مائة عام من وفاة «بطرس الأكبر» في عام ١٨٢٦ ، ولم يتم تشييده على نهر النيفا ، ولكن شيد على نهر فونتانكا . ومن الجائز أن ما سمعه المؤلف في وقت ما حول عملية الإنزال التي قامت بها القوات الروسية في إسطنبول عام ١٨٢٣ ، والتي كانت تهدف إلى منع استيلاء القوات المصرية على عاصمة الإمبراطورية العثمانية قد انعكست في شكل بديع .

من بين العادات الروسية التي ذكرها «محمد طلعت» شغف الشعب الروسي بشرب الشاي فهم يشترونه من المتاجر والمحلات المتعددة ، حيث تعمل السيدات في تلك الأماكن كبائعات ، ولكن من يقوم على خدمة المشترين داخل حانات الخمرهم الرجال والشباب فقط . وتفتح المتاجر أبوابها من الحادية عشر صباحاً ، وتظل تعمل حتى الثانية ليلاً . وتغلق جميع الحوانيت أبوابها في يوم الأحد ، فيما عدا تلك المحال التي تقوم ببيع المواد الغذائية ، فهي تفتح أبوابها بعد الظهر .

وطبقاً لما قاله المؤلف فإن مكتبة القيصر ، المخصص لها مبنى رسمي فسيح ودقيق تنتزع الإعجاب (ص ٥٩) . حيث تضم المكتبة ما يقرب من ١٧٠٠ ألف مجلد ، و٤٠ ألف مخطوطة ، و٨٠ ألف رسمة . وكتب المؤلف : « لقد حظيت بزيارة المكتبة بصحبة « عبد الرشيد أفندي إبراهيم» ، وعثرت بها على نسخة من القرآن الكريم ، والتي يقال عنها إنها نسخة من مصحف عثمان» (ص ٦٠) .

يكتب المؤلف لاحقاً أن المتحف الشهير ، الذي يضم معروضات من مختلف العصور، يعد أيضاً من معالم العاصمة . ويوجد داخل أروقة هذا المتحف ، وتحديدأ في الطابق الثاني معرض لوحات رسمها أشهر الفنانين تصور المعارك الحربية ، ومشاهير الناس من القادة والشعراء والكتاب والقيصرة والملوك من مختلف الأحقاب . وهناك بعض اللوحات تمثل « نابليون بوناپرت» ، وحريق موسكو ، كما أن هناك أيضاً لوحات تصور موضوعات دينية (ص ٦٠) . وفي قاعات المتحف ، يمكن أن تشاهد الرسامين المبتدئين من الشباب والفتيات ، الذين يقومون بمحاكاة اللوحات الأصلية (ص ٦١) .

من الأمور اللافتة للنظر بالنسبة للمؤلف ، نشاط الجمعية الخيرية ، التي افتتحت مطاعم مجانية للفقراء ، أي لأولئك الذين يحملون شهادة تفيد بأنهم فقراء ، وكان سعر طبق الحساء لا يتجاوز ثلاثة كوبيكات .

كانت انطباعات «محمد طلعت» كثيرة ومتعددة الواحدة تلو الأخرى . وكثيراً ما أوردتها المؤلف داخل الكتاب بدون ترتيب . ذكر المؤلف أن بيوت الدعارة لا يتواجد بها أي سيدة مسلمة غير أنه ذات مرة أشيع عن أن هناك مجموعة من الفتيات المسلمات تتزعمهن سيدة أجنبية ، يسعين إلى العمل داخل أحد بيوت الدعارة ، فقام رئيس الطائفة التتارية فور علمه بذلك بمخاطبة السلطات مطالباً بترحيلهم خارج العاصمة ، وقد استجابت السلطات لطلبه (ص ٦١) . طبقاً للملاحظات المؤلف ، كان يتعين على كل من كان ينوي بناء منزل ، تخصيص جزء منه للمرافق العامة ، وفقاً للقوانين المحلية (ص ٦١) . لذلك لا توجد مراحيض عامة تابعة للسلطات المحلية في سانت بطرسبورج (ص ٦٢) .

لفت انتباه «محمد طلعت» حقيقة، أن السلطات كانت تصدر نشرة عن سكان المدينة، بغض النظر عن العمر والنوع كل ستة أشهر. ولأجل هذا الغرض، تم تعيين محاسبين متخصصين يقومون برصد المتغيرات في هذا الشأن. وأشار المؤلف أنه: «إذا كنت أحد القادمين إلى مدينة سانت بطرسبورج، وتريد الاستفسار عن شخص ما فكل ما عليك فعله، هو أن تتوجه بطلب إلى هيئة البريد بقيمة ثلاثة كوبيك، وهى بدورها سوف ترسل إليك العنوان المطلوب. وكان كل بواب في كل منزل يتسلم كتيب من المحافظة لتسجيل بيانات المستأجرين الجدد. وكانت المنازل تُشيد على هيئة مربع، يتوسطه فناء واسع، وكل منزل له مداخل ومخارج على كلا الجانبين. وعند سقيفة الباب في الخارج كان يجلس حارس يرتدى زى خاص ومعه خادم نطلق عليه نحن اسم «بواب». وكان من مهام الحارس إخبار البواب بما يحدث داخل المنزل، وتسلم المراسلات من ساعى البريد وتسليمها لأهل المنزل (ص ٦٢). وبهذا استغنت السلطات عن الحراسة الليلية واقتصرت بالطواف حول المدينة بالخيالة في أوقات الليل» (ص ٦٣).

ومن الطريف من وجهة نظر المؤلف، أنه كان يتم بناء على أوامر من الحكومة طباعة خريطة بألوان متعددة وزاهية وموضح عليها جميع المتاجر الحكومية والقنصليات الأجنبية أيضاً والمدارس والجمعيات الخيرية والعيادات والمستشفيات ومراكز الإطفاء، ومرفق بالخريطة دفتر صغير، يحتوى على دليل لأماكن أقسام الشرطة والسكان وتباع الخريطة والكتيب بعشرة كوبيك (ص ٦٣).

يشير «محمد طلعت» إلى أن مدينة سانت بطرسبورج تخلو من العرب، فيما عدا «أنطون خشاب» الذي يتحدث اللغات: العربية والفرنسية والفارسية والتركية، أشتهر بالتواضع والتقوى. تلقى تعليمه في مرحلة الطفولة بالمدارس الروسية (ص ٦٤)، وأصبح فيما بعد موظفاً داخل أحد البنوك الروسية، ثم سافر للعمل في إيران حيث درس هناك اللغة الفارسية ثم عاد إلى روسيا بعد عدة سنوات. ويحكى الكاتب أنه: «ترك روسيا في مايو ١٩٠٧، عشية تعيينه بمنصب مرموق داخل وزارة الخارجية الروسية ويقول المؤلف إن: «أنطون أفندي» متزوج من سيدة روسية فاضلة في جميع النواحي، والتي تعد معجزة حقيقية. وقد بذل ما في وسعهما لأجلي، وحتى الآن، أكن لهما كل الامتنان والتقدير» (ص ٦٥).

كما اعتبر «محمد طلعت» أن ظهور أية شائعات سيئة تحاول النيل من سمعة روسيا وهيبته، لا أساس لها من الصحة. لكن من الجائز أن سبب ظهور هذه الأقاويل من وقت لآخر يمكن أن يعود إلى ما كانت تقوم بها المنظمة الثورية من أنشطة، والتي تذكرنا بشباب الأتراك حيث تقوم هذه المنظمة باغتيال ممثلى السلطة وتفجير المباني الحكومية بهدف إسقاط النظام القائم في البلاد. ومن وجهة نظر المؤلف أنه لم تكن هناك أية مشاكل معلقة بين الحكومة وباقي الأمة، سوى تقسيم الأراضي التي كانت جميعها ملك للأسرة الحاكمة، وكبار ملاك الأراضي والذي يطلق عليهم باللغة الروسية «ملاك». كل شيء في روسيا فيما عدا الشأن الزراعي، في مستوى البلدان المتحضرة (ص ٦٥). كما يضيف المؤلف إحدى ملاحظاته حول وحدة قياس الأراضي الزراعية ويذكر أن الأراضي في وطنه تقاس بـ «الفدان» ولكن في روسيا تقاس بوحدة قياس تسمى «ديسياتينا»، والتي تعادل نصف فدان (ص ٦٦).

يتذكر «محمد طلعت» أنه في الثاني من مارس ١٩٠٧ كان حاضراً عند افتتاح الدوما الثاني، وكانت تتعالى صيحات الفلاحين وهم ينادون «الأرض، الأرض!». ويشير المؤلف أن أعداد تمثيل المسلمين داخل الدوما كانت قليلة، بالمقارنة بتمثيل باقي الديانات، كما يضيف أن المسلمين كانوا يميلون إلى العزلة ولا يميلون إلى الانضمام إلى أي حزب سياسي (ص ٦٦).

ثم يختتم «محمد طلعت» حديثه عن المسلمين والأحزاب داخل روسيا بالشكل الآتي: «أنه بلا أدنى شك وعلى الرغم من اختلاف المسلمين في الرأي مما يضعف صوتهم داخل الدوما فإنهم أحسن حالاً من المسلمين داخل مصر حيث ظهرت الحكومة في حالة عجز كامل. وصارت الأمور على نحو مزمز مما أدى إلى شعورنا بفقدان الأمل في مستقبل أفضل» (ص ٦٩) وتقف البلدان الأوروبية جميعها والاحتلال البريطاني على وجه الخصوص بشدة ضد عدم حصولنا على كامل سلطاتنا الدستورية كسائر البلدان المستقلة المتحضرة. ولو أن السلطة الدستورية كانت بأيدينا - حسب قول المؤلف - لتمكنا من السيطرة على الأمور المالية والمؤسسات التعليمية والجيش. أما ما يخص الشؤون المالية فإن الذين أغرقوا البلاد في الديون لا يسمحون لنا بالسيطرة عليها وكذلك مساعدة الدول الأوروبية لهؤلاء الدائنين. وفيما يخص أمور الجيش والتعليم فإن الحديث لا يدور عن الدول الأوروبية، ولكن عن إنجلترا فقط بسبب طموحات بعض السياسيين (ص ٦٩ - ٧٠).

غادر المؤلف سانت بطرسبورج في مايو ١٩٠٧ ، فور علمه من أهل الثقة وأخوة الإيمان عن اعتزام الحكومة إغلاق الصحيفة العربية «التلميذ» ، والتركية «الفتح» وكان السبب الثانى لمغادرته هو تأخر صرف راتبه والذي حصل على جزء منه بصعوبة بالغة بمساعدة «عطا الله أفندى» مالك صحيفة «النور» ، ومعلم المدرسة الإمبراطورية للغات الشرقية «محمد صفا أفندى» (ص ٧٩ - ٨٠) .

على الرغم من صغر حجم كتاب «محمد طلعت» ، إلا أنه يضم معلومات متنوعة ومختلفة عن روسيا . ما رأى محمد طلعت في روسيا سيمثل للإنسان المصري شيئاً عجيبا وغريباً مثلما هى مصر ، موطنه أعجوبة بالنسبة للإنسان الروسي . ومن الجدير بالذكر ، أن روسيا تركت إنطباعاتاً جيداً لدى «طلعت» ، وكتب عن الشعب الروسي بمنتهى التعاطف هذا ويعد كتاب «السير والنظر» ، قد ساهم بقدر كبير في ترك بصمة إيجابية حول روسيا والشعب الروسي لدى المصريين .

لم يكن دبلوماسياً فحسب ...

مرور ١٥٨ عاماً على ميلاد أليكسي ألكسندروفيتش سميرنوف



الدبلوماسي الروسي الشهير أليكسي
ألكسندروفيتش سميرنوف

بحلول عام ٢٠١٦ يكون قد مر ١٥٩ عاماً على ميلاد الدبلوماسي الروسي البارز أليكسي ألكسندروفيتش سميرنوف السياسي والأديب وأحد أبرز الشخصيات المثقفة في عصره ، ولكن للأسف الشديد ظل اسمه طي النسيان لمدة ٧٥ عاماً .

«Arrive hier, ai pris direction agence»

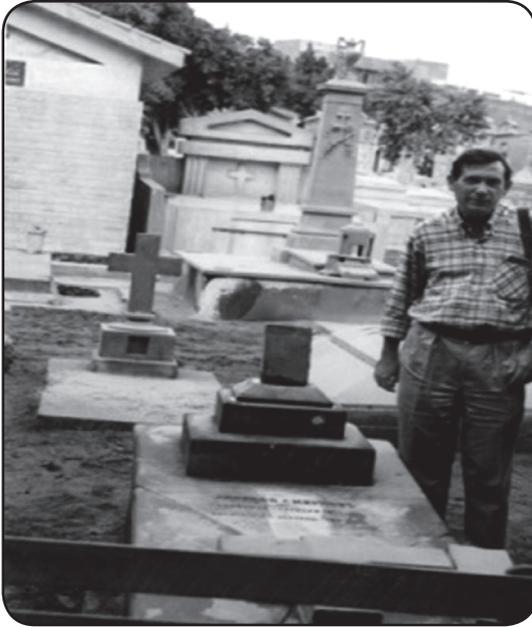
diplomatique» (وصل بالأمس ، وتولى إدارة

البعثة الدبلوماسية)^{٥٣٦} هكذا صدر أول خبر عن أ.أ. سميرنوف من القاهرة في الرابع والعشرين من أبريل

١٩٠٥ . ومنذ ذلك التاريخ أقام المبعوث الدبلوماسي الروسي والقنصل العام عشرين عاماً في وادي النيل .

تعرفت على اسم أ.أ. سميرنوف لأول مرة منذ حوالي ثلث قرن مضى ، من خلال الوثائق الخاصة بأرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية . وقد ألقت المواد الأرشيفية التي تم العثور عليها هناك والخاصة بهجرة الروس البيض ، الضوء على هذه الشخصية الدرامية من الروس المقيمين في الخارج ، والثقافة الروسية بوجه عام وعلمت من نسخة وصية أ.أ. سميرنوف أن القنصل الروسي توفي ودفن بالقاهرة في مقابر الأرتوذوكس بالقاهرة في فبراير ١٩٢٤ م .

٥٣٦ عن مقالة : Он был не только дипломатом. К 157-летию со дня рождения А. А. Смирнова ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Goriachkin Gennady .
أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ١٥١ ، «الأرشيف السياسي» ، حافظة رقم ٤٨٢ ، وثيقة ٨٥٤ ، عام ١٩٠٥ ، السطر رقم ١٣ .



فلاديمير بيلياكوف بجوار قبر سميرنوف بمقابر الكنيسة اليونانية بمصر القديمة ، أنتقطت بواسطة جينادى جورياتشكين

حاولت أكثر من مرة ،
عندما كنت أتواجد بالقاهرة
في المؤتمرات العلمية ، والندوات
السياسية والاجتماعية ، ورحلات
العمل أن أجد مقبرة الدبلوماسي ،
واستطعت في النهاية العثور على
تلك المقبرة في الرابع من يناير
١٩٩٩ ، أي بعد مرور ٧٥ عاماً على
وفاته توجد مقبرة أ.أ. سميرنوف
بالقرب من مقابر اليونانيين
المصريين الأثرياء ، بجوار مقبرة
الكنيسة ، التابعة لدير القديس
جيورجى . وهناك توجد أيضاً
مقابر الروس الذين تم دفنهم في
الفترة الممتدة من العشرينيات إلى
الستينيات من القرن العشرين في
الموجة الأولى من الهجرة الروسية ،
والكنيسة التي أقيمت على «المقبرة الروسية» .

في أحد المرات التي تفصل بين تلك المقابر اقتربت من شاهد مقبرة صغير ، ووجدت في
المنتصف صليباً حجرياً ملقى على الأرض . وتوقعت أن أرى كما على أغلب المقابر الأخرى
اسماً يونانياً ، ولكن فجأة عثرت على مقطع « نوف » شعرت ببعض القلق ، وأزلت بيدي
التراب ليظهر تاريخ معروف لى وهو عام «١٨٥٧» . خفق قلبي بقوة ، وقمت بإزالة طبقة أخرى
من التراب من الجانب الآخر للصليب ، لأكتشف وجود اسم « أليكسي » وأسفله كلمتي
« ولد » و « مات » . ناديت على زملائى المتواجدين هناك بصوت متهدج من الإثارة ، وقمنا
برفع الصليب من على الأرض ، ورأينا المكتوب عليه « أليكسي سميرنوف ... ولد في ١٤
سبتمبر ١٨٥٧ توفي في ٥ فبراير ١٩٢٤ » .

ولد أ.أ. سميرنوف في الطاي . في عام ١٨٦٩ انتقلت أسرته للعيش في سانت بطرسبورج. وبعد أن أنهى دراسته في قسم اللغات « العربية، الفارسية، التركية، التتارية» بالكلية الشرقية بجامعة العاصمة، تم تعيينه موظفاً في وزارة الخارجية في الثامن والعشرين من أكتوبر ١٨٨١. وذلك بعد أن أنهى دراسته في قسم اللغات « العربية، الفارسية، التركية، التتارية» بالكلية الشرقية بجامعة العاصمة. وتزامن تعيين سميرنوف في وزارة الخارجية مع تفاقم الوضع السياسي في الدول العربية بأفريقيا، حيث قامت فرنسا باحتلال تونس وحولتها إلى مستعمرة، واندلاع ثورة عرابي باشا المناهضة للتدخل الأجنبي في مصر، والتي إنتهت بالاحتلال الإنجليزي للبلاد. ويمكن التأكيد هنا على أن الدبلوماسية الشاب سميرنوف كان على دراية كاملة بمشاكل الولاية العثمانية الكبرى، نظراً لأنه كان مشمولاً في ذلك الوقت باهتمام شديد من الدوائر الاجتماعية والدبلوماسية في روسيا.

في فبراير عام ١٨٨٥ تم تعيين سميرنوف مساعد سكرتير سفارة الإمبراطورية الروسية في القسطنطينية، وخدم هناك حتى وصل إلى وظيفة سكرتير ثان في عام ١٨٩١. ظل الدبلوماسي سميرنوف يعمل في عاصمة الإمبراطورية العثمانية قرابة عشر سنوات. وفي مارس عام ١٨٩٧ انتقل للعمل كسكرتير أول للبعثة الدبلوماسية الروسية باليونان، التي كانت في حالة حرب مع تركيا في ذلك الوقت. وتكريماً له على خدمته لسنوات عديدة، والخدمات الخاصة للعرش القيصر صدر مرسوم من القيصر في السادس من ديسمبر ١٩٠٢ بمنح أ.أ. سميرنوف لقباً فخرياً وهو ياور البلاط الإمبراطوري. وفي عام ١٩٠٣ حصل على لقب المستشار الفعلي للدولة.

بعد أن سطع نجم سميرنوف كعالم وخبير بالقضايا العربية والإسلامية، وكممثّل لروسيا ذو تعليم راق وسياسي واسع المعرفة، تم اختياره في عام ١٩٠٨ عميداً للسلك الدبلوماسي بالقاهرة، وظل على تلك الصفة حتى عام ١٩٢٣.

أدركت حكومة الإمبراطورية الروسية أهمية مصر البالغة كدولة إقليمية هامة بالمنطقة، فعملت على تحسين مكانة البعثة الدبلوماسية الروسية بتعيين أ.أ. سميرنوف مبعوثاً غير عادي، ووزيراً مفوضاً في الخامس من أغسطس ١٩١١.

نعود الآن ، إلى بداية إنخراط أ.أ. سميرنوف في العمل الدبلوماسي بالقاهرة . عقب وصول ياور البلاط الإمبراطوري إلى مقر عملة ، سرعان ما انخرط في الحياة السياسية العاصفة بمصر . وكان قد ترأس البعثة الدبلوماسية للإمبراطورية الروسية بعد هزيمتها في الحرب الروسية اليابانية . قامت حكومة روسيا القيصرية وبشكل عاجل ، بنقل الأسطول البحري إلى منطقة الشرق الأدنى ، بالإضافة إلى تبديل جزء من وحدات القوات البرية المتمركزة هناك بوحدات جديدة عن طريق قناة السويس ، إلا أنه وفقاً لمعاهدة القسطنطينية المبرمة في عام ١٨٨٨ ، كان مرور البوارج العسكرية للأطراف المتحاربة عبر مياه قناة السويس أمراً صعباً . في ظل تلك الأجواء تطلبت المشاكل الصعبة الناشئة من القنصل العام الروسي بذل أقصى درجات النشاط والتكتيك . فقد تسبب الإنجليز الذين كانوا يسيطرون على حكم مصر ، في خلق العديد من المشكلات ، فلم يبارحهم الأمل في السيطرة على ذلك الشريان المائي^{٥٣٧} . كانت حكومة الإمبراطورية الروسية تدرك ذلك ، فأخذت تقاوم المخططات الإنجليزية بقوة ، واعتبرت هذه المسألة واحدة من أهم أولويات مهام المبعوث الدبلوماسي الروسي في وادي النيل .

وهناك معلومات تفيد بأنه بفضل مساعدة أ.أ. سميرنوف استطاعت سبعون سفينة ركاب روسية ، تحمل ١٢٣ ألف من حاملي الرتب الدنيا أن تعبر مياه قناة السويس إلى مياه البحر الأسود في النصف الأول من عام ١٩٠٦ . وقد ذكر المقدم ف.أ. أرتامانوف بهيئة الأركان العامة تلك المساعدة المهمة ، والصعبة ، والدقيقة جداً في التقرير المرسل للمبعوث في الثاني والعشرين من يونيو عام ١٩٠٦ . وقد جاء في التقرير «بعد أن أنهيت مهمتي في مصر، أرى أنه من واجبي الأخلاقي أن أعلم سيادتكم عن المساعدة الهائلة التي تم تقديمها بشأن الإجراء من جانب قنصليات السويس وبورسعيد»^{٥٣٨} .

٥٣٧ المرجع السابق ، وثيقة رقم ٢٤١٠ ، «إعادة النظر في إتفاق القسطنطينية وتحييد قناة السويس ١٩٠٤-١٩٠٨» السطر الخامس .

٥٣٨ المرجع السابق ، ملف ٣١٧ «الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة في مصر» ، حافظة ١١٨٢١ ، وثيقة ١٥٢ ، السطر ١٦٠-١٦٣ ، أنظر : كذلك المرجع السابق ، وثيقة ٤٩٩ من ١٩٠٤-١٩٠٥ «عبور سرب السفن عبر قناة السويس» ، أنظر : أيضاً المرجع السابق ، وثيقة رقم ٥٠٥ لعام ١٩٠٥ «عودة الروس من ميناء آرثر ، عودة الأسرى من اليابان ، عودة القوات من الشرق الأقصى» .

في ذلك الوقت ، صعبت الدوائر الإسلامية في مصر ، التي كانت ترنو ببصرها نحو «تركيا الفتاة أو الأتراك الشباب» ، من مهمة القنصل العام الروسي في مصر . فقد رحبوا كثيراً بانتصار اليابان على اعتبار أنه انتصار لقوى الشرق المستعبد على الغرب ، على الرغم من أنه كان واضحاً أن الصراع في هذه الحرب الشرسة كان بين اثنين من الدول الإمبريالية وهما روسيا واليابان . لم تكن المشاعر المعادية للروس في مصر تحمل طابعاً جماهيرياً ، لكنها جلبت الكثير من المتاعب مستقبلاً للمبعوث أثناء الحرب العالمية الأولى ، عندما ازدادت الدعاية المؤيدة لتركيا في البلاد .

زاد من صعوبة عمل أ.أ. سميرنوف في القاهرة سطوع نجم حركة التحرير المصرية ، التي كانت تتبنى توجهاً عدائياً ضد البريطانيين ، وإنما لكل ما هو أجنبي بوجه عام . فقد كتب القنصل العام في نهاية أول عام من إقامته بالقاهرة ، في تقريره بتاريخ الثامن عشر من شهر أبريل لعام ١٩٠٦ والذي أرسله إلى وزارة الخارجية : «إن حالة الغليان التي تشهدها مصر الآن بين سكانها من المسلمين ، على النقيض من عام ١٨٨١ ، تحمل طابع الوحدة الإسلامية ، وبعيدة عن أي طموحات عربية قومية . ويُعد من أبرز قادة تلك الحركة مصطفى كامل ، وهو شخص موهوب ، ولكنه كاتب متعصب ، يثير الشعب ضد الأوروبيين بوجه عام والإنجليز بشكل خاص ، ولكنه لا يملك تأثيراً قوياً على الطبقة الإسلامية المتعلمة ، والمرفهة ، والتي إستوعبت مزايا الحضارة مع الوعي بأن الرخاء والغنى لن تحققهما الدولة إلا بإشراف الأوروبيين . بيد أن أفكار مصطفى كامل والأفكار التي على شاكلتها ، حظيت بانتشاراً ملحوظاً عند عموم الشعب البسيط وخاصة بين رجال الدين ، والشيوخ ، والشباب العربي الدارس في مصر»^{٥٢٩} .

ونظراً لعدم معرفة أ.أ. سميرنوف غير الكافية بالحياة المصرية ، فقد وصل لاستنتاج ظاهري بغياب الروح القومية العربية في التظاهرات الشعبية في الفترة ما بين عامي ١٩٠٥-١٩٠٦ ، ولم يذكر موجات النضال الاجتماعي الذي من وجهة نظره تحدث على أساس الوحدة الإسلامية ، والتبعية الوثيقة بالقسطنطينية . ومع ذلك فقد سلم بأن حالة الفوران هذه ربما تتجمد بالتدريج أو ستؤدي إلى قلاقل غير مؤثرة هنا أو هناك ، ولكن من الممكن

٥٣٩ المرجع السابق ، ملف رقم ١٥١ ، حافظة رقم ٤٨٢ ، وثيقة رقم ٨٥٦ ، السطر رقم ٤٠ .

أيضا تحت تأثير ظروف خارجة عن السيطرة تماماً، فإنها ستثير فجأة موجة عاتية من الغضب الشعبي والتعصب»^{٥٠}.

بالفعل وقعت حادثة دنشواي بعد أقل من شهرين، إذ قامت مجموعة من الضباط الإنجليز في الثالث عشر من يونيو عام ١٩٠٦ أثناء اصطياذ الحمام بالقرب من قرية دنشواي بمحافظة المنوفية بإصابة زوجة إمام مسجد تلك القرية، فقام الفلاحون على الفور برشق الإنجليز بالحجارة والعصي، مما أدى إلى وفاة أحد الضباط الإنجليز، وتم توجيه التهمة للفلاحين بقتل الضابط الإنجليزي. وقضت المحكمة آنذاك بالحكم على أربعة من فلاحي دنشواي بالإعدام شنقاً، والحكم على إثني عشرة آخرين بعقوبة الحبس لفترات متباينة، والحكم على ثمانية أفراد بالعقاب البدني. أثارت الأحكام الصادرة على فلاحي دنشواي حملة احتجاج عاصفة بين كافة أطراف المجتمع، والتي أدت إلى مظاهرات أخرى مناهضة للبريطانيين، وهو ما سبق أن تنبأ به المبعوث الليبرالي. وقد عجلت هذه المظاهرات بشكل ملحوظ على إنخراطه ودخوله حلبة الأحداث المصرية.

يظهر تحليل البرقيات والتقارير اللاحقة التي كان يرسلها أ.أ. سميرنوف أنه بدأ شهراً بعد شهر وعاما بعد عام، يتعمق أكثر في جوهر الأحداث التي شهدتها بلاد الأهرامات. وقام في غضون عام أو عامين بإرسال مذكرات وتقارير تحليلية رائعة تصف الحالة الاجتماعية والدينية والسياسية لمصر، وكذلك الوضع الدولي المرتبط بمصر. ومن العجيب أن أشد أعداء المبعوث أ.أ. سميرنوف أثناء قيامه بتنفيذ مهامه الوظيفية كانوا من الروس. وحقائق الأمر أنه نظراً لظروف مصر السياسية والجغرافية الملائمة، فقد وجد ممثلو حركات المعارضة الروسية التربة الخصبة لممارسة نشاطهم الثوري^{٥١}. وتزامن نشاط تلك الحركات الثورية مع وصول سميرنوف إلى مصر. وكان يناير عام ١٩٠٧ أصعب فترة مرت عليه، عندما اصطدم في القاهرة، والإسكندرية بصفة خاصة بمقاومة عنيفة من جانب مجتمع دولي قوى ومنظم لاعتقال وطرد ثلاثة من الثوار الروس. جاء في البرقية المشفرة التي أرسلها سميرنوف إلى وزير الخارجية السوفيتي أ.ب. إيزفولسكي من السابع إلى العشرين من شهر يناير عام ١٩٠٧ أنه: «منذ ما يقرب من أسبوع قامت الشرطة بالإسكندرية بإلقاء القبض على اثنين من اليهود و مواطن جورجي بتهمة الشروع في تفجير باخرة روسية (تابعة لهيئة الملاحة والتجارة الروسية - المؤلف) وقد أكد التحقيق الذي أجراه القنصل التابع لنا على

٥٤٠ المرجع السابق، السطر ٣٧-٤٠.

٥٤١ أنظر: جينادي جورياتشكين « الإسكندرية بين مصر وروسيا »، موسكو، ٢٠٠٦، ص

١٦٩: ص ١٧٢.

صحة جنسيتهم الروسية، وأكد شبهة الاتهام الذي يحوم حولهم، إلا أنه عند ترحيلهم إلى روسيا قام اليهود، والماسونيون، والفوضيون الإيطاليون بإثارة اضطرابات، وأعمال شغب في الشوارع بين الأوروبيين بالإسكندرية. واليوم حاول حشد هائل يتألف من ألف شخص اقتحام سفارتنا ونزع العلم المرفوع فوق الأبواب، إلا أنه صدرت الأوامر للشرطة بحماية القنصلية، ووعدهم بأن يرسل قوات إنجليزية في حالة الضرورة القصوى»^{٥٤٢}.

قام المبعوث المهان، الذي كان يؤدي واجبه الوظيفي والوطني، في ظل قنصلية منزوعة الأبواب وعلم داسته أقدام الجماهير أكثر من مرة بتقديم احتجاجات دبلوماسية ملحة للسلطات البريطانية. وفي الثامن من يناير سأله اللورد كرومر ألا يرضيه زيارة وزير الخارجية المصري مع تقديم اعتذار رسمي. بيد أن المبعوث الروسي اعتبر ذلك غير كافياً، وسأل أ.ب. إيزفولسكي: «ألا ينبغي الإصرار على أن يقوم محافظ الإسكندرية بزيارة اعتذارية بالزى الرسمي، وبمرافقة الحرس لكي يرفع العلم الوطني المنزوع مجدداً من قبل السلطات المحلية في إطار رسمي»^{٥٤٣}.

باركت الخارجية الروسية إصرار المبعوث. وعلى الرغم من المسيرات الحاشدة التي كانت تشهدها القاهرة والإسكندرية، إلا أنه في الثالث عشر من يناير تم ترحيل كل من بوتسويف، وبونتمان، وبلوتنيك من ميناء بورسعيد سراً، وفي الخامس عشر من نفس الشهر «قامت السلطات المحلية برفع شعار القنصلية الروسية بالإسكندرية في مكانه السابق»^{٥٤٤}.

أبلغ القنصل أ.م. بيتروف سانت بطرسبورج في أغسطس عام ١٩١٣ أن الوضع أصبح صعباً جداً على الرغم من الإجراءات المضادة التي اتخذتها السلطات القنصلية لدرجة دس جواسيس بين المهاجرين، والحد من نشاط ممثلي التيارات الثورية الروسية، التي باتت جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المصري الأجنبي ذي التوجه اليساري»^{٥٤٥}.

ومع ذلك فقد انتصر سميرنوف في المعركة الكبرى التالية ضدهم، إذ أنه اكتسب الخبرة اللازمة عند «تسجيل» اللجنة النقابية لاتحاد بحارة البحر الأسود التجاريين، والتي ظهرت في الإسكندرية بعد إنكسارها في روسيا في نهاية عام ١٩١٢. قد أوضح المبعوث

- ٥٤٢ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف «القنصلية»، حافظة ٤٧٠، وثيقة رقم ٣، ١٩٠٧، السطر ٤٤-٤٧.
- ٥٤٣ المرجع السابق، السطور ٤٨-٤٩.
- ٥٤٤ المرجع السابق، السطور ٥٠-٥٤.
- ٥٤٥ المرجع السابق، ملف ١٤٩، «المائدة التركية الجديدة» حافظة رقم ٥٠٢٦، وثيقة رقم ٥٣٤١، السطر ١٣٨.

ذلك الحدث في خطابه، المرسل إلى صديقه المقرب وشريكه في الرأي أ. إ. مولتشانوف رئيس المكتب الرئيس لهيئة الملاحة والتجارة الروسية، ورئيس جمعية المسرحيين الروس في السابع والعشرين من أبريل ١٩١٣: «لقد كنتُ بالإسكندرية لليوم الثالث على التوالي لمسألة متعلقة بكم. فقد وصلتني أنباء من وزارة الخارجية، أنه من المتوقع أن تقوم أطقم السفن بإضراب في الأول من مايو، وقد صدرت الأوامر باتخاذ الإجراءات اللازمة. وفي النهاية تقرر اعتقال أداموفيتش القائد الرئيس وهو شخص معروف نسبياً لكم. وذهبت إلى الإسكندرية على الفور، وفي غضون ثلاث ساعات وبعد مباحثات مع الشرطة قمنا باعتقال أداموفيتش الذي كان يعيش تحت اسم مستعار وجواز سفر ألماني، وعثرنا معه على أوراق مهمة ومراسلات بالإضافة إلى ختم الهيئة. وسأقوم بإرسال كافة المتعلقات لكم لقد تم الأمر بنجاح منقطع النظير واستطعنا على نحو ما إرساله إلى روسيا؛ ولكن القنصل يأسف أن المكان المخصص للمعتقلين على سفننا ليس جيداً»^{٥٤٦}.

بدأ أ. أ. سميرنوف عمله بمصر في ظل النهج السياسي الثابت الذي كانت تنتهجه الإمبراطورية الروسية لعشرات السنوات، مع تلك الولاية الكبرى التابعة للدولة العثمانية فمنذ مساندة روسيا للحركة الانفصالية التي قام بها على بك الكبير في ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر، وصدور مرسوم من القيصرية كاترين الثانية لإنشاء أول قنصلية روسية في الإسكندرية في عام ١٧٨٤، كانت روسيا تعمل دائماً على دعم ومساندة مصر في تحقيق طموحها السياسي، الرامي إلى الانفصال عن الباب العالي. وفي هذا الإطار لم يكن لدى الإمبراطورية الروسية أية مخططات إستعمارية لمصر فقد كانت روسيا في حاجة لمصر المحايدة وقناة السويس المحايدة أيضاً، لتسهيل نقل شحناتها ومواطنيها وقواتها إلى أراضي الشرق الأقصى.

اتسمت العلاقات الثنائية بين البلدين بالمساواة والاحترام المتبادل والصداقة، على الرغم من مشاركة القوات المصرية في الحروب التي اندلعت بين روسيا وتركيا حيث كانت القوات المصرية تحارب لصالح الباب العالي. فقد جاء في التعليمات الصادرة من وزارة الخارجية لمستشار الدولة ليكس، أن يعمل قدر طاقته على إضعاف نفوذ إنجلترا التي أصبح لها اليد العليا في مصر. وفي هذا الشأن صدرت له التعليمات بعدم التدخل المباشر في شئون إدارة مصر، ولكن يسعى لنيل نفوذ شخصي لدى الخديوي ووزرائه ويوضح لهم أن حكومة الإمبراطورية الروسية ستظل تتعامل مع مصالح مصر بتعاطف

٥٤٦ الأرشيف التاريخي الحكومي المركزي، ملف ٦٦٨، حافظة رقم ١، وثيقة رقم ١٣٤٥، ١٩١٠-١٩١٥ السطر رقم ١١، ويحفظ في ملف تلك القضية صور من تلك المراسلات وصورة لمكتب أ. أ. سميرنوف بمقر القنصلية العام بالقاهرة في شارع عماد الدين. ولمعرفة مزيد من التفاصيل عن صحيفة «ريجنتراتسيا»، اعتقال ومحاولة هروب م. أداموفيتش من سجن الحضرة بالإسكندرية، أنظر: مقال فلاديمير بيلياكوف «المهاجرون السياسيون الروس في مصر» في مجلة «الأرشيف الشرقي» في العدد المذكور.

شديد ، على الرغم من الأعمال العدائية من جانبهم في الحرب الماضية بين تركيا وروسيا»
جاء ذلك في التقرير المفعم بالولاء لعام ١٨٧٨^{٥٤٧} .

قبل عام من وصول أ.أ. سميرنوف إلى القاهرة ، كان نيكولاي الثاني قد أكد على تطبيق نفس هذا النهج في التعامل مع دولة الأهرامات . فقد جاء في البرقية السرية التي أرسلتها وزارة الخارجية الروسية في الرابع والعشرين من شهر أبريل لعام ١٩٠٤ إلى المبعوث الروسي في برلين أ.أ. أوستين ساكين (وتتضمن جزءاً متعلقاً بمصر) : « ليس لدى روسيا أية مصالح مباشرة في مصر» ، بيد أن نيكولاي الثاني أستخدم قلماً أزرق لتعديل عبارة وزير خارجيته : «فيما عدا الأهمية الدولية لقناة السويس ، تسارسكوي سيلو في ٢٦ أبريل ١٩٠٤»^{٥٤٨} .

لم يبق أمام أ.أ. سميرنوف سوى أن ينفذ تعليمات وزارة الخارجية ، وأوامر القيصر بمنتهى الدقة. وقد ساهم ياور القصر الإمبراطوري بنصيب ملموس في إثراء جوهر وشكل العلاقات المصرية الروسية . وبالفعل فإن عدم تدخل روسيا في الشؤون الداخلية لمصر منذ أمد بعيد ، قد لفت أنظار الحكام المصريين الذين كانوا يعتمدون دائماً على مساعدة وتعاون القناصل الروس ، في ظل الضغوط التي يتعرضون لها من إنجلترا وفرنسا ، ثم من إنجلترا فقط فيما بعد .

إدراكاً لأهمية وجود علاقات جيدة مع قيادة أكبر الولايات العثمانية ، وإستغلال وضعها المزدوج قام المبعوث الروسي بتأسيس علاقات وثيقة جداً مع الخديوي والأمراء . وسعيًا لتوطيد تلك العلاقات اتخذ المبعوث الروسي إجراءات فعالة لتنظيم وتنفيذ رحلات لأفراد عائلة محمد علي إلى روسيا . ويرجع إليه الفضل تحديداً في تنظيم رحلات الأمير محمد علي شقيق الخديوي عباس حلمي الثاني إلى سيبيريا والشرق الأقصى في طريقته إلى اليابان من خلال خط السكة الحديد المنشأ حديثاً في عام ١٩٠٩ ، والذي يمر عبر سائر سيبيريا ، ثم رحلته إلى القوقاز وآسيا الوسطى في عام ١٩١٠ . وقد كتب أ.أ. سميرنوف عن ذلك في رسالة إلى وزير الخارجية أ.أ. ب. إيزفولسكي : « كان في زيارتي مؤخراً سمو الأمير محمد علي ، شقيق الخديوي ، حيث كان يقوم برحلة في نهاية فصل الصيف إلى اليابان

٥٤٧ : أنظر : «مصر في عيون الروس منتصف القرن ١٩ - بداية ٢٠ السياسة ، الإقتصاد والثقافة» .

جينادي جورباتشكين ، موسكو ١٩٩٢ ، ص ٤٨ .

٥٤٨ : أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ١٥١ ، حافظة رقم ٤٨٢ ، وثيقة ٦٤ لعام ١٩٠٤ ، السطر ٢٨ .

ثم اجتاز روسيا كلها في طريقه إلى سيبيريا. وقد أعرب لي الأمير عن بالغ امتنانه لهذا الاستقبال الجيد الذي وجدته في روسيا، وعلى كافة الخدمات التي قدمت له طوال رحلته. وقد طلب مني الأمير أن أبلغ سلامة لمعاليتكم».

وفي الختام قال الأمير محمد علي بعد، أن تذكر ذلك الاستقبال الذي حظي به وهو شقيقه الخديوى الحالى عندما كانا صغارا في ضيافة الإمبراطور ألكسندر الثالث أنه كان يشعر في رحلته هذه أنه ضيف الإمبراطور ويرغب بشدة في أن يتم إبلاغ جلالة الإمبراطور بالغ امتنانه العميق ومشاعره المفعمة بالوفاء والإخلاص^{٥٩}. ويعتزم محمد علي في الصيف المقبل زيارة آسيا الوسطى والقوقاز. وهو الأمر الذي طلب أن أبلغه لمعاليتكم على أمل ألا تعترض حكومة الإمبراطورية على تلك الجولة ويتقدم مقدما ببالغ الشكر على تلك التسهيلات والخدمات التي دائما ما تقدمونها له»^{٥٥}.

كان المبعوث الروسي يعتبر أن إحدى أولوياته الأساسية في دولة وادي النيل، هو العمل الفعال على عرقلة سعى إنجلترا لتحويل مصر إلى مستعمرة تابعة لها. وفي هذا الصدد كان المبعوث الدبلوماسي يرى أنه لا يجب السماح بإلغاء المحاكم المختلطة التي كانت تعمل في البلاد في تلك الفترة معتبرا أنه تحت ستار تنظيم التشريع والمحاكم تكمن حسابات سياسية عميقة في إحلال المحاكم المصرية بشكل صوري، ثم تحل محلها المحاكم الإنجليزية. وظل المبعوث الروسي يعترض باستمرار على قيام سلطات الاحتلال الإنجليزية بإلغاء نظام الامتيازات معتبرا ذلك سابقا لأوانه، حيث أن إلغاؤها سيمنح الإنجليز من تنفيذ خططهم الرامية نحو إستحواذهم الكامل على وادي النيل^{٥٥}.

قدم أ.أ. سميرنوف النصح لحكومته بأن ترفض الاقتراح الإنجليزي الخاص بالحصول على المضائق التركية مقابل الموافقة لبريطانيا على ضم مصر. وبفضل هذا الموقف الصلب والمستمر للمبعوث الدبلوماسي الروسي بالقاهرة، ظلت مصر تحتفظ شكليا بكيانها، كدولة ذات حكم مستقل سياسياً في الإمبراطورية العثمانية حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى.

- ٥٤٩ جرت تلك الزيارة في سانت بطرسبورج في عام ١٨٨٨، وذهب عباس حلمي الثاني إلى روسيا في عام ١٩٠٠ - أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ١٥١، حافظة رقم ٤٨٢، وثيقة ٨٤٣، السطر ١٨٨.
- ٥٥٠ المرجع السابق، ملف ٣١٧، حافظة ١/٨٢٠، وثيقة ١٥٤، السطر ٢٣.
- ٥٥١ أنظر: جينادى جورياتشكين «بعض من سمات تطور النظام القضائي ومصادر تشريع العمال في مصر (١٨٤١-١٩١٨)» || الشرق في زمن جديد، الاقتصاد، نظام الدولة - موسكو ١٩٩١ ص ٢٧٢-٢٩٠.

جلبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) لسميرنوف تحديات جديدة . فقد توافد إلى مصر من الجبهات مئات الجرحى والأسرى السابقين ، من المواطنين الروس . وكان لابد من مساعدتهم جميعا ، لهذا تم إنشاء لجنة روسية لتقديم المساعدات ، لضحايا الحرب بالإسكندرية برئاسة القنصل العام أ.م. بيتروف ، وقد بدأت عملها في الثالث عشر من أكتوبر ١٩١٤ وكانت تقوم بصفه دورية بإرسال صور من محاضرات اجتماعاتها إلى أ.أ. سميرنوف ، الذي كان يشرف على عملها بصورة مباشرة^{٥٥٢} وجاء في الرسالة التي بعث بها القنصل بيتروف إلى أ.أ. سميرنوف في الثاني والعشرين من ديسمبر من عام ١٩١٨ حجم المهام الإضافية : «إستناداً إلى تقارير السابقة ، أتشرف بإحاطة الوكالة الدبلوماسية؛ نقلاً عن أنباء تناقلتها السلطات العسكرية البريطانية وقنصليتنا في بورسعيد عن وصول دفعة جديدة من الأسرى الروس المحررين إلى تلك المدينة وتعدادهم ٥٨٦ شخص من بينهم ٥٤٥ روسيا ، و٢٨ أرمينيا ، وثلاثة أسرى مسلمين من مدينة أرداهان (رجل وامرأتان) وعند فحص القوائم التي حصلت عليها تبين لي أنه من بين هؤلاء الأسرى يوجد أسرى تم أسرهم في جبهتنا الغربية وعدداً من الأفراد تم اعتقالهم عند هروب القوى الثورية من جاليتسيا^{٥٥٣} * في يوليو ١٩١٧»^{٥٥٤} .

بيد أنهم لم يجلبوا وحدهم العناء للممثل الدبلوماسي في بلد الأهرامات . فعقب الهجوم الذي شنته القوات التركية على فلسطين بقياده معلمين ألمان ، هرب مئات بل آلاف من اليهود الروس إلى مصر كما يتضح من خطاب أ.أ. سميرنوف المرسل في الثاني من فبراير ١٩١٥ إلى مولتشانوف : « منذ عشرة أيام تقريبا وقعت معارك جديدة مع الأتراك في قناة السويس ، ووقع في صفوفهم عدد كبير ما بين قتيل وأسير ، وكانت الخسائر في الجانب الإنجليزي لا تذكر ، غير أنه أصيب عدد كبير من الجنود الهنود . ومن المتوقع أن نشاهد هجمات قوية جديدة طالما أن الأتراك قد إنسحبوا وتولى الألمان الأمر برمتة . وقام الإنجليز بتعزيز مواقعهم في منطقة القناة . وكانت هناك حالة من القلق قد سرت بين المسلمين المصريين الذين يتعاطفون سرا مع أبناء ديناتهم . وبالطبع ففي حاله نجاح الأتراك في إحراز أي نصر سيكون ذلك إيذانا بانفجار التعصب الديني . ويتولى حراستي ألبون^{٥٥٥} * ، فيوجد عند البوابة حارس ، وفي الليل يتواجد حارسان ويعيش معي بالمنزل اثنا عشر جنديا جنديا يتم تبديلهم يوميا ولاشك أن وجود حوالى أربعة آلاف لاجئ

- ٥٥٢ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة ٣١٣٢٠ ، وثيقة رقم ٧١ السطر العاشر .
- ٥٥٣ * غاليسيا : منطقة تاريخية مقسمة بين بولندا وأوكرانيا ، وكانت مملكة غاليسيا الأكبر مساحة بين مقاطعات الإمبراطورية المجرية - النمساوية وأقصى أراضيها ناحية الشمال بين عامي ١٧٧٢ حتى ١٩١٨ ، و عاصمتها مدينة لفييف .
- ٥٥٤ المرجع السابق ، السطر ٨ .
- ٥٥٥ * الببون : المسمى القديم للجزر البريطانية - المترجم .

يهودي جائع ومشرد تطلب عملاً كثيراً وجهداً كبيراً»^{٥٥٦}.

يضم الأرشيف التاريخي العسكري للإمبراطورية الروسية قوائم عديدة لهؤلاء التعساء الذين جاءوا إلى وادي النيل ، وحصل بعضهم على عمل بفضل الجاليه اليهودية الكبيره والمؤثرة . وقد ذكر قطاع من المهاجرين حتى عناوين إقامتهم في مصر ووظائفهم ونجد كثيراً في استمارات التخصص أطباء ، وحلاقين ، كانوا يعيشون في القاهرة في أحياء الجمالية وبولاق وشبرا ، وشارع فؤاد الأول ، وقصر النيل .. الخ ، وعدد قليل في هليوبوليس وحلوان^{٥٥٧} . وقد حاول بعض المهاجرين اليهود مغادرة الحدود المصرية ، متجهين إلى أستراليا وأمريكا الشمالية والجنوبية وأوروبا ، ولكن بقيت مجموعة منهم ربطت مصيرها بمصر . ولهذا فقد كانوا يحرصون على التواجد دائماً ، في بؤرة اهتمام سلطات القنصلية الروسية التي سعت بقدر طاقتها وطبقاً لواجبات عملها مساعدة اللاجئين اليهود وكان المبعوث الروسي يقبض بصرامة على زمام كل هذه القضايا .

وفي هذا الصدد ، كانت الوثيقة التي أرسلها أ.أ. سميرنوف إلى الدبلوماسي الروسي ج.ج. ماليك رئيس لجنة تقديم المساعدات للاجئين الروس ، تكشف ذلك الأمر . وقد جاء فيها «إن طريقة إنفاقكم للأموال الخاصة بلجنة تقديم المساعدات للاجئين الروس التي ترأسونها كانت موضوع محادثاتنا لأكثر من مرة فال مبلغ الذي أنفقتموه في غضون شهرين تقريباً والذي يُقدر بحوالي ٢٩٠ جنية مصري على السيارات والولائم التي تصاحبكم أثناء تنقلاتكم إلى المعسكرات ، و صرفكم مخصصات مالية اختيارية من أموال اللجنة متجاوزين بذلك صلاحياتكم كرئيس للجنة ، باتت هي الأخرى موضوعاً للأحاديث ، ولفت أنظار الإنجليز ...»^{٥٥٨} .

بات ألكسي ألكسندروفيتش أكثر كآبة عما كتبه في رسائله قبل فترة الحرب ، حيث كتب إلى أ.أ. مولتشانوف في السابع والعشرين من شهر أبريل لعام ١٩١٣ « أشعر بحالة من العزلة والوحدة ، فلا أجد أحداً أتكلم معه . وأتذكر ببالغ السعادة تلك الأمسيات الرائعة التي أمضيتهنا هنا معكم . وأننا لم نترك شيئاً إلا وتحدثنا عنه ، وإنني ببساطة قد أصبحت أكثر شباهاً بفضل إقامتكم . ومن جراء الإثارة من الصعب أن تتفقو مع الناس في الآراء ، ولكن التفاهم المشترك يسهل العلاقات ، وقد أثرت مغادرتكم في

٥٥٦ الأرشيف التاريخي المركزي للدولة ، ملف رقم ٦٧٨ ، حافظة رقم ١ ، وثيقة رقم ١٣٤٥ ، السطور ١٩ - ٢٠ ، تحفظ مراسلات ل.أ. مولتشانوف في صندوق باسمه وتضم ١٤ رسالة مرسله له من قبل أ.أ. سميرنوف ١٩١٠ - ١٩١٥ .
٥٥٧ أنظر الأرشيف الشئون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ٣١٨٢٠ ، وثيقة ٢٠٥ ، السطور ١ - ٨ .
٥٥٨ المرجع السابق ، وثيقة رقم ٥٣ ، السطر ٢ .

نفسى تأثيرا بالغا . خالص الشكريا عزيزي أناتولي يفجرافوفيتش على تلك اللحظات الجميلة ومعاملتكم الطيبة . أتمنى لكم وللسيده ماري جافريلوفنا كل الأمنيات الطيبة.... وأرجو استمرار تواصلنا الروحي الصادق»^{٥٥٩} . كان المبعوث يتربص وصول الزوجين مولتشانوف بحلول نهاية عام ١٩١٢ .

كان سميرنوف صديقاً مقرباً للزوجين مولتشانوف ، فبالإضافة إلى المراسلات الدائمة بينهما ، والتواصل بحكم طبيعة العمل (حيث كان يتواجد في مصر عدد من موظفي هيئة الملاحه والتجارة الروسية ، التي كان يرأسها مولتشانوف) فقد كان يتوجه في كل عطلة لزيارة الزوجين في كاربوفكا ، بالقرب من سانت بطرسبورج ، وكان سميرنوف بدوره يستضيفهما بكل ترحاب كل شهور فصل الشتاء . وقد دعاهم المبعوث الروسي هذه المرة لقضاء فصل الشتاء في مصر عامي ١٩١٣-١٩١٤ ، ولكن ذلك الأمر لم يحدث . وقد كتب «سميرنوف» : « ... لقد خدعتومني ! ظلمت في انتظاركم طوال فصل الشتاء ، وانتظرت بلا جدوى » واستطرد : « لقد كان شتاء مزعجا ، حيث كان هناك عدد كبير من السياح ، والحالة ريفية الشأن . وأحيطكم علماً بأنني ، سأتوجه في مطلع أكتوبر القادم إن شاء الله إلى سانت بطرسبورج ، وسأعرج على كاربوفكا . فليحفظكم الله ! خالص تحياتي ، المخلص أ.أ. سميرنوف» . كتب سميرنوف تلك الرسالة في أبريل من عام ١٩١٤^{٥٦٠} ، ولم يقدر لهذه الزيارة أن تتم حيث جاءت الحرب لتقطع زيارات الأصدقاء والضيوف ريفي الشأن ، الذين كانوا يغيرون نمط الحياة الروتينية ، ويرفهون عن النفس بالأحاديث الصادقة والصريحة ، التي نفتقدها أثناء الإقامة الطويلة خارج البلاد .

اختفي الهدوء والتفاؤل من حياة أ.أ. سميرنوف ، وازداد قلقه على مستقبله العملي خاصة بعد تلك الأنباء التي كانت ترد إليه من وزارة الخارجية الروسية ، بشأن القرارات السياسية التي كان يتخذها وزيرها س.د. سازونوف . وقد كتب عن كل ذلك صراحة في رسالته إلى أ.أ. مولتشانوف ، والتي جاء فيها : « كما توقعت تماماً ، لم أحصل في عيد الفصح أو أي أحد ممن يعملون تحت إمرتي على أي شيء ، في حين تم تكريم أصدقاء سازونوف تكريماً مذهلاً فقد حصل كل من سفير بابيف و نيراتوف على وسام «أنا» ، على الرغم من أنهما أصغر مني سناً بكثير... ومن المحزن أن ترى أنه مهما سعيت واجتهدت فإن الآخرين يسبقونك ولا تملك أن تفعل شيئاً . أصبحت أشعر بالخزي من بقائي في العمل

٥٥٩ الأرشيف التاريخي المركزي للدولة ، ملف رقم ٦٧٨ ، حافظة رقم ١ ، وثيقة رقم ١٣٤٥ ، السطر

١٢

٥٦٠ المرجع السابق ، السطور ١٦-١٧ الخطاب من ٣٠ أبريل/نيسان ١٩١٤ .

الدبلوماسي لتعامل الدبلوماسية المخزي تجاه الجبل الأسود ، والتصرف كتابع للنمسا، والتبريرات المخزية أمام الدوما . لقد سئمت للغاية من كل ذلك . أريد شيئاً ما جديداً وبعقرياً وقويماً ... أكتب لكم بمنتهى الصراحة ، وأعلم جيداً أن حزني هذا سيقابل بتعاطف من جانبكم»^{٥٦١} . وجاءت كلمات سازونوف لتصف لنا موقف سميرنوف : «إن بعض دوائر بتروجراد القريبة جداً من القصر ، وصحافة معسكر القوميين في العاصمة تتعامل منذ فترة بعداء ضد وزير الخارجية ، وقاموا بشن حملة شرسة ضد سياسة روسيا الخارجية ، تجسدت في مظاهرات احتجاج تجوب الشوارع ، واجتماعات تشهد خطابات وطنية تطالب بالحرب للدفاع عن المصالح السلافية ، وسلسلة مقالات تتهم الدبلوماسية الروسية بتهم تكاد تصل إلى خيانه الدولة . وقد تأثرنا بشكل خاص من مطالبة الملك نيكولاي ، ملك الجبل الأسود بضم مدينة سكوتاري وضواحيها»^{٥٦٢} .

كتب أ.أ. سميرنوف وصيته عام ١٩١٦ ، ونظراً لأنه لم يكن لديه أسرة أو ذرية، فقد وهب كل ثروته لشقيقاته وأخيه وأولادهم . كانت شقيقات سميرنوف وهن : أولجا (سميرنوفا) ، وماريا (نوفاكوفا) ، وناتاليا (بيكوف) يقمن أثناء كتابته الوصية في العشرين من نوفمبر ١٩١٦ في مدينة بتروجراد ، وشقيقتان أخريان هما : إليزابيث (كريلوفا) ، وألكسندرا (شيل) كانتا تعيشان في خاركوف ، وأنا (تشيركاسوفا) كانت تعيش في يكاترينبورج . أما محل إقامة الشقيق الوحيد للمبعوث الروسي - وفقاً للوصية - ويدعى فلاديمير ألكسندر وفيتش سميرنوف ، الذي كان يشغل منصباً رفيعاً في وزارة الداخلية الروسية كان بتروجراد أيضاً^{٥٦٣} .

تفهم أ.أ. سميرنوف الثورة البرجوازية التي اندلعت في فبراير في روسيا ، بل وقدرها جيداً . وبعد المظاهرة الضخمة أمام مقر القنصلية العامة ، قرر سميرنوف استقبال ممثلهم برئاسة المبعوث الروسي لصندوق الدين المصري «بازور» ، الذي سلمه برقية خطها هذا الوفد إلى السلطات الجديدة في روسيا . وكتب المبعوث الروسي رسالة إلى ميليكوف بتاريخ ٢٥ / ١٢ / ١٩١٧ : «لقد أعربت للوفد عن يقيني التام من الخروج بسلام من الأزمة الراهنة، لأن جميع الأسماء التي تترأس الحكومة هي بمثابة الضمان لذلك . أضيف هنا أن السلطة توجد في يد أمينة ، والرغبة في انتصار روسيا على عدوها قد تزايدت بصورة كبيرة في

٥٦١ المرجع السابق ، السطر رقم ١١ .

٥٦٢ أنظر : سazanوف . س . د «منكرات» باريس ، ١٩٢٧ ، ص ٨٧ وما بعدها ...

٥٦٣ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ٣٨٢٠ ، وثيقة رقم ٢٧٩ ، «عن وصية سميرنوف ١٩١٦» ، السطور ٢٣٦-٢٣٧ .

روسيا الحرة . ثم خرجت بعد ذلك إلى الشرفة ، لأجد حشداً هائلاً من البشر يجتمع أمام المنزل ويحملون يافطات حمراء مكتوباً عليها : « فلتحيا روسيا الحرة ! » . وقد قاموا بتحتيتي بصوت جهوري .

قد أرسلت لكم برقية عاجلة باسم الجالية الروسية ، وأمل أن تصلكم في الوقت المناسب « وجاء في الرسالة لاحقاً المناشدة التي وجهها المتظاهرون للمبعوث الروسي لدى مصر: « تفرق الحشد الذي كان يهدف للترحيب بالمستقبل المجيد الذي ينتظر روسيا . وشارك في هذا الاجتماع ممثلون عن الشعب الروسي وقوميات أخرى يرتبط مصيرهم به وكلفنا الجمع أن نتوجه إليكم باعتباركم الممثل الرفيع الشأن لروسيا في مصر بطلب متواضع وهو عدم الممانعة في إرسال برقية لرئيس مجلس الدوما (باللغة الفرنسية) تتضمن ما يلي : « نحن المواطنون الروس من جميع القوميات التي تعيش في مصر نعرب عن مشاعر التعاطف العميق ، والثقة المطلقة في المسؤولين الذين يوجهون مصير روسيا اليوم نحو مستقبل جديد للسلام ، والتآخي بين الشعوب ، التي تقاتل تحت رايتها ، ونرسل أمانينا الحارة لجيشنا المجيد ولقيادته التي لا تقهر .. »^{٥٦٤} .

لم يعترف سميرنوف بثورة أكتوبر ، ولا بروسيا السوفيتية ، واصفاً اللجنة الشعبية السوفيتية بأنهم : « عصابة من المغتصبين الذين استولوا على الوطن بعد سقوط السلطة الشرعية للبلاد »^{٥٦٥} . أدت ثورة أكتوبر إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وروسيا ، ثم إلى تقليص وتجميد جزئي للعلاقات التقليدية بين البلدين ، ولكن ظهرت جوانب جديدة لحوار ثقافي حضاري بين البلدين .

كانت تلك المرحلة من أصعب الأوقات التي مرت على عمل القنصل العام بمصر ، فقد بات بالفعل « الأب الحقيقي » للجالية الروسية في مصر ، والتي تزايدت بعد هزيمة الجيش الأبيض في حرب القرم . فقد شهدت الفترة من يناير إلى مارس ١٩٢٠ ، نقل أكثر من أربعة آلاف روسي على متن خمسة سفن بحرية ، من نوفوروسيسك إلى ميناء الإسكندرية . وأقام المهاجرون الروس بمصر والذي بلغ عددهم أكثر من عشرة آلاف مواطن بصفة أساسية في كل من القاهرة والإسكندرية . وقد عملوا في عدة مهن ، منها قيادة سيارات الأجرة (التاكسي) ، وقيادة شاحنات النقل ، وإصلاح السيارات ، وقائدي الترام ، وموظفون

٥٦٤ أنظر المرجع السابق ، ملف رقم ١٥١ ، حافظة رقم ٤٨٢ ، وثيقة رقم ٨٧٦ (١٩١٥-١٩١٧) ، السطور ٣٢٦ - ٣٢٧ .

٥٦٥ أنظر المرجع السابق ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ٣٨٢٠ ، وثيقة رقم ٢٠٩ السطر الأول .

داخل المحاكم المختلطة والمؤسسات التجارية وشركة قناة السويس ، ومعلمي لغات ، ورياضيات ، وموسيقى ، ومربيات للأطفال في منازل الأثرياء المسيحيين ، وموسيقين ، ورسامين (مثل الفنان الروسي إيفان بيليبين) ، وفنانين ، ومصنفي شعر ، وصحفيين ، كما عملوا في مصانع التبغ والعديد من المصانع الأخرى .

وساهم علماء المصريين من الروس بجهد بارز في الثقافة المصرية ومنهم : ف.س جولينشيف ، وفيكينتييف ، وبيانكوف ، والزوجين لوكيانوف وغيرهم كثيرون . ولا تزال الأعمال الفنية للرسامين الروس تزين جدران المتاحف والمعارض الفنية المصرية حتى الآن . وبالنسبة للمهاجرين من الروس البيض فقد أفادوا وطنهم الثاني مصر بشكل كبير إذ شاركوا في أعمال البعثات الأثرية ، والحفريات والبعثات الأخرى^{٥٦٦} .

كان الأطباء الروس قد افتتحوا عيادة روسية عام ١٩٢٠ ، وكان يترأسها الطبيب إ فاجنر ، أخصائي الأمراض الباطنية ، وكان يشغل من قبل منصب مدير العيادة الطبية بجامعة موسكو . وكان يتردد على تلك العيادة حوالي ١٠٠٠ مريض سنوياً . وكان الأطباء يقومون بعمل مؤتمرات علمية ، وإصدار أبحاث علمية ، كما كانوا يقومون بالعمل على تدريب كوادر من الأطباء المصريين^{٥٦٧} .

قدم أ.أ. سميرنوف العديد من المساعدات إلى طاقم تلك العيادة (كما أنه ساهم مادياً في إنشاء كنيسة داخل مبنى العيادة) . كما قدم مساعدات لفرقة طلاب الدون العسكرية ، التي كانت تتمركز بالاسماعيلية في منطقة البحيرات المرة ، وكذلك ساعد الكثير من الجمعيات والتعاونيات الروسية التي ظهرت على ضفاف نهر النيل ، وبصفه فرديه أولئك الروس الذين كانوا يعانون كثيراً بسبب البطالة . فقد كان الأمر على النحو التالي إذ كان يتعين على المهاجرين الذين استطاعوا العثور على عمل أن يجلبوا لأرباب العمل توصيتين لأن السلطات الإنجليزية المستعمرة كانت تعتبر كل روسي بلشفي .

لم يكن أ.أ. سميرنوف الملقب بـ «أبو» المهاجرين الروس في مصر ، صاحب الفضل وحده في تقديم المساعدات اللازمة والعاجلة لهم ، بل يعود الفضل كذلك إلى الدبلوماسي الروسي أليكسي ميخائيلوفيتش بيتروف القنصل الروسي بالإسكندرية ، الذي التحق

٥٦٦ أنظر : جينادى جورياتشكين ، ت . ج . جريسنينكو ، إ.و. فومين «الهجرة الروسية في مصر وتونس ١٩٢٠-١٩٣٩» ، موسكو ، ٢٠٠٠ ص ٣١-٤٠ .

٥٦٧ أنظر : جينادى جورياتشكين «العيادة الروسية في القاهرة» ، مجلة آسيا وأفريقيا اليوم ، العدد رقم ١١ لعام ١٩٩٨ .

بهذا المنصب في عام ١٩١٠ ، وتوفي في عام ١٩٤٦ ، ودفن في مقبرة الإسكندرية بالشاطبي وهناك دبلوماسيون آخرون قدموا يد العون والمساعدة للمهاجرين الروس بمصر ومنهم سيرجي بافلوفيتش رازوموفسكي (١٨٧٥-١٩٤٧) ، الذي عمل ملحقاً دبلوماسياً بالقاهرة، وبعد عام ١٩٢٣ تولى مهمة أمين الأرشيف الدبلوماسي ، ونيكولاي إيفانوفيتش فينوجرادوف (١٨٨-١٩٣٥) ، الذي عمل نائباً للقنصل بالقاهرة ، وأندريه ياكوفليفيتش نيسين القائم بأعمال القنصل الروسي في بورسعيد وغيرهم .

منذ السادس من أكتوبر ١٩٢٣ حدث تدهور حاد في الحالة المادية والنفسية للروس في مصر ، حين قام مجلس الوزراء (الأنجلو-مصري) برفض شرعية البعثة الدبلوماسية الروسية في مصر . توجه المبعوث الروسي في محاولة لتغيير ذلك الوضع إلى عدة جهات منها إدارة الاحتلال الإنجليزي ، ومجلس الوزراء الوفدي ، وسفراء الدول الكبرى ، والسلطة المركزية للمهاجرين في باريس ، والمنظمات الدولية ، والحكومة الأمريكية .

جاء في الخطاب المرسل إلى السلطات الأمريكية «إن تدفق اللاجئين الروس إلى مصر النازحين من مختلف أنحاء الأراضي الروسية بعد سقوط كولتشاك^{٥٦٨} * ودينيكين^{٥٦٩} * وفرانجيل تطلب توسيع دائرة نشاط الوكالة الدبلوماسية والقنصليات . واستدعي ضرورة تأسيس لجان قضائية جديدة . وعلى الرغم من العلاقة الطيبة والتعاون من جانب المفوضيات الدبلوماسية للدول الأخرى ومن جانب الحكومة المصرية ، إلا أن الجانب المالي قد وقف عائقاً أمام عمل المؤسسات الروسية السالفة الذكر . ومنذ عام ١٩١٧ أوقفت روسيا كافة أنواع الدعم المالي لمفوضياتنا بالخارج ، غير أن تلك المؤسسات قد استطاعت مباشرة عملها بصعوبة بالغة ، بفضل الدعم المادي الذي خفض إلى النصف مقارنة بالاعتمادات السابقة التي كانت تدفع في السنوات الأولى من قبل الحكومة الأنجلو - مصرية ، والتي استمرت حتى الآن على الرغم من أنها أصبحت أقل كثيراً مما كانت عليه .

٥٦٨ * ألكسندر كولتشاك قائد بحري ومستكشف ، له اكتشافات عديدة في القطب الشمالي ، وخبير بارز في زراعة الألغام ، وعضو بالجمعية الجغرافية الروسية حصل على الميدالية الذهبية السيف للشجاعة وذلك تكريماً لدوره البارز في معركة بورت آرثر ، وحصل على الميدالية الذهبية قسطنطين العظيم من الجمعية الجغرافية - المترجم .

٥٦٩ * أنطون إيفانوفيتش دينيكين . واحد من أبرز جنرالات الحركة البيضاء في الحرب الأهلية الروسية - المترجم .

كان من غير الممكن تقريباً الإنفاق على البعثة الدبلوماسية، وثلاث قنصليات معاً بمبلغ ٤٠٠ جنيهاً مصريةً نحصل عليها في الوقت الراهن، لأن هذا المبلغ كان يحتم علينا أن ندفع للموظفين أقل من نصف رواتبهم. فقد كانت الاعتمادات المالية المخصصة للمفوضيات الروسية في الأوقات العادية تصل إلى حوالي ١٠٠٠ جنيه شهرياً ... وعند عجز الموارد المالية كانت الوكالة الدبلوماسية الروسية تنجح في الحصول على جزء من الدعم المالي من السفارة الروسية في باريس، غير أن إرسال هذه المبالغ قد توقف الآن تماماً ...

هناك معلومات تفيد بأن الحكومة الأمريكية قد منحت الحكومة الانتقالية الروسية آنذاك مبلغ يُقدر بنحو ١٦٧ مليون دولاراً والأمر الآن هو مشغولة ومهمومة بالحصول على باقي هذا المبلغ من المسؤولين الذين خيبتوا ثقة الحكومة الأمريكية، ووقعوا تحت نفوذ وتأثير الأغلبية.

كان كل أملي باعتباري مبعوث المفوضية الروسية في مصر، المؤسسة الوحيدة بالعالم تقريباً التي احتفظت بالتبعية الكاملة لروسيا الشرعية، أن تجد أمريكا أنه من المناسب أن تقدم لي المساعدة كدين روسي حكومي حتى لومن تلك المبالغ الواردة إليها^{٥٧}.

كان كل هذا بلا جدوى. لم يفلح أ.أ. سميرنوف في الحصول على أية مساعدة من أية جهة، ولا من أي شخص. وتحولت الوكالة الدبلوماسية إلى بعثة روسية، ثم إلى جمعية للمواطنين الروسي، وأخيراً، إلى مجرد نادي روسي. ثم بدأ عامل الزمن يسير لصالح روسيا السوفيتية التي بدأت دول الغرب الكبرى في الاعتراف بها في النصف الأول من العشرينيات، لذلك بدأ مجلس الوزراء الأنجلو - مصري تغيير موقفه تجاه المهاجرين الروس، وتم إلغاء نظام الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها.

ومن المفارقات أن الجالية الروسية بين سبع عشرة جالية كبرى أخرى، تقيم في مصر وتتمتع بحقوق الحصانة التي طالبت بالغاؤها الحركة الوطنية المتصاعد نجمها آنذاك برئاسة الوفد، هي أول من تضرر هنا. على الرغم من أن قادتها كان لهم موقفاً معادياً لبريطانيا، ومسانداً لمطالب مصر في الاستقلال.

٥٧٠ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ٣١٧، حافظة رقم ٣١٨٢٠، وثيقة رقم ٢٠٩ السطور ١ - ٩.

لم تكن لتكتمل قصتنا هنا ، دون الإشارة إلى النشاط الأدبي للمبعوث الروسي أ.أ. سميرنوف. فإلى جانب عمله الدبلوماسي، كان له العديد من الأعمال الأدبية الهامة. وتعود أولى أعماله الكتابية إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر.....^{٥٧١} ، يضم الكتاب مقالات سميرنوف عن الأربعة أيام التي قضاها في نهاية يوليو ١٨٨٦ في جبل آثوس. وقد وصف في هذه المقالات بدقة، حياة سكان هذا الجبل الذين تعرف عليهم عندما كان سكرتير السفارة الروسية في القسطنطينية. وقد شاهد المبعوث الروسي أكثر من عشرين معبداً في شبه جزيرة آثوس. وظل الجبل المقدس بمنأى عن القلاقل السياسية البيزنطية. فقد عاش سكان هذه الجزيرة حياة روحانية هادئة. ولم تؤثر أحداث الغرب اللاتيني على الجزيرة، وقد استدعت حملات الصليبيين اللاتينية وهجمات القراصنة إنشاء مبنى ذو أسوار ضخمة وأبراج للحماية. وعندما وقع جبل آثوس تحت سيطرة تركيا، ظل ثابتاً على الأرثوذكسية، ومع سقوط الدولة البيزنطية انتهت فترة الأديرة اليونانية، كما أن الإسلام لم يهدم المقدسات الأرثوذكسية، وحصل هذا الجبل المقدس على عدة امتيازات عديدة من الأتراك، فقد احتفظ بحكمه الذاتي المستقل، وواصل حياة الزهد والتنسك .

بالنسبة لنا نحن الروس يجب، أن يكون جبل آثوس غالباً مثل كسرة من حطام، بقيت سليمة بالصدفة من عالمنا الروحي، والذي كانت أشعته أول ضوء أثار ظلمة روسيا الوثنية. وأما غاركيف-بتشورسكي، وغار الثالوث - سيرجي، فهذه فروع لذلك العالم زرعت في تربه مختلفة وترعرعت فيها. وأشار المبعوث الروسي الشاب إلى أنه: «لا يوجد على جبل آثوس أي من أنثى البقر ولا الحمير ولا الدجاج الرومي ولا الدجاج، حيث تم طرد كل أنثى الحيوانات خارج حدود الجبل المقدس، لدرجة أنه يتم جلب بيض الفراخ من الجزر المجاورة»^{٥٧٢}.

لم يرغب عن اهتمام سميرنوف حقيقة أنه هناك في أرض آثوس المقدسة، التي من حيث كثير من الدلائل، تذكر بروسيا (فالعباد من الروس يرددون القمصان القطنية ويلبسون صنادل، ويحملون حقائب على الظهر والكتف وكؤوس في اليدين، كبار السن، وشباب صغار، وأطفال...)، وقد اغتنى الرهبان في ذلك الجبل، وشيدوا القصور المرمرية في الجزر القريبة^{٥٧٣}.

٥٧١ أنظر: ل. أ. سميرنوف «أسبوعين في الجبل المقدس»، موسكو ١٨٨٧، يوجد بالنسخة المحفوظة في مكتبة جوركي بجامعة موسكو، توقيع المؤلف جاء فيه: «إلى الزميل والرفيق العزيز أليكسي نيكولايفيتش خاروزين - من المؤلف، بيوكدار، ١٨٨٨» .

٥٧٢ أنظر المرجع السابق، ص ٣٩-٤٠، ص ٤٦ .

٥٧٣ أنظر المرجع السابق، ص ٥٢، ص ٦٧ .

كان ألكسندر وفيتش ، يرغب في توسيع معرفته بالبلدان المجاورة وتعميق معلوماته التي درسها في كلية الإستشراق بجامعة سانت بطرسبورج . وقد قام بالفعل الإستفادة من عمله الدبلوماسي الذي قدم له منصباً دبلوماسياً رفيعاً في مصر التي تقع في ملتقى ثلاث قارات وواصل التعرف على العالم الأوروبي والأفريقي والآسيوي المحيط به . ولم يضيع بالطبع فرصة الذهاب إلى السودان الرائع المجاور الذي كان يعتبر جزء مؤقت ، ولكنه في نفس الوقت كان مريحاً جداً لبريطانيا ، وكذلك لطبقة رجال الأعمال البورجوازية المتصاعدة في مصر . وكان يُطلق على السودان آنذاك مصطلح «السودان الأنجلو - مصري» . وقد أخبر أ.أ. مولتشانوف في الخامس من أبريل ١٩١٢ : «الجو لدينا حار للغاية ولكن إنقضى الشتاء والحمد لله ! لقد أمضيت أياماً مملتة وبغيضة وذهبت إلى السودان في شهر يناير ، وقمت بجولة من الخرطوم إلى الجنوب ثم عبرت النيل الأزرق إلى سنارة ثم النيل الأبيض عند جبل أبو جمعة ، ثم عدت عبر البحر الأحمر إلى ميناء السودان . واستمتعت برؤية العديد من المشاهد الطبيعية الخلابة . إنها حقاً طبيعة غريبة علينا فهي شبه وحشية . كما أن سكانها عرايا ، وهناك تتواجد أعداد كثيرة من التماسيح وأفراس النهر ، بالإضافة إلى طيور مائية غريبة.. إنها دولة ممتعة كما أنها تحمل في طياتها مستقبلاً واعداً...»^{٥٧٤} .

أثار إبداع أ.أ. سميرنوف اهتمام المعاصرين ، حتى أن أحد معاصريه الذين وصلوا إلى القاهرة في عام ١٩٠٨ ، وصف سميرنوف: « بأنه شخص ليس غريباً عن عالم الأدب » ، وأشاد بروايته التاريخية «سكليرينا» (سانت بطرسبورج ١٩٠١) والتي وصفها بأنها منظومة شعرية لعادات الشرق ، التي أشاد بها العامة والنقاد آنذاك»^{٥٧٥} .

هناك كتاب مجمع لسميرنوف بعنوان «من كآبة الماضي» ، والذي يتضمن قصصاً وروايات مثل « ناتاشا» ، « فيدما» ، « شخص في الوشاح الأبيض» ، « الليل» ، « الأزرق السماوي في العمق» . نجد في تلك الأعمال أن سميرنوف الأديب حاول التغلغل في العالم الداخلي لأبطاله ، ونجده قد نجح في ذلك بالفعل ، وخاصة في الاسكتشات النفسية التي صاغها سميرنوف لشخصيات رواياته ودوافع تصرفاتهم وسلوكهم التي ظهرت في تلك الروايات والقصص^{٥٧٦} .

- ٥٧٤ الأرشيف التاريخي المركزي للدولة ، ملف رقم ٦٧٨ ، وثيقة رقم ١٣٤٥ ، السطر ٧ .
٥٧٥ أنظر : س . فونفيزين «سبعة شهور في مصر وفلسطين» سانت بطرسبورج ، ١٩١٠ - ص ١٣١ .
٥٧٦ أنظر : أ.أ. سميرنوف «من كآبة الماضي» موسكو ، ١٩٠٩ .

لا ننس هنا الإشارة إلى تجارب أ.أ. سميرنوف الشعرية، التي ظهرت في الوقت الذي إزدهرفيه فن الشعر الغنائي في روسيا، في مطلع القرن العشرين. ويمكن أن نجد قصائد سميرنوف الشعرية في بيبولوجرافيا الشعر الروسي في تلك الفترة. وكان من بين شعراء تلك المرحلة: ك. بالمونت، وأ.بيلي، وأ.بلوك، وس.كريتشيتوف، وف.سولوجوب، وف. خوداسيفيتش. وكان المحور الرئيس لتلك الأعمال هو موضوع الساعة آنذاك، والذي كان يتمحور حول تلك الموضوعات « المدينة والمصنع والحضارة والحنين للهواء المنعش، والحنين للطبيعة الحرة. وقد تناولت قصيدة أ.بيلي «في الشارع» هذا الموضوع، والتي جاء فيها:

عبر الأنابيب المترية والصفراء،

أركض وأفتح مظلي،

وألسنة الدخان المتصاعده من فوهات المصنع،

تبصق في الأفق الناري

وقد خصص أ.بيلي للبيئة واحدة من الخمس قصائد المنشورة وهي «المصنع»، وكان أ.أ. سميرنوف قد نشر قصائد صغيرة له في سلسلة قصائد شعرية والتي يجيء من ضمنها:

أنظر! مغطى بالظلال المزخرفة،

كأنه مسخ خرافي شرير،

تغمرة النيران من رأسه حتى أخمص قدميه

وفي ضباب الليل يقف المصنع شامخاً،

اسمعوا! في صمت منتصف الليل

فإنك تسمع كيف تخرج تنهيدة طويلة؟،

إما قشعريرة شريرة بفعل ثقل النحاس،

وأما ظهور مولوخ إله الفينيقين الشرير (المصحح) تحت وطأة التفكير،

وفي المخالب الحديدية للوحش الناري،

يستعبد الشعب أيما وليالي،

وبعد أن نسى الأحلام، لم يعد يؤمن بالخلاص

بل يعرف فقط صيحة ملاحظ الرقيق «إلى الأمام!»،

حلم غامض من أبخرة المستنقعات ،
كسى المصنع بخيمة غريبة الشكل ،
وهو (المصنع) إذ يلقى بظلاله الشريرة في شكل دائرة ،
يحترق ويحترق بنار لا تنطفئ ،،،،

إلى جانب قصيدة «المصنع» ، يضم الكتاب قصائد شعرية لسميرنوف ومنها : « بطل الشمس» ، «ميلييسندا» ، «أمير يهوذا» ، «مالك السلطة» ، و«المدينة الصغيرة»^{٥٧٧} .

وقد نشرت أعمال سميرنوف بوصفه أديباً مرات كثيرة في روسيا والخارج وخاصة في مصر . وما زالت توجد بعض من تلك المطبوعات حتى الآن في المكتبات الروسية . ونقول روايات المعاصرين إنه كان من الممكن أن تجد أعمال سميرنوف تباع لدى بائعي الكتب في ميدان الأوبرا بالقاهرة في الخمسينيات والستينيات .

ولعل الفقرة التي وردت في خطاب سميرنوف المرسل إلى أ.إ.مولتشانوف ، والذي طلب منه مساعدته في نشر أعماله الأدبية كملحق مجلة «نيفا» تكشف مدى قوة وحجم إبداع السفير الروسي : «كنت أعتزم منذ وقت بعيد أن أتوجه إليكم بمطلب أيها العزيز أنتولي يفجروفيتش . هل لديك معرفة بأي من الأشخاص ، أو أنك تستطيع أن تؤثر على هيئة تحرير مجلة «نيفا» ، حيث إنني أرغب في أن توافق تلك المجلة على تجميع أعمالتي ومؤلفاتي الأدبية في ملحق ، وتجعله هدية مع عدد المجلة . بالطبع هذه المجموعة لن تصدر في شكل أنيق ، ولكن سيكون حجم هذا النسخ ضخماً للغاية ، وتوزيعه على نطاق واسع من أجل الشهرة . فضلاً عن ذلك فإنهم يدفون نقوداً ليست سيئة والآن عندما يقومون بمنح الكاتب الروسي «مامين سيبيرياك» جائزة «بونين» ، فربما أطمع أن أكون مرشحاً لنيل تلك الجائزة ، وهذا بلا شك يزيد من شهرتي ، ويكون دافعاً لي للتوجه فيما بعد إلى دار نشر أكبر وأشهر مثل «أ.أ.ليفنسون» ...»

أصبح لدي من أربعة إلى خمسة مجلدات ، تضم أعمالاً متنوعة ما بين قصائد شعرية ونثرية وجولات ورحلات وملاحظات . فهل أدركت فكرتي إذن ؟ أعتقد أنه لا بد من المضي في هذا الأمر بشكل سريع إذ لا بد أن يقتنعوا أولاً^{٥٧٨} .

٥٧٧ المناخ الرفقة «جريف» موسكو ، ١٩٠٥ ، ص ١٠ ، ٢١ ، ص ١١٥ - ١٢٠ .
٥٧٨ أرشيف الدولة التاريخي المركزي ، ملف رقم ٦٧٨ ، حافظة رقم ١ ، وثيقة رقم ١٣٤٥ ، السطر رقم ٢٠ .

اعترف المصريون «بثنائية» سميرنوف الدبلوماسية والإبداعية. وفقاً لرواية كاتب مقال تأبينه في الصحيفة الأسبوعية «L'illustration egyptienne»، في عددها الصادر بتاريخ ٢٠-١٩٢٤ : «إن حضور عدد كبير من كبار المسؤولين المصريين، جنازة أ.أ. سميرنوف يدل على الاحترام العميق الذي يكنونه لسميرنوف الدبلوماسي والأديب الراحل».

كان أ.أ. سميرنوف قد مرض مرضاً شديداً قبل وفاته بعامين تقريباً إذ إعتل بمرض «حمى النيل»، للفترة الطويلة التي قضاها في المناخ الحار والرطب. وقد إستطاع الدبلوماسي بطريقة أو بأخرى أن يواجه هذا المرض ولكن لسوء حظه حدثت مشكلة أخرى فقد صدمته سيارة عندما كان يجوب شوارع القاهرة المكتظة بالناس، مما أدى إلى أصابته بكسر من الدرجة الثانية في عظام القدم. أجرى الأطباء الروس له عملية ناجحة، غير أن إلتئام الجرح كان يسير بصعوبة بسبب مرضه «بحمى النيل». وسريعاً ما تقاوم الوضع الصحي للدبلوماسي فقد تلوث الدم ثم حدثت الوفاة.

توفي أليكسي ألكسندروفيتش في الثامن عشر من فبراير ١٩٢٤، في شقته بالمنزل رقم ١٤ الكائن في شارع الشيخ أبو سبأ في منطقة عابدين بوسط القاهرة. جري تأبين أ.أ. سميرنوف في التاسع عشر من فبراير داخل الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية للقديس قسطنطين، والقديسة ييلينا في في بولاق. وقد ووري جثمانه الثرى في العشرين من فبراير عام ١٩٢٤ في المقبرة الأرثوذكسية التابعة لكنيسة القديس جيورجى في القاهرة القديمة. وأقامت الجوقة القديسة على روحه واللوتورجيه في كنيسة القديس جيورجى بإشراف الوصي فاسيليف العقيد السابق.

تم وضع تمثال متواضع لسميرنوف فوق مقبرته، دون الإشارة إلى صاحب التمثال بناءً على رغبته. وجاء في الوصية المكتوبة باللغة الفرنسية في العشرين من نوفمبر ١٩١٦ كتب ياور القصر الإمبراطوري «إذا ما توفيت بمصر فرجاء لا تحنطوا جثتي، وفي حالة ما إذا رغبتهم في نقل جثماني إلى روسيا بعد الدفن المؤقت، فلا داعى أن تحنطوه. وليس لدى مانع على الإطلاق في بقاء جثماني في مصر إلى الأبد. وأطلب أن يقوم جورج بك لطف الله^{٥٧٩} بدفع كافة الأموال الخاصة بعملية الدفن، وعمل التمثال وشراء

٥٧٩ جورج بيه لطف الله – مبعوث القنصل الروسي بالفيوم وكان الصديق المقرب للمرحوم. وكان شقيقه ميشل عضواً بالمجلس التشريعي لمصر. وهما من أبناء اللبناي الأرثوذكسي حبيب لطف الله. ويوجد رفات أسرته على بُعد أمتار قليلة من مقبرة أ.أ. سميرنوف.

المقبرة. وأرجو أن تكون الجنازة متواضعة للغاية. أرجو كذلك، عدم وضع أكاليل من الزهور أو قول أي خطاب عند مقبرتي وأن تكون المقبرة بسيطة جداً، وأن يكتب على الشاهد الذي يوجد عليه الصليب الحجري : أليكسي سميرنوف ولد في الرابع عشر من شهر سبتمبر ١٨٥٧، وتاريخ الوفاة « إلهي لتكون مشيئتك »، وقد كتبت هذه الوصية بنفسي في العشرين من نوفمبر ١٩١٦، الموصي بالتركة سفير الإمبراطورية الروسية فوق العادة والوزير المفوض، ومستشار الدولة الفعلي وياور جلالة الإمبراطور. بالإضافة إلى التوقيع^{٥٨٠}.

هكذا كانت النهاية المتواضعة، والدرامية لحياة هذا الشخص غير العادي، الذي قدم الكثير للروس في مصر، بالإضافة إلى إسهاماته في توطيد العلاقات الروسية المصرية. كانت سلطات السفارة والقنصلية الروسية ومركز المفوضية الروسية في الخارج في القاهرة والإسكندرية، قد قامت بترميم مقبرة سميرنوف وعشرات المقابر للروس الذين نزحوا في الموجة الأولى من الهجرة، في القاهرة القديمة والشاطبي بالإسكندرية. وتم افتتاح اللوحة الرخامية الجديدة على مقبرة سميرنوف وترميم الكنيسة الروسية الصغيرة في التاسع والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٢، في حضور السفير الروسي في مصر، الراحل ن.ف. كارتوزوف والقنصل العام بالإسكندرية «ن.م. خولوف»، والعاملين بالقنصلية والسفارة الروسية وأعضاء المركز الثقافي الروسي بالقاهرة والإسكندرية وممثلي وسائل الإعلام وعدد كبير من الجالية الروسية والضيوف. وقد صاحب الافتتاح وضع أكاليل من الزهور وقداس أقامه النائب البطيركي للكنيسة الأرثوذكسية الروسية في مصر ديمتري (نيتسيفيتايف) .

٥٨٠ أرشيف الشؤون الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف رقم ٣١٧، حافظة رقم ٣١٨٢٠، وثيقة رقم ٢٧٩ «عن وصية سميرنوف ١٩١٦» .

رحلة الأمراء المصريين إلى روسيا

ساهمت الاتصالات التي كانت قائمة بين أفراد أسرة رومانوف الحاكمة في روسيا ، وأسرة محمد علي في مصر في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع العشرين في تطوير الحوار الثقافي - الحضاري بين مصر وروسيا . وقد شهدت هذه الفترة حالة من تطبيع العلاقات بين البلدين مما ساهم بدوره ، في تطوير العلاقات السياسية والثقافية والتعاون الإقتصادي والتجاري ، وكان التقارب بين العائلتين المالكيتين سبباً في توطيد العلاقات الثنائية بين الدولتين .

عدم تدخل روسيا في الشأن الداخلي لمصر لفت أنظار الحكام المصريين ، الذين كانوا دائماً ما يعولون في ظل الضغط الإنجليزي والفرنسي في أول الأمر ، ثم الضغط الإنجليزي فقط فيما بعد ، على المساعدة والمعونة من القناصل الروس المتواجدين في مصر . أدرك الدبلوماسيون الروس ضرورة إقامة علاقات جيدة مع القيادة المصرية ، واستفادوا من الطابع المزدوج للسلطة في هذه البلاد حيث كانت مصر تحتفظ بلقب ولاية عثمانية كبرى اسمياً فقط ، ولكنها مع بداية عام ١٨٨٢ تحولت بالفعل إلى مستعمرة بريطانية . سعى الدبلوماسيون الروس إلى إقامة علاقات وثيقة مع الخديوي والأمراء المصريين . وبرز هنا الدور الكبير الذي لعبه الدبلوماسي الروسي والقنصل العام لروسيا في مصر ألكسندر إيفانوفيتش كوياندير^{٥٨١} ، الذي شغل هذا المنصب في الفترة ما بين عامي ١٨٨٧-١٩٠٢ ، وهي أطول فترة يمكثها مسؤول دبلوماسي روسي من بين باقي القناصل الروس . وقد شهد عهده

٥٨١ عن مقالة : Египетские принцы в России ، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Goriachkin Gennady ، كوياندير إيفانوفيتش ألكسندر (١٨٤٧-١٩١٠) ، مسئول دبلوماسي ، وشغل منصب القنصل العام في مصر في الفترة من (١٨٨٧-١٩٠٢) ، كان مستشار الملكة ، من كتبية فنلندية ، ينحدر منها كذلك س.ب كوياندير ، والذي انضم إلى الخدمة العسكرية في ١٧٥٨ في ٣ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٠٢ ، صدر مرسوم من مجلس الشيوخ الحكومي بتتصيب كوياندير سفير فوق العادة ووزير مفوض في البرتغال . أنظر : أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، إدارة شؤون الأفراد والأملاك ، ١٩٠٢ ، حافظة رقم ٢١٧٤٩ ، وثيقة رقم ٧٠ ، السطور : ١ ، ١٣ .

إزدهاراً ملحوظاً للعلاقات بين مصر وروسيا في مجال السياسة والثقافة. ولهذا تم تكريم إ. كوياندير بعد انتهاء فترة عمله الدبلوماسي في مصر بمنحه، أعلى الأوسمة، وحظى باستقبال مهيب من قبل عباس حلمي الثاني^{٥٨٢} فقد كان هو المنظم لرحلة الخديوي عباس إلى أراضي الإمبراطورية الروسية آنذاك .



الخديوي توفيق

في عام ١٨٨٨ قام أبناء الخديوي توفيق الأمير عباس بك ولي العرش ذو الخامسة عشرة ربيعاً، وشقيقه الأمير محمد علي الذي كان يبلغ ثلاثة عشرة عاماً بزيارة روسيا. وصحب الأميرين طونين باشا رئيس المراسم بقصر الخديوي، ومدير المكتب التركي للخديوي محمد شكري بيه ونجيب أفندي المسؤول عن تربية الأمراء ومعلم اللغة العربية بالإضافة إلى عدد كبير من حاشية الملك^{٥٨٣}. وتوجه الأمراء في رحلة إلى ألمانيا وروسيا

وذلك «بعد إذن وتصريح من الخديوي والسلطان العثماني، الذي تم طلبه وفقاً للإتيكيت الشرقي»^{٥٨٤}.

تؤكد المصادر الدبلوماسية على أن الشقيقين عباس ومحمد، توجهوا لزيارة روسيا بناءً على رغبة والدهما الخديوي توفيق. وأشار القنصل العام أ. كوياندير^{٥٨٥} إلى وجود رغبة ملحة لحكام البلدين في توطيد العلاقات بين الحكومتين من خلال الاستفادة بتلك العلاقات الشخصية الجيدة .

وُلد ولي العهد المصري الصغير في الرابع عشر من يوليو ١٨٧٤ بالإسكندرية، وتربى عباس (الذي شغل منصب خديوي مصر في الفترة فيما بين عامي ١٨٩٢-١٩١٤) حتى عام ١٨٨٢ في حرم ملك والدته أمينة. وقد كانت اللغتان التركية والإنجليزية أول ما تعلمه من اللغات ثم بدأ التعامل باللغة العربية في عام ١٨٨٢ مع شقيقه محمد علي ومع ٥٠٠ من الأقران من العائلات البارزة في النزل التابع لقصر عابدين. استكمل عباس تعليمه في لوزان

- ٥٨٢ أنظر : جينادي جورياتشكين «الإسكندرية الروسية ، مصير المهاجرين الروس في مصر» موسكو ، ٢٠١٠ ص ٢٦٩- ٢٧٠ .
- ٥٨٣ أنظر : «الكتاب الحكومي» سانت بطرسبورج ، ١٢-٨-١٨٨٨ .
- ٥٨٤ أنظر : مجلة «موسكوفسكي فيدومستي» ١٥-٨-١٨٨٨ .
- ٥٨٥ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ١١٢٠، وثيقة رقم ١٩٩، السطر رقم ١١١ .

بناءً على أوامر والده الخديوي توفيق باشا . وفي عام ١٨٨٧ التحق الأمير ذو الثالثة عشر ربيعاً بأكاديمية ماري- تيريز في فيينا ، وسرعان ما انضم إليه شقيقه محمد علي . وفي هذه المؤسسة التعليمية الراقية «حصل الإثنان على ثقافة عسكرية ، ومهارات القيادة ، واحترام القانون» . ومن هناك توجه الشقيقان إلى زيارة روسيا .

بدأت رحلات ولي العهد الصغير خارج البلاد ، قبل بلوغه سن العاشرة . وأشار عباس باشا في مذكراته إلى أنه زار إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وسويسرا وروسيا وأستراليا والنرويج وعدد من الدول الأوروبية ليس من أجل الرفاهية والتسلية ، بل للتعرف على الإقتصاد الأوروبي وثقافة وحضارة تلك الشعوب^{٥٨٦} .

تجدد الإشارة إلى أن الزيارة الرسمية لأبناء الخديوي إلى الإمبراطورية الروسية ، قد تم الإعداد لها قبل وقت طويل من القيام بها . وتزامن ذلك مع ظهور أ.إ. كوياندير بالقاهرة في عام ١٨٨٧ . فهو يعد صاحب فكرة تلك الزيارة ، وكذلك صاحب مبادرة الزيارة الموازية لأعضاء الأسرة الحاكمة للإمبراطورية الروسية إلى القاهرة ، في إطار توطيد العلاقات بين الأسر الحاكمة في روسيا ومصر^{٥٨٧} .

يشير الخطاب الذي أرسله وزير الخارجية الروسي ن.ك. جريس^{٥٨٨} إلى أ.إ. كوياندير إلى أهمية الإعداد لتلك الزيارة . وقد جاء في الخطاب : «حسب المعلومات التي بلغتني من الوزارة ، فأنتم تعلمون جيداً إلى أي مدى ينظر جلالة الإمبراطور بعين الرضا ، لزيارة أبناء الخديوي سانت بطرسبورج وبعض المدن الروسية . وقد أمر جلالتهم باتخاذ كافة الإجراءات لكي تترك تلك الزيارة إنطباعاً إيجابياً لدى عباس باشا ومحمد علي باشا ، اللذان يتواجدان حالياً في روسيا»^{٥٨٩} .

٥٨٦ Memoires d'un souverain par Abbas Helmi II, Khedive d'Egypte (١٨٩٢) —

Le Caire, 1996. P. 47-50. (١٩١٤)

٥٨٧ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ١١٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٣٠٤ «زيارة أفراد العائلة المالكة لمصر» ١٨٨٨-١٨٩٠ ، السطور من ٢١٧-٢٩٨ .

٥٨٨ جريس نيكولاي كارلوفيتش (١٨٢٠-١٨٩٥) ، ترأس الخارجية الروسية في الفترة من ١٨٨٨-١٨٩٥ . ولد في عام ١٨٢٠ في محافظة فولينسكي . ينحدر من أسرة نمساوية - سويسرية - دانماركية . ١٨٩٨ تم تعيينه في الإدارة الآسيوية بالخارجية الروسية . أصبح القنصل العام بمصر في ٢٥ أغسطس / آب ١٨٥٦ ، كما أنه كان من أنصار فكرة مشاركة روسيا في بناء قناة السويس . أصبح القنصل العام في مولدافيا منذ أبريل نيسان ١٨٥٨ . أصبح سفير غير عادي ووزير مفوض في طهران منذ أغسطس / آب ١٨٦٣ ، ثم سفيراً في سويسرا منذ ١٨٥٩ . تقلد العديد من المناصب داخل وزارة الخارجية الروسية ، أنظر مقتطفات من تاريخ وزارة الخارجية الروسية ، مجلد ٣ ، موسكو ٢٠٠٢ ص ١٣٤-١٥٥ .

٥٨٩ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ١١٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٣٠٤ (١٨٩٠) السطر ٢٩٧ .

تم إعداد عربة قطار خاصة لاجتياز الأمراء الحدود الروسية - الألمانية . وكان في استقبال الضيوف عند نزولهم في محطة وارسو : الجنرال كوزمين حاكم دار المدينة ، والعقيد كليجيلست رئيس قائد الشرطة المعاون ، والعقيد جرينفيتش مدير القصور في وارسو ، وشخصيات رسمية أخرى . تحدث الأمراء معهم بالفرنسية بعض الوقت ، ثم أخذوا يتجولون مع الوفد المرافق لهم عبر غرف القصر ، ثم توجهوا إلى قصر لازينكوفسك المخصص لهم . وكانت تصطف هناك على طول الطريق المؤدي إلى القصر جموع غفيرة من العامة الذين رحبوا ترحاباً عميقاً بالأمراء عند وصولهم إلى وارسو^{٥٩٠} . وقد راقبت العاصمة البولندية كثيراً للأمراء المصريين ، لدرجة أنهم قرروا أن يبقوا بها ثلاثة أيام بدلاً من يوم واحد .

وصل أبناء الحاكم المصري إلى العاصمة الروسية ، في الثالث من شهر أغسطس لعام ١٨٨٨ ، وقد أقاموا بالطابق العلوي بالجناح الأوسط من مبنى القصر الشتوي «الإرمتاج» بصحبة الشخصيات المرافقة لهم . وفي مساء ذلك اليوم استقبلهم القيصر ألكسندر الثالث في قصر جاتشينسك ، حيث كان يقيم هناك للقيام بعمل بعض المناورات العسكرية . وشاهدوا مسرحية « الزواج » لجوجل ، التي قدمها فنانو مسرح قصر جاتشينسك . ثم قام الضيوف بالتعرف على أعضاء الأسرة الإمبراطورية ، وكذلك تعرفوا على الملك اليوناني الذي كان يحل ضيفاً على سانت بطرسبورج . وفي أثناء العرض المسرحي كان يوجد بوفيه على الجزء العلوي للمسرح الرئيسي يضم كافة أنواع المشروبات والحلويات وزجاجات الشامبانيا . وبعد الانتهاء من المسرحية كان في انتظارهم عشاء فاخر في القاعة الرئيسية عزفت خلاله الفرقة النحاسية التابعة لكورال القصر لحناً بديعاً . وبعد الانتهاء من تناول العشاء استقل الضيوف قطاراً خاصاً لنقلهم إلى سانت بطرسبورج واستقله أيضاً أبناء الخديوي المصري للذهاب إلى مقر إقامتهم^{٥٩١} . ونظراً لأن أبناء الخديوي المصري قد درسوا في الأكاديمية العسكرية في فيينا ، لم يقتصر برنامج الرحلة على زيارة أماكن المناورات الحربية فحسب ، وإنما تضمن أيضاً زيارة المواقع العسكرية المختلفة . وفي اليوم التالي في الرابع من شهر أغسطس نال الضيوف المصريين قسطاً من الراحة . بدأ البرنامج الرسمي لزيارتهم في العاصمة في الخامس من أغسطس بزيارة منزل بطرس الأول ، وترسانة القديس بيتر ، والقديس بافل . ثم توجه الضيفان لزيارة مصانع بيرد ، وكان في استقبالهم مدير

٥٩٠ أنظر : مجلة « موسكوفسكي فيدومستي » لتاريخ ١٥ - ٨ - ١٨٨٨ .

٥٩١ الكتاب الحكومي ، ٥ - ٨ - ١٨٨٨ ، العدد الجديد ٥ - ٨ - ١٨٨٨ .

مركز «دوبوي» لبناء السفن . كما شاهد الأمراء على منصة بناء السفن ، عملية بناء البارجة الحربية «الإمبراطور نيكولاي الأول» وزاروا باقي الورش الأخرى بالترسنة^{٥٩٢} .

في الثامن من أغسطس قام الأمراء المصريون بجولة في كرونشتاد ، حيث شاهدوا بحضور القيادة العليا المحلية . حصن قنسطنطين ، واطلعوا على بطاريات مع نماذج جديدة للأسلحة الحصون المنصوبة على المنصات . بدأت الجولة من محطة بريستريتشن ايا وقد راق للضيوف كثيراً تشغيل ألغام « وايت هيد » ، وللتعرف عليها عن قرب تم تفجير اثنين من تلك الإلغام أحدهما من غواصة ، والآخر من جزء السفينة فوق سطح الماء^{٥٩٣} .

في المساء استقبل الإمبراطور الضيوف في قصر روبشا . وفي اليوم التالي ذهب الجميع ، لمشاهدة المناورات ، لكن هذه المرة بالقرب من تسارسكوي سيلو . وبعد المناورات تناولوا وجبة الغداء في الهواء الطلق ؛ بمشاركة قادة وضباط الوحدات وضباط الأركان وممثلي العائلة المالكة . وفي الثالث عشر من أغسطس قاموا بزيارات وداع ، وتناول الضيوف طعام الغداء في تسارسكوي سيلو ، لدى الأمير العظيم فلاديمير الكسندروفيتش^{٥٩٤} .

قبل مغادرة الوفد المصري مدينة سانت بطرسبورج ، وقع حدث هام علمت به في العاشر من سبتمبر البعثة الروسية بالقاهرة من أن شيجلوف رئيس إدارة آسيا بوزارة الخارجية الروسية : «تفضل جلالة الإمبراطور في الحادي عشر من أغسطس بعمل حفل تكريم لأبناء الخديوي المصري ، حيث منح عباس باشا وسام القديس ستانيسلاف من الطبقة الأولى ، ومنح محمد علي وسام القديس ستانيسلاف من الطبقة الثانية مع النجمة وتم تكريم باقي الشخصيات المرافقة لهم بالوفد مثل طونين باشا الذي منح وسام القديسة أنا من الطبقة الثانية ، كما منح محمد شكري بيه وسام القديسة أنا من الطبقة الثالثة وتم تكريم نجيب أفندي بمنحه وسام القديس ستانيسلاف من الطبقة الثالثة»^{٥٩٥} .

بعد عام من تلك الزيارة كان لوالد الأميرين الخديوي توفيق رد فعل مماثل ، حيث قام بمنح الأوسمة المصرية للمسؤولين الروس بما فيهم الدبلوماسيين الذين كانوا في استقبال أبنائه لدى وصولهما إلى الإمبراطورية الروسية^{٥٩٦} .

Journal de St. Petersburg, 6-7.8.1888 ٥٩٢

الكتاب الحكومي ، ١٢ - ٨ - ١٨٨٨ . ٥٩٣

Journal de St. Petersburg, 9, 11, 12, 15.8.1888 ٥٩٤

أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ١١٨٢٠ ، وثيقة ٥٩٥

رقم ١٩٩ (١٨٨٨ - ١٨٨٩) . «Departement asiatique» ، السطر ١١١ .

٥٩٦ أنظر المرجع السابق .

تجدد الإشارة إلى أنه في منتصف عام ١٨٩٠ قال الخديوي توفيق في كلمته التي ألقاها عند استقباله المبعوث الروسي أ.كوياندير قبيل وصول ولي العرش نيكولاي ألكسندروفيتش إلى وادي النيل : «لن يغيب عن ذاكرتي مدى الرعاية التي أولاها جلالة الإمبراطور لأبنائي ، وحسن استقباله لهم في روسيا . ومن جانبي أتمنى أن أستقبل وريث عرش روسيا بالصورة اللائقة بشرف زيارته»^{٥٩٧} .

ترك أبناء الخديوي وخاصة الأمير الأكبر انطباعاً جيداً لدى الإمبراطورية الروسية حيث كتبت صحيفة «موسكوفسكي فيدومستي» إن كل من تحدث مع الأمراء أو كان قريباً منهم كان يزداد إعجاباً بعقل عباس بك المستنير وتطلعه للمعرفة . فقد كان الأمير يرغب في فحص كل شئ هام وشيق يقع تحت عينيه أثناء الرحلة . ولهذا فقد طالبت مدة بقائه في وارسو لثلاثة أيام بدلاً من يوم واحد . وقد قام الأمراء بزيارة الأماكن المهمة في سانت بطرسبورج وضواحيها وحضرا العديد من المناورات الضخمة وسباقات الخيل والعروض العسكرية .. الخ وفي هيئة الأركان الرئيسة أطلعوهم على مجموعة من أهم الخرائط في أوروبا . ويجب الأمراء أيضا جميع أنواع الألعاب الرياضية ، وخاصة ركوب الخيل . وكانوا يتحدثون ثلاث لغات أوروبية بطلاقة مع المحيطين بهم . وفي اليوم الثالث كانوا يتابعون بشغف هبوط أحد المناطيد العسكرية ، الذي هبط بالقرب من جاتشينا ، وكانوا يرغبون في التعرف على تركيب المنطاد وعمل طاقم الطيران»^{٥٩٨} .

وصل أبناء الخديوي موسكوفسكي مع الشخصيات المرافقة والخدم ، في الخامس عشر من أغسطس بالقطار السريع . وكان في استقبالهم بمحطة القطار عند المدخل الملكي اللواء يوركوفسكي رئيس الشرطة في موسكو ، الذي قام بتوصيل الضيوف إلى قصر بوتيشني^{٥٩٩} بالكرملين في عربة مكشوفة ، وقد ظل الأمراء يقيمون بهذا القصر طوال مدة بقائهم في موسكو . وبعد تناول الإفطار توجه الشقيقان لزيارة قائد القوات العسكرية الروسية أ.إ.بريفرن ومحافظة موسكو الأمير ف.م.جوليتسين . ثم ذهبوا لمشاهدة سباق الخيل بموسكوف في ساحة خودينسك وجلسا في لوج الجناح الملكي لمشاهدة تلك المسابقات . ثم

٥٩٧ أنظر المرجع السابق ، السطر ٢٠٠ .

٥٩٨ أنظر : صحيفة «موسكوفسكي فيدومستي» ، ١٥ - ٨ - ١٨٨٨ .

٥٩٩ يوجد قصر باتيشني بالقرب من حائط الكرملن في الجهة الغربية بين برج كومنانتسكي وتروتسكي . تم بناء هذا القصر في عام ١٦٥١ على إقراره محل إقامة البايار ميلوسلافسكي - القيصر أليكسي ميخائيلوفيتش .

عاد الشقيقان إلى قصر بوتيشني في الثامنة، ثم توجهوا بعد الغذاء إلى حديقة الإرميتاج، ولكن نظراً لوعكة صحية أمت بالشقيق الأكبر، لم يتسن لهما في السادس عشر من أغسطس مشاهدة المعالم المهمة بموسكو^{٦٠٠}؛ لذلك عوض الأمراء في اليومين الأخيرين من إقامتهما بموسكو ما فاتهما وزيادة .

في يوم الأربعاء الموافق السابع عشر من أغسطس توجه الأميران لزيارة غرفة السلاح حيث شاهدوا الكنوز التي تحويها تلك الغرفة باهتمام بالغ. وبعد إقامة قصيرة في مبنى المانيج بموسكو تجولا في الكرملين، في مركبة مكشوفة وكان يغمرهما إعجاب شديد بالمظهر الخارجي لكافة كنائسه، وجرس إيفان الأكبر وجرس القيصر ومدفعه. ثم توجه الأمراء لزيارة جراف أف. أورلوف دافيدوف الذي كان ذا صلة وثيقة بتنظيم معرض نيجنى نوفجورد والذي كان يرغب الأميران في التوجه إليه بعد جولتهما بموسكو. ثم توجهوا بعد ذلك إلى ليفورتوفا لزيارة أقرانهم تلاميذ الفرقة الأولى، في المدرسة العسكرية، حيث كانا يتحرقان شوقاً في انتظار لرؤية ما أعده هؤلاء الطلاب لضيوفهم.

توجه الوفد المصري في الخامسة مساءً في ثلاث مركبات مكشوفة، تجرها ثلاثة خيول إلى جبال فاروبيف. ومنه كما جاء في صحيفة «موسكوفسكي فيدومستي» توجه ضيوف الشرف الأجانب إلى قصر ألكسندروفسكي في حديقة نيسكوشني، ثم عادوا مرة ثانية إلى قصر باتيشني عبر جسر القرم وشوارع زوبوفسكي، وبريتشيشتينسكي، ونيكيتسكي، وتفيرسكي، ثم إلى تفيرسكي مرة أخرى لمشاهدة موسكو بشكل أفضل^{٦٠١}.

في العاشرة من مساء الخميس، غادر أبناء الخديوي المصري موسكو في قطار سريع إلى نيجنى نوفجورد. وقبل مغادرتهم لموسكو واصلاً لزيارتهمما للتعرف على معالم العاصمة الروسية القديمة، حيث زارا حديقة وقصر بيتروفسكي. وقبل المغادرة توجه الأمراء مرة ثانية إلى مكانهما المفضل، وهو ساحة سباق الخيل في موسكو بحضور أكثر من ٢٠٠ مشاهد. ورافق الأمراء إلى هناك محافظ موسكو الأمير ف.م جوليتسين^{٦٠٢}.

٦٠٠ أنظر : صحيفة « موسكوفسكي فيدومستي » ، ١٥ - ٨ - ١٨٨٨ .

٦٠١ أنظر المرجع السابق ، ١٨ - ٨ - ١٨٨٨ .

٦٠٢ أنظر المرجع السابق ، ١٩ - ٨ - ١٨٨٨ .

نشير كذلك إلى أن الصحافة في موسكو مثلها مثل باقي الصحف الروسية، قد اهتمت بزيارة الأميرين المصريين لروسيا، وكذلك بالوضع في وادي النيل. وجاء في صحيفة «موسكوفسكي فيدومستي» في العمود الخاص بالأخبار الأجنبية: «إن فيضان نهر النيل الآن أقل من المعتاد. وإن ارتفاع منسوب المياه في أسوان قد وصل إلى عشرين بوصة، أي أن المنسوب يعد أقل من المتوسط الذي يناسب المحاصيل الزراعية. وبالتالي فإن الوضع في مصر في ظل وجود هذا العجز في المياه سيكون خطيراً، وخاصة أن فقدان المياه يحدث بشكل مفاجئ كما هو ملاحظ الآن في وادي حلفا. ولا نبالغ أو نقلل من حجم الخطر عندما نقول إن محصول الذرة هذا العام قد أصابه ضرر جسيم، ولن يزرع قمح في مصر العليا في العام القادم، أما المحاصيل الزراعية الأخرى فيمكن زراعتها بتكلفة باهظة جداً»^{٦٠٣}.

أمضى الوفد المصري عدة أيام في نيجني نوفجورد. وكان الهدف الأساسي من زيارة تلك المدينة، هو مشاهدة معرض نيجني نوفجورد، الذي أفتتح منذ فترة بعيدة على نهر الفولجا، ولم يكتف بخطف أنظار التجار في روسيا فحسب، ولكن لفت إليه الأنظار من الدول الأخرى، وكذلك دول الشرق. ومن الجدير بالذكر، أن المصريين قد بدءوا المشاركة في هذا المعرض منذ تسعينيات القرن التاسع عشر. ومن المرجح جداً أن الفضل في ذلك يرجع إلى الأميرين عباس ومحمد علي وأعضاء الوفد المصري، فربما أنهما قد حصلا من والدهما على تكليف بتقييم إمكانية مشاركة التجار المصريين، في العمليات التجارية التي كانت تتم على نهر الفولجا. وفي الرابع والعشرين من أغسطس، غادر المصريون على متن سفينة «نياجارا» متوجهين إلى أسفل نهر الفولجا حتى سمارا، ومنها انتقلوا بالقطار إلى كييف»^{٦٠٤}.

كان من الطبيعي ألا يزور ولي العرش المصري وشقيقه والوفد المرافق لهما كييف، دون المرور على قازان لزيارة الأماكن الأثرية الموجودة بها، والتعرف على نمط الحياة في أكبر المدن الروسية الإسلامية، التي تعد واحدة من مراكز التطور الثقافي للإمبراطورية الروسية.

٦٠٣ أنظر: «موسكوفسكي نوفستي - أنباء موسكو»، ٢١-٨-١٨٨٨، وهذا مجرد مثل واحد على اهتمامات الصحافة الروسية.

٦٠٤ أنظر: «أنباء محافظة نيجني نوفجورد»، ٢٤-٨-١٨٨٨.

وصل الأميران كييف في الخامس والعشرين من أغسطس عبر القطار السريع . وأقام أعضاء الوفد المصري في غرف فخمة بفندق « جراند أوتيل» . وقضى الضيوف في كييف ليلة واحدة وغادروا المدينة في السادس والعشرين من نفس الشهر عبر القطار المسائي ، ومع ذلك تمكن الأمراء من مشاهدة المدينة ، حيث ذهبوا إلى كنيسة أندريفسكي وشاهدوا عبر شرفاتها المناظر الخلابة لبادول وزادني بروفيا . ثم عرجوا على بوابات نيكولسكي القريبة من حديقة المدينة ، ومروا كذلك على شارع ألكسندروفسكي كييف وزاروا بيتشيرسك ؛ ليشاهدوا من بعيد غار كييف - بيتشيرسكي . وفي المساء سافر الضيوف بالقطار إلى لفوف ومنها عادوا إلى لوزان ٦٠٥ .

هكذا قد ساهمت رحلة الأميران المصريين الشبان إلى روسيا ، في وضع حجر الأساس للاتصالات مستمرة بين أفراد أسرة رومانوف وأسرة محمد علي الحاكمين وقد استغل الجانبان تلك الاتصالات لتحقيق مصالح سياسية . فقد كان للاستقبال الباهر الذي حظي به ولي العرش المصري وشقيقه في سانت بطرسبورج والمدن الروسية الأخرى وتكريمهما وتكريم أعضاء الوفد المرافق لهما بالغ الأثر في فتح الآفاق لتوطيد العلاقات الثنائية بين البلدين على أعلى مستوى . علاوة على ذلك ، أبلغ الشقيقان عباس ومحمد علي القيصر رغبة والدهما الخديوي توفيق في استقبال العديد من الضيوف الروس رفيعي المستوى بالقاهرة إلى القيصر الروسي . وقد تحققت تلك الرغبة بالفعل ، حيث لم تمض أسابيع قليلة إلا وقد جاء إلى مصر وفد رفيع المستوى من الضيوف الروس ؛ رداً على الزيارة التي كان قد أجراها الوفد المصري .

يدور الحديث عن زياره متزامنة تقريبا لزيارة الأمراء المصريين إلى روسيا قام بها الأمير العظيم سيرجي ألكسندروفيتش والأميرة العظيمة يليزافيتا فيدروفنا والأمير العظيم بافل ألكسندروفيتش مصر في الفترة من أكتوبر - نوفمبر من عام ١٨٨٨ ٦٠٦ . وما نشرته صحافتنا آنذاك ، يشير إلى أن الأمراء الثلاثة سبق وأن تعرفوا على الأمراء المصريين في أغسطس أثناء زيارتهم لمدينة سانت بطرسبورج ، ومن المرجح أن يكون سيرجي وبافل ألكسندروفيتش ويلييزافيتا فيدروفنا قد أبلغوهم آنذاك عن زيارتهم المرتقبة إلى وادي النيل .

٦٠٥ أنظر : مجلة « كييفليانين» ٢٦ ، ٢٨ - ٨ - ١٨٨٨ ، أنظر أيضاً « كيفسكوي سلوفا» ٢٦ ، ٢٧ - ٨ - ١٨٨٨ .

٦٠٦ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ١٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٣٠٤ ، السطور ٢١٧ - ٢٩٨ .

أما عن كيفية استقبال أفراد عائلة رومانوف في القاهرة ، فيمكن التعرف على هذا الأمر من خلال كلمات الخديوي توفيق نفسه ، والتي أدلى بها للممثل الدبلوماسي الروسي: «إنني في منتهى السعادة وأرغب في استقبال رحالة أغسطس كضيوف في الشخصيين الأعراف»^{٦٠٧}. فيما تم تكريم ثلاثة وثلاثين مصرية ومنحهم الأوسمة الروسية بداية من الوزير الرئيس حتى قائد يخت «فايزباني» ، وذلك نظير الاستقبال الباهر للأمراء الثلاثة»^{٦٠٨} بعد مرور أسابيع قليلة وصل القاهرة الأمير العظيم بيتر نيكولايفيتش مع زوجته الأميرة ميليتسيا نيكولايفنا في نوفمبر . ونظرا للاستقبال الباهر ، فقد تم تكريم سبعة عشر مصرية بداية من الأمير حسين باشا (الذي منح الصليب الكبير للقديسة أنا) حتى حارس القنصلية الروسية (منح الميدالية الفضية وبها وشاح ستانيسلاف ليعلقها على صدره)^{٦٠٩} .

كما زار وادي النيل كل من الأميران ألكسندر وسيرجي نيكولايفيتش أثناء رحلتها حول العالم في عام ١٨٩٠^{٦١٠} . كما زار مصر الأمير قنستانتين بيتروفيتش أولدنبورجسكي مع زوجته خلال الفترة من ديسمبر ١٩٠١ إلى يناير ١٩٠٢ وقضيا فصل الشتاء في فندق «الجزيرة بالاس» الذي كان قصراً خاصاً بالخديوي في الضواحي وتحول إلى فندق . وبعد أسبوع حضر إلى القاهرة الأمير العظيم بوريس فلاديميروفيتش ، وأقام في فندق «شبرد» . وحسب ألكويانديركان الخديوي عباس حلمي الثاني ببذل قصارى جهده وهو يستقبل الضيوف الأمراء أن يكون لطيفاً وودوداً معهم حيث إنه حتى الآن يتذكر بسعادة غامرة ذلك الاستقبال الباهر الذي حظى به من قبل العائلة المالكة الروسية عام ١٨٨٨^{٦١١} .

في مطلع القرن العشرين ، أصبح أفراد الأسرة الحاكمة في مصر يتوافدون على الإمبراطورية الروسية . ففي عام ١٩٠٠ وصل الخديوي عباس حلمي الثاني إلى بيسارابيا متخفياً ، ومنها توجه إلى الأوديسا . وكان الإعداد لزيارة الخديوي قد تم في مطلع أغسطس

- | | |
|-----|--|
| ٦٠٧ | أنظر المرجع السابق ، السطر ٦٤ . |
| ٦٠٨ | أنظر المرجع السابق ، السطر ٢١٧ . |
| ٦٠٩ | أنظر المرجع السابق ، السطر ١٣٦-١٣٧ . |
| ٦١٠ | أنظر : رادي.ج.ي «٢٣٠٠ ميل على يخت تامارا» رحلة جلالة الأمراء ألكسندر وسيرجي نيكولايفيتش في الفترة من عام ١٨٩٠-١٨٩١ ، مجلد ١ ، سانت بطرسبورج ، ١٨٩٢ . |
| ٦١١ | أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة ١١٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٣٥ ، السطر ١٩٦ . |



الخديوي عباس حلمي الثاني

من نفس العام بطريقة سرية للغاية، حتى أن المبعوث أ.إ. كويانديير علم بها عن طريق الصدفة أثناء قراءة صحيفة «فيدومستي سانت بطرسبورج» .

بعد لقاء رسمي خاص مع الخديوي عباس حلمي، كتب الدبلوماسي كويانديير إلى وزير خارجيته فن.ن. لامزدورف: «إن عباس باشا قد أسهب كثيراً في وصف إنطباعاته عن رحلته إلى بيسارابيا والأوديسا، وقال إنه كان يجد المجاملة والاهتمام من جانب سلطات الإمبراطورية في كل مكان، واعتبر أنه من الواجب عليه إرسال برقية إلى عظمة الإمبراطور لدى مغادرته لأراضي الإمبراطورية الروسية يعرب

فيها عن خالص امتنانه وشكره العميق، ثم جاء الرد الكريم من الإمبراطور ليلمس وجدانه»^{٦١٢}. ولم يكتف القيصصر بالرد على برقية الخديوي المصري، بل قام بمنحه أعظم وسام روسي. وقد كتب أ.إ. كويانديير في تقرير بتاريخ الأول من يونيو لعام ١٩٠٢: «لقد شرفت في اليوم الثالث بتسليمه في استقبال رسمي مهيب وسام «القديس ألكسندر نيفسكي» «المرصع بالماس»^{٦١٣}.

عاود الأمير محمد علي ابن الخديوي توفيق الذهاب مرة ثانية إلى محبوبته روسيا، حيث إنه ذهب في جولة من مصر إلى اليابان عبر خط السكة الحديد في سيبيريا الذي تم بناؤه في عام ١٩٠٩^{٦١٤}. وكتب ألكسندر ألكسندروفيتش سميرنوف المبعوث الدبلوماسي والقنصل العام الروسي في مصر إلى وزير الخارجية الروسي أ.ب. ايزفولسكي: «زارني مؤخراً، سمو الأمير محمد علي نجل الخديوي، الذي سافر إلى اليابان عبر سائر الأراضي الروسية وسيبيريا. وقد أعرب لي الأمير عن امتنانه العميق لاستقباله الباهر في روسيا والخدمات التي قدمت له أثناء رحلته. وطلب مني الأمير أن أبلغكم شكره وامتنانه العميق» .

٦١٢ أنظر المرجع السابق، السطر ٩٣ .

٦١٣ أنظر المرجع السابق، السطر ٢٤٦ .

٦١٤ لمزيد من التفاصيل عن تلك الرحلة، أنظر: جينادي جورباتشكين «من دولة الأهرامات إلى دولة الشمس المشرقة» ١١ فوستوتشنايا كوليكنتسيا، خريف ٢٠١٠ .



في الختام يقول الأمير محمد علي وهو يتذكر ذلك الاستقبال المهيّب الذي وجده لدى الإمبراطور ألكسندر الثالث ، أثناء رحلته هو وشقيقه الخديوي الحالي عندما كانا صغاراً : « إنه كان يشعر طوال تلك الرحلة الحالية ، كأنه ضيف شخصي لجلالة الإمبراطور كما تمنى أن يتم إبلاغ جلالته إمتنانه القلبي ومشاعره المفعمة بالإخلاص والتفاني»^{٦١٥}.

أدت الحرب العالمية الأولى إلى توقف تبادل تلك الزيارات بين أفراد الأسرة المالكة في كلتا الدولتين . وقد ساهمت تلك الزيارات المشتركة في تعميق جذور العلاقات الثنائية بين البلدين . كما أبرزت وجود اهتمام مشترك ليس في مجال السياسة فحسب (حيث كان العدو المشترك بين البلدين هو الباب العالي) ، ولكن في مجال التبادل الحضاري الثقافي بين البلدين أيضاً .

٦١٥ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف رقم ٣١٧ ، حافظة رقم ٢١٨٢٠ ، وثيقة رقم ١٥٤ ، السطر ٢٣ .

ستالينجراد تفتح الباب ... بمناسبة مرور ٦٥ عاماً على إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر

ذكرت صحيفة « إزفيستيا » في التاسع من سبتمبر ١٩٤٣، في أجواء الحرب العصبية بعد معركة ستالينجراد وكورسك إن « عملية تبادل الرسائل في الآونة الأخيرة بين إم. مايسكي نائب المبعوث الشعبي السوفيتي للشئون الخارجية، ومصطفى النحاس رئيس الحكومة المصرية أسفرت عن أنه ابتداءً من السادس والعشرين من أغسطس ١٩٤٣، سيتم إنشاء العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، ونصت الإتفاقية على تبادل السفراء»^{٦١٦}.

في الرابع عشر من أكتوبر ١٩٤٣ تم تعيين نيكولاي فاسيليفيتش نوفيكوف، كأول سفير سوفيتي مفوض فوق العادة في مصر. وكان قد حصل في عام ١٩٣٠ على تخصص مستشرق-اقتصادي من معهد الاستشراق في لينينجراد، وبدأ العمل عام ١٩٣٨ في المفوضية الشعبية للشئون الخارجية. أما في منتصف عام ١٩٣٩ فقد ترأس قسم الشرق الأوسط بمفوضية الشعب للشئون الخارجية.

كان أف.سلطانوف قنصل البعثة السوفيتية المستقبلية، في بلاد الأهرامات أول من «مهد» الطريق إلى القاهرة عبر طهران. وقد أخبرني أثناء حديثي معه في ديسمبر ١٩٩١ بأن موعد وصول نوفيكوف إلى الشرق الأوسط قد تأجل بسبب ظروف الحرب العصبية. وقد وصل القنصل إلي مصر قبل شهر ونصف من وصول السفير المفوض؛ لكي يقوم بإعداد إجراءات استقبال السفير واستيضاح الوضع.

٦١٦ عن مقالة : Сталинград дает «ДОБРО». К 65-летию установления дипломатических отношений между СССР и Египтом نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Goriachkin Gennady . صحيفة إزفيستيا، موسكو ١١، ٩، ١٩٤٣.

كان ن.ف. نوفيكوف قد وصل مطار القاهرة ، في الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٣ . وبعد يومين قدم أوراق اعتماده للنحاس باشا ، الذي أدلى بالتصريح التالي : «يسعدنى أن أرحب في شخصكم بأول سفير رسمى من الاتحاد السوفيتي لدى مصر . كما أشعر بالفرحة الغامرة إذ أن الحكومة التي أشرف برئاستها بادرت بطلب إقامة العلاقات الدبلوماسية مع دولتكم القوية . وأن تلك المبادرة لم تذهب سدى . وأرى في مجيئكم إلينا ليس نجاحاً للدبلوماسية المصرية فقط ، بل وبداية لمرحلة جديدة لوجودها الوطني»^{٦١٧} .

جاء رد ن.ف. نوفيكوف على هذا الترحاب ، الذي خرج عن إطار البروتوكول الرسمي : «لى عظيم الشرف أن أكون ممثلاً للاتحاد السوفيتي في دولة ، مثل مصر ذات الحضارة العريقة ، التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، وهي دولة قديمة ، ويافعة في نفس الوقت ، وترنو بالكلية إلى المستقبل . وتقدر الحكومة السوفيتية تقديراً رفيع المستوى حسن النوايا لدى مصر . ومن جانبنا فلن نألو جهداً نحو السعي لتوطيد علاقات الصداقة بين البلدين»^{٦١٨} .

لقد نجح الدبلوماسي المحنك نوفيكوف في إقامة علاقات وثيقة الصلة مع النخبة السياسية والاجتماعية بمصر في فترة قصيرة جداً ، إلا انه قد عاد إلى وطنه في نهاية عام ١٩٤٤ . وفي يناير من عام ١٩٤٥ حل محله أ.د. شيبورين^{٦١٩} . هذا ويذكر أنه قد سبق عملية تدشين العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفيتي فترة من الجهود المضنية التي بذلها الاتحاد السوفيتي ودوائر اجتماعية وسياسية لها رؤية بعيدة من الجانب المصري .

من المعروف أن تاريخ العلاقات بين حكومتي البلدين يعود إلى أمد بعيد ، حيث أصدرت الإمبراطورة كاترين الثانية مرسوماً في التاسع عشر من أغسطس لعام ١٧٨٤ ؛ بإيفاد كوندراتي فون طونوس كأول قنصل روسي إلى الإسكندرية في الثالث من يوليو ١٧٨٥ . ويعد ثورة أكتوبر ظلت مصر تعترف بالقيادات السابقة للمفوضية الدبلوماسية الروسية والقنصلية العامة حتى السادس من أكتوبر ١٩٢٣ ، عندما قرر مجلس وزراء دولة الأهرامات

٦١٧ ن . ف . نوفيكوف «طرق ومناهج دبلوماسية» ، مذكرات ١٩٤٣-١٩٤٤ «موسكو ١٩٧٦ ، ص ٢٧ .

٦١٨ المصدر السابق ، ص ٢٨ .

٦١٩ مركز الوثائق القومية ، القاهرة ، صندوق ١٤٠ «عابدين . وزارة الخارجية المصرية» ، جرد ١٩٢٤ «روسيا» ، مذكرة عن التصديق على أوراق الإعتماد الخاصة بالوزير المفوض فوق العادة الروسي في مصر ١٩٤٤/١٢/٦ - ١٩٤٥/١/١٦ السطر ١ ، ٢ ، باللغة العربية .

إنهاء عمل تلك القيادات^{٦٢٠}. في نفس الوقت لم يكن هذا يعني أن مصر قد اعترفت بالسلطة السوفيتية.

في مؤتمر لوزان للشرق الأوسط ، الذي عُقد في يناير من عام ١٩٢٣ تقدم المبعوث الشعبي للشئون الخارجية ج.ف.تشيشيرين بمبادرة حول تبادل البعثات الدبلوماسية أمام الوفد المصري . في الوقت الذي صرح فيه أعضاء الوفد المصري ، الذين كانوا يؤيدون بالفعل تلك المبادرة ، من أن نظام الاستعمار البريطاني ليس لديه أي أسس قانونية ، تحول دون بدء العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر ، خاصة بعد حصول مصر على الاستقلال الرسمي في الخامس والعشرين من أبريل ١٩٢٢ . في الخامس والعشرين من أبريل ١٩٢٣ ، كتب مفوض الشعب للشئون الخارجية رسالة إلى سفير الاتحاد السوفيتي بإيطاليا ف.ف.فاروفسكي : «من المؤكد أنك ستلتقي بمصريين في لوزان ، فرجاء أن تستغل تلك الفرصة ؛ لكي ترسل إلى الحكومة المصرية الدعوة لبدء إقامة العلاقات الدبلوماسية»^{٦٢١} . وكان تشيشيرين يشير في حواراته مع الوفد المصري وفي مراسلاته إلى ف.ف. باروفسكي إلى الاستفادة المتبادلة من تطوير العلاقات التجارية بين البلدين .

بعد مصرع ف.ف.فاروفسكي في مايو ١٩٢٣ واصل السفير السوفيتي الجديد في إيطاليا ن.أ.ايوردانسكي الاهتمام بهذه المسألة ، وقام بتوجيه رسالة إلى وزير الخارجية المصري آنذاك واصف غالي بك إقترح فيها « إقامة علاقات سياسية وتجارية بين البلدين لوجود علاقات اقتصادية وثيقة على مدار سنوات طوال تجمع بين روسيا ومصر»^{٦٢٢} .

كانت الانتخابات البرلمانية في مصر قد أسفرت عن تشكيل الحكومة الجديدة من داخل حزب الوفد الوطني ، غير أن الحكومة لم تقرر مناقشة مسألة إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي بشكل رسمي ، إلا بعد أن وصل الحزب إلى السلطة .

- ٦٢٠ أنظر بالتفصيل أرشيف وزارة الخارجية الروسية ، ملف رقم ٨٩ العلاقات بين روسيا وتركيا ، وثيقة ٩٦٤ ، إرشادات للقنصل العام بالإسكندرية عند تعيينه بالمنصب ، ١٧٨٤ نفس المصدر ، وثيقة ٩٨٦ ، إيفاد نائب القنصل العام بالإسكندرية أوسترمان بوصوله للإسكندرية والاحتفال بتوليته المنصب ورفع العلم ولقائه مع الباشا وممثلي من الخارجية . ١٧٨٥ نفس المصدر ، ملف رقم ٨١٧ ، حافظة رقم ٣/٨٢٠ ، وثيقة رقم ٣٦٩ .
- ٦٢١ حول تاريخ إقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفيتي ، وثائق - مجلة الحياة الدولية، العدد رقم ٦ ، لعام ١٩٦٤ .
- ٦٢٢ المرجع السابق .

على أية حال قد جرت لقاءات بين الدبلوماسيين المصريين والسوفيت في العديد من عواصم العالم . وكان ذلك في أنقرة وباريس ولندن على مدار عدة أعوام من عام ١٩٢٠-١٩٣٠ . كان الجانب المصري يرغب في إقامة تلك العلاقات الدبلوماسية بين البلدين بيد أنه طرح بصرامة مسألة ضرورة اعتراف الاتحاد السوفيتي ببطلان نظام الامتيازات والذي بمقتضاه يكون للدول الأوروبية الحق في الحصانة وتخليه عن الدعاية والترويج للثورة في الأراضي المصرية ، وتخليه عن مبدأ تصدير الثورة .

تخلّى الاتحاد السوفيتي عن حقوق الامتيازات (بالمناسبة فقد الروس في مصر تلك الحقوق في أكتوبر من عام ١٩٢٣) ، وكان ذلك عقب نشر الحكومة السوفيتية بعد ثورة أكتوبر، المعاهدات السرية للوفاق الثلاثي لتقسيم دول العالم العربي . أما فيما يتعلق بالدعاية الشيوعية ، فقد كان الأمر أكثر صعوبة ، حيث كانت مصر من الدول المستهدفة لتصدير الثورة العالمية . وعلي صعيد آخر ، فقد أرسل الحزب الشيوعي المصري واتحاد الكادحين الشعبي في مصر التابع للحزب الشيوعي ، عدداً من أعضائهما إلى موسكو بغرض الدراسة بجامعة ستالين الشيوعية لعمال الشرق الكادحين . غادر الأفراد المدربون والمؤهلون بعد الانتهاء من الدراسة إلى مصر . وسرعان ما انضموا للعمل في النشاط الثوري ، ولكن تم اعتقالهم وإدانتهم وحبسهم في السجون . وبعد أن قام الشيوعيون بتوجيه رسالة تهديد واضحة إلى حزب الوفد الحاكم في يناير ١٩٢٤ ، أعبوا فيها عن حرصهم على الزعامة داخل حركة التحرر الوطنية في البلاد ، والإستيلاء علي مصنع « إيجولين » بالإسكندرية للزيوت النباتية ، قامت حكومة الوفد المصرية علي الفور بشن ضربة قوية لكل من الحزب الشيوعي المصري والاتحاد العام للعمال المصري . وفي رسالة موجّهة للأممية الشيوعية في الثالث عشر من مارس ١٩٢٤ ، أعلن فيها النشطاء الشيوعيون الناجون أنه لم يبق سوى اثنين أو ثلاثة فقط من أعضاء اللجنة المركزية خارج السجن وقالوا : «لقد تحطمتنا تقنياً ومعنوياً»^{٦٣٣} . بيد أن حالة الحماس الثوري التي تحولت إلى عقيدة فكرية راسخة تعززت من خلال تحفيز ومساندة الأممية الشيوعية ، والنقابات الشيوعية مما دفع الشيوعيين للدخول في مواجهة حقيقية مع الوفد والمجتمع المصري . بل ووصل الحال إلى أن أصدر علماء الإفتاء في مصر فتوى تدين الشيوعية والبلشفية . وقد أصيبت سلطات

٦٣٣ المركز الروسي لتوثيق وتحقيق وثائق التاريخ الحديث ، الملف رقم ٥٣٩ ، الحافظة رقم ٣ ، الوثيقة رقم ٦٢٩ ، السطر ١٨ .

الاحتلال والسلطة المصرية بالذعر مما نشر في الصحف المحلية عن أن الشعب المصري بدأ يحرص علي معرفة التغييرات التي يشهدها الاتحاد السوفيتي . لكن عندما نقيس ذلك من وجهة نظرنا الحالية ، سنجد أن هناك تناقضاً في الموقف السوفيتي ففي . الوقت الذي يرغب فيه الاتحاد السوفيتي في إنشاء علاقات دبلوماسية مع مصر، نجد أن عمليات التدريب التي تتلقاها الكوادر الثورية بجامعة لينين لعمال الشرق الكادحين ، قد أبعدت الدولة المصرية عن روسيا السوفيتية .

مما لا شك فيه أن الإصرار على تطوير العلاقات التجارية مع تلك الدولة الإفريقية قد أتى بثماره . فالبرلمان المصري سبق وأن أدرج في جدول جلساته ، مسألة التجارة مع الاتحاد السوفيتي، واستغلال السوق السوفيتي الواسع لصالح مصر . وأخذ عدد كبير من نواب البرلمان يذكرون كيف أن روسيا سبق وأن اشترت في بورصة الإسكندرية في فترة ما قبل الحرب ١٠٪ من القطن المصري ، وكانت تنافس الأوروبيين بشكل قوي مما حقق مكاسب جيدة للبلاد .

بدأت الصفقات التجارية الخاصة بالقطن (من خلال بورصات مانشستر وليفربول) ، و صفقات الأخشاب ومشتقات النفط وغيرها ، تشهد تطوراً في الفترة من عام ١٩٢٣-١٩٣١ ، ثم حدثت بعد ذلك حالة من الركود ، وتوقف بعد ذلك تصدير القطن تماما . وفي عام ١٩٢٥ الأكثر ملائمة للتجارة حيث وصل نصيب مصر من حجم التجارة الخارجية للاتحاد السوفيتي إلى نحو ٣٪ فقط ، وهو أقل من المستوى الذي كان عليه قبل الحرب . بيد أن تلك الإنجازات المتواضعة قد تعرضت كذلك لاختبارات قاسية ، فتارة كان الجانب المصري يفرض ضرائب جمركية مضاعفة (وذلك بضغط من الاحتلال البريطاني ورجال الأعمال) ، وتارة كان يتم تفرغ السفن السوفيتية (لدواعي أمنية) خارج ميناء الإسكندرية ، وتارة أخرى كان يتم وقف نشاط الشركات التجارية السوفيتية بالإسكندرية بسبب الأحداث السياسية . وقد تسببت تلك الممارسات في تكبيد مصر خسائر فادحة .

بعد انضمام مصر إلى عصبة الأمم في عام ١٩٣٦ والتي يعد الاتحاد السوفيتي عضواً فيها منذ عام ١٩٣٤ أصبحت العلاقات الثنائية بين البلدين تخضع لميثاق هذه المنظمة الدولية . هذا الميثاق الذي ضمن اعتراف الدولتين ببعضهما البعض بشكل قانوني . ومع حلول عام ١٩٣٩ كان هناك رغبة عارمة في استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ،

وقد شهد هذا العام مباحثات بين ممثلي البلدين ، أسفرت عن اتخاذ قرار مبدئي بإقامة العلاقات الدبلوماسية بداية من الحادي والعشرين من أغسطس ، إلا أنه بعد عشرة أيام سرعان ما اندلعت الحرب العالمية الثانية .

لم تشارك مصر في الحرب العالمية الثانية بشكل مباشر إلا أن أراضيها كانت مسرحاً للعمليات العسكرية في هذه الحرب . فقد كانت ألمانيا وحلفاؤها يعلقون أمالاً عريضة على الحملة العسكرية في أفريقيا ؛ بهدف الوصول إلى كافة مناطق إنتاج النفط بالشرق الأوسط . بدأت تلك الحرب بهجوم الإيطاليين علي مصر في سبتمبر ١٩٤٠ وبعد طرد القوات الإيطالية من مصر تم إعادة نشر الفيلق الأفريقي للقائد العسكري رومل في ليبيا في فبراير ١٩٤١ لمساعدة الإيطاليين . وفي صيف ١٩٤٢ كانت مدرعات جيش رومل تحتاج إلى رمية واحدة قصيرة لكي تقع الإسكندرية تحت أقدام المنتصر إلا أن هذه الرمية لم تحدث وذلك يرجع إلى العملية الناجحة « ألترا » التي أدت إلى فك شفرة الاتصال اللاسلكي القائم بين رومل وقيادة الجيش الألماني ، حيث لم يتم تزويد الفيلق الأفريقي بالوقود والذخيرة والعتاد العسكري إلخ ... وترجع أيضاً إلى نجاحات الإنجليز وهزائم الألمان في العلمين . وفي يوليو ١٩٤٢ فقد الهجوم الألماني قوته ، وفي نوفمبر تحت ضغط القوات الإنجليزية عادت القوات الألمانية أدراجها نحو الغرب ، إلى أن تم القضاء على بقاياهم في تونس في مايو ١٩٤٣ .

يرجع السبب الرئيس وراء هزيمة قوات « المحور » في العلمين ، إلى نقص القوات والعتاد وجاءت موقعة ستالينجراد ، لتحرر رومل من تلك الإمدادات . فقد قام المدافعون البواسل عن ستالينجراد عند قلعة نهر الفولجا ، بإعاقة جحافل هائلة لقوات الرايخ الألماني . وتصدت لهجوم قوات هتلر الواحدة تلو الأخرى ، ثم حاصروهم ، وأبادوا البعض ، وأسروا اثنين وعشرين فرقة ألمانية (أكثر من ٣٠٠ ألف جندي) كانوا تحت قيادة الفيلد مارشال باولوس . أما الفيلد مارشال الأخر رومل فقد توسل للفورهر في ذلك الوقت بإرسال ولو بضع فرق إلى مصر في محاولة لإنقاذ الحملة العسكرية الألمانية - الإيطالية ، ولكنه لم يحصل على شيء حيث حرّمته ستالينجراد من هذه الفرصة ، وتخلص الشرق الأوسط من مستعبد جديد . وكتبت الصحافة العربية آنذاك « ستالينجراد أنقذت القاهرة وبغداد من خطر مميت »^{٦٤} .

أدى الانتصار الساحق للجيش السوفيتي في الحرب الوطنية العظمى ، إلى تحول الرأي العام بالمجتمع المصري لدعم ومساندة التحالف المضاد لهتلر وزيادة الشعور بالتعاطف مع الاتحاد السوفيتي . وخير دليل على ذلك ، يتمثل في إبداعات الأديب المصري البارز طه حسين . وكتب ن.ف.نوفيكوف يقول عن طه حسين : «لقد كان شخصية بارزة ، وديموقراطياً في معتقداته ، وكان يتحدث عن المعتدي الفاشي بكرهية شديدة وكان يبدي تعاطفه الشديد نحو الاتحاد السوفيتي ، الذي قاد حرب التحرير بنجاح ساحق . وقد دفعته هذه المشاعر تحديداً وليس الاعتبارات الرسمية إلى الانضمام إلى لجنة الصندوق المصري لمساعدة الشعب السوفيتي ، حيث كان اسمه يمتلك قوة جاذبة للنخبة المثقفة المصرية . فقد كان في الخمسين من عمره وهو في مجد إزدهاره الأدبي والعلمي»^{٦١٥} . وكان طه حسين الأستاذ بجامعة القاهرة والأديب الجليل يشغل منصب رئيس شرفي بالمكتب الإعلامي لهذه اللجنة ، والذي كان يضم أبرز رؤساء تحرير العشرات من الصحف والمجلات المصرية .

خلال الفترة من عام ١٩٤٢-١٩٤٣ ظهرت في مصر حالة من الوله بالأدب السوفيتي : وبدأت دور النشر الكبرى بالقاهرة وكذلك المحلات مثل : «جين ، بريد» ترسل طلبات رسمية للحصول على المؤلفات الفنية والأدبية ، التي كتبها المراسلون العسكريون السوفيت مثل : أ.ايرينبورج ، ف.بيليايف ، ل.أوسبينسكي ، ل.خفات وغيرهم^{٦١٦} .

لابد من الإشارة إلى أن مشاركة بريطانيا في التحالف المضاد لهتلر ، قد أثر علي موقفها من مسألة تأسيس العلاقات السياسية المصرية - السوفيتية ، فهي لم تعد بعد ذلك تعارض التقارب بين مصر والاتحاد السوفيتي . وأخذ الدبلوماسيون المصريون في العواصم العالمية الكبرى ينصحون بضرورة إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي . وكتب أحدهم من واشنطن يقول : «لاشك أن تأسيس علاقات دبلوماسية مع دولة حظيت بمكانة مرموقة في العالم ، وأصبحت دولة عظمى قوية ، سيجلب لمصر مكاسب سياسية واقتصادية»^{٦١٧} .

- | | |
|-----|---|
| ٦٢٥ | ن . ف . نوفيكوف ، المرجع السابق ص ٧٨ . |
| ٦٢٦ | أرشيف الدولة الروسية للفن والأدب ، الملف رقم ٦٣١ ، لجنة الشؤون الخارجية لاتحاد الكتاب السوفيتي ، محفظة رقم ١٣ ، وثيقة رقم ٢٢٥ ، السطر من ٢٣ - ٢٥ ، وكذلك حافظة رقم ١٤ ، وثيقة رقم ٣٤٨ ، السطر من ١ : ٤٦ . |
| ٦٢٧ | فؤاد المرسي ، العلاقات المصرية - السوفيتية ١٩٤٣ - ١٩٥٦ ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٥١ (باللغة العربية) . |

استؤنفت المباحثات من جديد بين ممثلي الدبلوماسية المصرية والسوفيتية، في فبراير ١٩٤٣ وكانت البداية اجتماع بين وزير الخارجية السوفيتي أ.م. مايسكي، والسفير المصري حسن نشأت باشا في لندن. وأوضح الجانب السوفيتي أن ستالين يختلف عن تروتسكي، فهو لا يميل نحو فكرة تصدير الثورة والتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى. وفي مايو ١٩٤٣ أرسلت الخارجية المصرية خطاباً إلى مجلس الوزراء، توصي فيه بضرورة بحث هذه المسألة بشكل إيجابي. وفي التاسع والعشرين من مايو من نفس العام، أذن مجلس الوزراء الوفدي بالاعتراف بالاتحاد السوفيتي وتكليف وزير الخارجية المصري باتخاذ الإجراءات الضرورية التالية لهذه المسألة، وذلك علي الرغم من رد الفعل السلبي للملك فاروق الذي كان معادياً لفكرة تطبيع العلاقات السياسية مع الاتحاد السوفيتي. وفي الثلاثين من يونيو ١٩٤٣ أصدر مجلس وزراء بلد الأهرامات قراراً بتأسيس العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي. وكان ذلك القرار بمثابة حجر الأساس في تدشين مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات الثنائية بين الدولتين.

كيف حاول الاتحاد السوفيتي التغلغل إلى مصر طبقاً لرواية المهاجر الأبيض

إن السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي في أفريقيا في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي تعد من أكثر الموضوعات المثيرة للجدل والمناقشة في تاريخ الأدب. والتفسير الذي قدمته المؤرخون السوفيت حول هذا الموضوع معروف ومشهور. وقد أدلى المهاجرون البيض بدلوهم أيضاً في ذلك الموضوع. وللأسف فإن ما في حوزة الباحثين دائرة ضيقة جداً من أعمال ممثلو الهجرة المناهضة للثورة البلشفية، والمخصصة لتحليل السياسة السوفيتية في أفريقيا. وما يزيد من قيمة هذه المصادر أنها تعكس رؤية المهجر لهذه المشكلة بقدر من التفصيل. ومن بينهم مذكرات «أناتولي لفوفيتش ماركوف» «الثورة والعالم» والمحفوظة في أرشيف «هوفل» الشهير للحرب (جامعة ستانفورد الولايات المتحدة الأمريكية) غير أن شخصية هذا المؤرخ غير واضحة وأثارت التناقض بين المعاصرين.

ولد «أ.ل. ماركوف» عام ١٨٩٣ في مركز «شيجروفسكي» «محافظة كورسك» الكسي أنتوشين كان «ماركوف» حفيد الكاتب المشهور «إ.ل. ماركوف»، وابن أخ «ن.ب. ماركوف» (ماركوف ٢) وهو أحد أعضاء المئة السوداء*، تخرج في أكاديمية «فورنيج العسكرية، ومدرسة نيكولايف للفروسية عام ١٩١٤-١٩١٥». اشترك في أعمال القتال على الجبهة أثناء الحرب العالمية الأولى وأصيب خلالها، كما كان ضمن المشاركين في الحركة البيضاء، وخدم في كتيبة الخيول للقائد (الكسييف).

٦٢٨ عن مقالة: Как СССР пытался проникнуть в Египет. Версия белозэмигранта، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Antoshin Aleksey. منظمة رجعية في روسيا قبل الثورة - (المترجم).

اضطر ماركوف إلى الهجرة من البلاد كباقي زملائه. وفي فبراير عام ١٩٢٠ استقل «أ.ل. ماركوف» وزوجته وابنته في مدينة نوفوروسيسك السفينة «ساراتوف»، التي قامت بإجلاء الجرحى والمرضى من جيش المتطوعين. وقامت السلطات الإنجليزية بتوجيه السفينة إلى «الإسكندرية». وقد حدد هذا مصير الضابط الروسي، الذي أقام في «العاصمة الشمالية» لمصر لأكثر من ٢٠ عاماً. وفيما بعد كتب «ماركوف» عن حياته في مصر مذكرات ممتعة للغاية تحت عنوان «في المنفى». والتي نشرت مقتطفات منها عام ١٩٥٧ في جريدة «الحياة الروسية» في «سان فرانسيسكو».

كما تروى لنا هذه المذكرات المحفوظة في أرشيف «أ.ل. ماركوف»^{٦٢٩}، أنه في البداية، تم فحص الجنود والضباط الروس داخل الحجر الصحي، المتواجد بأحد الأحياء التابعة لمنطقة «العباسية» في «القاهرة»، حيث كانت تتمركز القوات الإنجليزية. وبعدها توجه الروس إلى معسكر الخيام في مدينة «التل الكبير». وكان «ماركوف» إنسان طموح ومطلع. وكانت حياة المعسكرات لا تروق له. ويات من الضروري أن يبحث عن مخرج من هذا الموقف العصيب. وسرعان ما ابتسم له الحظ، وذلك عندما زارت المعسكر زوجته قائد القوات البريطانية في مصر، الليدي «كونجريف» رئيسة لجنة مساعدة اللاجئين الروس، وطلب منها الالتحاق بمدرسة السائقين. وبفضل وساطة السيدة «كونجريف» حصل هو وصديقه على دورات تعليمية في اللغة الإنجليزية للسائقين العسكريين. وهنا تمكنوا من الهرب من جحيم المخيم، وعندها أشرفت شمس حياتهم من جديد. ونالوا إعجاب الضباط الإنجليز، لذلك الحد الذي أدى إلى إقامة مأدبة غداء على شرفهم. وقّع «ماركوف» عقد عمل لمدة ستة أشهر براتب شهري قيمته ثمانين جنيهاً، سُمح له بعدها بارتداء الزي العسكري الإنجليزي.

في ديسمبر عام ١٩٢٠ تم نقل المعسكر من «التل الكبير» إلى «سيدي بشر» وهو أحد أحياء مدينة «الإسكندرية». في ذلك الحين كان عقد «ماركوف» مع الإنجليز قد انتهى، وأُرسل إلى هناك مع باقي المعسكر. وفي عام ١٩٢٢ أُغلق هذا المعسكر، وتم نقل جميع المستوطنين إلى «بلغاريا» وبقي في الإسكندرية حوالي ٢٠٠ روسي من بينهم «ماركوف» وعائلته.

٦٢٩ أرشيف معهد هوفر (HIA) كتابات «أناتولى ماركوف» . فصل ٢ في المنفى من مجلد (مذكرات).

حاول «ماركوف» الاندماج في المجتمع المصري. ووضع نصب عينيه هدفاً محدداً وهو العمل كسائق تاكسي، ولكن كان ذلك يتطلب معرفته باللغة العربية ومعرفته جيدة بشوارع «الإسكندرية» التي تقع على إمتداد ٢٥ ميل. وبالفعل تمكن من امتحان اختبار اللغة العربية بعد سلسلة من الفشل وحصل على رخصة القيادة، ولكنه لم يمكث في العمل كسائق تاكسي كثيراً. حيث ابتسم له الحظ للمرة الثانية وورثه القنصل الروسي في ربيع عام ١٩٢٢ للعمل في البوليس المصري- الإنجليزى، حيث كانت هناك ضرورة لتواجد شخص يتحدث اللغة الروسية.

من وجه نظرنا فإن من بين مجموعة «ماركوف» داخل أرشيف «الهوفر»، فإننا نولى الاهتمام الأكبر لمخطوطة «مذكرات من الماضي». والمجلد الثالث من «ذكريات العمل في البوليس السياسي المصري»، الذي كتبه في «الإسكندرية» عام ١٩٣٤، والذي وصف فيه تفصيلاً ظروف عمله، التي كانت تسير ما بين صعود وهبوط.

في البداية عمل «ماركوف» في شرطة الموانئ بمدينة «الإسكندرية»، وكان من بين مهامه التي كلف بها الحراسة ومراقبة جوازات السفر (كانت الخدمة- كما يتذكرها «ماركوف»، لم تكن بالهينة، إلا أن هيئة الأوروبيين كانت مازالت شامخة، ولكن في بعض الأحيان كان ينتابني شعور بالضيق، خاصةً عندما كنت أذكر مكاني السابقة، كقائد في القوات الإمبراطورية الروسية، أما الآن فكنت مجرد عسكري في بلاد غريبة) ٦٣٠.

بعد عدة شهور لاحت لـ «ماركوف» فرصة جديدة، للانخراط في عمل مناهض للبلشيفية عام ١٩٢٣، والذي عرض عليه الاشتراك فيه فؤاد بك- ابن وزير عظيم سابق في تركيا، وكان يشغل منصب وزير الداخلية في عهد السلطان الأخير. وقد أتاح له هذا الماضي إقامة علاقات وثيقة مع بعض أعضاء الحكومة المصرية.

كما أن هناك عاملاً آخر جعل «فؤاد بك» يولي اهتماماً خاصاً للمسألة الروسية، ألا وهو أنه ينحدر من أصول روسية تعود إلى مقاطعة أوسيتيا. وذكر «ماركوف» فؤاد بك بأوقات الحرب الأهلية، وكم كان «فؤاد» شخصية بارزة في جمهورية جبال القوقاز، كما ذكره بنجاحه في إبرام إتفاق مع «فرانجل». وأشار المهاجر الأبيض «ماركوف»

٦٣٠ في نفس المجلد فصل ٤. «قطع من الماضي». مجلد ٣ «مذكرات العمل في البوليس السياسي المصري» السطر ١.

إلى أن حياة « فؤاد بك» كانت تتسم بالترف ، وحيث إنه لم يبق لديه أي من مصادر الدخل السابقة ، فقد اضطر إلى البحث عن مصادر جديدة . وكانت الأعمال المناهضة للبلشيفية إحدى هذه المصادر ، لكسب المال . وأشار «ماركوف» إلى إنه : « في تلك الفترة في مصر لم يكن هناك أي تواجد سوفيتي حقيقي» (حيث تم قطع العلاقات بين الحكومتين بعد عام ١٩١٧) ولذلك فإن تخوف الحكومة المصرية من تقارير « فؤاد بك» حول دسائس البلاشفة يعد «محض افتراء» ولم يستمر هذا الوضع طويلاً ، ونتيجة لهذا ، هرب كل من « فؤاد بك» وابن عمه « أرخان بيك» الضابط الطيار التركي السابق في ربيع ١٩٢٤ ويجوزتهم أموال الدولة . وظلا مطاردين ومطلوبين للعدالة . لكن من الطريف أنه من بين هذه القصة هناك معلومة عن « فؤاد بك» قد أغفلها «ماركوف» ، تلك التي تشمل دوره في الأعمال المناهضة للبلشيفية ، وأي تكليفات أعطاهها عضو حكومة جمهورية جبال القوقاز السابق للقائد السابق في سلاح فرسان الجيش الأبيض .

بعد فترة وجيزة من إنهاء أسهم « فؤاد بك» أخذت حياة «ماركوف» تنحى منحاً آخر ، حيث أجبر على ترك الخدمة في جهاز الشرطة ، ذلك لأن - المهاجر طبقاً لوجهة نظره : « لم يخف نظرتة المعادية للسامية والماسونية» . ففي إحدى المرات قام بالقاء مقتطفات أدبية تهاجم اليهود بشكل علني ، في حضور مجموعة من زملائه ، والذي صادف أن يكون من بينهم «ستينبيك» «مدير» «ماركوف» ، الذي ينحدر من أصول يهودية روسية ومقيماً بأستراليا ، ونشب بينهم خلاف حاد ترك على أثره «ماركوف» عمله في الشرطة ، وعمل كسائق تاكسي لمدة عام .

في مايو عام ١٩٢٥ عرضوا على «ماركوف» العودة إلى للعمل ، في الإدارة العليا للشرطة «في القسم الذي تأسس من جديد لمكافحة البلشيفية»^{٦٣١} . ووصف بالتفصيل هيكل البوليس السياسي المصري ، الذي كان يرأسه بشكل فعلي ، الجنرال الإنجليزي أنسون «العميل البارز في جهاز المخابرات» والذي عمل ما يقرب من العامين لدى إسكتلنديارد «فيما يخص المسألة البلشيفية» . وكان القسم يحصل على صحف سوفيتية متخصصة ومنها : «الشرق الجديد» ، «الشرق الثوري» ، «تجارة الاتحاد السوفيتي والشرق» إلى آخره . بالإضافة إلى كتب سوفيتية ، تتحدث عن مصر ودول شمال شرق أفريقيا . كل هذا تم دراسته وتحليله بعناية ليكون ضمن الطرق الممكنة

٦٣١ نفس المرجع السطر ٥ .

لتغلغل الاتحاد السوفيتي داخل هذه المنطقة، وعلاوةً على ذلك، كان لدى «ماركوف» عملاء، ومخبرون المخبرين، بما في ذلك داخل محيط المهاجرين الروس، وتقول مذكراته أنه لم يتورع عن استخدام كافة الوسائل المختلفة، التي وصلت إلى حد مراقبة المراسلات الخاصة، مما عرضه، على ما يبدو، للنقد من جانب بعض ممثلي الجالية الروسية. ورداً على منتقديه كتب ماركوف: «كانت الفكرة التي سيطرت عليّ منذ اليوم الأول لعملي في الخدمة المصرية داخل البوليس السياسي، هي إحداث أكبر ضرر ممكن للبلشيفية وقادتها - الحكومة السوفيتية، وذلك بأي وسيلة كانت، ومهما كلفني الأمر وبقدر الإمكان، وفي هذا المجال كانت كل الوسائل جيدة، طالما كان عملي يتقدم ولو خطوة واحدة نحو تحرير روسيا من الظلم الأحمر للعين»^{٦٣٢}.

هنا يجدر الإشارة إلى أن «ماركوف»، كانت لديه الإمكانية للمشاركة في مكافحة البلشيفية. كما يتضح من مذكراته بدأت محاولات الاتحاد السوفيتي الإتصال بمصر في عام ١٩٢٠. ووصل أول «عميل» للحكومة السوفيتية إلى الإسكندرية عام ١٩٢٣، وهو «لازار جليزير» (اليهودي كما أشار ماركوف). وهو المحامي من مدينة خاركوف الذي يحمل جواز السفر الفلسطيني. وفي عام ١٩٢٤ إفتتح مكتب يمثل شركة «أركوس» وهي (شركة إنجليزية - روسية للتجارة) وذلك في الإسكندرية، وبحسب تأكيدات «ماركوف» فإن النشاط التجاري لـ «جليزير»: «يمكن أن يوصف بالمتواضع». ولكن تمثل نشاطه بشكل أساسي في «بدء إقامة العلاقات وتمهيد الطريق لتغلغل موسكو إلى مصر». وطبقاً لـ «ماركوف» فإن اليهود المحليين كانوا يساعدونه في ذلك الأمر»^{٦٣٣}.

كما أشار «ماركوف» إلى أن هناك عاملاً جديداً ضاعف من نشاط البلشيفية بشكل حاد داخل مصر وهو وصول الباخرة «بروفينتين» والتي أقيم حولها دوائر للنقاش بشكل مستمر، وبجميع اللغات. إلا أن صبر الحكومة المصرية بدأ ينفد. وبفضل الجهود التي قام بها «ماركوف» ورفاقه الذين لفتوا الانتباه إلى خطر الدعاية الشيوعية على السلطة القائمة بالبلاد، فتم نقل «جليزير» إلى فلسطين.

٦٣٢ نفس المرجع السطر ١٤ .

٦٣٣ نفس المرجع السطر ١٥ .

في عام ١٩٢٦ وصل إلى «الإسكندرية» المواطن الأمريكي «إجنادى جريجورفيتش سيمينيوك» . غير أن «ماركوف» الذي اعتبر نفسه إذا ما احتكنا إلى ما ورد في مذكراته بمثابة الزعيم المناهض للبلشيفية والجاسوسية بمصر، أكد أن «سينينيوك»: فور رس السفينة بالميناء، أصبح معروفاً لدى الجميع أن هذا المواطن الأمريكى- الروسي اليهودي الأصل يعد مبعوثاً سوفيتياً. وأعرب «إجنادى» الذي كان لديه أوراق رسمية من التجارة الخارجية، والأسطول التجاري الروسي عن رغبته، في إنشاء شركة «روسية - تركية».

من الواضح أن الشرطة المصرية حاولت إبعاد «سيمينيوك» عن مصر وذلك بإيعاز من «ماركوف»، لكن جميع الأدلة التي تثبت ما يقوم به من أعمال «الجاسوسية» لصالح الاتحاد السوفيتي، تم جمعها عن طريق «تتبع مراسلاته» (والتي على ما يبدو تم ترتيبها من قبل «ماركوف». بيد أن جميع الإجراءات التي من خلالها تم جمع الأدلة كانت غير قانونية ولذلك كان من المستحيل القبض عليه وإضطرت السلطات السماح له بالبقاء داخل الأراضي المصرية ثم أعطت الشرطة التوجيهات بجمع الأدلة بطريقة قانونية، وسرعان ما تبين أن «سيمينيوك» أنشأ في الإسكندرية شبكة عملاء ضخمة التي على حد قول «ماركوف» كانت تضم «ألكسندرا» المولودة في «كيشيناو». وعن كيفية إنشاء هذا المواطن السوفيتي هذه الشبكة في مصر أوضح المكافح للبلشيفية تحديداً وبشكل قطعي أن السوفيت «محترفون» ولديهم من الأساليب التي يعرفونها جيداً والتي تجبر أكثر الأشخاص عناداً إلى التخلي عن عناده، والرضوخ لهم ولأوامرهم. وفي غضون وقت قصير يتحولون إلى أغنام ولا يكون لديهم أي خيار سوى الطاعة العمياء أو الانتحار»^{٦٣٤}.

بعد فترة وجيزة ونتيجة «للإجراءات الفعالة»، تبين أن ممثل التجارة الخارجية تمكن من إستغلال مطعم أحد اللاجئين يدعى «تارانتشينكو» بمثابة شقة سرية. بعد ذلك أفلح «ماركوف» في طرد «تارانتشينكو» من مصر ونفيه إلى روسيا السوفيتية (ولكن ماركوف تمكن من الحصول على مراسلات تارانتشينكو من مصر للاتحاد السوفيتي) ومن الواضح أن نسبة كبيرة من أبناء الجالية الروسية بالإسكندرية قد ألقوا باللوم على «ماركوف»، الذي كان السبب في معاناة شخص برىء، ويتضح من مذكرات «ماركوف» أن هذه الحادثة لم تكن الوحيدة. «وكان في كل مرة يتم القبض على

أي شخص ممن ينتمون للبلشيفية- طبقاً لإعترافهم - يتم إتهامه بالاستفزاز والوشاية إلى آخره» غير أن الكابتن السابق في جيش المتطوعين، كما أشرنا كان يتبنى مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» ولم يساوره الشك قط في صحة ما يفعله: «وكان دوماً يعتبر أن خطوته صائبة، فالإرهاب المعنوي ربما يكون وسيلة قاسية، ولا يجيزه رجال الأخلاق ولكنه ضروري جداً في عالم السياسة»^{٦٣٥}.

لكن تظل المشكلة الأساسية التي لم يجد لها «ماركوف» حلاً، ألا وهي، ضرورة إزاحة «سيمينيوك» من مصر، لكن جواز سفره الأمريكي حال دون ذلك. كان ذلك في الوقت الذي قام فيه «ماركوف» بإنشاء جماعة الأوبرا في الإسكندرية. (وهي منظمة واسعة النطاق لمكافحة الشيوعية العالمية). وأصبح لدى الجماعة جريدة قاهرية تسمى «لي ريفاي» طبعت بواسطة الأعضاء، والتي بدورها قد شنت حملة دعائية ضد «سيمينيوك»، كان من أهم نتائجها؛ إجباره على مغادرة البلاد، وذلك في عام ١٩٢٨.

في منتصف عام ١٩٢٠ بات من الواضح، وفقاً لوجهة نظر ماركوف، أن جميع المحاولات التي قامت بها موسكو لإيجاد عمل داخل مصر «قد باءت جميعها بالفشل». وبتحليل هذه الأسباب أشار المهاجر الأبيض إلى أن أسباب هذا الفشل؛ يرجع إلى أسلوب تغلغل السوفيت إلى مصر، والذي يؤكد أن التنسيق بين العملاء لم يكن موقفاً: «كانت أعداد الشيوعيين من المصريين قليلة، وكانت الشرطة تعرفهم بالاسم، وكانت تضعهم تحت المراقبة باستمرار. وفيما يخص العملاء الأجانب، حتى أولئك الذين يجيدون اللغة العربية كان تواجههم داخل مصر بلا جدوى، لأنهم كانوا يعملون فقط في محيط الأوروبيين داخل اثنين أو ثلاث مدن كبيرة»^{٦٣٦}.

في تلك الفترة جاء الإنقاذ للاتحاد السوفيتي، وذلك كما أكد «ماركوف»، ذلك بعد أن طرأ تغيير في حالة الأسواق الاقتصادية. خاصة منذ العام ١٩٢٩، حيث انخفضت أسعار القطن في الأسواق العالمية، في الوقت الذي كان فيه القطن يمثل السلعة الأساسية للتصدير في مصر. وقام الاتحاد السوفيتي باستغلال هذه الفرصة، عارضاً على مصر توقيع عقد لشراء القطن. وأشار «ماركوف» إلى أن حقيقة هذا العرض تتمثل في وضع أساس قانوني لإرسال عملاء سوفيت جدد إلى مصر.

٦٣٥ نفس المرجع السطر ٤٧ - ٥٠.

٦٣٦ نفس المرجع السطر ١٢١.

بالفعل في عام ١٩٢٧، وصل إلى هنا، وفد سوفيتي. كما أكد «ماركوف»، كان الوفد يضم «أربعة من اليهود وهم: كوللي، وفيشناكا، ومييرا، وروخيما ميلتسا، وبواستطهم» ولأجل التمثيل الشكلي لجمهورية العمال والفلاحين، أختير هذا الشاب الأشعث المعوج نصف الآمي «فيودر مالاخوف»، عامل المصنع البسيط. ومن الطريف أنه، كما يظهر لنا من خلال تحليل مذكرات «ماركوف»، أن المهاجر الأبيض بشكل أو بآخر كانت تربطه صلة بممثلي الاتحاد السوفيتي. وبما أن «مالاخوف» كان الشخص الوحيد الذي ينحدر من أصول روسية ضمن هذا الوفد، فقد أظهر «ماركوف» نحوه بعضاً من التعاطف. ونعرض عليكم بعض مما كتبه «ماركوف» في رسم شخصية «مالاخوف»: كان يجب زوجته حتى «الموت»، وكان يبدو هذا جلياً في ملامح وجهه، وكان يطلب منا إذناً بالسماح له بالسفر إلى القاهرة، وذلك في كل عام وبشكل منتظم، وعندما يحل عيد «الفصح» وذلك دون علم من يخدم تحت إمرتهم، للاحتفال بالعيد في الكنيسة اليونانية. وذات مرة سألته: «لماذا تتكبد عناء السفر للاحتفال بالعيد في القاهرة، بينما كونك شيعياً لا يجعلك تعترف بالأعياد. لم ينكر «ماركوف» كونه ينتمي إلى الشيعوية بشكل رسمي، ولكنه قال حرفياً بالنسبة لعائلتنا، وبعيداً عن إلتئامنا للشيعوية، نحن دائماً ما نحفل بالأعياد. ومن الطريف أيضاً، التعليق التالي لكابتن جيش المتطوعين السابق حول «مالاخوف»: إن جميع خطابات التي كان يرسلها لوالديه في روسيا، كانت تحمل الطابع الكلاسيكي، تماماً مثل الخطابات التي كان يرسلها الجنود على الجبهة لأوطانهم^{٦٣٧}. والتي دائماً ما تتكون من عبارات محفوظة، تتلخص في التحيات القلبية. كان ذلك، في حقيقة الأمر، يؤكد أن مراسلات المندوب السوفيتي في مصر كانت مراقبة من قبل الشرطة في الإسكندرية».

طبقاً لبيانات «ماركوف»، أن العميل السوفيتي التالي في الإسكندرية - وهو «فاسيليف»، والذي يعد من الشخصيات الثورية بالدرجة الأولى»، أصبح «رئيس» شركة استيراد المنسوجات. وفي عام ١٩٢٩ قام بتعيين أحد الرسامين الذين يحملون جواز السفر اللاتفي ويدعى «هوجورودلف»، للعمل كخبير للقطن. وفي أبريل ١٩٢٩ وعلى أساس تقارير الشرطة تم القبض على جميع العاملين في شركة استيراد النسيج بالإسكندرية. وفور القبض عليهم اتضح أن «هوجورودلف» - هو نفسه «رودلف بينيس»، شقيق

«إدوارد بينيس» ، العميل المقيم للمكتب الخارجي للإدارة الحكومية السياسية في الشرق الأوسط ، والذي يعمل في تركيا . وبدوره وفقاً لمعلومات «ماركوف» ، كان «رودلف بينيس» العميل المقيم للإدارة الحكومية السياسية في مصر^{٦٣٨} .

قال «ماركوف» ، إن الاتحاد السوفيتي بادربمضاعفة مشترياته من القطن المصري بشكل حاد في عام ١٩٣١ ، كى يعزز مواقفه في تلك البلاد . ولأجل ذلك اعتزمت القيادة السوفيتية القيام بهذه العملية التجارية المعقدة ، والتي لم يكتب لها النجاح ، نظراً لقلّة الموارد المالية اللازمة لدفع القيمة النقدية لحجز القطن ، ولذلك اعتمد الاتحاد السوفيتي في الحصول على المبلغ المطلوب على بيع الغابات لواحدة من أكبر المؤسسات المصرية . إلا أنه ، كما كتب «ماركوف» ، لم يتمكنوا من توريدها خلال تلك الفترة بالإضافة إلى أن : «مواصفاتها» لم تكن مطابقة لمواصفات السوق المصري . مما تسبب في فضيحة مدوية . ووصل إلى مصر ممثل شركة استيراد النسيج الرفيق «فوروبيف» في محاولة لتلافي الموقف . لكن من الواضح أن «ماركوف» لم يتحرج في الكشف عن الخطاب الذي أرسله «فوروبيف» إلى زوجته ، والذي ينتقد فيه الرفيق ممثل شركة استيراد النسيج النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي في مصر^{٦٣٩} ، وبتعبير آخر ، بات من الواضح أن كل خطابات «فوروبيف» الشخصية ، والمراسلات التي تخص أناس آخرين ، كانت تقع في أيدي مسئول شرطة الإسكندرية . على الرغم من ذلك ، وكما أكد «ماركوف» أن «فوروبيف» لم يتمكن من تحقيق أي نجاح يذكر لموقف الاتحاد السوفيتي في مصر . وبحلول عام ١٩٣٠ أصبح التأثير السوفيتي محدوداً جداً . يجدر الإشارة إلى أن مذكرات «ماركوف» تعد مصدراً شائعاً ليس فقط لتاريخ السياسة السوفيتية في مصر . ولكن الأحداث التي تضمها بين ثناياها ، تلقي الضوء أيضاً ، على مصير البلشيفيين الأوائل في مصر- والذين من بينهم أسرة «روزنتال» ، والتي ينحدر أفرادها من سلالة يهودية . وكانوا قد هاجروا من روسيا في نهاية القرن التاسع عشر ، كما تناول الحديث عن دورهم الدعائي للأفكار الاشتراكية داخل مصر^{٦٤٠} .

٦٣٨ نفس المرجع السطر ١٢٧ . هذه الرواية أوردها «ماركوف» في مذكراته «في خدمة الملك المصري» أنظر : «الأرشيف الشرقي» رقم ٢ (٢٤) ، ص ٧٠-٧٢ .

٦٣٩ نفس المرجع السطر ١٤٧ .

٦٤٠ نفس المرجع السطر ١٩-٣٩ .

هذا وقد انتهى «ماركوف» من كتابة هذا الجزء من مذكراته قبل بداية العام ١٩٣٠، حيث دامت فترة خدمته داخل شرطة الإسكندرية ما يقرب من ثلاثين عاماً، قدم بعدها استقالته عام ١٩٥٢. ومن خلال تقييم آراء «ماركوف» تتكون لدينا تلك الحقائق: أنه في عام ١٩٣٠ شغل منصب قائد القسم المصري لمنظمة الروس الفاشيين. ومن الطبيعي، أن أحداث ثورة ١٩٥٢، ووصول الزعيم «جمال عبد الناصر» إلى السلطة، قد أثرت على حياة المهاجر الأبيض العجوز، الذي سعى إلى الرحيل من البلاد، مثله مثل باقي رفاقه الذين قرروا الهجرة، وبالفعل تمكن «ماركوف» في عام ١٩٥٨ من السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وتحديدًا إلى مدينة «سان فرانسيسكو»، حيث رحل عن عالمنا في ١٩٦١ وخلال سنوات الهجرة اشتهر. «ماركوف» كمؤلف للقصص وكتاب مقالات، والخبير الفريد لشؤون الشتات الروسي في بلاد الشرق. وكثير من أعماله خرج إلى النور تحت اسم مستعار وهو «الشرقي».

ما موقفنا من إبداع «ماركوف»؟ مما لا شك فيه، أن «أناتولي لفوفيتش» كان باحثاً متحيزاً. والذي وضع في مقدمة اهتمامه مكافحة البلشيفية. وكموظف في البوليس السياسي بالإسكندرية استمر يقود هذا الصراع الذي بدأه في صفوف جيش المتطوعين، وبلا شك، إنه سعى إلى تجميل أنشطته، ورسم صورة له على أنه الزعيم الشجاع داخل خدمة مكافحة البلشيفية السرية في «العاصمة الشمالية» لمصر. والحقيقة الأهم من ذلك، أن مقالات «ماركوف» التحليلية، ومذكراته يتم نشرها بصفة مستمرة ضمن مطبوعات الشتات الروسي، كما قام عديد من المهاجرين إستناداً إلى أعماله بتقييم الأوضاع في بلاد الشرق خلال الفترة من «١٩٢٠-١٩٥٠».

معلومات حول الخليفة المنصور من مخطوطة داخل كتاب «مختصر الدول» لبار جبري

يحفظ معهد المخطوطات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم الروسية في سانت بطرسبورج بالمخطوطة العربية رقم «إس-٧٠٣»، وهي من الأعمال التي وردت في كتاب «مختصر الدول» لصاحبه المؤرخ والفيلسوف ورجل الدين يوحنا جريجوريوس أبو الفرج (بن العبري) بارخريوس الملطي (١٢٢٦-١٢٨٦)، وهو مسيحي من أصل سوري. والمعروف كذلك باسم بار جبرية، بار جبري أو بارهيريوس^{٦٤١}. تتضمن هذه المخطوطة أيضاً من المعلومات عن الخليفة المنصور (٧٥٤-٧٧٥) أحد حكام الدولة العباسية، والذي لعب دوراً هاماً في تأسيس تلك الدولة. ولم تتضمن قائمة تلك المخطوطة مؤلفها^{٦٤٢}. ويعود تاريخ تلك المخطوطة إلى السادس والعشرين من أغسطس لعام ١٦٠٥ (الثالث عشر من ربيع الثاني لعام ١٠١٤ هجرية) وتم كتابة نص المخطوطة بخط نسخ غير متساوي (والعناوين كتبت بحروف كبيرة) على ورق أوروبي مصحوباً بزركشة مخزومة في صورة مرساة بيضاوية الشكل باستخدام الحبر الأسود، وتم كتابة بعض العناوين بالحبر الأحمر، وكذلك إطار النص، والعلامات التي تفصل بين الجمل^{٦٤٣}. وكانت القائمة تتضمن ١١٥ ورقة^{٦٤٤}.

- ٦٤١ عن مقالة : Сведения о халифе Ал-Мансуре в рукописи сочинения «Мухтасар Ад-Дувал» Бар Гебрея والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرقة الروسية Veronica Kunkova .إيو. كراتشكوفسكي، أعمال مختارة، موسكو ١٩٥٧، المجلد الرابع، ص ٨٢٦ .
- ٦٤٢ ل.إ. ميخائيلوفا فهرس المخطوطات العربية بمعهد شعوب آسيا، أكاديمية العلوم السوفيتية / موسكو، ١٩٨٦، الإصدار الثالث، من ص ٥٤ : ص ٥٥ .
- ٦٤٣ المصدر السابق .
- ٦٤٤ المخطوطات العربية بمعهد علوم الاستشراق . الفهرس المختصر، موسكو، ١٩٨٦، الجزء الأول ص ٤٢٣ .

يقدم هذا الكتاب عرضاً مختصراً لتاريخ العالم ، كما يقدم عرضاً لموضوعات من الإنجيل ، وتاريخ إيران القديم ، وتاريخ اليونان ، والإمبراطورية الرومانية ، وتاريخ بيزنطة ، والخلافة العربية حتى الغزو المغولي . ويفرد كتاب «مختصر الدول» فضلاً كاملاً عن التاريخ العربي ، وينقسم إلى عشرة أجزاء (وفقاً لاسم كل دولة) كما ينقسم كل جزء إلى فصول .

يعد الفصل الخاص بأبي جعفر المنصور من أكبر فصول المخطوطة وذلك مقارنة بالفصول الأخرى التي تتحدث عن باقي الخلفاء ، حيث يشغل هذا الفصل صفتين كاملتين من المخطوطة . وتتضمن ترجمة المقتطف الموجود بالأسفل حقائق هامة عن فترة حكم الخليفة المنصور ، وبعض التفاصيل الهامة التي تهم المؤرخين والتي ستساعدهم في وضع تصور كامل عن خلافة الدولة العباسية .

« أبو جعفر المنصور » هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، بويح له سنة سبع وثلاثين ومائة . وفي هذه السنة قتل أبو مسلم الخراساني . قتله المنصور بسبب أنهما حجا معا في أيام السفاح . وكان أبو مسلم يكسو الأعراب ويصلح الآبار والطرق . وكان الذكر له . فحقد أبو جعفر ذلك عليه . ولما صدر الناس عن الموسم تقدم أبو مسلم في الطريق على أبي جعفر فأتاه خبر وفاة السفاح فكتب إلى أبي جعفر يعزيه عن أخيه ولم يهنئه بالخلافة ولم يقيم حتى يلحقه ولم يرجع إليه . فخافه أبو جعفر المنصور وأجمع الرأي وعمل المكاييد وهجر النوم إلى أن اقتنصه . وكان أبو مسلم قد استشار رجلاً من أصحابه بالري في رجوعه إلى المنصور فقال : لا أرى أن تأتيه وأرى أن تمتد إلى خراسان . فلما لم يقبل منه وسار نحو المنصور قيل له : « تركت الرأي بالري » فذهب مثلاً . فلما دنا أبو مسلم من المنصور أمر الناس بتلقيه وإكرامه غاية الإكرام . ثم قدم فدخل على المنصور وقبل يده . فأمره أن ينصرف ويروح نفسه ليلته ويدخل الحمام . فانصرف . فلما كان من الغد أعد المنصور من أصحاب الحرس أربعة نفر وأكرمهم خلف الرواق وقال لهم : إذا أنا صفقت بيدي فشأنكم . وأرسل إلى أبي مسلم يستدعيه ودخل على المنصور فأقبل عليه يعاتبه ويذكر عثراته . فمما عد عليه أن قال : ألسنت الكاتب إلي تبدأ بنفسك . ودخلت علينا وقتلت : أين بان الحارثية . ويأتيك كتابي ، فتقرأه استهزاءً ثم تلقيه إلى مالك ابن الهيثم ويقرأه وتضحك . فجعل أبو مسلم يعتذر إليه ويقبل الأرض بين يديه . فقال المنصور : قتلتني الله إن لم أقتلك . وصفق بيديه فخرج الحراس يضربونه بسيوفهم وهو يصرخ ويستأمن ويقول : استبقني لعدوك يا أمير المؤمنين . فقال له المنصور : وأي عدو لي أعدى منك .

وفي سنة أربعين ومائة سير المنصور عبد الوهاب ابن أخيه إبراهيم بن محمد الإمام في سبعين ألف مقاتل إلى ملطية، فنزلوا عليها وعمروا ما كان خربه الروم منها. ففرغوا من العمارة في ستة أشهر. وأسكنها المنصور أربعة آلاف من الجند وأكثر فيها من السلاح والذخائر وبنى حصن قلوذية. وفي هذه السنة خرج الرواندية على المنصور بمدينة الهاشمية، وهم قوم من أهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح، ويزعمون أن ربهم الذي يطعمهم ويستقيهم هو المنصور. وجعلوا يطوفو بقصره ويقولون: هذا قصر ربنا فأنكر ذلك المنصور وخرج إليهم ماشياً. إذ لم يكن في القصر دابة. ونودي في أهل السوق فاجتمعوا وحملوا عليهم وقتلوهم فقتلوا، أعني الرواندية جميعاً. وهم يومئذ ستمائة رجل.

وفي السنة الرابعة والأربعين أخذ المنصور من أولاد الحسين بن علي بن أبي طالب اثني عشر نفساً ورحلهم من المدينة إلى الكوفة وحبسهم في بيت ضيق، حتى ماتوا عن آخرهم. فخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة، وجمع الجموع وتسمى بالمهدي. وخرج إبراهيم أخوه بالبصرة في ثلاثين ألفاً. وقتلوا ولم ينجحوا.

وفي سنة خمس وأربعين ومائة ابتدأ المنصور في بناء مدينة بغداد. وسبب ذلك أنه كان قد ابنتى الهاشمية بنواحي الكوفة. فلما ثارت الرواندية به. فيها كره سكناه لذلك ولجوار أهل الكوفة أيضاً. فإنه كان لا يأمن أهلها على نفسه وكانوا قد أفسدوا جنده. فخرج بنفسه يرتاد موضعاً يسكنه هو وجنده. فقال له أهل الحذق: إننا نرى يا أمير المؤمنين أن يكون على الصراة وبين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر، فإذا قطعته لم يصل إليك. وأنت متوسط للبصرة والكوفة ووسط الموصل والسواد. ودجلة والفرات والصراة خنادق مدينتك. وتجيئك الميرة فيها من البر والبحر. فازداد المنصور حرصاً على النزول في ذلك الموضع. ولما عوم على بناء بغداد أمر بنقض المدائن وايوان كسرى. فنقضه ونقله إلى بغداد. فنقضت ناحية من القصر الأبيض وحمل نقضه فنظر وكان مقدار ما يلزمهم له أكثر من ثمن الجديد فأعرض عن الهدم. وجعل المدينة مدورة، لئلا يكون بعض الناس أقرب إلى السلطان من بعض. وعمل له سورين للداخل أعلى من الخارج. وبنى قصره في وسطها والمسجد الجامع بجانب القصر وقبلته غير مستقيمة يحتاج المصلي أن ينحرف إلى باب البصرة. وكانت الأسواق في مدينته فجاءه رسول الملك الروم. فأمر الربيع فطاف به في المدينة. فقال: كيف رأيت. قال: رأيت بناء حسناً إلا أنني رأيت أعداءك معك وهم السوق. فلما عاد الرسول عنه أمر بأخراجهم إلى ناحية الكرخ. وأمر أن يجعل في كل ريع من مدينته بقالاً

يبيع البقل والخل فحسب. في سنة خمسين ومائة مات أبو حنيفة النعمان بن ثابت الإمام. وفي سنة ثمانين وخمسين ومائة سار المنصور من بغداد ليحج فنزل قصر عبدويه فانقض في مقامه هنالك كوكب بعد بزوغ الفجر، وبقي أثره بيناً إلى طلوع الشمس. فأحضر المهدي ابنه وكان قد صحبه ليودعه فوصاه بالمال والسلطان. وقال له أيضاً: أوصيك بأهل البيت أن تظهر كرامتهم؛ فإن عرك عزمهم وذكركم لك وما أظنك تفعل. وانظر مواليك وأحسن إليهم واستكثر منهم؛ فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك وما أظنك تفعل. وانظر هذه المدينة وأياك أن تبني المدينة الشرقية، فإنك لاتتم بناءها وأظنك ستفعل. وإياك أن تدخل النساء في أمرك وأظنك ستفعل. هذه وصيتي إليك واللّه خليفتي عليك. ثم ودعه وبكى كل منهما إلى صاحبه. ثم سار إلى الكوفة وكلما سار منزلاً اشتد وجعه الذي مات به وهو القيام. فلما وصل إلى بئر ميمون مات بها مع السحر، لست خلون من ذي الحجة سنة ثمانين وخمسين ومائة. وحمل إلى مكة وحفروا له مائة قبر ليعموا على الناس ودفن في غيرها مكشوف الرأس لإحرامه وكان عمره ثلاثاً وستين سنة وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة. وقيل في صفته وسيرته إنه كان أسمر نحيفاً خفيف العارضين، وكان من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس. وأشدهم احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان. فإذا لبس ثيابه وخرج هابه الأكابر فضلاً عن الأصاغر. ولم يرف في داره ولا شيء من اللعب والعبث. قال حماد التركي: كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة فقال: انظر ما هذا. فذهبت فإذا خادم له قد جلس وحوله الجوّاري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فأخبرته فقال: وأي شيء الطنبور؟ فوصفته له. فقال: ما يدريك أنت ما الطنبور. قلت: رأيت به بخراسان. فقام ومشى إليهن. فلما رأينه تفرقن. فأمر بالخادم فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور وأخرجه فباعه. ولم أفضى إليه الأمر بتغيير الرزي وتطويل القلائس. فجعلوا يحتالون لها بالقصب من داخل، وأمر بعد دور أهل الكوفة وقسمته خمسة دراهم على كل دار. فلما عرف عددهم جباهم أربعين درهماً وأربعين درهماً.

وكان المنصور في صدر أمره عندما بنى بغداد، أدركه ضعف في معدته وسوء استمراء وقلّة شهوة. وكلما عالجه الأطباء ازداد مرضه. فقيل له عن جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري إنه أفضل الأطباء. فتقدم بإحضاره. فأنفذه العامل بجنديسابور بعد ما أكرمه، فخرج ووصى ولده بختيشوع بالبيمارستان واستصحب معه تلميذه عيسى ابن شهلاثا. ولما وصل إلى بغداد أمر المنصور بإحضاره. فلما وصل إلى الحضرة، دعا له

بالفارسية والعربية. فعجب المنصور من حسن منطقته ومنظره وأمره بالجلوس وسأله عن أشياء فأجابه عنها بهدوء. وخبره بمرضه. فقال له جيورجيس: أنا أدبرك بمشيئة الله وعونه. فأمر له في الوقت بخلعة جليلة وتقدم إلى الربيع بانزاله في أجمل موضع من دوره وإكرامه كما يكرم خاصة أهله. ولم يزل جيورجيس يتلطف له في تدييره حتى برأ من مرضه وفرح به فرحاً شديداً. وقال له يوماً: من يخدمك هنا؟ قال: تلامذتي. فقال له الخليفة: سمعت أنه ليست لك امرأة. فقال: لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها. وانصرف من الحضرة ومضى إلى البيعة. فأمر المنصور خادمه سالم أن يحمل من الجواري الروميات الحسان ثلاثاً إلى جيورجيس مع ثلاثة آلاف دينار. ففعل ذلك. فلما انصرف جيورجيس إلى منزله عرفه عيسى بن شهلاثا تلميذه بما جرى وأراه الجواري. فأنكر أمرهن وقال لعيسى: يا تلميذ الشيطان لم أدخلت هؤلاء إلى منزلي. أردت أن تنجسني. امض ورددن على أصحابهن. فمضى إلى دار الخليفة ورددن على الخادم. فلما اتصل الخبر إلى المنصور أحضره وقال له: لم رددت الجواري. قال: لا يجوز لنا معشر النصارى أن نتزوج بأكثر من امرأة واحدة. وما دامت المرأة حية لا نأخذ غيرها. فحسن موضع هذا من الخليفة وزاد موضعه عنده. وهذا ثمرة العفة. ولما كان في سنة اثنتين وخمسين ومائة مرض جيورجيس مرضاً صعباً. ولما اشتد مرضه أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج ماشياً إليه وتعرف خبره. فخبره وقال له: إن رأي أمير المؤمنين أن يأذن لي في الانصراف إلى بلدي لانظر أهلي وولدي وإن متُّ قبرت مع آبائي. فقال له: يا حكيم اتق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة. قال جيورجيس قد رضيت حيث آبائي في الجنة أو في النار. فضحك المنصور من قوله ثم قال: إنني منذ رأيتك وجدت راحة من الأمراض التي كانت تعتادني. فقال جيورجيس: أنا أخلف بين يدي أمير المؤمنين عيسى تلميذي فهو ماهر. فأمر لجيورجيس بعشرة آلاف دينار وأذن له بالانصراف وأنفذ معه خادماً وقال: إن مات في الطريق فاحمله إلى منزله ليدفن هناك كما أحب. فوصل إلى بلده حياً. ثم أمر المنصور بإحضار عيسى بن شهلاثا. فلما مثل بين يديه سأله عن أشياء فوجده ماهراً فاتخذه طبيباً. ولما استصحبه المنصور بدأ في التشاور والأذية خاصة على المطارنة والأساقفة ومطالبتهم بالرشى. ولما خرج المنصور في بعض أسفاره وصل إلى قرب نصيبين. فكتب عيسى إلى قوفريان مطران نصيبين يتهدده ويتوعده إن منع عنه ما التمس منه. وكان عيسى قد التمس أن ينفذ له من آلات البيعة أشياء جليلة ثمينة لها قدر. وكتب في كتابه إلى المطران: ألسنت تعلم أن أمر الخليفة في يدي إن أردت أمرضته، وإن أردت

شفيته؟ فلما وقف المطران على الكتاب احتال في التوصل إلى الربيع وشرح له صورة الحال فأقرأه الكتاب وأوصله الربيع إلى الخليفة أوقفه على حقيقة الأمر. فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى الطيب وتأديبه ونفيه. ففعل به ذلك ونفي أقبح نفي. وهذا ثمرة الشر. وكان نوبخت المنجم الفارسي يصحب المنصور. وكان فاضلاً حاذقاً خبيراً باقتران الكواكب وحوادثها. ولما ضعف عن الصحة قال له المنصور: أحضر ولدك ليقوم مقامك. فسير ولده أبا سهل. قال أبو سهل: فلما دخلت على المنصور ومثلت بين يديه قيل لي: تسم لأمير المؤمنين. فقلت: اسمي: خرشاذماه طيماذاه ما باذار خسرو ابهمشاذ. فقال لي المنصور: كل ما ذكرت فهو اسمك! « قال « قلت: نعم. فتبسم المنصور ثم قال: ما صنع أبوك شيئاً فاختر مني إحدى خلتين إما أن اقتصر بك من كل ما ذكرت على طيماذ وإما أن تجعل لك كنية تقوم مقام الاسم وهي أبو سهل. قال أبو سهل: قد رضيت بالكنية. فبقيت كنيته وبطل اسمه. ^{٦٤٥}.

٦٤٥ أبو الفرج يوحنا باركيور جيورجيو بن هارون المواتيب المولاتي النصراني . مختصر الدول . المخطوطة العربية رقم إس - ٣٠٧ من مجموعة معهد المخطوطات الشرقية بأكاديمية العلوم فالروسية في سانت بطرسبورج .

أرشيفات خفرع عنخ لقطات من يوميات البعثة الأثرية في الجيزة

الأرشيف كشاهد محايد على الماضي يعد مصدراً لمعرفة العصور والأحداث والناس. ويقود بتتابع الأحداث على لوحة التاريخ الكبيرة إلى منابع الحضارة عبر سلم لانهاى وأن كل وثيقة أو سجل أو ذكريات حية بمثابة شعاع منير يلقي الضوء على مصائر المجتمعات ومؤسسيها، وظواهر التاريخ ومبدعيها. وبعد أن يصل شعاع الضوء إلى الأعماق يتحرك للأمام ثم يرجع من جديد إلى أحداث وابداعات الماضي. فيعطى كما لو كان محاولاً أن يستشرف المستقبل زمن «البعث الثالث». وعندما وصلنا إلى مدينة الموتى القديمة رأينا كيف تتشابك العصور بصورة مدهشة. فالأرشيفات القديمة التي وضعت منذ خمسة آلاف عاماً تقريباً، عادت إلى الحياة واكتسبت أشكالاً حديثة على مدار آلاف السنين.

يموت الإنسان ، ويتوارى الجسد في التراب...

ويختفي كل الأقارب والمعارف ...

ولكن تبقى كتاباته لتذكرنا به على الدوام ...

هكذا قال الكاتب المصري مجهول الاسم الذي تتبع روحه قبل أربعة آلاف عام في مملكة أوزوريس». قال ذلك قبل هوراس بألاف السنين الذي كتبت لسطوره الخلود في قصيدة الشاعر الروسي الشهير بوشكين: «لقد صنعت لنفسى تمثالاً لم تصنعه الأيدى».

تعد الجيزة فخراً لمصر على مر العصور. ومن بعيد دائماً ما تظهر للرائى قمم أهرامات الفراعنة الثلاثة خوفو وخفرع ومنكاورع. ويجلس عند مدخلها تمثال أبو الهول الذي يُعد أضخم تمثال في العالم. أما الأهرامات فهي دائماً ما تثير الخيال، وتدهش بعظمتها حتى أولئك الذين على دراية تامةً بنظريات التصميم الهندسي وتغلب اللب كذلك بشكلها الفريد. وتعد الأهرامات العجيبة الوحيدة الباقية حتى الآن من عجائب الدنيا السبع، وذلك على الرغم من أنها أقدم من عجائب الدنيا بأكثر من ألفي عام.

فكما يقول المثل العربي: «كل شئ في الدنيا يخشى الزمن، غير أن الزمن نفسه يخشى الأهرامات» .

إن مدرستنا في علم المصريات ، والتي أرسى حجر أساسها العالم الروسي البارز ف.س. جولينشيف تزخر بالعديد من الأسماء البارزة والاكتشافات العلمية الأثرية ، لم تقم بحفريات مستقلة في مصر . ولكن كان هناك استثناء رائع لبعثة ب . ب . بيوترفسك الذي كان يعمل في جنوب مصر في الفترة من عام ١٩٦٢-١٩٦٣ ، في إطار الحملة التي نظمتها منظمة اليونسكو لإنقاذ الآثار التي تهددها مياه سد أسوان بالغرق . وجاءت نتائج تلك البعثة أكثر من رائعة وكان هناك اهتمام كبير بالآثار التي تم العثور عليها . والآن ينصت جميع أعضاء بعثتنا باهتمام إلى رواية أحد أعضاء تلك البعثة ويدعى نيكولاي ياكوفليفيتش ميربيرت الذي يحكي عن تلك الأيام والبطولات التي حققتها بعثة علماء الآثار الروس .

كم هو عظيم ذلك الفرق بين علم المصريات النظري والعملي ؛ فلقد تعين على أن أتعلم في الأيام الأولى من عملي ، ضمن البعثة الأثرية الفرنسية التي كانت تعمل في منطقة سقارة في عام ١٩٩١ . وقد تم « توزيعي » للعمل في المجموعة الجنائزية للملكات زوجات ملوك الأسرة السادسة . وقد تعلمت الكثير وأصبحت عالمة مصريات ميدانية ومتخصصة في فترة المملكة القديمة^{٦٤٦} . وبعد مرور خمسة أعوام من العمل الميداني المستمر مع الجانب الفرنسي تجرأت للبحث عن عمل مستقل .

لعل أحد أقوى الانطباعات التي تشكلت لدي ، كان التعرف ثم العمل مع شخص أصبح وهو على قيد الحياة ، أسطورة بين علماء المصريات وهو جان فيليب لوير^{٦٤٧} . فقد جاء إلى مصر في منتصف العشرينيات . وكمهندس معماري في بعثة س . م . فيرث العالم

٦٤٦ عن مقالة : «Архивы Хафраанха. Из археологической экспедиции в Гизе» والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرفة الروسية Kormysheva Eleonora فترة التاريخ المصري القديم من عام ٢٧٢٥ إلى ٢١٧١ ق . م .

٦٤٧ يوجد كتاب للمؤلف جان فيليب لوير بعنوان «أسرار الأهرامات العظيمة» تم ترجمته باختصار إلى الروسية في موسكو ١٩٦٦ ، وكتب مقدمته أس . كاتسنيلسون . وقد علم السيد لوير بهذا الكتاب عن طريقه في عام ١٩٩٤ وقد أهديته النسخة الوحيدة التي كنت أكمل بها مجموعة التراجم لهذا الكتاب التي تربو على أكثر من عشرة لغات . وعندما نُشر هذا العدد ، كان هناك خبر حزين للغاية يفيد بوفاة جان فيليب لوير ، العضو المرسل لمعهد فرنسا في السادس عشر من مايو/ آب ٢٠٠١ .

الأثرى الإنجليزي البارز في الربع الأول من القرن العشرين ، دلف إلى أسفل هرم زوسر^{٦٤٨} ، وكان أول من شاهد ذلك الذي أصبح واحداً من روائع الفن المصري . وهو صورة الفرعون باللون الأزرق والأخضر الباهر وهو يقوم بالجرى الجنائزى . وقد حدد هذا الموسم العملي مصير جان فيليب لوير فقد إستقر في سقارة وهناك ولد وترعرع أولاده وبنى منزلاً . هذا المنزل تقوم باستغلاله الآن اثنتان من البعثات الأثرية الفرنسية التي تقوم بأعمال الحفريات في سقارة بالتناوب وهناك استمر لوير ، يمارس عمله . في ذلك الوقت كانت مجموعة زوسر الجنائزية أشهر مكان في منطقة سقارة حالياً عبارة عن أنقاض . وكان من غير الممكن تصديق ذلك ، لولا أن السيد لوير قد عرض علي الصور القديمة لهذا المكان . فقد بدأ عمله بإحياء المكان بداية من الأعمدة والأروقة وكل حجر ، وقام بعمل الحسابات والتقدير والتأكد من أماكنهم الصحيحة . وفي العام الماضي يكون العالم لوير قد بلغ السابعة والتسعين من عمره . وفي كل عام كان يأتي إلى مصر ويذهب إلى منزله في سقارة ، أملاً في أن يتم إصلاحه وترميم هذا المكان الفريد من نوعه في ، أسرع وقت ممكن .

ذهبنا في عام ١٩٩٥ مع م . أتشي جودايف الموظف بمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية ، إلى منطقة الجيزة للاستكشاف ؛ أملاً في البحث عن أي مكان صالح لأعمال بعثة الآثار الروسية . وجدنا أن المساحة الشاسعة المحيطة بالأهرامات ما هي إلا جبانة عظيمة ، تضم رفات أقارب الملوك الفرعونية وكذلك رفات أولئك الذين بفضل جهودهم بقيت عبادة الفرعونية الموتى مئات السنين . فقد كان النبلاء يحرصون على أن يتم دفنهم بجانب سيدهم وذلك اعتقاداً منهم أن هذا سيزيد من مرتبتهم في العالم الآخر ، وأنهم سيعيشون الحياة الأبدية مع آلهتهم . وقد ظلت مقابرهم ومعابدهم الجنائزية تؤدي وظيفتها حتى بعد مماتهم وظل كهنة الدفن في خدمتهم . ولم ينس الأبناء الاهتمام والرعاية بمقابر الأجداد . وهكذا تشكلت جبانة عملاقة حول الأهرامات الثلاثة مقسمة إلى قطاعات وأشكال متنوعة للمباني الجنائزية .

٦٤٨ الملك زوسر من ملوك الأسرة الثالثة ، حكم مصر من عام ٢٦٧٢ - ٢٦٥٣ ق.م وقد بُني له خصيصاً الهرم المدرج الذي يُعد الهرم الوحيد المدرج في مصر والذي لم يتكرر بناؤه مرة أخرى لخلفائه من بعده .

في نهاية عام ١٩٩٥ استطعنا الحصول على تصريح لأعمال البحث والدراسة في مقبرة خفرع عنخ المشرف على هرم خفرع- الهرم الثاني من حيث الحجم^{٦٤٩}. ونرى أن اسم هذا الشخص يحمل معنى مقدساً فعند ترجمته نجده يعني: «فليحيا الفرعون خفرع». وبناء على ما توصل إليه باحثونا فإن هذا الاسم كان من الأسماء التي تنتقل عبر الأسرات. وعلى كل حال فقد انتقل الاسم إلى أحد أبنائه الذي كان يجب عليه أن يخلف والده في منصبه الهام.

تجدر الإشارة إلى أن المشرف على هرم خفرع، قد دفن في القطاع الشرقي لجبانة الجيزة في إحدى المقابر الصخرية، والتي كانت وقت مجيئنا إلى هضبة الجيزة مغطاة بالرمال وكانت معالمها تبدو غير واضحة على سفح التل الذي يهبط مباشرة إلى القرية الصغيرة المجاورة. أما بالنسبة للمقابر المجاورة لمقبرة المشرف، فقد ظلت محجوبة أسفل طبقة ضخمة من الرمال، بيد أنه في القرن التاسع عشر شاهد عدد من الرحالة الأوروبيين مثل: ج.سولت وجورج بيرتون وجورج ويلكنسون ونستورلوت مقبرة «خفرع عنخ»، ولاتزال مخطوطاتهم محفوظة في المكتبة البريطانية، والمكتبة الوطنية الفرنسية في باريس.

في منتصف القرن التاسع عشر زارت تلك المقبرة بعثة ر.ليبسيوس، التي قام الرسامان جورج بونومي، وم. فايدنباخ بمحاكاة النقوش التي تغطي جدران المقبرة. كان الرسامان بارعين للغاية فقد استطاعا بمهارة فائقة نقل أدق التفاصيل في أسلوب الفن المصري القديم. بيد أن أسلوب المحاكاة آنذاك كان يسمح بعمل بعض التعديلات والإصلاحات التي يراها الفنان ضرورية من وجهة نظره. ومثل هذه الظروف اليوم تفتح الباب أمام عملية مراجعة شاملة للمعلومات القديمة. وسرعان ما نعين علينا أن نفتنح بهذا^{٦٥٠}.

عند تفحصنا المطبوعات القديمة أخذنا على عاتقنا مهمة البحث عن مواد أرشيفية لتحقيق أهداف ثلاثة. أولاً: الحصول على بيانات تاريخية، ثانياً: معرفة هل تتضمن تلك الصور أشياء لم تصل إلينا حتى الآن؟ ثالثاً: معرفة هل توجد في تلك المذكرات والرسومات التي يفصلها عنها قرن ونصف أية معلومات عن مقابر أخرى بتلك المنطقة؟ وبات من البديهي أن مقبرة خفرع عنخ ليست وحيدة في هذا المكان.

٦٤٩ تسنى تنظيم وإعداد تلك البعثة الأثرية ١٩٩٧-٢٠٠١، بفضل المساعدة العاجلة التي قدمتها بورصة النقد المصري في في موسكو والبعثة هنا تعرب عن عميق شكرها للأستاذ أ.ب. زاخروف، رئيس بورصة النقد المصري في موسكو.

٦٥٠ تم تقديم تقرير لمؤتمر علماء المصريات يتضمن القوائم التي ورد بها أخطاء وتجاوزات في تفاصيل محاكاة المعالم في بعثة ر.ليبسيوس، ووردت تلك الأخطاء كذلك في مقالات كورميشيفا. ي. أ.، تشيودايف. م. إ.، وتوماشيفيتش. أ. ف.، أعمال بعثة الآثار الروسية في الجيزة ١٩٩٦-١٩٩٨ (نتائج مبدئية)، مجلة التاريخ القديم، العدد رقم ١، لعام ٢٠٠٠.

قادنا البحث إلى المكتبة الوطنية البريطانية في لندن ، حيث تُحفظ بها مخطوطات جورج بيرتون . وبعد تقديم الأوراق والتصريحات الرسمية المطلوبة أعطوني ملفاً كبيراً مليئاً بالعديد من الرسومات بالقلم الرصاص التي رسمها جورج بيرتون . وفيما يبدو من الرسم أن أول مشهد وقعت عليه عيناى هو مشهد التوديع للعالم الأخرى في الجزء السفلي المتواجد في الجانب الشرقي من مدخل المقبرة حيث يقف الشقيقان خضع وإيتي . وقد جاء الرسم الكروكي في شكل محيطى بدون إعطاء تفاصيل الملابس التي تُعد في غاية الأهمية بالنسبة لعملية التأريخ . فكما هو الحال الآن فإن موضحة الحزام والملابس والتفاصيل الأخرى للملابس تتغير بسرعة بالغة .

توجهت إلى أكسفورد بعد أن قمتُ بأخذ صورة من هذه الوثيقة القيمة ، أملاً في الحصول على مخطوطات جورج ويلكنسون من أرشيف معهد جريفيس ، ومعرفة أية معلومات أخرى إضافية عن الحاجز ، والكتابة فوق الباب الثانى الوهمى للمقبرة^{٦٥١} الذي من الواضح أنه سقط ، ويوجد الآن في المتحف المحلي بمدينة ديرهام . وقد تعرفتُ في أكسفورد على عالم المصريات الشهير يارومير مالك مدير معهد جريفيس وصاحب عدة أعمال مهمة من بينها دراسة رائعة عن القبط المصرية . وقد أبدى اهتماماً كبيراً تجاه أبحاثنا ووعده باطلاعنا على مخطوطات جورج ويلكنسون ، والحصول على لوحة مع الكتابة . لكن للأسف كان ذلك يتطلب المزيد من الوقت ، لأن كل هذه المقتنيات كانت ضمن مجموعة شخصية ، وكان من الضروري العودة مرة أخرى^{٦٥٢} .

٦٥١ كان الجانب الغربي من مقابر موظفي الدولة من القدماء المصريين ، يحمل شكل واجهات القصور المغلقة ، والاسم العلمي لتلك الأبواب « الأبواب الوهمية » حيث يوجد هنا حد غير مرئي بين عالم الأحياء وعالم الموتى . ففي الجانب الغربي وخلف تلك الأبواب الوهمية تعيش روح المتوفي التي مرت عبر تلك الأبواب إلى المقبرة للحصول على القرابين المقدمة إليها .

٦٥٢ التقينا مع الأستاذ مالك أثناء عمل البعثة في عام ٢٠٠٠ ، وبعد الذهاب إلى المؤتمر الدولي لعلوم المصريات ، الذي عُقد بالقاهرة حضر إلينا الأستاذ مالك والخبير أ . وينتر اللذان عملا طيلة حياتهما كعلماء للآثار في مصر ، حضروا إلينا في منطقة الحفريات وشكرونا على السماح لهم برؤية مقبرة خفرع عنخ والحفريات المحيطة بها . وقد ناقشنا معهم طويلاً المشاكل الخاصة بقراءة المواضع الجدلية للنصوص ، التأريخ وتفسير النصوص . ولم يتسن لي معرفة تلك الأمور في أرشيف معهد جريفيس . وبعد أول زيارة لي لهذا الأرشيف تم إغلاقه علي الفور لعمل الترميمات والإصلاحات ولم يتم فتحه حتى الآن .

استكملنا الرحلة إلى باريس ، حيث ذهبنا إلى المكتبة الوطنية الفرنسية ، والتي يحفظ بها مخطوطات «نيستور لوت» . وكانت هناك خطابات توصية ومباحثات وإستمارات... وأخيراً ، وجدتُ أمامي الملف المطلوب . ولكم كانت دهشتي عندما رأيتُ نفس المشهد الذي كان موجوداً عند المدخل ، على الحائط الشرقي من المقبرة في رسومات نيستور لوت . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : لماذا قام هؤلاء الذين شاهدوا تلك المقبرة في القرن التاسع عشر برسم نفس المشهد الموجود عند مدخل المقبرة ؟ هناك رأيان للرد على هذا السؤال : من الممكن أن يكون باقي المقبرة كان مغطى بالرمال^{٦٥٣} ، أو نظراً لعدم تمكن الرحالة من أداء عملهم ؛ لأنه لم يكن معهم أدوات الإضاءة الكافية ، وبالتالي كانوا يكتفون بتسجيل أول مشهد يقع عليه الضوء ، وهو الحائط الشرقي من المقبرة .

وللأسف لم يتم التوصل من خلال المخطوطات الأرشيفية إلى معرفة ، من أطلق على مقبرة «خفر عنخ» اسم «مقبرة الأرقام» . وهو وصف يتسم بالدقة والوضوح . ويبدو أن هذا المسمى جاء بناءً على الكم الهائل من الأرقام المكتوبة باللغة الهيروغليفية والمنقوشة على الجانب الشرقي من جدار المقبرة ، على هيئة الآلاف من رؤوس الماشية . ووفقاً لمعتقدات المصريين القدماء فقد كانت الكلمة تحتوى على قوة سحرية : فمجرد النطق بالعبارات المناسبة تتحول صور الآلاف من الثيران والماعز والأبقار المنقوشة على جدران المقبرة إلى ماشية حقيقية وتُقدم لخفر عنخ في العالم الآخر . وعلى حوائط مقابر المصريين القدماء ، يوجد العديد من النقوش الخاصة بصور الحيوانات الأليفة ، ومن العجيب أن كل هذا الكم من النقوش مسجل في أرقام .

نلاحظ كذلك أن غالبية علماء المصريات يتوجهون بشكل كبير إلى المجلد الثاني عشر النادرة الببليوجرافية- من أعمال بعثة ر. ليبسيوس^{٦٥٤} يستقون منها المعلومات ، التي قام بتجميعها المتحمسون البروسيون العظام ، في النصف الثاني من القرن

٦٥٣ في بداية عمل البعثة في عام ١٩٩٦ ، التقدم للأمام عند مدخل المقبرة كان يتطلب الحفر لمدة أسبوع على الأقل .

٦٥٤ كارل ليخارد ليبسيس ، كان أول عالم حفريات يقوم بدراسة صحراء الجيزة البعثة البروسية التي ترأسها في الفترة من عام ١٨٤٢- ١٨٤٣ ، لم تقم فقط برفع العلم أعلى هرم خوفو ، تمجيداً للأبحاث والأعمال التي جرت لتلك الأهرامات العظيمة ، بل رسموا الهرم ونشروا كم هائل من المشاهد المتعلقة بمقابر كهنة منطقة الجيزة ، في عدة مجلدات عن تماثيل مصر والنوبة K.R. Lepsius. Denkmäler aus Aegypten und Aethiopen. Abt. I-VI. Berlin, 1897-1913.

التاسع عشر، الذين جابوا نهر النيل من المجرى السفلى، إلى الشلال الخامس. وتركوا مخطوطات ورسومات رائعة لكل ما شاهدوه.

إن أرشيف تلك البعثة المحفوظ الآن في برلين، يترك لديك انطباعاً لا ينسى. فهناك صور ملونة كثيرة ورائعة للنقوش والرسومات التي رسمها بالألوان أفضل الرسامين في ذلك العصر. وقد بقى بعض من أسماء هؤلاء مدونة على أعمالهم مثل: بونومي، فيدينباخ.... وتعد الألوان أحد الأشياء التي تحدث تأثيرات وانطباعات قوية، وليس من السهل علينا اليوم أن نجد صور سليمة ملونة لتلك النقوش. وبالإضافة إلى الأدلة «المادية» تمثل المدونات اليومية قيمة مهمة لا تقل أهمية عن تلك النقوش الملونة؛ لأنها تسجل ما لم تفلح الرسومات في توضيحه. وبالنسبة لنا فقد كان من المهم أن نجد النسخ الأصلية الخاصة بمقبرتنا لكي نفلح في إحياء وإصلاح ما أتلفه الدهر، في تلك الرسومات التي إختفت بالكامل، وكذلك العثور على يوميات إيريكام أحد أعضاء تلك البعثة خاصة وأنه كان قد ترك رسم كروكي بخط اليد لخارطة المكان مع وضع علامات تقليدية للمقابر البارزة من الركام دون الإشارة إلى الإتجاهات الجغرافية، وكان يقدر المسافات بينهم بالخطوات التي تساوي حوالي ٧٥ سم.

في ألمانيا وفي واحدة من أعرق جامعاتها وهي جامعة هايدلبرج، قضت أولجا توماشيفيتش الأستاذ المشارك بكلية التاريخ بجامعة موسكو دورة تدريبية. وقد طلبت منها أن تتوجه إلى الدكتور "خ.رينيك" الأمين على الأرشيف. وأن تقوم بمحاولة للعثور على النسخ الأصلية. لم تضع أولجا الوقت الممنوح لها لأجل العمل، وذهبت إلى برلين! ولكن للأسف فإن النسخ الأصلية لبعثة ليبسيوس والخاصة بمقبرتنا فقدت مع جزء من أرشيفه أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد أسفنا أشد الأسف لعدم العثور على مخطوطات إيريكام. فإذا ما كانت عملية ترميم الألوان الأولية لمقبرة خضر عنخ قد تمت بطريقة جيدة على أيدي تشجودايف، بعد دراسة دقيقة لمثيلاتها من باقي مقابر المملكة القديمة، فإن الأمل الأخير في الحصول حتى على خريطة طبوغرافية بدائية للمكان للقيام بالحفريات، قد تبددت للأبد.

أثناء تواجدى في بوسطن، رأيت كيف يحافظون بعناية فائقة على أرشيف بطيرك أثار الجيزة جورج ريزنر. لا أبالغ هنا في القول بأن جورج ريزنر الذي كرر في النصف الأول من القرن العشرين الانجاز غير المسبوق لـ «ر.ليبسيوس»، قد اجتاز مناطق شاسعة في وادي النيل، وترك خلفه أعمالاً ذات قيمة علمية فائقة، ومعلومات لا تقدر بثمن إلى جانب الصور الفوتوغرافية. ومن أهم أعماله: «تاريخ جبانة الجيزة الكبيرة»، وهو كتاب في غاية الأهمية ليس فقط لكل من يعمل في محيط تلك الجبانة، بل ولجميع المتخصصين في تاريخ المملكة القديمة. وتجدر الإشارة إلى أن غالبية أعمال جورج ريزنر قد نشرها تلاميذه بعد مماته. أما فيما يتعلق بعمله في الجيزة فقد نشره هو بنفسه. وبشأن ما ورد عن مقبرتنا في هذا العمل الضخم الذي يناهز الألف صفحة، فقد ورد ذكرها في أربعة سطور فقط^{٦٥٥}. وكان من الممكن أن يكون هناك كتابات ورسومات أو صور لهذا المكان. وأود أن أشير هنا إلى أنه بفضل الخدمات الإستثنائية لـ «ريتا فريد» رئيس قسم الشرق الأوسط بمتحف الفنون الجميلة، و «بيتر مانويليان» أمين أرشيف جورج ريزنر فقد حصلت على نسخ مصورة من تلك المخطوطات التي خطها جورج ريزنر بيده، وعلب كرتونية سميكّة مع صور بنية اللون كانت سائدة في بداية القرن العشرين. وقد وجدت الصور المطلوبة بين تلك الصور، وحاولت من الذاكرة أن أختار تلك الصور التي تعطى أفضل منظر عام للمكان وكانت النتيجة مخيبة للأمل، فلم تظهر صور جورج ريزنر أكثر من ذلك الذي نراه اليوم من مقابر صخرية ناتئة تحت طبقة الرمل^{٦٥٦}. والأمر الأكثر إحباطاً يرتبط بالمنطقة المحيطة بمقبرة خفر عنخ التي وفقاً للصور برزت وحدها من تحت الرمال، وأن جيرانها قد طُمست بطبقات رملية هائلة حتى الآن.

وشاهدت صوراً أخرى وفجأة، وجدت نقشا مألوفاً لي من قبل وللعجب فقد كان بنفس التشوهات التي وجدناها اليوم. وللأسف، فليس هناك حاجة إلى الاعتماد هنا على التفاصيل الجديدة التي لم تبق حتى وقتنا هذا. عوضاً عن ذلك نجحت في معرفة تاريخ

٦٥٥ إتضح لنا بعد قيامنا بتحليل هذا العمل، أن جورج ريسنر كاد أن يكون بنفسه داخل تلك المقبرة، ومن المرجح أن يكون قد أشار إلى ثلاثة مقابر أخرى غير تلك المقبرة، وبذلك يكون قد ارتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه ر. ليبسيوس كما أشار في كتابه.

٦٥٦ المنطقة التي كنا نعمل بها تضم عدد من المقابر المنحوتة على أحد التلال الصخرية المولفة من الحجر الجيري وذلك في النصف الثاني من الألفية الثالثة قبل الميلاد. وقد إنثرت معظم هذه المقابر بسبب العواصف الرملية التي تهب كل يوم على المنطقة وهناك عدد منها قد بقي محفوظاً في مكانه وذلك بحكم الوضع الطبيعي للصخور في المكان.

تلك الصور إذ كان التاريخ مدوناً على الظهر. وبالتالي تجدد الأمل في العثور على شيء ما في المذكرات اليومية لجورج ريزنر ولولا ذلك لاستغرق الأمر عدة سنوات حيث أن كل يوم عمل أثناء البعثة التي امتدت سنوات عديدة تم تسجيله بدقة في المذكرات الميدانية التي تشغل الآن رفاً كاملاً. ومعرفة التاريخ سهلت لي مهمة البحث عن المجلد المناسب بل وكذلك الصفحة المناسبة. ولكن أين هي المعلومات الخاصة بمقبرة خفرع عنخ؟ فلا توجد عنها أية معلومات لافي مذكرات أيام عام ١٩٣٦ ولا في المذكرات الميدانية التي تتناول المقابر المجاورة لها. وأصبحت بإحباط تام لذا قررت سؤال بيتر مانويل عن ذلك الأمر وقال لي إن مقبرة خفرع عنخ لم تكن تدخل حيز إمتياز جامعة هارفارد ولا في متحف بوسطن للفنون الجميلة.. ولهذا السبب لم يترك جورج ريزنر في يومياته أية معلومات ذات صلة بها. ونظراً لأنه باحث لديه ضمير يقظ، فقد سعى إلى الإشارة إلى أكبر قدر ممكن من المقابر في المنطقة القريبة المجاورة، بما فيها منطقة المقابر الصخرية.

بعد أن قمنا بإغلاق الصفحة التاريخية الجغرافية من أرشيف خفرع عنخ، شرعنا في عمل أرشيف خاص بنا. وإلى جانب المهام التقليدية في مثل تلك الأعمال مثل التسجيل المصور والمكتوب للمادة واستخدام أحدث وسائل التقنية في النسخ ومعالجة البيانات فقد وضعنا مهمة جديدة تتمثل في إكتشاف نظام لبرنامج من أجل رسم المحراب المصري القديم ليعكس طريقة وضع الوثائق في المجتمع القديم.

هذا ويعد محراب المقبرة المصرية القديمة، بمثابة الموسوعة الحقيقية لحياة المجتمع داخل المقبرة شعرنا أننا نغوص في ذلك الزمن السحيق عندما كان أقارب صاحب المقبرة يشيعونه، إلى العالم الآخر ومعهم جميع متعلقاته الضرورية، وإعداد مكان لكل فرد من أفراد أسرته في المقبرة ليدفن فيه عندما يقضى نحبه. وإذا لم يدفن هناك، فإن صورته على اللوحة الجدارية تكون بديلاً عنه. وإن النقوش والكتابات المحفورة في الحجر تعود إلى الحياة بفضل سحر الكلمة المنطوقة. ولم يشك أحد في أن قائمة القرابين التي تلاها الكاتب، سوف تذهب إلى صاحب المقبرة في العالم الآخر. وإن السمك والحبوب والطيور المنزلية داخل الأقفاص، والتي تم رسمها داخل ستة سجلات في الجزء الشرقي من المقبرة ستصبح حياة وحقيقية من أجل صاحب المقبرة خفرع عنخ الذي يوجد في مدينة الموتى وسيصل إلى خفرع عنخ أيضاً تحديداً، وبالأمر عدد ٨٣٥ ثور و٢٢٠ بقرة و٧٦٠ حمار و٢٢٣٥ ماعز و٩٧٤ خروف تم إحصاؤهم في السجلين السفليين على الجانب الشرقي للمقبرة.

كل هذه البيانات سجلها الكتاب - الموثقون الذين سيدور عنهم الحديث . والشخصيات الرئيسية لنقوش الجدار الشرقي لمحراب خفرع عنخ ، هم أصحاب المقبرة . والكتاب الذين تم تكليفهم بعملية التوثيق . وعلى اليسار رسم شخصين واقفين مكتملى الطول ويوافق طولهما طول الستة سجلات المقابلة . في الأمام رسم صاحب المقبرة ، وهو يقف مائلاً بجسده للأمام ، ويثنى رجله اليمنى ، متوكئاً على عصا طويلة . ويوجد منديل في أصابع يده اليسرى بين إصبعي الوسطى والبنصر ، وهذا رمز الأصل النبيل . وقد صور الوجه في الشكل الجانبي والذقن مرتفعة للأمام ، ولديه عينان لوزية الشكل . وملابس خفرع عنخ تكاد تغطي ركبتيه ، كانت حافة حاشية الزي التقليدي للموظف المصري القديم آنذاك - التنورة - منحنية ، وخارجة أعلى الحزام . وهناك وشاح غير عريض ، يعلو كتفه الأيسر كما لو كان يرفرف ويصل إلى فخذه من الجانبين .

كانت الكتابة تشير أن الواقف أمامنا هو خفرع عنخ «صديق الفرعون والمشرف على كهنة هرم خفرع^{٦٥٧} ومن خلف خفرع عنخ يقف أخاه إيتى والذي تم تصويره على غير العادة بنفس حجم صاحب المقبرة . وتعرفنا الكتابة بشخصية «أخيه الشقيق إيتى صديق الفرعون ، والمشرف على كهنة هرم خفرع» .

هكذا يقف أمامنا كهنة المعبد الجنائزي لخفرع . و عنهم وعن أولئك الذين شغلوا هذه المناصب أعماراً عديدة في الماضي كتب مؤلف مصري مغمور :

إخفتي كهنة الخدمات الجنائزية
وأصبحت مقابرهم في طي النسيان
لكن تتردد أسماؤهم عندما تقرأ الكتب
التي كتبت أثناء حياتهم
وستظل ذكرى من كتبها خالدة على الدوام .

”وكانت الصور البارزة على الجدار الشرقي لمقبرة خفرع عنخ ، تجسد هؤلاء الكتاب الذين كان لهم الفضل الأكبر في تأليف الكتب المصرية القديمة ، وإنشاء الأرشفيات ، والمكتبات . أهم هؤلاء الكتاب : خفرع - أوسركاو ، وتشغل صورته ما يوازي سجل ونصف مما يدل على علو مكانته : وارتفاع شأنه بين باقي زملائه من الكتبة . وهو يتوجه برأسه نحو خفرع عنخ باسطاً أمامه لفافة بردى . وأمام قدميه توجد لوحة ألوان

٦٥٧ أنظر : خفرع : فرعون وملك مصري يعود للأسرة الرابعة (نهاية القرن السابع والعشرين - مطلع القرن السادس والعشرين ق . م) .

ولفافة مطوية من أوراق البردي. وهذا الشخص يقدم لصاحب المقبرة وثيقة تتعلق بحالة مزراعته. تلك الرسومات تم نقشها لأول مرة في مقابر المملكة القديمة، أثناء عهد الفرعون خفرع الذي كان خفرع عنخ يخدم هرمه. غير أن معظم الرسومات من ذلك النوع يعود تاريخها إلى النصف الثاني من الأسرة الخامسة، وحسب رأينا مقبرة خفرع أيضا.

من الجدير بالذكر، أن وظائف التوثيق والتدوين كانت حكرًا على الرجال حتى وإن كانت صاحبة المقبرة سيده ^{٦٥٨}، وكان يوجد في النظام العام للإدارة المصرية بالمملكة القديمة موظفيهم مختصون بعملية التوثيق والصيغة، وتقديمها إلى صاحب المقبرة. وأوضح لنا تحليل نقوش تلك المقابر أنه كان من الممكن أن يقوم بتلك المهمة أي موظف من موظفي القصر الملكي وموظفي النبلاء. وكانت هناك وظائف أخرى مثل: «حارس الوثائق»، والمشرف على كتابة وثائق الملوك وكتابة مجموعات العاملين، ورئيس كهنة الدفن والتي يمكن أن يشغلها (كما في مثل حالتنا هذه) أحد أبناء المتوفي. وكان من المنطقي حسب عقلية المصري القديم أن يجمع شخص واحد لقي (وكذلك وظائف) كهنة الدفن وكتابة الوثائق. وكان ذلك مرتبطًا ارتباطًا مباشرًا بتصورات المصري القديم عن العالم الآخر، ومراسم العبادات الجنائزية والتي طبقًا لها يتم تخصيص منتجات من مزراعة صاحب المقبرة لأجل ضمان العبادة الجنائزية. ويقوم الكتبة بتدوين وإحصاء قائمة ذلك الطلب بدقة بالغة.

في غالبية المقابر التي تتضمن تلك المشاهد، يقوم الموظف بتقديم الوثيقة الجاهزة قابضًا على لفحة من ورق البردي، وجاثيًا بخشوع على ركبتيه أمام صاحب المقبرة. غير أنه في بعض الحالات ترى كتابة هيروغليفية على ورق البردي ويعرف مضمون ذلك المشهد، وفقًا لما يوضحه تحليل مثل هذه الرسومات المماثلة في مقابر المملكة القديمة «بالتفتيش» ^{٦٥٩} الذي يقوم به صاحب المقبرة. وجرت العادة أن هذه وثيقة تعكس وتصور حالة المزرعة التي ستوفر الثمار للمتوفي، وتعد المماثل لضبعة النبيل مع الفرق بأن سحر الأرقام هنا في نقش المقبرة قادر على زيادة خصوبة الأرض وعدد رؤوس الماشية. وهذه الوثائق محفوظة في أرشيفات خاصة باللغة المصرية القديمة، ويطلق عليها

P. Der Manuelian. Presenting the Scroll: Papyrus Documents in - ٦٥٨
Tomb scenes of the Old Kingdom // Studies in Honor of William Kelly
.Simpson. Boston, 1996, vol. 2, p. 562
.ibid., p. 579 ٦٥٩

«دار الوثائق» ، التي ظهرت في مصر منذ عصر المملكة القديمة^{٦٦٠} . والوثائق المصرية القديمة هي عبارة عن لفافات مطوية من أوراق البردي وهذه اللفافة المطوية تشغل بعض أجزاء النقش البارز على ، حائط مقبرة خفرع عنخ الشرقي . والكتبة المصورين على السجل الثالث والرابع في النقش على الحائط الشرقي لمحراب مقبرة خفرع عنخ بجانب الموثق الذي يقدم لفافة البردي لصاحب المقبرة . هم هؤلاء الذين بفضل جهودهم وضع الأرشيف المقدم لخفرع عنخ الخاص بضيعة الجنائزية . بين هؤلاء الناس كما في المقابر الأخرى للدولة القديمة من هم على صلة قرابة بصاحب المقبرة ، وأفراد من طبقة الصفوة في مصر القديمة شغلوا هذه الوظيفة . وخلف خفرع «أوسركاو» كاتب حليق الرأس يرتدي ملابس قصيرة ، ويجلس على ركبة واحدة وموجه رأسه مثل الموثق نحو اليسار ، ويمسك في يده اليمنى لفافة من أوراق البردي . ويتضح من خلال الكلمات المكتوبة «خفرع عنخ ، وابنه» .

كما يوجد ورائه كاتب آخر يمسك بيده الاثنتين لفافة كبيرة من البردي وأمامه علبة بها أدوات الكتابة والمحبرة . وتشير الكتابة ذات الصلة بالصورة إلى أن : «الكاتب إيري يقوم بعمل كل شيء» . وشكل المحبرة أشبه بقوقعة كبيرة مفتوحة مع فجوات للألوان يعطي دليلاً آخر على أن تأريخ مقبرة خفرع عنخ يرجع إلى عصر الأسرة الخامسة . وقد صورت أدوات الكتابة الخاصة بالكتابة داخل مقابر أسرات المملكة القديمة ، التي تحوي أسماء شخصية ممزوجة بأسماء فراعنة الأسرة الرابعة . في حين أن الكتابات التي اكتشفت على خراطيش الفراعنة تشمل أسماء أفراد الأسرة الخامسة^{٦٦١} . أغلب الظن أن مقبرتنا ترجع لعصر الفرعون «ني أوسير» .

أما الصورة التالية للسجل مشوهة المعالم . ويعد ذلك مساحة من المفترض أن تشغلها صورتان لشخصين ولكنها مكشوفة ، يليها شخص يمشي موجهاً وجهه نحو الجهة اليمنى وذو شعر قصير ، وملابسه حتى الركبة والتنورة على شكل مثلث بارز . ويمسك بيده كذلك لفافة من البردي ومكتوب أسفل الصورة : «الكاتب الممتاز إيشيني» .

٦٦٠ كاروستوفسيف . م . أ «كتبة مصر القديمة» ، موسكو ١٩٦٢ ، ص ٥٠ .

٦٦١ Cherpion N. Mastabas et Hypogées d'ancien Empire. Problème de la datation. Bruxelles, 1989, p.77-78, fig.71

السجل الثالث يحوي ثلاث صور للكتبة. الكاتب الأول يجلس على ركبة واحدة وينظر بوجهه نحو اليسار، وخلف أذنه قلم ويمسك بلفافة بردي بكلتا يديه وترى حتى نهايات جدائل البردي. كان لدى الكاتب شعر قصير، وأمامه حقيبة صغيرة لأدوات الكتابة ومحبرة على شكل القوقعة. ويدعى رودج كاو وعبارة «ابنه» هو اسم يدل على أن هذا هو أحد أبناء صاحب تلك المقبرة. الكاتب التالي يحمل لقب فقط وصورة الكاتب الذي يجلس خلفه تصحبها عبارة: «الإحصاء من قبل الكاتب ريدينييس لكافة الأشياء». وتوضح الكتابة والشروح المكتوبة ذات الصلة بها مدى شمولية نظام العد والإحصاء لممتلكات المزرعة الجنائزية الذي إنعكس في الأرشيف الخاص بالتوثيق وضعه وسجله الكتبة على ورق البردي؛ ليقدموه إلى صاحب المقبرة. كان الحرص على إتزام القواعد والدقة في عملية التسجيل وحفظ تلك المدونات في الأرشيفات الخاصة بالمعابد السبب في أن الذخائر التصويرية والنصية للمقابر المصرية القديمة تنحصر في مجموعة محددة من مشاهد وموضوعات مكررة. وكما يوضح تحليل النصوص ذات الصلة فهذه المشاهد يكن أن تشغل أماكن متعددة بالمحراب، ولكن في حالتنا يتلقى خفر عنخ معلومات موثقة عن حالة المزرعة الجنائزية المخصصة لتحقيق عبادته في بداية طريقه إلى العالم الآخر. ويوجد أعلى ذلك المشهد في السجل الأعلى لصور الجدار الشرقي للمحراب مشهد «الإبحار نحو الغرب». والمشهد يصور مواكب قوارب شرعية عائمة، والتي تقوم بتوصيل التابوت إلى مثواه الأخير. والتالي من حيث الترتيب «قراءة» نقش الحائط يعد مرحلة تقديم الوثائق.

في الصورة التي أمامنا مثلما هو الحال في غالبية الصور، لفاقة لاتظهر عليها أية كتابة غير أن محتواها متوقع وبديهي، ويتكشف كاملاً في نقوش الجدار الشرقي للمحراب خلف ظهر الموثق والكتبة مباشرة. وهو مشهد الأعمال الزراعية من درس الحبوب ومنظر حصاد الحنطة واستقدام الماشية والطيور المنزلية ومشاهد لصيد الأسماك. ويتداخل فيهم رغم ذلك مشاهد عقاب المذنبين الذين يتعرضون للمراقبة والحساب بصرامة.

انتاج الحبوب كان العمل الرئيس لاقتصاد الضيعة الجنائزية لخفر عنخ. ويبدو ذلك جلياً من خلال المشاهد المرسومة على الجداريات التي توضح حصاد الحبوب ودرسها. بالإضافة إلى تربية الماشية التي كانت تشغل مكانة كبيرة كما عرفنا سابقاً من الأرقام السالف ذكرها بجانب الماشية ضخمة القرون. ويوجد في منتصف السجل الثالث مشهد

يصور الأوز وطائر منزلى آخر داخل القفص ، يحمله الخدم إلى صاحب المقبرة ، ومن المعروف أن طيور الأوز من الأطباق المفضلة لدى المصريين . ومن النادر أن تجد مشهد في محاريب مقابر القدماء المصريين يخلو من رسومات الأوز . وكانت تقدم إلى صاحب المقبرة وهي حية ، وفي نقوش الحائط الجنوبي من المقبرة يوجد بعض منها في أطباق مطهية وجاهزة للاستهلاك . ومشهد صيد الأسماك الذي يوجد في الأسفل من أكثر المشاهد ديناميكية ، حيث نرى صيادا يحملان ست سمكات فوق الكتف ، وعليه حبال مربوط بها ثلاث سمكات كبيرة تصل إلى الأرض (السمكة الوسطى ضخمة ورأسها مرفوعة لأعلى ، والسمكتان الأولى والثالثة نحيفتان ورأسيهما مرفوعتان لأعلى) وعلى خط القاعدة توجد سمكتان تتجه رأسيهما إلى اليمين . وفي المنتصف يوجد رسم للمشرف وهو يقف متكئا بيده اليمنى على عصا طويلة ، منحنيا قليلا للأمام ، ويثنى رجله اليمنى (مكررا نفس هيئة صاحب المقبرة) . وعلى اليسار مجموعة من ثلاثة صيادين ، وعلى يمين المشرف مجموعة من أربعة صيادين . ويجذب الصيادون بكلتا يديهم حبالا مربوط بحافة شبكة صيد السمك . وفي الأسفل شريط يمثل الماء ، والشبكة معلق بها أربعة أثقال لها شكل الكمثرى ، وتحوي الشبكة خمس عشرة سمكة من مختلف الأنواع .

لا يوجد في الحائط الجنوبي من المقبرة أية صور للكتبة . حيث يبدو أن هذا الجزء من الحائط مخصص لعملية إعداد الطعام وطهيه أمام خفر عنخ وزوجته «خران كا» . وهناك مجموعة من الكتبة يحملون بأيديهم لفافات من أوراق البردي ، ويبدو أنهم طبقا لعلم الأنساب أبناء خفر عنخ حيث يصطفون أمامه في حجمه الطبيعي على الجدار الغربي من المقبرة . ويوجد فوقهم مشهد رمزي جلب الضباع لصاحب المقبرة . وقد تم تربية تلك الحيوانات في بعض مزارع النبلاء المصريين وكانوا أنذاك يأكلون لحومها . وأغلب الظن أن إحصاء هذا النوع من الممتلكات يظهر في هذا المشهد . بالإضافة إلى ذلك سجل الكتبة وأحصوا تلك القرايين التي كانت مخصصة لخفر عنخ وزوجته على اللوحات - الألواح الأبواب الوهمية^{٦٦٢} . من أهم المناظر الرئيسية في تكوين الحائط الغربي تمثال لاياتى تفرده فقط ، أنه منحوت من قطعة من الصخر بل إن التجايف حيث يوجد التمثال

٦٦٢ كان يتم تصنيع تلك اللوحات - كان الشاهد يصنع من الحجر الجيري ويوضع على نوافذ الأبواب الوهمية ، وجرت العادة على وضعها في نمط واحد ، بحيث يجلس المتوفي صاحب المقبرة (بمفرده أو بصحبة زوجته) أمام مائدة القرايين (الذبيحة) وأمامه جميع أنواع الأطعمة ، وقائمة إضافية بالعروض الجنائزية .

مزينتة بموكب سكان القرى ، وهم يحملون الهدايا إلى العالم الذي سوف تقربه روح . ولا يوجد مثل هذا المشهد المركب في أية مقبرة أخرى من مقابر القدماء المصريين ، على الرغم من أن هذه المشاهد منفردة ومشهورة جدا . .

كانت عيون تمثال خضوع عنخ - مستودعاً للروح - مطعمة بشكل رائع . وكانت الحياة الرائعة تتلألأ عدة قرون أمام عيونه الحيية في الحجر ، والمتجهة صوب الشرق ، حيث كانت تؤدي لذلك الهدف ومن أجله أعمال لانهائية في المزرعة المنفصلة . ومر الوقت واقتحم البعض المقبرة باحثين عن مكان لدفن قريبهم . ولأسباب مجهولة عرفوا هذا المكان ، وتمكنوا من الدخول إلى المقبرة وقاموا بعمل همجي وهو تحطيم الجدار الشمالي للمحراب ونحتوا في الصخر . كما تأكدنا من وجود مقبرتين كاملتين وليس قبرا واحدا ، وظلت محاريب تلك المقبرتين غير كاملتين وألزمنا إنعدام الديكور والكتابة بذل جهود ثلاثية لإجراء القياسات اللازمة والحسابات والملاحظات البصرية لإجبار تلك الحوائط على الكلام^{٦٦٣} .

كان الشخص الذي لاغنى عنه هو «يوسف دورنر» نائب مدير المعهد النمساوي للأثار بالقاهرة الذي أمضى سنوات طوال بمصر أجرى خلالها قياسات للعديد من الآثار المصرية القديمة فسرعان ما أصبح الناصح الأمين لنا في كافة الأعمال الطبوغرافية ، وصديقا حميما لكل أفراد البعثة . وقد قدم لنا بفضل المزولة التيودوليت السويسرية وشاقول البناء ، والذي كتب عليه تاريخ الصنع في عام ١٩٠١ ، معلومات دقيقة عن مستوى جميع الأبنية فوق الأرض وتحت الأرض ، مما لعب دورا حاسما في استنتاجاتنا بخصوص تحديد الأماكن وطبيعة وطرق تشييدها . وبعد أن فرغ يوسف من عملة في مقبرة خضوع عنخ ، طلب من العمال إزالة طبقة الرمال شمالي مدخل المقبرة ، وأخذ معول أحد العمال يهوى للأسفل بطريقة سهلة تستدعي العجب ، وسرعان ما حدد فوهة بئر مجهولة . وفي صباح ذلك اليوم في منتصف شهر مايو الشديد الحرارة عام ١٩٩٨ كنا قد اعتقدنا أننا أنهينا عملنا في ذلك القطاع شرق هضبة الجيزة ، ولكن اتضح لنا أننا في البداية .

٦٦٣ تم نشر نتائج تلك الأبحاث في :

Kormysheva E. Report on the activity of the Russian Archaeological Mission at Giza, Tomb G 7948, East field, during the season 1998 // Annales du Service des Antiquites de l'Egypte. Le Caire, t. LXXIV; Kormysheva E. Russian Archaeological Mission at Giza, East field, season 1999 //Annales du Service des Antiquites de l'Egypte. Le Caire, t. LXXV

أنهى «يوسف» مقاييسه وإحصاءاته، التي شكلت فصلاً متميزاً في أرشيف البعثة. تم الانتهاء من رسومات مقبرة خفر عنخ ومقبرتين جديدتين تم العثور عليهما بجوارها، وعلى ما يبدو فإن اكتشاف البئر بطريق الصدفة قد أعطى المفتاح لاكتشافات أخرى. وحدث معنا بعد ذلك كثير من الأشياء الطريفة والمثيرة والغامضة. ففي إحدى غرف الدفن وجدنا جزءاً كبيراً من مومياء. وواجهتنا صعوبات عدة لانتشال تلك المومياء لدرجة أننا أصبحنا مثل أبطال فيلم «المومياء»، الذي عُرض في دار سينما «روسيا» بعد عودتنا إلى موسكو. وكان الشيء الرئيس وغير المتوقع حتى بالنسبة لنا أننا اكتشفنا في الموسم التاليين أثناء التنقيب أكثر من أربعين مقبرة جديدة، تقع في الطبقات المتعددة للجبانة، والتي كانت مكتظة «بالسكان» في نهاية عهد المملكة القديمة.

وقد تم مناقشة مسأله وضع توثيق خاص. ولمزيد من دقة نتائجنا ومصداقيتها إضطررنا لوضع مبادئ للتوصيف وذلك؛ لأن البطاقات الأثرية العادية لم تكن تلبى طبيعة وخصوصية وكمية المعلومات. والفضل الحقيقي في هذا يعود لزميلنا البولندي عالم الآثار مارك ليميش الذي عمل معنا لموسمين متتاليين، وقد بذل جهداً وعلماً لعمل نظام حقيقى لإحصاء كل أنواع الكنوز التي عثر عليها. وقد قمنا لأول مرة بتطبيقه في نهاية الموسم الميدانى لعام ٢٠٠٠. وتتلخص فكرة هذا الوصف في تصنيف وحدات التنقيب الرئيسية على النحو التالي: وحدات كبيرة (منطقة)، ووحدات صغيرة تدخل في نطاق الكبيرة مثل (محراب، مقبرة، وبئر.. إلخ)، وإقامة أكبر عدد من الروابط الداخلية التي تسمح بظهور النظام، وإدراج العديد من المعلومات المختلفة في عملية البحث.

نذكر على سبيل المثال أن أقدم مقبرة تصل مساحتها إلى نحو ٢٠٠ متر مربع، تم تقسيمها إلى مئات الصحنائ المسطرة، وذلك لإمكانية تحديد العلامات الأساسية لعملية التأريخ والتصنيف وعناصر البناء وجرده المقابر. ولم يتسن لنا الإجابة على كافة التساؤلات التي واجهتنا آنذاك. ومنها على سبيل المثال، حالة الدهشة التي انتابتنا بسبب ذلك الإتجاه المثالي نحو الإتجاهات الأربعة الأصلية لبقايا المحاريب، ومدخل الأبواب الوهمية ربما ترجع لمعرفتهم الجيدة بعلم الفلك. ولكن لم يستطع أي شخص منا أن يفسر لماذا يتجمد سهم البوصلة على عمق أكثر من ١٢ متراً للمتجه إلى الممر وغرفة الدفن في إتجاه الشمال والجنوب تحت السرير الجنائزي. إذ لم يكن هناك آنذاك جهاز البوصلة، ولا وسيلة إضاءة ثابتة، وإنما كل ما هنالك هي المعرفة الظاهرية والمهارات الحسية الفائقة.

يتألف الجزء الذي تم اكتشافه في الجبانة من مقابر مشيدة من الطوب اللبن، مع استخدام أنواع مختلفة من الصخور الطبيعية. ويتضح من خلال شكل البناء وطبيعة غرفة الدفن أنها مبنية لصغار الموظفين بالإدارة المصرية القديمة، وأفراد عائلاتهم بالقرب من مقبرة خفرع عنخ - كبير كهنة الملك خفرع. إن مفهوم جذب هذه البقعة من الجبانة هي مسألة نسبية للغاية. فقد عُثر في بعض المقابر على خشبة وأحياناً مع بقايا ألوان. ومما لا شك فيه أنه كان يتم وضع الموتى داخل توابيت خشبية والتي لم تكن رخيصة الثمن في ذلك الوقت .

أتاح تحليل طبقات الأرض، وطبولوجيا المباني الجنائزية إجراء تصنيف لمباني الجبانة الشرقية بالجيزة الخاصة بعصر الدولة القديمة. تم العثور في منطقة الحفريات على ما يلي :-

- مقابر صخرية ذات ثلاثة أو أكثر من الآبار، واتجاهات مختلفة لغرف الدفن تجمع بين اتجاه الشمال - الجنوب لغرفة الدفن الرئيسية، واتجاه الشرق - الغرب لباقي الغرف.
- مقابر صخرية بها مدرجات لنزول التابوت، وهي تحاكي مقابر الملوك إلا أن لها سمات معمارية محددة، يتم استخدامها فقط مع الأبنية الصخرية ذات المساحة المحدودة.
- محاريب من الطوب اللبن تحمل نفس شكل المقابر الصخرية وبها ساحة للعبادة.
- محاريب من الطوب اللبن.
- محاريب ذات أبواب وهمية مزدوجة .
- آبار للدفن منحوتة داخل الصخر.
- آبار للدفن مبنية من الطوب اللبن والحجر.
- مدافن مشتركة تتألف من غرفة دفن كبرى ومبنى للعبادة .
- مدافن فردية .

توضح الأشكال المعمارية للمقابر أنها تنتمي لطبقات، أقل ثراءً بالمجتمع من أسرة كبير كهنة هرم خفرع. ويتضح لنا كذلك أن هؤلاء الأفراد كانوا يرغبون في الحصول على مدفن قرب مقابر كبار موظفي الدولة المصرية القديمة، على أمل أنهم كما عاشوا بجوارهم في الدنيا سيعيشون بجوارهم أيضاً في الآخرة .

مرت أكثر من خمسة آلاف عام منذ أن دوى في تلك البقعة من الجهة الشرقية من صحراء الجيزة ، البكاء الجنائزى ، وسمعت تراتيل الكهنة ، ودقت المطارق ، وأدوات التجليخ الخاصة بالفنانين ، وصيرير إزميل الفنان التي كتبت على جدران المحاريب النصوص والنقوش ، نقلا عن أصول البرديات المحفوظة في الأرشيقات المصرية القديمة. غير أن الزمن لم يرحم تلك الأرشيقات . وقد اختفت من زمن طويل ولكن الأعمال الفنية المنحوتة في الحجر المنقولة عن تلك الوثائق تتحدث معنا اليوم ، ولكن للحقيقة بلغة مغايرة تماما .

اللاجئون السياسيون الروس في مصر في مطلع القرن العشرين

تشكلت الجالية الروسية في مصر في نهاية القرن التاسع عشر. في عام ١٨٨١ بلغ تعداد الرعايا الروس في مصر ما يقرب من ١٠٠ شخص^{٦٦٤}، أما في عام ١٨٩٧ وفقاً للإحصائيات المصرية، فقد تجاوزت أعدادهم ثلاثة آلاف شخص^{٦٦٥}. ومن الجدير بالذكر أن التركيبة العرقية لهذه الجالية كانت تتكون من أغلبية يهودية^{٦٦٦}، وكان الكثير منهم معاد للنظام القيصري في روسيا. وقد قام الثوار الروس باستغلال تواجد هذه الجالية الروسية في مصر في أوائل القرن العشرين؛ لإرسال ونقل المطبوعات الماركسية والصحف من أوروبا إلى روسيا.

أشار مارسيل إسرائيل أحد أبرز المناضلين في الحركة الشيوعية المصرية، إلى أنه: «في بداية القرن العشرين توجه عدد من اليهود الروس الفارين من استبداد القيصر إلى مصر، وكان من بينهم مجموعة من البلاشفة». وعندما كان «لينين» يعيش في منفاه في «فرنسا وسويسرا» وجد أن بإمكانه الاستعانة ببعض الأصدقاء المتواجدين في مصر من أجل إرسال المراسلات من خلالها إلى روسيا^{٦٦٧}. وكان ذلك من أجل خداع السلطات القيصريّة.

- ٦٦٤ عن مقالة: «Русские политэмигранты в Египте в начале XX века» والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقي»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Vladimir Belyakov «مصر بعيون الروس» منتصف القرن التاسع عشر - أوائل القرن العشرين. مجموعة وثائق. موسكو، ١٩٩٢، ص ١٢٥-١٢٦.
- ٦٦٥ «جينادى جورياتشكين»، «جرينسنيكو»، «ديميتري فومين». الهجرة الروسية في مصر وتونس (١٩٢٠-١٩٣٩). موسكو ٢٠٠٠، ص ٦.
- ٦٦٦ لمزيد من التفاصيل أنظر: «فلاديمير بيلياكوف» «على شاطئ النيل المقدس» الروس في مصر. موسكو، ٢٠٠٣، ص ١٠٠-١٠٤.
- ٦٦٧ «رفعت السعيد» تاريخ الحركة الشيوعية المصرية «الجزء الأول ١٩٠٠-١٩٤٠». القاهرة، ١٩٨٧، ص ٦٩٨. تقرير موسكو. نشرت إسرائيل كملحق لهذه الدراسة.

تؤكد المواد الأرشيفية أنه كان يوجد عدد من الثوار بين المهاجرين السياسيين المتواجدين داخل مصر. ونورد هنا تقريرين أرسلهما دبلوماسيون روس من «القاهرة»، إلى «سانت بطرسبورج»، حول مغادرة القاهرة بعض «الأشخاص المشتبه فيهم» إلى روسيا بعد بداية الثورة الروسية الأولى. وجاء في التقرير المؤرخ في السادس من شهر فبراير ١٩٠٥ أن كل من الأرميني «كوتشير ماجيانتس» الذي يبلغ من العمر ثلاثين عاماً، والبولندي «بيليانسكي»، الذي يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً كانا قد ذهبا في الرابع من فبراير على متن البارجة الروسية «القيصر» عبر «القسطنطينة» أو «أوديسا» إلى «باتوم»... حيث تم إرسالهما إلى هناك على ما يبدو، من قبل اللجنة الأرمينية لتنفيذ بعض العمليات الإرهابية التي تستهدف السكك الحديدية والمدنيين، بينما سافر شريكهم «بارتوبالتيان» في الرابع والعشرين من يناير من «بورسعيد» إلى «جينيف» لاستلام وتسليم القنابل إلى روسيا عبر «كاراكوف»^{٦٦٨}.

في الثاني والعشرين من فبراير تم إرسال البرقية التالية من «القاهرة» إلى العاصمة الروسية: «غادر الجمعة الماضية على متن إحدى السفن الروسية من «الإسكندرية» والمتوجهة إلى «أوديسا» ثلاثة أشخاص مشبوهين وهم: «ناريس فيليكس فرانسوسكيفيتش» ويحمل جواز سفر مصري، و «كاريمير أنطونوفيتش مارينسكي»، ويحمل جواز سفر تركي، بالإضافة إلى شاب آخر مجهول ولديه جواز سفر نمساوي ويدعى «فالوديا»^{٦٦٩}، وذلك بهدف الدعاية الثورية.

إذا صححت المعلومات التي وردت عن طريق عملائنا عن الغرض من مغادرة الثلاثة الأوائل من اللاجئين السياسيين، فهذا يعنى أنهم بالطبع ليسوا من البلاشفة، أما فيما يخص المجموعة الثانية فإن إنتماءاتهم الحزبية غير معروفة.

لكن من المؤكد، أن هناك مجموعة من الثوار عاشت في مصر في مطلع القرن الماضي، وكانوا إما يعرفون لينين نفسه معرفة شخصية، وإما يعرفون دائرته المقربة من الأصدقاء. يؤكد ذلك إرسال صحيفة «إسكرا» والأدبيات الماركسية إلى روسيا عبر الإسكندرية.

٦٦٨ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف ١٥١، حافظة ٤٨٢، وثيقة ٨٥٤، السطر ١٢.

٦٦٩ نفس المرجع، وثيقة ٨٥٥، السطر ٤.

في بداية أغسطس من عام ١٩٠١، نوه «ف. إي. لينين»، و«م. ك. كروبسكايا» في خطابهما إلى «جالبيرنوفي باكو» عن خطة إرسال «إسكرا» عبر الإسكندرية. غير أن تنفيذ هذه الخطة تأخر لمدة ستة أشهر^{٦٧٠} لأسباب غير معروفة، وكتبت كروبسكايا إلى كرجيجا نوفسكي في الثلاثين من مارس لعام ١٩٠٢ تقول: «إن الطرق عبر مصر سالكة وأن أهالي خيرسون هم من قاموا بتمهيدها»^{٦٧١}.

غير أن «الطريق المصري» لا يصل مواد «إسكرا» إلى روسيا لم تدم غير ستة أشهر، وذلك بسبب يقظة البوليس السري التابع للقيصر بالإسكندرية، ولم تدخل ضمن إطار الطرق الأساسية. وقد وصف الباحثون الوطنيون هذه الطريق بالتفصيل^{٦٧٢}، وذكروا عدد وكم الطرود، التي تم إرسالها ومحتواها الأدبي، ومن أرسلها، ومن تسلمها داخل الموانئ الروسية، ومتى وكيف اكتشفتهم السلطات القيصريّة؛ لذلك لن نتوقف عند هذه القضايا، ولكن كل ما يهمنا هو من مهد هذه الطريق هنا في مصر. ولكن للأسف المعلومات التي بين أيدينا بهذا الشأن ضئيلة للغاية. كل ما نعرفه فقط ينحصر في اسم المواطن الروسي السابق «أوسيب ميخائيلوفيتش يوزيفوفيتش»، صاحب حانة «سيفاستوبول»، حيث توجد النقطة الأولى للمنشورات المحظورة، وكانت حانته تقع بالقرب من الميناء، ويرتادها بصفة خاصة البحارة الروس.

في نهاية نوفمبر ١٩٠٢ تسلم عمدة «أوديسا» وقائد قوات الحرس بالمدينة، خطابين من الإسكندرية بدون توقيع. وقد كتبهما شخص واحد، ويتضمنان نفس المحتوى. وجاء فيهما أن: «حانة» «سيفاستوبول» تعد «وكرالاشتراكيين» و«مقر الرابطة الديموقراطية الإشتراكية»، وأن «يوزيفوفيتش» أقلق روسيا على مدار ٢٢ عاماً بالكتب الثورية، التي كان يرسلها على متن كل سفينة. وأن صاحب الحانته يتردد على السفن الروسية في ميناء الإسكندرية أثناء غياب قادتها ويقوم بنشر المنشورات المحظورة بين بحارتها. واقترح صاحب الرسالتين اعتقال «يوزيفوفيتش» أثناء تواجده

٦٧٠ مراسلات «لينين» ورئيس تحرير «إسكرا» مع المنظمة الديموقراطية الروسية «١٩٠٠-١٩٠٣». المجلد الأول. موسكو، ١٩٦٩، ص ١٨٥، ٥٦٨.

٦٧١ نفس المرجع، ص ٤٥٨.

٦٧٢ أنظر: «جينادى جورباتشكين» «الطريق المصري» مواد إسكرا في روسيا // جامعة موسكو مسلسل ١٣. الاستشراق. ١٩٨٧، رقم ١، ص ٣-١١، «فرانكل» «إسكرا» اللينينية في مصر // محمية الطيور بأفريقيا. موسكو ٢٠٠٠، ص ٢٠-٢٩.

على متن إحدى السفن، وترحيله إلى «روسيا» داخل أحد الصناديق مكبلاً بالقيود ، لكي «لا يضل البحارة عن الطريق القويم»^{٦٧٣}.

وفقاً لهذه الرسائل المجهولة، عاش «يوزيفوفيتش» في مصر فترة طويلة، ومن غير المرجح أنه كان شتراكيا- ديموقراطيا وأنه ينتمي إلى «إسكرا». فعلى الأرجح أن المنظمين الأصليين لطريق إسكرا قد اتفقوا معه على استخدام الحانة لتكون قاعدة لإعادة الشحن، حال علمهم بمدى كراهيته لسلطة القيصر. وبالفعل كتبت كروبسكايا في الثاني عشر من أكتوبر عام ١٩٠٢ للخيرسونيين أن «يوزيفوفيتش» شخصية شديدة الغموض.^{٦٧٤}

ورجح صاحب الرسالة أنه لم يتم القبض على صاحب الحانة المعروفة باسم «سيفاستوبول»، بفضل حمله لجواز سفر مصري. ولكن هذا لم يحل دون تفتيش الحانة، كما تم منع البحارة الروس من الذهاب إليها، وفي نهاية عام ١٩٠٢، وفقاً لما أعلنه القنصل الروسي بالإسكندرية، أجبر «يوزيفوفيتش» على بيع الحانة للمواطن الإيطالي الاشتراكي بارون»^{٦٧٥}.

قام الكاتب في عام ١٩٨٧ بمحاولة اكتشاف مكان حانة «سيفاستوبول» بمساعدة المؤرخين المصريين في مدينة الإسكندرية. وقد توصلنا إلى استنتاج مفاده، أنه ربما كانت تقع في المنزل الذي يحمل رقم ٢٨ في شارع الكنيسة القبطية^{٦٧٦}.

الإخفاق الذي تعرض له «الطريق المصري» «إسكرا»؛ في منتصف ١٩٠٢ لم يدفع الثوار الروس للتخلي عن فكرة استخدام الإسكندرية قاعدة أساسية؛ لإعادة الشحن ونقل المنشورات المحظورة إلى روسيا، وهذا يؤكد أن يوزيفوفيتش، الذي تخلى عن حانته، لم يكن المنظم الأساسي «للطريق المصري». بل كان هناك شخص آخر يقوم بهذا الدور، وأن الاشتراكيين الديموقراطيين كان لهم في مصر شركاء في الرأي من أهل الثقة.

- ٦٧٣ «جينادى جورباتشكين» «الطريق المصري» مواد إسكرا في روسيا ص ١٠ .
 ٦٧٤ مراسلة «لينين» إفتتاحية جريدة «إسكرا». المجلد الثاني. موسكو، ١٩٦٩، ص ٣٣٥ .
 ٦٧٥ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ١٥١، حافظة ٤٨٢، وثيقة ٢٤٠٧، السطر ١٥ .
 ٦٧٦ «فلاديمير بيلياكوف»، محمية أفريقيا للطيور، ص ٢٥- ٣٩ .

في ديسمبر من العام نفسه اقترح «سميدوفيتش» طريقة أخرى لتسليم المنشورات عبر الإسكندرية. وحول هذا الأمر تحدث «م. فرانكل» «واقترح إشراك ألكسندر فارتانيان وعمه وهما من ساكني الإسكندرية في هذا الأمر، عن طريق أحد معارفهم ويدعى كوزيرينكا»^{٦٧٧}، إلا أن هذا الاقتراح لم ينفذ، مثله مثل محاولة الاشتراكيين الديموقراطيين في أوديسا «ترتيب عملية النقل» عبر الإسكندرية عام ١٩٠٣^{٦٧٨}، والتي على الأرجح قد تم إحباطها من قبل أنشطة الشرطة السرية للقيصر.

في بداية القرن العشرين، كان يعيش في مصر حوالي ربع مليون أوروبي. وكان دورهم في حياة البلاد أكبر من حصتهم في التعداد السكاني للبلاد، فقد كان الأوروبيون في الغالب يعملون مهندسين وفنيين، وعمال مهرة داخل الشركات والمؤسسات، أي أنهم الجزء العامل من السكان، الذي تتوفر فيه المتطلبات اللازمة لتحقيق التنمية الاقتصادية للبلاد، والتي لم تكن تتوفر لدى المصريين أنفسهم.، وغالباً ما كان يعيش الأوروبيون في مدينة الإسكندرية، التي كانت تعتبر نافذة مصر على أوروبا.

قال بوزانوف عن مدينة الإسكندرية التي زارها عام ١٩١٠: «لقد أحدثت الإسكندرية انطباعاً لدينا أعظم بكثير مما تركت إسطنبول، فالمدينة تم تخطيطها بشكل سليم، وكانت عبارة عن خطوط متساوية. وكانت منازلها تحمل الطابع الأوروبي، وتجدها قد ازدانت بالتماثيل والنوافير وخططت بها الميادين، كما أنك تجد سكانها وقد غطت رؤوسهم القبعات المصنوعة من القش وخوذ الجنود والقبعات الإستوائية التي تغلبت على الطرابيش والعمائم، وهذا يوضح لنا أن الإسكندرية المعاصرة مثلها مثل الإسكندرية الإغريقية، لا تحمل الطابع المصري، ولكنها مدينة يونانية في المقام الأول، أو بالأحرى «مدينة نموذجية من بلاد الشام»، وكان يقطنها حوالي ٣٥٠٠٠٠ نسمة نصفهم من الأجانب من مختلف الجنسيات... (من إيطاليا واليونان وفرنسا^{٦٧٩}).

كان الأوروبيون المقيمين على الأراضي المصرية يتمتعون بخبرة كبيرة في المشاركة في الحركة العمالية في بلادهم، ولم تكن الأفكار الإشتراكية غريبة عليهم، حتى أنه في مصر كانت توجد هيئات للحزب الإشتراكي الإيطالي، والحزب

٦٧٧ «فرنك». موسكو. مرجع سابق ص ٩.

٦٧٨ نفس المرجع.

٦٧٩ «بوزانوف» بين النيل والبحر الأحمر. موسكو ١٩٥٦، ص ٦٩.

الاشتراكي اليوناني . وقد أشار المؤرخ المصري عبد الوهاب بكر أن : «الأجانب كانوا بالنسبة للعمال المصريين بمثابة المعلم ، خاصة فيما يتعلق بالأيديولوجية والحركة العمالية»^{٦٨٠} وأوضح أن الأجانب تحديداً ، كانوا أول من بادروا بإنشاء نقابات عمالية مختلطة بمشاركة المصريين .

وقد ساهم بعض أفراد الجالية الروسية ، بدور ملحوظ في الحياة النقابية المصرية ، وقد كتب المؤرخ المصري « رفعت السعيد » إن أول اتحاد تم تأسيسه عام ١٨٩٩ كان يخص عمال شركات التبغ ، وأسسها أحد أبناء روسيا ويدعى يوسف روزنتال . وأصبح يوسف روزنتال ومن بعده ابنته شارلوت ، اللذان أصبحا مواطنين مصريين ، أبرز أعضاء الحركة العمالية المصرية ، والدعاه للأفكار الاشتراكية^{٦٨١} . وفي عام ١٩٢٠ تم تأسيس الحزب الإشتراكي المصري في مدينة « الإسكندرية » برئاسة روزنتال ، وقد تحول بعد ثلاث سنوات من إنشائه إلى الحزب الشيوعي . كما تولى روزنتال منصب الأمين العام لاتحاد العمال في مصر^{٦٨٢} ، وفي عام ١٩٢٢ قام الحزب الإشتراكي بإرسال شارلوت روزنتال^{٦٨٣} إلى موسكو ؛ للدراسة في الجامعة الشيوعية لعمال الشرق .

كما شارك اللاجئون الروس في أنشطة الجماعات الماركسية ، التي تم تنظيمها من قبل الأجانب المقيمين في مصر ، وقد أفادت الشرطة المصرية أنه من بين أعضاء جماعة «ياسنوست» ، و «كارلتى» ، كان هناك ثلاثة أو أربعة مهاجرين من روسيا ، وكان لقب أحدهم « كوسوفوسكي » . وسميت الجماعة باسم المجلة التي كانت تصدر في باريس واشترك في تحريرها كل من أناتولي فرانس ، وهنري باربوس ، وروملن رولان باريس^{٦٨٤} .

- ٦٨٠ « عبد الوهاب بكر » أضاء على النشاط الشيوعي في مصر « ١٩٢١ - ١٩٥٠ » القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٧ .
- ٦٨١ « رفعت السعيد » « تاريخ الحركة الإشتراكية في مصر » « ١٩٠٠ - ١٩٢٥ » . الإصدار الخاص القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٧٤ .
- ٦٨٢ « كوساتش » . الرابطة الحمراء فوق الشرق الاوسط ؟ « الحزب الشيوعي المصري ، فلسطين ، سوريا ، لبنان في العشرينيات والثلاثينيات » ، موسكو ، ٢٠٠١ ، ص ٥ .
- ٦٨٣ « كوساتش » الشيوعية في مصر في وقت مبكر : محاولة لإرساء مجموعة أو «حزب» // الشرق ، رقم ٥ ، ٢٠٠٢ ، ص ٦٥ ، لم تستطع « شارلوت روزنتال » العودة إلى مصر بعد إنهاء فترة الدراسة في موسكو عام ١٩٢٤ ، حيث تم وأد الحزب الشيوعي في مهده ، وظلت في الاتحاد السوفيتي .
- ٦٨٤ « رفعت السعيد » تاريخ الحركة الإشتراكية ، ص ١٧٩ .

وكان نمو الحركة العمالية وانتشار أفكار الإشتراكية اللتان تأثر بهما بعض المثقفين المصريين، ممن نالوا قسطاً من التعليم في أوروبا يسيران وأيديهما في يد الحركة الوطنية. في بداية القرن العشرين ترأس الحركة الوطنية الزعيم البارز «مصطفى كامل» (١٨٧٤-١٩٠٨) الذي كتب عنه السفير الروسي في القاهرة «سميرنوف»^{٦٨٥} عام ١٩٠٠: «مصطفى كامل، هذا الخطيب المفوه والكاتب البارز والعدو اللدود للاحتلال البريطاني في وادي النيل استطاع أن يصنع لنفسه مكانة رفيعة ويكسب النفوذ داخل أوساط المسلمين المحليين». استطاع أن يؤسس صحيفة «اللواء» التي دعى فيها إلى التحرر الوطني.

الشعور بعدم الرضا بدأ يتصاعد خفية تجاه الاستعمار البريطاني الذي كان يستغل الموارد المصرية بلا رحمة. وفي الفترة فيما بين عامي ١٩٠٦ إلى ١٩٠٨ أدى إلى مظاهرات حاشدة ضد الاستعمار البريطاني خاصة بعد «حادثة دنشواي»، وهي الحادثة التي جسدت الظلم الجائر للاستعمار البريطاني واستخدمهم للعنف ضد مجموعة من المزارعين في الدلتا في يونيو عام ١٩٦٠.

ظهور الحركة الوطنية في مصر تزامن مع انحسار الموجة الأولى من الثورة الروسية وخوفاً من ملاحقات السلطات القيصريّة، قام عدد من النشطاء المشاركين في الأحداث الثورية بالانتقال من الجنوب الروسي إلى مصر.

«وقد وصف أ. ف. زيفاجو لقاءه بأحد مواطنيه في الإسكندرية في يناير ١٩١٠^{٦٨٦}: في أحد شوارع الإسكندرية توجه إلينا شاب صغير ذو شعر أشقر ومستدير الوجه ويرتدي ثياباً رثة وقال بلغته روسية لاتشوبها شائبة: «هلا ساعدتم بحاراً بائساً من رجال الثائر «بندلايمون». سارع المرشد بالتوضيح قائلاً: «إنه روسي - وهم هنا كثيرون ويجلسون حتى ساعات متأخرة من الليل في أحد مقاهي الميناء الذي يحظى بسمعة سيئة للغاية».

كان من أبرز الفارين إلى مصر أحد المشاركين بنشاط في الثورة ويدعى ماخار (ميشكا) بوتسيوف، وكان عضواً في لجنة الإضراب أثناء إضراب البحارة في مدينة «أوديسا» في صيف عام ١٩٠٦. وقد تم إعتقاله مع مجموعة من زملائه النشطاء في بداية

٦٨٥ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٥١، حافظة ٤٨٢، السطر ١٩٢.

٦٨٦ «زيفاجو»، طبيب، عالم مصريات، أحد هواة جمع المقتنيات، موسكو، ص ١٤٤.

الإضراب، الذي أعتبر إضراباً ناجحاً، حيث اعترف ملاك السفن بالنقابة التي كونها البحارة تحت اسم «ريجستراتسيا» (التسجيل)، وقد تم إطلاق سراح جميع النشطاء عدا بوتسيوف، الذي وفقاً لما صرح به رجال الدرك: «أنه لم يتم اعتقاله لانتمائه إلى لجنة الإضراب، ولكن قبض عليه لأسباب تتعلق بانتمائه الحزبية».

وصف أداموفيتش الذي قاد الإضراب آنذاك بوتسيوف في مذكراته أنه: «أرميني عجوز متحمس لديه علاقات واسعة مع الاشتراكيين الثوريين. ومن الواضح أنه كان يحظى بتأثير كبير على البحارة كما أشار أداموفيتش، حيث أثرت مسألة استمرار الإضراب حتى يتم إطلاق سراح بوتسيوف^{٦٨٧}، ولكن قوة المشاركين في الإضراب قد استنفدت، وقرروا فيما بينهم: «أنه سيأتي الوقت الذي سنثار فيه لبوتسيوف»، ولكن سرعان ما تمكن بوتسيوف من الهرب من السجن وتم نقله إلى الإسكندرية.

على ما يبدو فإن بوتسيوف استمر في التحريض الثوري بين البحارة الروس داخل الأراضي المصرية، فقد كان شخصية معروفة لدى الكثيرين منهم، على أنه أحد قادة الإضرابات الأخيرة التي وقعت في أوديسا.

أبلغ السفير الروسي سميرنوف^{٦٨٨} في ١٦ يناير عام ١٩٠٧ سانت بطرسبورج أنه: «منذ فترة من الوقت تقوم القنصلية الروسية في الإسكندرية برصد حالات انتهاك للنظام بشكل متكرر، من جانب بحارة سفن الشركة الروسية للملاحة والتجارة، وطبقاً لملاحظات القادة، فإن البحارة الروس يقعون بمجرد وصولهم إلى ميناء الإسكندرية تحديداً في نطاق «المؤثرات الضارة»

أثارت أنشطة بوتسيوف، الذي حكم عليه في وطنه، بالنفي إلى «أرخانجيلسك» قلق السلطات القيصريّة. ولكن كان يلزم للقبض عليه سبب وجيه. وبناءً على نصيحة مأمور قسم الإسكندرية «هداية بيه»، فقد تم إحاق المواطن الروسي السابق ديفيد ماركوفيتش بجماعة بوتسيوف. وقد كان معروفاً في وقت ما بأرائه الأنركية، وظل يحتفظ بعلاقات وثيقة مع من يشاركونه هذه الآراء. وكان «ديفيد ماركوفيتش»

٦٨٧ «أداموفيتش» الإضراب الصيفي ١٩٠٦ // مواد عن تاريخ الحركة النقابية في روسيا. المجلد الرابع. موسكو، ١٢٥، ص ٢٦٢-٢٦٥.

٦٨٨ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف ١٥١،حافظة ٤٨٢، وثيقة ٨٥٩، السطر ٨.

مثله مثل بوتسيوف ورفاقه ، كان يذهب إلى ملاقاتة السفن الروسية في الميناء ، ويعرب عن سخطه من إستبداد القيصر وطغيانه ، وبهذه الطريقة قد نال ثقة الثوار . وفي السادس من يناير ١٩٠٧ إجتماع اثنا عشر لاجئاً داخل شقة ماركوفيتش بزعامة بوتسيوف . وكان من بين المقترحات التي تم وضعها لخطة العمل : تفجير إحدى السفن الروسية . وجاء رأي الأغلبية ومن بينهم بوتسيوف مؤيداً لهذا الاقتراح كما أنه تم تضمينه في محضر الجلسة^{٦٨٩}.

وقد كتب «أ . أباطة» القنصل الروسي في الإسكندرية للسفير الروسي «أ.أ. سميرنوف» : إن ماركوفيتش لم «يفعل» شيئاً على الرغم من أنه ، لا بد أن يقوم بدور العميل المحرض“ وقد أعرب عن شكه حيال جدية وتصميم بوتسيوف تفجير السفينة !

وأشار أباطة^{٦٩٠} في رسالته إلى : «أن ثمة شيئاً مريباً يحاك في الإسكندرية ولكن هل حقاً سيتم تفجير السفينة «الملكتة أولجا» في رحلتها القادمة تحديداً - هذا سؤال آخر، والذي من وجهة نظري يجب أن تكون الإجابة عليه بالنفي^{٦٩١}! ” على الرغم من ذلك وإستناداً إلى التقرير الذي قدمه ماركوفيتش طلبت القنصلية من السلطات المصرية إلقاء القبض على بوتسوف وعضوين آخرين من جماعته وهما : يولف بلوتنيك وبيكو بونتمانا . وفي الثالث عشر من يناير تم إلقاء القبض عليهم أثناء لقائهما مع «ماركوفيتش» .

أشار السفير «سميرنوف» وهو يبلغ سانت بطرسبورج عن أمر الاعتقال^{٦٩٢} إلى أن : «بوتسيوف يتمتع بموهبة فذة ويتميز بالحيوية» . أما فيما يخص «بلوتنيك» و «بونتمانا» ، فقد كانا من الحرفين أنصاف المتعلمين ، وكانا يقومان بتجليد الكتب ولصقتها^{٦٩٣} ، ولا يعرف تحديد امتى هاجرا إلى مصر .

٦٨٩	نفس المرجع ، ملف ١٤٩ ، ٢٦ . ٥ ، وثيقة ٩٢ . السطر ٥٧ - ٨٠ .
٦٩٠	نفس المرجع ، السطر ٨٨ .
٦٩١	نفس المرجع ، السطر ٨٦ .
٦٩٢	نفس المرجع ، وثيقة ٥٢ .
٦٩٣	نفس المرجع ، ملف ١٥١ ، حافظة ٤٨٢ ، وثيقة ٨٥٩ ، السطر ٥ .

أحدث أمر اعتقال ثلاثة من المهاجرين الروس أحداث عاصفة، داخل الأوساط المصرية وكانت صحيفة «لاريفورم» التي تصدر في الإسكندرية أول من نشر عن هذا الأمر. ووفقاً لما جاء على صفحات الجريدة إن المقبوض عليهم لاجئون سياسيون تلاحقهم السلطات الروسية؛ لأسباب تتعلق بمعتقداتهم. وحثت الجريدة الطبقة المثقفة بالوقوف بجانب المعتقلين والدفاع عنهم وانتزاعهم من بين أيدي السلطات القيصريّة، وبالفعل تم تلبية النداء وأصبحت بورصة الإسكندرية نقطة انطلاق حركة التضامن معهم. ومن هناك توجه حشد كبير إلى القنصلية البريطانية. وكان أغلبهم من الأوربيين وطلبوا اللورد «كرومر» بوصفه الحاكم الفعلي للبلاد^{٦٩٤} بالتدخل للإفراج عن المعتقلين.

ازدادت حدة التوتر. وأبلغ الدبلوماسيون الروس سانت بطرسبورج أنه: «في يوم الأحد السابع من يناير (بالتقويم القديم. بيلياكوف) تصاعدت الإثارة أكثر وأكثر، واتشعت المدينة بطابع ينذر بالخطر» ظهيرة ذلك اليوم بدأت الحشود الغاضبة بالهجوم على باخرة الشركة الروسية، القابعة داخل ميناء الإسكندرية، وحطمو أبوابها وفتشوها في محاولة للبحث عن المجرمين، ثم توجهت هذه الحشود إلى القنصلية في محاولة لاقتحامها، وانتزعت الدرع الذي عليه شعار الدولة المعلق عند المدخل وسحقته»^{٦٩٥}.

في صبيحة اليوم التالي إندلعت الاشتباكات في القاهرة. وقد جاء في التقرير أيضاً إنه «في يوم الإثنين الموافق الثامن من يناير تجمعت مظاهرة حاشدة أقيمت فيها الخطب الحماسية، حول الموضوع الراسخ غير المتغير الخاص بالحرية، وحب الإنسانية والتضامن للدفاع عن المضطهدين. وفي التاسع من يناير نظم عمال تنزيد (ترتيب) حروف الطباعة الإيطاليين المعروفين هنا بمعتقداتهم الأناركية مظاهرة حاشدة، وانضم إليهم اليهود وبعض العناصر المتطرفة الأخرى. ومع حلول ظهيرة ذلك اليوم، كانت الحشود الضخمة، التي ملأت الشارع أمام الوكالة الدبلوماسية الإمبراطورية قد نظمت مظاهرة معادية لنا، وقامت هذه الحشود بترديد التهديدات العدائية، والصفير الحاد والهتافات، ورفع الشعارات المعادية لروسيا، ثم غادرت الحشود الوكالة متوجهة إلى نائب القنصلية، وقد تكررت أمامة نفس المظاهرة»^{٦٩٦}

٦٩٤ نفس المرجع، السطر ١٠.

٦٩٥ نفس المرجع.

٦٩٦ نفس المرجع، السطر ١٦-١٧.

ونشرت صحيفة الأهرام في عددها الصادر في الرابع والعشرين من يناير نص المنشورات التي تم توزيعها في أنحاء القاهرة، والتي جاء فيها: «أيها الرفاق! هذه المظاهرة السلمية التي شاركنا فيها نظمت، لكي تطالب باحترام حق اللجوء السياسي، لكن فيما يخص المعتقلين السكندريين، لم تحقق هذه التظاهرة النتيجة المرجوة، ولذلك، فإنه من واجبنا تجاه ضحايا الإستبداد اتخاذ التدابير الصارمة؛ لأجل انتصار القيم الإنسانية والحرية، فعلى كل فرد أن يكون على أتم الاستعداد للتحرك والرد بالقوة إذا لزم الأمر، وليحيا الشعب الروسي العظيم، ولتسقط حكومة القيصر^{٦٩٧}، وبالنظر إلى المنشور والأسلوب الذي صيغت به الجمل، نلاحظ أنه على الأرجح قد كتب بواسطة أحد المهاجرين الروس».

استمرت موجة الاضطرابات في الإسكندرية والقاهرة. وكان الشيء الذي يمكن أن يخمدتها هو ترحيل المعتقلين إلى خارج البلاد، إلا أن الدبلوماسيين التابعين لسلطة القيصر كانوا يخشون عدم استطاعتهم نقل السجناء على متن السفينة الروسية القابضة داخل الميناء لأن؛ المتظاهرين قد حاصروا الميناء بالفعل. لذلك تم نقل بوتسيوف ورفاقه من السجناء سراً إلى ميناء بورسعيد في الفترة من الثالث عشر إلى السادس والعشرين من يناير وتم وضعهم على ظهر السفينة «كورينلوف» وأرسلوهم إلى روسيا تحت الحراسة المشددة والمكونة من ١٠ حراس^{٦٩٨}.

دامت موجة الاضطرابات ما يقرب من أسبوعين، وكانت هذه الفترة بالنسبة للدبلوماسيين الروس عبارة عن اختبار صعب، والذين كانوا على ما يبدو ينفذون بشرف مهمة ذات طابع وطني.

تم منح وسام «القديسة أنا» الروسي لثلاثة من البريطانيين لمساهمتهم في القبض على بويتسوف وهم: قائد شرطة الإسكندرية الجنرال هنري هبكنسون، ومفتش البوليس السرى الرائد جورون إيجرام، والعقيد ألكسندر بول مأمور سجن «الحضرة»^{٦٩٩}، حيث تم التحفظ فيه على المعتقلين».

٦٩٧	الأهرام ، ١-٢٤ ، ١٩٠٧ .
٦٩٨	أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف ١٥١ ، حافظة ٤٨٢ ، وثيقة ٨٦٠ ، السطر ٦ .
٦٩٩	نفس المرجع ، ملف ١٤٩ ، ٢٠٢٦ ، وثيقة ٥٠٢٦ ، وثيقة ٧٥٦١ ، السطر ٢ .

من خلال متابعتنا للمظاهرات المؤيدة للمعتقلين، نلاحظ أن أغلب المشاركين بها من الأوروبيين بالمقام الأول، وهو ما يعد أمراً عادياً، لأن أي مواطن أوروبي لاترضى حكومته عن نشاطه السياسي يمكن أن يكون رهن الاعتقال بمجرد أن تتقدم القنصلية التابع لها بطلب إلى السلطات المصرية، ويتم ترحيله إلى بلاده فوراً. كان لأحداث ١٩٠٧ صدى كبيراً لدى المصريين فقد ساهمت بقدر كبير في التنوير السياسي. وكتبت جريدة «اللواء» التي أنشأها «مصطفى كامل» تعليقاً على الأحداث وهي تحت المصريين على المشاركة فيها: «أنه يجب على المسلمين (اقرأ: المصريين ف. بيلياكوف) أن يشاركوا أيضاً في هذه المظاهرات كي يعرفوا، في نهاية المطاف المعنى الحقيقي للحرية»^{٧٠٠}

بعد مرور ست سنوات منذ اعتقال بوتسيوف تلقى المصريون درساً آخر من دروس الحرية والفضل في ذلك كان يرجع إلى اللاجئين السياسيين الروس.

في نهاية ١٩١٠ عاد إلى أوديسا المشاركون في الثورة الروسية الأولى من المنفي. وحاولوا إنشاء اتحاد البحارة التجاريين في البحر الأسود كما حاولوا إصدار جريدة تتحدث باسمهم ولكنها غير قانونية باسم «تشيورنوموريتس». غير أنهم تمكنوا من إصدار عدد واحد فقط من هذه الجريدة وفي ربيع ١٩١١ تم تنظيم إضراب ما يعرف ببحارة البحر الأسود، والذي لم يكتب له النجاح وانتهى بالهزيمة. ومن هنا إنبثقت فكرة جديدة وهي نقل قيادة الاتحاد خارج حدود البلاد، وقد تم اختيار مدينة القسطنطينية لتكون مقراً له، حيث اعتادت السفن الروسية الإبحار إلى هناك. وبحلول نهاية ١٩١١ كان قد تم الانتهاء من التشكيل الجديد للجنة الخارجية التابعة لاتحاد بحارة البحر الأسود. وكان أحد قادتها ميخائيل آدموفيتش الاشتراكي الديموقراطي، الذي ترأس أول نقابة للعمال في منطقة البحر الأسود والتي أطلق عليها «ريجستراتسيا» في عام ١٩٠٦، ولكنه عاش في ميونخ بعد فشل الثورة. وفي فبراير ١٩١٢ في القسطنطينية صدر أول عدد من الصحيفة الشهرية «مورياك» (البحار)، ولكن سرعان ما اندلعت حرب البلقان. مما اضطر اللجنة الخارجية وهيئة تحرير الجريدة إلى ترك القسطنطينية والانتقال إلى الإسكندرية^{٧٠١}.

٧٠٠ «اللواء»، ١١-٢-١٩٠٧.

٧٠١ «تحت راية الوطن»، مقالات حول تاريخ مؤسسة البحر الأسود، أوديسا، ملف ١٤٩، حافظة ٥٠٢٦، وثيقة ٥٣٤١، السطر ١٣٨.

كانت العاصمة الشمالية لمصر بمثابة المكان المناسب لإقامة قادة الاتحاد ، وذلك لعدة أسباب أهمها : كانت السفن الروسية خط (أوديسا - الإسكندرية) تصل ميناء الإسكندرية كل أسبوع ، كما كانت السفن التي تحمل العلم الروسي ، وتمر عبر قناة السويس تتوقف في ميناء مدينة بورسعيد التي كانت تبعد مائتان كيلومتر فقط عن الإسكندرية ، وبذلك ضمن قادة الاتحاد استمرار العلاقة التي تربطهم بروسيا والبحر الأسود . ثانياً : كان يعيش في القاهرة والإسكندرية مجموعة كبيرة من المهاجرين السياسيين الذين تركوا روسيا بعد فشل الثورة الروسية الأولى ، ويمكن لهؤلاء القادة من البحر الأسود الاعتماد بشكل كبير على مساعدتهم في الاستقرار في مصر .

كانت أنشطة اللاجئين السياسيين دائماً ما تسبب صداماً في رأس الدبلوماسية الروسية . وقد أبلغ القنصل بالإسكندرية أ. م. بتروف^{٧٢} وزارة الخارجية الروسية في الثاني والعشرين من أغسطس ١٩١٣ : « إن عملية مراقبة المقيمين هنا من الثوريين الروس تعد عملية شبه مستحيلة » . ونظراً لصعوبة المهمة فقد استعان الدبلوماسيون الروس بمخبرين لاتمام عملية المراقبة ، وفي هذا الإطار في يونيو ١٩١٣ تقدم السفير سميرنوف باقتراح لإدارة الشرطة المصرية بتكليف أحد المخبرين لمراقبة أعمال المهاجرين السياسيين ويدعى يعقوب زولاوي ، وبالفعل تم قبول الاقتراح المقدم من السفير وبدأ يعقوب زولاوي في مزاولة العمل كمخبر براتب ٦٠ جنيهاً سنوياً^{٧٣} .

واصلت السلطات القنصلية الروسية القبض على اللاجئين السياسيين وترحيلهم إلى روسيا ، وفي مطلع عام ١٩١٣ كان من ضمن المرشحين المناضل الثوري بارشوكوف (الشهير بكيريلوف أو كوزولوف والملقب أيضاً بسولوفيوف) من الإسكندرية إلى أوديسا ، إلا أنه على الرغم من الحراسة المشددة تمكن من الهرب بمجرد وصول السفينة إلى القسطنطينية والفرار إلى فرنسا^{٧٤} .

في ربيع نفس العام ، تم ترحيل ألكسندر فلاديميروفيتش أودايفسكى ماسلوف إلى «أوديسا» ، وطبقاً لبيانات القنصلية الروسية في القاهرة : «أدين ألكسندر بمحاولة قلب نظام الحكم القائم» وفر من روسيا وعمل في ضاحية حلوان داخل مصحة الدكتور ديفيد ليبوفيتش جلانتر ، وأضاف السفير الروسي بالقاهرة زوييف^{٧٥} أن :

- ٧٠٢ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف ١٤٩ ، حافظة ٥٠٢٦ ، وثيقة ٥٣٤١ ، السطر ١٣٨ .
- ٧٠٣ نفس المرجع ، وثيقة ٥٣٤٢ ، السطر ١ ، ٥ ، ١٢ .
- ٧٠٤ نفس المرجع ، وثيقة ٥٣٤١ ، السطر ٣١ .
- ٧٠٥ نفس المرجع ، السطر ٩٤ .

«ألكسندر يعد من العناصر شديدة الخطورة في مناطق القاهرة وحلوان ، حيث يلتف حوله مجموعة من الشباب اليهودي الروسي ، ويقوم بتحريضهم ضد النظام القائم في روسيا» .

اعتبر الدبلوماسيون التابعون لسلطة القيصرة مناطق حلوان والإسكندرية من أخطر بؤر التحريض الثوري داخل مصر ، وأكد على ذلك س . زوييف قائلاً^{٧٠٦} : «في القاهرة ومن داخل إحدى ضواحيها حلوان تتمركز مستعمرة روسية تثير القلق ، حيث يتواجد بها عدد لا بأس به من المهاجرين غير الشرعيين» . واستطرد السفير : «والذين على ما يبدو ينتمون إلى منظمات مختلفة ولكنها كانت ذات طابع سياسي» .

كان سيرجى بتروفيتش يوريتسين أحد اللاجئين السياسيين الذين كانوا يقطنون في حلوان والذي أصدر صحيفة «ابن الوطن» وبعض الصحف الأخرى خلال الثورة الروسية الأولى . وقد تم استدعائه إلى المحكمة على خلفية التوجهات الثورية للإصدارات . ولكن السلطات القنصلية في مصر لم تتركه في حال سبيله ، طالما أنه كان يدرج تحت «أكثر الشخصيات عداوة للنظام القائم في روسيا» .

في بداية عام ١٩٠٩ تم استدعائه مرتين أمام محكمة سانت بطرسبورج الجزئية . وهو الأمر الذي تجاهله يوريسين لأسباب مجهولة ، واضطر يوريسين إلى تغير المهنة في مصر وقام بتوزيع الزهور في ضاحية حلوان^{٧٠٧} .

كان اللاجئين السياسيون قد اعتادوا التجمع داخل حانة للبيرة ، يملكها عامل التلغراف الحربى نيكولاى إبراموفيتش زاليويكين الهارب من الزورق الحربى «كوبانيتس» . وكان من ضمن البحارة الروس الذين إعتادوا إرتياد الحانة بعد وصول السفن إلى ميناء الإسكندرية شخص يطلق عليه «فانيا الساعاتي»^{٧٠٨} .

كان اللاجئين السياسيون على اتصال دائم مع مواطنيهم ، سواء الذين ذهبوا للاستجمام في المنتجع بحلوان أو البحارة المترددين على الموانئ المصرية عبر السفن الروسية ، كما وجدوا أنصاراً لهم بين المصريين . وقد أبلغ القنصل زوييف السفير سميرنوف^{٧٠٩} أن : «فيلبيدس بك» (رئيس شرطة القاهرة - فلاديمير بيلياكوف) أخبره عن علاقة الفوضويين الروس مع الثوريين المصريين» .

٧٠٦ نفس المرجع .
 ٧٠٧ نفس المرجع ، السطر ٩٢ ، ١٢٧ ، وثيقة ٥٨٣٩ ، السطر ١ - ٦ .
 ٧٠٨ نفس المرجع ، وثيقة ١٤٣٥ ، السطر ١٥١ .
 ٧٠٩ نفس المرجع ، السطر ٩٥ .

تعاونت السلطات المصرية والروسية لمواجهة المعارضة السياسية، وفي إطار هذا التعاون أرسلت وزارة الداخلية المصرية في ١٩١٠ فريقاً من الخبراء مكون من ثلاثة أشخاص إلى إنجلترا وروسيا وفرنسا على التوالي؛ لدراسة سبل مكافحة الجرائم السياسية. وقد عادوا إلى الوطن بعد أن قضوا عامين مدة الدراسة^{٧١٠}.

بهذا تكون الأوضاع في مصر قد ساعدت النازحين من البحر الأسود، فقد أدبوا على العمل مع أطقم السفن الروسية التي كانت ترسو في الموانئ المصرية، وتمكنوا بفضلهم أن يقيموا روابط بالوطن روسيا. بدأت صحيفة «موريك» (البحار) في الصدور بانتظام منذ نهاية ١٩١٢، ووفقاً لبعض التقارير كانت تطبع في حلوان^{٧١١}، وعلى ما يبدو أن يوريتسين الصحفي السابق كان يتولى هذا الأمر، فمن المعروف أنه كانت تربطه علاقات قوية بنقابة بحارة البحر الأسود. وبعد أن نقفز للأمام نلاحظ أنه بعد إلقاء القبض على أداموفيتش، ومصادرة الوثائق التي بحوزته والخاصة بالاتحاد، عثرت السلطات القيصريّة بداخلها على اسم ليوريتسين وقامت بتفتيش منزله. وحيث أنه علم بأمر اعتقال أداموفيتش من الصحف المحلية تمكن على الأرجح من إخفاء جميع المراسلات الخاصة به. ولم تسفر عملية التفتيش عن شيء^{٧١٢}.

في الفترة من الرابع عشر إلى السادس عشر من فبراير، عقد النازحون من البحر الأسود في مدينة الإسكندرية مؤتمراً سرياً للمنظمات المهنية البحرية لأطقم السفن الروسية وحضره مندوبون من بحارة البحر الأسود، وبحر قزوين^{٧١٣}.

علمت سلطات القنصلية الروسية عن وصول أداموفيتش ورفاقه إلى الإسكندرية مصادفةً، وبناءً على الطلب الذي قدمته في ديسمبر ١٩١٢ قامت الشرطة المصرية بالقبض على المهاجر السياسي فلاديمير تيرسكي (ميرسكي، سفابودن)، وبعد الاستيلاء على أوراقه التي كانت بحوزته علموا بأمر نقل اللجنة الخارجية لاتحاد بحارة البحر الأسود^{٧١٤} إلى الإسكندرية.

- ٧١٠ «بكر عبد الوهاب»، نفس المرجع ص ٢٥-٤٣.
- ٧١١ «رفعت السعيد» «تاريخ الحركة الاشتراكية» ص ١٨٨.
- ٧١٢ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية، ملف ١٤٩، حافظة ٥٠٢٦، وثيقة ٥٣٤١، السطر ٩٢.
- ٧١٣ نفس المرجع، السطر ٥٠.
- ٧١٤ نفس المرجع، السطر ٦٢.

خلال تلك الفترة أسفرت أعمال النقابة عن بعض النتائج، حيث بدأ بحارة البحر الأسود في بداية عام ١٩١٣ التجهيز لإضراب جديد، ورفعت الشرطة تقريراً بذلك إلى الحكومة. في الوقت الذي وصل فيه التأجيل الثوري مرة أخرى في روسيا لدرجة الغليان، مما دفع السلطات القيصريّة بالرد على التقرير بمنتهى الحزم، وكان إضراب بحارة البحر الأسود غير مرغوب فيه بالنسبة للسلطات القيصريّة، طالما أنه قد يثير بعض ردود الأفعال، ناهيك عن إمكانية التسبب في أضرار جسيمة بالممتلكات.

في الثلاثين من مارس عام ١٩١٣ (بالتقويم القديم - فلاديمير بيلياكوف) عقد رئيس مجلس الوزراء اجتماعاً خاصاً بشأن اتخاذ التدابير اللازمة لمنع إضراب أطقم السفن في البحر الأسود، بحضور وزراء الداخلية والعدل والنقل البحري والتجارة والصناعة، وقد أسفر هذا الاجتماع عن اتخاذ عدة قرارات أهمها «أنه يجب أولاً أن يصدر أمر بضبط وإحضار القائد الفعلي للحركة أداموفيتش والذي يقطن في الإسكندرية»^{٧٥}. وصدرت الأوامر لممثلي القنصلية «تقديم المساعدة لأفراد الشرطة الروسية عن طريق العملاء في الإجراءات التي سيقومون بها».

بعد أن تلقى السفير سميرنوف بعد شهر تقريباً، قرار الاجتماع الخاص، توجه شخصياً إلى الإسكندرية في الفترة من الخامس والعشرين من أبريل إلى الثامن من مايو ليشهد بنفسه عملية القبض على أداموفيتش. وبما أنه كان يحمل جواز السفر الألماني باسم المواطن ألكسندر كورنيلسون، فإن الأمر يتطلب موافقة مسبقة من القنصلية الألمانية، ولم يكن ذلك بالمهمة الصعبة، ففي غضون ثلاث ساعات من وصول السفير سميرنوف إلى الإسكندرية، تم إلقاء القبض على ألكسندر أداموفيتش وتم إيداعه قسم شرطة «الحضرة»^{٧٦}.

أبلغ سميرنوف سانت بطرسبورج أن: «عملية القبض على أداموفيتش بأمر الحكومة القيصريّة كانت مسألة في منتهى الأهمية، فقد تم العثور معه على وثائق تخص تنظيم أطقم السفن، وختم المنظمة، وقوائم عديدة، ومجموعة خطابات لسجناء واردة من داخل روسيا، ومراسلات حول إقامة علاقات للمنظمة بممثليها في الغرب، ومع التجمعات العمالية في أوروبا»^{٧٧}.

٧٥ نفس المرجع، السطر ٣٧.

٧٦ نفس المرجع، السطر ٤٥.

٧٧ نفس المرجع، الملف ١٥١، حافظة ٤٨٢، وثيقة ٨٧٤، السطر ٢٠.

اعتقد الدبلوماسيون الروس أنه بالقبض على أداموفيتش قد نجحوا في تحييد أحد أبرز الشخصيات في الحركة الثورية الروسية. وأشار السفير الروسي سميرنوف في تقريره الذي أرسله إلى سانت بطرسبورج إلى: «أن الأشخاص المقبوض عليهم وهم: أداموفيتش، وف. تيرسكي، ورفيقة الأول في السكن المواطنة السويسرية تريبي والمولودة في خوخلوفا يعدون أهم الشخصيات الثورية، وبالطبع فإن إرسالهم إلى مصر، يعنى أنهم قرروا نقل واحد من أهم مراكز التحريض ضد الحكومة في الخارج إلى هنا.

ويدلل على أهمية تلك الشخصيات وبالأخص، أداموفيتش تلك الضجة الواسعة في أوروبا التي صاحبت عملية القبض عليه، والمراسلات الخاصة به، والتي تم تسليمها إلى القنصلية الروسية في الإسكندرية، فقد أحدثت دهشة بسبب حجمها، وتتكون من منشورات أناركية وثورية، ومطبوعات، ومراسلات مع المنظمات الأوروبية، والفصائل المختلفة، وأيضاً خطابات شخصية هائلة لعدد من الشخصيات الثورية المختلفة، والتي كانت تمثل مادة ثرية مهمة بالنسبة لرجال الشرطة^{٧١٨}.

لم يثر خبر اعتقال أداموفيتش ضجة في الأوساط الأوروبية فحسب، لكنه أثار ضجة داخل الأوساط المصرية أيضاً. وكما حدث مع بوتسيوف في عام ١٩٠٧ نظمت وقفة تضامنية شارك فيها الأوروبيون بشكل أساسي، ولنفس السبب: إذ قامت السلطات المصرية بالقبض عليه إستناداً إلى قانون الامتيازات، وأيضاً لأسباب سياسية، وهو الأمر الذي يعد سابقة خطيرة. وكانت السلطات القيصريّة تستفيد من نظام الامتيازات، و طالبت بالحفاظ عليه. وأشار سميرنوف^{٧١٩} في أحد تقاريره: «نتوقع أنه في حال ما تم إلغاء نظام الامتيازات وحرماناً من إمكانية تصفية أنشطة المحرضين السياسيين هنا، فستتحول مصر إلى واحدة من أهم وأخطر الأماكن، للدعاية المناهضة للحكومة القيصريّة».

أبلغ سميرنوف سانت بطرسبورج: «أنه تم عقد اجتماع داخل دوائر العمل الاشتراكية في كل من القاهرة والإسكندرية، وذلك لمناقشة التدابير التي يمكن اتخاذها للحيلولة دون ترحيل المعتقلين إلى روسيا^{٧٢٠}، وتم التخطيط لحشد الحشود ومحاولة نصب كمائن للحيلولة دون ترحيل المقبوض عليهم، واللجوء كذلك إلى

٧١٨ نفس المرجع، السطر ٣٢.
٧١٩ نفس المرجع، السطر ٣٦.
٧٢٠ نفس المرجع، السطر ٣٣.



الصفحة الرئيسية من جريدة «إسكرا»
التي كان يتم نقلها من أوروبا إلى روسيا عبر الإسكندرية
من خلال السفن التجارية

الترويع إذ سيتم الحكم على أنا وممثلي القنصلية في القاهرة بالإعدام في حالة إرسال المعتقلين إلى روسيا».

بعد مرور شهر، وعلى الرغم من الاحتجاجات تم ترحيل كل من: أداموفيتش وتيرسكي إلى أوديسا على متن إحدى السفن الروسية، وتم اللجوء إلى الحيلة؛ لتحاكي الصدام مع المتظاهرين، فكان المشهد كالتالي: قبيل إبحار السفينة بساعة واحدة، تم نقل المحتجزين داخل سيارة الترحيلات من السجن إلى ميناء الجمارك، فبدأ الأمر كما لو كانت السفينة ستغادر بدونها وعندما همت السفينة إلى الخروج من الميناء، تم تسليم أداموفيتش وتيرسكي إلى طاقم السفينة على متن زورق الجمارك^{٣١}

وفقاً لتقييم سميرنوف: «أبدت الصحافة العربية اهتماماً ضئيلاً لقضية أداموفيتش^{٣٢} ورفاقه»، ولكن من الجانب المصري عندما نمت إلى علم المصريين خبر اعتقاله شعروا بالتعاطف معه، فيما كتبت صحيفة موريالك (البحار) في عددها الصادر في الثاني عشر من سبتمبر عن هذا الأمر والتي كانت لا تزال تصدر آنذاك.

يذكر أن رفاق أداموفيتش أعدوا له خطة للهروب، ولكنه في أثناء قفزه من أعلى أسوار السجن التوى كاحله، ولم يتمكن من الركض، وألقى القبض عليه مرة أخرى، وأعيد الهارب إلي الزنزانة، وتمنى له مفتش السجن المصري: «النجاح في المرة القادمة!»^{٣٣}

٣٢١ نفس المرجع، السطر ٣٤.

٣٢٢ نفس المرجع، السطر ٣٠.

٣٢٣ «فلاديمير بيلياكوف» محمية أفريقيا للطيور، صفحة ٥٤-٥٥.

أشادت السلطات القيصريّة بجميع المشاركين في عملية القبض على أداموفيتش ترحيله وبخاصة الأجنبي ، وحصل كل من القنصل العام لألمانيا في الإسكندرية السيد إدوارد جوبمان على الأوسمة الروسية ، ورئيس الفرقة بوكالة الشرطة السرية الرائد ريكاردو ديوفاني ، كبير أمناء إدارة الموانئ المصرية والفنارات دو جلاس موريس ، وقائد شرطة الميناء الرائد داوسون ، فيما نال كل من قائد شرطة الإسكندرية الجنرال هوبكنسون ، ومفتش الشرطة السرية الرائد إنجرام ومسؤول قسم الحضرة بوب الهدايا الثمينة ، كما حصلوا على الأوسمة الروسية ، تقديراً لجهودهم في عملية اعتقال بوتسيوف^{٧٢٤} .

على الرغم من انتصار ثورة أكتوبر وانتهاء الحرب العالمية الأولى ، إلا أن ذلك لم يؤد إلى العودة السريعة لمعظم الثوريين الروس إلى أرض الوطن الذين وجدوا في مصر ملاذاً وملجأً من بطش النظام القيصري ، إندلعت الحرب الأهلية والتي حالت دون رجوعهم للوطن ، كما أعيق طريق المواصلات البحري المباشر بين الإسكندرية وأوديسا ، وتم قطع العلاقات مع العائلة والأصدقاء المتواجدين داخل الوطن ، في حين نجح أغلب المهاجرين في الاندماج داخل المجتمع المصري وتمكنوا من الحفاظ على العلاقات فيما بينهم .

في عام ١٩١٩ كانت لاتزال لجنة المهاجرين السياسيين الروس تمارس عملها^{٧٢٥} ، ومن مفارقة القدر أنه في العام التالي ، وعلى الأراضي المصرية إلتقوا بخصومهم السياسيين من اللاجئين الفارين من روسيا السوفيتية .

كما رأينا ، لقد ساهم اللاجئون السياسيون الروس على الرغم من ملاحقات السلطات القنصلية في زعزعة النظام القيصري ، كما أنهم أقاموا علاقات مع من يتبنى نفس أفكارهم من الأوروبيين والمصريين على حد سواء . كما ساهم اللاجئون الروس في نشر الوعي السياسي لدى عموم المصريين ، وغرسوا بذور الحركة الاشتراكية والعمالية المصرية .

٧٢٤ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ، ملف ١٤٩ ، حافظة ٢٠٢٦ ، وثيقة ٧٥٦١ السطر ٢-٣ .

٧٢٥ نفس المرجع ، ملف ٣١٧ ، حافظة ٨٢٠/١ ، وثيقة ٥٠٨ ، السطر ٦ .

تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في مصر

يرجع أول ظهور للشطات الروسي داخل مصر إلى أواخر القرن التاسع عشر، غير أنهم كانوا جميعاً من حيث انتماءهم القومى تقريباً من اليهود حتى عام ١٩٢٠. ذكر هذا نائب القنصل الروسي في القاهرة سيرجي زوييف في تقريره بداية عام ١٩١٥ إذ قال: «إن ٩٦٪ من المواطنين التابعين للقنصلية الروسية يعتنقون اليهودية»^{٧٢٦}، وأن الأعداد المحدودة من الروس الأرثوذكس، كانوا يتوجهون إلى الكنائس اليونانية»^{٧٢٧}.

يرجع تأسيس أول كنيسة أرثوذكسية روسية داخل مصر إلى نهاية عام ١٩١٤، حيث تم إجلاء البعثة الدينية الروسية مع رئيسها الأرشمندريت ليونيد من فلسطين إلى الإسكندرية، بعد دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب العالمية الأولى. وتزامن مع ذلك وصول مجموعة من الحجاج الأرثوذكس قوامها ٩٥ حاجاً^{٧٢٨}. قامت القنصلية الروسية بتأجير منزل مستقل في ٢٤ ميدان الرمل (سعد زغلول الآن)، وهو المكان الذي أطلق عليه فيما بعد «البيت الروسي». وفي إحدى شقق الطابق الثانى أقاموا كنيسة باسم القديس «ألكسندرنيفسكي»^{٧٢٩}.

٧٢٦ عن مقالة: Русская православная церковь в Египте، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى»، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الروسي Belyakov Vladimir أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية ملف ٣١٧، حافظة ٨٢٠/٣، وثيقة ٥٠٦، السطر ٥٣.

٧٢٧ لمزيد من التفاصيل أنظر: «فلاديمير بيلياكوف» (على ضفاف النيل المقدس) الروس في مصر. موسكو ٢٠٠٣. ص ١٠٠-١٠٢.

٧٢٨ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. الملف ٣١٧، حافظة ٨٢٠/١، وثيقة ٦٥٧، السطر ١٢٩.

٧٢٩ المرجع نفسه.

في مارس ١٩٢٠، وصل الأراضي المصرية ما يقرب من ٤٥٠٠ لاجيء روسي وتم تسكينهم داخل معسكرات خاصة. في بادئ الأمر، تم وضعهم داخل معسكر المستشفى العسكري في العباسية، الواقعة على أطراف القاهرة، حيث أقاموا داخل ثكنات. وخيام وفي إحدى هذه الخيام أقاموا كنيسة. وقدمت البطيركية اليونانية بالإسكندرية الأدوات الكنسية اللازمة، ثم ما لبثت أن أرسلت البعثة الدينية في فلسطين في أبريل بعض الأدوات، والتي أقامت في الإسكندرية حتى نهاية ١٩٢٠. وخدم في هذه الكنيسة الكاهن بوليكارب فيلاتوف^{٣٠}.

بمجرد تعافي المرضى والجرحى من اللاجئين الروس، تم نقلهم من معسكر العباسية إلى معسكر أكثر راحة في التل الكبير، وهي المنطقة الواقعة بين القاهرة والاسماعيلية. هذا المعسكر تم تقسيمه إلى ثلاثة قطاعات: قطاع خاص بالرجال، وقطاع خاص بالعائلات، وآخر تم تخصيصه ليكون مستشفى. وداخل كل قطاع أقاموا كنيسة. وخدم القمص بطرس جولوبيانتكوف في كنيسة المعسكر الرجالي، والأسقف ألكسندر فولكوفسكي في كنيسة معسكر العائلات، فيما خدم الأب نيكولاي إيكويتكوف في كنيسة المستشفى.

وصل جزء من الأدوات الكنسية في شهر مايو بعد إغلاق معسكر العباسية، والجزء الآخر حصلوا عليه من البعثة الدينية الروسية^{٣١}، غير أن هذه الأدوات لم تكن كافية بالنسبة للكنائس الثلاث؛ ولذلك قام اللاجئون أنفسهم بتصنيع جزء من الأدوات اللازمة من المواد التي في متناول أيديهم.

في يونيو ١٩٢٠ ظهرت الكنيسة الروسية في القاهرة، حيث تم تأسيسها داخل مبنى العيادة الروسية التي قام بافتتاحها الأطباء المرافقين للاجئين الروس. وفي أيام الأحاد كان يقوم بأداء الخدمة بها القمص المجل الأب سمعان نيديلكو، وكان المسؤول أيضاً عن الأمور المالية للعيادة. وبالنسبة للأيقونات فقد استعانوا بالفنانين المحليين لرسمها^{٣٢}.

٣٠ أرشيف السياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية. ملف ٣١٧. حافظة ٨٢٠/٣. وثيقة ١٩٣. السطر ٨. ٥١. ٥٨.
٣١ المرجع نفسه السطر ٣٨ - ٣٩، ٥١-٥٢، ٥٨-٧٤، وثيقة ١٩٤، السطر ٣٠.
٣٢ « بيلين ». حياة الروس في مصر // « كوفالفسكى » روسيا في الخارج. باريس، ١٩٧١، ص ٣٢١-٣٢٠.

في بداية ١٩٢١، قاموا بنقل سكان معسكر التل الكبير إلى معسكر آخر . وهو معسكر سيدي بشر الذي يقع على مقربة من الإسكندرية، والذي تم تقسيمه أيضا إلى ثلاثة أجزاء . وهكذا انتقل اللاجئون إلى سيدي بشر وانتقلت معهم الكنائس أيضا . وكان يخدم داخل الكنيسة المخصصة للعائلات وكنيسة المستشفى بالتناوب الأسقف ألكسندر فولكوفسكي ؛ وفي كنيسة معسكر الرجال خدم الأب إيبوليت شيشلوف وتجدر الإشارة إلى أنه إذا كان مجلس الإبراشية المنتخب قد تمكن من إدارة كنيسة معسكر العائلات، ففي كنيسة معسكر الرجال لم يكتب النجاح لتشكيل مثل هذا المجلس بأي حال من الأحوال . وصرح أب هذه الكنيسة دوبريتسكي : « من الملاحظ عدم الاكتراث بأمر الكنيسة»^{٧٣٣} .

في يونيو ١٩٢٢، تم إغلاق معسكر سيدي بشر وترحيل اللاجئين الروس الباقين فيه، إلى كل من بلغاريا وصربيا، ونقل الأدوات الكنسية إلى كنيسة القديس ألكسندر نيفسكي، التي أسستها البعثة الدينية الروسية بعد إجلائها من فلسطين .

انتقلت القنصلية الروسية بعد الثورة إلى «البيت الروسي» حيث توجد الكنيسة، فقد رفض الدبلوماسيون الروس الخدمة تحت السلطة السوفيتية، وظلت الحكومة المصرية تعترف بهم وتعامل معهم حتى أكتوبر ١٩٢٣، غير أنهم اضطروا إلى مغادرة الفيلا الفاخرة التي كانت مقر القنصلية الإمبراطورية بسبب نقص الأموال .

فيما بين عامي ١٩٢٠-١٩٢٢ كان هناك معسكر روسي آخر بالقرب من الاسماعيلية ويجانب قناة السويس . في ذلك المكان، تم تسكين «تلاميذ فيلق الدون» الذين تم إجلاؤهم من مدينة نوفوروسيسك . وهناك أقاموا كنيسة، حيث خدم فيها الأب «ديمتري ترويتسكي» . وقام الوصي فيروشكين القوزاقى الأورالى بتكوين جوقة رائعة، حتى أنها قامت بجولة في فلسطين، وجلبت من هناك أيقونة بركة البطريك الأرثوذكسى لدميانة المقدسية، وجزءاً من الصليب المقدس^{٧٣٤} .

٧٣٣ «فلاديمير بيلياكوف» «المدينة الروسية» في سيدي بشر . بعين مجلة «في المهجر» // الأرشيف الشرقي رقم ١٣، ٢٠٠٥ ص ٩٦ .

٧٣٤ «جوتشاروف يورى» . تلاميذ المدرسة العسكرية بالدون في مصر // أفريقيا بعين المهاجرين . موسكو ٢٠٠٢ . ص ٢٠-٢١ .

في عام ١٩٢٢ ، استقر المهاجرون الروس في القاهرة وقاموا بتأجير شقة فسيحة بالقرب من الكنيسة ، في منطقة مصر الجديدة الراقية ، وتم نقل كنيسة القديس نيكولاس^{٣٥} من العيادة الروسية إلى هناك .

خلاصة القول ، كان يتم تشييد كنائس أرثوذكسية في أماكن تجمع الروس سواء داخل المعسكرات أو في المدن المصرية الكبيرة . وقد عاشوا في الفترة ما بين الحربين العالميتين في مدينتي القاهرة والإسكندرية ، كما عاش المهاجرون الروس أيضا في مدينة بورسعيد غير أن أعدادهم هناك كانت محدودة ، ولم تكن كافية لتشييد كنيسة خاصة بهم .

كانت الخلافات الطائفية بين المجتمع المضيف والشتات ، تساعد على توحيد وتماسك الشتات وأشار ليفين أن : « الكنائس والمساجد والمعابد في الشتات لا تصبح مراكز للعبادة فقط ، ولكنها تتحول إلى مؤسسات اجتماعية تؤدي وظيفة تكاملية خاصة في الشتات»^{٣٦} .

هذه النتيجة ، يؤكدها تاريخ الشتات الروسي في مصر . فقد كانت الكنائس في القاهرة والإسكندرية التي تعمل تحت رعاية الكنيسة الأرثوذكسية في الخارج تساهم في تكتل وتوحيد الشتات الروسي ، غير أنه في يونيو ١٩٤٥ ، أصبح مصير الكنيسة في الإسكندرية السبب في شق وحدة صف الجالية الروسية . أثناء رحلة بطيريك موسكو وعموم روسيا أليكسي إلى منطقة الشرق الأوسط ، قام بزيارة مصر وكان ضمن برنامج إقامته في مصر زيارة الكنيسة الروسية التي تحمل اسم القديس ألكسندر نيفسكي في الإسكندرية ، والتي قام رئيسها الأب أليكسي ديختيريف بالتوبة وسمح له هو ورجال الدين والرعية بالانضمام تحت راية بطيريكية موسكو^{٣٧} .

كتب ديختيريف شارحاً هذه الخطوة : « لنبقى روس حتى النهاية فإننا نحتاج إلى الكنيسة الروسية والزعامة الروسية الروحية غير أن هذه الزعامه لم تشملنا ، فقد كنا وحيدين من الناحية الروحية وكان هذا سبب وضعنا المأساوي»^{٣٨} .

- ٣٥ «بوفكالو» الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في أفريقيا // آسيا وأفريقيا // آسيا وأفريقيا اليوم . رقم ٢٠٠٣ / ١ ص ٧٣ .
- ٣٦ « ليفين » . عقليّة الشتات (تحليل إجتماعي ثقافي) ، موسكو ٢٠٠١ ص ٣٩ .
- ٣٧ مجلة بطيريكية موسكو رقم ٩ ، ١٩٤٥ ، ص ٢٢ .
- ٣٨ «ألكسي ديختيريف» ، الأب ، فرحة غير عادية // مجلة بطيريكية موسكو، عدد ١٠ ، ١٩٤٥ . ص ١٣ .

في مساء ذلك اليوم الرابع عشر من يونية زار البطيريك أليكسي ، وفد من أبناء الرعية حيث أهداه الوفد لوحة تصور صعود الإله ، من عمل الفنان نيكييتا الذي كان ضمن الوفد . وفي اليوم التالي حصل رئيس الكنيسة على صك البطيرياكية بالمناولة الكنسية تحت إشراف بطيريكية موسكو^{٧٣٩} ، وتحولت كنيسة الإسكندرية إلى مقر للكنيسة الروسية الأرثوذكسية ، تحت قيادة بطيريك الروم الأرثوذكس بالأسكندرية وظلت على تلك الصفة حتى عام ٢٠٠٠ .

غير أن انتقال الكنيسة الروسية في الإسكندرية من فئة الكنائس الأرثوذكسية الروسية في الخارج ، إلى بطيريكية موسكو لم يحظ بتأييد كل أبناء الرعية . ولم يوافق على هذا الأمر أيضا بطيريك الروم الأرثوذكس خريستوفر ، والذي إقترح زيارة كنيسة القديس ستيفان أولاً في منطقة زيزينيا . بعد وقت قصير من مجيء الدوقة ميليسيا نيكولايفنا إلى الإسكندرية بصحبة ابنها الأمير رومان بتروفيتش^{٧٤٠} حصلت على إذن بفتح إبرشبية . وفي عام ١٩٤٧ ، ودخل شقة مستأجرة تم تأسيس كنيسة ، وخدم فيها الراهب القادم من إيطاليا زوسيم . وبحلول عام ١٩٥٢ ؛ وطبقاً لشهادة أحد المهاجرين يدعى ماركوف تم جمع الأموال لبناء كنيسة أرثوذكسية روسية في الإسكندرية^{٧٤١} لكن هذا المشروع لم يخرج للنور ، وربما يرجع السبب إلى قيام الثورة المصرية في عام ١٩٥٢ ، وفي عام ١٩٥٤ تم نقل الكنيسة من الشقة المستأجرة إلى فيلا أنيقة ، لكن في الرابع والعشرين من سبتمبر ١٩٦١ تم إغلاق الكنيسة . وعلى ما يبدو كان الأمريكمن في النقص الحاد في أعداد الرعية ، فسرعان ما إنكشنت هجرة الشتات الروسي البيضاء ؛ لأسباب طبيعية فعلى الأرجح ربما تكون قد تأثرت بمنافسة كنيسة بطيريكية موسكو لها . وقد انتقلت كل مقتنيات الكنيسة المغلقة لكنيسة القديس نيكولاس الكائنة في حي مصر الجديدة^{٧٤٢} .

- ٧٣٩ المرجع نفسه .
 ٧٤٠ الدوقة «مليسيا نيكولايفينا» ، أميرة الجبل الأسود (٢٦-٧-١٨٦٦ تسببتى- ٥-٩-١٩٥١ الإسكندرية) والمدفونة داخل سرداب الكنيسة الروحية في «كان» . زوجة الدوق «بيتر نيكولايفيتش» وأخت الدوقة «أنستازيا نيكولايفينا» . بعد وفاة زوجها (١٩٣١) سافرت من «فرنسا» إلى «إيطاليا» . وبعد الحرب العالمية الثانية إتجهت إلى مصر (الهجرة الروسية إلى فرنسا ، مجلد ٢ . موسكو ٢٠٠٩) .
 ٧٤١ أرشيف «الدوما» الروسي في الخارج ، موسكو ، ملف ٦٤ . «ماركوف» . وثيقة ١١ ، ٨ .
 ٧٤٢ «بومكالو» ، المرجع السابق ص ٧٣ .

بني المبنى الصغير لهذه الكنيسة متزامناً مع بناء ملجأ للروس في عام ١٩٥٧ بتمويل من الجمعية الخيرية الروسية. وقد أهدى الملك فاروق في عام ١٩٤٠ الجالية الروسية في القاهرة قطعة أرض للبناء عليها. يقع الملجأ والكنيسة في منزل رقم ١٢ بشارع أبو سمبل. وكانت الكنيسة تنتمي إلى الكنائس الأرثوذكسية الروسية في الخارج لكن فيما بعد وبحلول ١٩٨٠ لم يكن هناك أي تواجد للهجرة الروسية البيضاء بشكل فعلي، وتم تسليمها مع الملجأ لليونانيين. وقد عرض نائب بطريرك موسكو وعموم روسيا على آخر رئيس للجالية الروسية «فولكوف» أن يجعل الملجأ والكنيسة تحت وصايته، لكنه رفض بحجة أن الكاهن المبعوث من موسكو من البلاشفة^{٧٤٢}.

وهكذا اختفت من الوجود الكنيسة الروسية الوحيدة في القاهرة، ولكن بعض الروس واصلوا (ويواصلون حتى الآن) زيارتها، مؤكدين أن الكنيسة مليئة بصلوات مواطنينا المؤمنين. قام اليونانيون بعد ذلك بعمل توسيعات للكنيسة، ويوجد بها حتى الآن كثير من الأيقونات الروسية وبعضها ذات كتابات منقوشة. ويقام القداس داخل الكنيسة يوم الجمعة (يوم العطلة في مصر) والأحد الساعة العاشرة صباحاً باللغة العربية. وفي فبراير من عام ٢٠١٠، زار المؤلف هذه الكنيسة وحضر القداس.

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي زاد الاهتمام بالدين في روسيا بشكل حاد. وتناول هذه الظاهرة مواطنونا العاملين في مصر من موظفي السفارات والبعثات التجارية والعلميين داخل مدارس السفارة والصحفيين والسيدات المتزوجات من مصريين. ثم ظهرت في القاهرة طائفة أخرى من العمالة الروسية والأوكرانية المرتبطة بعقود عمل من الموسيقيين وراقصي الباليه والمدربين الرياضيين وبعض المتخصصين الآخرين. وبما أنه لا توجد كنيسة روسية في القاهرة، بدأ المؤمنون يرتادون الكنائس اليونانية^{٧٤٤} لحضور القداس والذي يقام بلغة غير مفهومة لهم. من ناحية أخرى، فبينما وصلت الكنيسة الروسية في الإسكندرية عملها باسم القديس ألكسندر نيفسكي (في عام ١٩٨٨ تم الإحتفال بألف عام على

٧٤٣ «فلاديمير بيلياكوف». مصر الروسية. موسكو ٢٠٠٨، ص ٢٢٣.

٧٤٤ عدا الإشارة إلى الكنيسة الروسية السابقة داخل الملجأ، يوجد في القاهرة ثلاث كنائس يونانية أخرى وهي كنيسة القديس «نيقولاى» في المجمع البطريركي بـ «الحزامى» والتي تم إنشاؤها عام ١٨٣٩ بأموال روسية. وهي مزينة بأيقونات روسية مزخرفة، وكنيسة القديس «جورج» في القاهرة القديمة والمقامة عام ٥٣٠ وحصلت على شكلها الحالي عام ١٩٠٩، وذلك بعد اندلاع حريق عدا ذلك الجبانة اليونانية في القاهرة القديمة، حيث تقع كنيسة «العذراء».

تعميد روسيا) لم يتبق هناك أي أحد من مواطنينا . فقد أغلق فرع البعثة التجارية وكذلك ممثلية الأسطول البحري ، وكان إجمالي الموظفين داخل القنصلية والمركز الثقافي للعلوم والفنون لا يتجاوز عشرة أشخاص . بالإضافة إلى هذا العدد ، كان يعيش في الإسكندرية حوالي ٢٥-٢٠ سيدة روسية متزوجات من مصريين . وهكذا اختمر تدريجيا في موسكو القرار الذي تم اتخاذه في بداية عام ١٩٩٩ بنقل مقر الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من الإسكندرية إلى القاهرة . وكان الدافع إلى ذلك ليس بسبب العدد الكبير للرعوية المتواجد في القاهرة فقط ، ولكن بسبب مشكله حياتية بحتة ظهرت مع كنيسة الإسكندرية فالبيت الذي تقع فيه الكنيسة قد تغير مالكة وبعد مرور ٩٠ عاماً كان من المستحيل إثبات ايجار الشقة الرخيص بطريقة قانونية ، فيما طالب المالك الجديد بحقه في استرجاع الشقة .

ولم يفكر أحد في القاهرة في بناء كنيسة خاصة ؛ نظراً لعدم توفر المال لذلك الأمر لدى بطيركية موسكو . وكذلك عدم وجود راع من شركات الأعمال الروسية الكبيرة التي قد تمول عملية البناء . في بادئ الأمر ، كان نائب بطيركية موسكو الأسقف ديمتري نيتسفيتايف ينوي تأجير شقة وتحويلها إلى كنيسة ، كما حدث في الإسكندرية .

لكن سرعان ما ظهرت فكرة أخرى ، فقد عرضت البطيركية اليونانية بالإسكندرية التخلي عن أحد المباني الكنسية المهجورة المتواجدة على أطراف القاهرة لصالح الكنيسة الروسية ولكن بشرط ، هو أن تقدم بطيركية موسكو لليونانيين أحد المباني الكنسية داخل العاصمة الروسية . وكانت الفكرة مغرية فالكنيسة الحقيقية أفضل من أي كنيسة داخل منزل ، ولكن تبقى مشكلة واحدة وهي أن المبنى المقترح من قبل اليونانيين ، الذي كان قد تم تشييده عام ١٩٢٠ ، لم يستخدم منذ ما يقرب من نصف قرن .

بعد ثورة ١٩٥٢ مباشرة تبنت الحكومة المصرية سياسة تقليص العمالة الأجنبية ، وبناءً على ذلك فقد تقلصت أعداد الأوروبيين بشدة ، وكان من ضمنهم اليونانيين ولكن بقيت الكنائس . وكان المبنى المقترح يحتاج لكثير من الإصلاحات . ولم تكن هناك أموال مخصصة لذلك . وبعد محادثات مكثفة شارك فيها المؤلف (كنت أعمل آنذاك مراسلاً لجريدة «العمل») تم اتخاذ قرار يقضي بتسليم المبنى ، وجمع الأموال لترميمه من جميع أنحاء العالم .

كان من الممكن أن تتأخر عملية الترميم لسنوات، لولا تواجد «دينيسينكو» أحد أبناء الجالية الروسية، والذي كان يرأس في ذلك الوقت فرع أضخم شركة بناء أمريكية في مصر «بكتل» وتولى المتخصصون التابعون لشركته تحديد حجم العمل، وإعداد دراسة الجدوى وساعد بنفسه في جمع الأموال لإتمام عملية الترميم. وقد كرس بطيرك الإسكندرية اليونانى وعموم أفريقيا «بيوتر السابع» الكنيسة الروسية الواقعة في ٤٥ شارع المسيري في حى الزيتون بالقاهرة في نوفمبر ٢٠٠٠ للقديس ديمتري سولونسكى . وقد حضر الاحتفال سفراء الدول الأرثوذكسية، ووفد من بطيركية موسكو^{٧٤٥} وتعين إغلاق كنيسة الإسكندرية .

يقام القداس داخل الكنيسة الروسية بالقاهرة مرتان أسبوعياً وذلك يومي الجمعة والأحد وفي الأعياد، وكذلك في تلك الأعياد التي توافق أيام أخرى في الأسبوع. ويتردد على الكنيسة مواطنون من روسيا و أوكرانيا وبيلاروسيا و صربيا وبلغاريا. ومن الجدير بالذكر أنه على مدار ما يقرب من قرن على وجود الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في مصر، لم تكن هناك أية محاولات لجذب السكان المحليين إليها؛ فالكنائس الروسية كانت تقتصر على خدمة مواطنيها ومواطني البلاد الأرثوذكسية الأخرى.

٧٤٥ لمزيد من التفاصيل انظر : «فلاديمير بيلياكوف» . الطريق إلى المعبد // « ترود » ١٢-٥-٢٠٠٠ .

الفهرس

رقم المقال	عنوان المقال	اسم المؤلف	رقم الصفحة
	مقدمه بقلم الدكتور حسين الشافعي .		٥
١	لقاءات مع «جمال عبد الناصر» ، من أرشيف دبلوماسي سوفيتي.	فلاديمير بيلياكوف	١١
٢	مهمة البارون طونوس ، مرور ٢٢٩ عاماً على تعيين أول قنصل روسي في مصر	ديميتري فرومين	٢٩
٣	القوات المصرية في شبه «جزيرة القرم» والحرب الروسية التركية (١٨٧٧-١٨٧٨)	جينادي جورياتشكين	٥١
٤	«المدينة الروسية» في سيدى بشر (١٩٢٠-١٩٢٢) وفقاً لما ورد على صفحات مجلة «في المهجر»	فلاديمير بيلياكوف	٦٧
٥	المهاجرون الروس في مصر عام ١٩٢٠	فلاديمير بيلياكوف	١١٥
٦	تاريخ موجات الهجرة الروسية إلى مصر	فلاديمير بيلياكوف	١٣٣
٧	في خدمة الملك المصري من مذكرات «أناتولى ماركوف»	فلاديمير بيلياكوف	١٣٩
٨	من أوروبا إلى أوروبا عبر أفريقيا جمهورية مصر العربية - قاعدة ترحيل أسرى الحرب السوفيت السابقين العائدين إلى الوطن (١٩٤٤-١٩٤٥) .	فلاديمير بيلياكوف	١٧١
٩	بين الغرباء «الأسرى الأتراك في روسيا: ١٨٧٧-١٨٨٠»	فلاديمير بيلياكوف	١٨٣
١٠	طلاب في قناة السويس الهجرة في عيون المراهقين	فلاديمير بيلياكوف	١٨٩
١١	الفتان أ.ي. بيليبين في مصر	فلاديمير بيلياكوف	٢٠١
١٢	في ضيافة الملك البريطاني مذكرات الجنرال ف.ب. ريربرج حول ترحيل اللاجئين الروس إلى مصر	فلاديمير بيلياكوف	٢١١
١٣	روسيا وسيناء خبايا وأسرار تفصح عنها مخطوطات سيناء !!!	فلاديمير بيلياكوف	٢٢٣
١٤	رومل والعبيد الروس : رحلة العودة الى الوطن	فلاديمير بيلياكوف	٢٤٥
١٥	تاريخ الصحافة الروسية في مصر	فلاديمير بيلياكوف	٢٦٩
١٦	روسيا يعيون مصري رحلة محمد طلعت إلى سانت بطرسبورج ما بين ١٩٠٦ - ١٩٠٧	جينادي جورياتشكين	٢٧٧
١٧	لم يكن دبلوماسيا فحسب ... مرور ١٥٧ عاماً على ميلاد أ.أ. سميرنوف	جينادي جورياتشكين	٢٩١

رقم المقال	عنوان المقال	اسم المؤلف	رقم الصفحة
١٨	الأمراء المصريون في روسيا	جينادي جورباتشكين	٣١٥
١٩	ستالينجراد تفتح الباب بمناسبة مرور ٥٦ عاماً على إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي ومصر	جينادي جورباتشكين	٣٢٧
٢٠	كيف حاول الاتحاد السوفيتي التغلغل إلى مصر طبقاً لرواية المهاجر الأبيض	ألكسي أنتوشين	٣٣٥
٢١	معلومات عن الخليفة المنصور في مخطوطة من كتاب «مختصر البلدان» بار جبري	فيرونيك كوناكوف	٣٤٥
٢٢	أرشيفات خفر عنق لقطات من يوميات البعثة الأثرية في الجيزة	إلينورا كوميشيفا	٣٥١
٢٣	اللاجئون السياسيون الروس في مصر في مطلع القرن العشرين.	فلاديمير بيلياكوف	٣٦٩
٢٤	تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في مصر.	فلاديمير بيلياكوف	٣٨٩

من إصداراتنا





**رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
دكتور حسين الشافعي**